فتح المجيد

شرح

كتاب التوحيد

تأليف

المجدد الثاني الشيخ العلامة

عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب

وعليه

حاشية المستفيد

على مواضع من فتح المجيد

للشيخ / عبد الله بن إبراهيم القرعاوي

دار الطرفين

دار العليان

ح عمر بن إبراهيم بن عبدالله التويجري، ١٤١٩هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
القرعاوي، عبدالله بن إبراهيم بن عثمان
حاشية المستفيد على مواضع من فتح المجيد - بريدة
٧٣٩ ص، ١٧ × ٢٤سم
ردمك ٧-٠٤٨-٣٥-٩٩٦٠
١- الخطب الدينية ٢- الوعظ والإرشاد أ - العنوان
ديوي ٢٤٠ ١٩/١٥٩٩
رقم الإيداع: ١٩/١٥٩٩
ردمك: ٧-٠٤٨-٣٥-٩٩٦٠

خصم خاص ٣٠٪ لفاعلي الخير

خصم خاص للاستفسار
ص.ب: ٣٠٨٨

الطبعة الأولى
١٤١٩هـ

دار الطرفين
الطائف - شارع خالد بن الوليد
هاتف ٧٣٢٩٥٧٢ - فاكس: ٧٤٦٣٦٨٨ - جوال ٠٥٥٧٠٤٨٠٨
ص.ب: ٢٥٧٩

دار العليان
القصيم - بريدة
ت: ٠٦٣٢٣٠٢٤٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين وأشهد أن لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم وبارك عليه وعلى إخوانه من النبيين والمرسلين.

أما بعد..

فإن الله تعالى بمنّه وكرمه يسَّر لي قراءة «فتح المجيد» تأليف العالم العلاَّمة شيخ الإسلام عبدالرحمن بن حسن آل الشيخ ـ رحمه الله تعالى ـ «شرح كتاب التوحيد» تأليف المجدد لمعالم ما اندرس من الدين في القرن الثاني عشر من الهجرة، شيخ الإسلام والمسلمين العالم العلاَّمة الهمام محمد بن عبدالوهاب ـ رحمه الله تعالى وأسكنه الفردوس الأعلى ـ. وفي قراءتي لهذا الكتاب نفعني الله تعالى به وزادني علماً والحمد لله على ذلك وغيرها من النعم. أسأل الله تعالى أن يزيدني علماً نافعاً.

ولا ريب أن فتح المجيد مصنف جليل وكتاب نافع مفيد يحتاج إلى قراءته كل مسلم وذلك لما تضمنه واشتمل عليه من تقرير التوحيد وتوضيحه، وحماية جناب التوحيد وحماه. والتحذير من الشرك بأنواعه ووسائله الموصلة إليه وسدّ كل طريق يوصل إليه، فهو من أنفع الكتب المؤلفة بعد كتاب الله عز وجل. أنصح كل مسلم أن يقرأ فيه بتدبر وتفكر، ثم إني في أثناء قراءتي لهذا الكتاب جعلت حواشي على بعض الأبواب لنفسي لأستفيد منها، فطُلب مني الإذن في نقلها من كتابي وكتابتها، فأذنت للأخ سليمان بن عبدالعزيز السعوي بنقلها من كتابي وكتابتها بشرط أن لا يُزاد فيها ولا يُنقص منها، ولا يُحتفظ بحقوق

طبعها وسميتها «**حاشية المستفيد على مواضع من فتح المجيد**».

أسأل الله تعالى أن يرزقنا علماً نافعاً ورزقاً طيباً وعملاً صالحاً متقبلاً، إنه ولي ذلك والقادر عليه وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.

قال ذلك عبدالله بن إبراهيم القرعاوي
حرر ١٤١٦/١/٥هـ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله ربِّ العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عُدْوانَ إلا على الظالمين، كالمبتدعة والمشركين.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريكَ له، إلٰه الأولين والآخرين، وقَيُّوم السماوات والأرضين.

وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله، وخيرتُه من خلقه أجمعين.

اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وأصحابه ومَنْ تَبعهم بإحسان إلى يوم الدين. وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد: فإن كتابَ التوحيد ـ الذي ألَّفه الإمام شيخُ الإسلام: محمد بن عبدالوهاب أجزل الله له الأجر والثواب، وغفر له ولمن أجابَ دعوته إلى يوم يقوم الحساب ـ قد جاء بديعاً في معناه: من بيان التوحيد ببراهينه، وجمع جُملاً من أدلته لإيضاحه وتبيينه، فصار عَلماً للموحِّدين، وحُجَّة على الملحدين، فانتفع به الخلق الكثير، والجمُّ الغفير.

فإن هذا الإمام رحمه الله في مبدإ مَنْشئه قد شرح الله صدره للحق المبين، الذي بعث الله به المرسلين: من إخلاص العبادة بجميع أنواعها لله رب العالمين، وإنكار ما كان عليه الكثير من شرك المشركين، فأعلى الله همته، وقوَّى عزيمته، وتصدى لدعوة أهل نجدٍ إلى التوحيد الذي هو أساس الإسلام والإيمان، ونهاهم عن عبادة الأشجار والأحجار، والقبور والطواغيت والأوثان، وعن الإيمان بالسحرة والمنجمين والكهان، فأبطل الله بدعوته كل بدعة وضلالة يدعو إليها كل شيطان، وأقام الله به عَلم الجهاد، وأدْحَضَ به شُبَه المعارضين من أهل الشِّرك

والعِناد، ودانَ بالإسلام أكثر أهل تلك البلاد، الحاضر منهم والباد، وانتشرت دعوته ومؤلفاته في الآفاق، حتى أقرَّ له بالفضل من كان من أهل الشقاق، إلا من استحوذ عليه الشيطان، وكرَّه إليه الإيمان، فأصر على العناد والطغيان.

وقد أصبح أهل جزيرة العرب بدعوته، كما قال قتادة رحمه الله عن حال أول هذه الأمة: «إن المسلمين لما قالوا: لا إله إلا الله، أنكر ذلك المشركون وكبرت عليهم، وضاق بها إبليس وجنوده. فأبىٰ الله إلا أن يُمضيها ويظهرها، ويُفْلِجها وينصرها على من ناوأها. إنها كلمة من خاصم بها فَلَج، ومن قاتل بها نُصر، إنما يعرفها أهل هذه الجزيرة التي يقطعها الراكب في ليالٍ قلائل، ويسيرٍ من الدهر، في فِئامٍ من الناس، لا يعرفونها ولا يُقِرُّون بها».

وقد شرح الله صدور كثير من العلماء لدعوته، وسرُّوا واستبشروا بطلعته، وأثنوا عليه نثراً ونظماً.

فمن ذلك ما قاله عالم صنعاء: محمد بن إسماعيل الأمير في هذا الشيخ رحمه الله تعالى:

وقد جاءتِ الأخبارُ عنه بأنه ... يُعيد لنا الشرعَ الشريفَ بما يبدي
ويَنشر جهراً ما طَوَى كلُّ جاهل ... ومُبتدعٍ منه، فوافق ما عندي
ويعمر أركانَ الشريعة هادماً ... مَشاهدَ، ضَلَّ الناس فيها عن الرُّشْدِ
أعادوا بها معنى سُواع ومثله ... يَغُوث وَوَدٌّ، بئس ذلك من وَدِّ
وقد هتفوا عند الشدائد باسمها ... كما يهتفُ المُضطر بالصّمدِ الفردِ
وكم عقروا في سوحها من عَقيرة ... أُهلَّت لغير الله جَهراً على عمد
وكم طائفٍ حولَ القبورِ مُقبِّلٍ ... ومُستَلِم الأركان منهنّ باليد

وقال شيخنا عالم الأحساء أبوبكر حسين بن غَنّام رحمه الله تعالى فيه:

لقد رفعَ المولى به رُتبة الهدى ... بوقتٍ به يَعلىَ الضلالُ ويُرفَع
سقاه نميرَ الفهم مولاه، فارتوَى ... وعــام بتيّــار المعــارف يقطــع
فأحيا به التوحيد بعد اندراسه ... وأوهَى به من مطلع الشرك مهيع
سما ذِرْوة المجد التي ماارتقى لها ... سواه، ولا حاذَى فناها سَميْذَع
وشمَّـر فـي منهـاجِ سُنـةِ أحمـدٍ ... يشيد ويحيي ما تعفَّى، ويرفع
ينـاظـر بـالآيـات والسُّنَّـة التـي ... أُمـرنـا إليهـا فـي التنـازع نَـرجعُ
فأضحت به السمحاءُ يَبسِمُ ثَغرها ... وأمسـى مُحيَّـاهـا يُضـيء ويَلْمَـعُ
وعـاد بـه نهـج الغـوايـة طـامسـاً ... وقد كان مسلوكاً به الناس تَرْتع
وجرَّت به نجدٌ ذيولَ افتخارها ... وحُـقَّ لهـا بـالألْمعِـيِّ تَـرفُّـع
فـآثـاره فيهـا سَـوامٍ سـوافِـرٌ ... وأنـواره فيهـا تضـيء وتَلْمَـعُ

وأما كتابه المذكور فموضوعه في بيانِ ما بعث الله به رسله: من توحيد العبادة، وبيانه بالأدلة من الكتاب والسُّنَّةِ، وذِكْر ما ينافيه من الشرك الأكبر، أو ينافي كماله الواجب من الشرك الأصغر ونحوه، وما يقرُب من ذلك أو يوصل إليه.

وقد تصدَّى لشرحه حفيد المصنف، وهو الشيخ سليمان بن عبدالله رحمه الله تعالى، فوضع عليه شرحاً أجاد فيه وأفاد، وأبرز فيه من البيان ما يجب أن يطلب منه ويراد، وسماه «تيسير العزيز الحميد، في شرح كتاب التوحيد».

وحيث أطلق «شيخ الإسلام» فالمراد به: أبوالعباس أحمدُ بن عبدالحليم بن عبدالسلام بن تيمية، و«الحافظ» فالمراد به: أحمد بن حجر العسقلاني.

ولما قرأتُ شرحه رأيتُه أطنبَ في مواضع، وفي بعضها تكرار

يستغنى بالبعض منه عن الكل، ولم يُكمله، فأخذت في تهذيبه وتقريبه وتكميله، وربما أدخلت فيه بعض النقول المستحسنة تتميماً للفائدة، وسميته «فتح المجيد بشرح كتاب التوحيد».

وأسأل الله أن ينفع به كل طالب للعلم ومستفيد، وأن يجعلَهُ خالصاً لوجهه الكريم، وموصلاً مَنْ سَعىٰ فيه إلى جنات النعيم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

قال المصنف رحمه الله تعالى:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ابتدأ كتابه بالبسملة اقتداءً بالكتاب العزيز، وعملاً بحديث **«كل أمر ذي بال لا يُبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أقْطَعُ»** أخرجه ابن حبان من طريقين. قال ابن الصلاح: والحديث حسن. ولأبي داود وابن ماجه **«كل أمرٍ ذي بالٍ لا يبدأ فيه بالحمد لله أو بالحمد فهو أقطع»** ولأحمد **«كل أمرٍ ذي بالٍ لا يُفتتح بذكر الله فهو أبْتَرُ أو أقطع»** وللدارقطني عن أبي هريرة مرفوعاً **«كل أمرٍ ذي بالٍ لا يبدأ فيه بذكر الله فهو أقطع»**.

والمصنف قد اقتصر في بعض نسخه على البسملة، لأنها من أبلغ الثناء والذكر للحديث المتقدِّم. وكان النبيُّ ﷺ يقتصر عليها في مراسلاته، كما في كتابه لِهِرَقْل عظيم الروم. ووقع لي نسخة بخطه رحمه الله تعالى بدأ فيها بالبسملة، وثنَّى بالحمد والصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

وعلى هذا: فالابتداء بالبسملة حقيقي، وبالحمدلة نِسْبيٌّ إضافي، أي بالنسبة إلى ما بعد الحمد يكون مبدوءاً به.

والباء في «بسم الله» متعلقة بمحذوف، واختار كثير من المتأخرين كونه فعلاً خاصاً متأخراً.

أما كونه فعلاً، فلأن الأصل في العمل للأفعال.

وأما كونه خاصاً، فلأن كل مبتدئٍ بالبسملة في أمر يُضْمِرُ ما جَعل البسملة مبدأً له.

وأما كونه متأخراً فلدلالته على الاختصاص، وأدخل في التعظيم، وأوفق للوجود، ولأنَّ أهمَّ ما يُبدأ به ذِكرُ اللهِ تعالى.

وذكر العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى لحذف العامل فوائد.

منها: أنه موطن لا ينبغي أن يتقدم فيه غير ذكر الله.

ومنها: أن الفعل إذا حُذف صح الابتداء بالبسملة في كل عمل وقولٍ وحركة. فكان الحذفُ أعمّ. انتهى ملخصاً.

وباء «بسم الله» للمصاحبة. وقيل: للاستعانة: فيكون التقدير: بسم الله أُؤَلِّفُ حالَ كوني مستعيناً بذكره، متبرِّكاً به.

وأما ظهوره في ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١] وفي ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا﴾ [هود: ٤١] فلأنَّ المقام يقتضي ذلك كما لا يخفى.

والاسم مشتق من السُّمُوّ، وهو العلو. وقيل: من الوَسْم وهو العلامة، لأن كل ما سُمِّي فقد نُوِّه باسمه ووُسِمَ.

قوله: «الله» قال الكِسائي والفَرَّاء: أصله الإِلٰه، حذفوا الهمزة وأدغموا اللام في اللام، فصارتا لاماً واحدة مشدَّدة مُفخَّمة.

قال العلامة ابن القيم رحمه الله: الصحيح: أنه مشتق، وأن أصله الإِلٰه، كما هو قول سيبويه وجمهور أصحابه إلا من شَذَّ، وهو الجامع لمعاني الأسماء الحسنى والصفات العُلى.

والذين قالوا بالاشتقاق، إنما أرادوا أنه دال على صفة له تعالى، وهي الإِلٰهية، كسائر أسمائه الحسنى، كالعليم، والقدير، والسميع، والبصير، ونحو ذلك[1]، فإن هذه الأسماء مشتقة من مصادرها بلا ريب، وهي قديمة، ونحن لا نعني بالاشتقاق إلا أنها ملاقيةٌ لمصادرها في اللفظ والمعنى، لا أنها متولِّدة منه تَولُّد الفَرْع من أصله.

وتسمية النحاة للمصدر والمشتق منه: أصلاً وفرعاً، ليس معناه: أن

---

(١) ومن الأدلة على ذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾ مع قوله عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾.

أحدهما متولِّد من الآخر، وإنما هو باعتبار أن أحدهما يتضمن الآخر وزيادة.

قال أبوجعفر بن جرير «الله» أصله «الإلٰه» أسقطت الهمزة التي هي فاء الاسم، فالتقت اللام التي هي عين الاسم، واللام الزائدة وهي ساكنة، فأدغمت في الأخرىٰ، فصارتا في اللفظ لاماً واحدة مشدَّدة.

وأما تأويل «الله» فإنه على معنى ما روي لنا عن عبدالله بن عباس قال: «هو الذي يألهه كل شيء، ويعبده كل خلق» وساق بسنده عن الضحاك عن عبدالله بن عباس قال: «الله ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين» فإن قال لنا قائل: وما دلَّ على أن الألوهية هي العبادة، وأن الإله هو المعبود، وأن له أصلاً في فَعِل ويَفْعَل؛ وذكر بيت رؤبة بن العجاج:

لله دَرّ الغـــانيـــات المُـــدّهِ   سَبَّحنَ واستَرْجَعْنَ مِنْ تَألُّهِي

يعني من تَعَبُّدي وطلبي اللهَ بعملي.

ولا شك أن التألُّه التفعل، من أله يأله، وأن معنى «أله» إذا نطق به: عبدَ اللهَ. وقد جاء منه مصدر يدل على أن العرب قد نطقت به بفعل يفعَل بغير زيادة. وذلك ما حدثنا به سفيان بن وكيع ـ وساق السند إلى ابن عباس «أنه قرأ ﴿ويذرك وإلاهتك﴾ [الأعراف: ١٢٧] قال: عبادتك، ويقول: إنه كان يُعبَد ولا يَعْبُد» وساق بسند آخر عن ابن عباس: ﴿ويذرك وإلاهتك﴾ قال: إنما كان فرعون يُعبد ولا يَعبد. وذكر مثله عن مجاهد، ثم قال: فقد بيَّن قولُ ابن عباس ومجاهد هذا: أن «أله»: عبد، وأن الإلاهة مصدره، وساق حديثاً عن أبي سعيد مرفوعاً: «**إن عيسى أسلمته أمه إلى الكتَّاب ليعلمه، فقال له المعلم: اكتب بسم الله، فقال عيسى: أتدري ما الله؟ الله إلٰه الآلهة**».

قال العلامة ابن القيم رحمه الله: لهذا الاسم الشريف عشر خصائص لفظية، وساقها. ثم قال: وأما خصائصه المعنوية، فقد قال أعلم الخلق ﷺ: «**لا أُحْصِي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك**» وكيف نحصي خصائص اسم لمسماه كل كمال على الإطلاق، وكل مدح وحمد، وكل ثناءٍ وكل مجد، وكل جلال وكل كمال، وكل عزٍّ وكل جمال، وكل خير وإحسان، وجود وفضل وبِرٍّ، فله ومنه، فما ذُكر هذا الاسم في قليل إلا كَثّره، ولا عند خوف إلا أزاله، ولا عند كرْبٍ إلا كشفه، ولا عند هَمٍّ وغَمٍّ إلا فَرَّجه، ولا عند ضيق إلا وَسَّعه، ولا تعلق به ضعيف إلا أفاده القوة، ولا ذليل إلا أناله العزّ، ولا فقير إلا أصاره غنياً، ولا مستوحش إلا آنسه، ولا مغلوب إلا أيده ونصره، ولا مضطر إلا كشف ضره، ولا شريد إلا آواه، فهو الاسم الذي تكشف به الكربات، وتستنزل به البركات، وتجاب به الدعوات، وتقال به العثرات، وتستدفع به السيئات، وتستجلب به الحسنات. وهو الاسم الذي قامت به الأرض والسماوات، وبه أنزلت الكتب، وبه أرسلت الرسل، وبه شرعت الشرائع، وبه قامت الحدود، وبه شرع الجهاد، وبه انقسمت الخليقة إلى السعداء والأشقياء، وبه حَقَّت الحاقة، ووقعت الواقعة، وبه وُضعت الموازين القِسْط، ونصب الصراط، وقام سوق الجنة والنار، وبه عُبد رب العالمين وحُمد، وبحقه بعثت الرسل، وعنه السؤال في القبر، ويوم البعث والنشور، وبه الخصام، وإليه المحاكمة، وفيه الموالاة والمعاداة، وبه سَعِد من عرفه وقام بحقه، وبه شَقِيَ من جهله وترك حقه، فهو سر الخلق والأمر، وبه قاما وثبتا، وإليه انتهيا، فالخلق به وإليه ولأجله. فما وجد خلق ولا أمر ولا ثواب ولا عقاب إلا مبتدئاً منه منتهياً إليه، وذلك موجبه ومقتضاه ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ

﴿فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران: ١٩١] إلى آخر كلامه رحمه الله تعالى.

قوله: «الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» قال ابن جرير: حدثني السريُّ بن يحيى، حدثنا عثمان بن زُفَر، سمعت العَرْزميَّ يقول: «الرحمن بجميع الخلق، والرحيم بالمؤمنين». وساق بسنده عن أبي سعيد - يعني الخُدرِيّ - قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن عيسى بن مريم قال: الرحمن: رحمن الآخرة والدنيا، والرحيم: رحيم الآخرة**».

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: فاسمه «الله» دل على كونه مألوهاً معبوداً، يألهه الخلائق: محبة وتعظيماً وخضوعاً، ومفزعاً إليه من الحوائج والنوائب، وذلك مستلزم لكمال ربوبيته ورحمته المتضمنين لكمال الملك والحمد، وإلٰهيته[(١)] وربوبيته[(٢)] ورحمانيته[(٣)] وملكه[(٤)]: مستلزم لجميع صفات كماله، إذ يستحيل ثبوت ذلك لمن ليس بحي،

(١) فأمرهم بإلاهيته وأعانهم ووفقهم وهداهم، وأضلهم بربوبيته، وأثابهم وعاقبهم بملكه وعدله. فالدين والشرع والأمر والنهي مظهره وقيامه من صفة الإلٰهية

(٢) والإيجاد والتدبير والفعل من صفة الربوبية، فهو رب كل شيء وخالقه والقادر عليه، لا يخرج شيء عن ربوبيته، وكل من في السموات والأرض عبدٌ له في قبضته وتحت قهره، فاجتمعت المخلوقات بصفة الربوبية وافترقوا بصفة الإلٰهية، فألهه وحده السعداء وأقروا له طوعاً بأنه لا إله إلاَّ هو الذي لا تنبغي العبادة والتوكل والرجاء والخوف والحب والإنابة والإخبات والخشية والتذلل والخضوع إلا له، وأشرك معه في ذلك المشركون، فالإلٰهية هي التي فرقتهم كما أن الربوبية هي التي جمعتهم.

(٣) وأما الرحمة فهي السبب الذي بين الله وبين عباده بها أرسل إليهم رسله، وأنزل عليهم كتبه وبها هداهم وبها أسكنهم دار ثوابه، وبها رزقهم وعافاهم وأنعم عليهم.

(٤) ومن صفة الملك الجزاء بالثواب والعقاب، والجنة والنار، فهو مالك يوم الدين.

ولا سميع، ولا بصير، ولا قادر، ولا متكلم، ولا فعال لما يريد، ولا حكيم في أقواله وأفعاله، فصفات الجلال والجمال: أخص باسم «الله» وصفات الفعل والقدرة والتفرد بالضر والنفع والعطاء والمنع ونفوذ المشيئة وكمال القوة وتدبير أمر الخليقة: أخص باسم «الرب» وصفات الإحسان والجود والبر والحنان والمنة والرأفة واللطف: أخص باسم «الرحمن».

وقال رحمه الله أيضاً: «الرحمن»[١] دال على الصفة القائمة به سبحانه و«الرحيم»[٢] دال على تعلقها بالمرحوم. وإذا أردت فهم هذا، فتأمل قوله تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ۝٤٣﴾ [الأحزاب: ٤٣] ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١١٧﴾ [التوبة: ١١٧]، ولم يجيء قطُّ رحمانٌ بهم.

وقال: إن أسماء الرب تعالى هي أسماء ونعوت، فإنها دالة على صفات كماله، فلا تنافي فيها بين العلمية والوصفية. فالرحمن اسمه تعالى ووصفه، فمن حيث هو صفة جرى تابعاً لاسم الله، ومن حيث هو اسم ورد في القرآن غير تابع، بل ورد الاسم العلم، كقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥]، انتهى ملخصاً.

---

(١) الرحمن يدل على الصفة الذاتية من حيث اتصافه تعالى بالرحمة.

(٢) والرحيم يدل على الصفة الفعلية من حيث إيصاله الرحمة إلى المرحوم.

[الحمدُ للهِ، وصَلى اللهُ على محمد وعلى آلهِ وسلم]

قوله: «**الحمد لله**»[١] معناه: الثناء بالكلام على الجميل الاختياري[٢] على وجه التعظيم. فمورده: اللسان والقلب. والشكر يكون باللسان والجنان والأركان، فهو أعمُّ من الحمد مُتَعَلّقاً، وأخص منه سبباً؛ لأنه يكون في مقابلة النعمة، والحمد أعم سبباً وأخصُّ مُتعلقاً؛ لأنه يكون في مقابلة النعمة وغيرها، فبينهما عموم وخصوص وجهي، يجتمعان في مادة، وينفرد كل واحد عن الآخر في مادة[٣].

قوله: «**وصلى الله على محمد وعلى آله وسلم**» أصح ما قيل في معنى

---

(١) قال الشيخ تقي الدين ـ رحمه الله ـ: الحمد هو ذكر صفات المحمود مع حبه وتعظيمه وإجلاله. فإن تجرد عن ذلك فهو مدح، فالفرق بينهما أن الإخبار عن محاسن الغير إما أن يكون إخباراً مجرداً من حب وإرادة أو مقروناً بحبه وإرادته فإن كان الأول فهو مدح وإن كان الثاني فهو الحمد.

(٢) الصفات الجميلة والأفعال الحسنة في مقابلة نعمة أسداها المحمود على الحامد أو لم يكن، والثّناء بما ليس للمرء فيه اختيار كالجمال ونحوه يسمىٰ مدحاً لا حمداً.

(٣) الحمد أعم من جهة أسبابه لأن الحمد يتضمن المدح والثناء على المحمود بذكر محاسنه سواء كان الإحسان إلى الحامد أو لم يكن، فمن هذا الوجه الحمد أعم من الشكر لأنه يكون على المحاسن والإحسان، فإن الله تعالى يحمد على ما له من الأسماء الحسنىٰ والمثل الأعلى وما خلقه في الآخرة والأولىٰ. وأما الشكر فإنه لا يكون إلا على الإنعام فهو أخص من الحمد من هذا الوجه. وأعم من الحمد من جهة أنواعه لكونه يكون بالقلب واليد واللسان قال الله تعالى: ﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾.

صلاة الله على عبده: ما ذكره البخاري رحمه الله تعالى عن أبي العالية قال: «صلاة الله على عبده: ثناؤه عليه عند الملائكة» وقرره ابن القيم رحمه الله ونصره في كتابيه«جلاء الأفهام» و«بدائع الفوائد».

قلت: وقد يراد بها الدعاء، كما في المسند عن علي مرفوعاً «**الملائكة تصلي على أحدكم مادام في مصلاه: اللهم اغفر له، اللهم ارحمه**».

قوله: «**وعلى آله**» أي أتباعه على دينه. نص عليه الإمام أحمد هنا. وعليه أكثر الأصحاب. وعلى هذا: فيشمل الصحابة وغيرهم من المؤمنين.

كتـــاب التوحـــيد[١]

كتاب: مصدر كتب يكتب كتاباً، وكتابة، وكتباً، ومدار المادة على الجمع. ومنه: تكتَّب بنو فلان: إذا اجتمعوا. والكتيبة: لجماعة الخيل، والكتابة بالقلم: لاجتماع الكلمات والحروف. وسمي الكتاب كتاباً: لجمعه ما وُضِع له.[٢]

والتوحـــيد نوعـــان:

توحيد في المعرفة والإثبات، وهو توحيد الربوبية والأسماء والصفات. وتوحيد في الطلب والقصد، وهو توحيد الإلهية والعبادة.

قال العلامة ابن القيم رحمه الله: وأما التوحيد الذي دعت إليه الرسل، ونزلت به الكتب، فهو نوعان: توحيد في المعرفة والإثبات،

---

(١) والتوحيد مصدر وحد يوحد توحيداً. وسمي دين الإسلام توحيداً: لأن مبناه على أن الله واحد في ذاته وأسمائه وصفاته لا نظير له. وواحد في ملكه وأفعاله لا شريك له. وواحد في إلاهيته وعبادته لا ند له. وإلى هذه الأنواع الثلاثة ينقسم توحيد الأنبياء والمرسلين قال العلامة ابن القيم:

والعلـــم أنـــواع ثـــلاث مـــا لهـــا ... مـــن رابـــع والحـــق ذو تبيـــان

علـــم بـــأوصـــاف الإلـــه وفعلـــه ... وكـــذلـــك الأسمـــاء للـــرحمـــن

هذان نوعان: توحيد الربوبية، والأسماء والصفات ولذلك جعل بعضهم التوحيد نوعان نوع (في المعرفة والإثبات) وهو ما جاء في هذا البيت. والنوع الثاني ما يأتي وهو قوله:

والأمر والنهي الذي هو دينه ... وجـــزاءه يـــوم المعـــاد الثـــانـــي

وهذا النوع الثاني (توحيد في الطلب والقصد).

(٢) أي اصطلاحاً وهو مكتوب جامع لمسائل أنواع التوحيد.

وتوحيد في الطلب والقصد.

فالأول: هو إثبات حقيقة ذات الرب تعالى وصفاته وأفعاله وأسمائه، وتكلمه بكتبه، وتكليمه لمن شاء من عباده، وإثبات عموم قضائه وقدره وحكمته، وقد أفصح القرآن عن هذا النوع جدّ الإفصاح، كما في أول سورة الحديد[١]، وسورة طه[٢]، وآخر الحشر[٣]، وأول تنزيل: السجدة[٤]، وأول آل عمران[٥]، وسورة الإخلاص بكمالها[٦]، وغير ذلك.

النوع الثاني: ما تضمنته سورة ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ [الكافرون: ١] وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ۝٦٤﴾ [آل عمران: ٦٤]. وأول سورة تنزيل الكتاب، وآخرها. وأول سورة المؤمن، ووسطها، وآخرها. وأول سورة الأعراف، وآخرها. وجملة سورة الأنعام، وغالب سور القرآن. بل كل سورة في القرآن فهي متضمنة لنوعي التوحيد، شاهدة به داعية إليه.

---

(١) ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ﴾ الآية.

(٢) ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ الآية.

(٣) ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ۝٢٢﴾ الآيات.

(٤) ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ الآية.

(٥) ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۝﴾.

(٦) ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾.

فإن القرآن إما خبر عن الله وأسمائه وصفاته وأفعاله وأقواله، فهو التوحيد العلمي[١] الخبري، وإما دعوة إلى عبادته وحده لا شريك له وخَلْع ما يُعْبَد من دونه، فهو التوحيد الإرادي الطلبي[٢]، وإما أمر، ونهي[٣]، وإلزام بطاعته وأمره ونهيه، فهو حقوق التوحيد ومكملاته، وإما خبر عن إكرام أهل التوحيد وما فعل بهم في الدنيا وما يكرمهم به في الآخرة[٤]، فهو جزاء توحيده، وإما خبر عن أهل الشرك وما فعل بهم في الدنيا من النكال وما يَحُلّ بهم في العُقْبَى من العذاب[٥]، فهو جزاء من خَرج عن حكم التوحيد، فالقرآن كله في التوحيد وحقوقه وجزائه، وفي شأن الشرك وأهله وجزائهم. انتهى.

قال شيخ الإسلام: التوحيد الذي جاءت به الرسل، إنما يتضمن إثبات الإلٰهية لله وحده، بأن يشهد أن لا إله إلا الله: لا يعبد إلا إياه، ولا يتوكل إلا عليه، ولا يوالي إلا له، ولا يعادي إلا فيه، ولا يعمل إلا لأجله. وذلك يتضمن إثبات ما أثبته لنفسه من الأسماء والصفات. قال

---

(١) الاعتقاد المتضمن إثبات صفات الكمال لله عز وجل وتنزيهه. فنهى عن التشبيه والتمثيل، وتنزيهه عن صفات النقص وهو توحيد الربوبية والأسماء والصفات.

(٢) الثاني التوحيد الطلبي القصدي الإرادي وهو عبادة الله تعالى وحده لا شريك له وتجريد محبته والإخلاص له وخوفه ورجاؤه والتوكل عليه والرضا به ربًّا وإلهاً ووليًّا وأن لا يجعل له عدلاً في شيء من الأشياء وهو توحيد الإلٰهية.

(٣) ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ الآية.

(٤) ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾.

(٥) ﴿وَٱسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَٰهُمْ﴾ الآية.

تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة: ١٦٣] وقال تعالى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَٰهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٥١﴾﴾ [النحل: ٥١] وقال تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [المؤمنون: ١١٧] وقال تعالى: ﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَٰنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزخرف: ٤٥] وأخبر عن كل نبي من الأنبياء أنهم دعوا الناس إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وقال: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة: ٤] وقال عن المشركين: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾﴾ [الصافات: ٣٥ ـ ٣٦] وهذا في القرآن كثير.

وليس المراد بالتوحيد مجرد توحيد الربوبية، وهو اعتقاد: أن الله وحده خلق العالم[1]، كما يظن ذلك من يظنه من أهل الكلام

---

(١) لكنه أعظم حجة على توحيد الطلب والقصد الذي هو توحيد الإلٰهية. وبه احتج الله تعالى في كتابه في غير موضع على وجوب إفراده تعالى بالإلٰهية لتلازم التوحيدين، فإنه لا يكون إلٰهاً مستحقاً للعبادة إلاَّ من كان خالقاً رازقاً مالكاً متصرفاً مدبراً لجميع الأمور. حيًّا قيوماً سميعاً بصيراً عليماً حكيماً موصوفاً بكل كمال منزهاً عن كل نقص، غنياً عما سواه مفتقراً إليه كل ماعداه، فاعلاً مختاراً لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه ولا يعجزه شيء في السموات ولا في الأرض ولا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ولا تخفىٰ عليه خافية وهذه صفات الله عز وجل لا تنبغي إلاَّ له ولا يشركه فيها غيره فكذلك لا يستحق العبادة إلاَّ هو ولا يجوز لغيره فحيث كان متفرداً بالخلق والإنشاء والبدء والإعادة لا =

والتصوف. ويظن هؤلاء أنهم إذا أثبتوا ذلك بالدليل فقد أثبتوا غاية التوحيد. وأنهم إذا شهدوا هذا وفنوا فيه، فقد فنوا في غاية التوحيد، فإن الرجل لو أقر بما يستحقه الرب تعالىٰ من الصفات، ونزَّهه عن كل ما يُنزَّه عنه، وأقرَّ بأنه وحده خالق كل شيء: لم يكن موحداً حتى يشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده، فيقرُّ بأن الله وحده هو الإلٰه المستحق للعبادة، ويلتزم بعبادة الله وحده لا شريك له. و«الإلٰه» هو المألوه المعبود الذي يستحق العبادة. وليس هو الإله بمعنى القادر على الاختراع. فإذا فسر المفسر «الإلٰه» بمعنى القادر على الاختراع، واعتقد أن هذا المعنى هو أخص وصف الإله، وجعل إثبات هذا هو الغاية في التوحيد ـ كما يفعل ذلك من يفعله من متكلمة الصفاتية. وهو الذي يقولونه عن أبي الحسن وأتباعه ـ لم يعرفوا حقيقة التوحيد الذي بعث الله به رسوله ﷺ؛ فإن مشركي العرب كانوا مقرين بأن الله وحده خالقُ كل شيء، وكانوا مع هذا مشركين. قال تعالى: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ ﴾

= يشركه في ذلك أحد وجب إفراده بالعبادة دون من سواه لا يشرك معه في عبادته أحد كما قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ﴾ الآية فألزمهم الله تعالى بما أقروا به من التفرد بالربوبية أن يعملوا بمقتضىٰ ذلك ويلتزموا لازمه من توحيد الإلـٰهية وأن يكفروا بما اتخذوا من دونه، كما أقروا بعجزهم وعدم اتصافهم بشيء يستحقون به العبادة بل هم أقل وأذل وأحقر وأعجز عن أن يخلقوا ذباباً أو أن يستنقذوه منه شيئاً سلبه، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ. . . ﴾ الآية وقال الله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ والمقصود أن الربوبية والإلـٰهية متلازمان لا ينفك نوع منهما عن الآخر وأن توحيد الربوبية لم ينكره أحد إلاَّ مكابرة كفرعون ونمرود والثنوية الذين اعتقدوا للوجود خالقين اثنين تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيراً.

[يوسف: ١٠٦] قال طائفة من السلف: «تسألهم: من خَلَقَ السموات والأرض؟ فيقولون: الله. وهم مع هذا يعبدون غيره» قال تعالى: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [المؤمنون: ٨٤ ـ ٨٩] فليس كل من أقرَّ بأن الله تعالى ربُّ كل شيء وخالقه يكون عابداً له دون ما سواه، داعياً له دون ما سواه راجياً له خائفاً منه دون ما سواه، يوالي فيه، ويعادي فيه، ويطيع رسله، ويأمر بما أمر به، وينهى عما نهى عنه، وعامَّة المشركين أقرُّوا بأن الله خالق كل شيء، وأثبتوا الشفعاء الذين يشركونهم به، وجعلوا له أنداداً. قال تعالى: ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا۟ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ ﴾ [الزمر: ٤٣ ـ ٤٤] وقال تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [يونس: ١٨] وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾ [الأنعام: ٩٤] وقال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ ﴾ [البقرة: ١٦٥] ولهذا كان من أتباع هؤلاء من يسجد للشمس والقمر والكواكب ويدعوها، ويصوم وينسك لها ويتقرب إليها. ثم يقول: إن هذا ليس بشرك، إنما الشرك إذا اعتقدتُ أنها المدبِّرة لي، فإذا جعلتُها سبباً وواسطة لم أكن مشركاً، ومن المعلوم بالاضطرار من

دين الإسلام أن هذا شرك[١]. انتهى كلامه.

وقول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ[٢] إِلَّا

---

(١) نعم شرك أكبر؛ لأن أكثر شرك الأمم التي بعث الله إليها رسله وأنزل كتبه غالبهم إنما أشرك في الإلـٰهية ولم يذكر جحود الخالق تعالى إلاَّ عن الدهرية والثنوية، وأما غيرهم ممن جحدها عناداً كفرعون ونمرود وأضرابهم فهم مقرون بالربوبية، كما قال الله تعالى عنهم: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا﴾ وبقية المشركين يُقرون بالربوبية باطناً وظاهراً، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ الآية مع أن الشرك في الربوبية لازم لهم من جهة إشراكهم في الإلـٰهية وكذا في الأسماء والصفات إذ أنواع التوحيد متلازمة لا ينفك نوع منها عن الآخر وهكذا أضدادها، فمن ضاد نوعاً من أنواع التوحيد بشيء من الشرك فقد أشرك في الباقي. (مثال ذلك) إذا قال أحدهم: يا شيخ فلان، ـ لذلك المقبور ـ أغثني أو افعل لي كذا، ونحو ذلك يناديه من مسافة بعيدة وهو مع ذلك تحت التراب وقد صار تراباً.

١ـ فدعاؤه إياه عبادة فهذا شرك في الإلـٰهية.

٢ـ وسؤاله تلك الحاجة من جلب خير أو دفع ضر مما لا يقدر عليه إلاَّ الله شرك في الربوبية حيث اعتقد أنه متصرف مع الله في ملكوته.

٣ـ وشرك في الأسماء والصفات لأنه لم يدعه هذا الدعاء إلاَّ مع اعتقاد أنه يسمعه على البعد والقرب في أي وقت، فأثبت له سمعاً محيطاً بجميع المسموعات لا يحجبه قرب ولا بعد، فاستلزم هذا الشرك في الإلـٰهية الشرك في الربوبية والأسماء والصفات.

(٢) عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم» رواه أحمد ومسلم. هذا أحسن ما يقال في خلق الجن وهيئتهم.

قال الشيخ تقي الدين ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ: لم يخالف أحد من طوائف المسلمين في وجود الجن. وكذلك جمهور الكفار؛ لأن وجود الجن تواترت به=

لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾(١)﴾ [الذاريات: ٥٦].

قوله: وقول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ بالجر

= أخبار الأنبياء تواتراً معلوماً بالاضطرار يعرفه الخاصة والعامة، ولم ينكر الجن إلاَّ شرذمة قليلة من جهال الفلاسفة ونحوهم.

وقال الشيخ: أرسل الله تعالى محمداً ﷺ إلى جميع الثقلين الإنس والجن، وأوجب عليهم الإيمان به وبما جاء به وطاعته، وأن يحللوا ما حلل، ويحرموا ما حرم، وأن يحبوا ما أحب، ويكرهوا ما كره، وأن كل من قامت عليه الحجة برسالة محمد ﷺ من الإنس والجن، فلم يؤمن به استحق عقاب الله، كما يستحق أمثاله من الكافرين الذين بعث الله إليهم الرسل، وهذا أصل متفق عليه بين الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين، وسائر طوائف المسلمين أهل السنة والجماعة وغيرهم» انتهى.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ إلى قوله: ﴿فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾ وخرَّج البخاري ومسلم عن مسروق قال: سألت ابن مسعود: من آذن النبي ﷺ بالجن ليلة استمعوا القرآن؟ قال: آذنت بهم شجرة.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ الآيات وقال تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج في قوله: ﴿رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ قال رسل الرسل وقرأ ﴿وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾ وقال تعالى: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾ وقال تعالى: ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾﴾.

(١) واللام في قوله: ﴿ليعبدون﴾ لام التعليل المعروفة عند النحاة بلام كي، كاللام في قوله: ﴿ليطاع بإذن الله﴾ ثم قد يطاع وقد لا يطاع، وكذلك ما خلق الجن والإنس إلاَّ للعبادة. ثم قد يعبدون وقد لا يعبدون، وليست لام الصيرورة والعاقبة ولام ذلك لا تقع إلاَّ في فعل من يجهل عاقبة فعله، كما قال تعالى: ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ فلو كانوا عالمين بعاقبة اتخاذه ما اتخذوه.

عطف على التوحيد. ويجوز الرفع على الابتداء.

قال شيخ الإسلام: العبادة هي طاعة الله بامتثال ما أمر الله به على ألسنة الرسل.

وقال أيضاً: العبادة: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.(١)

قال ابن القيم: ومدارها على خمس عشرة قاعدة، من كمَّلها كمَّل مراتب العبودية.(٢)

وبيان ذلك: أن العبادة منقسمة على القلب واللسان والجوارح.

والأحكام التي للعبودية خمسة: واجب، ومستحب، وحرام، ومكروه، ومباح، وهن لكل واحد من القلب(٣) واللسان(٤) والجوارح(٥).

---

(١) وقال الفقهاء: العبادة ما أمر به شرعاً من غير اطراد عرفي ولا اقتضاء عقلي.

(٢) والعبودية خاصة وعامة: فالعامة عبودية أهل السموات والأرض كلهم برهم وفاجرهم مؤمنهم وكافرهم فهذه عبودية الملك والقهر قال الله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾، وأما الخاصة فعبودية الطاعة والمحبة واتباع الأوامر قال الله: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ...﴾ الآية، وأما قوله تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾﴾ وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾﴾ فهذا يتناول العبوديتين.

(٣) قول القلب: هو اعتقاد ما أخبر الله سبحانه عن نفسه وأسمائه وصفاته وأفعاله وملائكته ولقائه.

(٤) قول اللسان: الإخبار عنه بذلك والدعوة إليه والذب عنه والقيام بذكره وتبليغ أوامره.

(٥) فالصلاة عمل الجوارح، والزكاة، والصيام، والحج، وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والجهاد للكفار والمنافقين، والإحسان إلى الجار واليتيم، =

وقال القرطبي: أصل العبادة: التذلل والخضوع، وسُمِّيت وظائف الشرع على المكلفين عباداتٍ، لأنهم يلتزمونها ويفعلونها خاضعين متذللين لله تعالى.

ومعنى الآية: أن الله تعالى أخبر أنه ما خلق الجن والإنس إلا لعبادته، فهذا هو الحكمة في خلقهم.

قلت: وهي الحكمة(١) الشرعية الدينية(٢).

= والمسكين، وابن السبيل، والمملوك من الآدميين والبهائم، والدعاء والذكر، والقراءة وأمثال ذلك من العبادة، يعني من الظاهرة، وكذلك عمل القلب حب الله ورسوله، وخشيته والإنابة إليه وإخلاص الدين له، والصبر لحكمه، والشكر لنعمه، والرضاء بقضائه، والتوكل عليه، والرجاء لرحمته، والخوف من عذابه، وأمثال ذلك هي من العبادة لله تعالى يعني (الباطنية).

(١) وكذلك المصلحة راجعة إلى المخلوقين لأنهم بحاجة إلى ربهم وخالقهم، فالله جل وعلا له الغنى التام كما قال سبحانه: ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ﴾ الآية.

(٢) لأن الله تعالى خلقهم للعبادة المأمور ابتلاءاً واختباراً فإذا لم يفعلوها لم يكن قد شاء أن تكون. إذ لو شاء أن تكون لكونها لكن أمرهم بها، وأحب أن يفعلوها، ورضي أن يفعلوها، وأراد أن يفعلوها، إرادة شرعية تضمنها أمره بالعبادة، فهو معنىٰ قوله تعالى: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾.

وذلك يشبه قوله تعالى: ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾ وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ وقوله: ﴿كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ﴾ وقوله: ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وقوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ فهو لم يرسل إلاَّ ليطاع ثم قد يطاع وقد يعصىٰ. وكذلك ما خلقهم إلاَّ للعبادة ثم قد يعبدون وقد لا يعبدون. ومثل هذا كثير في القرآن. يبين أنه فعل ما فعل ليكبروه وليعدلوا ولا يظلموا، وليعلموا ما هو متصف به، وغيره مما أمر الله به =

قال العماد ابن كثير: وعبادته هي طاعته بفعل المأمور، وترك المحظور، وذلك هو حقيقة دين الإسلام، لأن معنى الإسلام: الاستسلام لله تعالى، المتضمن[١] غاية الانقياد والذل والخضوع. انتهى.

وقال أيضاً في تفسير هذه الآية: ومعنى الآية: أن الله خلق الخلق ليعبدوه وحده لا شريك له، فمن أطاعه جازاه أتم الجزاء، ومن عصاه عذبه أشد العذاب، وأخبر أنه غير محتاج إليهم، بل هم الفقراء إليه في جميع أحوالهم، وهو خالقهم ورازقهم. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه في الآية: «إلا لآمرهم أن يعبدوني وأدعوهم إلى عبادتي» وقال مجاهد: «إلا لآمرهم وأنهاهم» اختاره الزجاج، وشيخ الإسلام. قال: ويدل على هذا قوله: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾﴾ [القيامة: ٣٦] قال الشافعي رحمه الله: «لا يؤمر، ولا ينهى» وقال في القرآن في غير موضع: ﴿ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾، ﴿ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ فقد أمرهم بما خلقوا له، وأرسل الرسل بذلك، وهذا المعنى هو الذي قصد بالآية قطعاً، وهو الذي يفهمه جماهير المسلمين، ويحتجون بالآية عليه.

قال: وهذه الآية تشبه قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤] ثم قد يطاع، وقد يعصى، وكذلك ما خلقهم

= العباد وأحبه لهم ورضيه منهم وفيه سعادتهم وكمالهم وصلاحهم وفلاحهم إذا فعلوه ثم منهم من يفعل ذلك ومنهم من لا يفعله. انتهىٰ.

(١) كمال المحبة مع غاية الخضوع فلا تكون المحبة بدون خضوع عبادة، ولا الخضوع بدون محبة عبادة. قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ:

وعبادة الرحمن غاية حبه	مع ذل عابده هما قطبان
وعليهما فلك العبادة دائر	ما دار حتىٰ قامت القطبان
ومداره بالأمر أمر رسوله	لا بالهوى والنفس والشيطان

إلا لعبادته، ثم قد يعبدون وقد لا يعبدون. وهو سبحانه لم يقل: إنه فعلَ الأول، وهو خَلقهم ليفعل بهم كلهم الثاني وهو عبادته، ولكن ذكر أنه فعل الأول ليفعلوا هم الثاني، فيكونوا هم الفاعلين له[١]، فيحصل لهم بفعله سعادتهم، ويحصل ما يحبه ويرضاه منه ولهم. انتهى.

ويشهد لهذا المعنى: ما تواترت به الأحاديث.

فمنها: ما أخرجه مسلم في «صحيحه» عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **«يقول الله تعالى لأَهْوَنِ أهل النار عذاباً: لو كانت لك الدنيا وما فيها ومثلها معها أكنت مفتدياً بها؟ فيقول: نعم. فيقول: قد أردتُ منك أهون من هذا وأنت في صلب آدم: أن لا تشرك**

---

(١) فهذا الذي خلقهم له لو فعلوه لكان فيه ما يحبه وما يحبونه ولكن لم يفعلوه فاستحقوا ما يستحقه العاصي المخالف لأمره، التارك فعل ما خلق لأجله من عذاب الدنيا والآخرة، وهو سبحانه قد شاء أن تكون العبادة ممن فعلها، فجعلهم عابدين مسلمين بمشيئته وهداه لهم، وتحبيبه إليهم الإيمان كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧﴾ فهؤلاء أراد العبادة منهم خلقاً وأمراً أمرهم بها، وخلقاً جعلهم فاعلين.

والصنف الثاني لم يرد هو أن يخلقهم عابدين وإن كان قد أمرهم بالعبادة: فالإرادة منه سبحانه وتعالى (للعبادة من عباده) شرعاً عامة لمؤمنهم وكافرهم، وأما إرادته سبحانه وتعالى (للعبادة) الكونية القدرية فخاصة للمؤمنين، فلهذا اتفقت فيهم الإرادتان فوافقوا الإرادة الشرعية لما سبق لهم في الإرادة القدرية الكونية. وأما الكافر: فلم يوافق الإرادة الشرعية لما سبق عليه في الإرادة القدرية من الشقاوة. فتبين بهذا أن الإرادة الكونية القدرية لا خروج لأحد منها ولا محيد له عنها. وأما الإرادة الشرعية فمن كان سبق له في القدرية أنه يوافقها كان كذلك، أو يخالفها كان كذلك.

ـ أحسبه قال: **ولا أدخلك النار ـ فأبيت إلا الشرك»**.

فهذا المشرك قد خالف ما أراده الله تعالى منه: من توحيده وأن لا يشرك به شيئاً، فخالف ما أراده الله منه، فأشرك به غيره. وهذه هي الإرادة الشرعية الدينية كما تقدم.

فبين الإرادة الشرعية الدينية والإرادة الكونية القدرية، عموم وخصوص مطلق، يجتمعان في حق المخلص المطيع، وتنفرد الإرادة الكونية القدرية في حق العاصي، فافهم ذلك تنجُ من جهالات أرباب الكلام وتابعيهم.

وقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

قال: وقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] الطاغوت[١]: مشتق من الطغيان، وهو مجاوزة الحدِّ. قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «الطاغوت: الشيطان»، وقال جابر رضي الله عنه: «الطواغيت: كهان كانت تنزل عليهم الشياطين» رواهما ابن أبي حاتم. وقال مالك: «الطاغوت: كل ما عُبد من دون الله»

قلت: وذلك المذكور بعضُ أفراده، وقد حدَّه العلامة ابن القيم حداً

---

(١) (الطاغوت) في القرآن على ثلاثة أوجه: أحدها: الأوثان، ومنه في سورة النحل: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ وفي الزمر: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ﴾. الثاني: الشيطان ومنه في البقرة: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ﴾ وفي النساء: ﴿يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾ وفي المائدة: ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾. والثالث: كعب بن الأشرف ومنه في البقرة: ﴿أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ﴾ وفي النساء: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ وفيها: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾.

جامعاً فقال: الطاغوت: كل ما تجاوز به العبد حده: من معبود، أو متبوع، أو مطاع، فطاغوت كل قوم: من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله، أو يعبدونه من دون الله، أو يتبعونه على غير بصيرة من الله، أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة لله، فهذه طواغيت العالم[١]، إذا تأملتها وتأملت أحوال الناس معها رأيت أكثرهم أعرض عن عبادة الله تعالى إلى عبادة الطاغوت، وعن طاعة رسول الله ﷺ إلى طاعة الطاغوت ومتابعته.

وأما معنى الآية: فأخبر تعالى أنه بعث في كل طائفة من الناس

(١) والكفر بالطاغوت والإيمان بالله: هو أول ما فرضه الله على ابن آدم كما قال تعالى في هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا﴾ الآية وصفة الكفر بالطاغوت هو أن تعتقد بطلان عبادة غير الله وتتركها وتبغضها وتكفر أهلها وتعاديهم، وأما معنى الإيمان بالله: فأن تعتقد أن الله هو الإلـه المعبود وحده دون من سواه وتخلص جميع أنواع العبادة كلها لله، وتنفيها عن كل معبود سواه، وتحب أهل الإخلاص وتواليهم، وتبغض أهل الشرك وتعاديهم. وهذه ملة إبراهيم التي سفه نفسه من رغب عنها، وهذه هي الأسوة الحسنة التي أخبر الله بها في قوله: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ الآية. والطواغيت كثيرة ورؤسهم خمسة: الأول: الشيطان الدعي إلى عبادة غير الله. والدليل قوله تعالى: ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾. الثاني: الحاكم الجائر المغير لأحكام الله قال الله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ الآية. الثالث: الذي يحكم بغير ما أنزل الله، قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾﴾. الرابع: الذي يدعي علم الغيب من دون الله قال تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾ وقال: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ﴾. الخامس: الذي يعبد من دون الله وهو راض بالعبادة. قال الله تعالى: ﴿۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

رسولاً بهذه الكلمة ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾(١).

أي: اعبدوا الله وحده، واتركوا عبادة ما سواه، كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ﴾ [البقرة:٢٥٦] وهذا معنى «لا إله إلا الله» فإنها هي العروة الوثقى(٢).

قال العماد ابن كثير في هذه الآية: وكلهم - أي الرسل - يدعو إلى عبادة الله، وينهى عن عبادة ما سواه، فلم يزل سبحانه يرسل إلى الناس الرسل بذلك منذ حدث الشرك في بني آدم في قوم نوح الذين أرسل إليهم، وكان أول رسول بعثه الله تعالى إلى أهل الأرض إلى أن ختمهم بمحمد ﷺ، الذي طبقت دعوته الإنس والجن في المشارق والمغارب،

---

(١) اجتنبوا أبلغ من اتركوا فإن اتركوا لعدم الفعل، واجتنبوا تقتضي ذلك وتقتضي المباعدة والمجانبة، وهذه الآية هي معنى لا إله إلاّ الله، فإنها تضمنت النفي والإثبات كما تضمنته لا إله إلاّ الله، ففي قوله: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ الإثبات وقوله: ﴿ٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ النفي، فينفي ما سوى الله ويثبت عبادة الله وحده. والنفي المحض ليس بتوحيد وكذلك الإثبات بدون النفي فلا يكون التوحيد إلاّ متضمناً للنفي والإثبات.

(٢) لأنها مركبة من نفي وإثبات فنفيها هو خلع جميع المعبودات غير الله تعالى في جميع أنواع العبادات وإثباتها هو إفراده جل وعلا بجميع أنواع العبادات على الوجه الذي شرعه على ألسنة رسله عليهم الصلاة والسلام. وقد أوضح هذا المعنى كثيراً في القرآن عن طريق العموم والخصوص، فمن النصوص الدالة عليه مع عموم قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ۝٢٥﴾، وقوله: ﴿وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ ۝٤٥﴾، وأما الخصوص: ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾، وقوله: ﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمۡ هُودٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ إلى غير ذلك.

وكلهم كما قال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥] وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦] فكيف يسوغ لأحد من المشركين بعد هذا أن يقول: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ [النحل: ٣٥] فمشيئة الله تعالى الشرعية عنهم منفية؛ لأنه نهاهم عن ذلك على ألسن رسله، وأما مشيئته الكونية ـ وهي تمكينهم من ذلك قدراً ـ فلا حجة لهم فيها؛ لأنه تعالى خلق النار وأهلها من الشياطين والكفرة، وهو لا يرضىٰ لعباده الكفر، وله في ذلك الحجة البالغة والحكمة القاطعة، ثم إنه تعالى قد أخبر أنه أنكر عليهم بالعقوبة في الدنيا بعد إنذار الرسل، فلهذا قال: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ [النحل: ٣٦]. انتهى»[1].

---

(١) وقد أخبر الله عن ذلك في سورة الأنعام بقوله: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ الآية، ومرادهم أن الله لما كان قادراً على منعهم من الإشراك، ولم يمنعهم منه أن ذلك دليل على رضاه بشركهم، ولذلك قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ وقال الله تعالى في الزخرف عنهم: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم﴾ يعنون آلهتهم وأوثانهم لأنه لو لم يرض ذلك منا لعاقبه. قال الله تعالى: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾﴾ أي متخرصون في هذا القول يقولون ظناً وحسباناً. وقال الله تعالى في الزمر: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾، ولذلك قال في الزخرف: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾﴾ أي آتيناهم كتاباً يدل على أنا راضون منهم بذلك الكفر، ثم أضرب عن هذا إضراب إبطال، مبيناً أن مستندهم في تلك الدعوى الكاذبة هو تقليد آبائهم التقليد الأعمى وذلك في قوله: ﴿بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ أي شريعة وملة وهي الكفر وعبدة الأوثان ﴿وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ فالكفار زعموا أن الإرادة الكونية القدرية =

تستلزم الرضى وهو زعم باطل، وهو الذي كذبه الله تعالى فيه في هذه الآيات. وقال الله عنهم في النحل: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ الآية. قال الله: ﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ۝٣٥﴾ ومعلوم أن الذي فعله من قبلهم هو الكفر بالله والكذب على الله في جعل الشركاء له. ولذلك قال تعالى بعد ذكره دعواهم المذكورة: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا﴾ الآية فأخبر سبحانه وتعالى أنه لم يكن راضياً بشركهم. وأنه بعث في كل أمة رسولاً وأمرهم على لسانه أن يعبدوا الله وحده ويجتنبوا الطاغوت أي يتباعدوا عن عبادة كل معبود سواه.

وذكر بعضهم أن عمرو بن عبيد جاءه أعرابي فشكا إليه أن دابته سرقت، وطلب منه أن يدعو الله ليردها إليه، فقال عمرو بن عبيد ما معناه: اللهم إنها سرقت ولم ترد سرقتها لأنك أنزه وأجل من أن تدبر هذا الخناء. فقال الأعرابي: ناشدتك الله يا هذا ألا ما كففت عني من دعائك هذا الخبيث إن كانت سرقت ولم يرد سرقتها فقد يريد ردها ولا ترد ولا ثقة لي برب يقع في ملكه ما لا يشاؤه، فألقمه حجراً.

والمناظرة التي بين أبي إسحاق الإسفراييني، وعبدالجبار المعتزلي توضح هذا وهي: أن عبدالجبار قال: سبحان من تنزه عن الفحشاء، يعني السرقة والزنا ليسا بمشيئة الله. فقال أبوإسحاق: كلمة حق أريد بها باطل. ثم قال: سبحان من لا يقع في ملكه إلاّ ما يشاء. فقال عبدالجبار: أتراه يشاؤه، ويعاقبني عليه؟ فقال أبوإسحاق: أتراك تفعله جبراً عليه، أأنت الرب وهو العبد! فقال عبدالجبار: أرأيت إن دعاني إلى الهدى، وقضى عليَّ بالردى، دعاني وسد الباب دوني أتراه أحسن أم أساء؟ فقال أبوإسحاق: أرى أن هذا الذي منعك إن كان حقاً واجباً لك عليه، فقد ظلمك وقد أساء سبحانه وتعالى. وإن كان ملكه المحض، فإن أعطاك ففضل، وإن منعك فعدل. فبهت عبدالجبار وقال الحاضرون: والله ما على هذا مزيد (وهو معنى) ﴿قُلۡ فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُۖ فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ ۝١٤٩﴾.

قلت: وهذه الآية تفسير الآية التي قبلها. وذلك قوله: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾ فتدبَّر.

ودلت هذه الآية على أن الحكمة في إرسال الرسل: دعوتهم أممهم إلى عبادة الله وحده، والنهي عن عبادة ما سواه، وأن هذا هو دين الأنبياء والمرسلين، وإن اختلفت شريعتهم، كما قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨] وأنَّه لابد في الإيمان من عمل القلب والجوارح.[١]

وقوله: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء: ٢٣ ـ ٢٤].

قال: وقوله تعالى: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ قال مجاهد: ﴿قضىٰ﴾ يعني: وصى. وكذا قرأ أُبيُّ بن كعب وابنُ مسعودوغيرهما. ولابن جرير عن ابن عباس ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ يعني: أمر[٢]

= فملكه تعالى وحده للتوفيق والهداية هو الحجة البالغة على خلقه يعني فمن هديناه وتفضلنا عليه بالتوفيق فهو فضل منا ورحمة، ومن لم نفعل له ذلك فهو عدل منا وحكمة؛ لأنه لم يكن له ذلك علينا واجباً مستحقاً، بل إن أعطيناه ففضل، وإن لم نعطه فعدل.

(١) من قوله واجتنبوا حتى يبغض الطاغوت بقلبه، ويبعد عنه بجوارحه، ويحب الله بقلبه، ويطيع الله بجوارحه.

(٢) قوله تعالى: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ أي أمر كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ﴾ الآية وقال: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ﴾=

وقوله تعالى: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ المعنى: أن تعبدوه وحده دون ما سواه؛ وهذا معنى «لا إله إلا الله».

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى: والنفي المحض ليس توحيداً، وكذلك الإثبات بدون النفي، فلا يكون التوحيد إلاَّ متضمناً للنفي والإثبات، وهذا هو حقيقة التوحيد.

وقوله: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾[1] أي: وقضىٰ أن تحسنوا بالوالدين إحساناً، كما قضى بعبادته وحده لا شريك له، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [لقمان: ١٤].

وقوله: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ[2] أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا

= سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وقال: ﴿أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾﴾ وقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ وقال: ﴿۞ وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيْنِ ٱثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٥١﴾﴾.

فمعنى «قضى» أمر ووصى، وليس المراد به قدّر ذلك كوناً، فإنه قد عبد غيره كما أخبر الله في غير موضع كقوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ وقوله عن الخليل أنه قال لقومه: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾﴾ الآية وقال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾﴾ الآيات فمن ظن أن قوله: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ بمعنى قدر ذلك كونياً، وأن الله سبحانه ما قضى بشيء إلاَّ وقع، وجعل عباد الأصنام ما عبدوا إلاَّ الله، فقد أعظم الفرية على الله فإنه ظن باطل، وقول مردود؛ لأن القضاء ينقسم إلى قسمين، قضاء كوني كقوله تعالى: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾ وقضاء ديني كقوله: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ أي أمر.

(١) قوله: «وإحسانا» ولم يخص نوعاً من أنواع الإحسان ليعم جميع أنواع الإحسان.

(٢) وذلك أنهما عند الكِبَر يعجزان ويقصر رأيهما فقد يخالفا رأي ولدهما، وذلك أشق عليه وأشد احتمالاً وصبراً، وربما يحتاجان إلى أن يتولى منهما ما كانا =

. . . .

= يتوليان منه في حال الطفولة (فلذلك قال تعالى: ﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ وهو صوت يدل على التضجر، وذلك إذا أضجره ما يستقذر منهما عند كبرهما أو يستثقل من مؤنتهما. «أف» فضلاً عما يزيد عليه ﴿ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ ﴾ فقد قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام لأبيه: يا أبت، مع كفره).

وكما في هذه الآية: أمر الله جل وعلا في هذه الآية بإخلاص العبادة له وحده، وقرن بذلك الأمر بالإحسان إلى الوالدين، وكذلك في آيات أخر، كقوله في سورة النساء ﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ الآية وقوله في سورة البقرة: ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾، وقال في سورة لقمان: ﴿ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ ﴾ وبين في موضع آخر أن برهما لازم ولو كانا مشركين داعيين إلى شركهما ﴿ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ﴾ وقوله في العنكبوت ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ فذكره جل وعلا في هذه الآيات بر الوالدين مقروناً بتوحيده جل وعلا في عبادته يدل على شدة تأكد وجوب بر الوالدين.

ومن آداب الولد مع والديه أن يسمع كلامهما ويمتثل أمرهما ما لم يأمراه بمعصية، ولا يرفع صوته عليهما، ويلبي دعوتهما، ويحرص على طلب مرضاتهما، ويخفض لهما جناحه بالصبر ولا يمنّ بالبر لهما ولا بالقيام بأمرهما، ولا ينظر إليهما شزراً ولا يقطب وجهه في وجهيهما.

وعن ابن عمر أنه رأى رجلاً في الطواف يحمل أمه ويقول:

إنـي لهـا مطيـة لا تـذعـر ... إذ الـركـاب نفـرت لا تنفـر

مـا حملـت وأرضعتنـي أكثـر ... الله ربـي ذو الجـلال الأكبـر

تظنني جزيتها يا ابن عمر؟ قال: لا، ولا زفرة واحدة.

ذكر بعض المفسرين أن البرامكة لما احتبسوا أجنب الأب فاحتاج إلى غُسل، فقام =

نَنۡهَرۡهُمَا﴾ [الإسراء: ٢٣] أي: لا تسمعهما قولاً سيئاً، حتى ولا التأفيف الذي هو أدنى مراتب القول السيء ﴿وَلَا نَنۡهَرۡهُمَا﴾ أي: لا يصدر منك إليهما فعل قبيح، كماقال عطاء بن أبي رباح: «لا تنفض يديك عليهما».

ولما نهاه عن الفعل القبيح والقول القبيح أمره بالفعل الحسن والقول الحسن، فقال: ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوۡلًا كَرِيمًا﴾ أي: ليناً طيباً بأدب وتوقير.

وقوله: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾ أي: تواضع لهما ﴿وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا﴾ أي: في كبرهما وعند وفاتهما ﴿كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾.

وقد ورد في بِرِّ الوالدين أحاديث كثيرة. منها: الحديث المروي من طُرقٍ عن أنس وغيره: أن رسول الله ﷺ لما صعد المنبر قال: «**آمين، آمين، آمين**». فقالوا: يارسول الله، على ما أمّنت؟ قال: «**أتاني جبريل، فقال: يامحمد، رَغِمَ أنفُ**[1] **امرىء ذُكرتَ عنده فلم يصلّ عليك، قل: آمين، فقلت: آمين. ثم قال: رغم أنفُ امرىء دخل عليه شهر رمضان، ثم خرج ولم يغفر له، قل: آمين، فقلت: آمين، ثم قال: رغم أنف امرىء أدرك أبويه أو أحدهما فلم يدخلاه الجنة، قل: آمين، فقلت: آمين**».

وروى الإمام أحمد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ «**رغم أنف، ثم رغم أنف، ثم رغم أنف رجل أدرك والديه ـ أحدهما أو كلاهما ـ لم يدخل الجنة**» قال العماد ابن كثير: صحيح من هذا الوجه.

وعن أبي بكْرة رضي الله عنه: قال: قال رسول الله ﷺ: «**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قلنا: بلى يارسول الله، قال: الإشراك بالله، وعقوق**

= ابنه بالإناء على السراج ليلة حتى دفيء واغتسل به.

(١) أي ألصقه بالرغام وهو التراب. هذا هو الأصل، ثم استعمل في الذل والعجز عن الانتصاف والانقياد على كره.

الوالدين. وكان متكئاً فجلس، فقال: ألا وقولُ الزور، ألا وشهادة الزور، فمازال يكررها حتى قلنا: ليتهُ سكتَ» [رواه البخاري ومسلم].

وعن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: **«رِضَىٰ الربِّ في رضى الوالدين، وسخطه في سخط الوالدين»**(١) [رواه الترمذي، وصححه ابن حبان والحاكم].

وعن أبي أسِيدٍ الساعدي رضي الله عنه، قال: «بينا نحن جلوس عند النبي ﷺ إذ جاءه رجل من بني سَلِمة فقال: يارسول الله، هل بقي من برِّ أبوي شيء أبرُّهما به بعد موتهما؟ فقال: **«نعم، الصلاة عليهما، والاستغفار لهما، وإنفاذ عهدهما من بعدهما، وصلة الرحم التي لا توصل إلا بهما، وإكرام صديقهما»** [رواه أبوداود وابن ماجه]. والأحاديث في هذا المعنى كثيرة جداً.

وقوله: ﴿ ۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ ﴾ [النساء: ٣٦]

وقوله: ﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [الأنعام: ١٥١ ـ ١٥٣].

---

(١) أخرجه الترمذي وله طرق بلفظ: **«رضىٰ الرب في رضا الوالد، وسخط الرب في سخط الوالد»**. وأما الطبراني فهو بلفظ: **«الوالدين»**.

وقوله: ﴿ ۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ ﴾ [النساء: ٣٦] قال العماد ابن كثير رحمه الله في هذه الآية: يأمر الله تعالى عباده بعبادته وحده لا شريك له،[^1] فإنه الخالق الرازق المنعم المتفضل على خلقه في جميع

---

[^1]: وقول الله تعالى: ﴿ ۞ وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ ﴾ معنى اعبدوا: أي وحِّدوا عن ابن عباس، ولذلك قال بعد ذلك: ﴿ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ ﴾ والعبادة تقدم تعريفها، ولها ثلاثة أركان وهن شروط لا قوام للعبادة إلاَّ بها. أما الأول فهو الصدق. والثاني فهو الإخلاص. والثالث المتابعة لرسول الله ﷺ. فإخلاص النية بدون صدق العزيمة هوس، وتطويل أمل، وتمن على الله وتسويف في العمل، وتفريط فيه.
وصدق العزيمة بدون إخلاص فيه يكون شركاً أكبر أو أصغر بحسب ما نقص من الإخلاص، فإن كان الباعث على العمل من أصله هو إرادة غير الله فنفاق، وإن كان دخل الرياء في تزيين العمل وكان الباعث عليه أولاً إرادة الله والدار الآخرة كان شركاً أصغر بحسبه حتى إذا غلب عليه التحق بالأكبر.
وإخلاص النية مع صدق العزيمة بدون متابعة في العمل مردود على صاحبه، بل وبال عليه، عياذاً بالله من ذلك.
قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ:
فلواحد كن واحداً في واحد أعني سبيل الحق والإيمان
قوله فلواحد: وهو الله. كن واحداً أي في عزمك وصدقك وإرادتك. في واحد: وهو المتابعة لرسول الله ﷺ.
وقوله: ﴿ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا ﴾ وقد تقدم الكلام على بر الوالدين وهو بالأقوال والأفعال كما قال الله تعالى: ﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا ﴾ فإن لهما حق الرحم المطلقة، وحق القرابة الخاصة إذ أنت جزء منهما وهما أصلك الذي أوجدك الله منه، وهما القائمان بعد الله تعالى بك حال ضعفك وعجزك عن نفسك ولكن إذا جاء حق الله بطل حق الرحم. ولذلك افتتح الله تعالى الآية بالأمر بإفراد الله تعالى بالعبادة؛ إذ هي مبدأ الخير الذي تترتب الأعمال الصالحة عليه كما قال: ﴿ وَإِذۡ=

الحالات، وهو المستحق منهم أن يوحدوه ولا يشركوا به شيئاً من مخلوقاته.[1] انتهى.

= أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ الآية كما استئذن عبدالله بن عبدالله بن أبيّ رسول الله في قتل أبيه ونحو ذلك.

وقوله: ﴿وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ وهو كل من يصدق عليه تسمية القريب فقد شرع الله الإحسان إلى الأقارب لأنهم أرجىٰ الناس بفضله وإحسانه.

وقوله: ﴿وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ واليتيم هو من مات أبوه ولم يبلغ، وقد جاء في الحديث: «**أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة**».

وأما المسكين فهو كما قال ﷺ: «**ليس المسكين الذي ترده اللقمة واللقمتان، والتمرة والتمرتان ولكن المسكين الذي لا يجد غنى يغنيه، ولا يفطن له فيتصدق عليه ولا يقوم فيسأل الناس**». هذا لفظ البخاري.

﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ هو الجار اللاصق، وقيل: الذي تربطك به قرابة، وحرمة الجار عظيمة في الجاهلية والإسلام. قال النبي ﷺ: «**مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه**».

﴿وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾ هو الذي ليس بملاصق أو ليس له قرابة.

﴿وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ﴾ هو كل من لازمك رجاء نفعك كالزوجة والمسافر ونحوهما. وقال مجاهد هو الذي يصحبك سفراً وحضراً.

﴿وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ هو المنقطع في السفر.

﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ هم المماليك.

(١) قال بعض أهل العلم على قوله تعالى في آخر الآية: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾﴾ لأن المختال يأنف من ذوي قرابته إذا كانوا فقراء، ومن جيرانه إذا كانوا ضعفاء، ومن الأيتام لاستضعافهم، ومن المساكين لاحتقارهم، ومن ابن السبيل لبعده عن أهله وماله، ومن مماليكه لأسرهم في يده. فذكر هاتين الصفتين في آخرالآية إنما جاء تنبيهاً على أن من اتصف بالخيلاء والفخر يأنف من الإحسان للأصناف المذكورين وأن الحامل له على ذلك اتصافه بتينك الصفتين. =

وهذه الآية هي التي تسمى آية الحقوق العشرة، وفي بعض النسخ المعتمدة من نسخ هذا الكتاب تقديم هذه الآية على آية الأنعام، ولهذا قدمتها لمناسبة كلام ابن مسعود الآتي لآية الأنعام، ليكون ذكره بعدها أنسب.

= (وبعضهم يرى العكس). وذلك أن الله تعالى لما أمر بالإحسان للأصناف المذكورة كان في العادة أن ينشأ عمن اتصف بمكارم الأخلاق أن يجد في نفسه زهواً وخيلاء وافتخاراً بما صدر منه من الإحسان، وكثيراً ما افتخرت العرب بذلك، وتعاظمت في نثرها ونظمها به، فلعل أن ختم هذه الآية بالتحذير من هاتين الصفتين. والله أعلم.

ومن ذلك التنبيه على التحلي بصفة التواضع وأن لا يرى لنفسه شيئاً على من أحسن إليه، وأن لا يفخر عليه كما قال تعالى: ﴿لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾. فقد أمر بعبادة الله وحده، وبالإحسان إلى الوالدين ومن ذكر معهما، ونهوا عن الخيلاء والفخر، والله أعلم بالصواب.

(ومن لم يقطع) ويقرأ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ۝٣٦ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾، وفي الحديد: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۝٢٣ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾ قد تؤولت في البخل بالمال والمنع، والبخل بالعلم ونحوه، وهي تعم البخل بكل ما ينفع في الدين والدنيا، من علم ومال وغير ذلك كما تأولوا قوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣﴾ النفقة من المال والنفقة من العلم، وقال معاذ في العلم تعلّمه لمن لا يعلمه صدقة، وقال أبوالدرداء: ما تصدق رجل بصدقة أفضل من موعظة يعظ بها جماعة، فيتفرقون وقد نفعهم الله بها، أو كما قال، وفي الأثر: نعمة العطية، ونعمة الهدية الكلمة من الخير يسمعها الرجل ثم يهديها إلى أخ له، أو كما قال. وهذه صدقة الأنبياء، وورثتهم العلماء، ولهذا كان الله وملائكته وحيتان البحر، وطير الهواء، يصلون على معلم الناس الخير، كما أن كاتم العلم يلعنه الله، ويلعنه اللاعنون. انتهىٰ من كلام ابن تيمية رحمه الله (١٤/ ٢١٢).

وقوله تعالى: ﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ الآيات [الأنعام: ١٥١].

قال العماد ابن كثير رحمه الله: يقول تعالى لنبيه ورسوله محمد ﷺ: ﴿ ۞ قُلْ ﴾ لهؤلاء المشركين الذين عبدوا غير الله، وحرموا ما رزقهم الله: ﴿ تَعَالَوْا ﴾ أي: هلموا وأقبلوا ﴿ أَتْلُ ﴾ أقص عليكم ﴿ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ حقاً، لا تخرُّصاً ولا ظناً، بل وحياً منه وأمراً من عنده ﴿ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ وكأن في الكلام محذوفاً دل عليه السياق، تقديره: وصاكم أن لا تشركوا به شيئاً، ولهذا قال في آخر الآية: ﴿ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ ﴾ اهـ.(1)

قلت: فيكون المعنى: حرَّم عليكم ما وصاكم بتركه من الإشراك به.

وفي «المغني» لابن هشام في قوله تعالى: ﴿ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ سبعة أقوال، أحسنها: هذا الذي ذكره ابن كثير، ويليه: بيَّن لكم ذلك لئلا تشركوا، فحذفت الجملة من أحدهما، وهي: ﴿ وَصَّاكُم ﴾ وحرف الجر وما قبله من الأخرى. ولهذا إذا سئلوا عما يقول لهم رسول الله ﷺ قالوا: يقول: **«اعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً. واتركوا ما يقول آباؤكم»** كما قال أبوسفيان لهرقل وهذا هو الذي فهمه أبوسفيان وغيره من قول رسول الله ﷺ لهم: **«قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا»**.

---

(1) الشاهد من الآية هو أن النهي عن الشرك يستدعي التوحيد بالاقتضاء. وقوله تعالى: ﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ ﴾ الآية الظاهر في قوله: ﴿ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ أنه مضمن معنىٰ ما وصاكم به فعلاً أو تركاً؛ لأن كلاً من ترك الواجب وفعل الحرام حرام، فالمعنى وصاكم أن لا تشركوا، وأن تحسنوا بالوالدين إحساناً، وقد بين الله تعالى أن هذا هو المراد بقوله: ﴿ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ ﴾. قال الله تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ الآية.

وقوله تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ قال القرطبي: الإحسان إلى الوالدين: بِرُّهما وحفظهما وصيانتهما وامتثال أمرهما، وإزالة الرق عنهما، وترك السلطنة عليهما. و﴿إِحْسَانًا﴾ نصب على المصدرية، وناصبه فعل من لفظه، تقديره: وأحسنوا بالوالدين إحساناً.

وقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم (١) مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١] الإملاق: الفقر، أي: لا تئدوا بناتكم خشية العيلة والفقر؛ فإني رازقهم وإياكم، وكان منهم من يفعل ذلك بالذكور خشية الفقر. ذكره القرطبي.

وفي «الصحيحين» عن ابن مسعود رضي الله عنه «قلت: يارسول الله، أيُّ الذنب أعظم عند الله؟ قال: **«أن تجعل لله نِدًّا وهو خلقك»**. قلت ثم أيٌّ؟ قال: **«أن تقتل ولدك خشية أن يَطعمَ معك»**. قلت: ثم أي؟ قال: **«أن تزاني بحليلة جارك»**. ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿وَالَّذِينَ لَا

(١) لما أمر الله تعالى بالإحسان إلى الوالدين، نهىٰ عن الإساءة إلى الأولاد، ونبه على عظم الإساءة للأولاد، وهي إعدام حياتهم بالقتل خوف الفقر. ففي هذه الآية حصول الإملاق للوالد لا خشيته، فبدأ أولاً بقوله: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ﴾ خطاباً للآباء وتبشيراً لهم بزوال الإملاق، وإحالة الرزق على الخلّاق الرزّاق، ثم عطف عليهم الأولاد. وأما الآية التي في الإسراء فظاهر الآية أنهم موسرون، وأن قتلهم إياهم إنما هو لتوقع حصول الإملاق والخشية منه، فبدأ فيه بقوله: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ﴾ إخباراً بتكفله تعالى برزقهم، فلستم أنتم رازقيهم، وعطف عليهم الآباء في ذلك النهي عن قتل الأولاد مع وجود الفقر، والنهي عن قتلهم، وإن كانوا موسرين لتوقع الفقر، فالأولاد يشمل الذكور والإناث. وفي هذه الآية نهى الله تعالى عن قتل الأولاد من أجل الفقر الواقع، ونهى في سورة الإسراء عن قتلهم خشية الفقر المرتقب الخوف منه بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾.

يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [الفرقان: ٦٨ ـ ٧٠].

وقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ﴾ [الأنعام: ١٥١] قال ابن عطية: هذا نهي عام عن جميع أنواع الفواحش، وهي المعاصي. و«ظهر» و«بطن» حالتان تستوفيان أقسام ما جعلتا له من الأشياء انتهى.

وقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ﴾(1) [الأنعام: ١٥١] في «الصحيحين»: عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً: «**لا يحلُّ دم امرىءٍ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثيّبُ الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة**».

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾(2) [الأنعام: ١٥١] قال ابن عطية: ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ إشارة إلى هذه المحرمات، والوصية الأمر المؤكد المقرر.

وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾ «لعل» للتعليل: أي إن الله تعالى وصانا بهذه الوصايا لنعقلها عنه ونعمل بها.

---

(١) وهذا مندرج تحت عموم الفواحش. وإنما جرد منها قتل النفس تعظيماً لهذه الفاحشة، واستهوالاً لوقوعه «والنفس المحرمة» هي المؤمنة والذمية والمعاهدة.

(٢) أي من سمع هذه الوصية يرجى وقوع أثر العقل بعدها، والميز بالمنافع والمضار في الدين. وفي لفظ «وصاكم» من اللطف والرأفة، وجعلهم أوصياء له تعالى ما لا يخفى من الإحسان، ولما كان العقل مناط التكليف قال الله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾﴾ أي فوائد هذه التكاليف، ومنافعها في الدين والدنيا.
والوصاء الأمر المؤكد قال الأعشى:

أجدك لم تسمع وصاة محمد　　　نبي الإله حين أوصى وأشهد

وفي «تفسير الطبري» الحنفي: ذكر أولاً «تعقلون» ثم «تذكرون» ثم «تتقون»؛ لأنهم إذا عقلوا تذكروا، فإذا تذكروا خافوا واتقوا.

وقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ [الأنعام: ١٥٢] قال ابن عطية: هذا نهيٌ عام عن القرب الذي يعمُّ وجوه التصرف، وفيه سد الذريعة. ثم استثنى ما يحسن وهو السعي في نمائه[١]، قال مجاهد: ﴿التي هي أحسن﴾: التجارة فيه».

وقوله: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾[٢] قال مالك وغيره: هو الرشد وزوال السفه مع البلوغ[٣]. وروي نحو هذا عن زيد بن أسلم والشعبي وربيعة وغيرهم.

وقوله: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ﴾ قال ابن كثير: يأمر تعالى بإقامة العدل في الأخذ والإعطاء ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي: من اجتهد بأداء الحق وأخذه، فإن أخطأ بعد استفراغ الوسع وبذل جهده فلا حرج عليه[٤].

---

(١) فمن كان من الناظرين له ما يعيش به فالأحسن إذا ثمر مال اليتيم أن لا يأخذ منه نفقة ولا أجرة ولا غيرها. ومن كان من الناظرين لا مال له، ولا ينفق له نظر إلا بأن ينفق على نفسه، من ربح نظره، فالأحسن أن ينظر ويأكل هو بالمعروف، وقال تعالى في سورة النساء: ﴿وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ﴾ الآية. القسط: العدل، والقسط بيّنه تعالى في هذه الآية: ﴿إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ وقوله: ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ وقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۝٩﴾.

(٢) وفي ذلك مفهوم المخالفة وليس مراداً بالآية، بل الغاية بلوغ أشده، يدفع إليه ماله.

(٣) لقوله تعالى: ﴿وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ﴾ الآية فاشترط للدفع لهم ثلاثة شروط (الأول) ابتلاؤهم وهو اختبارهم. (والثاني) البلوغ (والثالث) الرشد.

(٤) ولم يذكر هنا عقاباً لمن تعمد ذلك، ولكنه توعده بالويل في موضع آخر، وذلك في قوله: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟﴾ الآيات وذكر في موضع آخر أن إيفاء=

وقوله: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ هذا أمر بالعدل في القول والفعل على القريب والبعيد(١).

قال الحنفي: العدل في القول في حق الولي والعدو لا يتغير في الرضى والغضب، بل يكون على الحق وإن كان ذا قربى، فلا يميل إلى الحبيب والقريب ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨].

وقوله: ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾(٢) [الأنعام: ١٥٢] قال ابن جرير: وبوصية الله تعالى التي وصاكم بها فأوفوا. وإيفاء ذلك ـ بأن يطيعوه فيما أمرهم به ونهاهم عنه، وأن يعملوا بكتابه وسنة رسوله ﷺ، وذلك هو الوفاء بعهد الله، وكذا قال غيره.

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾﴾(٣) [الأنعام: ١٥٢] تتعظون وتنتهون عما كنتم فيه.

وقوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن

= الكيل والميزان خير لفاعله وأحسن عاقبة، وهو قوله: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾﴾.

(١) وصرّح تعالى في موضع آخر بالأمر بذلك ولو كان على نفسه أو والديه، وهو قوله: ﴿۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾ الآية.

(٢) أمر الله تعالى في هذه الآية بالإيفاء بعهد الله وصرح في موضع آخر: أن عهد الله سيسأل عنه يوم القيامة بقوله: ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴿٣٤﴾﴾ أي: عنه.

(٣) قال ابن عطية: ومن حيث كانت المحرمات الأول لا يقع فيها عاقل، قد نظر بعقله، جاءت العبادة لعلكم تعقلون، والمحرمات الأخر شهوات، وقد يقع فيها من العقلاء من لم يتذكر، وركوب الجادة الكاملة، تتضمن فعل الفضائل، وتلك درجة التقوىٰ.

سَبِيلِهِۦۚ﴾ [الأنعام: ١٥٣] قال القرطبي: هذه آية عظيمة عطفها على ما تقدم؛ فإنه نهى وأمر وحذر عن اتباع غير سبيله على ما بينته الأحاديث الصحيحة وأقاويل السلف. و﴿وَأَنَّ﴾ في موضع نصب: أي. أتلو أنَّ هذا صراطي(١)، عن الفراء والكسائي. ويجوز أن يكون خفضاً: أي: وصاكم به وبأن هذا صراطي. قال: والصراط: الطريق الذي هو دين الإسلام(٢)، و﴿مُسْتَقِيمًا﴾ نصب على الحال، ومعناه: مستوياً قَيِّماً لا

---

(١) والإشارة (بهذا) إلى الإسلام أو القرآن أو ما ورد في هذه السورة لأنها كلها في التوحيد، وأدلة النبوة، وإثبات الدين، أو إلى هذه الآيات التي اعتقبتها هذه الآية لأنها المحكمات التي لم تنسخ في ملة من الملل، فهذه أقوال أربعة.

(٢) والصراط المستقيم هو ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم أجمعين، قال تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ والذين أنعم الله عليهم هم الذين ذكرهم الله في سورة النساء بقوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ﴾ والصحابة رضي الله عنهم فهم الصديقون والشهداء والصالحون، وكما قال رسول الله ﷺ فيما رواه أهل السنن: «**افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق هذ الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلاَّ واحدة**» قالوا: من هي يارسول الله؟ قال: «**من كان على مثل ما أنا عليه وأصحابي**» وبلفظ: «**افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة كلها في النار إلاَّ واحدة، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة كلها في النار إلاَّ واحدة، وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلاَّ واحدة**» وفي لفظ: «**على ثلاث وسبعين ملة**» وفي رواية: قالوا: يارسول الله من الفرقة الناجية؟ قال: «**من كان على مثل ما أنا عليه اليوم وأصحابي**» وفي رواية: قال: «**هي الجماعة: يد الله على الجماعة**».

قال ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ: وبهذا يتبين أن أحق الناس بأن تكون هي الفرقة=

اعوجاج فيه، فأمر باتباع طريقه الذي طَرّقه على لسان محمد ﷺ وشرعه، ونهايته الجنة، وتشعبت منه طرق، فمن سلك الجادّة نجا، ومن خرج إلى تلك الطرق أفضت به إلى النار، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ أي: تميل. انتهى.

وروى الإمام أحمد والنسائي والدارمي وابن أبي حاتم والحاكم ـ وصححه ـ عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: خط رسول الله ﷺ خطاً بيده، ثم قال: «**هذا سبيل الله مستقيماً**»، ثم خط خطوطاً عن يمين ذلك الخط وعن شماله، ثم قال: «وهذه السبل ليس منها سبيل إلا وعليه شيطان يدعو إليه»، ثم قرأ ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾ الآية».

وعن مجاهد ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾ قال: «البدع والشهوات».

قال ابن القيم رحمه الله: ولنذكر في الصراط المستقيم قولاً وجيزاً، فإن الناس قد تنوعت عباراتهم عنه بحسب صفاته ومتعلقاته، وحقيقته شيء واحد، وهو طريق الله الذي نصبه لعباده موصلاً إليه، ولا طريق إليه سواه، بل الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا طريقه الذي نصبه على ألسُن رسله، وجعله موصلاً لعباده إليه، وهو إفراده بالعبادة،

= الناجية، أهل الحديث والسنة: الذين ليس لهم متبوع يتعصبون له، إلاَّ رسول الله ﷺ وهم أعلم الناس بأقواله وأحواله، وأعظمهم تمييزاً بين صحيحها وسقيمها، وأئمتهم فقهاء فيها، وأهل معرفة بمعانيها، واتباعاً لها: تصديقاً وعملاً، وحباً وموالاة لمن والاها، ومعاداة لمن عاداها... الخ. وليس الافتراق في الفروع إنما هو في الأصول، وقوله: «**من كان على مثل ما أنا عليه**» وذلك يكون فيمن تمسك بهديهم واقتفىٰ أثرهم، واهتدى بسيرتهم في الأصول والفروع، ولا يكون في الظاهر دون الباطن، فإن البعض يعتني بالظاهر ويهمل الباطن.

وإفراد رسله بالطاعة، فلا يشرك به أحداً في عبادته، ولا يشرك برسوله ﷺ أحداً في طاعته فيجرد التوحيد، ويجرد متابعة الرسول ﷺ، وهذا كله مضمون «شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله» فأي شيء فسرَّ به الصراط المستقيم فهو داخل في هذين الأصلين.

ونكتة ذلك: أن تحبه بقلبك، وترضيه بجهدك كله، فلا يكون في قلبك موضع إلا معموراً بحبه، ولا يكون لك إرادة إلا متعلقة بمرضاته، فالأول يحصل بتحقيق شهادة أن لا إله إلا الله، والثاني يحصل بتحقيق شهادة أن محمداً رسول الله. وهذا هو الهدى ودين الحق، وهو معرفة الحق والعمل به، وهو معرفة ما بعث الله به رسوله والقيام به، وقل ما شئت من العبارات التي هذا آخِيَّتها وقطب رحاها. قال: وقال سهل بن عبدالله: عليكم بالأثر والسنة، فإني أخاف أنه سيأتي عن قليل زمان إذا ذكر إنسان النبي ﷺ والاقتداء به في جميع أحواله ذمُّوه ونفّروا عنه وتبرؤوا منه وأذلوه وأهانوه. اهـ.

قال ابن مسعود: «من أراد أن ينظرَ إلى وَصيَّة محمد ﷺ التي عليها خاتمه فليقرأ قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ إلى قوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ الآية»

قوله: «قال ابن مسعود: من أراد أن ينظر إلى وصيةِ محمد ﷺ التي عليها خاتمه فليقرأ ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ **إلى قوله:** ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ **الآية»**.

قوله: «ابن مسعود» هو عبدالله بن مسعود بن غافل ـ بمعجمة وفاء ـ بن

حبيب الهذلي أبوعبدالرحمن، صحابي جليل من السابقين الأولين، وأهل بدر وأُحد والخندق وبيعة الرضوان، ومن كبار علماء الصحابة. أمَّرَهُ عمر علىٰ الكوفة. ومات سنة اثنتين وثلاثين رضي الله عنه.

وهذا الأثر رواه الترمذي وحسنه، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني بنحوه.

وقال بعضهم: معناه: من أراد أن ينظر إلى الوصية التي كأنها كتبت وخُتم عليها فلم تُغيّر ولم تبدَّل فليقرأ: ﴿ ۞قُلْ تَعَالَوْا... ﴾ إلى آخر الآيات شبهها بالكتاب الذي كتب ثم ختم فلم يزد فيه ولم ينقص. فإن النبي ﷺ لم يوص إلا بكتاب الله، كما قال فيما رواه مسلم: «**وإني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا: كتابَ الله**».

وقد روى عُبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ: «**أيُّكم يبايعني على هؤلاء الآيات الثلاث**»؟ ثم تلا قوله: ﴿ ۞قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ﴾ حتى فرغ من الثلاث الآيات. ثم قال: «**ومن وفى بهن فأجره على الله، ومن انتقص منهن شيئاً فأدركه الله به في الدنيا كانت عقوبته، ومن أخره إلى الآخرة كان أمره إلى الله، إن شاء آخذه، وإن شاء عفا عنه**» رواه ابن أبي حاتم، والحاكم وصححه، ومحمد بن نصر في «الاعتصام».

قلت: ولأن النبي ﷺ لم يوص أمته إلا بما وصاهم الله تعالى به على لسانه وفي كتابه الذي أنزله ﴿ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [النحل: ٨٩]. وهذه الآيات وصية الله تعالى ووصية رسوله ﷺ.

وعن مُعاذ بن جبلٍ رضي الله عنه قال: «كنتُ رَديف النبيِّ

ﷺ على حمارٍ، فقال لي: يامعاذُ أتدري ما حقُّ اللهِ على العبادِ، وما حقُّ العبادِ على اللهِ؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: حقُّ الله على العبادِ: أن يعبدوه ولا يُشركوا به شيئاً، وحقُّ العبادِ على اللهِ: أنْ لا يُعذِّبَ من لا يُشْركَ به شيئاً. قلت: يارسولَ الله، أفلا أُبَشِّر الناسَ؟ قال: لا تُبشِّرْهُمْ فَيَتَّكلُوا» أخرجاه في «الصحيحين».

قوله: وعن مُعاذ بن جبلٍ قال: «كنتُ رَديف النبيِّ ﷺ على حمارٍ، فقال لي: يامعاذُ أتدري ما حقُّ اللهِ على العبادِ، وما حقُّ العبادِ على اللهِ؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: حقُّ الله على العبادِ: أن يعبدوه ولا يُشركوا به شيئاً، وحقُّ العبادِ على اللهِ: أنْ لا يُعذِّبَ من لا يُشْركَ به شيئاً. قلت: يارسولَ الله، أفلا أُبَشِّر الناسَ؟ قال: لا تُبشِّرْهُمْ فَيَتَّكلُوا» أخرجاه في «الصحيحين».

هذا الحديث في «الصحيحين» من طرق. وفي بعض رواياته نحو مما ذكره المصنف.

و«معاذ بن جبل»[1] رضي الله عنه: هو ابن عمرو بن أوس الأنصاري الخزرجي أبوعبدالرحمن، صحابي مشهور من أعيان الصحابة، شهد بدراً وما بعدها. وكان إليه المنتهى في العلم والأحكام والقرآن رضي

(١) قال النبي ﷺ فيما رواه أبوداود والنسائي بإسناد صحيح: «**والله يا معاذ إني أحبك**». وقال ابن مسعود: إن معاذاً كان أمة، قانتاً لله حنيفاً، ولم يكن من المشركين، إنا كنا لنشبه معاذاً بإبراهيم عليه السلام. [ذكر الأخير في الإصابة مج (٩) ص١٣٧].

الله عنه. وقال النبي ﷺ: **«معاذ يحشر يوم القيامة أمام العلماء برَتوة»** أي: بخطوة. قال في «القاموس»: والرَّتْوَة: الخطوة، وشرفٌ من الأرض، وسُويعة من الزمان، والدعوة، والفطرة، ورمية بسهم أو نحو مِيل أو مَدَى البصر. والراتي: العالم الرباني. انتهى. وقال في «النهاية»: إنه يتقدم العلماء برتوة، أي: برمية سهم. وقيل: بميل. وقيل: مَدَّ البصر. وهذه الثلاثة أشبه بمعنى الحديث.

مات معاذ سنة ثمان عشرة بالشام في طاعون عمواس. وقد استخلفه النبي ﷺ على أهل مكة يوم الفتح يعلمهم دينهم.

قوله: «**كنت رديف النبي ﷺ**» فيه: جواز الإرداف على الدابة، وفضيلة معاذ رضي الله عنه.

قوله: «**على حمار**» في رواية اسمه «عُفير»، قلت: أهداه إليه المقوقس صاحب مصر.

وفيه: تواضعه ﷺ لركوب الحمار والإرداف عليه، خلافاً لما عليه أهل الكبر.

قوله: «**أتدري**[1] **ما حق الله على العباد**» أخرج السؤال بصيغة الاستفهام؛ ليكون أوقع في النفس، وأبلغ في فهم المتعلم. و«**حق الله على العباد**» هو ما يستحقه عليهم. و«**حق العباد على الله**» معناه: أنه متحقق لا محالة؛ لأنه قد وعدهم ذلك جزاءً لهم على توحيده، ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ [الروم: ٦].

قال شيخ الإسلام: كون المطيع يستحق الجزاء هو استحقاق إنعام وفضل، ليس هو استحقاق مقابلة، كما يستحق المخلوق على

(١) الدراية هي المعرفة.

المخلوق(١)، فمن الناس من يقول: لا معنى للاستحقاق إلا أنه أخبر

---

(١) والناس في هذه المسألة ثلاث فرق: منهم من يقول للمخلوق على الله حق يعلم بالعقل، وهم المعتزلة؛ لأنهم يقولون بوجوب الثواب والعقاب والصلاح، والإصلاح على الله، وهذا قول باطل.

والثانية: وهم من يقول: لا حق للمخلوق على الله تعالى بحال، ولكن يعلم ما يفعله [بعبده] بحكم وعده وخبره، وهذا قول أتباع جهم والأشعري، وبعض من ينتسب إلى السنة.

والثالثة: وهم من يقول: بل أوجب الله تعالى على نفسه حقاً لعباده المؤمنين، كما حرم الظلم على نفسه، ولم يوجب ذلك عليه مخلوق.

ولا يقاس بمخلوقاته تعالى وتقدس، بل هو برحمته وحكمته وعدله كتب على نفسه الرحمة، وحرَّم على نفسه الظلم، كما في الحديث الذي في صحيح مسلم وغيره: «**يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا**».

وقال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ فمن قال ليس للمخلوق على ربه حق، وأراد أنه لا يكون عليه حق بالاعتبار، والقياس على خلقه كما يجب للمخلوق على مثله، كما يظن جهال العباد أن لهم على الله حقاً بعبادتهم، فقد بيَّن الله تعالى أن عمل الإنسان يعود نفعه عليه، وأن الله غني عن الخلق. قال تعالى: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾. وقال تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾﴾ ومن قال للمخلوق على الله حق، وأراد به الحق الذي أخبر الله بوقوعه فإن الله لا يخلف الميعاد. وهو الذي أوجبه على نفسه بحكمته وفضله ورحمته فهو قول صحيح.

قال بعضهم:

ما للعباد عليه حق واجب	كلا ولا سعي لديه ضائع
إن عذبوا فبعدله أو نعموا	فبفضله وهو الكريم الواسع

بذلك ووعده صدق، ولكن أكثر الناس يثبتون استحقاقاً زائداً على هذا، كما دل عليه الكتاب والسنة. قال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٤٧﴾ [الروم: ٤٧]. لكن أهل السنة يقولون: هو الذي كتب على نفسه الرحمة، وأوجب على نفسه الحق لم يوجبه عليه مخلوق. والمعتزلة يدَّعون أنه واجب عليه بالقياس على المخلوق، وأن العباد هم الذين أطاعوه بدون أن يجعلهم مطيعين له، وأنهم يستحقون الجزاء بدون أن يكون هو الموجب، وغلطوا في ذلك. وهذا الباب غلطت فيه الجبرية، والقدرية أتباع جهم والقدرية النافية.

قوله: «قلت: الله ورسوله أعلم» فيه: حسن الأدب من المتعلم، وأنه ينبغي لمن سئل عما لا يعلم أن يقول ذلك، بخلاف أكثر المتكلفين[١].

قوله: «أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً» أي: يوحدوه بالعبادة. ولقد أحسن العلامة ابن القيم رحمه الله حيث عرَّف العبادة بتعريف جامع، فقال:

وَعِبَادَةُ الرَّحْمٰنِ: غَايَةُ حُبِّهِ ... مَعَ ذُلِّ عَابِدِهِ، هُمَا قُطْبَانِ
وَعَلَيْهِمَا فَلَكُ الْعِبَادَةِ دَائِرٌ ... مَا دَارَ حَتَّىٰ قَامَتِ الْقُطْبَانِ
وَمَدَارُهُ بِالأَمْرِ أَمْرِ رَسُولِهِ ... لاَ بِالْهَوَىٰ والنَّفْسِ والشَّيْطَانِ[٢]

---

(١) ذكر في التهذيب عن ابن خلدة قال: إذا جاءك الرجل يسأل فلا يكن همك أن تخرجه مما وقع فيه، وليكن همك أن تتخلص مما سألك عنه.

(٢) فقيام دين الله بالإخلاص والإ ... حسان إنهما له أصلان
لم ينج من غضب الإله وناره ... إلاَّ الذي قامت به الأصلان
والناس بعد فمشرك بإلهه ... أو ذو ابتداع أو له الوصفان
والله لا يرضىٰ بكثرة فعلنا ... لكن بأحسنه مع الإيمان
فالعارفون مرادهم إحسانه ... والجاهلون عموا عن الإحسان=

قوله: «**ولا يشركوا به شيئاً**» أي: يوحدوه بالعبادة، فلابد من التجرد من الشرك في العبادة، ومن لم يتجرد من الشرك لم يكن آتياً بعبادة الله وحده، بل هو مشرك قد جعل لله ندًّا. وهذا معنى قول المصنف رحمه الله:

«وفيه: أن العبادة هي التوحيد؛ لأن الخصومة فيه» وفي بعض الآثار الإلٰهية: «**إني والجن والإنس في نبأ عظيم؛ أخلق ويُعبد غيري، وأرزق ويُشكر سواي، خيري إلى العباد نازل، وشرهم إليَّ صاعد، أتحبب إليهم بالنعم، ويتبغَّضون إليَّ بالمعاصي**»(١).

= والعبادة كما تقدم تعريفها وأن العبودية خاصة وعامة، العامة عبودية أهل السموات والأرض برهم وفاجرهم، وهي عبودية القهر، قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ۝٩٣﴾. والخاصة: فعبودية الطاعة والمحبة، واتباع الأوامر قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝١٧ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٨﴾ وهذه العبادة لازمها كمال المحبة مع غاية الخضوع والذل، كما قال ابن القيم منه ولذلك: (ومداره) شبه دوران العبادة على المحبة والذل للمحبوب جل وعلا بدوران الفلك على قطبيه، وذكر أن دورانه بأمر الرسول وما شرعه لا بالهوى، وما تأمر به النفس والشيطان فليس ذلك من العبادة.

(١) هذا حديث قدسي ذكر المناوي أنه رواه البيهقي وابن عساكر عن أبي الدرداء.
ومعنى ذلك: أن الله جل وعلا مع خلقه من إنس وجن في نبأ وخبر عظيم، وعجب عجاب، فإن الله يخلق الخلق، ويقدر لهم الآجال والأرزاق، ويعبدون غيره من صنم ووثن وحجر ونار وشمس وقمر وهوى وشيطان، والله يسدي نعمه على خلقه ويشكرون غيره ولا ينظرون إلى نعمائه. إن هذا العمل مستبعد عند العقلاء، ومنكر فظيع عند أهل الذكاء، فهل يليق بعاقل أن يمرح في نعماء مولاه، ولا يعبده، وهل يستحسن ممن عرف يمينه من شماله، وميَّز بينهما أن يرتع في=

قوله: «**وحق العباد على الله: أن لا يعذّب من لا يشرك به شيئاً**» قال الحافظ: اقتصر على نفي الإشراك، لأنه يستدعي التوحيد بالاقتضاء، ويستدعي إثبات الرسالة باللزوم، إذ من كذب رسول الله ﷺ فقد كذب الله، ومن كذب الله فهو مشرك. وهو مثل قول القائل: من توضأ صحت صلاته، أي: مع سائر الشروط. اهـ.

قوله: «**أفلا أبشر الناس**»(١)؟ فيه: استحباب بشارة المسلم بما يسره، وفيه: ما كان عليه الصحابة من الاستبشار بمثل هذا. قاله المصنف رحمه الله.

قوله: «**لا تبشرهم فيتكلوا**(٢)» أي: يعتمدوا على ذلك فيتركوا التنافس في الأعمال.

وفي رواية «فأخبر بها معاذ عند موته تأثُّماً» أي تحرُّجاً من الإثم. قال الوزير أبوالمظفر: لم يكن يكتمها إلا عن جاهل يحمله جهله على سوء الأدب بترك الخدمة في الطاعة، فأما الأكياس الذين إذا سمعوا بمثل هذا زادوا في الطاعة، ورأوا أن زيادة النعم تستدعي زيادة الطاعة، فلا وجه لكتمانها عنهم.

= رزق الله جل ثناؤه، ولا يشكره، بل يشكر غيره إن هذا لبهتان عظيم.

(١) وفي حديث توبة كعب فأعطيته ثوبي بُشارة.

(٢) قال ابن حجر (١/ ٢٢٨) الذي فهم معاذ من نهي النبي ﷺ أنه للمصلحة، وهو للتنزيه لا للتحريم، فلذلك أخبر به معاذ لعموم الآية بالتبليغ، ولذلك لم يخبر معاذ إلاّ عند موته، وروى البزار بإسناد حسن من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه في هذه القصة أن النبي ﷺ أذن لمعاذ في التبشير، فلقيه عمر فقال: لا تبشرهم، ثم دخل فقال: يا نبي الله أنت أفضل رأيا، إن الناس إذا سمعوا ذلك اتكلوا عليها. فرده [وهذا معدود من موافقات عمر].

وفي الباب من الفوائد غير ما تقدم: الحث على إخلاص العبادة لله، وأنها لا تنفع مع الشرك، بل لا تسمى عبادة، والتنبيه على عظمة حق الوالدين، وتحريم عقوقهما، والتنبيه على عظمة الآيات المحكمات في سورة الأنعام، وجواز كتمان العلم للمصلحة.

قوله: «أخرجاه» أي: البخاري ومسلم.

و«البخاري» رحمه الله: هو الإمام محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن بَردزْبة الجعفي مولاهم، الحافظ الكبير، صاحب «الصحيح» و«التاريخ»و«الأدب المفرد» وغير ذلك من مصنفاته. روى عن أحمد بن حنبل والحميدي وابن المديني وطبقتهم. وروى عنه مسلم والنسائي والترمذي، والفِرَبري، راوي الصحيح. ولد سنة أربع وتسعين ومائة، ومات سنة ست وخمسين ومائتين.

و«مسلم» رحمه الله: هو ابن الحجاج بن مسلم أبوالحسين القشيري النيسابوري، صاحب «الصحيح» و«العلل» و«الوحدان» وغير ذلك. روى عن أحمد بن حنبل ويحيى بن معين وأبي خيثمة وابن أبي شيبة وطبقتهم. وروى عن البخاري. وروى عنه الترمذي وإبراهيم بن محمد بن سفيان راوي «الصحيح» وغيرهما. ولد سنة أربع ومائتين. ومات سنة إحدى وستين ومائتين بنيسابور رحمهما الله.

فيه مسائل:

الأولى: الحِكْمةُ في خلق الجنِّ والإنس.

الثانيةُ: أن العبادة هي التوحيدُ؛ لأن الخصومة فيه.

الثالثة: أن مَنْ لم يأتِ به لم يعْبدِ الله، ففيه معنى قوله: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣﴾.

الرابعة: الحكمةُ في إرسال الرُّسل.

الخامسة: أن الرسالة عمَّت كل أمة.

السادسة: أن دين الأنبياء واحد.

السابعة: المسألة الكبيرة: أن عبادة الله لا تحصل إلا بالكفر بالطاغوت ففيه معنى قوله: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾.

الثامنة: أن الطاغوت عامٌّ في كل ما عُبد من دون الله.

التاسعة: عِظَمُ شأنِ الثلاث الآياتِ المحكمات في سورة الأنعام عند السلف وفيها عشر مسائل. أولها: النهي عن الشرك.

العاشرة: الآياتُ في سورة الإسراء، وفيها ثمانية عشر مسألة، بدأها الله بقوله: ﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ۝٢٢﴾ وختمها بقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ۝٣٩﴾ ونبهنا الله سبحانه على عظم شأن هذه المسائل بقوله: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ﴾.

الحادية عشرة: آية سورة النساء التي تسمَّى آية الحقوق العشرة، بدأها الله تعالى بقوله: ﴿۞ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾.

الثانية عشرة: التنبيه على وَصيَّة رسول الله ﷺ عند موته.

الثالثة عشرة: معرفة حق الله علينا.

الرابعة عشرة: معرفة حقِّ العباد عليه إذا أدّوْا حقَّه.
الخامسة عشرة: أنَّ هذه المسألة لا يعرفُها أكثرُ الصحابة.
السادسة عشرة: جوازُ كتمانِ العلم للمصلحة.
السابعة عشرة: استحبابُ بشارةِ المسلم بما يَسرُّه.
الثامنة عشرة: الخوفُ من الاتِّكالِ على سَعةِ رحمة الله.
التاسعة عشرة: قولُ المسؤول عما لا يعلم: «الله ورسوله أعلم».
العشرون: جوازُ تخصيص بعض النَّاسِ بالعلم دون بعض.
الحادية والعشرون: تواضُعه ﷺ لركوبِ الحمار، مع الإردافِ عليه.
الثانية والعشرون: جوازُ الإرداف على الدابة.
الثالثة والعشرون: فضيلةُ مُعاذِ بن جبلٍ.
الرابعة والعشرون: عِظَمُ شأنِ هذه المسألة.

باب فضل التوحيد وما يُكفِّر من الذنوب

قوله: «باب فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب» «باب» خبر مبتدأ محذوف، تقديره: هذا. قلت: ويجوز أن يكون مبتدأ خبره محذوف تقديره: هذا. و«ما» يجوز أن تكون موصولة والعائد محذوف، أي: وبيان الذي يكفره من الذنوب، ويجوز أن تكون مصدرية، أي: وتكفيره الذنوب، وهذا الثاني أظهر.

وقول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام: ٨٢].

قوله: وقول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾[1] [الأنعام: ٨٢]، قال ابن جرير: حدثني المثنىٰ

---

(١) إذا كان معنى الظلم هنا الشرك فقد يقال: يكونون مؤمنين في حالة تلبسهم بالشرك، فنقول: نعم يكون ذلك كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ والمراد بالإيمان هو التصديق والاعتراف بأن الله ربهم الذي خلقهم ورزقهم وغير ذلك.
والمراد بشركهم عبادتهم غيره معه، كقوله عز وجل: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾. وكقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾، وغير ذلك من الآيات، ومع هذا فإنهم قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾ فتحقق أن الإيمان ينقسم إلى قسمين لغوي وشرعي، والإيمان اللغوي الذي هو التصديق يجامع الشرك أما الإيمان الشرعي فلا يكون ولا يطلق إلاَّ على من سلم من الشرك وتبرأ منه ومن أهله. [والسبب في تفصيل=

ـ وساق بسنده ـ عن الربيع بن أنس قال: «الإيمان: الإخلاص لله وحده».

وقال ابن كثير في الآية: أي هؤلاء الذين أخلصوا العبادة لله وحده، ولم يشركوا به شيئاً هم الآمنون يوم القيامة، المهتدون في الدنيا والآخرة. وقال زيد بن أسلم وابن إسحاق: هذا من الله على فصل القضاء بين إبراهيم وقومه.

وعن ابن مسعود (لما نزلت هذه الآية قالوا: فأينا لم يظلم نفسه؟ فقال رسول الله ﷺ: «**ليس بذلكم، ألم تسمعوا إلى قول لقمان:** ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾؟») وساقه البخاري بسنده فقال: حدثنا عمر بن حفص بن غياث، حدثنا أبي، حدثنا الأعمش، حدثني إبراهيم، عن علقمة، عن عبدالله رضي الله عنه، قال: «لما نزلت: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ قلنا: يارسول الله، أينا لا يظلم نفسه؟ قال: «**ليس كما تقولون، لم يلبسوا إيمانهم بظلم**: بشرك. **أولم تسمعوا إلى قول لقمان لابنه:** ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾[1].

= ذلك لأن صاحب الكشاف] يقول في تفسير هذه الآية: وأبى تفسير الظلم بالكفر لفظ [اللبس]، وفي رده على البيضاوي يقول: وذهب المعتزلة إلى أن المراد بالظلم في هذه الآية المعصية لا الشرك، بناء على أن خلط أحد الشيئين بالآخر يقتضي اجتماعاً؛ وهذا غير صحيح لأنه كما ذكرنا أن المراد بالإيمان هو اللغوي وهو التصديق لا الشرعي، وأيضاً فإن الظلم قد فسره الصادق المصدوق ﷺ (بالشرك)، وإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل، ولا استحالة في اجتماع الشرك بالإيمان في مواضع، ألا ترى المشركين ممن يدعي الإسلام يهتفون ببعض أهل القبور ويذبحون لهم، وينذرون لهم، في إنجاح حاجاتهم، وقضاء مراداتهم وكشف كرباتهم، مع إيمانهم بالله واعترافهم به، ونطقهم بكلمة التوحيد.

(١) وقد بيّن الله تعالى ذلك في آيات أخر كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ=

ولأحمد بنحوه عن عبدالله قال: «لما نزلت ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ﴾ شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، فقالوا: يارسول الله، فأيّنا لا يظلم نفسه؟ قال: «**إنه ليس الذي تعنون، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح**: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشۡرِكۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣﴾؟ **إنما هو الشرك**». وعن عمر أنه فسره بالذنب[1]. فيكون المعنى: الأمن من كل عذاب. وقال الحسن والكلبي: «أولئك لهم الأمن، في الآخرة: وهم مهتدون: في الدنيا»[2].

قال شيخ الإسلام: والذي شق عليهم: أنهم ظنوا أن الظلم المشروط عدمه هو ظلم العبد نفسه، وأنه لا أمن ولا اهتداء إلا لمن لم يظلم نفسه، فبين لهم النبي ﷺ ما دلهم على أن الشرك ظلم في كتاب الله، فلا يحصل الأمن والاهتداء إلا لمن لم يلبس إيمانه بهذا الظلم، فإن من لم يلبس إيمانه بهذا الظلم كان من أهل الأمن والاهتداء، كما كان من أهل الاصطفاء في قوله: ﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ

= وَلَا يَضُرُّكَۖ فَإِن فَعَلۡتَ فَإِنَّكَ إِذٗا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠٦﴾ وقوله تعالى: ﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٥٤﴾.

(١) وروي أن عمر بن الخطاب قرأ في المصحف فلما أتىٰ عليها عظمت عليه، فلبس رداءه ومر إلى أبي بن كعب، فقال: يا أبا المنذر! وسأله عنها، فقال له: إنه الشرك يا أمير المؤمنين، فسري عن عمر، وجرى لزيد بن صوحان مع سلمان نحو مما جرى لعمر مع أبي.

(٢) فالذين آمنوا الإيمان التام الذي لم تَشُبْهُ شوائب الشرك الأكبر المنافي لجميعه، ولا الشرك الأصغر المنافي لكماله، ولا معاصي الله أيضاً، فأولئك لهم الأمن التام من خزي الدنيا وعذاب الآخرة والاهتداء التام في الدنيا والآخرة.

ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ ﴾ [فاطر: ٣٢] وهذا لا ينفي أن يؤاخذ أحدهم بظلمه لنفسه بذنب إذا لم يتب كما قال تعالى: ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴾ [الزلزلة: ٧-٨]

وقد سأل أبوبكر الصديق رضي الله عنه النبي ﷺ، فقال: يارسول الله، أيُّنا لم يعمل سوءاً؟ فقال: «**يا أبابكر، ألست تنصب؟ ألست تحزن؟ أليس يصيبك اللأواء؟ فذلك ما تجزون به**» فبيَّن أن المؤمن الذي إذا مات دخل الجنة قد يجزى بسيئاته في الدنيا بالمصائب.

فمن سلم من أجناس الظلم الثلاثة: الشرك، وظلم العباد، وظلمه لنفسه بما دون الشرك. كان له الأمن التام والاهتداء التام، ومن لم يسلم من ظلمه لنفسه كان له الأمن والاهتداء المطلق، بمعنى: أنه لابد أن يدخل الجنة كما وعد بذلك في الآية الأخرى. وقد هداه الله إلى الصراط المستقيم الذي تكون عاقبته فيه إلى الجنة، ويحصل له من نقص الأمن والاهتداء بحسب ما نقص من إيمانه بظلمه لنفسه.

وليس مراد النبي ﷺ بقوله: «**إنما هو الشرك**» أن من لم يشرك الشرك الأكبر يكون له الأمن التام والاهتداء التام؛ فإن أحاديثه الكثيرة مع نصوص القرآن تبين أن أهل الكبائر مُعَرَّضون للخوف، لم يحصل لهم الأمن التام والاهتداء التام الذي يكونون بهما مهتدين إلى الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم، من غير عذاب يحصل لهم، بل معهم أصل الاهتداء إلى هذا الصراط، ومعهم أصل نعمة الله عليهم، ولابد لهم من دخول الجنة.

وقوله: «**إنما هو الشرك**» إن أراد الأكبر فمقصوده: أن من لم يكن من أهله فهو آمن مما وعد به المشركون من عذاب الدنيا والآخرة. وإن كان مراده جنس الشرك، يقال: ظلم ـ العبد نفسه ـ كبخله لحب المال

ببعض الواجب ـ هو شرك أصغر، وحبه ما يبغضه الله تعالى حتى يقدم هواه على محبة الله شرك أصغر ونحو ذلك. فهذا فاته من الأمن والاهتداء بحسبه. ولهذا كان السلفُ يُدخلون الذنوبَ في هذا الشرك بهذا الاعتبار. انتهى ملخصاً.

وقال ابن القيم رحمه الله: قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ قال الصحابة: وأيُّنا يارسول الله لم يلبس إيمانه بظلم؟ قال: «**ذلك الشرك. ألم تسمعوا قول العبد الصالح**: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾؟» لما أشكل عليهم المراد بالظلم فظنوا أن ظلم النفس داخل فيه، وأن من ظلم نفسه ـ أيّ ظلم كان ـ لم يكن آمناً ولا مهتدياً: أجابهم صلوات الله وسلامه عليه بأن الظلم الرافع للأمن والهداية على الإطلاق هو الشرك. وهذا والله هو الجوابُ الذي يشفي العليل ويروي الغليل؛ فإن الظلم المطلق التام هو الشرك الذي هو وضع العبادة في غير موضعها. والأمن والهدى المطلق: هما الأمن في الدنيا والآخرة، والهدى إلى الصراط المستقيم. فالظلم المطلق التام رافع للأمن وللاهتداء المطلق التام. ولا يمنع ذلك أن يكون مطلق الظلم مانعاً من مطلق الأمن ومطلق الهدى. فتأمله. فالمطلق للمطلق، والحصة للحصة. اهـ ملخصاً[1].

---

(١) ففي قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ بيّن عز وجل أنهم ثلاثة أقسام (الأول) الظالم لنفسه، وهو الذي يطيع الله، ولكنه يعصيه أيضا فهو الذي قال الله فيه: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾. (والثاني): المقتصد؛ وهو الذي يطيع الله ولا يعصيه، ولكنه لا يتقرب من الطاعات. (والثالث) السابق بالخيرات؛ وهو الذي يأتي بالواجبات ويجتنب المحرمات، ويتقرب إلى الله بالطاعات والقربات=

عن عبادة بن الصامت ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ شَهدَ أن لا إلٰهَ إلاَّ اللهَ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ، وأَنَّ محمداً عبدهُ ورسُولُه، وأَنَّ عيسى عبدُ اللهِ ورسولُه، وكلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إلى مَريم، ورُوحٌ منهُ، والجَنَّة حقٌّ، والنَّار حقٌّ، أدخله الله الجنة عَلَىٰ ما كَانَ من العمل» أخرجاه.

قوله: عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من شهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبدالله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم ورُوح منه والجنة حقٌّ والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل». أخرجاه.

عبادة بن الصامت بن قيس الأنصاري الخزرجي، أبوالوليد، أحد النقباء، بَدْري مشهور. مات بالرّملة سنة أربع وثلاثين، وله اثنتان وسبعون سنة. وقيل: عاش إلى خلافة معاوية رضي الله عنه.

قوله: «من شهد أن لا إله إلا الله»[1].

= التي هي غير واجبة.

فإن قيل: ما هو سبب تقديم الظالم في الوعد بالجنة على المقتصد والسابق؟ فقال بعضهم والعلم عند الله: قدَّم الظالم لئلا يقنط وأخَّر السابق بالخيرات لئلا يعجب بعمله فيحبط. وقال بعضهم: قدَّم الظالم لنفسه لأن أكثر أهل الجنة الظالمون لأنفسهم لأن الذين لم تقع منهم معصية أقل من غيرهم، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾.

(١) وشهادة أن لا إله إلاَّ الله لها شروط وأركان، ومعناها: لا معبود بحقٍّ إلاَّ الله تعالى، وتعريف الشرط: هو ما يلزم من عدمه العدم، ولا يلزم من وجوده =

أي: من تكلم بها عارفاً لمعناها، عاملاً بمقتضاها، باطناً وظاهراً، فلابد في الشهادتين من العلم واليقين والعمل بمدلولهما، كما قال الله تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩] وقوله: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ۝٨٦﴾ [الزخرف: ٨٦]. أما النطق بها من غير معرفة لمعناها ولا يقين ولا عمل بما تقتضيه: من البراءة من الشرك، وإخلاص القول والعمل: قولِ القلب واللسان، وعملِ القلب والجوارح، فغير نافع بالإجماع.

= الوجود لذاته. فالعقل يلزم من عدمه العدم، والتمييز يلزم من عدمه العدم، والعلم يلزم من عدمه العدم.

[الشرط الأول]: العلم بمعناها. أي المراد منها نفياً وإثباتاً. المنافي للجهل بذلك قال الله عز وجل: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، وقال تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلۡحَقِّ﴾ أي بلا إله إلاَّ الله ﴿وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ۝٨٦﴾ بقلوبهم معنى ما نطقوا بألسنتهم. وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ وقال: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡأَمۡثَٰلُ نَضۡرِبُهَا لِلنَّاسِۖ وَمَا يَعۡقِلُهَآ إِلَّا ٱلۡعَٰلِمُونَ ۝٤٣﴾ وقال تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝١٨﴾، وقال تعالى: ﴿هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝٩﴾ وفي الصحيح عن عثمان مرفوعاً: «**من مات وهو يعلم أنه لا إله إلاَّ الله دخل الجنة**»، ومعنى النفي والإثبات تقدم ذكره.

وممن أخطأ في تفسير لا إله إلاَّ الله بعض علماء الكلام وهو قولهم: أن معناها القادر على الاختراع وبعضهم يقول: معناها الغني عما سواه المفتقر إليه ما عداه. وهذا ليس معناها إنما هو من دلالة لا إله إلاَّ الله دلالة التزام لأن هذا من توحيد الربوبية الذي أقر به الأمم ومشركوا العرب، كما قال تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٨٤ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۝٨٥﴾ الآيات. وكذلك الفلاسفة وأهل الاتحاد أخطأوا بل قولهم كفر وضلال، وهو أنهم يقولون: إن =

قال القرطبي في «المفهم على صحيح مسلم»: «باب لا يكفي مجرد التلفظ بالشهادتين، بل لابد من استيقان القلب»: هذه الترجمة تنبيه على فساد مذهب غُلاة المرْجِئَة، القائلين بأن التلفظ بالشهادتين كافٍ في الإيمان، وأحاديث هذا الباب تدل على فساده، بل هو مذهب معلوم الفساد من الشريعة لمن وقف عليها، ولأنه يلزم منه تسويغ النفاق،

= المنفي بلا إله إلاَّ الله كلي لا يوجد منه الخارج إلاَّ فرد وهو الله فهو المنفي وهو المثبت بناء على مذهبهم الذي صاروا به أشد الناس كفراً، وهو قولهم: إن الله هو الموجود المطلق، فلم يخرجوا من ذلك صنماً ولا وثناً، ويشبه قولهم هذا أهل وحدة الوجود القائلين بأن الله هو الموجود بعينه فيقولون: إن المنفي كلي والمثبت بقوله إلاَّ هو الموجود بعينه، ولا فرق عند الطائفتين ـ بناء على مذهبه الخبيث ـ بين الخالق والمخلوق، ولا بين العابد والمعبود كل شيء عنده هو الله حتى الأصنام والأوثان. كما قال إمام أهل الوحدة وهو ابن عربي: وعبَّاد عجل السامري على هدى ولائمهم في اللوم ليس على رشد. قبحه الله وأخزاه. وكذلك القسم الرابع وهو من يقول: إن المنفي (بلا) هو جميع الآلهة. وذلك يتبين من قول أهل وحدة الوجود فمن قدر خبر (لا) بموجود فهو يوافق قولهم كلي، وتقدير خبر (لا) بموجود لا يجري إلاَّ على مذهب الطائفتين، وهم الفلاسفة والاتحادية وأهل وحدة الوجود. وهذه الكلمة لم توضع لتقرير الوجود، وإنما وضعت لنفي الشرك، والبراءة منه وتجريد التوحيد، ولذلك قوله: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ﴾ وكذلك قوله تعالى: ﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢﴾ وكذلك: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾ فظهر ولله الحمد والمنة أن المنفي هي الآلهة الباطلة، وأن ألوهية الله تبارك وتعالى لا تدخل في النفي؛ لأن قول: لا شريك له، توكيد للنفي، وأيضاً قوله: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ﴾. =

والحكم للمنافق بالإيمان الصحيح، وهو باطل قطعاً. اهـ.

وفي هذا الحديث ما يدل على هذا، وهو قول: «من شهد»، فإن الشهادة لا تصح إلا إذا كانت عن علم ويقين وإخلاص وصدق.

= وممن جهل معناها معطلة الصفات، وحاجتهم إلى معرفة العبادات مع تعطيلهم للصفات كحاجة من عدم الرأس من الحيوانات إلى الرسن. قال أبوالطيب:

فقر الجهول بلا عقل إلى أدب ... فقر الحمار بلارأس إلى رسن

فإنهم بحاجة إلى معرفة الإله الحق بصفات كماله ونعوت جلاله والإقرار بذلك، وأن لا يكون معبودهم مسلوب الصفات لا وجود له في الحقيقة. فالمعطل يعبد عدماً، والمشبه يعبد صنماً، والموحد يعبد فرداً صمداً. فلا إله إلاّ الله تنفي أربعا وتثبت أربعاً. تنفي بمعناها الآلـهة من دون الله وكل ما قصدته بشيء من جلب خير أو دفع ضر فأنت متخذه إلـهاً.

[الثاني الطواغيت] وهو من عبد وهو راضي أو رشح للعبادة.

والثالث [الأنداد] وهو ما جذبك عن دين الإسلام من أهل أو مسكن أو عشيرة أو مال فهو ند لقوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾.

والرابع [الأرباب] وهو من أفتاك بمخالفة الحق وأطعته معتقداً حلّه، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ الآية.

وأما الذي تثبت فهو أربعة أنواع: القصد: وهو كونك لا تقصد إلاّ الله، والثاني والثالث: التعظيم والمحبة لقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا﴾. الرابع: الخوف والرجاء لقوله تعالى: ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ﴾ الآية.

[الشرط الثاني] اليقين المنافي للشك؛ بأن يكون قائلها مستيقناً بمدلول هذه الكلمة يقيناً جازماً. فإن الإيمان لا يغني فيه إلاّ علم اليقين لا علم الظن، فكيف إذا دخله الشك. قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ﴾ إلى قوله: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ ﴾ فاشترط في صدق إيمانهم بالله ورسوله كونهم لم يرتابوا؛ أي لم يشكوا، فأما المرتاب فهو من المنافقين =

قال النووي: هذا حديث عظيم جليل الموقع، وهو أجمع ـ أو من أجمع ـ الأحاديث المشتملة على العقائد؛ فإنه ﷺ جمع فيه ما يُخرج من ملل الكفر على اختلاف عقائدهم وتباعدها، فاقتصر ﷺ في هذه الأحرف على ما يباين جميعهم. اهـ.

= والعياذ بالله الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾﴾ وفي الصحيح من حديث أبي هريرة مرفوعاً: «**أشهد أن لا إله إلاّ الله وأني رسول الله، لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيهما إلاّ دخل الجنة**» وكذلك حديث «**من لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلاّ الله مستيقناً بها قلبه، فبشره بالجنة**» الحديث. فاشترط في دخول قائلها الجنة، أن يكون مستيقناً بها قلبه، غيرَ شاك فيها، وإذا انتفى الشرط انتفى المشروط.

[الشرط الثالث] الإخلاص المنافي للشرك، وهو تصفية العمل بصالح النية عن جميع شوائب الشرك. قال الله تبارك وتعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ وقال تعالى: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾﴾ وقال: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ وقال: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾﴾. وفي الصحيح مرفوعاً: «**إن الله حرَّم على النار من قال لا إله إلاّ الله يبتغي بذلك وجه الله عز وجل**».

[الرابع] الصدق فيها المنافي للكذب، وهو أن يقولها صدقاً من قلبه، يواطيء قلبه لسانه، قال الله عز وجل: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ إلى آخر الآيات. وقال في شأن المنافقين الذين قالوها كذباً: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ الآية. وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ الآية. وكم ذكر الله تعالى من شأنهم وأبدى وأعاد وكشف أستارهم وهتكها، وأبدى فضائحهم في غيرما موضع من كتابه العزيز، كالبقرة وآل عمران والنساء =

ومعنى «لا إله إلا الله» لا معبود بحق إلا الله، وهو في غير موضع من القرآن. ويأتيك في قول البقاعي صريحاً.

قوله: «وحده» تأكيد للإثبات، «**لا شريك له**» تأكيد للنفي، قاله الحافظ. كما قال تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾﴾ [البقرة: ١٦٣]. وقال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥]. وقال: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٦٥]. فأجابوه رداً عليه بقولهم: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [الأعراف: ٧٠] وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾ [الحج: ٦٢].

فتضمن ذلك نفي الإلٰهية عما سوى الله. وهي العبادة، وإثباتها لله وحده لا شريك له، والقرآنُ من أوله إلى أخره يبين هذا ويقرره ويرشد إليه.

= والأنفال والتوبة وسورة كاملة في شأنهم وغير ذلك.

وفي الصحيحين عن معاذ بن جبل عن النبي ﷺ: «**مامن أحد يشهد أن لا إله إلاَّ الله وأن محمداً عبده ورسوله صدقاً من قلبه، إلاَّ حرَّمه الله على النار**» فاشترط في إنجاء من قال هذه الكلمة من النار أن يقولها صدقاً من قلبه.

[الخامس] المحبة لهذه الكلمة، ولما اقتضته ودلت عليه ولأهلها العاملين بها، الملتزمين لشروطها، وبغض ما ناقض ذلك. قال الله عز وجل: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ فأخبرنا الله عز وجل أن عباده المؤمنين أشد حباً له، وذلك لأنهم لم يشركوا معه في محبته أحداً كما فعل =

فالعبادة بجميع أنواعها إنما تصدر عن تألُّه القلب بالحب والخضوع والتذلل. رَغَباً وَرَهباً، وهذا كله لا يستحقه إلا الله تعالى، كما تقدم في أدلة هذا الباب وما قبله. فمن صرف من ذلك شيئاً لغير الله فقد جعله لله نِداً، فلا ينفعه مع ذلك قول ولا عمل.

= مدعوا محبته من المشركين الذين اتخذوا من دونه أنداداً يحبونهم كحبه، وعلامة حب العبد ربه، تقديم محابه وإن خالفت هواه، وبغض ما يبغض ربه وإن مال إليه هواه، وموالاة من والى الله ورسوله، ومعاداة من عاداه، واتباع رسوله ﷺ واقتفاء أثره وقبول هداه، وكل هذه العلامات شروط في المحبة لا يتصور وجود المحبة مع عدم شرط منها، قال الله عز وجل: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ الآيات. وقال: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾. وقال تعالى في شأن الموالاة والمعاداة: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ الآيات. وقال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ الآية. وقال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ﴾ الآية وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ﴾ الآية. وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ الآية. وقال في شرط اتباع الرسول: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ وقال الرسول ﷺ: «**ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلاَّ لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار**» وفي الحديث: «**أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله**». وقال ابن عباس: من أحب في الله وأبغض في الله، ووالى في الله، وعادى في الله، فإنما تنال ولاية الله بذلك، وقد صار عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا، وذلك لا يجدي على أهله شيئاً.

[السادس] من شروط [لا إله إلاَّ الله] الانقياد لما دلت عليه المنافي للترك. قال =

= الله عز وجل: ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ ﴾ . وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ ﴾ . وقال: ﴿ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ﴾ أي بلا إله إلاَّ الله ﴿ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ ﴾ ومعنى يسلم: ينقاد، وهو محسن: موحد، وتمام الانقياد وغايته قوله ﷺ: **«لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به»**.

[السابع] القبول المنافي للرد. وهو أن يقبل ما اقتضه هذه الكلمة بقلبه ولسانه، ولا يرد ويكذب ما جاء بها من النفي والإثبات، كحال المشركين الذين أخبر الله عنهم بقوله تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ ﴾ بل قالوا إنكاراً واستكباراً: ﴿ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُواْ وَٱصْبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴿٧﴾ ﴾ وقال ههنا: ﴿ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ ﴾ فكذبهم الله عز وجل، ورد ذلك عليهم عن رسوله ﷺ فقال: ﴿ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ . وقال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ الآيات.

وفي الحديث المرفوع: **«مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً فكان منها نقية قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأً، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعمل. ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به.»**

ذكر كلام العلماء في معنى «لا إله إلا الله»

قد تقدم كلام ابن عباس. وقال الوزير أبوالمظفر في «الإفصاح»: قوله: «**شهادة أن لا إله إلا الله**» يقتضي أن يكون الشاهد عالماً بأنه لا إله إلا الله، كما قال تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩] قال: واسم «الله» مرتفع بعد «إلا» من حيث إنه الواجب له الإلهية، فلا يستحقها غيره سبحانه. قال: وجملة الفائدة في ذلك: أن تعلم أن هذه الكلمة مشتملة على الكفر بالطاغوت والإيمان بالله، فإنك لما نفيت الإلهية وأثبت الإيجاب لله سبحانه كنت ممن كفر بالطاغوت وآمن بالله.

وقال ابن القيم في «البدائع»[(١)] رداً لقول من قال: إن المستثنى مخرج من المستثنى منه. قال ابن القيم: بل هو مخرج من المستثنى منه وحكمه، فلا يكون داخلاً في المستثنى؛ إذ لو كان كذلك لم يدخل الرجل في الإسلام بقوله: «لا إله إلا الله» لأنه لم يثبت الإلهية لله

---

(١) قال في حاشية الخضري على ابن عقيل إلى أن قال في ص٢٠٣. لئلا يلزم التناقض لإدخال الشيء في إخراجه، والكفر ثم الإيمان في لا إله إلاَّ الله.
قال في الكواكب ص٣٧: وقال الشاطبي: ومعنى إخراجه أن ذكره بعد إلاَّ يُبَيِّنْ أنه لم يرد دخوله فيما تقدم. فبين ذلك للسامع بتلك القرينة، لا أنه كان مراداً للمتكلم، ثم أخرجه هذا حقيقة الإخراج عند أئمة اللسان سيبويه وغيره، وهو الذي لا يصح غيره. اهـ.
وصح مذهب الجمهور أن الإخراج من الاسم والحكم معاً، فالاسم المستثنىٰ مخرج من المستثنىٰ منه، وحكمه مخرج من حكمه، وأن الممتنع إخراج الاسم المستثنىٰ من المستثنىٰ منه، مع دخوله تحته في الحكم.

تعالى. وهذه أعظم كلمة تضمنت بالوضع نفي الإلهية عما سوى الله، وإثباتها له بوصف الاختصاص. فدلالتها على إثبات إلٰهيته أعظم من دلالة قولنا: «الله إلٰه» ولا يستريب أحد في هذا البتة. انتهى بمعناه.

وقال أبوعبدالله القرطبي في «تفسيره» «لا إله إلا الله»: أي لا معبود إلا هو. وقال الزمخشري: «الإله» من أسماء الأجناس، كالرجل والفرس، يقع على كل معبود بحق أو باطل، ثم غلب على المعبود بحق.

وقال شيخ الإسلام: «الإله» هو المعبود المطاع؛ فإن الإله هو المألوه، والمألوه هو الذي يستحق أن يعبد، وكونه يستحق أن يعبد هو بما اتصف به من الصفات التي تستلزم أن يكون هو المحبوب غاية الحب، المخضوع له غاية الخضوع، قال: فإن الإله هو المحبوب المعبود الذي تألهه القلوب بحبها، وتخضع له وتذل له، وتخافه وترجوه. وتنيب إليه في شدائدها، وتدعوه في مهماتها، وتتوكل عليه في مصالحها، وتلجأ إليه وتطمئن بذكره، وتسكن إلى حبه، وليس ذلك إلا لله وحده، ولهذا كانت «لا إله إلا الله» أصدق الكلام، وكان أهلها أهل الله وحزبه، والمنكرون لها أعداؤه وأهل غضبه ونقمته، فإذا صحت صح بها كل مسألة وحال وذوق، وإذا لم يصححها العبد، فالفساد لازم له في علومه وأعماله.

وقال ابن القيم: «الإله» هو الذي تألهه القلوب محبة وإجلالاً وإنابة، وإكراماً وتعظيماً، وذلاً وخضوعاً، وخوفاً ورجاءً وتوكلاً.

وقال ابن رجب: «الإله» هو الذي يُطاع فلا يُعصىٰ، هيبة له وإجلالاً، ومحبة وخوفاً ورجاءً، وتوكلاً عليه، وسؤالاً منه ودعاءً له، ولا يصلح هذا كله إلا لله عزوجل. فمن أشرك مخلوقاً في شيء من هذه الأمور التي هي من خصائص الإلٰهية، كان ذلك قدحاً في إخلاصه

في قول: «لا إله إلا الله»، وكان فيه من عبودية المخلوق، بحسب ما فيه من ذلك.

وقال البقاعي: «لا إلٰه إلا الله» أي: انتفاءً عظيماً أن يكون معبود بحق غير الملك الأعظم، فإن هذا العلم هو أعظم الذكرى المنجية من أهوال الساعة، وإنما يكون علماً إذا كان نافعاً، وإنما يكون نافعاً إذا كان مع الإذعان والعمل بما تقتضيه، وإلا فهو جهل صِرف.

وقال الطيبي: «الإلٰه» فعال بمعنى مفعول، كالكتاب بمعنى المكتوب، من أله إلٰهة: أي عبد عبادة.

قال الشارح: وهذا كثير في كلام العلماء، وإجماع منهم.

فدلت «لا إلٰه إلا الله» على نفي الإلٰهية عن كل ما سوى الله تعالى كائناً ما كان، وإثبات الإلٰهية لله وحده دون كل ما سواه. وهذا هو التوحيد الذي دعت إليه الرسل ودل عليه القرآن من أوله إلى آخره، كما قال تعالى عن الجن: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾﴾ [الجن: ١ ـ ٢] فلا إله إلا الله، لا تنفع إلا من عرف مدلولها نفياً وإثباتاً، واعتقد ذلك وقبله وعمل به، وأما من قالها من غير علم واعتقاد وعمل، فقد تقدم في كلام العلماء: أن هذا جهل صِرف، فهي حجة عليه بلا ريب.

فقوله في الحديث: «**وحده لا شريك له**» تأكيد وبيان لمضمون معناها. وقد أوضح الله ذلك وبينه في قصص الأنبياء والمرسلين في كتابه المبين، فما أجهل عُبَّاد القبور بحالهم! وما أعظم ما وقعوا فيه من الشرك المنافي لكلمة الإخلاص «لا إله إلا الله»، فإن مشركي العرب ونحوهم جحدوا «لا إله إلا الله» لفظاً ومعنى، وهؤلاء المشركون أقروا بها لفظاً وجحدوها معنى، فتجد أحدهم يقولها وهو يأله غير الله بأنواع

العبادة، كالحب والتعظيم، والخوف والرجاء، والتوكل والدعاء، وغير ذلك من أنواع العبادة، بل زاد شركهم على شرك العرب بمراتب، فإن أحدهم إذا وقع في شدة أخلص الدعاء لغير الله تعالى، ويعتقدون أنه أسرع فرجاً لهم من الله، بخلاف حال المشركين الأولين، فإنهم كانوا يشركون في الرخاء، وأما في الشدائد فإنما يخلصون لله وحده، كما قال تعالى: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [العنكبوت: ٦٥]. فبهذا يتبين أن مشركي أهل هذه الأزمان أجهل بالله وبتوحيده من مشركي العرب ومن قبلهم.

وقوله: «وأن محمداً عبده ورسوله»(١).

---

(١) **قوله: [وأشهد أن محمداً عبده ورسوله]** فالواجب على الشاهد أن يعلم ما شهد به كما قال تعالى عن إخوة يوسف **«ما شهدنا إلَّا بما علمنا»** وكذلك في حديث فتنة القبر يقول: هاه هاه لا أدري سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته.. الخ. «ومحمد» معناه كثير المحامد، فهو أبلغ من محمود. فقوله عبده كما قال الشارح أعلىٰ مراتب العبد العبودية الخاصة، والرسالة العامة. والرسول من أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه، وهو رسول إلى الناس كافة. قال الله عز وجل: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ وقال تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾. وفي الصحيح من حديث الخصائص **«وكان الرسول يبعث في قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة»** وفيه أيضا: **«والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلَّا كان من أصحاب النار»**.

وقد خرج في الكوفة والبصرة رجل نصراني يناظر في ذلك، وقد أعجز الناس فأتى شاب فنهاه الناس عن ذلك لكنه أصر إلاَّ المناظرة. فقال له ما تقول في نُبُوَّةِ=

أي: وشهد بذلك، وهو معطوف على ما قبله على نية تكرار العامل، ومعنى «العبد» هنا: المملوك العابد، أي: إنه مملوك لله تعالى. والعبودية الخاصة وصفه، كما قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦] فأعلى مراتب العبد العبودية الخاصة والرسالة، فالنبي ﷺ أكمل الخلق في هاتين الصفتين الشريفتين. وأما الربوبية والإلٰهية، فهما حق الله تعالى، لا يشركه في شيء منهما ملك مُقرب، ولا نبيٌّ مرسل.

وقوله: «عبده ورسوله» أتى بهاتين الصفتين وجمعهما دفعاً للإفراط والتفريط؛ فإن كثيراً ممن يدَّعي أنه من أمته أفرط بالغلو قولاً وفعلاً،

= عيسى؟ فقال: إن كان الذي وصّى بنبوة محمد ﷺ فهو الذي نصدق به، وكذلك الإنجيل التي ذكر فيها الأمر باتباع محمد ﷺ فهي حق، فبهت النصراني وقرب من الشاب وضربه خفية فصارت حجة، فهرب وخرج من البلد.

وكذلك مناظرة أخرىٰ: قال عالم من علماء المسلمين قال النصراني هلم إلى المناظرة، فقال النصراني: المتفق عليه أحق بالاتباع أم المختلف فيه، فقال العالم: المتفق عليه أحق بالاتباع من المختلف فيه، فقال النصراني: إذن يلزمكم اتباع عيسى معنا وترك اتباع محمد ﷺ؛ لأننا نحن وأنتم متفقون على نبوة عيسى ونخالفكم في نبوة محمد عليهما الصلاة والسلام، فقال المسلم: أنتم الذين تمتنعون من اتباع المتفق عليه لأن المتفق عليه الذي هو عيسى قال لكم: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ فلو كنتم متبعين عيسى حقاً لاتبعتم محمداً ﷺ، فظهر أنكم أنتم المخالفون فانقطع النصراني ولله الحمد.

قال الله تعالى: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ﴾ ومما أنزل الله فيه: البشارة بنبوة محمد ﷺ ووجوب اتباعه والإيمان به كقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ الآية. وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾.

وفرَّط بترك متابعته، واعتمد على الآراء المخالفة لما جاء به، وتعسف في تأويل أخباره وأحكامه، بصرفها عن مدلولها، والصدوف عن الانقياد لها مع اطراحها، فإن شهادة أن محمداً رسول الله تقتضي الإيمان به، وتصديقه فيما أخبر، وطاعته فيما أمر، والانتهاء عما عنه نهى وزجر، وأن يعظم أمره ونهيه، ولا يُقَدَّمَ عليه قول أحد كائناً من كان. والواقع اليوم وقبله ـ ممن ينتسب إلى العلم من القضاة والمفتين ـ خلاف ذلك، والله المستعان.

وروى الدارمي في «مسنده» عن عبدالله بن سلام رضي الله عنه أنه كان يقول: «إنا لنجد صفة رسول الله ﷺ: إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً، وحرزاً للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميته المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ، ولا صخاب بالأسواق، ولا يجزي بالسيئة مثلها، ولكن يعفو ويتجاوز، ولن أقبضه حتى يقيم الملة المتعوجة، بأن يشهد أن لا إله إلا الله، يفتح به أعيناً عمياً، وآذاناً صماً، وقلوباً غُلفاً».

قال عطاء بن يسار: وأخبرني أبوواقد الليثي: أنه سمع كعباً يقول مثل ما قال ابن سلام:[١]

قوله: «وأن عيسى عبدالله ورسوله»[٢] أي: خلافاً لما يعتقده النصارى:

---

(١) قال القرطبي: يستفاد من هذا الحديث ما يلقنه النصراني إذا أسلم.

(٢) في هذا رد على اليهود القائلين بأنه ولد بغي لعنهم الله تعالى، وفي قوله: «**عبدالله**» رد على النصارى القائلين بأنه الله أو ابن الله أو ثالث ثلاثة تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾ الآية.. وفي قوله: «**وكلمته**» أن عيسى كان بكن وليس عيسى هو كن، ولكن بكن كان، فكن من الله قول وليس كن مخلوقاً، وكذب النصارى والجهمية على الله في أمر عيسى وذلك=

أنه الله، أو ابن الله، أو ثالث ثلاثة. تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ﴾ [المؤمنون: ٩١] فلابد أن يشهد أن عيسى عبدالله ورسوله على علم ويقين بأنه مملوك لله، خلقه من أنثى بلا ذكر، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ﴾ [آل عمران: ٥٩] فليس رباً ولا إلهاً. سبحان الله عما يشركون.

= أن الجهمية قالت: عيسى روح الله وكلمته، إلاّ أن الكلمة مخلوقة، وكذبوا.
وقالت النصارى: عيسى روح الله من ذات الله وكلمة الله من ذاته، وهذا كذب.
وقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ﴾ هذا الغلو الذي نهوا عنه هو قول غير الحق، هو قول بعضهم: أن عيسى ابن الله وقول بعضهم هو الله. وقول بعضهم: هو إله مع الله. سبحانه وتعالى عن ذلك كله علواً كبيراً، كما بينه بقوله تعالى: ﴿ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ﴾ وقوله: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ وقوله: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ﴾ وأشار جل وعلا إلى إبطال هذه المفتريات بقوله: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ ﴾ الآية وقوله: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ ﴾ الآية وقوله تعالى: ﴿ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ وقد قرر العلماء رحمهم الله تعالى أن الحق واسطة بين التفريط والإفراط وهو معنى قول مطرف بن عبدالله: الحسنة بين سيئتين.. وبه تعلم أن مَن جانب التفريط والإفراط فقد اهتدى ولقد أجاد من قال:

ولا تغل في شيء من الأمر واقتصد ... كلا طرفي قصد الأمور ذميم

وقد ثبت في الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «**لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى**=

قال تعالى: ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾ [مريم: ٢٩ ـ ٣٦].
وقال: ﴿ لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ ﴾ [النساء: ١٧٢]

= **وقولوا عبدالله ورسوله»**.

وقوله: «وروح منه» ليست لفظة من في هذه الآية للتبعيض كما يزعمه النصارى افتراء على الله، ولكن من هنا لابتداء الغاية يعني أن مبدأ ذلك الروح الذي ولد به عيسى حيًّا من الله تعالى، لأنه هو الذي أحياه به. ويدل على أن من هنا لابتداء الغاية قوله تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ أي كائناً مبدأ ذلك كله منه جل وعلا، ويدل لما ذكرنا ما روي عن أبي بن كعب أنه قال: «**خلق الله أرواح بني آدم لما أخذ عليهم الميثاق، ثم ردها إلى صلب آدم وأمسك عنده روح عيسى عليه الصلاة والسلام فلما أراد خلقه أرسل ذلك الروح إلى مريم. فكان منه عيسى عليه السلام**». وهذه الإضافة للتفضيل: لأن جميع الأرواح من خلقه جل وعلا. كقوله: ﴿**وطهر بيتي للطائفين**﴾ وقوله: ﴿**ناقة الله**﴾، فالنصارى يزعمون أن عيسى إله، وأنه ابن الله أيضاً. وأنه بشر أيضا. تجري عليه الأحكام البشرية والإلٰهية معاً وكانوا يتمسكون في هذا الباب ببعض نصوص الإنجيل حيث وقع فيه لفظ (الإبن) وقد نسب إلى نفسه بعض الأفعال الإلٰهية. وجواب الإشكال الأول على تقدير تسليم أنه كلام عيسى ليس فيه تحريف أن لفظ (الإبن) كان في الزمان القديم بمعنى المحبوب، والمقرب والمختار، كما يدل عليه كثير من القرائن في الإنجيل. =

ويشهد المؤمن أيضاً ببطلان قول أعدائه اليهود: أنه ولد بغي، لعنهم الله تعالى. فلا يصح إسلام أحد علم ما كانوا يقولونه حتى يبرأ من قول الطائفتين جميعاً في عيسى عليه السلام، ويعتقد ما قاله الله تعالى فيه: إنه عبد الله ورسوله.

قوله: «**وكلمته**» إنما سمى عيسى عليه السلام كلمته؛ لوجوده بقوله تعالى: ﴿كُن﴾ كما قاله السلف من المفسرين. قال الإمام أحمد في «الرد على الجهمية»: «بالكلمة التي ألقاها إلى مريم حين قال له: ﴿كُن﴾ فكان عيسى بـ ﴿كُن﴾ وليس عيسى هو ﴿كُن﴾، ولكن بكن كان، فكن من الله تعالى قول، وليس ﴿كُن﴾ مخلوقاً، وكذب النصارى والجهمية على الله في أمر عيسى». انتهى.

قوله: «**ألقاها إلى مريم**» قال ابن كثير: خلقه بالكلمة التي أرسل بها جبريل إلى مريم فنفخ فيها من روحه بأمر ربه عزوجل، فكان عيسى بإذن الله عزوجل؛ فهو ناشىء عن الكلمة التي قال له: ﴿كُن﴾ فكان، والروح التي أرسل بها: هو جبريل عليه السلام.

وقوله: «**وروح منه**» قال أبيّ بن كعب: «عيسى روح من الأرواح التي خلقها الله تعالى واستنطقها بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢]

= وجواب الإشكال الثاني: أنه على سبيل الحكاية كما يقول رسول ملك من الملوك: يا فلان قد غلبنا الملك الفلاني. . . الخ. والمعنى في الحقيقة راجع إلى الملك.

ومن ضلال النصارى أنهم يجزمون أنه قد قُتل عيسى عليه السلام. والواقع أنه وقع اشتباه في قصته. فلما رفع إلى السماء ظنوا أنه قد قتل، ويروون هذا الغلط كابراً عن كابر، فأزال الله هذه الشبهة في القرآن العظيم بقوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾.

بعثه الله إلى مريم فدخل فيها» رواه عبد بن حميد، وعبدالله بن أحمد في «زوائد المسند»، وابن جرير وابن أبي حاتم وغيرهم. قال الحافظ: ووصفه بأنه منه، فالمعنى أنه كائن منه، كما في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣] فالمعنى أنه كائن منه، كما أن معنى الآية الأخرى: أنه سخر هذه الأشياء كائنة منه: أي إنه مكون ذلك وموجده بقدرته وحكمته.

قال شيخ الإسلام: المضاف إلى الله تعالى إذا كان معنى لا يقوم بنفسه ولا بغيره من المخلوقات وجب أن يكون صفة لله تعالى قائمة به، وامتنع أن تكون إضافته إضافة مخلوق مربوب. وإذا كان المضاف عيناً قائمة بنفسها كعيسى وجبريل عليهما السلام وأرواح بني آدم امتنع أن تكون صفة لله تعالى؛ لأن ما قام بنفسه لا يكون صفة لغيره.

لكن الأعيان المضافة إلى الله تعالى على وجهين:

أحدهما: أن تضاف إليه لكونه خلقها وأبدعها، فهذا شامل لجميع المخلوقات، كقوله: سماء الله، وأرض الله. فجميع المخلوقين عبيد الله، وجميع المال مال الله.

الوجه الثاني: أن يضاف إليه لما خصه به من معنى يحبه ويأمر به ويرضاه، كما خص البيت العتيق بعبادة فيه لا تكون في غيره. وكما يقال في مال الخمس، والفيء: هو مال الله ورسوله. ومن هذا الوجه: فعباد الله هم الذين عبدوه وأطاعوا أمره. فهذه إضافة تتضمن ألوهيته وشرعه ودينه، وتلك إضافة تتضمن ربوبيته وخلقه. اهـ ملخصاً.

وقوله: «والجنة حق والنار حق»[1] أي وشهد أن الجنة التي أخبر بها الله

(١) قال ابن القيم رحمه الله تعالى: والجنة اسم الجنس وهي كثيرة جدًّا ولكن أصلها=

= نوعان:

ذهبيتان بكل ما حوتاه من ... حلي وآنية ومن بنيان

وكذاك أيضاً فضة ثنتان من ... حلي وبنيان وكل أوان

لكن دار الخلد والمأوى وعد ... ن والسلام إضافة لمعان

أوصافها استدعت إضافتها إليـ ... ـها مدحة مع غاية التبيان

لكنما الفردوس أعلاها وأو ... سطها مساكن صفوة الرحمن

أعلاه منزلة لأعلى الخلق منز ... لة هو المبعوث بالقرآن

وهي الوسيلة وهي أعلى رتبة ... خلصت له فضلاً من الرحمٰن

وفي الصحيح من حديث أنس أن النبي ﷺ قال: «**يا أم حارثة إنها جنان في الجنة وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى**». وفي الصحيحين من حديث أبي موسى عن رسول الله ﷺ قال: «**جنتان من ذهب آنيتهما وحليتهما وما فيهما، وجنتان من فضة آنيتهما وحليتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلاَّ رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن**» فتسمية الجنة بدار الخلد والمأوى والسلام وعدن والحيوان والمقامة ونحوها ليست أسماء لجنان مختلفة ولكنها أسماء الجنة باعتبار صفاتها، فالإضافة فيها من قبيل إضافة الموصوف لصفته، فالمسمى واحد باعتبار الذات ومتغايرة بتغاير الصفات.

والجنة إذا أفردت فإنما يراد بها اسم الجنس الذي يندرج تحته ما لا يحصى من الجنات الخاصة، ولكنها مع كثرتها ترجع إلى أصلين:

أولهما: جنتان ذهبيتان بكل ما اشتملتا من آنية وحلي وقصور.

والثاني: جنتان فضيتان كذلك بكل ما احتوتاه من حلي وآنية وبنيان.

وقال ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ:

ولقد أتى في سورة الرحمن تفضيل ... الجنان مفصلاً ببيان

هي أربع ثنتان فاضلتان ثم ... يليهما ثنتان مفضولان

فالأوليان الفضليان لأوجهٍ ... عشر وبعسر نظمها بوزان =

تعالى في كتابه أنه أعدها للمتقين حق، أي ثابتة لا شك فيها، وشهد أن النار التي أخبر بها تعالى في كتابه أنه أعدها للكافرين حق كذلك ثابتة، كما قال تعالى: ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾ [الحديد: ٢١] وقال تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤] وفي الآيتين ونظائرهما دليل على أن الجنة والنار مخلوقتان الآن، خلافاً للمبتدعة. وفيهما الإيمان بالمعاد.

= وإذا تأملت السياق وجدتها ... فيه تلوح لمن له عينان

فالجنة: اسم عام متناول لتلك الدار وما اشتملت عليه من أنواع النعيم واللذة والبهجة، والسرور وقرة العين، ومن أسماء الجنة، جنة المأوى لقوله تعالى: ﴿فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ الآية وكذلك جنات النعيم ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾﴾.

والنار: نعوذ بالله منها سبع طباق أعلاها. جهنم، فلظىٰ، ثم الحطمة، ثم السعير، ثم سقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية، وباب كل واحدة منها من داخل الأخرى على الاستواء كما قاله ابن عطية.

والجنة فوق السماء السابعة، وسقفها عرش الرحمن، كما قال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾﴾ وقد ثبت أن سدرة المنتهى فوق السماء السابعة. وقال عز وجل: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ يعني المطر «**وماتوعدون**» يعني الجنة. قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ ومجاهد وغير واحد من السلف. وروى أبونعيم عن ابن عباس أنه قال: الجنة في السماء السابعة ويجعلها الله تعالى حيث شاء يوم القيامة، وجهنم في الأرض السابعة.

وقوله ﷺ: «**والجنة حق والنار حق**» هذا ما يعتقده أهل السنة والجماعة [أن الجنة والنار موجدتان الآن، وأنهما لا تفنيان ولا تبيدان أبد الآبدين].

وأما عقيدة جهم وأتباعه: فهم يرون عكس ذلك كما ذكره ابن القيم ـ رحمه الله ـ=

وقوله: «أدخله الله الجنة على ما كان من العمل» هذه الجملة جواب الشرط، وفي رواية **«أدخله الله من أي أبواب الجنة الثمانية شاء»**.

قال الحافظ: معنى قوله: «على ما كان من العمل» أي من صلاح أو فساد، لأن أهل التوحيد لابد لهم من دخول الجنة، ويحتمل أن يكون معنى قوله: «على ما كان من العمل» أن يدخل أهل الجنة على حسب أعمال كل منهم في الدرجات.

= عنهم في نونيته حيث يقول ـ رحمه الله تعالى ـ:

وقضى بأن النار لم تخلق ولا ... جنات عدن بل هما عدمان
فإذا هما خلقا ليوم معادنا ... فهما على الأوقات فانيتان
وتلطف العلاف من أتباعه ... فأتى بضحكة جاهل مجان
قال الفناء يكون في الحركات لا ... في الذات واعجباً لذا الهذيان
أيصير أهل الخلد في جناتهم ... وجحيمهم كحجارة البنيان
ما حال من قد كان يغشى أهله ... عند انقضاء تحرك الحيوان

الخ.

فهم يرون أن الجنة والنار غير موجدتين الآن، وعلى ذلك سائر المعتزلة، وكان منشأ غلطهم في ذلك وغيره من أمور الاعتقاد هو تحكيم ما يسمونه بالعقل مع وجود النص، فلما رأوا بعقولهم الفاسدة أن لا فائدة من وجود الجنة والنار الآن من حيث أنهما داران للجزاء على الأعمال، والجزاء لا يكون إلاَّ في الدار الآخرة حكموا بِعَدَمِهِمَا مع وجود النصوص الصريحة من الكتاب والسنة على وجودهما مثل قوله تعالى لآدم عليه السلام: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ ومثل قوله ﷺ: **«أُريت الجنة والنار»** وقوله ﷺ: **«لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم في حواصل طير خضر تسرح في الجنة تأكل من ثمارها وتشرب من أنهارها»**.

ويرى الجهم أيضاً: أن الجنة والنار إذا وجدتا في يوم المعاد فإنهما لا تبقيان على سبيل التأبيد والخلود، كما تدل على ذلك أيضاً نصوص الكتاب والسنة، بل يرى=

قال القاضي عياض: ما ورد في حديث عُبادة يكون مخصوصاً لمن قال ما ذكره ﷺ وقرن بالشهادتين حقيقة الإيمان والتوحيد الذي ورد في حديثه، فيكون له من الأجر ما يرجح على سيئاته، ويوجب له المغفرة والرحمة، ودخول الجنة لأول وهلة.

= أنه سيأتي وقت تفنى فيه الجنة والنار وأهلهما بحيث لا يبقى مع الله شيء موجود لأن كل ماله ابتداء عنده يجب أن يكون له انتهاء.

وأما أبوالهذيل العلاف وهو رأس من رؤوس الاعتزال ومن أتباع جهم في المروق والضلال، فقد تلطف في الأمر فلم يقل بالفناء المحض ولكنه أتى بما يثير الضحك حين قال بانقطاع حركات أهل الجنة والنار، بحيث يبقون فيهما هموداً جموداً ساكنين جامدين كحجارة البنيان. فكيف حال من كان يجامع أهله ثم انقضت تلك الحركات قبل النزع عنها. أيظل عن حاله تلك.

إلى أن قال ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ في [فصل في خلود أهل الجنة]:

هـذا وخـاتمـة النعيـم خلـودهـم ... أبـداً بـدار الخلـد والـرضـوان
أو ما سمعت منادي الإيمان يخـ ... ـبـر عـن منـاديهـم بحسـن بيـان
لكـم حيـاة مـا بهـا مـوت وعـا ... فيـه بـلا سقـم ولا أحـزان
ولكـم نعيـم مـا بـه بـؤس ومـا ... لشبـابكـم هـرم مـدى الأزمـان
كـلا ولا نـوم هنـاك يكـون ذا ... نـوم ومـوت بيننـا إخـوان
هـذا علمنـاه اضطـراراً مـن كتـاب ... الله فـافهـم مقتضـى القـرآن
والجهـم أفنـاهـا وأفنـىٰ أهلهـا ... تبّـا لـذاك الجـاهـل الفتـان
طرد النفي دوام فعل الرب في ... المـاضـي وفـي مستقبـل الأزمـان
وأبـوالهـذيـل يقـول يفنـى كلمـا ... فيهمـا مـن الحـركـات للسكـان
وتصيـر دار الخلـد مـع سكـانهـا ... وثمـارهـا كحجـارة البنيـان
قـالـوا ولـولا ذاك لـم يثبـت لنـا ... رب لأجـل تسلسـل الأعيـان
فـالقـوم إمـا جـاحـدون لـربهـم ... أو منكـرون حقـائـق الإيمـان

فالجهم وأبوالهذيل ومن وافقهما يقولون في امتناع دوام فاعلية الرب في الماضي=

ولهما في حديث عِتْبان: «فإنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَىٰ النار مَنْ قالَ: لا إله إلاَّ الله، يبتغي بذلكَ وَجْهَ الله»[(١)].

= والمستقبل جميعاً، وذلك لأنه لولا القول بحدوث العالم وامتناع التسلسل بناء على أصله الفاسد في منع تسلسل الحوادث، وأن ما ثبت حدوثه استحال بقاؤه، لما كان لنا طريقة إلى إثبات وجود الله عز وجل، فإن إثباته إنما هو من طريق حدوث العالم المحوج له إلى محدث يخرجه من العدم إلى الوجود، فوقعوا بهذا بين أمرين مكفِّرَين، إما جاحدون منكرون لوجود الله وإما منكرون لحقائق الإيمان الثابتة المعلوم ثبوتها بالضرورة ولذلك قال ابن القيم رحمه الله تعالى:

والعرش والكرسي لا يفنيهما ... أيضاً وإنهما لمخلوقان
والحور لا تفنى كذلك جنة المأ ... وى وما فيها من الولدان
ولأجل هذا قال جهم إنها ... عدم ولم تخلق إلى ذا الآن

(١) وقد ذكر الشيخ في المسائل: وهو قوله: أنك إذا جمعت بين حديث عبادة وبين حديث عتبان وما بعده تبين لك معنى قول لا إله إلاَّ الله. وتبين لك خطأ المغرورين. أي إذا جمعت بين حديث عبادة الذي فيه شهادة أن لا إله إلاَّ الله، وحديث عتبان الذي فيه يبتغي بذلك وجه الله، وحديث أنس الذي فيه ترك الشرك، تبين لك أن معنى لا إله إلاَّ الله التكلم بهذه الكلمة مع الاعتقاد لمعناها، والعمل بمقتضاها، وإفراد الله بجميع أنواع العبادة وترك الشرك، وتبين لك خطأ المغرورين الذين يظنون أن التلفظ بهذه الكلمة كافٍ في التوحيد مع ماهدموه من أركانها، وارتكبوه من الشرك المنافي لها، والإيمان الذي لا يخلد صاحبه في النار، هو اعتقاد بالقلب، وقول باللسان، وعمل بالجوارح، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، والأدلة على ذلك كثيرة، وكلام السلف فيه كثير واضح، والخلاف فيه واقع من أهل البدع، كالمرجئة من الجهمية وغيرهم، ففي حديث أبي ذر رضي الله عنه وهو في الصحيح ولفظه: سألت النبي ﷺ أي العمل أفضل؟ قال: «إيمان بالله، وجهاد في سبيله» فالأعمال الصالحة، المعطوفة على الإيمان، في هذا =

قال: ولهما في حديث عتبان «فإن الله حرم على النار من قال: لا إله إلا الله، يبتغي بذلك وجه الله».

قوله: «ولهما» أي: للبخاري ومسلم في «صحيحيهما» بكماله. وهذا طرف من حديث طويل أخرجه الشيخان.

= الحديث وغيره، كحديث أبي هريرة داخلة فيه، وعطفها على الإيمان، إما من عطف الخاص على العام، أو لأن الأعمال لازمة للإيمان ففي هذا الحديث وغيره، مما سنذكره إن شاء الله تعالى من عطف الأعمال على الإيمان، وذلك والله أعلم لرفع توهم أن مجرد الإيمان بدون الأعمال اللازمة له يوجب الثواب الموعود به في الآخرة، وهو الجنة، فأصول الإيمان الستة: تتضمن الأعمال الباطنة والظاهرة. فإن الإيمان بالله يقتضي محبته وخشيته وتعظيمه وطاعته، بامتثال أمره وترك نهيه وكذلك الإيمان بالكتب يقتضي العمل بما فيها من الأمر والنهي فدخل هذا كله في الأصول الستة.

ومما يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ إلى قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ فدلت هذه الآيات على أن الأعمال الظاهرة والباطنة داخلة في مسمى الإيمان كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ فانتفاء الشك والريب من الأعمال الباطنة، والجهاد من الأعمال الظاهرة فدل على أن الكل إيمان.

ومما يدل على أن الأعمال من الإيمان قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ﴾ أي صلاتكم إلى بيت المقدس قبل تحويل القبلة إلى الكعبة. ونظائر هذه الآية في الكتاب والسنة كثيرة كقوله ﷺ في حديث وفد عبد القيس: «**آمركم بالإيمان بالله وحده، أتدرون ما الإيمان بالله وحده شهادة أن لا إله إلاَّ الله وأني رسول الله وتقيموا الصلاة وتؤتوا الزكاة، وتؤدوا خمس ما غنمتم**» ففسر الإيمان بالأعمال=

و«عِتْبان» بكسر المهملة بعدها مثناة فوقية ثم موحدة: ابن مالك بن عمرو بن العجلان الأنصاري، من بني سالم بن عوف، صحابي مشهور، مات في خلافة معاوية.

وأخرج البخاري في «صحيحه» بسنده عن قتادة، قال: حدثنا أنس بن مالك أن النبي ﷺ ـ ومعاذ رديفه على الرحل ـ قال: «**يامعاذ!** قال: لبيك يارسول الله وسعديك. قال: **يامعاذ!** قال: لبيك يارسول الله وسعديك. قال: **يامعاذ!** قال: لبيك يارسول الله وسعديك ـ ثلاثاً ـ قال: **ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صدقاً من قلبه إلا حرمه الله تعالى على النار**، قال: يارسول الله، أفلا أخبر به الناس فيستبشروا؟ قال: **إذاً يتكلوا**، فأخبر بها معاذ عند موته تأثُّماً».

= الظاهرة لأنها جزء مسماه كما تقدم.

بقي أن يقال: إذا كان الإيمان من عمل العباد وأعمال العباد مخلوقة. فهل الإيمان مخلوق، فالجواب هو قول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ وهو: [إذا قال الإيمان مخلوق. أو غير مخلوق، قيل له ما تريد بالإيمان أتريد به شيئاً من صفات الله وكلامه كقوله لا إله إلاّ الله، وإيمانه الذي دل عليه اسم المؤمن فهو غير مخلوق، أو تريد شيئاً من أفعال العباد وصفاتهم، فالعباد كلهم مخلوقون، وجميع أفعالهم مخلوقة «إلىٰ» فإذا حصل التفصيل. ظهر الهدى وبان السبيل].

قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ:

قالوا وإقرار العباد بأنه ... خلاقهم هو منتهى الإيمان
والناس في الإيمان شيء واحد ... كالمشط عند تماثل الأسنان
فاسأل أباجهل وشيعته ومن ... والاهم من عابدي الأوثان
وسل اليهود وكل أقلف مشرك ... عبدالمسيح مقبل الصلبان

=

وساق بسند آخر: حدثنا معتمر، قال: سمعت أبي، قال: سمعت أنساً قال: ذكر لي أن النبي ﷺ قال لمعاذ بن جبل: **«من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة، قال: ألا أبشر الناس؟ قال: لا؛ إني أخاف أن يتكلوا»**.

قلت: فتبين بهذا السياق معنى شهادة أن لا إلٰه إلا الله، وأنها تتضمن ترك الشرك لمن قالها بصدق ويقين وإخلاص.

قال شيخ الإسلام وغيره: في هذا الحديث ونحوه أنها فيمن قالها ومات عليها، كما جاءت مقيدة بقوله: **«خالصاً من قلبه غير شاك فيها بصدق ويقين»**. فإن حقيقة التوحيد انجذاب الروح إلى الله تعالى جملة، فمن شهد أن لا إله إلا الله خالصاً من قلبه دخل الجنة؛ لأن الإخلاص هو انجذاب القلب إلى الله تعالى بأن يتوب من الذنوب توبة نصوحاً،

= واسأل ثمود وعاد بل سل قبلهم ... أعداء نوح أمة الطوفان
واسأل أبا الجن اللعين أتعرف الـ ... خلاق أم أصبحت ذا نكران
واسأل شرار الخلق أغلى أمة ... لوطية هم ناكحوا الذكران
واسأل كذاك إمام كل معطل ... فرعون مع قارون مع هامان
هل كان فيهم منكر للخالق الـ ... ـرب العظيم مكون الأكوان
فليبشروا ما فيهم من كافر ... هم عند جهم كاملوا الإيمان

ذهب الكرامية والمرجئة إلى أن الإيمان إقرار باللسان فقط. وذهب الجهم وشيعته إلى أن الإيمان هو مجرد المعرفة بأن الله هو الرب الخالق لكل شيء والناس في هذه المعرفة متساوون كأسنان المشط لا يزد أحدهم فيها على غيره ولا ينقص منه.

فبين ابن القيم ـ رحمه الله ـ فساد هذا المذهب بأنه يلزم أن يكون أبوجهل أشقىٰ هذه الأمة وشيعته في الكفر.

وأن يكون اليهود والنصارى الذين لا يختتنون وأن تكون ثمود عاقر الناقة وقوم=

فإذا مات على تلك الحال نال ذلك؛ فإنه قد تواترت الأحاديث بأنه «**يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله، وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة، وما يزن خردلة، وما يزن ذرة**» وتواترت بأن كثيراً ممن يقول: لا إله إلا الله، يدخل النار ثم يخرج منها، وتواترت بأن الله حرم على النار أن تأكل أثر السجود من ابن آدم، فهؤلاء كانوا يصلون ويسجدون لله، وتواترت بأنه يحرم على النار من قال: لا إله إلا الله ومن شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، لكن جاءت مقيدة بالقيود الثقال، وأكثر من يقولها لا يعرف الإخلاص، وأكثر من يقولها إنما يقولها تقليداً أو عادة، ولم تخالط حلاوة الإيمان بشاشة قلبه. وغالب من يفتن عند الموت وفي القبور أمثال هؤلاء، كما في الحديث «**سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته**»، وغالب أعمال هؤلاء إنما هي تقليد واقتداء بأمثالهم، وهم من أقرب الناس من قوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الزخرف: ٢٣].

= هود الذين استكبروا في الأرض بغير الحق، وقوم نوح، وأن يكون إبليس رأس الشر، يلزم أن يكون هؤلاء جميعاً على مذهب جهم مؤمنين كاملي الإيمان.

ولقد أخبر الله تعالى عن موسى أنه قال لفرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ بل كان إبليس وهو رأس الشر في العالم، عارفاً بربه حيث قال الله عنه أنه قال: ﴿رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي﴾ الآية.

فالأعمال الظاهرة والباطنة من مسمى الإيمان شرعاً. فكل ما نقص من الأعمال التي لا يخرج نقصها من الإسلام فهو نقص في كمال الإيمان الواجب كما في حديث أبي هريرة: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن. ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا ينتهب النهبة يرفع الناس إليه فيها أبصارهم حين ينتهبها**» =

وحينئذٍ فلا منافاة بين الأحاديث، فإنه إذا قالها بإخلاص ويقين تام لم يكن في هذه الحال مصراً على ذنب أصلاً، فإن كمال إخلاصه ويقينه يوجب أن يكون الله أحب إليه من كل شيء، فإذاً لا يبقى في قلبه إرادة لما حرم الله، ولا كراهة لما أمر الله. وهذا هو الذي يحرم على النار، وإن كانت له ذنوب قبل ذلك، فإن هذا الإيمان وهذا الإخلاص، وهذه التوبة وهذه المحبة وهذا اليقين، لا تترك له ذنباً إلا مُحيَ عنه كما يمحو الليل النهار، فإذا قالها على وجه الكمال المانع من الشرك الأكبر والأصغر، فهذا غير مُصرٍّ على ذنب أصلاً، فيغفر له ويحرم على النار. وإن قالها على وجه خلص به من الشرك الأكبر دون الأصغر، ولم يأت بعدها بما يناقض ذلك، فهذه الحسنة لا يقاومها شيء من السيئات فيرجح بها ميزان الحسنات، كما في حديث البطاقة، فيحرم على النار. ولكن تنقص درجته في الجنة بقدر ذنوبه، وهذا بخلاف من رجحت

= وهو مؤمن» وقوله ﷺ: «لا إيمان لمن لا أمانة له». ونفي الإيمان عمن لا يأمن جاره بوائقه، فالمنفي في هذه الأحاديث كمال الإيمان الواجب، فلا يطلق الإيمان على مثل هذه الأعمال إلاَّ مقيداً بالمعصية، أو بالفسوق، فيكون معه من الإيمان بقدر ما معه من الأعمال الباطنة والظاهرة، فيدخل في جملة أهل الإيمان، على سبيل إطلاق أهل الإيمان كقوله: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ وأما المؤمن الإيمان المطلق الذي لا يتقيد بمعصية ولا بفسوق وبنحو ذلك فهو الذي أتى بما يستطيعه من الواجبات مع تركه لجميع المحرمات. فهذا هو الذي يطلق عليه اسم الإيمان من غير تقييد. فهذا هو الفرق بين مطلق الإيمان، والإيمان المطلق.

والثاني: هو الذي لا يصر صاحبه على ذنب، والأول هو المصر على بعض الذنوب.

سيئاته بحسناته ومات مُصراً على ذلك، فإنه يستوجب النار. وإن قال: لا إله إلا الله وخلص بها من الشرك الأكبر، لكنه لم يمت على ذلك، بل أتى بعدها بسيئات رجحت على حسنة توحيده، فإنه في حال قولها كان مخلصاً، لكنه أتى بذنوب أوهَنت ذلك التوحيد والإخلاص فأضعفته، وقويت نار الذنوب حتى أحرقت ذلك، بخلاف المخلص المستيقن، فإن حسناته لا تكون إلا راجحة على سيئاته، ولا يكون مصراً على سيئات، فإن مات على ذلك دخل الجنة.

وإنما يخاف على المخلص أن يأتي بسيئة راجحة فيضعف إيمانه فلا يقولها بإخلاص ويقين مانع من جميع السيئات، ويخشى عليه من الشرك الأكبر والأصغر، فإن سلم من الأكبر بقي معه من الأصغر، فيضيف إلى ذلك سيئات تنضم إلى هذا الشرك فيرجح جانب السيئات، فإن السيئات تضعف الإيمان واليقين، فيضعف قول «لا إله إلا الله» فيمتنع الإخلاص بالقلب، فيصير المتكلم بها كالهاذي أو النائم، أو من يحسن صوته بآية من القرآن من غير ذوق طعم وحلاوة، فهؤلاء لم يقولوها بكمال الصدق واليقين، بل يأتون بعدها بسيئات تنقض ذلك، بل يقولونها من غير يقين وصدق ويموتون على ذلك، ولهم سيئات كثيرة تمنعهم من دخول الجنة. فإذا كثرت الذنوب ثقل على اللسان قولها، وقسا القلب عن قولها، وكره العمل الصالح وثقل عليه سماع القرآن، واستبشر بذكر غير الله، واطمأن إلى الباطل، واستحلى الرّفَثَ، ومخالطة أهل الغفلة، وكره مخالطة أهل الحق، فمثل هذا إذا قالها قال بلسانه ما ليس في قلبه، وبفيه ما لا يصدقه عمله.

قال الحسن: «ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني، ولكن ما وَقَر في القلوب وصدقته الأعمال. فمن قال خيراً وعمل خيراً قبل منه، ومن

قال خيراً وعمل شراً لم يقبل منه»[1].

وقال بكر بن عبدالله المزني: ما سبقهم أبوبكر بكثرة صيام ولا صلاة، ولكن بشيء وَقَر في قلبه.

فمن قال: لا إله إلا الله ولم يقم بموجبها، بل اكتسب مع ذلك ذنوباً، وكان صادقاً في قولها موقناً بها، لكن له ذنوب أضعفت صدقه ويقينه وانضاف إلى ذلك الشرك الأصغر العملي، فرجحت هذه السيئات على هذه الحسنة، ومات مصراً على الذنوب، بخلاف من يقولها بيقين وصدق، فإنه إما أن لا يكون مصراً على سيئة أصلاً، ويكون توحيده المتضمن لصدقه ويقينه رجّح حسناته.. والذين يدخلون النار ممن يقولها: إما أنهم لم يقولوها بالصدق واليقين التام المنافيين للسيئات أو لرجحانها، أو قالوها واكتسبوا بعد ذلك سيئات رجحت على حسناتهم، ثم ضعف لذلك صدقهم ويقينهم، ثم لم يقولوها بعد ذلك بصدق ويقين تام؛ لأن الذنوب قد أضعفت ذلك الصدق واليقين من قلوبهم، فقولها من مثل هؤلاء لا يقوى على محو السيئات، فترجح سيئاتهم على حسناتهم. انتهى ملخصاً.

وقد ذكر هذا كثير من العلماء، كابن القيم وابن رجب وغيرهم.

قلت: وبما قرره شيخ الإسلام تجتمع الأحاديث.

قال: وفي الحديث دليل على أنه لا يكفي في الإيمان النطق من غير اعتقاد وبالعكس.

وفيه: تحريم النار على أهل التوحيد الكامل، وفيه: أن العمل لا

---

(١) فقد يكون المرء مستسلماً في الظاهر غير منقاد في الباطن، وقد يكون صادقاً في الباطن غير منقاد في الظاهر.

ينفع إلاّإذا كان خالصاًلوجه الله تعالى على ماشرعه على لسان رسولهﷺ

«تنبيــه» قال القرطبي في «تذكرته»: قوله في الحديث«من إيمان» أي من أعمال الإيمان التي هي من أعمال الجوارح، فيكون فيه دلالة على أن الأعمال الصالحة من الإيمان، والدليل على أنه أراد الإيمان ماقلناه. ولم يرد مجرد الإيمان الذي هو التوحيد ونفي الشركاء والإخلاص بقول: لا إله إلا الله: ما في الحديث نفسه من قوله: «أخرجوا، ثم بعد ذلك يقبض سبحانه قبضة فيخرج قوماً لم يعملوا خيراً قط» يريد بذلك: التوحيد المجرد من الأعمال. اهـ ملخصاً من «شرح سنن ابن ماجه».

وعن أبي سعيد الخُدْرِيِّ عن رسول الله ﷺ، قال: «قال موسى: يارب، علِّمني شيئاً أذكرك وأدعوكَ به. قال: قُلْ ياموسى: لا إله إلاَّ الله. قال: يارب كلُّ عبادك يقولون هذا. قال: ياموسى، لو أنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وعامِرَهنَّ غيري، والأرضين السبع في كفة، ولا إله إلا الله في كفة، مالت بهنَّ لا إله إلا الله». رواه ابن حبان والحاكم وصححه.

قال المصنف رحمه الله: وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ، قال: «قال موسى عليه السلام: يارب، علِّمني شيئاً أذكرك وأدعوكَ به. قال: قُلْ ياموسى: لا إله إلاَّ الله[1]. قال: يارب

---

(١) [فائدة] قال بعض العلماء لهذه الكلمة يعني لا إله إلاَّ الله. أسماء: ا الأول كلمة التوحيد. الثاني: كلمة الإخلاص. الثالث: كلمة الإحسان. قال الله تعالى: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَـٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَـٰنُ ﴿٦٠﴾ ﴾. الرابع: دعوة الحق. قال ابن عباس هو قول لاإله إلاَّ الله. الخامس: كلمة العدل. قال الله تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ=

كلُّ عبادك يقولون هذا. قال: ياموسى، لو أنَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعَ وعامِرَهنَّ غيري، والأرضين السبع في كفة، ولا إله إلا الله في كفة، مالت بهنَّ لا إله إلا الله». رواه ابن حبان والحاكم وصححه.

«أبوسعيد» اسمه: سعد بن مالك بن سنان بن عبيد الأنصاري

= بِٱلْعَدْلِ﴾ قال ابن عباس: العدل شهادة أن لا إله إلاَّ الله. السادس: الطيب من القول. قال الله تعالى: ﴿وَهُدُوٓاْ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾. السابع: الكلمة الطيبة قال الله تعالى: ﴿مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً﴾ الآية. الثامن: الكلمة الثابتة قال الله تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾. التاسع: كلمة التقوى. العاشر: الكلمة الباقية قال تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾ أي قول لا إله إلاَّ الله. الحادي عشر: كلمة الله العليا. الثاني عشر: المثل الأعلى. الثالث عشر: كلمة السواء قال الله تعالى: ﴿تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ الآية. الرابع عشر: كلمة النجاة. الخامس عشر: العهد. قال تعالى: ﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾﴾. السادس عشر: كلمة الاستقامة. السابع عشر: مقاليد السموات والأرض. الثامن عشر: القول السديد. التاسع عشر: البر. العشرون: الدين. قال الله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾. الحادي والعشرون: الصراط المستقيم. الثاني والعشرون: كلمة الحق. قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ﴾ يعني قول لا إله إلاَّ الله. الثالث والعشرون: العروة الوثقىٰ. قال الله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾. الرابع والعشرون: كلمة الصدق. قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ أي قول لا إله إلاَّ الله. قال القرطبي في تفسير سورة الإسراء قال أبوالجوزاء: ليس شيء أطرد للشيطان من القلب من قول لا إله إلاَّ الله ثم تلا: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْاْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾﴾. الخامس والعشرون: كلمة الحسنى. قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾﴾.

الخزرجي، صحابي جليل، وأبوه كذلك. استصغر أبوسعيد بأحد، وشهد ما بعدها. مات بالمدينة سنة ثلاث ـ أو أربع أو خمس ـ وستين. وقيل: سنة أربع وسبعين.

قوله: «**أذكرك**» أي أثني عليك به، «**وأدعوك**» أي أسألك به.

قوله: «**قل ياموسى: لا إله إلا الله**» فيه: أن الذاكر بها يقولها كلها[١]، ولا يقتصر على لفظ الجلالة، ولا على «هو» كما يفعله غلاة جهال المتصوفة، فإن ذلك بدعة وضلالة.

قوله: «**كل عبادك يقولون هذا**» ثبت بخط المصنف بالجمع، والذي في الأصول «يقول» بالإفراد مراعاة للفظة «كل» وهو في «المسند» من حديث عبدالله بن عمرو بلفظ الجمع، كما ذكره المصنف على معنى «كل».

ومعنى قوله: «**كل عبادك يقولون هذا**» أي إنما أريد شيئاً تخصني به من بين عموم عبادك، وفي رواية ـ بعد قوله: «**كل عبادك يقولون هذا ـ قل: لا إله إلا الله، قال: لا إله إلا أنت يارب، إنما أريد شيئاً تخصني به**».

ولما كان بالناس ـ بل بالعالم كله ـ[٢] من الضرورة إلى لا إله إلا الله

---

(١) وكيفية ذكر الصوفية نعوذ بالله من فعلهم. أن يبدأ (لا) يميناً ويرجع بـ(إله) فيتوسط. ويختم (إلاَّ الله). وبعضهم يذكر اسماً مفرداً (كالله) (وهو).

(٢) وذلك من رحمته وإحسانه ورأفته جل وعلا وتقدس أن أعز الأشياء أكثرها وجوداً كالعشب والملح والماء دون اللؤلؤ والياقوت والزعفران، ومثل المصحف الكريم الشريف، وهو أعز الكتب، يوجد أكثر وثمنه أرخص من غيره، من كتب الضلال والانحراف، والحجر الأسود الذي هو يمين الله في أرضه وهو أفضل من مقام إبراهيم، والعوام يفرحون بزيارة بعض الأمكنة، وهي ليست مشروعة =

ما لا نهاية له، كانت من أكثر الأذكار وجوداً، وأيسرها حصولاً، وأعظمها معنى. والعوام والجهال يعدلون عنها إلى الدعوات المبتدعة التي ليست في الكتاب ولا في السنة.

قوله: «**وعامرهن غيري**» هو بالنصب عطف على السموات، أي لو أن السموات السبع ومن فيهن من العمار غير الله تعالى، والأرضين السبع[1] ومن فيهن وُضعوا في كفة الميزان، ولا إله إلا الله في الكفة

= وشاقة. كالصعود إلى الغار ونحوه. وكذلك هذه الكلمة الطيبة كلمة الشهادة التي هي أشرف الكلمات، وأنفس العبادات، وأفضل الأذكار، وأكمل الحسنات، وهي أكثر وجوداً وأيسر حصولاً، والعوام يتركونها، ويعدلون إلى أسماء لم ترد ودعوات لم تكن مأثورة، التي غالبها لا أصل له في الكتاب والسنة، فربما والعلم عند الله تعالى أن الله أجرى على لسان الكليم موسى عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ما يكون سبباً للجواب من الرب العظيم لتظهر جلالة هذه الكلمة عند الخواص والعوام ويعتنون بها في كل زمان ومكان ومقام لتحصيل المقصود والمرام وما ذلكم إلاَّ لأنها قطب دائرة الأذكار، ومركز نقطة الأسرار، ولهذا ورد لا إله إلاَّ الله ليس دونها حجاب حتى تصل إلى الله.

(١) في ذلك النص على أن الأرضين سبع كالسموات واحدة فوق الأخرى.
وقد ذكر شيخ الإسلام أبوالعباس ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ عن أبي بكر الأنباري أنه ذكر إجماع أهل الحديث والسنة على أن الأرضين سبع بعضهن فوق بعض.
وذكر الشيخ محمد بن يوسف الكافي في كتابه المسائل الكافية. . الخ.
قال: [المسألة التاسعة عشر] الأرض عقيدة المسلمين فيها أنها سبع أرضين واحدة تحت واحدة، كما أن السماء سبع واحدة فوق واحدة. [إلى أن ذكر] ما رواه الإمام أحمد والبخاري، من حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ أن النبي ﷺ قال: «**من أخذ من الأرض شيئاً بغير حقه خسف به يوم القيامة إلى سبع أرضين**» =

الأخرى، مالت بهن لا إله إلا الله.

وروى الإمام أحمد عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ **«أن نوحاً عليه السلام قال لابنه عند موته: آمرك بلا إله إلا الله، فإن السموات السبع والأرضين السبع لو وضعت في كِفَّة، ولا إله إلا الله في كفة رجحت بهنَّ لا إله إلا الله، ولو أن السموات السبع والأرضين السبع كُنَّ حَلْقة مُبْهمة لَقَصَمَتْهن لا إله إلا الله»**.

قوله: «في كِفَّة» هو بكسر الكاف وتشديد الفاء، أي كفة الميزان.

قوله: «مالت بهن» أي رجحت. وذلك لما اشتملت عليه من نفي الشرك، وتوحيد الله الذي هو أفضل الأعمال. وأساس الملة والدين، فمن قالها بإخلاص ويقين، وعمل بمقتضاها ولوازمها وحقوقها، واستقام على ذلك، فهذه الحسنة لا يوازنها شيء، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝١٣﴾ [الأحقاف: ١٣].

= انتهى. والخسف إنما يكون من تحت.

وقال ابن كثير في كتابه البداية والنهاية بعد أن ساق عدة أحاديث في إثبات سبع أرضين. قال: فهذه الأحاديث كالمتواترة في إثبات سبع أرضين، والمراد بذلك أن كل واحدة فوق الأخرى.. الخ.

وكذلك قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ قد خلق الله سبع أرضين بعضهن فوق بعض كما ثبت في الصحاح عن النبي ﷺ أنه قال: **«من ظلم شبراً من الأرض طوّقه من سبع أرضين يوم القيامة»**.

وكذلك ما قاله الإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب ـ رحمه الله تعالى ـ في المسائل. العاشرة: النص على أن الأرضين سبع كالسموات.

ودل الحديث على أن «لا إله إلا الله» أفضل الذكر. كحديث عبدالله بن عمرو مرفوعاً: **«خير الدعاء دعاء يوم عرفة، وخير ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير»** رواه أحمد والترمذي.

وعنه أيضاً مرفوعاً: **«يُصاحُ برجل من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر له تسعة وتسعون سجلاً، كل سجل منها مدّ البصر، ثم يُقال: أتنكر من هذا شيئاً؟ أظلمكَ كتبتَي الحافظون؟ فيقول: لا يارب. فيقال: أفلك عذر أو حسنة؟ فيهاب الرجل فيقول: لا. فيقال: بلى، إن لك عندنا حسنة وإنه لا ظلم عليك اليوم، فيخرج له بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلاَّ الله وأن محمداً عبده ورسوله، فيقول: يارب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات، فيقال: إنك لا تظلم، فتوضع السجلات في كفة، والبطاقة في كفة، فطاشت السجلات وثقلت البطاقة»**[1] رواه الترمذي ـ

---

(١) قال ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ: وتأمل حديث البطاقة التي توضع في كفة، ويقابلها تسعة وتسعون سجلاً كل سجل منها مد البصر، فتثقل البطاقة، وتطيش السجلات، فلا يعذب. ومعلوم أن كل موحد له مثل هذه البطاقة، وكثير منهم يدخل النار بذنوبه، ولكن السر الذي ثَقّل بطاقة ذلك الرجل، وطاشت لأجله السجلات، لما لم يحصل لغيره من أرباب البطاقات، انفردت بطاقته بالثقل والرزانة.

وإذا أردت زيادة الإيضاح لهذا المعنى، فانظر إلى ذكر من قلبه ملآن بمحبتك وذكرك، ممن هو معرض عنك غافل ساه، مشغول بغيرك، قد انجذبت دواعي قلبه إلى محبة غيرك، وإيثاره عليك، هل يكون ذكرهما واحداً، أم هل يكون ولداك اللذان هما بهذه المثابة عندك سواء.

وتأمل ما قام بقلب قاتل المائة من حقائق الإيمان التي لم تشغله عند السياق عن السير إلى القرية، وحملته وهو في تلك الحال على أن جعل ينوء بصدره، ويعالج=

وحسنه والنسائي وابن حبان والحاكم. وقال: صحيح على شرط مسلم، وقال الذهبي في «تلخيصه»: صحيح.

قال ابن القيم رحمه الله: فالأعمال لا تتفاضل بصورها وعددها، وإنما تتفاضل بتفاضل ما في القلوب، فتكون صورة العملين واحدة، وبينهما من التفاضل كما بين السماء والأرض. قال: وتأمل حديث البطاقة التي توضع في كفَّة ويقابلها تسعة وتسعون سجلاً، كل سجل منها مد البصر، فتثقل البطاقة وتطيش السجلات. فلا يعذب. ومعلوم أن كل موحد له هذه البطاقة، وكثير منهم يدخل النار بذنوبه.

قوله: «رواه ابن حبان والحاكم» ابن حبان اسمه: محمد بن حبان ـ بكسر المهملة وتشديد الموحدة ـ بن أحمد بن حبان بن معاذ، أبوحاتم التميمي البُسْتي الحافظ صاحب التصانيف: كالصحيح، والتاريخ، والضعفاء، والثقات وغير ذلك. قال الحاكم: كان من أوعية العلم في الفقه واللغة والحديث والوعظ ومن عقلاء الرجال. مات سنة أربع وخمسين وثلاثمائة بمدينة بُسْت ـ بضم الموحدة وسكون المهملة ـ.

وأما الحاكم فاسمه: محمد بن عبدالله بن محمد النيسابوري

= سكرات الموت، فهذا أمر آخر وإيمان آخر، ولا جرم أن أُلْحِقَ بالقرية الصالحة وجعل من أهلها.

وقريب من هذا: ما قام بقلب البغيّ التي رأت ذلك الكلب وقد اشتد به العطش، يأكل الثرى، فقام بقلبها ذلك الوقت ـ مع عدم الآلة، وعدم المعين، وعدم من ترائيه بعملها ـ، ما حملها على أن غررت بنفسها في نزول البئر، وملء الماء في خفها، ولم تعبأ بتعرضها للتلف، وحملها خفها بفيها، وهو ملآن، ثم تواضعها لهذا المخلوق، من غير أن ترجو منه جزاءاً ولا شكوراً، فأحرقت أنوار هذا القدر من التوحيد ما تقدم منها من البغاء، فغفر لها.

أبوعبدالله الحافظ ويعرف بابن البيِّع. ولد سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة، وصنف التصانيف، كـ«المستدرك»، و«تاريخ نيسابور» وغيرهما، ومات سنة خمس وأربعمائة.

وللترمذي وحسنه عن أنس رضي الله عنه: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: يابن آدم، لو أتيتني بقُرَابِ الأرضِ خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بِقُرابها مغفرة»[١].

قال المصنف رحمه الله: وللترمذي وحسنه، عن أنس سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«قال الله تعالى: يابن آدم، إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقُرابها مغفرة»**.

ذكر المصنف رحمه الله الجملة الأخيرة من الحديث، وقد رواه الترمذي بتمامه، فقال: عن أنس قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

---

(١) قال ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ: وأما الحديث الآخر: «**لو لقيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً أتيتك بقرابها مغفرة**» فلا يدل على أن ماعدا الشرك كله صغائر، بل يدل على أن من لم يشرك بالله شيئاً فذنوبه مغفورة كائنة ما كانت. ولكن ينبغي أن يعلم ارتباط إيمان القلوب بأعمال الجوارح وتعلقها بها، وإلاَّ لم يفهم مراد الرسول ﷺ ويقع الخلط والتخبيط.
فاعلم أن هذا النفي العام للشرك ـ أن لا يشرك بالله شيئاً البتة ـ لا يصدر من مصر على معصية أبداً، ولا يمكن من الكبيرة والمصر على الصغيرة أن يصفو له التوحيد، حتى لا يشرك بالله شيئاً، هذا من أعظم المحال، ولا يلتفت إلى جَدَليّ لا حظ له من أعمال القلوب، بل قلبه كالحجر أو أقسى يقول: وما المانع، وما وجه الإحالة، ولو فرض ذلك واقعاً، لم يلزم منه محال لذاته.
=

«**قال الله تبارك وتعالى: ياابن آدم، إنك ما دعوتني ورجوتني غفرتُ لك على ما كان منك ولا أبالي، ياابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولاأبالي، ياابن آدم، إنك لوأتيتني. .**» الحديث.

«**الترمذي**» اسمه: محمد بن عيسى بن سَورة ـ بفتح المهملة ـ بن موسى بن الضحاك السلمي أبوعيسى، صاحب «الجامع» وأحد الحفاظ، كان ضرير البصر، روى عن قتيبة وهنّاد والبخاري وخلق، مات سنة تسع وسبعين ومائتين.

و«**أنس**»: هو ابن مالك بن النضر الأنصاري الخزرجي، خادم رسول الله ﷺ. خدمه عشر سنين، وقال له: «**اللهم أكثر ماله وولده، وأدخله الجنة**» مات سنة اثنتين ـ وقيل: ثلاث وتسعين ـ وقد جاوز المائة.

= فدع هذا القلب المفتون بجدله وجهله، واعلم أن الإصرار على المعصية يوجب من خوف القلب من غير الله، ورجائه لغير الله، وحبه لغير الله، وذله لغير الله، وتوكله على غير الله، ما يصير به منغمساً في بحار الشرك، والحاكم في هذا ما يعلمه الإنسان من نفسه إن كان له عقل، فإن ذل المعصية لابد أن يقوم بالقلب، فيورثه خوفاً من غير الله، وذلك شرك، ويورثه محبة لغير الله، واستعانة بغيره في الأسباب التي توصله إلى غرضه، فيكون عمله لا بالله ولا لله، وهذا حقيقة الشرك، نعم قد يكون معه توحيد أبي جهل، وعبّاد الأصنام، وهو توحيد الربوبية، وهو الاعتراف بأنه لا خالق إلاّ الله، ولو أنجى هذا التوحيد وحده لأنجى عبّاد الأصنام. والشأن في توحيد الإلـٰهية الذي هو الفارق بين المشركين والموحدين.

والمقصود: أن من لم يشرك بالله شيئاً يستحيل أن يلقى الله بقراب الأرض خطايا مصراً عليها، غير تائب منها مع كمال توحيده، الذي هو غاية الحب والخضوع والذل والخوف والرجاء للرب تعالى.

وقال ـ رحمه الله تعالى ـ: وليس التوحيد مجرد إقرار العبد بأنه لا خالق إلاّ الله، =

والحديث قد رواه الإمام أحمد من حديث أبي ذر بمعناه، وهذا لفظه: **«ومن عمل قُراب الأرض خطيئة ثم لقيني لا يشرك بي شيئاً جعلت له مثلها مغفرة»** ورواه مسلم، وأخرجه الطبراني من حديث ابن عباس عن النبي ﷺ.

قوله: «لو أتيتني بقراب الأرض» بضم القاف، وقيل: بكسرها، والضم أشهر، وهو ملؤها أو ما يقارب ملأها.

= وأن الله رب كل شيء ومليكه، كما كان عباد الأصنام مقرين بذلك وهم مشركون، بل التوحيد يتضمن من محبة الله، والخضوع له، والذل له، وكمال الانقياد لطاعته، وإخلاص العبادة له، وإرادة وجهه الأعلى، بجميع الأقوال والأعمال، والمنع والعطاء، والحب والبغض، ما يحول بين صاحبه، وبين الأسباب الداعية إلى المعاصي، والإصرار عليها، ومن عرف هذا عرف قول النبي ﷺ: **«إن الله حرم على النار من قال: لا إله إلاَّ الله، يبتغي بذلك وجه الله»**، وقوله: «لا يدخل النار من قال لا إله إلاَّ الله» وما جاء من هذا الضرب من الأحاديث التي أشكلت على كثير من الناس، حتى ظنها بعضهم منسوخة، وحملها بعضهم على نار المشركين والكفار، وظنها بعضهم قيلت قبل ورود الأوامر والنواهي، واستقرار الشرع، وأوَّل بعضهم الدخول بالخلود، وقال: المعنى لا يدخلها خالداً، ونحو ذلك من التأويلات المستكرهة.
والشارع صلوات الله وسلامه عليه، لم يجعل ذلك حاصلاً بمجرد قول اللسان فقط، فإن هذا خلاف المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام، فإن المنافقين يقولونها بألسنتهم، وهم تحت الجاحدين لها في الدرك الأسفل من النار، فلابد من قول القلب، وقول اللسان، وقول القلب يتضمن من معرفتها، والتصديق بها، ومعرفة حقيقة ما تضمنته، من النفي والإثبات، ومعرفة حقيقة الإلـٰهية، المنفية عن غير الله، المختصة به، التي يستحيل ثبوتها لغيره، وقيام هذا المعنىٰ بالقلب، علماً ومعرفة، ويقيناً وحالاً، ما يوجب تحريم قائلها على النار، وكل =

قوله: «ثم لقيتني لاتشرك بي شيئاً» شرطٌ ثقيل في الوعد بحصول المغفرة، وهو السلامة من الشرك: كثيره وقليله، صغيره وكبيره. ولا يسلم من ذلك إلا من سلّم الله تعالى، وذلك هو القلب السليم، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٨ ـ ٨٩]

قال ابن رجب: من جاء مع التوحيد بِقُراب الأرض خطايا لقيه الله بقرابها مغفرة ـ إلى أن قال ـ: فإن كَمُل توحيد العبد وإخلاصه لله تعالى فيه، وقام بشروطه بقلبه ولسانه وجوارحه، أو بقلبه ولسانه عند الموت، أوجب ذلك مغفرة ما قد سلف من الذنوب كلها، ومنعه من دخول النار بالكلية. فمن تحقق بكلمة التوحيد قلبه أخرجت منه كل ما سوى الله: محبة وتعظيماً، وإجلالاً ومهابة، وخشية وتوكلاً، وحينئذٍ تُحرق ذنوبه وخطاياه كلها، وإن كانت مثل زَبد البحر. اهـ ملخصاً.

= قول رتب الشارع ما رتب عليه من الثواب، فإنما هو القول التام، كقوله ﷺ: «**من قال في يوم: سبحان الله وبحمده مائة مرة حطت عنه خطاياه ـ أو غفرت ذنوبه ـ ولو كانت مثل زبد البحر**» وليس هذا مرتباً على مجرد قول اللسان، نعم من قالها بلسانه غافلاً عن معناها، معرضاً عن تدبرها، ولم يواطىء قلبه لسانه، ولا عرف قدرها، راجياً مع ذلك ثوابها، حطت من خطاياه بحسب ما في قلبه، فإن الأعمال لا تتفاضل بصورها وعددها، وإنما تتفاضل بتفاضل ما في القلوب. الخ.

وقال ـ رحمه الله تعالى ـ: اعلم أن أشعة لا إله إلاّ الله تبدد من ضباب الذنوب، وغيومها بقدر قوة ذلك الشعاع وضعفه، فلها نور، وتفاوت أهلها في ذلك النور، قوة وضعفاً لا يحصيه إلاّ الله تعالى.

فمن الناس، من نور هذه الكلمة في قلبه كالشمس، ومنهم من نورها في قلبه كالكوكب الدري، ومنهم من نورها في قلبه كالمشعل العظيم، وآخَر كالسراج المضيء، وآخَر كالسراج الضعيف، ولهذا تظهر الأنوار يوم القيامة بأيمانهم وبين أيديهم على هذا المقدار بحسب ما في قلوبهم من نور هذه الكلمة علماً وعملاً =

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى في معنى الحديث: ويُعفى لأهل التوحيد المحض الذي لم يشوبوه بالشرك ما لا يعفى لمن ليس كذلك. فلولقي الموحد الذي لم يشرك بالله شيئاً البتة ربَّه بقراب الأرض خطايا أتاه بقرابها مغفرة، ولا يحصل هذا لمن نقص توحيده؛ فإن التوحيد الخالص الذي لا يشوبه شرك لا يبقى معه ذنب، لأنه يتضمن من محبة الله وإجلاله وتعظيمه، وخوفه ورجائه وحده ما يوجب غسل الذنوب، ولو كانت قراب الأرض، فالنجاسة عارضة، والدافع لها قوي. اهـ.

وفي هذا الحديث: كثرة ثواب التوحيد، وسعة كرم الله وجوده ورحمته، والرد على الخوارج الذين يكفرون المسلم بالذنوب، وعلى المعتزلة القائلين بالمنزلة بين المنزلتين، وهي الفسوق، ويقولون: ليس بمؤمن ولا كافر، ويخلد في النار. والصواب قول أهل السنة: إنه لا يُسلب عنه اسم الإيمان، ولا يُعطاه على الإطلاق، بل يقال: هو مؤمن عاص، أو مؤمن بإيمانه، فاسق بكبيرته. وعلى هذا يدل الكتاب

= ومعرفة وحالاً.
وكلما عظم نور هذه الكلمة واشتد أحرق من الشبهات والشهوات بحسب قوته وشدته، حتى إنه ربما وصل إلى حال لا يصادف معها شبهة، ولا شهوة ولا ذنباً إلاَّ حرقه، وهذا حال الصادق في توحيده الذي لم يشرك بالله شيئاً، فأي ذنب أو شهوة أو شبهة دنت من هذا النور أحرقها.
فسماء إيمانه قد حرست بالنجوم من كل سارق لحسناته، فلا ينال منها السارق إلاَّ على غرة وغفلة لابد منها للبشر، فإذا استيقظ وعلم ما سُرق منه استنقذه من سارقه، أو حصل أضعافه بكسبه، فهو هكذا أبداً مع لصوص الجن والإنس ليس كمن فتح لهم خزانته، وولى الباب ظهره.

والسنة، وإجماع سلف الأمة.

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: «لما أسري برسول الله ﷺ انتُهي به إلى سدرة المنتهى، فأُعطي ثلاثاً: أُعطي الصلوات الخمس، وخواتيم سورة البقرة، وغفر لمن لا يشرك بالله من أمته شيئاً: المقحِماتُ» رواه مسلم.

قال ابن كثير في «تفسيره»: وأخرج الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه والنسائي، عن أنس بن مالك، قال: «قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ۝٥٦﴾ [المدثر: ٥٦] وقال: «**قال ربكم: أنا أهلٌ أن أُتَّقى فلا يجعل معي إله، فمن اتقى أن يجعل معي إلهاً كان أهلاً أن أغفر له**».

قال المصنف رحمه الله: تأمل الخمس اللواتي في حديث عُبادة، فإنك إذا جمعت بينه وبين حديث عتبان تبين لك معنى قوله: «لا إله إلا الله» وتبين لك خطأ المغرورين.

وفيه: أن الأنبياء يحتاجون للتنبيه على فضل «لا إله إلا الله» والتنبيه لرجحانها بجميع المخلوقات، مع أن كثيراً ممن يقولها يخف ميزانه.
وفيه: إثبات الصفات خلافاً للمعطلة. وفيه: أنك إذا عرفت حديث أنس وقوله في حديث عتبان «**إن الله حرم على النار من قال: لا إله إلا الله، يبتغي بذلك وجه الله**» تبين لك أن ترك الشرك ليس قولها باللسان فقط.

فيــه مســائل:

الأولــى: سعة فضل الله.

الثانيــة: كثرة ثواب التوحيد عند الله.

الثالثــة: تكفيره مع ذلك للذنوب.

الرابعــة: تفسير الآية (٨٢) التي في سورة الأنعام.

الخامسة: تأمل الخمس اللواتي في حديث عبادة.

السادسة: أنك إذا جمعت بينه وبين حديث عتبان وما بعده، تبين لك معنى قول «لا إله إلا الله» وتبين لك خطأ المغرورين.

السابعة: التنبيه للشرط الذي في حديث عتبان.

الثامنة: كون الأنبياء يحتاجون للتنبيه على فضل لا إله إلا الله.

التاسعة: التنبيه لرجحانها بجميع المخلوقات، مع أن كثيراً ممن يقولها يخف ميزانه.

العاشرة: النص على أن الأرضين سبع كالسموات.

الحادية عشرة: أن لهن عُمَّاراً.

الثانية عشرة: إثبات الصفات، خلافاً للمعطلة.

الثالثة عشرة: أنك إذا عرفت حديث أنس، عرفت أن قوله في حديث عتبان: «فإن الله حَرَّمَ علىٰ النار من قال: لا إله إلا الله، يبتغي بذلك وجه الله» أن ترك الشرك، ليس قولها باللسان.

الرابعة عشرة: تأمل الجمع بين كون عيسى ومحمد عبدي الله ورسوليه.

الخامسة عشرة: معرفة اختصاص عيسى بكونه كلمة الله.

السادسة عشرة: معرفة كونه روحاً منه.

السابعة عشرة: معرفة فضل الإيمان بالجنة والنار.

الثامنة عشرة: معرفة قوله: «على ما كان من العمل».

التاسعة عشرة: معرفة أن الميزان له كفتان.

العشرون: معرفة ذكر الوجه.

باب من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب

قوله: «باب من حقق التوحيد دخل الجنة بغير حساب» أي: ولا عذاب.

قلت. تحقيقه: تخليصه وتصفيته من شوائب الشرك والبدع والمعاصي

وقول الله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾(١) [النحل: ١٢٠] **وقال:** ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [المؤمنون: ٥٩].

قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ [النحل: ١٢٠] وصف إبراهيم عليه السلام بهذه الصفات التي هي الغاية في تحقيق التوحيد:

---

(١) وقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾﴾ أثنى الله جل وعلا في هاتين الآيتين الكريمتين على نبيه ورسوله وخليله إبراهيم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام بأنه أمة، أي إمام مقتدى به، يعلم الناس الخير كما قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ وأنه قانت لله، أي مطيع له، وأنه لم يك من المشركين، وأنه شاكر لأنعم الله وأن الله اجتباه، أي اختاره واصطفاه، وأنه هداه إلى صراط مستقيم، وكرر عز وجل هذا الثناء عليه في مواضع أخر كقوله: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾﴾ وقوله: ﴿۞ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ وقوله: ﴿۞ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾﴾ وقوله عنه: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ وقوله: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾. =

الأولى: أنه كان أمة، أي قدوةً وإماماً معلماً للخير، وماذاك إلا لتكميله مقام الصبر واليقين اللّذين تُنال بهما الإمامة في الدين.

الثانية: **قوله**: «قانتاً» قال شيخ الإسلام: القنوت دوام الطاعة، والمصلي إذا أطال قيامه أو ركوعه أو سجوده فهو قانت. قال تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ﴾ [الزمر: ٩] اهـ ملخصاً.

الثالثة: أنه كان حنيفاً.

قلت: قال العلامة ابن القيم: «الحنيف»: المقبل على الله، المعرِض عن كل ما سواه. اهـ.

الرابعة: أنه ما كان من المشركين، أي لصحة إخلاصه وكمال

= وقوله: ﴿ ۞ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ ﴾ إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة في الثناء عليه، وقوله تعالى: ﴿ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ﴾ الآية. قال بعض العلماء: من الحسنة التي آتاه الله في الدنيا الذرية الطيبة، والثناء الحسن، ويستأنس لهذا بأن الله بين أنه أعطاه بسبب إخلاصه لله، واعتزاله أهل الشرك، الذرية الطيبة، وأشار أيضاً بأنه جعل له ثناء حسناً باقياً في الدنيا. قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾ ﴾ وقال: ﴿ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ ﴾ وقال: ﴿ وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٨٤﴾ ﴾ وقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ ذكر الله جل وعلا في هذه الآية الكريمة أنه أوحى إلى نبينا ﷺ الأمر باتباع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين، وبيَّن هذا أيضاً في غير موضع كقوله: ﴿ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ ﴾ وقوله: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ الآية وقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ ﴾ الآيات. والحنيف المائل عن كل دين باطل، إلى دين الحق وهو الإسلام. =

صدقه، وبُعده عن الشرك.

قلت: يوضِّح هذا قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾أي على دينه من إخوانه المرسلين، قاله ابن جريررحمه الله تعالى ﴿إِذْ قَالُواْ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾[الممتحنة: ٤] وذكر تعالى عن خليله عليه السلام أنه قال لأبيه آزر: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾﴾ [مريم: ٤٨-٤٩] فهذا هو تحقيق التوحيد. وهو البراءة من الشرك وأهله واعتزالهم، والكفر بهم وعداوتهم وبُغْضُهم. فالله المستعان.

= ولا ريب أن أهل التوحيد يتفاوتون في توحيدهم علماً ومعرفة وحالاً، تفاوتاً لا يحصيه إلاّ الله، فأكمل الناس توحيداً الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، والمرسلون منهم أكمل في ذلك، وأولوا العزم من الرسل أكمل توحيداً، وهم نوح وإبراهيم، وموسى وعيسىٰ ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم، فإنهم قاموا من التوحيد بما لم يقم به غيرهم، علماً ومعرفةً وحالاً، ودعوة للخلق، وجهاداً، فلا توحيد أكمل من الذي قامت به الرسل، ودعوا إليه، وجاهدوا الأمم عليه، ولهذا أمر الله سبحانه نبيه ﷺ أن يقتدي بهم فيه، كما قال سبحانه بعد ذكر إبراهيم ومناظرته أباه وقومه في بطلان الشرك وصحة التوحيد، وذكر الأنبياء من ذريته، ثم قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ فلا أكمل من توحيد من أُمر رسول الله ﷺ أن يقتدي بهم، ولما قاموا بحقيقته، علماً وعملاً ودعوة وجهاداً، جعلهم الله أئمة للخلائق، يهدون بأمره، ويدعون إليه، وجعل الخلائق تبعاً لهم، يأتمون بأمرهم، وينتهون إلى ما وقفوا بهم عنده، وخصَّ بالسعادة والفلاح والهدى أتباعهم، وبالشقاوة والضلال مخالفيهم، وقال لإمامهم إبراهيم=

قال المصنف رحمه الله في هذه الآية: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ لئلا يستوحش سالك الطريق من قلة السالكين ﴿قَانِتًا لِّلَّهِ﴾ لا للملوك ولا للتجار المترَفين ﴿حَنِيفًا﴾ لا يميل يميناً ولا شمالاً، كفعل العلماء المفتونين ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾﴾ خلافاً لمن كثَّر سوادَهم وزعم أنه من المسلمين. اهـ.

وقد روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ على الإسلام. ولم يكن في زمانه أحد على الإسلام غيره.

= خليله: ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ أي لا ينال عهدي بالإمامة مشرك، ولهذا أوصى نبيه محمداً ﷺ أن يتبع ملة إبراهيم، وكان يعلِّم أصحابه إذا أصبحوا أن يقولوا: «**أصبحنا على فطرة الإسلام، وكلمة الإخلاص، ودين نبينا محمد ﷺ، وملة أبينا إبراهيم، حنيفاً مسلماً، وما كان من المشركين**».

فملة إبراهيم التوحيد، ودين محمد ما جاء به من عند الله قولاً، وعملاً، واعتقاداً، وكلمة الإخلاص هي شهادة أن لا إله إلاّ الله، وفطرة الإسلام هي ما فطر الله عليه عباده من محبته وعبادته وحده لا شريك له، والاستسلام له، عبودية وذلاً، وانقياداً وإنابة.

فهذا هو التوحيد الذي من رغب عنه فهو من أسفه السفهاء. قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾﴾.

فقسم سبحانه الخلائق قسمين: سفيهاً لا أسفه منه، ورشيداً. فالسفيه من رغب عن ملته إلى الشرك، والرشيد من تبرأ من الشرك قولاً وعملاً وحالاً، فكان قوله توحيداً، وعمله توحيداً، وحاله توحيداً، ودعوته إلى التوحيد، وبهذا أمر الله سبحانه جميع المرسلين، من أولهم إلى آخرهم قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ الآيات.

قلت: ولا منافاة بين هذا وبين ما تقدم: من أنه كان إماماً يقتدى به في الخير.

قال: وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾[(١)] وَٱلَّذِينَ هُم

---

(١) قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ أي مع إحسانهم وإيمانهم وعملهم الصالح مشفقون من الله، خائفون منه، وجلون من مكره بهم، كما قال الحسن البصري: إن المؤمن جمع إحساناً وشفقة، وإن المنافق جمع إساءة وأمنا. وقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ أي يؤمنون بآياته الكونية والشرعية كقوله تعالى إخباراً عن مريم عليها السلام: ﴿ وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ ﴾ أي أيقنت أن ما كان إنما هو عن قدر الله وقضائه، وما شرعه الله فهو إن كان أمراً فمما يحبه ويرضاه، وإن كان نهياً فهو مما يكرهه ويأباه، وإن كان خيراً فهو حق. قاله ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ.

ثم ذكر الشارح ـ رحمه الله تعالى ـ ما ذكره ابن كثير على قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ وقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾.

قال ابن كثير: أي يعطون العطاء وهم خائفون وجلون أن لا يتقبل منهم لخوفهم أن يكونوا قد قصروا في القيام بشروط الإعطاء. وهذا من باب الإشفاق والاحتياط. كما روى الإمام أحمد في مسنده عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت: يارسول الله: الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر، وهو يخاف الله عز وجل؟ قال: «**لا يا بنت أبي بكر يا بنت الصديق، ولكنه الذي يصلي ويصوم ويتصدق، وهو يخاف الله عز وجل**» وهكذا رواه الترمذي وابن أبي حاتم من حديث مالك به بنحوه. وقال: «**لا يا ابنة الصديق، ولكنهم الذين يصلون ويصومون ويتصدقون وهم يخافون أن لا يتقبل منهم، أولئك الذين يسارعون في الخيرات**».

قال بعضهم: ترتيب هذه الصفات في نهاية الحسن، لأن الأولى: دلت على حصول الخوف الشديد الموجب للاحتراز. والثانية: على تحصيل الإيمان بالله. والثالثة: على ترك الرياء في الطاعة. والرابعة: على أن المستجمع لهذه الصفات=

بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [المؤمنون: ٥٧ ـ ٥٩].

وصف المؤمنين السابقين إلى الجنة، فأثنى عليهم بالصفات التي أعظمها: أنهم بربهم لا يشركون. ولما كان المرءُ قد يَعرض له ما يَقْدحُ في إسلامه: من شرك جَليٍّ أو خفي نفى ذلك عنهم، وهذا هو تحقيق التوحيد، الذي حَسُنت بهم أعمالهم، وكملت ونفعتهم.

قلت: قوله: «حسنت وكملت» هذا باعتبار سلامتهم من الشرك الأصغر، وأما الشرك الأكبر فلا يقال في تركه ذلك، فتدبر. ولو قال الشارح: صحت، لكان أقوم.

قال ابن كثير: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾ أي لا يعبدون مع الله غيره، بل يوحدونه ويعلمون أنه: لا إله إلا الله، أحد صمد، لم يتخذ صاحبة ولا ولداً، وأنه لا نظير له.

عن حُصين بن عبدالرحمن قال: «كنتُ عند سعيد بن جبير، فقال: أيكم رأى الكوكبَ الذي انقضَّ البارحة؟ فقلتُ: أنا، ثم قلتُ: أمَا إني لم أكن في صلاة، ولكني لُدغْت، قال: فما صنعتَ؟ قلت: ارتقيتُ. قال: فما حَمَلك على ذلك؟ قلتُ: حديث حدثناه الشَّعبي، قال: وما حدثكم؟ قلت: حدثنا عن بُرَيدة بن الحُصَيب أنه قال: «لا رُقيةَ إلا مِن عَين أو حُمَة» قال: قد أحسنَ من انتهى إلى ما سمع.

ولكن حدثنا ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «عُرضت

= الثلاثة يأتي بالطاعة مع خوف من التقصير، وهو نهاية مقامات الصديقين.

عليَّ الأمم، فرأيت النبيَّ ومعه الرهط، والنبيَّ ومعه الرجل والرجلان، والنبيَّ وليس مع أحد. إذ رُفِع لي سوادٌ عظيم، فظننتُ أنهم أُمتي، فقيل لي: هذا موسى وقومه، فنظرت فإذا سوادٌ عظيم، فقيل لي: هذه أُمتك ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنةَ بغير حساب ولا عذاب». ثم نهض فدخل منزله، فخاض الناسُ في أُولئك، فقال بعضُهم: فلعلهُم الذين صحِبوا رسول الله ﷺ. وقال بعضهم: فلعلهم الذين وُلِدُوا في الإسلام، فلم يشركوا بالله شيئاً، وذكروا أشياء، فخرج عليهم رسولُ الله ﷺ فأخبروه، فقال: «هم الذين لا يسْتَرْقُونَ، ولا يكتوون ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون». فقام عُكاشة بن مِحْصَن فقال: ادعُ الله أن يجعلني منهم. قال: «أنت منهم»، ثم قام رجلٌ آخرُ فقال: ادعُ الله أن يجعلني منهم. فقال: «سبقك بها عُكَّاشة».

قال المصنف: عن حُصين بن عبدالرحمن قال: «كنتُ عند سعيد بن جبير، فقال: أيكم رأى الكوكبَ الذي انقضَّ البارحة؟ فقلتُ: أنا، ثم قلتُ: أمَا إني لم أكن في صلاة، ولكني لُدغْت، قال: فما صنعتَ؟ قلت: ارتقيتُ. قال: فما حَمَلك على ذلك؟ قلتُ: حديث حدثناه الشَّعبي، قال: وماحدثكم؟ قلت: حدثنا عن بُرَيدة بن الحُصَيب أنه قال: «لا رُقيةَ إلا مِن عَين أو حُمَة» قال: قد أحسنَ من انتهى إلى ما سمع. ولكن حدثنا ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «**عُرضت عليَّ الأمم،**

فرأيت النبيَّ ومعه الرهط، والنبيَّ ومعه الرجل والرجلان، والنبيَّ وليس مع أحد. إذ رُفع لي سوادٌ عظيم، فظننتُ أنهم أُمتي، فقيل لي: هذا موسى وقومه، فنظرت فإذا سوادٌ عظيم، فقيل لي: هذه أُمتك ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب». ثم نهض فدخل منزله، فخاض الناسُ في أُولئك، فقال بعضُهم: فلعلهُم الذين صحِبوا رسول الله ﷺ. وقال بعضهم: فلعلهم الذين وُلِدُوا في الإسلام، فلم يشركوا بالله شيئاً، وذكروا أشياء، فخرج عليهم رسولُ الله ﷺ فأخبروه، فقال: «هم الذين لا يسْتَرْقُونَ، ولا يكتوون ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون». فقام عُكاشة بن مِحْصَن فقال: ادعُ الله أن يجعلني منهم. قال: «أنت منهم»، ثم قام رجلٌ آخرُ فقال: ادعُ الله أن يجعلني منهم. فقال: «سبقك بها عُكاشة».

هكذا أورده المصنف غير مَعزُوّ، وقد رواه البخاري مختصراً ومطولاً، ومسلم، واللفظ له، والترمذي والنسائي.

قوله: «**عن حصين بن عبدالرحمن**» هو السلمي، أبوالهذيل الكوفي، ثقة مات سنة ست وثلاثين ومائة، وله ثلاث وتسعون سنة.

و«**سعيد بن جبير**»: هو الإمام الفقيه من جِلّة أصحاب ابن عباس، روايته عن عائشة وأبي موسى مرسلة. وهو كوفي مولى لبني أسَد، قُتل بين يدي الحجاج سنة خمس وتسعين، ولم يكمل الخمسين.

قوله: «**انقض**» هو بالقاف والضاد المعجمة أي سقط، و«**البارحة**» هي أقرب ليلة مضت. قال أبوالعباس ثعلب: يقال قبل الزوال: رأيت الليلة، وبعد الزوال: رأيت البارحة، وكذا قال غيره. وهي مشتقة من بَرح: إذا زال.

قوله: «**أما إني لم أكن في صلاة**» قال في «مغني اللبيب»: «أما» بالفتح

والتخفيف على وجهين: أحدهما: أن تكون حرف استفتاح بمنزلة «ألا» فإذا وقعت «أنّ» بعدها كسرت. الثاني: أن تكون بمعنى حقاً، أو أحق. وقال آخرون: هي كلمتان. الهمزة للاستفهام، و«ما» اسم بمعنى شيء، أي أذلك الشيء حق. فالمعنى أحق هذا؟ وهو الصواب. و«ما» نصب على الظرفية، وهذه تفتح «أنَّ» بعدها. انتهى.

والأنسب هنا هو الوجه الأول، والقائل هو حصين، خاف أن يظن الحاضرون أنه رآه وهو يصلي، فنفي عن نفسه إيهام العبادة. وهذا يدل على فضل السلف، وحرصهم على الإخلاص وبعدهم عن الرياء والتزين بما ليس فيهم.

قوله: «**ولكني لدغت**» بضم أوله وكسر ثانيه. قال أهل اللغة: يقال لدغته العقرب وذوات السموم: إذا أصابته بسمها، وذلك بأن تأبِره بشوْكتها.

قوله: «**قلت: ارتقيت**» لفظ مسلم: «**استرقيت**» أي طلبت من يرقيني.

قوله: «**فما حملك على ذلك؟**» فيه طلب الحجة على صحة المذهب.

قوله: «**حديث حدثناه الشعبي**» اسمه: عامر بن شُرَاحيل الهمداني، ولد في خلافة عمر، وهو من ثقات التابعين وفقهائهم مات سنة ثلاث ومائة.

قوله: «**عن بريدة**» بضم أوله وفتح ثانية تصغير بردة. ابن الحصيب - بضم الحاء وفتح الصاد المهملتين - ابن الحارث الأسلمي، صحابي شهير. مات سنة ثلاث وستين. قاله ابن سعد.

قوله: «**لا رقية إلا من عين أو حمة**»[1] وقد رواه أحمد وابن ماجه عنه

---

(١) العين هي من الإنس كالنفس من الجن وهي حق ولها تأثير. لكن لا تأثير لها إلاّ بإذن الله عز وجل. قال الله تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ﴾ الآية فسره بإصابة العين ابن عباس ومجاهد وغيرهما. وفي تحقيقها أحاديث. ففي صحيح =

مرفوعاً. ورواه أحمد وأبوداود والترمذي عن عمران بن حصين به مرفوعاً. قال الهيثمي: رجال أحمد ثقات.

و«العين»: هي إصابة العائن غيره بعينه. و«الحمة» ـ بضم المهملة وتخفيف الميم ـ سم العقرب وشبهها.

قال الخطابي: ومعنى الحديث. لا رقية أشفى وأولى من رقية العين والحمة. وقد رَقى النبي ﷺ ورُقِي.

قوله: «**قد أحسن من انتهى إلى ما سمع**» أي من أخذ بما بلغه من العلم

= مسلم عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ﷺ قال: «**العين حق ولو كان شيء سابق القدر سبقت العين، وإذا استغسلتم فاغسلوا**».

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «**العين حق**» ولأحمد عنه أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «**العين حق ويحضرها الشيطان وحسد ابن آدم**» وروى الترمذي والنسائي وابن ماجه عن أسماء ـ رضي الله عنها ـ قالت: يارسول الله إن بني جعفر تصيبهم العين أفأسترقي لهم قال: «**نعم فلو كان يسبق القدر لسبقته العين**».

وأما الحمة: فهي كما ذكر الشارح ـ رحمه الله تعالى ـ هي تطلق على لدغ ذوات السموم كالحية والعقرب وغيرهما وكذلك الرقية من النملة كما في حديث أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: رخص رسول الله ﷺ في الرقية من **العين** والحمة والنملة. رواه أحمد ومسلم والترمذي قال أبوالبركات ابن تيمية: النملة قروح تخرج في الجنب.

وقوله: (رخص) والرخصة إنما تكون بعد النهي وكان ﷺ قد نهى عن الرقى لما عسى أن يكون فيها من الألفاظ الجاهلية فانتهى الناس عن الرقى فرخص لهم فيها إذا عريت من الألفاظ الجاهلية. لما روى مسلم وأبوداود عن عوف بن مالك قال: كنا نرقي في الجاهلية فقلنا: يارسول الله كيف ترى في ذلك؟ فقال: «**اعرضوا عليَّ رقاكم لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك**».

وعمل به فقد أحسن، بخلاف من يعمل بجهل، أو لا يعمل بما يعلم، فإنه مسيء آثم. وفيه فضيلة علم السلف وحسن أدبهم.

قوله: «**ولكن حدثنا ابن عباس**» هو عبدالله بن عباس بن عبدالمطلب، ابن عم النبي ﷺ، دعا له فقال: «**اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل**» فكان كذلك. مات بالطائف سنة ثمان وستين.

قال المصنف رحمه الله: وفيه عمق علم السلف لقوله: «قد أحسن من انتهى إلى ما سمع» ولكن كذا وكذا. فعلم أن الحديث الأول لا يخالف الثاني.

قوله: «**عُرضت عليّ الأمم**» وفي الترمذي والنسائي من رواية عَبثر بن القاسم عن حصين بن عبدالرحمن «أن ذلك كان ليلة الإسراء» قال الحافظ: فإن كان ذلك محفوظاً كان فيه قوة لمن ذهب إلى تعدد الإسراء، وأنه وقع بالمدينة أيضاً.

قلت: وفي هذا نظر.

قوله: «**فرأيت النبي ومعه الرهط**» والذي في «صحيح مسلم» «الرهيط» بالتصغير لا غير، وهم الجماعة دون العشرة، قاله النووي.

قوله: «**والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد**» فيه الرد على من احتج بالكثرة.

قوله: «**إذ رفع لي سواد عظيم**» المراد هنا الشخص الذي يُرى من بعيد.

قوله: «**فظننت أنهم أمتي**» لأن الأشخاص التي ترى في الأفق لا يدرك منها إلا الصورة.

وفي «صحيح مسلم»: «**ولكن انظر إلى الأفق**» ولم يذكره المصنف، فلعله سقط من الأصل الذي نقل الحديث منه. والله أعلم.

قوله: «**فقيل لي: هذا موسى وقومه**» أي موسى بن عمران، كليم الرحمن،

وقومه: أتباعه على دينه من بني إسرائيل.

قوله: «**فنظرت فإذا سواد عظيم، فقيل لي: هذه أمتك ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب**» أي لتحقيقهم التوحيد.

وفي رواية ابن فضيل: «**ويدخل الجنة من هؤلاء من أمتك سبعون ألفاً**».

وفي حديث أبي هريرة في «الصحيحين»: «**أنهم تضيء وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر**».

وروى الإمام أحمد والبيهقي في حديث أبي هريرة «**فاستزدت ربي فزادني مع كل ألف سبعين ألفاً**» قال الحافظ: وسنده جيد.

قوله: «**ثم نهض**» أي قام.

قوله: «**فخاض الناس في أولئك**» «خاض» بالخاء والضاد المعجمتين.

وفي هذا إباحة المناظرة والمباحثة في نصوص الشرع على وجه الاستفادة وبيان الحق.

وفيه عُمق علم السلف لمعرفتهم أنهم لم ينالوا ذلك إلا بعمل.

وفيه حرصهم على الخير. ذكره المصنف.

قوله: «**فقال هم الذين لا يسترقون**»[1] هكذا ثبت في «الصحيحين» وهو

---

(١) فإن قيل فما الجمع بين هذا وبين الأحاديث الصحيحة التي فيها الإذن بالرقى، وكما جاء في حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنها قالت: كان إذا اشتكى رسول الله ﷺ رقاه جبريل قال: بسم الله يبريك ومن كل داء يشفيك ومن شر حاسد إذا حسد، وشر كل ذي عين. رواه مسلم.
وكما في الصحيح عن عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ يأمرني أن أسترقي من العين. رواه مسلم.
وروىٰ مسلم عن أم سلمة أن رسول الله ﷺ قال لجارية في بيت أم سلمة رأى =

كذلك في حديث ابن مسعود في «مسند أحمد». وفي رواية لمسلم «**ولا يرقون**». قال شيخ الإسلام ابن تيمية: هذه الزيادة وهمٌ من الراوي، لم يقل النبي ﷺ: «**ولا يرقون**»، وقد قال النبي ﷺ وقد سئل عن الرُّقى: «**من استطاع منكم أن ينفع أخاه فلينفعه**».

= بوجهها سعفة فقال: «**بها نظرة فاسترقوا لها**»، يعني بوجهها صفرة.
والجواب عن الحديث الأول؛ وهو أن النبي ﷺ يرقاه جبريل. فيقال إن جبريل يرقاه بغير طلب من النبي ﷺ فيحصل الجمع بين الحديثين. وأما إذنه ﷺ في الرقية مع قوله: «**هم الذين لا يسترقون**» الخ. فيقال: إن المدح في ترك الرقى للأفضلية.
وبيان التوكل فهم لا يطلبون الرقية من أحد ولا يكتوون ـ إذا كان فيهم ما يستشفىٰ منه بالكي ـ، ولا يتطيرون ـ والطيرة شرك فتركوا الشرك رأساً ـ، ولم ينزلوا حوائجهم بأحد، فيسألونه الرقية فما فوقها، وتركوا الكي وإن كان يراد للشفاء.
والحامل لهم على ذلك قوة توكلهم على الله، وتفويضهم أمورهم إليه، وأن لا تتعلق قلوبهم بشيء سواه، في ضمن ما دبره وقضاه، فلا يرغبون إلاَّ إلى ربهم، ولا يرهبون إلاَّ منه، ويعتقدون أن ما أصابهم بقدره واختياره لهم فلا يفزعون إلاَّ إليه وحده في كشف ضرهم، قال الله تعالى عن يعقوب عليه السلام: ﴿إِنَّمَآ أَشْكُواْ بَثِّي وَحُزْنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ وأما النووي فقد رأى الجمع في ذلك أن المدح في هذا الحديث المراد به الرقى التي هي من كلام الكفار، والرقى المجهولة، والتي بغير العربية، وما لا يعرف معناها، فهذه مذمومة لاحتمال أن معناها كفر أو قريب منه أو مكروه.
وأما الرقى بآيات القرآن وبالأذكار المعروفة فلا نهي فيه بل هو سنة. انتهى كلامه.
والمختار هو الجمع الأول لا ما رآه النووي في ذلك لأن الكي ليس فيه شيء مجهول، ومع ذلك فهو مما مدح تركه، فيكون الجمع ما ذكره الشيخ محمد بن عبدالوهاب في المسائل بقوله الخامسة: (كون ترك الرقية والكي من تحقيق التوحيد) فترك ذلك من تحقيق التوحيد، وفعل الرقية والكي رخصة ومأذون فيه، فلا إثم على فاعله فيه.

وقال: «**لا بأس بالرُّقىٰ ما لم تكن شركاً**».

قال: وأيضاً فقد رقى جبريلُ النبي ﷺ ورقى النبي ﷺ أصحابه.

قال: والفرق بين الراقي والمسترقي: أن المسترقي سائل مستعط ملتفت إلى غير الله بقلبه، والراقي محسن.

قال: وإنما المراد وصف السبعين ألفاً بتمام التوكل، فلا يسألون غيرهم أن يرقيهم ولا يكويهم. وكذا قال ابن القيم.

قوله: «**ولا يكتوون**» أي لا يسألون غيرهم أن يكويهم، كما لا يسألون غيرهم أن يرقيهم استسلاماً للقضاء، وتلذذاً بالبلاء.

قلت: والظاهر أن قوله: «لا يكتوون» أعم من أن يسألوا ذلك أو يُفعل ذلك باختيارهم، أما الكيُّ في نفسه فجائز، كما في «الصحيح» عن جابر بن عبدالله «**أن النبي ﷺ بعث إلى أبي بن كعب طبيباً، فقطع له عِرقاً وكواه**».

وفي «صحيح البخاري» عن أنس «أنه كوى من ذات الجنب والنبي ﷺ حيٌّ».

وروى الترمذي وغيره عن أنس «أن النبي ﷺ كوى أسعد بن زُرارة من الشوكة».

وفي «صحيح البخاري» عن ابن عباس مرفوعاً «**الشفاء في ثلاث: شربة عسل، وشرطة محجم، وكيّة نار. وأنا أنهى أمتي عن الكي**» وفي لفظ «**وما أحب أن أكتوي**».

قال ابن القيم رحمه الله: قد تضمنت أحاديث الكي أربعة أنواع: أحدها: فِعله. والثاني: عدم محبته، والثالث: الثناء على من تركه، والرابع: النهي عنه. ولا تعارُض بينها بحمد الله، فإن فعله له يدل على جوازه، وعدم محبته له لا يدل على المنع منه. وأما الثناء على تاركه

فيدل على أن تركه أولى وأفضل، وأما النهي عنه فعلى سبيل الاختيار والكراهة.

قوله: «**ولا يتطيرون**» أي لا يتشاءمون بالطيور ونحوها. وسيأتي إن شاء الله تعالى بيان الطيرة وما يتعلق بها في بابها.

قوله: «**وعلى ربهم يتوكلون**» ذكر الأصل الجامع الذي تفرعت عنه هذه الأفعال والخصال، وهو التوكل على الله، وصِدق الالتجاء إليه، والاعتماد بالقلب عليه، الذي هو نهاية تحقيق التوحيد الذي يثمر كل مقام شريف: من المحبة والرجاء والخوف، والرضى، به ربًّا وإلٰهاً، والرضى بقضائه.

واعلم أن الحديث لا يدل على أنهم لا يباشرون الأسباب أصلاً؛ فإن مباشرة الأسباب في الجملة أمر فطري ضروري، لا انفكاك لأحد عنه، بل نفس التوكل: مباشرة لأعظم الأسباب كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣] أي كافيه. وإنما المراد أنهم يتركون الأمور المكروهة مع حاجتهم إليها، توكلاً على الله تعالى، كالاكتواء والاسترقاء، فتركهم له لكونه سبباً مكروهاً، لاسيما والمريض يتشبث ـ فيما يظنه سبباً لشفائه ـ بخيط العنكبوت.

وأما مباشرة الأسباب والتداوي على وجه لا كراهة فيه، فغير قادح في التوكل، فلا يكون تركه مشروعاً؛ لما في «الصحيحين» عن أبي هريرة مرفوعاً «**ما أنزل الله من داء إلا أنزل له شفاء، عَلمه من علمَه، وجهله من جهله**».

وعن أسامة بن شريك، قال: «كنت عند النبي ﷺ وجاءت الأعراب، فقالوا: يارسول الله، أنتداوى؟ قال: «**نعم ياعباد الله تداووا؛ فإن الله عزوجل لم يضع داءً إلا وضع له شفاءً غير داءٍ واحد**». قالوا: وما هو؟

قال: «**الهرم**» رواه أحمد.

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى: وقد تضمنت هذه الأحاديث إثبات الأسباب والمسببات، وإبطال قول من أنكرها، والأمر بالتداوي، وأنه لا ينافي التوكل، كما لا ينافيه دفع ألم الجوع والعطش، والحر والبرد: بأضدادها، بل لا تتم حقيقة التوحيد إلا بمباشرة الأسباب التي نصبها الله تعالى مقتضية لمسبباتها قدراً وشرعاً، وأن تعطيلها يقدح في نفس التوكل، كما يقدح في الأمر والحكمة، ويضعفه من حيث يظن معطِّلها أن تركها أقوى في التوكيل، فإن ترْكها عجز ينافي التوكل الذي حقيقته اعتماد القلب على الله تعالى في حصول ما ينفع العبد في دينه ودنياه، ودفع ما يضره في دينه ودنياه. ولابد مع هذا الاعتماد من مباشرة الأسباب، وإلا كان معطلاً للحكمة والشرع، فلا يجعل العبد عجزه توكلاً ولا توكله عجزاً.

وقد اختلف العلماء في التداوي: هل هو مباح، وتركه أفضل، أو مستحب أو واجب؟

فالمشهور عن أحمد الأول؛ لهذا الحديث وما في معناه، والمشهور عند الشافعية الثاني، حتى ذكر النووي في «شرح مسلم»: أنه مذهبهم ومذهب جمهور السلف وعامة الخلف، واختاره الوزير أبوالمظفر. قال: ومذهب أبي حنيفة: أنه مؤكد حتى يداني به الوجوب. قال: ومذهب مالك: أنه يستوي فعله وتركه، فإنه قال: لا بأس بالتداوي، ولا بأس بتركه.

وقال شيخ الإسلام: ليس بواجب عند جماهير الأئمة، وإنما أوجبه طائفة قليلة من أصحاب الشافعي وأحمد.

قوله: «**فقام عُكَّاشة بن مِحْصَن**»هو بضم العين وتشديدالكاف، و«محصن»

بكسر الميم وسكون الحاء وفتح الصاد المهملتين ـ ابن حُرثان ـ بضم المهملة وسكون الراء بعدها مثلثة ـ الأسدي. من بني أسد بن خزيمة، كان من السابقين إلى الإسلام ومن أجمل الرجال. هاجر وشهد بدراً وقاتل فيها، واستشهد في قتال الرِّدَّة مع خالد بن الوليد بيد طُليحة الأسدي سنة اثنتي عشرة، ثم أسلم طليحة بعد ذلك وجاهد الفرس يوم القادسية مع سعد بن أبي وقاص واستشهد في وقعة الجسر المشهورة.

قوله: «فقال: يارسول الله، ادع الله أن يجعلني منهم، قال: أنت منهم» وللبخاري في رواية: «فقال: اللهم اجعله منهم» وفيه: طلب الدعاء من الفاضل.

قوله: «ثم قام رجل آخر» ذكره مبهماً، ولا حاجة بنا إلى البحث عن اسمه.

قوله: «فقال سبقك بها عكاشة» قال القرطبي: لم يكن عند الثاني من الأحوال ما كان عند عكاشة. فلذلك لم يجبه، إذ لو أجابه لجاز أن يطلب ذلك كل من كان حاضراً فيتسلسل الأمر، فسدَّ الباب بقوله ذلك. اهـ.

قال المصنف رحمه الله تعالى: وفيه استعمال المعاريض وحسن خلقه ﷺ.

فيـه مسـائل:

الأولى: معرفةُ مراتب الناس في التوحيد.

الثانية: ما معنى تحقيقه.

الثالثة: ثناؤه سبحانه على إبراهيم بكونه لم يكُ من المشركين.

الرابعة: ثناؤه على سادات الأولياء بسلامتهم من الشرك.

الخامسة: كون ترك الرُّقية والكي من تحقيق التوحيد.

السادسة: كون الجامع لتلك الخصال هو التوكل.

السابعة: عُمْقُ عِلم الصحابة لمعرفتهم أنهم لم ينالوا ذلك إلا بعمل.

الثامنة: حرصهم على الخير.

التاسعة: فضيلة هذه الأمة بالكمِّية والكيفيَّة.

العاشرة: فضيلة أصحاب موسى.

الحادية عشرة: عرضُ الأمم عليه، عليه الصلاة والسلام.

الثانية عشرة: أن كل أمةٍ تُحْشر وحدها مع نبيها.

الثالثة عشرة: قِلَّة من استجابَ للأنبياء.

الرابعة عشرة: أن من لم يجبه أحدٌ يأتي وحده.

الخامسة عشرة: ثمرة هذا العلم، وهو عدمُ الاغترار بالكثرة، وعدم الزُّهد في القلَّة.

السادسة عشرة: الرخصة في الرُّقْية من العين والحُمَة.

السابعة عشرة: عمقُ علم السلفِ لقوله: «قد أحسن من انتهى إلى ما سمع ولكن كذا وكذا». فعلم أن الحديث الأول لا يخالفُ الثاني.

الثامنة عشرة: بُعد السلف عن مَدْح الإنسان لما ليس فيه.

التاسعة عشرة: قوله: «أنت منهم» عَلَمٌ من أعلام النبوة.

العشرون: فضيلة عكاشة.

الحادية والعشرون: استعمال المعاريض.

الثانية والعشرون: حسن خُلُقه ﷺ.

باب الخوف من الشرك

وقول الله عزوجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨ و١١٦].

قوله: «باب الخوف من الشرك» وقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾(١)

---

(١) وقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أنه تعالى لا يغفر الإشراك به، وأنه يغفر غير ذلك لمن يشاء وأن من أشرك به فقد افترى إثماً عظيماً.

وذكر في مواضع أخر: أن محل كونه لا يغفر الإشراك به إذا لم يتب المشرك من ذلك. فإن تاب غفر له كقوله: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ الآية فإن الاستثناء راجع لقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ وما عطف عليه لأن معنى الكل جمع في قوله: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾﴾ الآية. وقوله: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾.

وذكر في موضع آخر: أن من أشرك بالله فقد ضل ضلالاً بعيداً عن الحق وصرح بأن من أشرك بالله فالجنة عليه حرام ومأواه النار بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾ وقوله: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا۟ عَلَيْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾﴾.

وذكر في موضع آخر: أن المشرك لا يرجىٰ له خلاص، وهو قوله: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾.

وصرح ـ جل وعلا ـ في موضع آخر: بأن الإشراك ظلم عظيم بقوله عن لقمان مقرراً له: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾.

=

قال ابن كثير: أخبر تعالى أنه: ﴿لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ أي لا يغفر لعبد لقيه وهو مشرك ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ أي: من الذنوب لمن يشاء من عباده. انتهى.

فتبين بهذه الآية أن الشرك أعظم الذنوب؛ لأن الله تعالى أخبر أنه لا يغفره لمن لم يتب منه، وما دونه من الذنوب فهو داخل تحت المشيئة: إن شاء غفره لمن لقيه به، وإن شاء عذبه به، وذلك يوجب للعبد شدة الخوف من الشرك الذي هذا شأنه عند الله؛ لأنه أقبح القبيح وأظلم الظلم، وتنقص لرب العالمين، وصرف خالص حقه لغيره، وعدلُ غيره به، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۝١﴾ [الأنعام: ١]

= وذكر في موضع آخر: أن الأمن التام والاهتداء إنما هما لمن لم يلبس إيمانه بشرك وهو قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ۝٨٢﴾ وقد صح عنه ﷺ أن معنى يظلم: يشرك.

قال ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ في الجواب الكافي: الشرك شركان: شرك يتعلق بذات المعبود وأسمائه وصفاته وأفعاله. وشرك في عبادته ومعاملته وإن كان صاحبه يعتقد أنه سبحانه لا شريك له في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله.

[الشرك الأول نوعان] أحدهما: التعطيل، وهو أقبح أنواع الشرك، كشرك فرعون، إذ قال: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٣﴾ قال تعالى مخبراً عنه أنه قال: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ۝٣٦ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾. فالشرك والتعطيل متلازمان فكل مشرك معطل، وكل معطل مشرك.

قال ابن القيم في النونية:

واعلم بأن الشرك والتعطيل مذ	كانا هما لا شك مصطحبان
أبداً فكل معطل هو مشرك	حتماً وهذا واضح التبيان=

ولأنه مناقض للمقصود بالخلق والأمر، منافٍ له من كل وجه، وذلك غاية المعاندة لرب العالمين، والاستكبار عن طاعته، والذل له، والانقياد لأوامره الذي لا صلاح للعالم إلا بذلك، فمتى خلا منه خرب وقامت القيامة، كما قال ﷺ: **«لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض الله، الله»** رواه مسلم.

= فالعبد مضطر إلى من يكشف الـ ـبلوى ويغني فاقة الإنسان
وإليه يصمد في الحوائج كلها وإليه يفزع طالباً لأمان
فإذا انتفت أوصافه وفعاله وعلوه من فوق كل مكان
فزع العباد إلى سواه وكان ذا من جانب التعطيل والنكران
فمعطل الأوصاف ذاك معطل التـ ـوحيد حقاً ذان تعطيلان
قد عطلا بلسان كل الرسل من نوح إلى المبعوث بالقرآن
والناس في هذا ثلاث طوائف ما رابع أبداً بذي إمكان
إحدى الطوائف مشرك بإلهه فإذا دعاه دعا إلهاً ثان
هذا وثاني هذه الأقسام ذا لك جاحد يدعو سوى الرحمن
هو جاحد للرب يدعو غيره شركاً وتعطيلاً له قد مان
هذا وثالث هذه الأقسام خـ ـير الخلق ذاك خلاصة الإنسان
يدعو الإله الحق لا يدعو سوا ه قط في الأشياء والأكوان
يدعوه في الرغبات والرهبات والـ ـحالات من سر ومن إعلان

وقد جعل ـ رحمه الله تعالى ـ الشرك الأكبر نوعان: شرك التعطيل، وسماه كبيراً، وشرك من جعل مع الله تعالى إلـٰهاً، وسماه أكبر. كما نقلناه في الفتح من الجواب الكافي.

فقال ـ رحمه الله ـ في النونية:

لكن أخو التعطيل شر من أخي الإ شراك بالمعقول والبرهان
إن المعطل جاحد للذات أو لكمالها هذان تعطيلان =

ولأن الشرك تشبيه للمخلوق بالخالق تعالى وتقدس في خصائص الإلهية: من ملك الضر والنفع، والعطاء والمنع، الذي يوجب تعلق الدعاء، والخوف والرجاء والتوكل وأنواع العبادة كلها بالله وحده، فمن علَّق ذلك بمخلوق فقد شبَّهه بالخالق، وجعل من لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً شبيهاً بمن له الحمد كله، وله الخلق كله، وله الملك كله، وإليه يرجع الأمر كله، وبيده الخير كله،

= متضمنان القدح في نفس الألوهة ... كم بذاك القدح من نقصان
والشرك فهو توسل مقصوده ... الزلفى من الرب العظيم الشان
بعبادة المخلوق من حجر ومن ... بشر ومن قبر ومن أوثان
فالشرك تعظيم بجهل من قيا ... س الرب بالأمراء والسلطان
ظنوا بأن الباب لا يغشى بدو ... ن توسط الشفعاء والأعوان

[النوع الثاني من الشرك الأول]

شرك من جعل معه إلـٰهاً آخر ولم يعطل أسماءه وربوبيته، وصفاته كشرك النصارى الذين جعلوه ثالث ثلاثة، فجعلوا المسيح إلـٰهاً، وأمه إلـٰها، ومن هذا شرك المجوس القائلين بإسناد حوادث الخير إلى النور، وحوادث الشر إلى الظلمة.

ومن هذا شرك القدرية القائلين بأن الحيوان هو الذي يخلق أفعال نفسه، وأنها تحدث بدون مشيئة الله وقدرته، وإرادته، ولهذا كانوا من أشباه المجوس.

ومن هذا شرك الذي حاج إبراهيم في ربه ﴿إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾، فهذا جعل نفسه نداً لله يحيي ويميت بزعمه، كما يحيي الله ويميت.

ومن هذا شرك كثير ممن يشرك بالكواكب العلويات ويجعلها أرباباً مدبرة لأمر هذا العالم كما هو مذهب مشركي الصابئة وغيرهم. ومن هذا شرك عبَّاد الشمس، وعبَّاد النار وغيرهم.

=

فأزِمَّة الأمور كلها بيده سبحانه ومرجعها إليه، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن. لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، الذي إذا فتح للناس رحمة فلا ممسك لها، وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم. فأقبح التشبيه تشبيه العاجز الفقير بالذات: بالقادر الغني بالذات.

= وأما الشرك في العبادة فإنه يصدر ممن يعتقد أنه لا إله إلاَّ الله وأنه لا يضر ولا ينفع ولا يعطي ولا يمنع إلاَّ الله. وأنه لا إله غيره ولا رب سواه. ولكن لا يخلص لله في معاملته، وعبوديته بل يعمل لحفظ نفسه تارة، وطلب الدنيا تارة، ولطلب الرفعة والمنزلة والجاه عند الخلق تارة. فلله من عمله وسعيه نصيب، ولنفسه وحفظه وهواه نصيب، وللشيطان نصيب، وللخلق نصيب، هذا حال أكثر الناس، وهو الشرك الذي قال فيه النبي ﷺ فيما رواه ابن حبان في صحيحه: «**الشرك في هذه الأمة أخفىٰ من دبيب النمل**» قيل: وكيف ننجوا منه يارسول الله؟ قال: «**قل: اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم**» فالرياء كله شرك. قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ ـ إلى أن قال ـ هذا الشرك ينقسم إلى أكبر وأصغر ومغفور وغير مغفور. والنوع الأول ينقسم إلى كبير وأكبر، وليس شيء منه مغفور. انتهى كلامه باختصار.

فقسَّم ـ رحمه الله تعالى ـ الشرك إلى قسمين: أكبر وأصغر. وجعل الأكبر قسمين أيضاً: كبير وأكبر. وجعل الأصغر أيضاً قسمين: أكبر وأصغر. كالحلف بغير الله قد يكون أصغر وقد يكون أكبر، كما سيأتي إن شاء الله تفصيله.

[وفيه فائدة]: أنه جعل القسم الثاني الذي قد يكون أصغر وقد يكون أكبر مغفور وغير مغفور. فلعله أراد أنه إن كان من قسم الأكبر فإنه لا يغفر. وإن كان من قسم الأصغر فإنه يغفر أي تحت المشيئة ككبائر الذنوب، كما أشار إلى ذلك رحمه الله تعالى في النونية بقوله:

والشرك فاحذره فشرك ظاهر ... ذا القسم ليس بقابل الغفران =

ومن خصائص الإلٰهية: الكمال المطلق من جميع الوجوه، الذي لا نقص فيه بوجه من الوجوه. وذلك يوجب أن تكون العبادة كلها له وحده، والتعظيم والإجلال، والخشية والدعاء، والرجاء والإنابة، والتوكل والتوبة والاستعانة، وغاية الحب مع غاية الذل: كل ذلك يجب عقلاً وشرعاً وفطرة أن يكون لله وحده، ويمتنع عقلاً وشرعاً وفطرة أن يكون لغيره.

فمن فعل شيئاً من ذلك لغيره، فقد شبه ذلك الغير بمن لا شبيه له، ولا مثيل له، ولا نِدَّ له، وذلك أقبح التشبيه وأبطله.

= فالظاهر هو الشرك الجلي الأكبر. وهذا النوع ذكر أنه لا يغفره الله عز وجل. كما أخبر الله بذلك في سورة النساء، وهي هذه الآية التي ذكرها المصنف. فمفهوم ذلك أن الشرك الأصغر تحت المشيئة، وكذلك عبدالرحمن بن حسن ـ رحمه الله تعالى ـ ذكر أن الشرك الأصغر قد يكفر في الآخرة بكثرة الحسنات، قال في المجموع (٢/ ٣٥): وأمور الشرك أكبره وأصغره لا تدرك بالعد، لكن الشرك الأكبر يخرج من الملة ويحبط الأعمال لأنه أعظم ذنب عصي الله به وهو أظلم الظلم لأن المشرك أخذ حق الله ووضعه فيمن لا يستحقه.

وأما الشرك الأصغر فهو أكبر الكبائر لقول النبي ﷺ لمن رأى في يده حلقة من صُفر فقال: «ما هذه؟» قال: من الواهنة فقال: «**انزعها فإنها لا تزيدك إلاَّ وهناً فإنك لو مت وهي عليك ما أفلحت أبداً**» ولا يُكَفِّر الشرك أكبره وأصغره إلاَّ بالتوبة منه قبل الممات. والأصغر لا يكفره في الدار الآخرة إلاَّ كثرة الحسنات لأن الأصغر لا يحبط إلاَّ العمل الذي وقع فيه خاصة.

والذي يوضح ويبين ما تقدم أن الناس أربعة أصناف:

الأول: كافر مات على كفره، فهذا مخلد في النار بالإجماع.

الثاني: مؤمن محسن لم يذنب قط ومات على ذلك فهذا في الجنة بفضل الله ورحمته لا بعمله وهو الذي يحرم على النار. =

فلهذه الأمور وغيرها أخبر سبحانه وتعالى أنه لا يغفره، مع أنه كتب على نفسه الرحمة. هذا معنى كلام ابن القيم رحمه الله.

وفي الآية رد على الخوارج المكفِّرين بالذنوب، وعلى المعتزلة القائلين بأن أصحاب الكبائر يخلَّدون في النار، وليسوا عندهم بمؤمنين ولا كفار.

= الثالث: تائب مات على توبته كالذي قتل تسعة وتسعين نفساً ثم كمل المائة، وخرج تائباً. كما تقدم ذكره. فهذا الصنف ملحق بالصنف الثاني وهو المؤمن المحسن.

الرابع: مذنب مسلم مات قبل توبته، فهذا عند أهل السنة أنه تحت المشيئة إن شاء الله عز وجل غفر له وأدخله الجنة بفضله ورحمته، أو أدخله النار وعذبه بقدر ذنوبه بعدله، ثم أخرجه منها بفضله ورحمته وأدخله الجنة، فهو عند أهل السنة لا يخلد في النار، وإنما الذي يخلد في النار عند أهل السنة هو الصنف الأول.

وخالف في الصنف الرابع المرجئة والمعتزلة والخوارج فقالت المرجئة: هو في الجنة بإيمانه ولا تضره سيئاته، وبنوا هذه المقالة على أن جعلوا آيات الوعيد كلها مخصصة في الكفار، وآيات الوعد عامة في المؤمنين تَقِيِّهم وعاصيهم.

وقالت المعتزلة: إذا كان صاحب كبيرة فهو في النار ولابد. وقالت الخوارج: إذا كان صاحب كبيرة أو صغيرة فهو في النار مخلد. ولا إيمان له. لأنهم يرون كل الذنوب كبائر. وبنوا هذه المقالة على أن جعلوا آيات الوعد كلها مخصصة من المؤمن المحسن الذي لم يعص قط. والمؤمن التائب. وجعلوا آيات الوعيد عامة في العصاة كفاراً أو مؤمنين، وفي هذه الآية الرد على هاتين الطائفتين: المرجئة والمعتزلة والخوارج وهي قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ فإنها جلت الشك، وردت على الطائفتين المرجئة والمعتزلة وذلك أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾ فصل مجمع عليه وقوله: ﴿وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ فصل قاطع بالمعتزلة والخوارج راد على قولهم رداً لا محيد عنه، ولو وقفنا في هذا الموضع من الآية لصح قول المرجئة، فجاء قوله تعالى: ﴿لِمَن=

ولا يجوز أن يحمل قوله: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ على التائب، فإن التائب من الشرك مغفور له[1] كما قال تعالى: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ

= يَشَآءُ﴾ راداً عليهم موجباً أن غفران ما دون الشرك إنما هو لقوم دون قوم تحت مشيئة الله تعالى، بخلاف ما زعموه من أنه مغفور لكل مؤمن.

(١) وقول الشارح ـ رحمه الله تعالى ـ: «ولا يجوز أن يحمل قوله تعالى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ على التائب فإن التائب من الشرك مغفور له. . الخ» وهذا هو الصواب في هذه المسألة أن من مات من المسلمين على معصية قبل أن يتوب أنه تحت المشيئة، إن شاء الله تعالى غفر له وأدخله الجنة بأول وهلة بفضله وكرمه ومَنِّه وإحسانه، وإن شاء الله تعالى أدخله النار بعدله وأخرجه منها متى شاء ثم أدخله الجنة، فإنه لا يخلد في النار من مات على التوحيد. ولكن هل هذا يعارض ما ذكرناه في [باب فضل التوحيد] من أنه لابد أن يتوب من الذنوب والمعاصي التي يرتكبها المسلم قبل الموت.

والجواب: أنه ليس بينهما تعارض بحمد الله، وذلك أنه جاء هناك في حديث عتبان: «**فإن الله حرم على النار من قال: لاإله إلاَّ الله يبتغي بذلك وجه الله**» والحديث الذي بعده، فذكرنا هناك أن المحرم على النار هو الذي يدخل الجنة بأول وهلة ولا يقال: إنه تحت المشيئة، هو الذي تاب من ذنوبه ومعاصيه قبل الممات. كما قال الشارح ـ رحمه الله ـ هناك عن ابن القيم وهو قوله:

قال العلامة ابن القيم في معنى الحديث: ويعفى لأهل التوحيد المحض الذي لم يشوبوه بالشرك ما لا يعفى لمن ليس كذلك فلو لقي الموحد الذي لم يشرك بالله شيئاً البتة ربه بقراب الأرض خطايا أتاه بقرابها مغفرة، ولا يحصل هذا لمن نقص توحيده، فإن التوحيد الخالص الذي لا يشوبه شرك ولا يبقى معه ذنب، لأنه يتضمن من محبة الله وإجلاله وتعظيمه، وخوفه ورجائه وحده ما يوجب غسل الذنوب ولو كانت قراب الأرض فالنجاسة عارضة والدافع لها قوي. انتهى.

وذكرت في التعليق على هذا ما ذكره ابن القيم وهو قوله: والمقصود أن من لم يشرك بالله شيئاً يستحيل أن يلقى الله بقراب الأرض خطايا مصراً عليها، غير تائب=

أَسْرَفُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ﴾ [الزمر: ٥٣] فهنا عمم وأطلق؛ لأن المراد به التائب، وهناك خص وعلّق؛ لأن المراد به من لم يتب. هذا ملخص قول شيخ الإسلام.

وقال الخليل عليه السلام: ﴿ وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴾(١) [إبراهيم: ٣٥].

قوله: «وقال الخليل عليه السلام: ﴿ وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ ﴾»

= منها مع كمال توحيده الذي هو غاية الحب والخضوع والذل والخوف والرجاء للرب تعالى. فلعله ظهر وتبين أنه ليس بين اشتراط التوبة هناك وعدم اشتراطها هنا لا تعارض، فإنها تشترط لقول النبي ﷺ: «**لا يدخل النار من قال لا إله إلاَّ الله**» وما جاء من هذا الضرب من الأحاديث. ولا تشترط هنا لقوله عز وجل في هذه الآية: ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾. فذنوب المسلم ومعاصيه تحت المشيئة ولو لم يتب منها.

(١) قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾ ففي هذه الآية أن إبراهيم الخليل عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام دعا ربه أولاً بما يعينه على طاعة الله، وهو كون محل العابد آمناً لا يخاف فيه إذ يتمكن فيه من عبادة الله تعالى، ثم دعا ثانياً بأن يجنب هو وبنوه عبادة الأصنام. قال ابن عطية: وهذا الدعاء من الخليل عليه السلام يقتضي إفراط خوفه على نفسه ومن هو دونه أن يعبد الأصنام. فينبغي أن يقتدىٰ به في الخوف وطلب حسن الخاتمة، وقد كرر النداء الخليل عليه السلام وذكر السبب في طلبه أن يجنب هو وبنوه عبادة الأصنام لقوله: ﴿ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ﴾ إذ قد شاهد أباه وقومه يعبدون الأصنام ومعنى أضللن: كنَّ سبباً لإضلال كثير من الناس، والمعنى أنهم ضلوا بعبادتها. كما تقول فتنتهم الدنيا: أي افتتنوا بها، واعتزوا بسببها. انتهى بتصرف.

الصنم: ما كان منحوتاً على صورة، والوثن: ما كان موضوعاً على غير ذلك. ذكره الطبري عن مجاهد.

قلت: وقد يسمى الصنم وثناً كما قال الخليل عليه السلام: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَـٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ [العنكبوت: ١٧] ويقال: إن الوثن أعم، وهو قوي، فالأصنام أوثان، كما أن القبور أوثان.

قوله: ﴿وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾﴾ أي: اجعلني وبنيَّ في جانب عن عبادة الأصنام، وباعد بيننا وبينها. وقد استجاب الله تعالى دعاءه، وجعل بنيه أنبياء وجنَّبهم عبادة الأصنام. وقد بين ما يوجب الخوف من ذلك بقوله: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٦]، فإنه هو الواقع في كل زمان: فإذا عرف الإنسان أن كثيراً وقعوا في الشرك الأكبر وضلوا بعبادة الأصنام: أوجب ذلك خوفه من أن يقع فيما وقع فيه الكثير من الشرك الذي لا يغفره الله.

قال إبراهيم التيمي: ومن يأمن البلاء بعد إبراهيم؟ رواه ابن جرير وابن أبي حاتم.

فلا يأمن الوقوع في الشرك إلا من هو جاهل به وبما يخلصه منه: من العلم بالله وبما بعث به رسوله من توحيده، والنهي عن الشرك به.

وفي الحديث «أخوفُ ما أخافُ عليكم الشركُ الأصغرُ، فسُئل عنه؟ فقال: الرياء».

قال المصنف:

وفي الحديث: «**أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر، فسئل عنه، فقال: الرياء**» أورد المصنف هنا الحديث مختصراً غير معزوّ. وقد رواه الإمام أحمد والطبراني والبيهقي، وهذا لفظ أحمد: حدثنا يونس حدثنا

ليث عن يزيد ـ يعني ابن الهاد ـ عن عمرو عن محمود بن لبيد: أن رسول الله ﷺ قال: «**إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر**»، قالوا: وما الشرك الأصغر يارسول الله؟ قال: «**الرياء. يقول الله تعالى يوم القيامة إذا جازى الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاءً**».

قال المنذري: ومحمود بن لبيد رأى النبي ﷺ، ولم يصح له منه سماع فيما أرى. وذكر ابن أبي حاتم: أن البخاري قال: له صحبة، ورجحه ابن عبدالبر والحافظ. وقد رواه الطبراني بأسانيد جيدة عن محمود بن لبيد عن رافع بن خديج. مات محمود سنة ست وتسعين. وقيل: سنة سبع وتسعين، وله تسع وتسعون سنة.

قوله: «**إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر**» هذا من شفقته ﷺ بأمته ورحمته ورأفته بهم، فلا خير إلا دلهم عليه وأمرهم به، ولا شر إلا بيَّنه لهم وأخبرهم به ونهاهم عنه، كما قال ﷺ فيما صح عنه: «**ما بعث الله من نبي إلا كان حقاً عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم...**» الحديث.

فإذا كان الشرك الأصغر مخوفاً على أصحاب رسول الله ﷺ مع كمال علمهم وقوة إيمانهم، فكيف لا يخافه وما فوقه من هو دونهم في العلم والإيمان بمراتب؟ خصوصاً إذا عرف أن أكثر علماء الأمصار اليوم لا يعرفون من التوحيد إلا ما أقر به المشركون،[1] وما عرفوا معنى الإلهية

---

(١) قال شيخ الإسلام في كشف الشبهات: والكفار الجهال يعلمون أن مراد النبي ﷺ بهذه الكلمة هو إفراد الله تعالى بالتعلق، والكفر بما يعبد من دونه والبراءة منه، فإنه لما قال لهم: قولوا لا إله إلاّ الله قالوا: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَاحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ=

التي نفتها كلمة الإخلاص عن كل ما سوى الله.

وأخرج أبويعلى وابن المنذر عن حذيفة بن اليمان عن أبي بكر عن النبي ﷺ قال: «**الشرك أخفى من دبيب النمل**». قال أبوبكر: يارسول الله، وهل الشرك إلا ما عبد من دون الله، أو ما دعي مع الله؟ قال: «**ثكلتك أمك، الشرك فيكم أخفى من دبيب النمل...**» الحديث. وفيه: «**أن تقول: أعطاني الله وفلان، والند أن يقول الإنسان: لولا فلان قتلني فلان**» اهـ. من «الدر».

وعن ابن مسعود رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال:

= عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾ فإذا عرفت أن جهال الكفار يعرفون ذلك، فالعجب ممن يدعي الإسلام وهو لا يعرف من تفسير هذه الكلمة ما عرفه جهلة الكفار، بل يظن أن ذلك هو التلفظ بحروفها من غير اعتقاد القلب لشيء من المعاني، والحاذق منهم يظن أن معناها لا يخلق ولا يرزق إلاَّ الله ولا يدبر الأمر إلاَّ الله، فلا خير في رجل جهال الكفار أعلم منه بمعنى لا إله إلاَّ الله، إذا عرفت ما قلت لك معرفة قلب، وعرفت الشرك بالله الذي قال الله فيه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ وعرفت دين الله الذي بعث به الرسل من أولهم إلى آخرهم، الذي لا يقبل الله من أحد سواه، وعرفت ما أصبح غالب الناس فيه من الجهل بهذا، أفادك فائدتين: الأولى: الفرح بفضل الله وبرحمته كما قال تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾﴾. وأفادك أيضاً: الخوف العظيم فإنك إذا عرفت أن الإنسان يكفر بكلمة يخرجها من لسانه، وقد يقولها وهو جاهل فلا يعذر بالجهل، وقد يقولها وهو يظن أنها تقربه إلى الله كما ظن المشركون، خصوصاً إن ألهمك الله تعالى ما قص عن قوم موسى مع صلاحهم وعلمهم أنهم أتوه قائلين: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾، فحينئذ يعظم خوفك وحرصك على ما يخلصك من هذا وأمثاله.

«من مات وهو يدعو من دون الله نِدًّا دخل النار» رواه البخاري.

قال المصنف: وعن ابن مسعود رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: **«من مات وهو يدعو من دون الله نداً دخل النار»** رواه البخاري.

قال ابن القيم رحمه الله: الند: الشبيه، يقال: فلان ند فلان، ونديده، أي مثله وشبيهه اهـ. قال تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٢٢﴾ [البقرة: ٢٢].

قوله: «من مات وهو يدعو من دون الله نداً» أي يجعل لله نداً في العبادة، يدعوه ويسأله ويستغيث به دخل النار.

قال العلامة ابن القيم رحمه الله:

والشرك فاحذره، فشرك ظاهر ... ذا القِسم ليس بقابل الغفران
وهو اتخاذ الند للرحمن أيًّا ... كان، من حجر ومن إنسان
يدعوه، أو يرجوه، ثم يخافه ... ويحبه كمحبة الديان[1]

واعلم أن اتخاذ الند على قسمين:

الأول: أن يجعله لله شريكاً في أنواع العبادة أو بعضها كما تقدم، وهو شرك أكبر.

والثاني: ما كان من نوع الشرك الأصغر كقول الرجل: ما شاء الله

---

(١) والله ما سووهم بالله في ... خلق ولا رزق ولا إحسان
فالله عندهم هو الخلاق والر ... زاق مولي الفضل والإحسان
لكنهم ساووهم بالله في ... حب وتعظيم وفي إيمان
جعلوا محبتهم مع الرحمن ما ... جعلوا المحبة قط للرحمن
لو كان حبهم لأجل الله ما ... عادوا أحبته على الإيمان

وشئت، ولولا الله وأنت، وكيسير الرياء؛ فقد ثبت أن النبي ﷺ لما قال له رجل: ما شاء الله وشئت، قال: «**أجعلتني لله نداً؟ بل ما شاء الله وحده**» رواه أحمد وابن أبي شيبة والبخاري في «الأدب المفرد» والنسائي وابن ماجه. وقد تقدم حكمه في باب فضل التوحيد.

وفيه: بيان أن دعوة غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله شرك جلي، كطلب الشفاعة من الأموات، فإنها ملك لله تعالى، وبيده، ليس بيد غيره منها شيء، وهو الذي يأذن للشفيع أن يشفع فيمن لاقى الله بالإخلاص والتوحيد من أهل الكبائر، كما يأتي تقريره في باب الشفاعة إن شاء الله تعالى.

= فقد بيَّن ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ: في هذا أن الشرك اتخاذ نِد للرحمن من أي شيء كان من خلقه بأن يجعله مساوياً لله فيما يستحقه مما لا ينبغي إلاّ لله وحده من أنواع العبادة والتعظيم فيدعوه كما يدعو الله عز وجل، سواء كان دعاء عبادة أو دعاء مسألة، أو يرجوه كمايرجو الله بأن يتوقع عنده من النفع والخير ما لا يملكه إلاّ الله، أو يخافه كذلك كما يخاف الله، أو يحبه كما يحب الله عز وجل.

فهذه هي الندية التي كان أشرك بها العرب وسُمُّوا بسببها مشركين، وهي التي أمر رسول الله ﷺ بقتالهم عليها لأنها منافية لكلمة التوحيد.

وأما ندية الخلق والرزق والتدبير والملك وغير ذلك من شئون الربوبية فإنهم لم يساووا آلهتهم بالله في شيء منها، بل ولا جعلوا لهم شركة مع الله فيها كما قال الله تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ فهؤلاء لم يندِدوا في هذه الناحية، وإنما كانت نديتهم أنهم ساووا آلهتهم بالله في الحب والتعظيم والإشراك. قال الله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ﴾ إلى قوله: ﴿ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ وقال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾.

=

ولمسلم عن جابر رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «مَن لقيَ الله لا يشركُ به شيئاً دخل الجنة، ومَنْ لَقِيَهُ يشرك به شيئاً دخل النار».

قال المصنف رحمه الله تعالى: ولمسلم عن جابر رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: **«مَن لقيَ الله لا يشركُ به شيئاً دخل الجنة، ومَنْ لَقِيَهُ يشرك به شيئاً دخل النار»**.

«جابر»: هو ابن عبدالله بن عمرو بن حَرام - بمهملتين - الأنصاري ثم السلمي - بفتحتين - صحابي جليل هو وأبوه. ولأبيه مناقب مشهورة رضي الله عنهما مات بالمدينة بعد السبعين، وقد كف بصره، وله أربع

= قال ابن القيم - رحمه الله -:

والصدق والإخلاص ركنا ذ ... لك التوحيد كالركنين للبنيان

وحقيقة الإخلاص توحيد المرا ... د فلا يزاحمه مراد ثان

لكن مراد العبد يبقىٰ واحداً ... ما فيه تفريق لدى الإنسان

إن كان ربك واحداً سبحانه ... فاخصصه بالتوحيد مع إحسان

أو كان ربك واحداً أنشاك لم ... يُشركه إذ أنشاك رب ثان

فكذاك أيضاً وحده فاعبده لا ... تعبد سواه يا أخا العرفان

فقد بين - رحمه الله - أن التوحيد أن لا تصرف شيئاً من أنواع العبادة لغير الله سواء كانت عبادة بالقلب، كالحب والذل والخوف والرجاء والتعظيم والإنابة. أو كانت عبادة باللسان، كالتسبيح والتحميد والتهليل والتمجيد. وكل أنواع الحمد وكذلك السؤال والدعاء والاستعاذة والاستعانة والخلق والتسمية وغير ذلك. أو كانت عبادة بالأبدان كالصلاة والصيام والحج والجهاد، أو عبادة بالمال كالصدقات والنذور والذبائح.

=

وتسعون سنة.

قوله: «**من لقي الله لا يشرك به شيئاً**» قال القرطبي: أي لم يتخذ معه شريكاً في الإلٰهية، ولا في الخلق، ولا في العبادة، ومن المعلوم من الشرع المجمع عليه عند أهل السنة: أن من مات على ذلك فلابد له من دخول الجنة، وإن جرت عليه قبل ذلك أنواع من العذاب والمحنة. وأن من مات على الشرك لا يدخل الجنة ولا يناله من الله رحمة، ويخلد في النار أبد الآباد، من غير انقطاع عذاب، ولا تصرُّم آماد.

وقال النووي: أما دخول المشرك النار فهو على عمومه، فيدخلها ويخلد فيها، ولا فرق فيه بين الكتابي اليهودي والنصراني، وبين عبدة الأوثان وسائر الكفرة، ولا فرق عند أهل الحق بين الكافر عناداً وغيره، ولا بين من خالف ملة الإسلام وبين من انتسب إليها ثم حكم بكفره بجحده وغير ذلك. وأما دخول من مات غير مشرك الجنة فهو مقطوع له به. لكن إن لم يكن صاحب كبيرة مات مصراً عليها دخل الجنة أولاً، وإن كان صاحب كبيرة مات مصراً عليها فهو تحت المشيئة. فإن عفا الله عنه دخل الجنة أولاً، وإلا عُذب في النار، ثم أخرج من النار وأدخل الجنة.

وقال غيره: اقتصر على نفي الشرك لاستدعائه التوحيد بالاقتضاء، واستدعائه إثبات الرسالة باللزوم، إذ من كذَّب رسل الله فقد كذَّب الله،

= ولذلك قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ:

ولقد رأينا من فريق يدعي الإ ... سلام شركاً ظاهر التبيان
جعلوا له شركاء والوهُم وسو ... وهم به في الحب لا السلطان
والله ما ساووهم بالله بل ... زادوا لهم حباً بلا كتمان
والله ما غضبوا إذا انتهكت محا ... رم ربهم في السر والإعلان

ومن كذب الله فهو مشرك، وهو كقولك: من توضأ صحت صلاته، أي مع سائر الشروط، فالمراد: من مات حال كونه مؤمناً بجميع ما يجب الإيمان به: إجمالاً في الإجمالي، وتفصيلاً في التفصيلي. انتهى.

فيــه مســائل:

الأولــى: الخوفُ من الشرك.

الثانيــة: أن الرياءَ من الشرك.

الثالثــة: أنه من الشرك الأصغر.

الرابعــة: أنه أخوفُ ما يخاف منه على الصالحين.

الخامسة: قُرب الجنة والنار.

السادسة: الجمع بين قربهما في حديث واحد.

السابعـة: أنه مَنْ لقيه لا يُشرك به شيئاً دخل الجنة. ومن لَقِيَهُ يُشرِك به شيئاً دخل النار، ولو كان من أعبد الناسِ.

الثامنة: المسألة العظيمة: سؤالُ الخليل له وَلِبَنِيهِ وِقَايةَ عبادَةِ الأصنام.

التاسعة: اعتباره بحال الأكثر لقوله: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾.

العاشرة: فيه تفسير «لا إله إلا الله»، كما ذكره البخاري.

الحادية عشرة: فضيلة من سلم من الشرك.

باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله

قوله: «**باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله**».[(١)]

لما ذكر المصنف رحمه الله التوحيد وفضله، وما يوجب الخوف من ضده. نبَّه بهذه الترجمة على أنه لا ينبغي لمن عرف ذلك أن يقتصر على نفسه، بل يجب عليه أن يدعو إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة، كما هو سبيل المرسلين وأتباعهم. كما قال الحسن البصري لما تلا قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فصلت: ٣٣] فقال: «هذا حبيب الله، هذا وليُّ الله، هذا صفوة الله، هذا خيرة الله، هذا أحب أهل الأرض إلى الله؛ أجاب الله في دعوته، ودعا الناس إلى ما أجاب الله فيه من دعوته، وعمل صالحاً في إجابته، وقال: إنني من المسلمين. هذا خليفة الله.

---

(١) اعلم ـ رحمك الله تعالى ـ أن من علم ما تقدم مما ترجم له المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ من التوحيد وفضله، وتحقيقه، وما يوجب الخوف من ضده، أنه قد حصل له قوة علمية يبصر منازل الطريق ومواضع السلوك فيقصدها سائراً فيها، ويتجنب أسباب الهلاك ومواضع العطب وطرق المهالك المنحرفة عن الطريق الموصل. فعلمه هذا كنور عظيم بيده يمشي في ليلة عظيمة مظلمة شديدة الظلمة، فهو يبصر بذلك النور ما يقع الماشي في الظلمة في مثله من الوهاد والمتالف ويعثر به من الأحجار والشوك وغيره، ويبصر بذلك النور أيضاً أعلام الطريق وأدلتها المنصوبة عليها، فلا يضل عنها فيكشف له النور عن الأمرين أعلام الطريق، ومعاطبها، فمثل هذا قد حصل له شطر السعادة والفلاح، وبقي عليه الشطر الآخر وهو العمل.

ومنه الدعوة إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة، ولذلك نبه المصنف =

وقول الله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف: ١٠٨]

قال رحمه الله: وقوله: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾.

قال أبوجعفر بن جرير: يقول تعالى ذِكْره لنبيه محمد ﷺ: ﴿قُلْ﴾ يامحمد ﴿هَٰذِهِۦ﴾ الدعوة التي أدعو إليها، والطريقة التي أنا عليها، من الدعاء إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له دون الآلهة والأوثان، والانتهاء إلى طاعته وترك معصيته ﴿سَبِيلِىٓ﴾ وطريقتي، ودعوتي ﴿أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ تعالى وحده لا شريك له ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ بذلك ويقين علم مني به ﴿أنا و﴾ يدعو إليه على بصيرة أيضاً ﴿من اتبعني﴾ وصدَّقني وآمن بي ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ يقول له تعالى ذِكْره: وقل تنزيهاً لله تعالى وتعظيماً له: من أين يكون له شريك في ملكه أو معبود سواه في سلطانه ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ يقول: وأنا بريء من أهل الشرك به، لست منهم ولا

= ـ رحمه الله تعالى ـ بهذه الترجمة على أنه لا ينبغي لمن عرف ذلك أن يقتصر على نفسه، بل يجب عليه أن يدعو إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة، كما هو سبيل المرسلين وأتباعهم فإن الناس من حيث تقسيم القوة العلمية، والعملية، على قسمين: فإن منهم من يكون عنده القوة العلمية دون العملية، فهو يبصر الطريق ومنازلها وأعلامها وعوارضها ومعاشرها، ويكون ضعيفاً في القوة العملية، فهو يبصر الحقائق ولا يعمل بموجبها، ويرى المتالف والمخاوف والمعاطب، ولا يتوقاها، فهو فقيه لم يحضر العمل، فإذا حضر العمل، شارك الجهال في التخلف وفارقهم في العلم، وهذا هو الغالب على أكثر النفوس المنشغلة بالعلم والمعصوم من عصمه الله، ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله العزيز الحكيم. =

هم مني. انتهى.

قال في «شرح المنازل»: يريد أن تصل باستدلالك إلى أعلى درجات العلم وهي البصيرة التي تكون نسبة المعلوم فيها إلى القلب كنسبة المرئي إلى البصر، وهذه هي الخصيصة التي اختص بها الصحابة عن سائر الأمة، وهي أعلى درجات العلماء. قال تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ﴾ أي أنا وأتباعي على بصيرة. وقيل: ﴿من اتبعني﴾ عطف على المرفوع في ﴿أَدْعُوٓا۟﴾ أي أنا أدعو إلى الله على بصيرة. ومن اتبعني كذلك يدعو إلى الله تعالى على بصيرة، وعلى القولين، فالآية تدل على أن أتباعه هم أهل البصائر الداعون إلى الله تعالى، ومن ليس منهم فليس من أتباعه على الحقيقة والموافقة، وإن كان من أتباعه على الانتساب والدعوى.

قال المصنف رحمه الله:

فيه مسائل:

منها: التنبيه على الإخلاص، لأن كثيراً لو دعا إلى الحق فهو يدعو إلى نفسه.

= القسم الثاني: من تكون عنده القوة العملية الإرادية مع ضعف العلمية، ففيه من العمل السير والسلوك والزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة والجد والتشمير في العمل، لكنه أعمى البصيرة عند ورود الشبهات في العقائد والانحرافات في الأعمال، والأقوال والمقامات، كما كان الأول ضعيف العقل عند ورود الشهوات. فداء هذا من جهله، وداء الأول من فساد إرادته وضعف عقله، وأعظم من هذين وأقبح من اجتمع فيه ضعف العلم، والعمل، فعلمه بالطريق ضعيف، وهمته ضعيفة، فهذا عياذاً بالله هو جهد البلاء، ودرك الشقاء، وشماتة الأعداء. نسأل الله تعالى السلامة والعافية.

ومنها: أن البصيرة من الفرائض.

ومنها: أن من دلائل حسن التوحيد أنه تنزيه لله تعالى عن المسبَّة.

ومنها: أن من قُبح الشرك كونه مَسبَّة لله تعالى.

ومنها: إبعاد المسلم عن المشركين لئلا يصير منهم ولو لم يشرك. اهـ.

وقال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى في معنى قوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾ الآية [النحل: ١٢٥] ذكر سبحانه مراتب الدعوة وجعلها ثلاثة أقسام بحسب حال المدعو.

فإنه إما أن يكون طالباً للحق محباً له، مؤثراً له غيره إذا عرفه. فهذا يُدعى بالحكمة، ولا يحتاج إلى موعظة وجدال.

وإما أن يكون مشتغلاً بضد الحق، لكن لو عرفه آثره واتبعه، فهذا يحتاج إلى الموعظة بالترغيب والترهيب.

وإما أن يكون معانداً معارضاً، فهذا يجادَل بالتي هي أحسن، فإن رجع، وإلا انتُقِلَ معه إلى الجدال إن أمكن. انتهى.

عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذاً إلى اليمن قال له: «إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله - وفي رواية: إلى أن يُوحدوا الله -، فإن هُمْ أطاعوك لذلك فأعْلِمْهم أن الله افترض عليهم خمس صلواتٍ في كل يوم وليلةٍ، فإن هُمْ أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترضَ عليهم صَدَقَةً تؤْخذُ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإنْ هم

أطاعوك لذلك فإيَّاكَ وكرائم أموالهم، واتَّقِ دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب» أخرجاه.

قال: وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذاً إلى اليمن قال له: «**إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله - وفي رواية: إلى أن يُوحدوا الله -، فإن هُمْ أطاعوك لذلك فأعْلِمْهم أن الله افترض عليهم خمس صلواتٍ في كل يوم وليلةٍ، فإن هُمْ أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترضَ عليهم صَدَقَةً تؤْخذُ من أغنيائهم فترد على فقرائهم، فإنْ هم أطاعوك لذلك فإيَّاكَ وكرائم أموالهم، واتَّقِ دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب**» أخرجاه[1].

(١) قال الحافظ في الفتح: رووه بلفظ: «**فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلاَّ الله وأن محمداً رسول الله، فإن هم أطاعوك بذلك**».
ومنهم من رووه بلفظ: «**فادعهم إلى أن يوحدوا الله فإذا عرفوا ذلك**».
ومنهم من رواه بلفظ: «**فادعهم إلى عبادة الله فإذا عرفوا ذلك**».
ووجه الجمع بينهما أن المراد بالعبادة التوحيد، والمراد بالتوحيد: الإقرار بالشهادتين، والإشارة بقوله ذلك إلى التوحيد. انتهى.
وحقيقة الإقرار بشهادة أن لا إله إلاَّ الله إفراد الله بالعبادة التي تتضمن غاية الحب ومنتهاه مع غاية الذل وأقصاه، والانقياد لأمره والتسليم له، كما قال النبي ﷺ لوفد عبدالقيس: «**آمركم بالإيمان بالله وحده، أتدرون ما الإيمان بالله وحده؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «**شهادة أن لا إله إلاَّ الله**». فعلىٰ هذا فإنه لابدَّ من العلم بمعنىٰ هذه الشهادة التي لابد لكل داخل في دين الإسلام أن يشهد بها قال الله تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ فقد أخذ البخاري - رحمه الله - من هذه الآية وجوب العلم قبل العمل. فقال: باب العلم قبل القول =

. . . .

= والعمل؛ لقول الله تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾. ولهذا ابتدأ البخاري ـ رحمه الله تعالى ـ صحيحه ببدء الوحي ونزوله الذي يحصل به الهدى والنور، ثم أتبعه بكتاب الإيمان الذي هو الإقرار والتصديق الشرعي بالوحي، والانقياد له، ثم أتبعه: كتاب العلم الذي هو معرفة ما جاء به الرسول ﷺ وفقهه.

وكذلك العلم بمعنىٰ شهادة أن محمداً رسول الله، وهو أن يعلم العلم اليقيني بأنه رسول من الله كلَّفه إبلاغ العباد أوامر الله ونواهيه، وطاعته ﷺ في كل ما أمر، واجتناب ما عنه نهى وزجر، وأن لا يعبد الله إلاَّ بما جاء به لا بالهوىٰ والبدع، وأنه بلغ العباد ما أرسل به، وبيَّن لهم دينهم أتم بيان، وأنه عبد الله أكرمه بالرسالة وليس له من العبادة شيء بل العبادة كلها لله تعالى.

وهاتان الشهادتان متلازمتان لا تقبل إحداهما دون الأخرى، فمن شهد أن لا إله إلاَّ الله ولم يشرك به شيئاً، ولم يشهد أن محمداً رسول الله، فهو كافر بالله خالد في النار، وإن جاء بعبادة كثيرة، ومن شهد أن محمداً رسول الله، وأشرك بالله شيئاً شركاً أكبر فهو كافر مشرك خالد في النار. فلابد من اجتماع هاتين الشهادتين في العبد حتى يكون موحداً.

وأما مجرد النطق بشهادة أن لا إله إلاَّ الله وأن محمداً رسول الله مع عبادة غير الله، وتعلق القائل بمن يعتقدهم أولياء وطلب الحاجات منهم التي لا يقدر عليها إلاَّ الله تعالى، فإن ذلك لا يفيد شيئاً ولا يكون الإنسان به مسلماً لقوله ﷺ: «**فإذا عرفوا ذلك**» أي إذا عرفوا توحيد الله وعملوا به، بأن أخلصوا عبادتهم لله وحده، واجتنبوا عبادة كل معبود سواه. عند ذلك يخبرون بفرائض الإسلام ويؤمرون بها. وهذا الحديث دليل ظاهر على أن أول ما يجب على العباد؛ شهادة أن لا إله إلاَّ الله وأن محمداً رسول الله، لا كما يقول أهل الكلام من المعتزلة والأشعرية وغيرهم أن أول ما يجب على العبد النظر في الأدلة العقلية على وجود الله تعالى، أو القصد إلى النظر، أو الشك، وقد قال القرطبي: لو لم يكن في الكلام إلاَّ مسألتان هما من مبادئه لكان حقيقاً بالذم، إحداهما قول بعضهم: إن أول واجب =

قال الحافظ: كان بعثُ معاذ إلى اليمن سنة عشر، قبل حج النبي ﷺ كما ذكره المصنف - يعني البخاري في أواخر المغازي - وقيل: كان ذلك في آخر سنة تسع عند مُنْصرَفه ﷺ من تَبُوك. رواه الواقدي بإسناده إلى كعب بن مالك. وأخرجه ابن سعد في «الطبقات» عنه، واتفقوا على أنه لم يزل على اليمن إلى أن قدم في خلافة أبي بكر رضي الله عنه، ثم توجه إلى الشام فمات بها.

قال شيخ الإسلام: ومن فضائل معاذ رضي الله عنه: أنه ﷺ بعثه إلى اليمن مُبلِّغاً عنه، ومُفقِّهاً ومعلِّماً وحاكماً.

قوله: «**إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب**» قال القرطبي: يعني به اليهود والنصارى؛ لأنهم كانوا في اليمن أكثر من مشركي العرب أو أغلب، وإنما نبهه على هذا ليتهيأ لمناظرتهم.

وقال الحافظ: هو كالتوطئة للوصية ليجمع همته عليها.

قوله: «**فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله**» «شهادة» رفع على أنه اسم «يكن» مؤخر، و«أول» خبر مقدَّم، ويجوز العكس.

قوله : «**وفي رواية: إلى أن يوحدوا الله**». هذه الرواية ثابتة في كتاب

= الشك إذ هو اللازم لوجوب النظر أو القصد إلى النظر.

والثانية: قول جماعة منهم: من لم يعرف الله بالطرق التي رتبها أهل الكلام لم يصح إيمانه. والقائل بهاتين المسألتين كافر لجعله الشك بالله تعالى واجباً، ومعظم المسلمين كفاراً، حتى يدخل في عموم كلامهم السلف الصالح من الصحابة والتابعين، وهذا معلوم الفساد من الدين بالضرورة، وإلاَّ فلا يوجد في الشرعيات ضروري قال الله عز وجل: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ وقال ﷺ: «**أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلاَّ الله وأن محمداً رسول الله فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دمائهم وأموالهم إلاَّ بحقها**».

التوحيد من «صحيح البخاري». وأشار المصنف بذكر هذه الرواية إلى التنبيه على معنى «شهادة أن لا إله إلا الله»، فإن معناها توحيد الله بالعبادة ونفي عبادة ما سواه. وفي رواية «**فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله**» وذلك هو الكفر بالطاغوت، والإيمان بالله، كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة: ٢٥٦]. والعروة الوثقىٰ هي: «لا إله إلاّ الله». وفي رواية للبخاري: فقال: «**ادعهم إلى شهادة أن لا إله إلاّ الله وأني رسول الله**»

قلت: لابد في شهادة أن لا إله إلا الله من سبعة شروط، لا تنفع قائلها إلا باجتماعها.

أحدها: العلم المنافي للجهل.

الثاني: اليقين المنافي للشك.

الثالث: القبول المنافي للرد.

الرابع: الانقياد المنافي للترك.

الخامس: الإخلاص المنافي للشرك.

السادس: الصدق المنافي للكذب.

السابع: المحبة المنافية لضدها.

وفيه دليل على أن التوحيد ـ الذي هو إخلاص العبادة لله وحده لا شريك له وترك عبادة ما سواه ـ هو أول واجب. ولهذا كان أول ما دعت إليه الرسل عليهم السلام ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [المؤمنون: ١٢] وقال نوح: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ [هود: ٢٦] وفيه معنى «لا إله إلا الله» مطابقة.

قال شيخ الإسلام: وقد عُلم بالاضطرار من دين الرسول ﷺ واتفقت عليه الأمة أن أصل الإسلام وأول ما يؤمر به الخلق: شهادة أن لا إله

إلا الله، وأن محمداً رسول الله، فبذلك يصير الكافر مسلماً والعدوّ ولياً، والمباح دمه وماله معصوم الدم والمال. ثم إن كان ذلك من قلبه فقد دخل في الإيمان، وإن قاله بلسانه دون قلبه فهو في ظاهر الإسلام دون باطن الإيمان، قال: وأما إذا لم يتكلم بها مع القدرة فهو كافر باتفاق المسلمين باطناً وظاهراً، عند سلف الأمة وأئمتها وجماهير العلماء. اهـ.

قال المصنف رحمه الله تعالى: وفيه: أن الإنسان قد يكون عالماً وهو لا يعرف معنى «لا إله إلا الله» أو يعرفه ولا يعمل به.

قلت: فما أكثر هؤلاء ـ لا كثّرهم الله تعالى ـ.

قوله: «**فإن هم أطاعوك لذلك**» أي شهدوا وانقادوا لذلك «**فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات**»[(١)] فيه: أن الصلاة أعظم واجب بعد الشهادتين. قال النووي ما معناه: إنه يدل على أن المطالبة بالفرائض في الدنيا لا تكون إلا بعد الإسلام. ولا يلزم من ذلك أن لا يكونوا مخاطبين بها، ويزاد في عذابهم بسببها في الآخرة. والصحيح: أن الكفار مخاطبون بفروع الشريعة المأمور به والمنهي عنه. وهذا قول الأكثرين. اهـ.

قوله: «**فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم**» فيه: دليل على أن الزكاة أوجب الأركان بعد الصلوات، وأنها تؤخذ من الأغنياء وتصرف إلى الفقراء. وإنما خص النبي ﷺ الفقراء لأن حقهم في الزكاة آكد من حق بقية الأصناف الثمانية.

وفيه: أن الإمام هو الذي يتولى قبض الزكاة وصرفها: إما بنفسه أو

---

(١) ففي هذا دليل على أنه لا يجب على العبد من الصلاة غير الخمس المذكورة.

نائبه، فمن امتنع من أدائها إليه أُخذت منه قهراً.

وفي الحديث: دليل على أنه يكفي إخراج الزكاة في صنف واحد، كما هو مذهب مالك وأحمد.

وفيه: أنه لا يجوز دفعها إلى غني، ولا إلى كافر غير المؤلَّف، وأن الزكاة واجبة في مال الصبي والمجنون، كما هو قول الجمهور؛ لعموم الحديث.

قلت: والفقير إذا أُفرد في اللفظ تناول المسكين وبالعكس، كنظائره كما قرره شيخ الإسلام.

قوله: «**وإياك وكرائم أموالهم**» بنصب «كرائم» على التحذير، جمع كريمة، قال صاحب «المطالع»: هي الجامعة للكمال الممكن في حقها: من غزارة لبن، وجمال صورة، وكثرة لحم وصوف. ذكره النووي.

قلت: وهي خيار المال وأنفسه وأكثره ثمناً.

وفيه: أنه يحرم على العامل في الزكاة أخذ كرائم المال، ويحرم على صاحب المال إخراج شرار المال، بل يخرج الوسط. فإن طابت نفسه بالكريمة جاز.

قوله: «**واتق دعوة المظلوم**» أي اجعل بينك وبينهاوقاية بالعدل وترك الظلم، وهذان الأمران يقيان مَن رُزِقَهما من جميع الشرور دنيا وأخرى.

وفيه: تنبيه على التحذير من جميع أنواع الظلم.

قوله: «**فإنه**» أي الشأن «**ليس بينها وبين الله حجاب**» هذه الجملة مفسرة لضمير الشأن. أي: فإنها لا تحجب عن الله فيقبلها.

وفي الحديث أيضاً: قبول خبر الواحد العدل، ووجوب العمل به، وبعْث الإمام العمال لجباية الزكاة، وأنه يعظ عماله وولاته، ويأمر

بتقوى الله تعالى، ويعلِّمهم، وينهاهم عن الظلم، ويعرِّفهم سوء عاقبته. والتنبيه على التعليم بالتدريج. قاله المصنف.

قلت: ويبدأ بالأهم فالأهم.

واعلم أنه لم يذكر في الحديث الصوم والحج، فأشكل ذلك على كثير من العلماء.

قال شيخ الإسلام: أجاب بعض الناس: أن بعض الرواة اختصر الحديث، وليس كذلك؛ فإن هذا طعن في الرواة، لأن ذلك إنما يقع في الحديث الواحد، مثل حديث وَفْد عبدالقيس، حيث ذكر بعضهم الصيام، وبعضهم لم يذكره، فأما الحديثان المنفصلان فليس الأمر فيهما كذلك. **ولكن عن هذا جوابان:**

أحدهما: أن ذلك بحسب نزول الفرائض، وأول ما فرض الله الشهادتين، ثم الصلاة. فإنه أمر بالصلاة في أول أوقات الوحي؛ ولهذا لم يذكر وجوب الحج كعامة الأحاديث، إنما جاء في الأحاديث المتأخرة.

الجواب الثاني: أنه كان يذكر في كل مقام ما يناسبه. فيذكر تارة الفرائض التي يقاتل عليها كالصلاة والزكاة، ويذكر تارة الصلاة والصيام لمن لم يكن عليه زكاة، ويذكر تارة الصلاة والزكاة والصوم: فإما أن يكون قبل فرض الحج، وإما أن يكون المخاطب بذلك لا حج عليه. وأما الصلاة والزكاة فلهما شأن ليس لسائرالفرائض؛ ولهذا ذكر الله تعالى في كتابه القتال عليهما؛ لأنهما عبادتان ظاهرتان، بخلاف الصوم فإنه أمر باطن من جنس الوضوء والاغتسال من الجنابة، ونحو ذلك مما يؤتمن عليه العبد، فإن الإنسان يمكنه أن لا ينوي الصوم وأن يأكل سراً، كما يمكنه أن يكتم حدثه وجنابته، وهو ﷺ يذاكر في الأعمال

الظاهرة التي يقاتل الناس عليها، ويصيرون مسلمين بفعلها. فلهذا علق ذلك بالصلاة والزكاة دون الصوم، وإن كان واجباً كما في آيتي براءة نزلت بعد فرض الصيام باتفاق الناس. وكذلك لما بعث معاذاً إلى اليمن لم يذكر في حديثه الصوم؛ لأنه تبعٌ وهو باطن، ولا ذكر الحج لأن وجوبه خاص ليس بعام، ولا يجب في العمر إلا مرة. انتهى بمعناه.

قوله: «أخرجاه» أي البخاري ومسلم، وأخرجه أيضاً أحمد وأبوداود والترمذي والنسائي وابن ماجه.

ولهما عن سَهْل بن سَعْدٍ رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال يومَ خَيْبَرَ: «لأُعْطِيَنَّ الرايةَ غداً رجلاً يُحِبُّ الله ورسوله، ويُحِبُّه الله ورسوله يفتح الله على يديه، فباتَ الناسُ يَدُوكون ليلتهم: أَيُّهُمْ يُعطاها. فلما أصبحوا غَدَوْا عَلَىٰ رسول الله ﷺ، كلُّهم يرجو أن يُعطاها. فقال: أين علي بن أبي طالب؟ فقيل: هو يشتكي عينيه، فأرسلوا إليه، فأُتيَ به. فَبَصَقَ في عينيه، ودعا له فبرَأَ كأن لم يكن به وجَع، فأعطاه الراية فقال: انفُذْ عَلى رِسلِكَ حتى تَنْزِلَ بساحتهم، ثم ادْعُهُم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجبُ عليهم من حَقِّ الله تعالى فيه؛ فوالله لأنْ يَهْديَ الله بك رجلاً واحداً، خَير لك من حُمْرِ النَّعَم». «يدوكون» أي يخوضون.

قال: ولهما عن سَهْل بن سَعْدٍ رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال يومَ خَيْبَرَ: **«لأُعْطِيَنَّ الرايةَ غداً رجلاً يُحِبُّ الله ورسوله، ويُحِبُّه الله**

ورسوله[1] **يفتح الله على يديه**»، فباتَ الناسُ يَدُوكون ليلتهم: أَيُّهُمْ يُعطاها. فلما أصبحوا غَدَوْا عَلَىٰ رسول الله ﷺ، كلُّهم يرجو أن يُعطاها. فقال: «**أين عليّ بن أبي طالب؟**» فقيل: هو يشتكي عينيه، فأرسلوا إليه، فأُتيَ به. فَبَصَقَ في عينيه، ودعا له فبرَأَ كأن لم يكن به وجَع، فأعطاه الراية فقال: «**انْفُذْ عَلى رِسلِكَ حتى تَنْزِلَ بساحتهم، ثم ادْعُهُم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجبُ عليهم من حَقِّ الله تعالى فيه؛ فوالله لأنْ يَهْدِيَ الله بك رجلاً واحداً، خَير لك من حُمْرِ النَّعَم**».

---

(١) قال الحافظ على رواية «**لأعطين الراية غداً ـ أو ليأخذن الراية غداً**» هو شك من الراوي. وفي حديث سهل الذي بعده: «**لأعطين هذه الراية غداً رجلاً**» بغير شك. وفي حديث بريدة: «**إني دافع اللواء غداً إلى رجل يحبه الله ورسوله**» والراية بمعنى «اللواء» وهو العَلَم الذي في الحرب يعرف بموضع صاحب الجيش وقد يحمله أمير الجيش وقيل يدفعه لمقدم العسكر. وقد صرح جماعة من أهل اللغة بترادفهما، لكن روى أحمد والترمذي من حديث ابن عباس كانت راية رسول الله ﷺ سوداء ولواؤه أبيض، ومثله عند الطبراني عن بريدة، وعند ابن عدي عن أبي هريرة وزاد: [مكتوب فيه لا إله إلاَّ الله محمد رسول الله] وهو ظاهر في التغاير فلعل التفرقة بينهما عرفية. وقد ذكر ابن إسحاق وكذا أبوالأسود عن عروة أن أول ما وجدت الرايات يوم خيبر، وما كانوا يعرفون قبل ذلك إلاَّ الألوية. انتهى. قال ابن العربي: اللواء ما يعقد في طرف الرمح، ويكون عليه [يعني ويلف عليه] والراية ما يعقد فيه ويترك حتى تصفقه الرياح. قال ابن القيم: الراية العلم الكبير، واللواء العلم الصغير. فالراية هي التي يتولاها صاحب الحرب ويقاتل عليها وإليها تميل المقاتلة، واللواء علامة كبكبة الأمير تدور معه حيث دار.

وقوله: «**ويحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله**» في هذا إثبات صفة المحبة لله عز وجل لعباده المؤمنين بدون تأويل كما تقوله الأشعرية والمعتزلة، فهم يقولون إرادته ثوابهما، وقيل: هي نفس الإثابة للتنعيم وهذا تأويل باطل مردود فأهل =

«يدوكون» أي: يخوضون.

قوله: «**عن سهل بن سعد**» أي ابن مالك بن خالد الأنصاري الخزرجي الساعدي، أبي العباس، صحابي شهير، وأبوه صحابي أيضاً. مات سنة ثمان وثمانين وقد جاوز المائة.

قوله: «**قال يوم خيبر**» وفي «الصحيحين» عن سَلَمَة بن الأكوع، قال: «كان علي رضي الله عنه قد تخلف عن النبي ﷺ في خيبر، وكان أرمد،

= السنة والجماعة يثبتون لله عز وجل محبة حقيقية لعباده المؤمنين. فإن الإثابة والتنعيم من أثر المحبة ليس هو المحبة وكذلك فيه إثبات محبة العباد لربهم كما قال عز وجل: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾، وقوله: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾ فهي محبة حقيقة، وليست استقامتهم على الطاعة، وإنما استقامتهم على الطاعة من أثر محبتهم لربهم عز وجل. وكذلك ليست إرادتهم أن ينفعهم فإن هذا والأول من تأويل المحرفين، وهما قولان مخالفان للشرع والعقل والواقع المحسوس، بل قد يؤول ذلك إلى إنكار أصل دين الإسلام؛ لأن مبنى دين الإسلام على شهادة أن لا إله إلاَّ الله، ومعنى الإله المحبوب الذي تألهه القلوب وتحبه وتعظمه وتُجله وتقصده بالإنابة والخضوع والذل والافتقار إليه، والخوف منه ورجائه فمن أنكر ميل القلوب إليه تعالى بالحب والتأله فقد أنكر حقيقة الإسلام. وهل الشرك الذي حرمت الجنة على صاحبه إلاَّ أن يجعل للمخلوق نصيباً مع الله تعالى في هذا الحب كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ﴾ الآية. فبيَّن تعالى أن الذي يحب المخلوق كحب الله أنه مشرك قد اتخذ لله ندًّا. وأخبر تعالى عن هؤلاء أنهم سيقولون لأندادهم وهم في النار: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ ولا يجوز أن تكون تسويتهم لهم برب العالمين في الحب لأنه لا يمكن أن يقول عاقل أن أحداً من الخلق يساوي الله تعالى في الفعل والتصرف. =

فقال: أنا أتخلف عن رسول الله ﷺ؟ فخرج علي رضي الله عنه فلحق بالنبي ﷺ، فلما كان مساء الليلة التي فتحها الله عزوجل في صباحها، قال ﷺ: **لأعطين الراية ـ أو ليأخذن الراية ـ غداً رجل يحبه الله ورسوله ـ أو قال: يحب الله ورسوله ـ يفتح الله على يديه**، فإذا نحن بعليّ وما نرجوه، فقالوا: هذا علي، فأعطاه رسول الله ﷺ الراية ففتح الله عليه».

قوله: «**لأعطين الراية**» قال الحافظ: في رواية بريدة «إني دافع اللواء إلى رجل يحبه الله ورسوله» وقد صرح جماعة من أهل اللغة بترادفهما، لكن روى أحمد والترمذي من حديث ابن عباس «كانت راية رسول الله ﷺ سوداء، ولواؤه أبيض» ومثله عند الطبراني عن بريدة، وعند ابن عدي عن أبي هريرة وزاد «مكتوب فيه: لا إله إلا الله محمد رسول الله».

= قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ:

وهو الودود يحبهم ويحبه ... أحبابه والفضل للمنان
وهو الذي جعل المحبة في قلو ... بهم وجازاهم بحب ثان
وهو الإحسان حقّاً لا معا ... وضة ولا لتوقع الشكران

ومحبة الله هي روح الأعمال وجميع العبودية الظاهرة والباطنة ناشئة عن محبة الله. ومحبة العبد لربه فضل من الله وإحسان ليست بحول العبد ولا قوته، فهو تعالى الذي أحب عبده فجعل المحبة في قلبه ثم لما أحبه العبد بتوفيقه جازاه الله بحب آخر. فهذا هو الإحسان المحض على الحقيقة، إذ منه السبب والمسبب ليس المقصود منه المعاوضة، وإنما ذلك محبة منه تعالى للشاكرين من عباده ولشكرهم. فالمصلحة كلها عائدة إلى العبد فتبارك الذي أودع وجعل المحبة في قلوب المؤمنين، ثم لم يزل ينميها ويقويها حتى وصلت في قلوب الأصفياء إلى حالة تتضاءل عندها جميع المحاب وتسليهم عن الأحباب وتهون عليهم المصائب، وتلذذ لهم مشقة الطاعات. =

قوله: «يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله» فيه: فضيلة عظيمة لعلي رضي الله عنه.

قال شيخ الإسلام: ليس هذا الوصف مختصاً بعلي ولا بالأئمة؛ فإن الله ورسوله يحب كل مؤمن تقي يحب الله ورسوله؛ لكن هذا الحديث من أحسن ما يحتج به على النواصب، الذين لا يتولونه، أو يُكفِّرونه أو يُفَسّقونه، كالخوارج، لكن هذا الاحتجاج لا يتم على قول الرافضة الذين يجعلون النصوص الدالة على فضائل الصحابة كانت قبل ردتهم، فإن الخوارج تقول في عليّ مثل ذلك، لكن هذا باطل؛ فإن الله تعالى ورسوله لا يطلق مثل هذا المدح على من يعلم الله أنه يموت كافراً.

وفيه: إثبات صفة المحبة، خلافاً للجهمية ومن أخذ عنهم.

= وفي هذا رد على النواصب الذين يبغضون عليّاً ـ رضي الله عنه ـ سُموا بالنواصب لأنهم نصبوا العداوة لعلي ـ رضي الله عنه ـ وأما على قول الرافضة وهو: لا ولاء إلاّ ببراء أي من تولى أبابكر وعمر فقد نصب العداوة لعلي ـ رضي الله عنه ـ فإنه قول باطل، ولقد أحسن القائل:

إذا كان نصباً ولاء الصحابي ... فإني كما زعموا ناصبي

وإن كان رفضاً ولاء الجميع ... فلا برح الرفض من جانبي

وروى الطبراني عن أبي رافع: **«لأن يهدي الله على يديك رجلاً خير لك مما طلعت عليه الشمس أو غربت ـ خير لك عند الله مما طلعت عليه الشمس وغربت فتصدقت به»** وذلك لأن الهدى على يديه شعبة من الرسالة؛ لأن الرسل إنما بعثت لتؤدي عن الله فإذا ورد القيامة فله حظ من ثواب الرسل فإنه إنما هداه لما جاءت به الرسل عن الله والرسل أقرب الخلق إلى الله في دار الإسلام في الدرجات، فمن دون الرسل إذا كان داعياً إلى الله فهدى به عبداً فقد حاز ثواب الرسل حظّاً ومن حصل له من ثواب الرسل شيئاً فهو خير له مما طلعت عليه الشمس وغربت يعني فأنفقه كله في سبيل الله.

قوله: «**يفتح الله على يديه**» صريح في البشارة بحصول الفتح، فهو علم من أعلام النبوة.

قوله: «**فبات الناس يدوكون ليلتهم**» بنصب «**ليلتهم**». و«**يدوكون**» قال المصنف: يخوضون أي فيمن يدفعها إليه. وفيه: حرص الصحابة على الخير واهتمامهم به، وعلو مرتبتهم في العلم والإيمان.

قوله: «**أيهم**» هو برفع «أي» على البناء؛ لإضافتها وحذف صدر صلتها.

قوله: «**فلما أصبحوا غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها**». وفي رواية أبي هريرة عند مسلم أن عمر قال: «ما أحببت الإمارة إلا يومئذٍ».

قال شيخ الإسلام: إن في ذلك شهادة النبي ﷺ لعلي بإيمانه باطناً وظاهراً، وإثباتاً لموالاته لله تعالى ورسوله، ووجوب موالاة المؤمنين له. وإذا شهد النبي ﷺ لمعين بشهادة، أو دعا له أحب كثير من الناس أن يكون له مثل تلك الشهادة، ومثل ذلك الدعاء، وإن كان النبي يشهد بذلك لخلق كثير، ويدعو لخلق كثير. وهذا كالشهادة بالجنة لثابت بن قيس وعبدالله بن سلام، وإن كان شهد بالجنة لآخرين، والشهادة بمحبة الله ورسوله للذي ضرب في الخمر.

قوله: «**فقال: أين علي بن أبي طالب؟**» فيه سؤال الإمام عن رعيته؛ وتفقد أحوالهم.

قوله: «**فقيل هو يشتكي عينيه**» أي من الرمد، كما في «صحيح مسلم» عن سعد بن أبي وقاص فقال: «**ادعوا لي علياً فأتي به أرمد...**» الحديث، وفي نسخة صحيحة بخط المصنف «فقيل: هو يشتكي عينيه، فأرسل إليه» مبني للفاعل، وهو ضمير مستتر في الفعل راجع إلى النبي ﷺ. ويحتمل أن يكون مبنياً لما لم يسم فاعله. ولمسلم من طريق

إياس بن سلمة بن الأكوع عن أبيه قال: «فأرسلني إلى عليّ، فجئت به أقوده أرمد».

قوله: «**فبصق**» بفتح الصاد، أي: تفل.

قوله: «**ودعا له فبرأ**» هو بفتح الراء والهمزة، أي عوفي في الحال عافية كاملة كأن لم يكن به وجع من رمد ولا ضعف بصر.

وعند الطبراني من حديث عليّ: «فما رمدت ولا صدعت منذ دفع النبي ﷺ إليّ الراية».

وفيه: دليل على الشهادتين.

قوله: «**فأعطاه الراية**» قال المصنف: فيه: الإيمان بالقدر لحصولها لمن لم يسع، ومنعها عمن سعى.

وفيه: أن فعل الأسباب المباحة أو الواجبة أو المستحبة لا ينافي التوكل.

قوله: «**فقال: انفذ على رسلك**» بضم الفاء. أي امض، و«**رسلك**» بكسر الراء وسكون السين، أي على رفقك من غير عجلة، و«**ساحتهم**» فِناء أرضهم وهو ما حولها.

وفيه: الأدب عند القتال، وترك العجلة والطيش والأصوات التي لا حاجة إليها.

وفيه: أمر الإمام عماله بالرفق من غير ضعف ولا انتقاض عزيمة، كما يشير إليه.

قوله: «**ثم ادعهم إلى الإسلام**» أي الذي هو معنى: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله. وإن شئت قلت: الإسلام: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وما اقتضته الشهادتان من إخلاص العبادة لله وحده، وإخلاص الطاعة لرسوله ﷺ. ومن هنا طابق الحديث

الترجمة كما قال تعالى لنبيه ورسوله: ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران: ٦٤].

قال شيخ الإسلام رحمه الله: والإسلام هو الاستسلام لله، وهو الخضوع له، والعبودية له. كذا قال أهل اللغة.

وقال رحمه الله تعالى: ودين الإسلام الذي ارتضاه الله وبعث به رسله: هو الاستسلام له وحده، فأصله في القلب، والخضوع له وحده بعبادته وحده دون ما سواه. فمن عبده وعبد معه إلٰهاً آخر لم يكن مسلماً، ومن استكبر عن عبادته لم يكن مسلماً، وفي الأصل: هو من باب العمل، عمل القلب والجوارح. وأما الإيمان فأصله: تصديق القلب وإقراره ومعرفته فهو من باب قول القلب المتضمن عمل القلب. انتهى.

فتبين أن أصل الإسلام هو التوحيد ونفي الشرك في العبادة، وهو دعوة جميع المرسلين وهو الاستسلام لله تعالى بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة فيما أمرهم به على ألسن رسله، كما قال تعالى عن نوح أول رسول أرسله: ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾﴾ [نوح: ٣].

وفيه: مشروعية الدعوة قبل القتال، لكن إن كانوا قد بلغتهم الدعوة جاز قتالهم ابتداءً، لأن النبي ﷺ أغار على بني المصطلق وهم غارون، وإن كانوا لم تبلغهم الدعوة وجبت دعوتهم.

قوله: «وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه» أي في الإسلام إذا أجابوك إليه فأخبرهم بما يجب من حقوقه التي لابد لهم من فعلها، كالصلاة والزكاة، كما في حديث أبي هريرة **«فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها»**، ولما قال عمر لأبي بكر في قتاله

مانعي الزكاة: «كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله ﷺ: **أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها**؟ قال أبوبكر: فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عناقاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعها».

وفيه: بعثُ الإمام الدعاة إلى الله تعالى، كما كان النبي ﷺ وخلفاؤه الراشدون يفعلون، كما في «المسند» عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال في خطبته «ألا إني والله ما أرسل عُمّالي إليكم ليضربوا أبشاركم، ولا ليأخذوا أموالكم، ولكن أرسلهم إليكم ليعلِّموكم دينكم وسننكم».

قوله: «فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم» «أن» مصدرية واللام قبلها مفتوحة لأنها لام القسم. و«أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر، رفع على الابتداء، والخبر «خير». و«حمر» بضم المهملة وسكون الميم، جمع أحمر. و«النعم» بفتح النون والعين المهملة، أي خير لك من الإبل الحمر، وهي أنفس أموال العرب.

قال النووي: وتشبيه أمور الآخرة بأمور الدنيا إنما هو للتقريب إلى الأفهام، وإلا فذرَّة من الآخرة خير من الأرض بأسرها وأمثالها معها.

وفيه: فضيلة من اهتدى على يديه رجل واحد، وجواز الحلف على الخبر والفتيا ولو لم يستحلف.

فيــه مســائل:

الأولــى: أن الدعوة إلى الله طريقُ من اتبع رسول الله ﷺ.

الثانيــة: التنبيه على الإخلاص؛ لأن كثيراً من الناس لو دعا إلى الحق، فهو يدعو إلى نفسه.

الثالثــة: أن البصيرة من الفرائض.

الرابعــة: من دلائل حسن التوحيد: أنه تنزيه لله تعالى عن المسبَّة.

الخامسة: أنَّ مِن قُبح الشرك كونه مَسَبة لله.

السادسة: ـ وهي من أهمها ـ إبعادُ المسلم عن المشركين لئلا يصير منهم ولو لم يشرك.

السابعـة: كون التوحيد أول واجب.

الثامنــة: أنه يُبدأ به قبل كل شيء، حتى الصلاة.

التاسعة: أن معنى «أن يُوحِّدوا الله» معنى شهادة: أن لا إلٰه إلا الله.

العاشرة: أن الإنسان قد يكون من أهل الكتاب، وهو لا يعرفها، أو يعرفها ولا يعمل بها.

الحادية عشرة: التنبيه عَلَىٰ التعليم بالتدريج.

الثانيـة عشرة: البداءة بالأهم فالأهم.

الثالثـة عشرة: مصرف الزكاة.

الرابعـة عشرة: كشفُ العالِم الشبهةَ عن المتعلم.

الخامسة عشرة: النَّهي عن كرائم الأموال.

السادسة عشرة: اتقاء دعوة المظلوم.

السابعـة عشرة: الإخبار بأنها لا تُحْجَب.

الثامنــة عشرة: من أدلة التوحيد ما جرى على سيد المرسلين وسادات الأولياء من المشقة والجوع والوباء.

التاسعة عشرة: قوله: «لأُعطِين الراية... إلخ» علَم من أعلام النبوة.

العشرون: تَفْلُه في عَيْنَيه علَم من أعلامها أيضاً.

الحادية والعشرون: فضيلة علي رضي الله عنه.

الثانية والعشرون: فضل الصحابة في دَوْكهم تلك الليلة، وشُغلهم عن بشارة الفتْح.

الثالثة والعشرون: الإيمانُ بالقَدَر؛ لحصولها لمن لم يَسْعَ لها ومَنْعِها عمن سعى.

الرابعة والعشرون: الأدب في قوله: «عَلَىٰ رِسْلكَ».

الخامسة والعشرون: الدعوة إلى الإسلام قبل القتال.

السادسة والعشرون: أنه مشروع لمن دُعوا قبل ذلك وقوتلوا.

السابعة والعشرون: الدعوة بالحكمة لقوله: «أخبرهم بما يجب».

الثامنة والعشرون: المعرفة بحقِّ الله في الإسلام.

التاسعة والعشرون: ثوابُ من اهتدى عَلَىٰ يديه رجلٌ واحد.

الثلاثون: الحَلِفُ عَلَىٰ الفُتْيا.

باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله

قوله: «باب تفسير التوحيد، وشهادة أن لا إله إلا الله»(١).

قلت: هذا من عطف الدال على المدلول.

فإن قيل: قد تقدم في أول الكتاب من الآيات ما يبين معنى «لا إله إلا الله» وما تضمنته من التوحيد كقوله تعالى: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣] وسابقها ولاحقها. وكذلك ما ذكره في الأبواب بعدها. فما فائدة هذه الترجمة؟

قيل: هذه الآيات المذكورات في هذا الباب فيها مزيد بيان بخصوصها لمعنى كلمة الإخلاص وما دلت عليه: من توحيد العبادة.

---

(١) عقد المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ هذه الترجمة وهو قوله: [باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلاَّ الله] ذلك لأنه حصل من المتأخرين من الوقوع فيما نهىٰ عنه رسول الله ﷺ من الغلو والشرك لجهلهم بمعنى الله ومعنى لا إله إلاَّ الله فلم يعرفوا الذى نهوا عن عبادته، ولا عرفوا العبادة التي من قُصد بها صار إلـٰهاً. فالجهل بالتوحيد أوقعهم فيما وقعوا فيه من الشرك الأكبر؛ من دعاء غير الله توسلاً بهم زعماً منهم أي من الكفار والمشركين أنهم يقربونهم إلى الله زلفىٰ ويشفعون لهم عنده، أيعرفوا من التوحيد إلاَّ ما أقر به المشركون من قريش وأهل الجاهلية وغيرهم من أن الله رب كل شيء ومليكه وخالقه، ولم يعرفوا أنه المعبود الذي لا تصلح العبادة إلاَّ له، ولا عرفوا الشرك الذي هو تنزيل المخلوق منزلة الخالق، فيما يختص به، أو يجعله شريكاً في خصائص الإلـٰهية التي هي أبين شيء في القرآن وأوضحه. فقد عمت البلوى بهذا الشرك وأطلقوا عنان الغلو في الأموات والغائبين وأنزلوهم منزلة رب العالمين في الرغبات والرهبات والدعوات التي لا يصلح منها شيء لغير الله.

=

وفيها: الحجة على من تعلق على الأنبياء والصالحين يدعوهم ويسألهم؛ لأن ذلك هو سبب نزول بعض هذه الآيات، كالآية الأولى ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ ﴾ [الإسراء: ٥٦] أكثر المفسرين على أنها نزلت فيمن يعبد المسيح وأُمه، والعُزير والملائكة، وقد نهى الله عن ذلك أشد النهي، كما في هذه الآية من التهديد والوعيد على ذلك.

وهذا يدل على أن دعاءهم من دون الله شرك بالله، ينافي التوحيد، وينافي شهادة أن لا إله إلا الله؛ فإن التوحيد أن لا يدعى إلا الله وحده. وكلمة الإخلاص نفت هذا الشرك، لأن دعوة غير الله تأليه وعبادة له. والدعاء مخ العبادة.

= فمن ذلك ما ذكره صاحب البردة في منظومته فإنه قد جمع في أبياته الاستعانة والاستغاثة بغير الله والالتجاء والرغبة إلى غير الله فإن غاية ما يقع من المستغيث والمستعين والراغب إنما هو الدعاء واللياذ بالقلب واللسان وهذه هي أنواع العبادة التي ذكرها الله تعالى في مواضع كثيرة من كتابه وشكرها لمن قصرها على الله فوعده على ذلك الإجابة والإثابة كقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلْحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ ﴾، وقال تعالى: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾ ﴾ أمره بقصر الرغبة على ربه تعالى، وقال تعالى: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ فلا يخفى على من عرف دين الإسلام أن في أبيات البردة من الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله لمن لم يتب منه، ولكن من جهل هؤلاء بالتوحيد وشهادة أن لا إله إلاَّ الله وبالشرك الذي نهوا عنه فإنهم لم يعرفوا من الشرك إلاَّ أنه عبادة الأصنام فقط، فترجم المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ بهذا الباب ليبين أن دعاء الأموات والغائبين لجلب نفع أو دفع ضر هو من الشرك الأكبر الذي=

وفي هذه الآية: أن المدعو لا يملك لداعيه كشف ضر ولا تحويله من مكان إلى مكان، ولا من صفة إلى صفة، ولو كان المدعو نبياً أو ملكاً. وهذا يقرر بطلان دعوة كل مدعو من دون الله كائناً من كان؛ لأن دعوته تخون داعيه أحوج ما كان إليها، لأنه أشرك مع الله من لا ينفعه ولا يضره. وهذه الآية تقرر التوحيد، ومعنى: لا إله إلا الله.

وقول الله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾ [الإسراء: ٥٧].

وقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ﴾ يبين أن هذا سبيل الأنبياء والمرسلين ومن تبعهم من المؤمنين.

= لا يغفره الله.

[ثانياً] أن تعلم أنه ليس المراد من نفي الأوثان والأصنام في كلمة الإخلاص زوال ماهية الأصنام ونفي وجودها وإنما المراد بالنفي بها أفراد متعددة من الأصنام والأنداد والشركاء والأولياء من حين حدث الشرك بعبادة الأصنام في قوم نوح إلى أن تقوم الساعة، فيجب بالنفي في كلمة الإخلاص إنكار عبادتها والكفر بها والبراءة منها ومن عابديها، والعداوة لها وعابديها.

وكل من تبرأ منها وأهلها فقد نفاها بقول [لا إله إلاّ الله] وأثبت الألوهية لله تعالى دون كل ما يعبد من دونه، وأما القول بنفي وجودها فهو قول باطل لأن الله تعالى بعث محمداً ﷺ ينهى قريشاً والعرب وغيرهم من المشركين عن أن يعبدوا مع الله غيره، كاللات والعزى ومناة والأصنام التي كانت حول الكعبة. قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ إلى قوله: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ﴾ فلا يشك أحد بعد هذا أنها موجودة تعبد من دون الله بل لا يشك مسلم ولا مشرك في وجودها، وأن قريشاً وغيرهم =

قال قتادة: «تقربوا إليه بطاعته والعمل بما يرضيه».

وقرأ ابن زيد: ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ تَدْعُون يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبَ﴾ قال العماد ابن كثير: وهذا لا خلاف فيه بين المفسرين. وذكره عن عدة من أئمة التفسير.

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى: في هذا الآية ذكر المقامات الثلاث: الحب، وهو ابتغاء القرب إليه والتوسل إليه بالأعمال الصالحة، والرجاء والخوف. وهذا هو حقيقة التوحيد وحقيقة دين

= يعبدونها، وقال تعالى عن قوم نوح: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾ ومعلوم أنها أسماء رجال صالحين صوروها قومهم أصناماً على صوروهم وسموها بأسمائهم فآل بهم الأمر إلى أن عبدوها وهي موجودة في الخارج لا يشك في وجودها أحد ولا ريب أنها منتفية بكلمة الإخلاص [لا إله إلاّ الله] وقال تعالى عن يوسف عليه السلام أنه قال: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾.

[الكلام على تفسير لا إله إلاّ الله]

اعلم رحمك الله تعالى أولاً أن المنفي بـ[لا] مقيد بقيد الحقيقة والبطلان وأنه ليس المنفي في كلمة الإخلاص قابلاً للوصفين أعني الحق والباطل فإنه لا شك ولا ريب ولله الحمد والمنة في أن [الإله] المنفي في الكلمة الطيبة هو الباطل، بل لابدمن تقييده بالبطلان لأن المنفي في هذه الكلمة هي الطواغيت والأصنام والأنداد وكل ما عبد من دون الله وكلها باطلة بلا ريب كما قال الله عز وجل: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى شَكٍّ مِّن دِينِى فَلَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وهذا هو المنفي في كلمة الإخلاص وقوله: ﴿وَلَٰكِنْ أَعْبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ هو معنى [إلاّ الله] وكما قال لبيد في شعره الذي سمعه منه النبي ﷺ:

ألا كل شيء ما خلا الله باطلُ =

الإسلام كما في «المسند» عن بَهْز بن حكيم عن أبيه عن جده أنه قال للنبي ﷺ: «والله يارسول الله ما أتيتك إلا بعد ما حلفتُ عدد أصابعي هذه: أن لا آتيك. فبالذي بعثك بالحق، ما [الذي] بعثك به؟ قال: **الإسلام**، قال: وما الإسلام؟ قال: **أن تُسلم قلبك [لله]، وأن تُوجه وجهك إلى الله، وأن تصلي الصلوات المكتوبة، وتؤدي الزكاة المفروضة**».

وأخرج محمد بن نصر المروزي من حديث خالد بن معدان عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن للإسلام صُوىً ومناراً كمنار

= وقال تعالى: ﴿فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾ قال العلامة ابن القيم ـ رحمه الله ـ في هذه الآية: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾: فالآية إنما سيقت في من يعبد غير الله فما عبد إلاَّ الضلال المحض، والباطل البحت. انتهى. وقال الله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ إن الطاغوت هو الشيطان وما زينه من عبادة الأوثان فلذلك قال ابن رجب ـ رحمه الله تعالى ـ [الإله] هو الذي يطاع فلا يعصى هيبة له وإجلالاً ومحبة وخوفاً ورجاءً وتوكلاً عليه وسؤالاً منه، ودعاء له، ولا يصلح هذا كله إلاَّ لله عز وجل، فمن أشرك مخلوقاً في شيء من هذه الأمور التي هي من خصائص الإلٰهية كان ذلك قدحاً في إخلاصه في قول: [لا إله إلاَّ الله] وكان فيه من عبودية المخلوق بحسب ما فيه من ذلك. انتهى.

وقال البقاعي: [لا إله إلاَّ الله] أي انتفاءُ عظيماً أن يكون معبود بحق غير الملك الأعظم هو أعظم الذكرى المنجية من أهوال الساعة وإنما يكون علماً إذا كان نافعاً، وإنما يكون نافعاً إذا كان مع الإذعان والعمل بما تقتضيه وإلاَّ فهو جهل صرف. انتهى.

وقال ابن القيم ـ رحمه الله ـ الإله هو الذي تألهه القلوب محبة وإجلالاً وإنابة وإكراماً وتعظيماً وذلاً وخضوعاً وخوفاً ورجاءً وتوكلاً.

=

الطريق». من ذلك: أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾﴾ [لقمان: ٢٢].

وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الزخرف: ٢٦ ـ ٢٨].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾ أي «لا إله إلا الله».

= فظهر مما تقدم أن الإله هو المألوه المحبوب المعبود الذي يستحق العبادة لأنه هو الذي تألهه القلوب بحبها وتخضع له وتذل له وتخافه وترجوه وتنيب إليه في شدائدها، وتدعوه في مهماتها وتتوكل عليه في مصالحها، وتلجأ وتطمئن بذكره وتسكن إلى حبه وليس ذلك إلاَّ لله وحده، فالموحد يخصها به سبحانه فيقول [لا إله حق إلاَّ الله] كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ بعد قوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ ۖ هَـٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾﴾ وقال تعالى: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾﴾ وقال تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلْنَا مِن دُونِ ٱلرَّحْمَـٰنِ ءَالِهَةً يُعْبَدُونَ ﴿٤٥﴾﴾.

هذا فثبوت ألوهية الله تعالى أمر مسلمٌ لا نزاع فيه، وإنما النزاع مع المشركين في قصر الألوهية عليه تعالى. فالموحد يخصها به فيقول: [لا إله إلاَّ الله] والمشرك ينكر ذلك استكباراً فيقول الله أنه يقول: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَـٰذَا لَشَىْءٌ=

فتدبر كيف عبَّر الخليل عليه السلام عن هذه الكلمة العظيمة بمعناها الذي دلت عليه ووضعت له: من البراءة من كل ما يعبد من دون الله من المعبودات الموجودة في الخارج: كالكواكب والهياكل والأصنام التي صورها قوم نوح على صور الصالحين: ودّ وسُواع وَيَغُوث ويَعُوق ونَسراً، وغيرها من الأوثان والأنداد التي كان يعبدها المشركون بأعيانها. ولم يستثن من جميع المعبودات إلا الذي فطره، وهو الله وحده لا شريك له، فهذا هو الذي دلت عليه كلمة الإخلاص مطابقة، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج: ٦٢] فكل عبادة يقصد بها غير الله: من دعاء وغيره فهي باطلة، وهي الشرك الذي لا يغفره الله، قال تعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُوا۟ مِن قَبْلُ شَيْـًٔا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [غافر: ٧٣ ـ ٧٤].

وقوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١].

= عُجَابٌ ﴿٥﴾﴾ وقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾﴾.

وهذا إعراب هذه الكلمة [لا] نافية للجنس تعمل عمل [إن] و[إله] اسمها مبني معها على الفتح منفي بلا والإله جنس يتناول كل معبود من بشر أو حجر أو شجر أو مدر.

فهذا الجنس على تعدد أفراده منفي [بلا] لأن هؤلاء لا يستحقون الألوهية وإنما الذي يستحق ذلك هو الله وحده فلذلك لم يدخل في المنفي وخبر [لا] محذوف على الصحيح كما في الآيات تقديره [حق] لقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ الآية ومن قدر الخبر المحذوف غير ذلك فقد أخطأ لقول بعضهم أن الخبر =

قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾.

وفي الحديث الصحيح أن النبي ﷺ تلا هذه الآية على عَدِيِّ بن حاتم الطائي، فقال: «يارسول الله، لسنا نعبدهم. قال: **أليس يُحِلُّون لكم ما حرم الله فتُحلُّونه، ويحرِّمون ما أحل الله فتحرِّمونه؟** قال: بلىٰ. قال: النبي ﷺ: **فتلك عبادتهم**».

فصارت طاعتهم في المعصية عبادة لغير الله، وبها اتخذوهم أرباباً، كما هو الواقع في هذه الأمة، وهذا من الشرك الأكبر المنافي للتوحيد الذي هو مدلول شهادة أن لا إله إلا الله.

فتبين بهذه الآية أن كلمة الإخلاص نفت هذا كله لمنافاته لمدلول هذه الكلمة. فأثبتوا ما نفته من الشرك وتركوا ما أثبتته من التوحيد.

= المحذوف [أحد] فلا حجة له ولا برهان.
و[إلاّ] أداة الاستثناء والاستثناء من [الخبر] والله تعالى هو المستثنى بإلاّ وهو الإله الحق وعبادته حق وقوله الحق والصحيح أنه مخرج من [اسم] [لا] وحكمه كما قرره العلامة ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ وكما صرحت بذلك الآيات كقوله: ﴿فَلَآ أَعۡبُدُ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ وهذا هو المنفي وهي الآلهة الباطلة وقوله: ﴿وَلَٰكِنۡ أَعۡبُدُ ٱللَّهَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُمۡ﴾ هو معنى [إلاّ الله].
قال ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ في طريق الهجرتين: فصل في بيان منفعة الحق ومنفعة الخلق وما بينهما من التباين. قال: إذا تبين هذا ظهر أن أحداً من المخلوقين لا يقصد منفعتك بالقصد الأول بل إنما يقصد منفعته بك، وقد يكون عليك في ذلك ضرراً إذا لم يراع المحب العدل فإذا دعوته فقد دعوت من ضُره أقرب من نفعه، وأما الرب سبحانه فهو يريدك لك ولمنفعتك لا ينتفع بك وذلك منفعة لك محضة لا ضرر فيها، فتدبر هذا حق التدبر وراعه حق المراعاة =

وقوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥] فكل من اتخذ نداً لله يدعوه من دون الله ويرغب إليه ويرجوه لما يؤمله منه من قضاء حاجاته وتفريج كرباته ـ كحال عُبّاد القبور والطواغيت والأصنام ـ فلابد أن يعظِّموهم ويحبوهم لذلك؛ فإنهم أحبوهم مع الله. وإن كانوا يحبون الله تعالى ويقولون «لا إله إلا الله» ويصلون ويصومون، فقد أشركوا بالله في المحبة بمحبة غيره وعبادة غيره. فاتخاذهم الأنداد يحبونهم كحب الله يبطل كل قول يقولونه وكل عمل يعملونه؛ لأن المشرك لا يقبل منه عمل، ولا يصح منه. وهؤلاء وإن قالوا: «لا إله إلا الله» فقد تركوا كل قيد قيِّدت به هذه الكلمة العظيمة: من العلم بمدلولها، لأن المشرك جاهل بمعناها، ومن جهله بمعناها جعل لله شريكاً في المحبة وغيرها، وهذا هو الجهل

= فملاحظته تمنعك أن ترجو المخلوق أو تطلب منه منفعته لك فإنه لا يريد ذلك ألبتة بالقصد الأول بل إنما يريد انتفاعه بك عاجلاً أو آجلاً فهو يريد نفسه لا يريدك ويريد نفع نفسه بك لا نفعك بنفسه؛ فتأمل ذلك فإن فيه منفعة عظيمة وراحة ويأسٌ من المخلوقين وسدٌّ لباب عبوديتهم وفتحٌ لباب عبودية الله وحده، فما أعظم حق من عرف هذه المسألة وراعاها حق رعايتها، ولا يحملنك هذا على جفوة الناس وترك الإحسان إليهم، واحتمال أذاهم بل أحسن إليهم لله لا لرجائهم فكما لا تخافهم لا ترجوهم.

إلى أن قال ـ رحمه الله ـ: فالسعيد الرابح من عامل الله فيهم، ولم يعاملهم في الله، وخاف الله فيهم، ولم يخفهم في الله، وأرضى الله بسخطهم ولم يرضهم بسخط الله، وراقب الله فيهم ولم يراقبهم في الله، وآثر الله عليهم، ولم يؤثرهم على الله، وأمات خوفهم ورجائهم وحبهم من قلبه وأحيا حب الله وخوفه ورجائه فيه، فهذا هو الذي يكتب عليهم وتكون معاملته لهم كلها ربحاً فبشرط أن يصبر على أذاهم ويتخذه مغنماً لا مغرماً وربحاً لا خسراناً.

المنافي للعلم بما دلت عليه من الإخلاص، ولم يكن صادقاً في قولها، لأنه لم ينف ما نفته من الشرك، ولم يثبت ما أثبتته من الإخلاص، وترك اليقين أيضاً؛ لأنه لو عرف معناها وما دلت عليه لأنكره أو شك فيه، ولم يقبله وهو الحق، ولم يكفر بما يعبد من دون الله، كما في الحديث: «بل آمن بما يعبد من دون الله باتخاذه الند» ومحبته له وعبادته إياه من دون الله، كما قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥] لأنهم أخصلوا له الحب فلم يحبوا إلا إياه، ويحبون من أحب ويخلصون أعمالهم جميعاً لله، ويكفرون بما عبد من دون الله.

فبهذا يتبين لمن وفقه الله تعالى لمعرفة الحق وقبوله دلالة هذه الآيات العظيمة على معنى شهادة أن لا إله إلا الله، وعلى التوحيد الذي هو معناها الذي دعا إليه جميع المرسلين، فتدبر.

قال: وقول الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ الآية [الإسراء: ٥٧] يتبين معنى هذه الآية بذكر ما قبلها، وهو قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾﴾ [الإسراء: ٥٦].

قال ابن كثير رحمه الله: يقول تعالى: ﴿قُلْ﴾ يامحمد للمشركين الذين عبدوا غير الله ﴿ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ من الأصنام والأنداد، وارغبوا إليهم فإنهم لا ﴿يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ﴾ أي بالكلية ﴿وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾﴾ أي ولا أن يحولوه إلى غيركم.

والمعنى: أن الذي يقدر على ذلك هو الله وحده لا شريك له، الذي له الخلق والأمر.

قال العوفي عن ابن عباس في الآية: «كان أهل الشرك يقولون: نعبد الملائكة والمسيح وعزيراً، وهم الذين يدعون. يعني الملائكة والمسيح

وعزيراً».

وروى البخاري في الآية عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «ناس من الجن كانوا يُعبدون فأسلموا» وفي رواية «كان ناس من الإنس يعبدون ناساً من الجن فأسلم الجن وتمسك هؤلاء بدينهم».

وقول ابن مسعود هذا يدل على أن الوسيلة هي الإسلام، وهو كذلك على كلا القولين.

وقال السدي عن أبي صالح عن ابن عباس في الآية قال: «عيسى وأمه وعزيراً».

وقال مغيرة عن إبراهيم: كان ابن عباس يقول في هذه الآية: «هم عيسى وعزير والشمس والقمر».

وقال مجاهد: «عيسى وعزير والملائكة».

وقوله: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ لا تتم العبادة إلا بالخوف والرجاء، فكل داع دعا دعاء عبادة أو استغاثة لابد له من ذلك: فإما أن يكون خائفاً، وإما أن يكون راجياً، وإما أن يجتمع فيه الوصفان.

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى في هذه الآية، لما ذكر أقوال المفسرين: وهذه الأقوال كلها حق، فإن الآية تعم من كان معبوده عابداً لله، سواء كان من الملائكة أو من الجن أو من البشر. والسلف في تفسيرهم يذكرون جنس المراد بالآية على نوع التمثيل، كما يقول الترجمان لمن سأله: ما معنى الخبز؟ فيريه رغيفاً، فيقول: هذا. فالإشارة إلى نوعه لا إلى عينه، وليس مرادهم بذلك تخصيص نوع دون نوع مع شمول الآية.

فالآية خطاب لكل من دعا من دون الله مدعواً، وذلك المدعو يبتغي إلى الله الوسيلة ويرجو رحمته ويخاف عذابه، فكل من دعا ميتاً أو غائباً

من الأنبياء والصالحين سواء كان بلفظ الاستغاثة أو غيرها فقد تناولته هذه الآية، كما تتناول من دعا الملائكة والجن؛ فقد نهى الله تعالى عن دعائهم، وبيَّن أنهم لا يملكون كشف الضر عن الداعين ولا تحويله، لا يرفعونه بالكلية ولا يحولونه من موضع إلى موضع، كتغيير صفته أو قدره، ولهذا قال: ﴿وَلَا تَحْوِيلًا ۝٥٦﴾ فذكر نكرة تعم أنواع التحويل.

فكل من دعا ميتاً أو غائباً من الأنبياء والصالحين، أو دعا الملائكة فقد دعا من لا يغيثه ولا يملك كشف الضر عنه ولا تحويله. اهـ.

وفي هذه الآية رد على من يدعو صالحاً ويقول: أنا لا أشرك بالله شيئاً، الشرك عبادة الأصنام.

قال: وقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ [الزخرف: ٢٦ ـ ٢٧].

قال ابن كثير: يقول تعالى مخبراً عن عبده ورسوله وخليله إمام الحنفاء، ووالد من بُعث بعده من الأنبياء، الذي تنتسب إليه قريش في نسبها ومذهبها: أنه تبرأ من أبيه وقومه في عبادتهم الأوثان فقال: ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ۝٢٧ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٢٨﴾ [الزخرف: ٢٦ ـ ٢٨] أي أن هذه الكلمة وهي عبادة الله وحده لا شريك له، وخلع ما سواه من الأوثان، وهي «لا إله إلا الله» جعلها في ذريته يقتدي به فيها من هداه الله من ذرية إبراهيم عليه السلام ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٢٨﴾ أي: إليها.

قال عكرمة ومجاهد والضحاك وقتادة والسدي وغيرهم في قوله: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٢٨﴾: يعني «لا إله إلا الله» لايزال في ذريته من يقولها.

وروى ابن جرير عن قتادة ﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾

قال: كانوا يقولون: الله ربنا ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧]. فلم يبرأ من ربه. رواه عبد بن حميد.

وروى ابن جرير وابن المنذر عن قتادة ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾ قال: «الإخلاص والتوحيد، لايزال في ذريته من يعبد الله ويوحده».

قلت: فتبين أن معنى «لا إله إلا الله» توحيد الله بإخلاص العبادة له والبراءة من كل ما سواه.

قال المصنف رحمه الله: وذكر سبحانه أن هذه البراءة، وهذه الموالاة هي شهادة أن لا إله إلا الله.

وفي هذا المعنى يقول العلامة الحافظ ابن القيم رحمه الله في الكافية الشافية:

وإذا تولاه امرؤ دون الورى ... طُرّاً تولاه العظيم الشان

قال: وقوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الآية [التوبة: ٣١].

الأحبار: هم العلماء، والرهبان: هم العبَّاد.

وهذه الآية قد فسرها رسول الله ﷺ لعَدِي بن حاتم، وذلك «أنه لما جاء مسلماً دخل على رسول الله ﷺ فقرأ عليه هذه الآية. قال: فقلت: إنهم لم يعبدوهم. فقال: **بلى، إنهم حرموا عليهم الحلال، وحللوا لهم الحرام فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياهم**» رواه أحمد والترمذي وحسنه، وعبد بن حميد وابن أبي حاتم والطبراني من طرق.

قال السدي: استنصحوا الرجال ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم. ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة: ٣١] فإن الحلال ما أحله الله، والحرام ما حرمه الله، والدين ما شرعه الله.

فظهر بهذا أن الآية دلت على أن من أطاع غير الله ورسوله، وأعرض عن الأخذ بالكتاب والسنة في تحليل ماحرم الله، أو تحريم ماأحله الله، وأطاعه في معصية الله، واتبعه فيمالم يأذن به الله، فقد اتخذه ربًّا ومعبوداً وجعله لله شريكاً، وذلك ينافي التوحيد الذي هو دين الله الذي دلت عليه كلمة الإخلاص «لا إله إلا الله»، فإن الإله هو المعبود، وقد سمى الله تعالى طاعتهم عِبادة لهم، وسماهم أرباباً كما قال تعالى: ﴿ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ﴾ [آل عمران: ٨٠] أي شركاء لله تعالى في العبادة ﴿ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [آل عمران: ٨٠]. وهذا هو الشرك، فكل معبود رب، وكل مطاع ومتبع على غير ماشرعه الله ورسوله فقد اتخذه المطيع المتبع رباً ومعبوداً، كما قال تعالى في آية الأنعام ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾ [الأنعام: ١٢١] وهذا هو وجه مطابقة الآية للترجمة، ويشبه هذه الآية في المعنى قوله تعالى: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ [الشورى: ٢١] والله أعلم.

قال شيخ الإسلام في معنى قوله: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾: وهؤلاء الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً حيث أطاعوهم في تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله يكونون على وجهين.

أحدهما: أن يعلموا أنهم بدّلوا دين الله فيتبعونهم على هذا التبديل، فيعتقدون تحليل ما حرم الله أو تحريم ما أحل الله، اتباعاً لرؤسائهم، مع علمهم أنهم خالفوا دين الرسل، فهذا كفر، وقد جعله الله ورسوله شركاً، وإن لم يكونوا يصلون لهم ويسجدون لهم، فكان من اتبع غيره في خلاف الدين مع علمه أنه خلاف للدين، واعتقد ما قاله ذلك دون ما قاله الله ورسوله، مشركاً مثل هؤلاء.

الثاني: أن يكون اعتقادهم وإيمانهم بتحريم الحرام وتحليل الحلال ثابتاً، لكنهم أطاعوهم في معصية الله، كما يفعل المسلم ما يفعله من المعاصي التي يعتقد أنها معاص، فهؤلاء لهم حكم أمثالهم من أهل الذنوب، كما قد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**إنما الطاعة في المعروف**».

ثم ذلك المحرِّم للحلال والمحلل للحرام إن كان مجتهداً، قصده اتباع الرسول لكن خفي عليه الحق في نفس الأمر وقد اتقى الله ما استطاع، فهذا لا يؤاخذه الله بخطئه، بل يثيبه على اجتهاده الذي أطاع به ربه.

ولكن من علم أن هذا أخطأ فيما جاء به الرسول ثم اتبعه على خطئه وعدل عن قول الرسول، فهذا له نصيب من هذا الشرك الذي ذمه الله، لاسيما إن اتبع في ذلك هواه ونصره باليد واللسان، مع علمه أنه مخالف للرسول، فهذا شرك يستحق صاحبه العقوبة عليه.

ولهذا اتفق العلماء على أنه إذا عرف الحق لا يجوز له تقليد أحد في خلافه، وإنما تنازعوا في جواز التقليد للقادر على الاستدلال. وإن كان عاجزاً عن إظهار الحق الذي يعلمه، فهذا يكون كمن عرف أن دين الإسلام حق وهو بين النصارى، فإذا فعل ما يقدر عليه من الحق لا يؤاخذ بما عجز عنه، وهؤلاء كالنجاشي وغيره. وقد أنزل الله في هؤلاء الآيات من كتابه كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩٩] وقوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٣] وقوله: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ [الأعراف: ١٥٩] وأما إن كان المتبع للمجتهد عاجزاً عن معرفة الحق على التفصيل وقد فعل ما

يقدر عليه مثلُه: من الاجتهاد في التقليد، فهذا لا يؤاخذ إن أخطأ كما في القِبْلة.

وأما من قلد شخصاً دون نظيره بمجرد هواه، ونصره بيده ولسانه من غير علم أن معه الحق، فهذا من أهل الجاهلية، وإن كان متبوعه مصيباً لم يكن عمله صالحاً، وإن كان متبوعه مخطئاً كان آثماً. كمن قال في القرآن برأيه، فإن أصاب فقد أخطأ، وإن أخطأ فليتبوأ مقعده من النار. وهؤلاء من جنس مانع الزكاة الذي تقدم فيه الوعيد، ومن جنس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة، فإن ذلك لما أحب المال منعه من عبادة الله وطاعته وصار عبداً له، وكذلك هؤلاء فيكون فيهم شرك أصغر، ولهم من الوعيد بحسب ذلك. وفي الحديث «**إن يسير الرياء شرك**» وهذا مبسوط عند النصوص التي فيها إطلاق الكفر والشرك على كثير من الذنوب. انتهى.

وقال أبوجعفر بن جرير في معنى قول الله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ أي: وتجعلون لمن خلق ذلك أنداداً وهم الأكفاء من الرجال تطيعونهم في معاصي الله. انتهى.

قلت: كما هو الواقع من كثير من عباد القبور.

وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ﴾ [البقرة: ١٦٥].

قال: وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ﴾ الآية [البقرة: ١٦٥].

قال العماد ابن كثير رحمه الله: يذكر الله حال المشركين به في الدنيا ومآلهم في الدار الآخرة، حيث جعلوا لله أنداداً؛ أي أمثالاً ونظراء

يعبدونهم معه، ويحبونهم كحبه. لا إله إلا هو، ولا ضد له، ولا ندَّ له، ولا شريك معه.

وفي «الصحيحين» عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: قلت: يارسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: **«أن تجعل لله نِدًّا وهو خَلَقَكَ»**.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ ولحبهم لله تعالى وتمام معرفتهم به وتوقيرهم وتوحيدهم لا يشركون به شيئاً، بل يعبدونه وحده، ويتوكلون عليه، ويلجأون في جميع أمورهم إليه، ثم توعَّد تعالى المشركين به الظالمين لأنفسهم بذلك.

قال تعالى: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ قال بعضهم: تقدير الكلام، لو عاينوا العذاب لعلموا حينئذٍ أن القوّة لله جميعاً، أي إن الحكم له وحده لا شريك له؛ فإن جميع الأشياء تحت قهره وغلبته وسلطانه ﴿وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾﴾ كما قال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾ [الفجر: ٢٥ ـ ٢٦] يقول: لو علموا ما يعاينون هناك وما يحل بهم من الأمر الفظيع المنكر الهائل على شركهم وكفرهم لانتهوا عما هم فيه من الضلال، ثم أخبر عن كفرهم بأعوانهم وتبرء المتبوعين من التابعين، فقال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ﴾ [البقرة: ١٦٦] تبرأت منهم الملائكة الذين كانوا يزعمون أنهم يعبدونهم في الدار الدنيا، فتقول الملائكة: ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾﴾ ويقولوا: ﴿سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سبأ: ٤١] والجن أيضاً يتبرؤون منهم ويتنصلون من عبادتهم لهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَافِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف: ٥ ـ ٦] انتهى كلامه.

روى ابن جرير عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ مباهاة ومضاهاة للحق سبحانه بالأنداد ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ من الكفار لأوثانهم.

قال المصنف رحمه الله تعالى: ومن الأمور المبينة لتفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله: آية البقرة في الكفار الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ١٦٧﴾ ذكر أنهم يحبون أندادهم كحب الله، فدل على أنهم يحبون الله حباً عظيماً، فلم يدخلهم في الإسلام، فكيف بمن أحب النِّدّ أكبر من حب الله؟ فكيف بمن لم يحب إلا الند وحده؟ ا. هـ.

ففي الآية بيان أن من أشرك مع الله تعالى غيره في المحبة فقد جعله شريكاً لله في العبادة واتخذه نداً من دون الله، وأن ذلك هو الشرك الذي لا يغفره الله تعالى، كما قال تعالى في أولئك: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ١٦٧﴾ وقوله: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ﴾ والمراد بالظلم هنا الشرك. كقوله: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢] كما تقدم.

فمن أحب الله وحده، وأحب فيه وله فهو مخلص، ومن أحبه وأحب معه غيره، فهو مشرك، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ٢١ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ٢٢﴾ [البقرة: ٢١ ـ ٢٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله ما معناه: فمن رغب إلى غير الله في قضاء حاجة أو تفريج كربة، لزم أن يكون محباً له، ومحبته هي الأصل في ذلك. انتهى.

فكلمة الإخلاص «لا إله إلا الله» تنفي كل شرك في أي نوع كان من

أنواع العبادة، وتثبت العبادة بجميع أفرادها لله تعالى، وقد تقدم بيان أن «الإلٰه» هو المألوه الذي تألهه القلوب بالمحبة وغيرها من أنواع العبادة، فلا إلٰه إلا الله، نفت ذلك كله عن غير الله، وأثبتته لله وحده، فهذا هو ما دلت عليه كلمة الإخلاص مطابقة، فلابد من معرفة معناها واعتقاده، وقبوله، والعمل به باطناً وظاهراً، والله أعلم.

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى: فتوحيد المحبوب أن لا يتعدد محبوبه، أي مع الله تعالى بعبادته له، وتوحيد الحب أن لا يبقى في قلبه بقية حب حتى يبذلها له، فهذا الحب ـ وإن سمي عشقاً ـ فهو غاية صلاح العبد ونعيمه وقرة عينه، وليس لقلبه صلاح ولا نعيم إلا بأن يكون الله ورسوله أحب إليه من كل ما سواهما، وأن تكون محبته لغير الله تابعة لمحبة الله تعالى، فلا يحب إلا الله، ولا يحب إلا لله، كما في الحديث الصحيح «**ثلاث من كن فيه**» الحديث.

ومحبة رسول الله ﷺ هي من محبة الله، ومحبة المرء إن كانت لله فهي من محبته، وإن كانت لغير الله فهي منقصة لمحبة الله مضعفة لها.

ويُصَدِّق هذه المحبة بأن تكون كراهيته لأبغض الأشياء إلى محبوبه ـ وهو الكفر ـ بمنزلة كراهيته لإلقائه في النار أو أشد، ولا ريب أن هذا من أعظم المحبة، فإن الإنسان لا يُقدِّم على محبة نفسه وحياته شيئاً، فإذا قدم محبة الإيمان بالله على نفسه بحيث لو خيِّر بين الكفر وبين إلقائه في النار لاختار أن يلقى في النار ولا يكفر، كان أحب إليه من نفسه، وهذه المحبة هي فوق ما يجده العشاق المحبون من محبة محبوبيهم، بل لا نظير لهذه المحبة، كما لا مثل لمن تعلقت به، وهي محبة تقتضي تقديم المحبوب فيها على النفس والمال والولد. وتقتضي كمال الذل والخضوع والتعظيم والإجلال والطاعة والانقياد ظاهراً

وباطناً. وهذا لا نظير له في محبة المخلوق، ولو كان المخلوق من كان.

ولهذا من أشرك بين الله وبين غيره في هذه المحبة الخاصة كان مشركاً شركاً لا يغفره الله. كما قال تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ والصحيح: أن معنى الآية: إن الذين آمنوا أشد حبًّا لله من أهل الأنداد لأندادهم. كما تقدم أن محبة المؤمنين لربهم لا يماثلها محبة مخلوق أصلاً، كما لا يماثل محبوبهم غيره. وكل أذىً في محبة غيره فهو نعيم في محبته. وكل مكروه في محبة غيره فهو قرة عين في محبته. ومن ضرب لمحبته الأمثال التي في محبة المخلوق للمخلوق: كالوصل، والهجر والتجني بلا سبب من المحب، وأمثال ذلك مما يتعالى الله عنه علواً كبيراً، فهو مخطىء أقبح الخطأ وأفحشه، وهو حقيق بالإبعاد والمقت. اهـ.

وفي «الصحيح» عن النبي ﷺ أنه قال: «من قال: لا إلٰه إلا الله، وكفر بما يُعْبَدُ من دون الله، حَرُم ماله ودمُه وحسابه عَلَى الله عزوجل».

وفي «الصحيح» عن النبي ﷺ أنه قال: «**من قال: لا إلٰه إلا الله، وكفر بما يُعْبَدُ من دون الله، حَرُم ماله ودمُه وحسابه عَلَىٰ الله عز وجل**».

قوله: في الصحيح: أي «صحيح مسلم» عن أبي مالك الأشجعي عن أبيه عن النبي ﷺ ـ فذكره.

وأبو مالك اسمه: سعد بن طارق. كوفي ثقة. مات في حدود الأربعين ومائة. وأبوه طارق بن أشْيَم ـ بالمعجمة والمثناة التحتية وزن

أحمر - ابن مسعود الأشجعي صحابي له أحاديث. قال مسلم: لم يرو عنه غير ابنه.

وفي «مسند الإمام أحمد» عن أبي مالك قال: وسمعته يقول للقوم: «من وحَّد الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه على الله عزوجل» رواه أحمد من طريق يزيد بن هارون، قال: أخبرنا أبومالك الأشجعي عن أبيه. ورواه أحمد عن عبدالله بن إدريس قال: سمعت أبامالك قال: قلت لأبي... الحديث. ورواية الحديث بهذا اللفظ تفسر «لا إله إلا الله».

قوله: «من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله».

اعلم أن النبي ﷺ علق عصمة المال والدم في هذا الحديث بأمرين.

الأول: قول «لا إله إلا الله» عن علم ويقين، كما هو قيد في قولها في غير ما حديث كما تقدم.

والثاني: الكفر بما يُعبد من دون الله، فلم يكتف باللفظ المجرد عن المعنى، بل لابد من قولها والعمل بها.

قلت: وفيه معنى ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة: ٢٥٦].

قال المصنف رحمه الله تعالى: وهذا من أعظم ما يبين معنى: لا إله إلا الله، فإنه لم يجعل التلفظ بها عاصماً للدم والمال، بل ولا معرفة معناها مع لفظها، بل ولا الإقرار بذلك، بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له، بل لا يحرم ماله ودمه حتى يضيف إلى ذلك الكفر بما يعبد من دون الله، فإن شك أو تردد لم يحرم ماله ودمه. فيا لها من مسألة ما أجلها ويا له من بيان ما أوضحه، وحجة ما أقطعها للمنازع. انتهى.

قلت: وهذا هو الشرط المصحح لقوله: «لا إلٰه إلا الله» فلا يصح قولها بدون هذه الخمس التي ذكرها المصنف رحمه الله أصلاً. قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩] وقال: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥] أمر بقتالهم حتى يتوبوا من الشرك ويخلصوا أعمالهم لله تعالى، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإن أبوا عن ذلك أو بعضه قوتلوا إجماعاً.

وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة مرفوعاً «**أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، ويؤمنوا بي، وبما جئت به، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله**».

وفي «الصحيحين» عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «**أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إلٰه إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله**».

وهذان الحديثان تفسير الآيتين: آية الأنفال، وآية براءة. وقد أجمع العلماء على أن من قال: «لا إله إلا الله» ولم يعتقد معناها ولم يعمل بمقتضاها. أنه يقاتل حتى يعمل بما دلت عليه من النفي والإثبات.

قال أبو سليمان الخطابي رحمه الله في قوله: «أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله» معلوم أن المراد بهذا ـ أهل عبادة الأوثان، دون أهل الكتاب، لأنهم يقولون: «لا إله إلا الله» ثم يُقاتَلون ولا يرفَع عنهم السيف.

وقال القاضي عياض: اختصاص عصمة المال والنفس بمن قال: «لا

إله إلا الله» تعبير عن الإجابة إلى الإيمان، وأن المراد بذلك: مشركو العرب، وأهل الأوثان، فأما غيرهم ممن يقرُّ بالتوحيد، فلا يُكتفى في عصمته بقول «لا إله إلا الله» إذا كان يقولها في كفره. انتهى ملخصاً.

وقال النووي: لابد مع هذا من الإيمان بجميع ما جاء به الرسول ﷺ كما جاء في الرواية «**ويؤمنوا بي وبما جئت به**».

وقال شيخ الإسلام، لما سئل عن قتال التتار فقال: كل طائفة ممتنعة عن التزام شرائع الإسلام الظاهرة من هؤلاء القوم أو غيرهم، فإنه يجب قتالهم حتى يلتزموا شرائعه، وإن كانوا مع ذلك ناطقين بالشهادتين وملتزمين بعض شرائعه. كما قاتل أبوبكر والصحابة رضي الله عنهم مانعي الزكاة. وعلى هذا اتفق الفقهاء بعدهم. قال: فأيما طائفة امتنعت عن بعض الصلوات المفروضات، أو الصيام، أو الحج، أو عن التزام تحريم الدماء، أو الأموال، أو الخمر، أو الميسر، أو نكاح ذوات المحارم، أو عن التزام جهاد الكفار، أو غير ذلك من التزام واجبات الدين ومحرماته التي لا عذر لأحد في جحودها أو تركها، التي يكفر الواحد بجحودها، فإن الطائفة الممتنعة تقاتل عليها وإن كانت مقرة بها، وهذا مما لا أعلم فيه خلافاً بين العلماء.

قال: وهؤلاء عند المحققين ليسوا بمنزلة البغاة، بل هم خارجون عن الإسلام. انتهى.

قوله: «**وحسابه على الله**» أي الله تبارك وتعالى هو الذي يتولى حساب الذي يشهد بلسانه بهذه الشهادة، فإن كان صادقاً جازاه بجنات النعيم، وإن كان منافقاً عذبه العذاب الأليم، وأما في الدنيا فالحكم على الظاهر، فمن أتى بالتوحيد ولم يأت بما ينافيه ظاهراً والتزم شرائع الإسلام، وجب الكفّ عنه.

قلت: وأفاد الحديث أن الإنسان قد يقول: «لا إله إلا الله» ولا يكفر بما يعبد من دون الله، فلم يأت بما يعصم دمه وماله كما دل على ذلك الآيات المحكمات والأحاديث.

وشرحُ هذه الترجمة: ما بعدها من الأبواب.

قوله: «وشرح هذه الترجمة ما بعدها من الأبواب».

قلت: وذلك أن ما بعدها من الأبواب فيه ما يبين التوحيد ويوضح معنى «لا إله إلا الله». وفيه أيضاً: بيان أشياء كثيرة من الشرك الأصغر والأكبر وما يوصل إلى ذلك من الغلو والبدع، مما تركه من مضمون: «لا إله إلا الله».

فمن عرف ذلك وتحققه تبين له معنى «لا إله إلا الله» وما دلت عليه من الإخلاص ونفي الشرك، وبضدها تتبين الأشياء، فبمعرفة الأصغر من الشرك يعرف ما هو أعظم منه من الشرك المنافي للتوحيد، وأما الأصغر فإنما ينافي كماله، فمن اجتنبه فهو الموحِّد حقاً، وبمعرفة وسائل الشرك والنهي عنها لتجتنب تعرف الغايات التي نهى عن الوسائل لأجلها، فإن اجتناب ذلك كله يستلزم التوحيد والإخلاص بل يقتضيه.

وفيه أيضاً من أدلة التوحيد: إثبات الصفات، وتنزيه الرب تعالى عما لا يليق بجلاله. وكل ما يعرف بالله من صفات كماله وأدلة ربوبيته يدل على أنه هو المعبود وحده، وأن العبادة لا تصلح إلا له، وهذا هو التوحيد، ومعنى شهادة أن لا إله إلا الله.

فيه أكبر المسائل وأهمها: وهي تفسير التوحيد، وتفسير الشهادة.. وبيَّنها بأمورٍ واضحة.

منها: آيةُ الإسراء بيَّنَ فيها الردّ على المشركين الذين يَدْعون

الصالحين ففيها: بيانُ أنَّ هذا هو الشرك الأكبر.

ومنها: آية براءة، بيَّنَ فيها أنَّ أهل الكتاب اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، وبين أنهم لم يؤمروا إلا بأن يعبدوا إلٰهاً واحداً، مع أن تفسيرها الذي لا إشكال فيه: طاعةُ العلماء والعبَّادِ في المعصيةِ، لا دُعاؤهم إياهم.

ومنها: قول الخليل عليه السلام للكفار: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ [الزخرف: ٢٦ ـ ٢٧]. فاستثنى من المعبودين ربَّهُ، وذكر سبحانه أنَّ هذه البراءة وهذه الموالاة: هي تفسير شهادة أن لا إله إلا الله، فقال: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةٗ فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الزخرف: ٢٨].

ومنها: آية البقرة في الكفار الذين قال الله فيهم: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ [البقرة: ١٦٧]. ذكر أنهم يُحبُّون أندادهم كحب الله، فدلَّ عَلَىٰ أنهم يحبون الله حباً عظيماً ولم يُدْخلهم في الإسلام. فكيف بمن أحبَّ النِّدَّ أكثر من حُبِّ الله؟ فكيف بمن لم يُحِبَّ إلا النِّدَّ وحده؟ ولم يُحِبَّ الله؟

ومنها: قوله ﷺ: «من قال: لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه، وحسابه عَلَى الله» وهذا من أعظم ما يبين معنى «لا إله إلا الله» فإنه لم يجعل التلفُّظَ بها عاصماً للدَّم والمال، بل ولا معرفة معناها مع لَفْظها، بل ولا الإقرار بذلك، بل ولا كونه لا يدعو إلا الله وحده لا شريك له، بل لا يحرم ماله ودمه حتى يضيف إلى ذلك الكفر بما يُعبد من دون الله، فإن شك أو توقف لم يحرم ماله ودمه.

فيالها من مسألة ما أعظمها وأجلها، ويا له من بيان ما أوضحه، وحجة ما أقطعها للمنازع.

باب من الشرك: لبس الحلقة والخيط ونحوهما؛ لرفع البلاء أو دفعه

قوله: «باب من الشرك: لبس الحلقة والخيط ونحوهما؛ لرفع البلاء أو دفعه»(١) رفْعه: إزالته بعد نزوله. ودفعه: منعه قبل نزوله.

وقول الله تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَـٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الزمر: ٣٨]

قال: «وقول الله تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَـٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ﴾ [الزمر: ٣٨].

---

(١) اعلم أن هذه الأمور التي ذكر الشيخ ـ رحمه الله تعالى ـ قد تكون من الشرك الأصغر، أما إذا اعتمد العبد عليها بحيث يثق بها ويضيف النفع والضر إليها كان ذلك شركاً أكبر والعياذ بالله. لأنه حينئذ صار متوكلاً على سوى الله ملتجئاً إلى غيره. قال حافظ حكمي:

ومن يثق بودعة أو ناب ... أو حلقة أو أعين الذئاب
أو خيط أو عضو من النسور ... أو وتر أو تربة القبور
لأي أمر كائن تعلقه ... وكله الله إلى ما علقه

الودعة: قال في النهاية: هي شيء أبيض يجلب من البحر يعلق في حلوق الصبيان وغيرهم، وإنما نهي عنه لأنهم كانوا يعلقونها مخافة العين [أو ناب] كما يفعله كثير من العامة يأخذون ناب الضبع ويعلقونه من العين. [أو حلقة] يعلقونها=

قال ابن كثير: أي لا تستطيع شيئاً من الأمر ﴿قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾ أي الله كافي من توكل عليه: ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾ كما قال هود عليه السلام حين قال قومه: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾﴾ [هود: ٥٤ ـ ٥٦].

قال مقاتل في معنى الآية: فسألهم النبي ﷺ فسكتوا: أي لأنهم لا يعتقدون ذلك فيها.

وإنما كانوا يدعونها على معنى أنها وسائط وشفعاء عند الله، لا على

= من العين أو يعلقونها من الواهنة وهو مرض العضد. [أو عين الذئاب] كثيراً ما يعلقونها يزعمون أن الجن تفر منها، ومنهم من يقول إذا وقع بصر الذئب على جني لا يستطيع أن يفر منه حتى يأخذه ولهذا يعلقون منه على الصبيان ونحوهم. [أو خيط] وكثيراً ما يعلقونه على المحموم ويعقدون فيه عقداً بحسب اصطلاحاتهم وأكثرهم يقرأ سورة ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾﴾ إلى آخرها ويعقد عند كل كاف منها عقدة فيجتمع في الخيط تسع عقد بعدد الكافات ثم يربطونه بيد المحموم أو عنقه. [أو عضو من النسور] كالعظم ونحوه يجعلونها خرزاً ويعلقونها على الصبيان يزعمون أنها تدفع العين. [أو وتر] وكانوا في الجاهلية إذا عتق وتر القوس أخذوه وعلقوه يزعمون عن العين على الصبيان والدواب. [أو تربة القبور] يستشفون بها لا شفاهم الله واستعمالهم لها على أنواع فمنهم من يعقدها ويمسح بها جلده ومنهم من يتمرغ على القبر تمرغ الدابة. ومنهم من يغتسل بها مع الماء، ومنهم من يشربها، وغير ذلك وهذا كله ناشىء عن اعتقادهم في صاحب ذلك القبر أنه ينفع ويضر عدوا ذلك الاعتقاد فيه إلى تربته فزعموا أنها فيها شفاء وبركة الدفنة فيها حتى ومنهم من يعتقد في تراب بقعة لم يدفن فيها ذلك الولي بزعمه بل قيل له إن جنازته قد وضعت في ذلك المكان.

=

أنهم يكشفون الضر، ويجيبون دعاء المضطر، فهم يعلمون أن ذلك لله وحده. كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ۝ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ۝﴾ [النحل: ٥٣ ـ ٥٤].

قلت: فهذه الآية وأمثالها تبطل تعلق القلب بغير الله في جلب نفع أو دفع ضر، وأن ذلك شرك بالله، وفي الآية بيان أن الله تعالى وَسَم أهل الشرك بدعوة غير الله والرغبة إليه من دون الله. والتوحيد ضد ذلك. وهو أن لا يدعو إلا الله، ولا يرغب إلا إليه، ولا يتوكل إلا عليه، وكذا جميع أنواع العبادة لا يصلح منها شيء لغير الله. كما دل على ذلك الكتاب والسنة، وإجماع سلف الأمة وأئمتها، كما تقدم.

عن عمران بن حصين رضي الله عنه «أن النبي ﷺ رأى رجلاً في يده حلقةٌ من صفر، فقال: ما هذه؟ قال: من الواهنة. فقال: انزعها؛ فإنها لا تزيدك إلا وهنا؛ فإنك لو

= وعن زينب امرأة عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قالت: كان عبدالله إذا جاء من حاجة فانتهى إلى الباب تنحنح وبزق كراهية أن يهجم منا على أمر يكرهه قالت: وإنه جاء ذات يوم فتنحنح وعندي عجوز ترقيني من الحمرة. (الحمرة بضم الحاء وسكون الميم قال في القاموس ورم من جنس الطواعين) فأدخلتها تحت السرير قالت: فدخل فجلس إلى جانبي فرأى في عنقي خيطاً فقال ما هذا الخيط قالت: قلت خيط رقي لي فيه فقطعه ثم قال: إن آل عبدالله لأغنياء عن الشرك. سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الرقى والتمائم والتولة شرك**» قلت له: لم تقول هذا وقد كانت عيني تقذف فكنت أختلف إلى فلان اليهودي يرقيها فكان إذا رقاها سكنت فقال: إنما ذاك من الشيطان كان ينخسها بيده فإذا رقاها كف عنها إنما الآن يكفيك أن تقولي كما قال النبي ﷺ: «**اذهب البأس رب الناس اشف أنت الشافي لا شفاء إلَّا شفاؤك شفاء لا يغادر سقماً**» رواه أحمد.



مت وهي عليك ما أفلحت أبداً» رواه أحمد بسند لابأس به.

قال: «عن عمران بن حصين» «أن النبي ﷺ رأى رجلاً في يده حلقةٌ من صفر فقال: **ما هذه؟ قال:** من **الواهنة. فقال: انزعها؛ فإنها لا تزيدك إلا وهناً، فإن لو مت وهي عليك ما أفلحت أبداً»** رواه أحمد بسند لا بأس به».

قال الإمام أحمد: حدثنا خلف بن الوليد، حدثنا المبارك عن الحسن، قال: أخبرني عمران بن حصين «أن النبي ﷺ أبصر على عضد رجل حلقة ـ قال: أراها من صفر ـ فقال: ويحك، ما هذه؟ قال: من الواهنة. قال: أما إنها لاتزيدك إلا وهناً. انبذها عنك فإنك لو مت وهي عليك ما أفلحت أبداً» ورواه ابن حبان في «صحيحه»، فقال: «فإنَّك إن مت وُكلت إليها»، والحاكم وقال: صحيح الإسناد، وأقره الذهبي.

وقال الحاكم: أكثر مشايخنا على أن الحسن سمع من عمران. وقوله في الإسناد «أخبرني عمران» يدل على ذلك.

قوله: «**عن عمران بن حصين**» أي ابن عبيد بن خلف الخزاعي، أبونجيد ـ بنون وجيم، مصغر ـ صحابي ابن صحابي. أسلم عام خيبر. ومات سنة اثنتين وخمسين بالبصرة.

قوله: «**رأى رجلاً**» في رواية الحاكم «دخلت على رسول الله ﷺ وفي عضدي حلقة صفر، فقال: ما هذه؟» الحديث.

فالمبهم في رواية أحمد هو عمران راوي الحديث.

قوله: «**ماهذه؟**» يحتمل أن الاستفهام للاستفصال عن سبب لبسها، ويحتمل أن يكون للإنكار، وهو أظهر.

قوله: «**من الواهنة**» قال أبوالسعادات: الواهنة: عرق يأخذ في المنكب

وفي اليد كلها، فيُرقى منها. وقيل: هو مرض يأخذ في العضد، وهي تأخذ الرجال دون النساء، نهى عنها لأنه إنما اتخذها على أنها تعصمه من الألم، وفيه اعتبار المقاصد.

قوله: «انزعها فإنها لا تزيدك إلا وهناً» النزع: هو الجذب بقوة، أخبر أنها لا تنفعه، بل تضره وتزيده ضعفاً. وكذلك كل أمر نهى عنه، فإنه لا ينفع غالباً، وإن نفع بعضه فضره أكبر من نفعه.

قوله: «فإنك لو مت وهي عليك ما أفلحت أبداً» لأنه شرك. والفلاح: هو الفوز والظفر والسعادة.

قال المصنف رحمه الله تعالى: فيه شاهد لكلام الصحابة: أن الشرك الأصغر أكبر الكبائر، وأنه لم يعذر بالجهالة. وفيه الإنكار بالتغليظ على من فعل مثل ذلك.

قوله: «رواه أحمد بسند لا بأس به» هو الإمام أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد بن إدريس بن عبدالله بن حسان بن عبدالله بن أنس بن عوف بن قاسط بن مازن بن شيبان بن ذهل بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل بن قاسط بن هُنْب بن أفصىٰ بن دُعمي بن جديلة بن أسد بن ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان الإمام العالم أبوعبدالله الذهلي، ثم الشيباني المروزي، ثم البغدادي.

إمام أهل عصره، وأعلمهم بالفقه والحديث، وأشدهم ورعاً ومتابعة للسنة، وهو الذي يقول فيه بعض أهل السنة: عن الدنيا ما كان أصبره، وبالماضين ما كان أشبهه، أتته الدنيا فأباها، والشُّبَه فنفاها، خُرِجَ به من مرو وهو حمل، فوُلد ببغداد سنة أربع وستين ومائة في شهرربيع الأول.

وطلب أحمد العلم سنة وفاة مالك، وهي سنة تسع وسبعين، فسمع من هشيم وجرير بن عبدالحميد وسفيان بن عيينة ومعتمر بن سليمان

ويحيى بن سعيد القطان ومحمد بن إدريس الشافعي ويزيد بن هارون وعبدالرزاق وعبدالرحمن بن مهدي، وخلق لا يحصون بمكة والبصرة والكوفة وبغداد واليمن وغيرها من البلاد.

وروى عنه ابناه: صالح وعبدالله، والبخاري ومسلم وأبوداود وإبراهيم الحربي وأبوزرعة الرازي وأبوزرعة الدمشقي وعبدالله بن أبي الدنيا وأبوبكر الأثرم وعثمان بن سعيد الدارمي وأبوالقاسم البغوي، وهو آخر من حدث عنه، وروى عنه من شيوخه عبدالرحمن بن مهدي والأسود بن عامر. ومن أقرانه: علي بن المديني ويحيى بن معين.

قال البخاري: مرض أحمد ليلتين خلتا من ربيع الأول ومات يوم الجمعة لاثنتي عشرة خلت منه. وقال حنبل: مات يوم الجمعة في ربيع الأول سنة إحدى وأربعين ومائتين وله سبع وسبعون سنة. وقال ابنه عبدالله والفضل بن زياد: مات في ثاني عشرربيع الآخر رحمه الله تعالى.

وله عن عُقبة بن عامر مرفوعاً: «من تعلق تميمة فلا أتم الله له، ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له» وفي رواية «من تعلق تميمة فقد أشرك».

قوله: وله عن عقبة بن عامر مرفوعاً «من تعلق تميمة فلا أتم الله له، ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له» وفي رواية «من تعلق تميمة فقد أشرك». الحديث الأول رواه الإمام أحمد كما قال المصنف. ورواه أيضاً أبويعلى، والحاكم وقال: صحيح الإسناد، وأقره الذهبي.

قوله: «وفي رواية» أي من حديث آخر رواه أحمد، فقال: حدثنا عبدالصمد بن عبدالوارث، حدثنا عبدالعزيز بن مسلم، حدثنا يزيد بن

أبي منصور، عن دجين الحجري، عن عقبة بن عامر الجهني «أن رسول الله ﷺ أقبل إليه رهط، فبايع تسعة وأمسك عن واحد، فقالوا: يارسول الله، بايعت تسعة وأمسكت عن هذا؟ فقال: **إن عليه تميمة**، فأدخل يده فقطعها، فبايعه وقال: **من تعلق تميمة فقد أشرك**» ورواه الحاكم بنحوه، ورواته ثقات.

قوله: «عن عقبة بن عامر» صحابي مشهور، فقيه فاضل، وليَ إمارة مصر لمعاوية ثلاث سنين. ومات قريباً من الستين.

قوله: «من تعلق تميمة» أي علقها متعلقاً بها قلبه في طلب خير أو دفع شر.

قال المنذري: خرزة كانوا يعلقونها يرون أنها تدفع عنهم الآفات، وهذا جهل وضلالة؛ إذ لا مانع ولا دافع غير الله تعالى.

وقال أبوالسعادات: التمائم جمع تميمة، وهي خرزات كانت العرب تعلقها على أولادهم؛ يتقون بها العين في زعمهم، فأبطلها الإسلام.

قوله: «فلا أتمَّ الله له» دعاء عليه.

قوله: «ومن تعلق وَدْعَة» بفتح الواو وسكون المهملة. قال في «مسند الفردوس»: شيء يخرج من البحر يشبه الصدف يتقون به العين.

قوله: «فلا ودع الله له» بتخفيف الدال: أي لا جعله في دعة وسكون. قال أبوالسعادات: وهذا دعاء عليه.

قوله: «وفي رواية: من تعلق تميمة فقد أشرك» قال أبوالسعادات: إنما جعلها شركاً لأنهم أرادوا دفع المقادير المكتوبة عليهم، وطلبوا دفع الأذى من غير الله الذي هو دافعه.

ولابن أبي حاتم عن حذيفة «أنه رأى رجلاً في يده خيط

من الحُمَّى فقطعه وتلا قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ۝١٠٦﴾ [يوسف: ١٠٦].

قال المصنف رحمه الله: ولابن أبي حاتم عن حذيفة «أنه رأى رجلاً في يده خيط من الحُمَّى فقطعه وتلا قوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ۝١٠٦﴾ [يوسف: ١٠٦].

قال ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن الحسين بن إبراهيم بن أشكاب، حدثنا يونس بن محمد، حدثنا حماد بن سلمة، عن عاصم الأحول، عن عروة قال: «دخل حذيفة على مريض، فرأى في عضده سيراً، فقطعه أو ـ انتزعه ـ ثم قال: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ۝١٠٦﴾.

وابن أبي حاتم: هو الإمام أبومحمد عبدالرحمن بن أبي حاتم محمد بن إدريس الرازي التميمي الحنظلي الحافظ، صاحب «الجرح والتعديل» والتفسير وغيرهما. مات سنة سبع وعشرين وثلاثمائة.

وحذيفة: هو ابن اليمان: واسم اليمان: حُسيل ـ بمهملتين مصغراً ـ ويقال: حِسل ـ بكسر ثم سكون ـ العبسي ـ بالموحدة ـ حليف الأنصار، صحابي جليل من السابقين، ويقال له: صاحب السر وأبوه أيضاً صحابي. مات حذيفة في أول خلافة عليّ رضي الله عنه سنة ست وثلاثين.

قوله: «رأى رجلاً في يده خيط من الحمى» أي عن الحمى. وكان الجهال يعلقون التمائم والخيوط ونحوها لدفع الحمى.

وروى وكيع عن حذيفة «أنه دخل على مريض يعوده فلمس عضده، فإذا فيه خيط، فقال: ما هذا؟ قال: شيء رُقي لي فيه، فقطعه، وقال:

لو مت وهو عليك ما صليت عليك» وفيه: إنكار مثل هذا، وإن كان يعتقد أنه سبب، فالأسباب لا يجوز منها إلا ما أباحه الله تعالى ورسوله مع عدم الاعتماد عليها. وأما التمائم والخيوط والحروز والطلاسم ونحو ذلك، مما يعلقه الجهال فهو شرك يجب إنكاره وإزالته بالقول والفعل، وإن لم يأذن فيه صاحبه.

قوله: «**وتلا قوله**: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾﴾» استدل حذيفة رضي الله عنه بالآية على أن هذا شرك. ففيه: صحة الاستدلال على الشرك الأصغر بما أنزله الله في الشرك الأكبر؛ لشمول الآية له، ودخوله في مسمى الشرك، وتقدم معنى هذه الآية عن ابن عباس وغيره في كلام شيخ الإسلام وغيره، والله أعلم.

وفي هذه الآثار عن الصحابة: ما يبين كمال علمهم بالتوحيد وما ينافيه أو ينافي كماله.

فيـه مسـائل:

الأولـى: التغليظ في لُبس الحلْقة والخيط ونحوهما لمثل ذلك.

الثانيـة: أن الصحابي لو مات وهي عليه ما أفلح. فيه شاهد لكلام الصحابة: أن الشرك الأصغر أكبر من الكبائر.

الثالثـة: أنه لم يعذر بالجهالة.

الرابعـة: أنها لاتنفع في العاجلة بل تضر، لقوله: «لا تزيدك إلا وهناً».

الخامسة: الإنكار بالتغليظ على من فعل مثل ذلك.

السادسة: التصريح بأن من تعلَّق شيئاً وُكِل إليه.

السابعة: التصريح بأن من تعلق تميمة فقد أشرك.

الثامنـة: أن تعليق الخيط من الحمى من ذلك.

التاسعة: تلاوة حذيفة الآية دليل على أن الصحابة يستدلون بالآيات التي في الشرك الأكبر على الأصغر، كما ذكر ابن عباس في آية البقرة.

العاشـرة: أن تعليق الودع من العين من ذلك.

الحادية عشرة: الدعاء على من تعلق تميمة أن الله لا يُتم له، ومن تعلق ودعة فلا ودع الله له، أي ترك الله له.

باب ما جاء في الرُّقى والتمائم

قوله: «باب ما جاء في الرقى والتمائم»[١] أي: من النهي، وما ورد عن السلف في ذلك.

في «الصحيح» عن أبي بشير الأنصاري رضي الله عنه: «أنه كان مع رسول الله ﷺ في بعض أسفاره، فأرسل رسولاً: أن لايبقين في رقبة بعير قلادة من وتر، أو قِلادة إلا

---

(١) اعلم ـ رحمك الله تعالى ـ أن المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ قال في هذه الترجمة [باب ما جاء في الرقى والتمائم] لما في ذلك من التفصيل من الأمر بالرقىٰ والنهي عنها وأنها من الشرك فأما إن كانت من كتاب الله عز وجل وسنة رسوله ﷺ فقد دلت على جوازها وإباحتها الأحاديث الصحيحة، فمن ذلك قول البخاري في صحيحه باب الرقىٰ بالقرآن والمعوذات وذكر فيه حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن النبي ﷺ كان ينفث على نفسه في المرض الذي مات فيه بالمعوذات فلما ثقل كنت أنفث عليه بهن وأمسح بيد نفسه لبركتها ثم قال ـ رحمه الله ـ باب الرقى بفاتحة الكتاب ويذكر عن ابن عباس عن النبي ﷺ ثم ذكر حديث أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ أن ناساً من أصحاب النبي ﷺ أتوا على حي من أحياء العرب فلم يقروهم بينما هم كذلك إذا لدغ سيد أولئك فقالوا: هل معكم من دواء أو راق؟ فقالوا: إنكم لم تقرونا ولا نفعل حتىٰ تجعلوا لنا جعلا فجعلوا لهم قطيعاً من الشاء فجعل يقرأ بأم القرآن، ويجمع بزاقه ويتفل فبرأ فأتوا بالشاء فقالوا: لا نأخذه حتى نسأل النبي ﷺ فسألوه فضحك وقال: «**وما أدراك أنها رقية خذوها واضربوا لي بسهم**» ثم قال البخاري: [باب الشرط في الرقية بقطيع من الغنم] وساق حديث ابن عباس في رقية الرجل السليم.

=

قُطِعت».

قوله: «في «الصحيح» عن أبي بشير الأنصاري «أنه كان مع النبي ﷺ في بعض أسفاره فأرسل رسولاً: أن لا يبقين في رقبة بعير قلادة من وتر، أو قلادة إلا قطعت» هذا الحديث في الصحيحين».

قوله: «عن أبي بشير» بفتح أوله وكسر المعجمة، قيل: اسمه قيس بن عبيد، قاله ابن سعد، وقال ابن عبدالبر: لا يوقف له على اسم صحيح، وهو صحابي، شهد الخندق، ومات بعد الستين. ويقال: إنه جاوز المائة.

قوله: «في بعض أسفاره» قال الحافظ: لم أقف على تعيينه.

قوله: «فأرسل رسولاً» هو زيد بن حارثة. روى ذلك الحارث بن أبي

= وأما الرقية بالسنة فمن ذلك ما قاله البخاري في صحيحه وهو [باب رقية النبي ﷺ] وذكر فيه حديث أنس ـ رضي الله عنه ـ إذ قال لثابت: ألا أرقيك برقية رسول الله ﷺ قال: بلى قال: اللهم رب الناس مذهب الباس اشف أنت الشافي لا شافي إلاّ أنت شفاء لا يغادر سقماً.

وحديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن رسول الله كان يرقى يقول: **«امسح الباس رب الناس بيدك الشفاء لا كاشف له إلاّ أنت»**.

وحديثها ـ رضي الله عنها ـ أن النبي ﷺ كان يقول للمريض: **«بسم الله تربة أرضنا بريقة بعضنا ـ وفي رواية ـ وريقة بعضنا يشفىٰ سقيمنا بإذن ربنا»** وهذه الرقية هي التي قال المصنف فيها الإمام محمد ـ رحمه الله تعالى ـ والرقى هي التي تسمى العزائم وخص منها الدليل ما خلا من الشرك.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ (١٩/ ٦٤) ويجوز أن يكتب للمصاب وغيره من المرضى شيئاً من كتاب الله وذكره بالمداد المباح ويغسل ويسقى، كما نص على ذلك أحمد وغيره. وذكر أثر ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ في ذلك.

=

أُسامة في مسنده، قاله الحافظ.

قوله: «أن لا يبقين» بالمثناة التحتية والقاف المفتوحتين، و«قلادة» مرفوع على أنه فاعل. و«الوتر» بفتحتين: واحد أوتار القوس. وكان أهل الجاهلية إذا اخلولق الوتر أبدلوه بغيره، وقلدوا به الدواب، اعتقاداً منهم أنه يدفع عن الدابة العين.

قوله: «أو قلادة إلا قطعت» معناه: أن الراوي شك هل قال شيخه: قلادة من وتر أو قال: قلادة وأطلق ولم يقيده؟ ويؤيد الأول ما روي عن مالك «أنه سئل عن القلادة؟ فقال: ما سمعت بكراهتها إلا في الوتر» ولأبي داود «ولا قلادة» بغير شك.

قال البغوي في «شرح السنة»: تأول مالك أمره عليه الصلاة والسلام بقطع القلائد على أنه من أجل العين. وذلك أنهم كانوا يشدون تلك

= أما الرقى المجهولة المعاني فذاك وسواس من الشيطان
وفيه قد جاء الحديث أنه شرك بلا مرية فاحذرنه
إذ كل من يقول لا يدري لعله يكون محض الكفر
أو هو من سحر اليهود مقتبس على العوام لبسوه فالتبس

فهذه الرقىٰ التي ليست بعربية الألفاظ ولا مفهومة المعاني ولا مشهورة ولا مأثورة في الشرع البتة فهي من وسواس الشيطان أوحاها إلى أوليائه كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِهِمۡ لِيُجَـٰدِلُوكُمۡ﴾ وعليه يحمل قول النبي ﷺ في حديث ابن مسعود هذا وذلك لأن المتكلم به الراقي والمرقي لا يدري أهو من أسماء الله تعالى أو من أسماء الملائكة أو من أسماء الشياطين ولا يدري هل فيه كفر أو إيمان وهل هو حق أو باطل أو فيه نفع أو ضر أو رقية أو سحر. فهذا النوع داخل في عموم هذا الحديث وأنه من الشرك ولم يخص الدليل إلاَّ ما خلا من الشرك وهو النوع الأول الذي تقدم ذكره كما قاله الشيخ ـ رحمه الله تعالى ـ. =

الأوتار والتمائم والقلائد ويعلقون عليها العوذ؛ يظنون أنها تعصمهم من الآفات. فنهاهم النبي ﷺ عنها وأعلمهم أنها لا ترد من أمر الله شيئاً.

قال أبوعبيد: كانوا يقلدون الإبل الأوتار، لئلا تصيبها العين، فأمرهم النبي ﷺ بإزالتها؛ إعلاماً لهم بأن الأوتار لا ترد شيئاً. وكذا قال ابن الجوزي وغيره.

قال الحافظ: ويؤيده حديث عقبة بن عامر، رفعه «**من تعلق تميمة فلا أتم الله له**» رواه أبوداود. وهي ما علق من القلائد خشية العين ونحو ذلك. انتهى.

= فتحصل من هذا الباب أن الرقى لا تجوز إلاّ باجتماع ثلاثة شروط فإذا اجتمعت فيها كانت رقية شرعية وإن اختل منها شيء كان بضد ذلك:
الأول: أن تكون من الكتاب والسنة فلا يجوز من غيرهما.
الشرط الثاني: أن تكون باللغة العربية محفوظة ألفاظها مفهومة معانيها فلا يجوز تغييرها.
الثالث: أن يعتقد أنها سبب من الأسباب لا تأثير لها إلاّ بإذن الله عز وجل فلا يعتقد النفع فيها لذاتها. فأنفع ما تكون الرقية من العين والحمة، والعين من الإنس كالنفس من الجن وهي حق ولها تأثير لكن لا تأثير لها إلاّ بإذن الله عز وجل. قال الله تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ﴾ الآية فسره بإصابة العين ابن عباس ومجاهد وغيرهما وفي تحقيقها أحاديث: ففي صحيح مسلم عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ﷺ قال: «**العين حق ولو كان شيء سابق القدر سبقت العين وإذا استغسلتم فاغسلوا**» وروى الإمام أحمد والنسائي والترمذي وابن ماجه عن أسماء ـ رضي الله عنها ـ قالت: يارسول الله إن بني جعفر تصيبهم العين أفأسترقي لهم قال: «**نعم فلو كان شيء سابق القدر لسبقته العين**». [والحمىٰ] تطلق على لدغ ذوات السموم كالحية والعقرب وغيرهما. =

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ الرُقَىٰ والتمائمَ والتِّولَةَ شِرْكٌ» رواه أحمد وأبوداود.

قال المصنف: وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الرقى والتمائم والتولة شرك**» رواه أحمد وأبوداود. وفيه قصة.

ولفظ أبي داود: عن زينب امرأة عبدالله بن مسعود قالت: «إن عبدالله رأى في عنقي خيطاً، فقال: ماهذا؟ قلت: خيط رقي لي فيه، قالت: فأخذه ثم قطعه، ثم قال: أنتم آل عبدالله لأغنياء عن الشرك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الرقى والتمائم والتولة شرك**» فقلت: لقد كانت عيني تقذف، وكنت أختلف إلى فلان اليهودي، فإذا رقى سكنت. فقال عبدالله: إنما ذاك عمل الشيطان، كان ينخسها بيده، فإذا رقى كف عنها. إنما كان يكفيكِ أن تقولي كما كان رسول الله ﷺ يقول: «**اذهب البأس، رب الناس، واشف أنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقماً**» ورواه ابن ماجه وابن حبان، والحاكم وقال: صحيح، وأقره الذهبي.

والتمائم التي تعلق على الأولاد والدواب ونحوها إن كانت من القرآن أو من السنة الصحيحة فإنه اختلف في جوازها السلف من الصحابة والتابعين فمن بعدهم ـ رضي الله عنهم ـ فبعضهم أجازها يروىٰ ذلك عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ وأبي جعفر محمد بن علي وغيرهما من السلف. والبعض منع ذلك وكرهه ولم يره جائزاً منهم عبدالله بن عكيم، وعبدالله بن عمرو وعقبة بن عامر وعبدالله بن مسعود وأصحابه كالأسود وعلقمة ومن بعدهم كإبراهيم النخعي ـ رحمه الله تعالى ـ ولا =

قوله: «**إن الرقى**» قال المصنف: «هي التي تسمى العزائم، وخص منه الدليل ما خلا من الشرك، فقد رخص فيه رسول الله ﷺ من العين والحمة، يشير إلى أن الرقى الموصوفة بكونها شركاً هي التي يستعان فيها بغير الله، وأما إذا لم يذكر فيها إلا أسماء الله وصفاته وآياته، والمأثور عن النبي ﷺ، فهذا حسن: جائز، أو مستحب.

قوله: «**فقد رخص فيه رسول الله ﷺ من العين والحمة**» كما تقدم ذلك في باب من حقق التوحيد. وكذا رخص في الرقى من غيرها، كما في «صحيح مسلم» عن عوف بن مالك «كنا نرقي في الجاهلية، فقلنا: يارسول الله، كيف ترى في ذلك؟ فقال: «**اعرضوا عليّ رقاكم، لا بأس بالرقى ما لم تكن شركاً**» وفي الباب أحاديث كثيرة.

قال الخطابي: وكان عليه الصلاة والسلام قد رقَى ورُقِي، وأمر بها وأجازها، فإذا كانت بالقرآن وبأسماء الله فهي مباحة أو مأمور بها، وإنما جاءت الكراهة والمنع فيما كان منها بغير لسان العرب، فإنه ربما كان كفراً أو قولاً يدخله شرك..

= شك أن منع ذلك أولى وأظهر لما ذكره الشارح ـ رحمه الله تعالى ـ لوجوه ثلاثة تظهر للمتأمل: الأول: عموم النهي ولا مخصص للعموم.
والثاني: سد الذريعة فإنه يفضي إلى تعليق ما ليس كذلك.
والثالث: أنه إذا علق فلابد أن يمتهنه المعلق بحمله معه في حال قضاء الحجة والاستنجاء ونحو ذلك فإنه إذا كره ذلك أكثر الصحابة والتابعين في تلك العصور الشريفة والإيمان في قلوبهم أكبر من الجبال فلأن يكره في وقتنا هذا وقت الفتن وقلة علم التوحيد أولى وأجدر بذلك كيف وقد توصلوا بهذه الرخص إلى محض المحرمات وجعلوها حيلة ووسيلة إليها.
فمن ذلك أنهم يكتبون في التعاويذ آية أو سورة أو بسملة أو نحو ذلك ثم يضعون=

قلت: من ذلك ما كان على مذاهب الجاهلية التي يتعاطونها، وأنها تدفع عنهم الآفات، ويعتقدون أن ذلك من قبل الجن ومعونتهم. وبنحو هذا ذكر الخطابي.

وقال شيخ الإسلام: كل اسم مجهول فليس لأحد أن يرقي به. فضلاً عن أن يدعو به، ولو عرف معناه؛ لأنه يكره الدعاء بغير العربية، وإنما يرخص لمن لا يحسن العربية، فأما جعل الألفاظ الأعجمية شعاراً فليس من دين الإسلام.

وقال السيوطي: وقد أجمع العلماء على جواز الرقى عند اجتماع ثلاث شروط: أن تكون بكلام الله أو بأسمائه وصفاته، وباللسان العربي وما يعرف معناه، وأن يعتقد أن الرقية لا تؤثر بذاتها بل بتقدير الله تعالى.

«التمائم» شيء يُعلق على الأولاد يتقون به العين، ولكن

= تحتها من الطلاسم الشيطانية ما لا يعرفه إلاَّ من اطلع على كتبهم.

ومنها أنهم يصرفون قلوب العامة عن التوكل على الله عز وجل إلى أن تتعلق قلوبهم بما كتبوه.

وإن كانت التمائم من غير الكتاب والسنة بل من طلاسم اليهود وعبّاد الهياكل والنجوم والملائكة ومستخدم الجن ونحوهم، أو من الخرز أو الأوتار أو الحلق من الحديد وغيره فإنها شرك إذ ليست هي من الأسباب المباحة والأدوية المعروفة.

قال ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ في «طريق الهجرتين»: فإن التوكل يجمع أصلين علم القلب وعمله.

أما علمه: فيقينه بكفاية وكيله وكمال قيامه بما وكله إليه وأن غيره لا يقوم مقامه في ذلك. =

إذا كان المعلّق من القرآن فرخص فيه بعض السلف، وبعضهم لم يرخص فيه، ويجعله من المنهي عنه، منهم ابن مسعود رضي الله عنه.

و«الرقى»: هي التي تسمى العزائم، وخص منه الدليل ما خلا من الشرك فقد رخص فيه رسول الله ﷺ من العين والحُمَة.

و«التولة»: شيء يصنعونه يزعمون أنه يحبب المرأة إلى زوجها، والرجل إلى امرأته.

قوله: «التمائم» قال المصنف: «شيء يعلق على الأولاد من العين» وقال الخلخالي: التمائم جمع تميمة، وهي ما يعلق بأعناق الصبيان من خرزات وعظام لدفع العين، وهذا منهي عنه؛ لأنه لا دافع إلا الله، ولا يطلب دفع المؤذيات إلا بالله وبأسمائه وصفاته.

قال المصنف: «لكن إذا كان المعلق من القرآن فرخص فيه بعض السلف وبعضهم لم يرخص فيه ويجعله من المنهي عنه. منهم ابن مسعود».

= وأما عمله: فسكونه إلى وكيله وطمأنينته إليه وتفويضه وتسليمه أمره إليه، ورضاه بتصرفه له فوق رضاه بتصرفه هو لنفسه، فبهذين الأصلين يتحقق التوكل وهما جماعه. وقال ابن القيم في المدارج (فصل) المفسد الثالث من مفسدات القلب التعلق بغير الله ـ تبارك وتعالى ـ وهذا أعظم مفسداته على الإطلاق. فليس عليه أضر من ذلك ولا أقطع له عن مصالحه وسعادته منه فإنه إذا تعلق بغير الله وكله الله إلى ما تعلق به وخذله من جهة ما تعلق به وفاته تحصيل مقصوده من الله عز وجل=

اعلم أن العلماء من الصحابة والتابعين فمن بعدهم اختلفوا في جواز تعليق التمائم التي من القرآن وأسماء الله وصفاته، فقالت طائفة: يجوز ذلك، وهو قول عبدالله بن عمرو بن العاص، وهو ظاهر ما روي عن عائشة، وبه قال أبوجعفر الباقر وأحمد في رواية، وحملوا الحديث على التمائم التي فيها شرك.

وقالت طائفة: لا يجوز ذلك، وبه قال ابن مسعود وابن عباس. وهو ظاهر قول حذيفة وعقبة بن عامر وابن عكيم، وبه قال جماعة من التابعين، منهم أصحاب ابن مسعود، وأحمد في رواية اختارها كثير من أصحابه، وجزم به المتأخرون، واحتجوا بهذا الحديث وما في معناه.

قلت: هذا هو الصحيح لوجوه ثلاثة تظهر للمتأمل.

الأول: عموم النهي ولا مخصص للعموم.

الثاني: سد الذريعة؛ فإنه يفضي إلى تعليق ما ليس كذلك.

الثالث: أنه إذا علق فلابد أن يمتهنه المعلق بحمله معه في حال قضاء الحاجة والاستنجاء ونحو ذلك.

وتأمل هذه الأحاديث وما كان عليه السلف رضي الله تعالى عنهم يتبين لك بذلك غربة الإسلام، خصوصاً إن عرفت عظيم ما وقع فيه الكثير بعد القرون المفضلة، من تعظيم القبور واتخاذ المساجد عليها

= بتعلقه بغيره والتفاته إلى سواه، فلا على نصيبه من الله حصل ولا إلى ما أمله ممن تعلق به وصل قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّاۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ وقال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾ فأعظم الناس خذلان من تعلق بغير الله فإنما فاته من مصالحه وسعادته وفلاحه أعظم مما حصل له ممن تعلق به وهو معرض للزوال والفوات.

=

والإقبال إليها بالقلب والوجه، وصرف جل الدعوات والرغبات والرهبات وأنواع العبادات التي هي حق الله تعالى إليها من دونه، كما قال تعالى: ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [يونس: ١٠٦ ـ ١٠٧] ونظائرها في القرآن أكثر من أن تحصر.

قوله: «**التولة**» قال المصنف: «هي شيء يصنعونه يزعمون أنه يحبب المرأة إلى زوجها والرجل إلى امرأته» وبهذا فسرها ابن مسعود راوي الحديث، كما في «صحيح ابن حبان» والحاكم «قالوا: ياأباعبدالرحمن، هذه الرقى والتمائم قد عرفناها، فما التولة؟ قال: شيء تصنعه النساء يتحببن به إلى أزواجهن».

قال الحافظ: التولة ـ بكسر المثناة وفتح الواو واللام مخففاً ـ: شيء

= ومثل المتعلق بغير الله كمثل المستظل من الحر والبرد ببيت العنكبوت أوهن البيوت، وبالجملة فأساس الشرك وقاعدته التي بني عليها التعلق بغير الله ولصاحبه الذنب والخذلان قال الله تعالى: ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ ﴾ مذموماً: لا حامد لك. مخذولا: لا ناصر لك.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية (١٩/ ٦١) والمسلمون وإن تنازعوا في جواز التداوي بالمحرمات كالميتة والخنزير فلا يتنازعون في أن الكفر والشرك لا يجوز التداوي به بحال، لأن ذلك محرم في كل حال وليس هذا كالتكلم به عند الإكراه فإن ذلك إنما يجوز إذا كان قلبه مطمئن بالإيمان والتكلم به إنما يؤثر إذا كان بقلب صاحبه ولو تكلم به مع طمأنينة قلبه بالإيمان لم يؤثر والشيطان إذا عرف أن صاحبه مستخف بالعزائم لم يساعده، وأيضاً فإن المكره مضطر إلى التكلم به ولا ضرورة إلى إبراء المصاب به لوجهين: أحدهما: أنه قد لا يؤثر أكثر مما يؤثر من يعالج بالعزائم فلا يؤثر بل يزيده شرًا. =

كانت المرأة تجلب به محبة زوجها، وهو ضرب من السحر، والله أعلم.

وكان من الشرك لما يراد به من دفع المضار وجلب المنافع من غير الله تعالى.

وعن عبدالله بن عُكَيم مرفوعاً «من تعلق شيئاً وُكل إليه» رواه أحمد والترمذي.

قال المصنف: وعن عبدالله بن عكيم مرفوعاً: **«من تعلق شيئاً وُكل إليه»** رواه أحمد والترمذي، ورواه أبوداود والحاكم.

وعبدالله بن عكيم: هو بضم المهملة مصغراً. ويكنى أبامعبد، الجهني الكوفي. قال البخاري: أدرك زمن النبي ﷺ، ولا يعرف له سماع صحيح. وكذا قال أبوحاتم. قال الخطيب: سكن الكوفة وقدم المدائن في حياة حذيفة. وكان ثقة. وذكر ابن سعد عن غيره: أنه مات في ولاية الحجاج.

قوله: «من تعلق شيئاً وكل إليه» التعلق يكون بالقلب، ويكون بالفعل، ويكون بهما «وكل إليه» أي وكله الله إلى ذلك الشيء الذي تعلقه، فمن تعلق بالله وأنزل حوائجه به، والتجأ إليه، وفوض أمره إليه، كفاه، وقرب إليه كل بعيد ويسر له كل عسير، ومن تعلق بغيره أو سكن إلى

= والثاني: أن في الحق ما يغني عن الباطل والناس في هذا الباب ثلاثة أصناف: قوم يكذبون بدخول الجني في الإنسي، وقوم يدفعون ذلك بالعزائم المذمومة، فهؤلاء يكذبون بالموجود وهؤلاء يعصون بل يكفرون بالمعبود، والأمة الوسط تصدق بالحق الموجود وتؤمن بالإله الواحد المعبود وبعبادته ودعائه وذكره وأسمائه وكلامه فتدفع شياطين الإنس والجن.

رأيه وعقله ودوائه وتمائمه ونحو ذلك وكله الله إلى ذلك وخذله، وهذا معروف بالنصوص والتجارب، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

وقال الإمام أحمد: حدثنا هشام بن القاسم، حدثنا أبوسعيد المؤدب، حدثنا من سمع عطاء الخراساني، قال: «لقيت وهب بن منبه وهو يطوف بالبيت، فقلت: حدثني حديثاً أحفظه عنك في مقامي هذا وأوجز. قال: نعم، أوحى الله تبارك وتعالى إلى داود: ياداود، أما وعزتي وعظمتي، لا يعتصم بي عبد من عبادي دون خلقي، أعرف ذلك من نيته، فتكيده السموات السبع ومن فيهن، والأرضون السبع ومن فيهن: إلا جعلت له من بينهن مخرجاً. أما وعزتي وعظمتي لا يعتصم عبد من عبادي بمخلوق دوني، أعرف ذلك من نيته: إلا قطعت أسباب السماء من يده، وأسخت الأرض من تحت قدميه، ثم لا أبالي بأيّ أوديتها هلك».

وروى أحمد عن رويفع قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يارويفع، لعل الحياة ستطول بك، فأخبر الناس: أنَّ من عقد لحيته، أو تقلد وَتَراً، أو استنجى برجيع دابة أو عظم، فإن محمداً بريء منه».

قال المصنف: وروى الإمام أحمد عن رويفع قال: قال لي رسول الله ﷺ: **«يارويفع، لعل الحياة ستطول بك، فأخبر الناس: أنَّ من عقد لحيته، أو تقلد وَتَراً، أو استنجى برجيع دابة أو عظم، فإن محمداً بريء منه»**.

الحديث رواه الإمام أحمد عن يحيى بن إسحاق والحسن بن موسى الأشيب كلاهما عن ابن لهيعة. وفيه قصة اختصرها المصنف.

وهذا لفظ الحسن: حدثنا ابن لهيعة، حدثنا عياش بن عباس، عن شُييم بن بيتان، قال: حدثنا رويفع بن ثابت، قال: «كان أحدنا في زمن رسول الله ﷺ يأخذ جمل أخيه على أن يعطيه النصف مما يغنم وله النصف، حتى إن أحدنا ليصير له النصل والريش، وللآخر القدح. ثم قال لي رسول الله ﷺ...» الحديث. ثم رواه أحمد عن يحيى بن غيلان، حدثني المفضل، حدثنا عياش بن عباس: أن شُييم بن بيتان أخبره أنه سمع شيبان القتباني... الحديث. ابن لهيعة فيه مقال. وفي الإسناد الثاني: شيبان القتباني، قيل فيه: مجهول. وبقية رجالهما ثقات.

قوله: «لعل الحياة ستطول بك» فيه عَلَم من أعلام النبوة، فإن رويفعاً طالت حياته إلى سنة ست وخمسين فمات ببرقة من أعمال مصر أميراً عليها، وهو من الأنصار. وقيل: مات سنة ثلاث وخمسين.

قوله: «فأخبر الناس» دليل على وجوب إخبار الناس، وليس هذا مختصاً برويفع، بل كل من كان عنده علم ليس عند غيره مما يحتاج إليه الناس وجب إعلامهم به، فإن اشترك هو وغيره في علم ذلك فالتبليغ فرض كفاية. قاله أبوزرعة في «شرح سنن أبي داود».

قوله: «أن من عقد لحيته» بكسر اللام لا غير، والجمع لحى بالكسر والضم. قاله الجوهري.

قال الخطابي: أما نهيه عن عقد اللحية فيفسر على وجهين:

أحدهما: ما كانوا يفعلونه في الحرب، كانوا يعقدون لحاهم، وذلك

من زيِّ بعض الأعاجم يفتلونها ويعقدونها. قال أبوالسعادات: تكبراً وتعجباً.

ثانيهما: أن معناه معالجة الشعر ليتعقد ويتجعد، وذلك من فعل أهل التأنيث.

قال أبوزرعة بن العراقي: والأولى حمله على عقد اللحية في الصلاة، كما دلت عليه رواية محمد بن الربيع. وفيه **«أن من عقد لحيته في الصلاة»**.

قوله: «أو تقلد وتراً» أي جعله قلادة في عنقه أو عنق دابته. وفي رواية محمد بن الربيع **«أو تقلد وتراً»** ـ يريد: تميمة.

فإذا كان هذا فيمن تقلد وتراً فكيف بمن تعلق بالأموات، وسألهم قضاء الحاجات وتفريج الكربات، الذي جاء النهي عنه وتغليظه في الآيات المحكمات؟

قوله: «أو استنجى برجيع دابة أو عظم فإن محمداً بريء منه» قال النووي: أي بريء من فعله، وهذا خلاف الظاهر. والنووي كثيراً ما يتأول الأحاديث بصرفها عن ظاهرها، فيغفر الله تعالى له.

وفي «صحيح مسلم» عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً **«لا تستنجوا بالروث ولا العظام، فإنه زادُ إخوانكم من الجن»**. وعليه لا يجزيء الاستنجاء بهما كما هو ظاهر مذهب أحمد، لما روى ابن خزيمة والدارقطني عن أبي هريرة **«أن النبي ﷺ نهى أن يستنجي بعظم أو روث، وقال: إنهما لا يطهران»**.

وعن سعيد بن جُبير قال: «من قطع تميمة من إنسان كان كعِدل رقبة» رواه وكيع.

قوله: «وعن سعيد بن جبير قال: من قطع تميمة من إنسان كان كعدل رقبة. رواه وكيع» هذا عند أهل العلم له حكم الرفع؛ لأن مثل ذلك لا يقال بالرأي، ويكون هذا مرسلاً؛ لأن سعيداً تابعي. وفيه: فضل قطع التمائم لأنها شرك.

ووكيع: هو ابن الجراح بن وكيع الكوفي، ثقة إمام، صاحب تصانيف، منها الجامع وغيره. روى عنه الإمام أحمد وطبقته. مات سنة سبع وتسعين ومائة.

وله عن إبراهيم قال: «كانوا يكرهون التمائم كلها، من القرآن وغير القرآن».

قوله: «وله عن إبراهيم قال: كانوا يكرهون التمائم كلها من القرآن وغير القرآن».

وإبراهيم هو الإمام إبراهيم بن يزيد النخعي الكوفي، يكنى أباعمران، ثقة من كبار الفقهاء. قال المِزِّي: دخل على عائشة، ولم يثبت له سماع منها. مات سنة ست وتسعين، وله خمسون سنة أو نحوها.

قوله: «كانوا يكرهون التمائم» إلى آخره، مراده بذلك: أصحاب عبدالله ابن مسعود، كعلقمة والأسود وأبي وائل والحارث بن سويد، وعبيدة السلماني ومسروق والربيع بن خُثيم وسويد بن غفلة وغيرهم، وهم من سادات التابعين، وهذه الصيغة يستعملها إبراهيم في حكاية أقوالهم، كما بين ذلك الحفاظ كالعراقي وغيره.

فيـه مسـائل:

الأولـى: تفسير الرقى والتمائم.

الثانيـة: تفسير التولة.

الثالثـة: أن هذه الثلاث كلها من الشرك من غير استثناء.

الرابعـة: أن الرقية بالكلام الحق من العين والحمة ليس من ذلك.

الخامسة: أن التميمة إذا كانت من القرآن فقد اختلف العلماء: هل هي من ذلك أم لا؟

السادسة: أن تعليق الأوتار على الدواب من العين من ذلك.

السابعة: الوعيد الشديد على من تعلق وتراً.

الثامنـة: فضل ثواب من قطع تميمة من إنسان.

التاسعة: أن كلام إبراهيم لا يخالف ما تقدم من الاختلاف، لأن مراده أصحاب عبدالله.

باب من تبرّك بشجر أو حجر ونحوهما

قوله: «باب من تبرك بشجر أو حجر ونحوهما»(١) كبقعة وقبر ونحو ذلك، أي فهو مشرك.

وقول الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ۝٢٠﴾ [النجم: ١٩ ـ ٢٠].

قوله: «وقول الله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ۝٢٠﴾ الآيات» وكانت اللات لثقيف، والعُزَّى لقريش وبني كنانة، ومناة لبني هلال. وقال ابن هشام: كانت لهذيل وخزاعة.

---

(١) قوله باب من تبرك بشجر أو حجر ونحوهما كبقعة وغار وعين وقبر ونحو ذلك مما يعتقد كثير من عباد القبور وأشباههم فيه البركة فيقصدونه رجاء البركة ويعني بقوله تبرك أي طلب البركة ورجاها واعتقدها أي ما حكمه هل هو شرك أم لا؟ [من تيسير العزيز الحميد].

وقال في التيسير أيضاً تنبيه: ذكر بعض المتأخرين أن التبرك بآثار الصالحين مستحب كشرب سؤرهم والتمسح بهم أو بثيابهم وحمل المولود إلى أحد منهم ليحنكه بتمرة حتى يكون أول ما يدخل جوفه ريق الصالحين والتبرك بعرقهم ونحو ذلك. وقد أكثر من ذلك أبوزكريا النووي في [شرح مسلم] في الأحاديث التي فيها أن الصحابة فعلوا شيئاً من ذلك مع النبي ﷺ وظن أن بقية الصالحين في ذلك كالنبي ﷺ وهذا خطأ صريح لوجوه:

منها عدم المقاربة فضلاً عن المساواة للنبي ﷺ في الفضل والبركة. ومنها عدم تحقق الصلاح فإنه لا يتحقق إلاَّ بصلاح القلب وهذا أمر لا يمكن الاطلاع عليه إلاَّ بنص. إلى أن قال: ومنها أن الصحابة لم يكونوا يفعلون ذلك مع غيره لا في =

فأما «اللاَّتُ» فقرأ الجمهور بتخفيف التاء، وقرأ ابن عباس وابن الزبير ومجاهد وحميد وأبوصالح ورويس عن يعقوب بتشديد التاء.

فعلى الأولى: قال الأعمش: سموا اللات من الإله، والعُزَّى من العزيز. قال ابن جرير: وكانوا قد اشتقوا اسمها من اسم الله تعالى، فقالوا: اللات مؤنثة منه، تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً. قال: وكذا العزى من العزيز.

وقال ابن كثير: اللات كانت صخرة بيضاء منقوشة عليها بيت بالطائف له أستار وسدنة، وحوله فناء معظم عند أهل الطائف، وهم ثقيف ومن تبعها يفتخرون به على من عداهم من أحياء العرب بعد قريش. قال ابن هشام: فبعث رسول الله ﷺ المغيرة بن شعبة، فهدمها وحرقها بالنار.

وعلى الثانية: قال ابن عباس: «كان رجلاً يلُتّ السويق للحاج، فلما

= حياته ولا بعد موته ﷺ ولو كان خيراً لسبقونا إليه فهل فعلوه مع أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ونحوهم من الذين شهد لهم النبي ﷺ بالجنة وكذلك التابعون هلا فعلوه مع سعيد بن المسيب وعلي بن الحسين وأويس القرني والحسن البصري ونحوهم. ممن يقطع بصلاحهم، فدل أن ذلك مخصوص بالنبي ﷺ. ومنها أن فعل هذا مع غيره ﷺ لا يؤمن أن يفتنه وتعجبه نفسه، فيورثه العجب والكبر والرياء فيكون هذا كالمدح في الوجه بل أعظم. انتهى.

وذلك أنهم قد كانوا فيما سألوا رسول الله ﷺ أي ـ وفد ثقيف ـ أن يدع لهم الطاغية وهي اللات لا يهدمها ثلاث سنين فأبى رسول الله ﷺ فما برحوا يسألونه سنة سنة وهو يأبىٰ عليه حتى سألوه شهراً واحداً فأبىٰ عليهم أن يدعها شيئاً مسمى وإنما يريدون في ذلك فيما يظهر أن يسلموا بتركها من سفهائهم ونسائهم وذراريهم ويكرهون أن يروعوا قومهم بهدمها حتى يدخلهم الإسلام فأبى رسول الله ﷺ إلاَّ أن يبعث أباسفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة فيهدمانها.

=

مات عكفوا على قبره» ذكره البخاري. قال ابن عباس: «كان يبيع السويق والسمن عند صخرة ويسلؤه عليها، فلما مات ذلك الرجل عبدت ثقيف تلك الصخرة إعظاماً لصاحب السويق». وعن مجاهد نحوه وقال «فلما مات عبدوه» رواه سعيد بن منصور. وكذا روى ابن أبي حاتم عن ابن عباس: «أنهم عبدوه» وبنحو هذا قال جماعة من أهل العلم.

قلت: لا منافاة بين القولين؛ فإنهم عبدوا الصخرة والقبر تأليهاً وتعظيماً.

ولمثل هذا بنيت المشاهد والقباب على القبور واتخذت أوثاناً. وفيه: بيان أن أهل الجاهلية كانوا يعبدون الصالحين والأصنام.

وأما «العزى» فقال ابن جرير: كانت شجرة عليها بناء وأستار بنخلة ـ بين مكة والطائف ـ كانت قريش يعظمونها. كما قال أبوسفيان يوم أُحد «لنا العُزَّى ولا عزَّى لكم، فقال رسول الله ﷺ: **قولوا: الله مولانا ولا مولى لكم**».

= قال ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ: وفيها من الفقه ـ إلى أن قال رحمه الله تعالى ـ ومنها أنه لا يجوز إبقاء مواضع الشرك والطواغيت بعد القدرة على هدمها وإبطالها يوماً واحداً فإنها شعائر الكفر والشرك وهي أعظم المنكرات فلا يجوز الإقرار عليها مع القدرة البتة. وهذا حكم المشاهد التي بنيت على القبور التي اتخذت أوثاناً وطواغيت تعبد من دون الله والأحجار التي تقصد للتعظيم والتبرك والنذر والتقبيل لا يجوز إبقاء شيء منها على وجه الأرض مع القدرة على إزالته وكثير منها بمنزلة اللات والعزىٰ ومناة الثالثة الأخرىٰ وأعظم شركاً عندها وبها وبالله المستعان ولم يكن أحد من أرباب هذه الطواغيت يعتقد فيها أنها تخلق وترزق وتحيي وتميت وإنما كانوا يفعلون عندها وبها ما يفعله إخوانهم من المشركين =

وروى النسائي وابن مردويه عن أبي الطفيل قال: «لما فتح رسول الله ﷺ مكة بعث خالد بن الوليد إلى نخلة ـ وكانت بها العزى، وكانت على ثلاث سمرات ـ فقطع السمرات، وهدم البيت الذي كان عليها. ثم أتى النبي ﷺ فأخبره. فقال: ارجع، فإنك لم تصنع شيئاً، فرجع خالد، فلما أبصرته السدنة أمعنوا في الجبل وهم يقولون: ياعزى ياعزى، فأتاها خالد، فإذا امرأة عريانة ناشرة شعرها تحفن التراب على رأسها فعمها بالسف فقتلها. ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره، فقال: تلك العزى».

قلت: وكل هذا وما هو أعظم منه يقع في هذه الأزمنة عند ضرائح الأموات وفي المشاهد.

وأما «مَناة» فكانت بالمشلَّل عند قُديد، بين مكة والمدينة، وكانت خزاعة والأوس والخزرج يعظمونها ويهلون منها للحج، وأصل اشتقاقها من اسم الله المنان، وقيل: لكثرة ما يُمنى ـ أي يُراق ـ عندها من الدماء للتبرك بها.

قال البخاري رحمه الله، في حديث عروة عن عائشة رضي الله عنها «إنها صنم بين مكة والمدينة».

قال ابن هشام «فبعث رسول الله ﷺ عليًّا فهدمها عام الفتح» فمعنى الآية كما قال القرطبي: أن فيها حذفاً تقديره: أفرأيتم هذه الآلهة: أنفعت أو ضرت حتى تكون شركاً لله تعالى؟

= اليوم عند طواغيتهم فاتبع هؤلاء سنن من كان قبلهم وسلكوا سبيلهم حذو القذة بالقذة وأخذوا مأخذهم شبراً بشبر وذراعاً بذراع وغلب الشرك على أكثر النفوس لظهور الجهل وخفاء العلم إلى آخره.

وقوله: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾﴾ قال ابن كثير؟ أتجعلون له ولداً وتجعلون ولده أنثى وتختارون لكم الذكور؟

قوله: ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾﴾ أي جور وباطلة. فكيف تقاسمون ربكم هذه القسمة التي لو كانت بين مخلوقين كانت جوراً وسفهاً، فتنزهون أنفسكم عن الإناث وتجعلونهن لله تعالى.

قوله: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ أي من تلقاء أنفسكم ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ أي من حجة ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ أي ليس لهم مستند إلا حسن ظنهم بآبائهم الذين سلكوا هذا المسلك الباطل قبلهم ﴿وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ وإلا حظ أنفسهم في رياستهم وتعظيم آبائهم الأقدمين.

قوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾ [النجم: ٢٣] قال ابن كثير: ولقد أرسل الله تعالى إليهم الرسل بالحق المنير والحجة القاطعة، ومع هذا ما اتبعوا ما جاؤوهم به ولا انقادوا له. اهـ.

ومطابقة الآيات للترجمة من جهة أن عبّاد هذه الأوثان إنما كانوا يعتقدون حصول البركة منها بتعظيمها ودعائها والاستعانة بها والاعتماد عليها في حصول ما يرجونه منها ويؤملونه ببركتها وشفاعتها وغير ذلك، فالتبرك بقبور الصالحين كاللات، وبالأشجار والأحجار كالعزى ومناة، من ضمن فعل أولئك المشركين مع تلك الأوثان، فمن فعل مثل ذلك واعتقد في قبر أو حجر أو شجر فقد ضاهى عبّاد هذه الأوثان فيما كانوا يفعلونه معها من هذا الشرك، على أن الواقع من هؤلاء المشركين مع معبوديهم أعظم مما وقع من أولئك، فالله المستعان.

عن أبي واقد الليثي قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى

حُنين، ونحن حُدَثاءُ عهد بكفر، وللمشركين سِدرة يَعكفون عندها ويَنطون بها أسلحتهم، يقال لها ذاتُ أنواط، فمررنا بسدرة، فقلنا: يارسول الله، اجعل لنا ذاتَ أنواط كما لهم ذاتُ أنواط. فقال رسول الله ﷺ: الله أكبر، إنها السنن. قلتم والذي نفسي بيده، كما قالت بنو إسرائيل لموسىٰ: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الأعراف: ١٣٨] لَتَرْكَبُنَّ سنَنَ من كان قبلكم» رواه الترمذي وصححه.

قوله: «عن أبي واقد الليثي قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حُنين، ونحن حُدَثاءُ عهد بكفر، وللمشركين سِدرة يَعكفون عندها ويَنطون بها أسلحتهم، يقال لها ذاتُ أنواط، فمررنا بسدرة، فقلنا: يارسول الله، اجعل لنا ذاتَ أنواط كما لهم ذاتُ أنواط. فقال رسول الله ﷺ: الله أكبر، إنها السنن. قلتم والذي نفسي بيده، كما قالت بنو إسرائيل لموسىٰ: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾ [الأعراف: ١٣٨] لَتَرْكَبُنَّ سنَنَ من كان قبلكم»[1] رواه الترمذي وصححه.

---

(١) وحديث أبي واقد هذا صريح في أن طوائف من أهل القبلة يصيرون ولا محالة مصاير الأمم الأولى الواقعة في الشرك وعبادة المخلوق وذلك أنهم لما طلبوا منه عليه الصلاة والسلام أن يجعل لهم شجرة يشركون بها ويعبدونها مع الله أنكر ذلك عليهم وأخبر أن طلبهم هذا كطلب بني إسرائيل وكقولهم لموسى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ قال الشيخ عبدالله بن الإمام محمد ـ رحمهم الله تعالى أجمعين ـ في مختصر السيرة (٣٥٤): قال العلماء في الكلام على هذا الحديث: =

أبوواقد: اسمه الحارث بن عوف، وفي الباب عن أبي سعيد وأبي هريرة. قاله الترمذي، وقد رواه أحمد وأبويعلى وابن أبي شيبة والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والطبراني بنحوه.

قوله: «**عن أبي واقد**» قد تقدم ذكر اسمه في قول الترمذي، وهو صحابي مشهور، مات سنة ثمان وستين، وله خمس وثمانون سنة.

قوله: «**خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين**» وفي حديث عمرو بن عوف وهو عند ابن أبي حاتم وابن مردويه والطبراني قال: «غزونا مع رسول الله ﷺ يوم الفتح، ونحن ألف ونيف، حتى إذا كنا بين حنين والطائف. . .» الحديث.

قوله: «**ونحن حدثاء عهد بكفر**» أي قريبٌ عهدنا بالكفر، ففيه: دليل على أن غيرهم ممن تقدم إسلامه من الصحابة لا يجهل هذا، وأن المنتقل من الباطل الذي اعتاده قلبه لا يأمن أن يكون في قلبه من تلك العادة. ذكره المصنف رحمه الله.

قوله: «**وللمشركين سدرة يعكفون عندها**» العكوف: هو الإقامة على الشيء في المكان، ومنه قول الخليل عليه السلام: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ

= فأنكر ﷺ مجرد مشابهتهم للمشركين في ذلك كيف بما هو أعظم من ذلك من الشرك بعينه فإذا كان العكوف حول هذه الشجرة لتعليق الأسلحة والعكوف حولها اتخاذ إله مع الله مع أنهم لا يسألونها ولا يعبدونها فما الظن بالعكوف حول القبر والدعاء به ودعائه والدعاء عنده فأي نسبة للفتنة بشجرة إلى الفتنة بالقبر لو كان أهل الشرك والبدعة يعلمون.

قال بعض أصحاب مالك وهو أبوبكر الطرطوشي: فانظروا رحمكم الله أينما وجدتم سدرة أو شجرة يقصدها الناس ويعظمونها ويرجون البرء والشفاء من قبلها، ويضربون بها المسامير والخرق فاقطعوها.

أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الأنبياء: ٥٢] وكان عكوف المشركين عند تلك السدرة تبركاً بها وتعظيماً لها، وفي حديث عمرو «كان يناط بها السلاح فسميت ذات أنواط. وكانت تعبد من دون الله».

قوله: «**وينوطون بها أسلحتهم**» أي: يعلقونها عليها للبركة.

قلت: ففي هذا بيان أن عبادتهم لها بالتعظيم والعكوف والتبرك، وبهذه الأمور الثلاثة عبدت الأشجار ونحوها.

قوله: «**فقلنا: يارسول الله، اجعل لنا ذات أنواط**» قال أبوالسعادات: سألوه أن يجعل لهم مثلها فنهاهم عن ذلك. وأنواط جمع نوط، وهو مصدر سمي به المنوط. ظنوا أن هذا أمر محبوب عند الله وقصدوا التقرب به، وإلا فهم أجلُّ قدراً من أن يقصدوا مخالفة النبي ﷺ.

قوله: «**فقال رسول الله ﷺ: الله أكبر**» وفي رواية «**سبحان الله!**» والمراد تعظيم الله تعالى وتنزيهه عن هذا الشرك بأي نوع كان، مما لا يجوز أن يطلب أو يقصد به غير الله.

وكان النبي ﷺ يستعمل التكبير والتسبيح في حال التعجب، تعظيماً لله وتنزيهاً له إذا سمع من أحد ما لا يليق بالله مما فيه هَضْم للربوبية أو الإلٰهية.

قوله: «**إنها السُّنن**» بضم السين، أي الطرق.

قوله: «**قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾**» شبه مقالتهم هذه بقول بني إسرائيل، بجامع أن كلاً طلب أن يجعل له ما يألهه ويعبده من دون الله، وإن اختلف اللفظان. فالمعنى واحد، فتغيير الاسم لا يغير الحقيقة.

ففيه: الخوف من الشرك، وأن الإنسان قد يستحسن شيئاً يظن أنه يقربه إلى الله، وهو أبعد ما يبعده من رحمته ويقربه من سخطه، ولا

يعرف هذا على الحقيقة إلا من عرف ما وقع في هذه الأزمان من كثير من العلماء والعباد مع أرباب القبور، من الغلو فيها وصرف جل العبادة لها، ويحسبون أنهم على شيء، وهو الذنب الذي لا يغفره الله.

قال الحافظ أبومحمد عبدالرحمن بن إسماعيل الشافعي المعروف بابن أبي شامة في كتاب «البدع والحوادث»: ومن هذا القسم أيضاً ما قد عَمَّ الابتلاء به من تزيين الشيطان للعامة: تخليق الحيطان والعُمد، وإسراج مواضع مخصوصة في كل بلد يحكي لهم حاكٍ أنه رأى في منامه بها أحداً ممن شهر بالصلاح والولاية، فيفعلون ذلك ويحافظون عليه مع تضييعهم لفرائض الله تعالى وسننه، ويظنون أنهم متقربون بذلك، ثم يتجاوزون هذا إلى أن يعظم وقع تلك الأماكن في قلوبهم فيعظمونها، ويرجون الشفاء لمرضاهم وقضاء حوائجهم بالنذر لها، وهي من عيون وشجر وحائط وحجر. وفي مدينة دمشق من ذلك مواضع متعددة كعوينة الحمى خارج باب توما، والعمود المخلق داخل باب الصغير، والشجرة الملعونة خارج باب النصر في نفس قارعة الطريق، سهل الله قطعها واجتثاثها من أصلها، فما أشبهها بذات أنواط الواردة في الحديث. انتهى.

وذكر ابن القيم رحمه الله نحو ما ذكره أبوشامة، ثم قال: فما أسرع أهل الشرك إلى اتخاذ الأوثان من دون الله ولو كانت ما كانت، ويقولون: إن هذا الحجر وهذه الشجرة، وهذه العين تقبل النذر، أي تقبل العبادة من دون الله، فإن النذر عبادة وقربة يتقرب بها الناذر إلى المنذور له، وسيأتي ما يتعلق بهذا الباب عند قوله ﷺ: «**اللهم لا تجعل قبري وثناً يُعبد**».

وفي هذه الجملة من الفوائد: أن ما يفعله من يعتقد في الأشجار

والقبور والأحجار من التبرك بها والعكوف عندها والذبح لها هو الشرك، ولا يغتر بالعوام والطغام، ولا يستبعد كون الشرك بالله تعالى يقع في هذه الأمة، فإذا كان بعض الصحابة ظنوا ذلك حسناً وطلبوه من النبي ﷺ حتى بين لهم أن ذلك كقول بني إسرائيل ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨] فكيف لا يخفى على من هو دونهم في العلم والفضل بأضعاف مضاعفة مع غلبة الجهل وبُعد العهد بآثار النبوة؟! بل خفي عليهم عظائم الشرك في الإلٰهية والربوبية، فأكثروا فعله واتخذوه قربة.

وفيها: أن الاعتبار في الأحكام بالمعاني لا بالأسماء، ولهذا جعل النبي ﷺ طلبتهم كطلبة بني إسرائيل، ولم يلتفت إلى كونهم سموها ذات أنواط. فالمشرك مشرك وإن سمى شركه ما سماه. كمن يسمي دعاء الأموات والذبح والنذر لهم ونحو ذلك تعظيماً ومحبة، فإن ذلك هو الشرك، وإن سماه ما سماه. وقس على ذلك.

قوله: «**لتركبن سنن من كان قبلكم**» بضم الموحدة وضم السين، أي طرقهم ومناهجهم. وقد يجوز فتح السين على الإفراد أي طريقهم. وهذا خبر صحيح. والواقع من كثير من هذه الأمة يشهد له.

وفيه: عَلم من أعلام النبوة من حيث إنه وقع كما أخبر به ﷺ.

وفي الحديث: النهي عن التشبه بأهل الجاهلية وأهل الكتاب فيما كانوا يفعلونه، إلا ما دلَّ الدليل على أنه من شريعة محمد ﷺ.

قال المصنف رحمه الله: «وفيه: التنبيه على مسائل القبر، أما: مَن ربُّك؟ فواضح[١]، وأما: «من نبيك؟» فمن إخباره بأنباء الغيب. وأما:

---

(١) أنهم لما لم يَدَّعُوا في الشجرة أنها تخلق وترزق وتحيي وتميت دل ذلك على أنهم=

«ما دينك»؟ فمن قولهم ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا﴾ إلخ. وفيه: أن الشرك لابد أن يقع في هذه الأمة خلافاً لمن ادعى خلاف ذلك، وفيه: الغضب عند التعليم، وأن ما ذم الله به اليهود والنصارى فإنه قاله لنا لنحذره. قاله المصنف رحمه الله.

وأما ما ادعاه بعض المتأخرين من أنه يجوز التبرك بآثار الصالحين، فممنوع من وجوه:

منها: أن السابقين الأولين من الصحابة ومَن بعدهم لم يكونوا يفعلون ذلك مع غير النبي ﷺ، لا في حياته ولا بعد موته. ولو كان خيراً لسبقونا إليه، وأفضل الصحابة أبوبكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم. وقد شهد لهم رسول الله ﷺ فيمن شهد له بالجنة، وما فعله أحد من الصحابة والتابعين مع أحد من هؤلاء السادة، ولا فعله التابعون مع ساداتهم في العلم والدين وهم الأسوة، فلا يجوز أن يقاس على رسول الله ﷺ أحدٌ من الأمة، وللنبي ﷺ في حال الحياة خصائص كثيرة لا يصلح أن يشاركه فيها غيره.

ومنها: أن في المنع عن ذلك سدًّا لذريعة الشرك كما لا يخفى.

= مقرون بذلك لله وأن الله هو الرب الخالق الرازق وأما دلالتها على نبوته فإنه أخبر أنهم يفعلون كفعل بني إسرائيل فوقع كما أخبر فدل على نبوته.

وأما دلالته على قوله ما دينك فيؤخذ من إنكاره عليهم قولهم اجعل ذات أنواط، لأن فيه طلب البركة من غير الله، وهذا ينافي دين الإسلام.

فيـه مسـائل:

الأولـى: تفسير آية النجم.

الثانـية: معرفة صورة الأمر الذي طلبوا.

الثالثـة: كونهم لم يفعلوا.

الرابعـة: كونهم قصدوا التقرب إلى الله بذلك، لظنهم أنه يحبه.

الخامسة: أنهم إذا جهلوا هذا، فغيرهم أولى بالجهل.

السادسة: أن لهم من الحسنات والوعد بالمغفرة ما ليس لغيرهم.

السابعـة: أن النبي ﷺ لم يعذرهم الأمر، بل رد عليهم بقوله «الله أكبر إنها السنن، لتتبعن سنن من كان قبلكم» فغلَّظ الأمر بهذه الثلاث.

الثامـنة: الأمر الكبير، وهو المقصود: أنه أخبر أن طلبهم كطلب بني إسرائيل لما قالوا لموسىٰ: ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهًا﴾.

التاسعة: أن نفي هذا من معنى «لاإله إلّاالله» مع دقته وخفائه على أولئك.

العاشرة: أنه حلف على الفُتيا، وهو لا يحلف إلا لمصلحة.

الحادية عشرة: أن الشرك فيه أكبر وأصغر، لأنهم لم يرتدُّوا بهذا.

الثانيـة عشرة: قولهم «ونحن حُدَثاء عهد بكفر» فيه أن غيرهم لا يجهل ذلك.

الثالثة عشـرة: التكبير عند التعجب، خلافاً لمن كرهه.

الرابعة عشـرة: سد الذرائع.

الخامسة عشرة: النهي عن التشبه بأهل الجاهلية.

السادسة عشرة: الغضب عند التعليم.

السابعة عشرة: القاعدة الكلية لقوله: «إنها السنن».

الثامنة عشـرة: أن هذا علم من أعلام النبوة لكونه وقع كما أخبر.

التاسعة عشرة: أن ما ذمَّ الله به اليهود والنصارى في القرآن أنه لنا.

العشرون: أنه متقررٌ عندهم أن العبادات مبناها على الأمر، فصار فيه التنبيه على مسائل القبر. أما «مَن ربك؟» فواضح، وأما «مَن نبيك؟» فمن إخباره بأنباء الغيب. وأما «ما دينك؟» فمن قولهم «اجعل لنا» إلى آخره.

الحادية والعشرون: أن سُنة أهل الكتاب مذمومة كسنَّة المشركين.

الثانية والعشرون: أن المنتقل من الباطل الذي اعتاده قلبه لا يؤمن أن يكون في قلبه بقية من تلك العادة: لقولهم «ونحن حدثاء عهد بكفر».

باب ما جاء في الذبح لغير الله

قوله: «باب ما جاء في الذبح لعير الله» أي: من الوعيد، وأنه شرك بالله.

وقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢ ـ ١٦٣].

قوله: وقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ **الآية»**.

قال ابن كثير: يأمره تعالى أن يخبر المشركين الذين يعبدون غير الله ويذبحون له: بأنه أخلص لله صلاته وذبيحته؛ لأن المشركين يعبدون الأصنام ويذبحوز لها، فأمره الله تعالى بمخالفتهم والانحراف عما هم فيه، والإقبال بالقصد والنية والعزم على الإخلاص لله تعالى.

قال مجاهد: النسك: الذبح في الحج والعمرة.

وقال الثوري عن السدي عن سعيد بن جبير: ﴿وَنُسُكِي﴾: ذبحي. وكذا قال الضحاك.

وقال غيره: ﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾ أي: وما آتيه في حياتي وما أموت عليه من الإيمان والعمل الصالح ﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ خالصاً لوجهه ﴿لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ﴾ الإخلاص ﴿أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ أي من هذه الأمة لأن إسلام كل نبي متقدم.

قال ابن كثير: وهو كما قال، فإن جميع الأنبياء قبله كانت دعوتهم إلى الإسلام، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ

أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥] وذكر آيات في هذا المعنى.

ووجه مطابقة الآية للترجمة: أن الله تعالى تعبّد عباده بأن يتقربوا إليه بالنسك، كما تعبدهم بالصلاة وغيرها من أنواع العبادات، فإن الله تعالى أمرهم أن يخلصوا جميع أنواع العبادة له دون كل ما سواه، فإذا تقربوا إلى غير الله بالذبح أو غيره من أنواع العبادة فقد جعلوا لله شريكاً في عبادته، وهو ظاهر في قوله: ﴿لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ نفى أن يكون لله تعالى شريك في هذه العبادات، وهو بحمد الله واضح.

وقوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾﴾ [الكوثر: ٢].

قوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾﴾ قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: أمره الله أن يجمع بين هاتين العبادتين، وهما الصلاة والنسك، الدالتان على القرب والتواضع والافتقار وحسن الظن، وقوة اليقين وطمأنينة القلب إلى الله وإلى عِدَته، عكسَ حال أهل الكِبْر والنُّفرة، وأهل الغِنى عن الله الذين لا حاجة لهم في صلاتهم إلى ربهم، والذين لا ينحرون له خوفاً من الفقر، ولهذا جمع بينهما في قوله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى﴾ الآية والنُسُك: الذبيحة لله تعالى ابتغاء وجهه. فإنهما أجلّ ما يُتقرّب به إلى الله، فإنه أتى فيهما بالفاء الدالة على السبب؛ لأن فعل ذلك سبب للقيام بشكر ما أعطاه الله تعالى من الكوثر.

وأجلُّ العبادات البدنية: الصلاة، وأجل العبادات المالية: النحرُ. وما يجتمع للعبد في الصلاة لا يجتمع له في غيرها، كما عرفه أربابُ القلوب الحية، وما يجتمع له في النحر إذا قارنه الإيمان والإخلاص، من قوة اليقين وحسن الظن: أمر عجيب، وكان النبي ﷺ كثير الصلاة،

كثير النحر. اهـ.

قلت: وقد تضمنت الصلاة من أنواع العبادات كثيراً، فمن ذلك: الدعاء والتكبير، والتسبيح والقراءة، والتسميع والثناء، والقيام والركوع، والسجود والاعتدال، وإقامة الوجه لله تعالى، والإقبال عليه بالقلب، وغير ذلك مما هو مشروع في الصلاة، وكل هذه الأمور من أنواع العبادات التي لا يجوز أن يُصرف منها شيء لغير الله، وكذلك النسك يتضمن أموراً من العبادة كما تقدم في كلام شيخ الإسلام رحمه الله تعالى.

عن علي رضي الله عنه قال: حدثني رسول الله ﷺ بأربع كلمات: لعن الله من ذبح لغير الله، لعن الله من لعن والديه، لعن الله من آوى محدثاً، لعن الله من غير منار الأرض» رواه مسلم.

قوله: وعن علي بن أبي طالب قال: حدثني رسول الله ﷺ بأربع كلمات: لعن الله من ذبح لغير الله، ولعن الله من لعن والديه، ولعن الله من آوى محدثاً، ولعن الله من غير منار الأرض» رواه مسلم من طرق، وفيه قصة.

ورواه الإمام أحمد كذلك عن أبي الطفيل قال: قلنا لعلي: أخبرنا بشيء أسره إليك رسول الله ﷺ، فقال: ما أسر إليَّ شيئاً كتمه الناس، ولكن سمعته يقول: **«لعن الله من ذبح لغير الله، ولعن الله من آوى محدثاً، ولعن الله من لعن والديه، ولعن الله من غيَّر تخوم الأرض»** يعني: المنار.

وعلي بن أبي طالب: هو الإمام أمير المؤمنين أبوالحسن الهاشمي ابن عم النبي ﷺ، وزوج ابنته فاطمة الزهراء. كان من أسبق السابقين الأولين، ومن أهل بدر وبيعة الرضوان، وأحد العشرة المشهود لهم بالجنة، ورابع الخلفاء الراشدين، ومناقبه مشهورة رضي الله عنه. قتله ابن ملجم الخارجي في رمضان سنة أربعين.

قوله: «**لعن الله**» اللعن: البعدُ عن مظانِّ الرحمة ومواطنها. قيل: واللعين والملعون: من حَقَّتْ عليه اللعنة، أو دُعي عليه بها. قال أبوالسعادات: أصل اللعن: الطرد والإبعاد من الله، ومن الخلق: السب والدعاء.

قال شيخ الإسلام رحمه الله ما معناه: إن الله تعالى يلعن من استحق اللعنة بالقول كما يصلي سبحانه على من استحق الصلاة من عباده. قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾ [الأحزاب: ٤٣ ـ ٤٤] وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾﴾ [الأحزاب: ٦٤] وقال: ﴿مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾﴾ [الأحزاب: ٦١] والقرآن كلامه تعالى أوحاه إلى جبريل عليه السلام وبَلَّغه رسولَه محمداً ﷺ، وجبريل سمعه منه كما سيأتي في الصلاة إن شاء الله تعالى، فالصلاة ثناء الله تعالى كما تقدم. فالله تعالى هو المصلي وهو المثيب، كما دل على ذلك الكتاب والسنة، وعليه سلف الأمة. قال الإمام أحمد رحمه الله: «لم يزل الله متكلماً إذا شاء».

قوله: «**من ذبح لغير الله**» قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٣] ظاهره: أنه ما ذبح لغير الله، مثل أن يقول: هذا ذبيحة لكذا. وإذا كان هذا هو المقصود، فسواء لفظ به أو لم يلفظ وتحريم هذا أظهر من تحريم ما ذبحه للحم،

وقال فيه: باسم المسيح أو نحوه. كما أن ما ذبحناه متقربين به إلى الله كان أزكى وأعظم مما ذبحناه للحم، وقلنا عليه: بسم الله. فإذا حرم ما قيل فيه باسم المسيح أو الزهرة، فلأن يحرم ما قيل فيه لأجل المسيح أو الزهرة أو قصد به ذلك أولى؛ فإن العبادة لغير الله أعظم كفراً من الاستعانة بغير الله.

وعلى هذا: فلو ذبح لغير الله متقرباً إليه يحرم، وإن قال فيه: باسم الله، كما قد يفعله طائفة من منافقي هذه الأمة الذين يتقربون إلى الكواكب بالذبح والبخور ونحو ذلك، وإن كان هؤلاء مرتدين لا تباح ذبيحتهم بحال. لكن يجتمع في الذبيحة مانعان، الأول: أنه مما أهلَّ به لغير الله. والثاني: أنها ذبيحة مرتد.

ومن هذا الباب: ما يفعله الجاهلون بمكة من الذبح للجن، ولهذا روي عن النبي ﷺ أنه نهى عن ذبائح الجن. اهـ.

قال الزمخشري: كانوا إذا اشتروا داراً أو بنوها أو استخرجوا عيناً ذبحوا ذبيحة خوفاً أن تصيبهم الجن، فأضيفت إليهم الذبائح لذلك.

وذكر إبراهيم المروزي: أن ما ذبح عند استقبال السلطان تقرباً إليه، أفتى أهل بخارى بتحريمه؛ لأنه مما أهل به لغير الله.

قوله: «لعن الله من لعن والديه» يعني أباه وأمه وإن عليا. وفي «الصحيح»: أن رسول الله ﷺ قال: **«من الكبائر شَتْم الرجل والديه،** قالوا: يارسول الله، وهل يشتم الرجل والديه؟ قال: **نعم، يَسُبُّ أباالرجل فيسب أباه، وَيسبُّ أمّه فيسب أمّه»**.

قوله: «لعن الله من آوى محدثاً» أي: منعه من أن يؤخذ منه الحق الذي وجب عليه. و«آوى» بفتح الهمزة ممدودة: أي ضمه إليه وحماه.

قال أبوالسعادات: أويت إلى المنزل، وأويت غيري، وآويته. وأنكر

بعضهم المقصور المتعدي. وأما «محدثاً» فقال أبوالسعادات: يروى بكسر الدال وفتحها على الفاعل والمفعول، فمعنى الكسر: مَنْ نصر جانياً وآواه وأجاره من خصمه، وحال بينه وبين أن يُقْتصَّ منه. وبالفتح: هو الأمر المبتدَع نفسه، ويكون معنى الإيواء فيه الرضى به والصبر عليه؛ فإنه إذا رضي بالبدعة وأقر فاعلها ولم ينكر عليه فقد آواه.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: هذه الكبيرة تختلف مراتبها باختلاف مراتب الحدث في نفسه، فكلما كان الحدث في نفسه أكبر كانت الكبيرة أعظم.

قوله: «لعن الله من غيَّر منار الأرض» بفتح الميم: علامات حدودها. قال أبوالسعادات في «النهاية» ـ في مادة «تخم» ـ ملعون من غيَّر تخوم الأرض: أي معالمها وحدودها، واحدها تخم. قيل: أراد حدود الحرم خاصة، وقيل: هو عام في جميع الأرض، وأراد: المعالم التي يهتدى بها في الطريق. وقيل: هو أن يدخل الرجل في ملك غيره فيقتطعه ظلماً. قال: ويروى «تخوم» بفتح التاء على الإفراد، وجمعه تُخُم بضم التاء والخاء. اهـ.

وتغييرها: أن يقدمها أو يؤخرها، فيكون هذا من ظلم الأرض الذي قال فيه النبي ﷺ: «**من ظلم شبراً من الأرض طُوِّقه يوم القيامة من سبع أرضين**» ففيه: جواز لعن أهل الظلم من غير تعيين.

وأما لعن الفاسق المعين: ففيه قولان، أحدهما: أنه جائز. اختاره ابن الجوزي، وغيره، والثاني: لا يجوز، اختاره أبوبكر عبدالعزيز وشيخ الإسلام.

وعن طارق بن شهاب: أن رسول الله ﷺ قال: «دخل

الجنة رجلٌ في ذُباب، ودخل النارَ رجل في ذباب. قالوا: «وكيف ذلك يارسول الله؟ قال: مر رجلان عَلَىٰ قوم لهم صنم. لا يجوزُه أحد حتى يُقرِّب له شيئاً، فقالوا لأحدهما: قرِّب. قال: ليس عندي شيء أُقرِّب. قالوا له: قرِّب ولو ذباباً. فقرَّب ذباباً، فخلَّوا سبيله، فدخل النار. وقالوا للآخر: قرِّب، فقال: ما كنت لأُقرِّب لأحد شيئاً دون الله عزوجل. فضربوا عنقه فدخل الجنة» رواه أحمد[(١)].

قوله: وعن طارق بن شهاب: أن رسول الله ﷺ قال: «دخل الجنة رجلٌ في ذُباب، ودخل النارَ رجل في ذباب. قالوا: «وكيف ذلك يارسول الله؟ قال: مر رجلان عَلَىٰ قوم لهم صنم. لا يجاوزُه أحد حتى يُقرِّب له

(١) تنبيه: حديث طارق هذا عزاه للإمام أحمد ـ رحمه الله ـ كما ذكر ذلك ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ ولكن بعض من نظر في هذا الحديث نفى عزوه للإمام أحمد بحجة أنه لم يجده في المسند فيقال نفي ذلك خطأ، وهو الجزم بوهم هؤلاء الأئمة رحمهم الله تعالى؛ لأنه توهيم لمن أثبت ذلك من الأئمة ـ رحمهم الله ـ بحجة أنه لم يجده في المسند وهذا ليس بحجة على من أثبته، وفي مثل ذلك. فلقد جزم ابن حجر في الفتح في حديث عمر: «**إنما الأعمال بالنيات**» على أن الإمام مالك رحمه الله تعالى لم يروه في الموطأ حيث قال في الفتح (١/ ١١): ووهم من زعم أنه في الموطأ مغتراً بتخريج الشيخين له والنسائي من طريق مالك، وقد وجد في الموطأ في رواية محمد بن الحسين للموطأ ولعل النسخة التي منع ابن حجر من الموطأ رواية يحيى بن يحيى الليثي عن مالك فهذا حديث طارق لعله في بعض النسخ للمسند التي لم يطلع عليها لأن المثبت مقدم على من نفىٰ كيف وهما إماما جليلان.

شيئاً، قالوا لأحدهما: قرِّب. قال: ليس عندي شيء أُقرِّب. قالوا: قرِّب ولو ذباباً. فقرَّب ذباباً، فخلَّوا سبيله، فدخل النار. وقالوا للآخر: قرِّب، فقال: ما كنت لأُقرِّب لأحد شيئاً دون الله عزوجل. فضربوا عنقه فدخل الجنة» رواه أحمد.

قال ابن القيم رحمه الله: قال الإمام أحمد رحمه الله: حدثنا أبومعاوية، حدثنا الأعمش، عن سليمان بن ميسرة، عن طارق بن شهاب يرفعه قال: «**دخل رجل الجنة في ذباب. . .**» الحديث.

وطارق بن شهاب: هو البَجَلي الأحمس، أبوعبدالله. رأى النبي ﷺ وهو رجل. قال البغوي: نزل الكوفة. وقال أبوداود: رأى النبي ﷺ ولم يسمع منه شيئاً. قال الحافظ: إذا ثبت أنه لقي النبي ﷺ فهو صحابي. وإذا ثبت أنه لم يسمع منه، فروايته عنه مرسل صحابي، وهو مقبول على الراجح، وكانت وفاته ـ على ما جزم به ابن حبان ـ سنة ثلاث وثمانين.

قوله: «**دخل الجنة رجل في ذباب**» أي من أجله.

قوله: «**قالوا: وكيف ذلك يارسول الله؟**» كأنهم تقالّوا ذلك، وتعجبوا منه. فبين لهم النبي ﷺ ما صَيَّر هذا الأمر الحقير عندهم عظيماً يستحق هذا عليه الجنة، ويستوجب الآخر عليه النار.

قوله: «**فقال: مر رجلان على قوم لهم صنم**» الصنم: ما كان منحوتاً على صورة، ويطلق عليه الوثن كما مر.

قوله: «**لا يجاوزه**» أي: لا يمر به ولا يتعداه أحد حتى يقرب إليه شيئاً وإن قلّ.

قوله: «**قالوا له: قرب ولو ذباباً فقرب ذباباً فخلوا سبيله، فدخل النار**» في هذا بيان عظمة الشرك، ولو في شيء قليل، وأنه يوجب النار. كما

قال تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ ﴾ [المائدة: ٧٢].

وفي هذا الحديث: التحذير من الوقوع في الشرك، وأن الإنسان قد يقع فيه وهو لا يدري أنه من الشرك الذي يوجب النار.

وفيه: أنه دخل النار بسبب لم يقصده ابتداءً، وإنما فعله تخلصاً من شر أهل الصنم.

وفيه: أن ذلك الرجل كان مسلماً قبل ذلك، وإلا فلو لم يكن مسلماً لم يقل: دخل النار في ذباب.

وفيه: أن عمل القلب هو المقصود الأعظم حتى عند عبدة الأوثان، ذكره المصنف بمعناه.

قوله: «وقالوا للآخر: قرب. قال: ما كنت لأقرب لأحد شيئاً دون الله عزوجل» ففيه: بيان فضيلة التوحيد والإخلاص.

قال المصنف رحمه الله: «وفيه معرفة قدر الشرك في قلوب المؤمنين كيف صبر على القتل ولم يوافقهم على طلبتهم مع كونهم لم يطلبوا منه إلا العمل الظاهر».

فيــه مســائل:

الأولــى: تفسير ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى ﴾.

الثانيــة: تفسير ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾ ﴾.

الثالثــة: البداءة بلعنة من ذبح لغير الله.

الرابعــة: لعن من لعن والديه، ومنه أن تلعن والدي الرجل فيلعن والديك.

الخامسة: لعن من آوى محدثاً، وهو الرجل يحدث شيئاً يجب فيه حق

لله، فيلتجىء إلى من يجيره من ذلك.

السادسة: لعن من غيَّر منار الأرض، وهي المراسيم التي تفرِّق بين حقك وحق جارك، فتغيرها بتقديم أو تأخير.

السابعة: الفرق بين لعن المعَّين ولعن أهل المعاصي على سبيل العموم.

الثامنة: هذه القصة العظيمة، وهي قصة الذباب.

التاسعة: كونه دخل النار بسبب ذلك الذباب الذي لم يقصده بل فعله تخلصاً من شرهم.

العاشرة: معرفة قدر الشرك في قلوب المؤمنين، كيف صبر ذلك على القتل ولم يوافقهم على طلبتهم، مع كونهم لم يطلبوا إلا العمل الظاهر؟

الحادية عشرة: أن الذي دخل النار مسلم؛ لأنه لو كان كافراً لم يقل: «دخل النار في ذباب».

الثانية عشرة: فيه شاهد للحديث الصحيح «الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله، والنار مثل ذلك».

الثالثة عشرة: معرفة أن عمل القلب هو المقصود الأعظم، حتى عند عبدة الأوثان.

باب لا يُذبح لله بمكان يُذبح فيه لغير الله

وقول الله تعالى: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [التوبة: ١٠٨].

قوله: «**باب: لا يذبح لله بمكان يذبح فيه لغير الله تعالى**» «لا» نافية، ويحتمل أنها للنهي وهو أظهر.

قوله: «**وقول الله تعالى:** ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ **الآية**» قال المفسرون: إن الله تعالى نهى رسوله عن الصلاة في مسجد الضرار، والأمة تبع له في ذلك، ثم إنه تعالى حَثَّه على الصلاة في مسجد قُباء الذي أُسس من أول يوم بني على التقوى، وهي طاعة الله ورسوله ﷺ، وجمعاً لكلمة المؤمنين، ومعقلاً ومنزلاً للإسلام وأهله، ولهذا جاء في الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ، قال: «**صلاة في مسجد قباء كعمرة**». وفي «الصحيح» «**أن رسول الله ﷺ كان يزور قباء راكباً وماشياً**» وقد صرح أن المسجد المذكور في الآية هو مسجد قباء جماعة من السلف، منهم ابن عباس، وعروة، وعطية، والشعبي، والحسن وغيرهم.

قلت: ويؤيده قوله في الآية: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا﴾ وقيل: هو مسجد رسول الله ﷺ؛ لحديث أبي سعيد قال: «تمارى رجلان في المسجد الذي أُسِّس على التقوى من أول يوم. فقال رجل: هو مسجد قُباء، وقال الآخر: هو مسجد رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: **هو مسجدي هذا**» رواه مسلم. وهو قول عمر، وابنه، وزيد بن ثابت،

وغيرهم.

قال ابن كثير: وهذا صحيح، ولا منافاة بين الآية والحديث؛ لأنه إذا كان مسجد قباء قد أسس على التقوى من أول يوم، فمسجد رسول الله ﷺ بطريق الأولى وهذا بخلاف مسجد الضرار الذي أسس على معصية الله كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [التوبة: ٧٠١] فلهذه الأمور نهى الله نبيه عن القيام فيه للصلاة. وكان الذين بنوه جاؤوا إلى النبي ﷺ قبل خروجه إلى غزوة تبوك فسألوه أن يصلي فيه، وأنهم إنما بنوه للضعفاء وأهل العلة في الليلة الشاتية. فقال: «**إنا على سفر، ولكن إذا رجعنا إن شاء الله**» فلما قفل عليه السلام راجعاً إلى المدينة، ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعضه نزل الوحي بخبر المسجد، فبعث إليه فهدمه قبل قدومه إلى المدينة.

وجه مناسبة الآية للترجمة: أن المواضع المعدة للذبح لغير الله يجب اجتناب الذبح فيها لله، كما أن هذا المسجد لما أعد لمعصية الله صار محل غضب لأجل ذلك، فلا تجوز الصلاة فيه لله، وهذا قياس صحيح، يؤيده حديث ثابت بن الضحاك الآتي.

قوله: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ﴾ روى الإمام أحمد وابن خزيمة وغيرهما عن عويم بن ساعدة الأنصاري «أن النبي ﷺ أتاهم في مسجد قباء. فقال: **إن الله قد أحسن عليكم الثناء بالطهور في قصة مسجدكم، فما هذا الطهور الذي تطهرون به؟** فقالوا: والله يارسول الله ما نعلم شيئاً إلا أنه كان لنا جيران من اليهود فكانوا يغسلون أدبارهم من الغائط، فغسلنا كما غسلوا» وفي رواية عن جابر وأنس «**هو ذاك فعليكموه**» رواه

ابن ماجه وابن أبي حاتم، والدارقطني والحاكم.

قوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ قال أبوالعالية: إن الطهور بالماء لحسن، ولكنهم المتطهرون من الذنوب. وفيه: إثبات صفة المحبة، خلافاً للأشاعرة ونحوهم.

عن ثابت بن الضحاك رضي الله عنه قال: «نذر رجل أن ينحر إبلاً ببُوانة، فسأل النبي ﷺ، فقال: هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يُعبد؟ قالوا: لا. قال: فهل كان فيها عيد من أعيادهم؟ قالوا: لا. فقال رسول الله ﷺ: أوْفِ بنذرك، فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله، وَلا فيما لا يملك ابن آدم» رواه أبوداود، وإسناده على شرطهما.

قوله: عن ثابت بن الضحاك رضي الله عنه قال: «نذر رجل أن ينحر إبلاً ببُوانة، فسأل النبي ﷺ، فقال: **هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يُعبد؟** قالوا: لا. قال: **فهل كان فيها عيد من أعيادهم؟** قالوا: لا. فقال رسول الله ﷺ: **أوْفِ** بنذرك، **فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله، وَلا فيما لا يملك ابن آدم**» رواه أبوداود، وإسناده على شرطهما.

قوله: «**عن ثابت بن الضحاك**» أي: ابن خليفة الأشْهَلي، صحابي مشهور. روى عنه أبوقلابة وغيره. مات سنة أربع وستين.

قوله: «**ببوانة**» بضم الباء، وقيل: بفتحها. قال البغوي: موضع في أسفل مكة دون يَلَمْلَم. قال أبوالسعادات: هضبة من وراء يَنبُع.

قوله: «**فهل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يعبد؟**» فيه: المنع من الوفاء بالنذر إذا كان في المكان وثن، ولو بعد زواله. قاله المصنف

رحمه الله.

قوله: «**فهل كان فيها عيد من أعيادهم؟**» قال شيخ الإسلام رحمه الله: العيد: اسم لما يعود من الاجتماع العام على وجه معتاد عائد: إما بعود السنة، أو بعود الأسبوع، أو الشهر أو نحو ذلك. والمراد به هنا: الاجتماع المعتاد من اجتماع أهل الجاهلية، فالعيد يجمع أموراً منها: يوم عائد، كيوم الفطر ويوم الجمعة، ومنها: اجتماع فيه، ومنها: أعمال تتبع ذلك من العبادات والعادات. وقد يختص العيد بمكان بعينه، وقد يكون مطلقاً، وكل من هذه الأمور قد يسمى عيداً. فالزمان كقول النبي ﷺ في يوم الجمعة: «**إن هذا يوم قد جعله الله للمسلمين عيداً**». والاجتماع والأعمال كقول ابن عباس «شهدت العيد مع رسول الله ﷺ»؛ والمكان، كقول النبي ﷺ: «**لا تتخذوا قبري عيداً**» وقد يكون لفظ العيد اسماً لمجموع اليوم والعمل فيه وهو الغالب، كقول النبي ﷺ: «دعهما ياأبابكر؛ فإن لكل قوم عيداً». انتهى.

قال المصنف: «وفيه: استفصال المفتي، والمنع من الوفاء بالنذر بمكان عيد الجاهلية، ولو بعد زواله».

قلت: وفيه سد الذريعة، وترك مشابهة المشركين، والمنع مما هو وسيلة إلى ذلك.

قوله: «**أوف بنذرك**» هذا يدل على أن الذبح لله في المكان الذي يذبح فيه المشركون لغير الله: أي في محل أعيادهم، معصية، لأن قوله: «**أوف بنذرك**» تعقيب للوصف بالحكم بالفاء، وذلك يدل على أن الوصف سبب الحكم، فيكون سبب الأمر بالوفاء خلوه عن هذين الوصفين. فلما قالوا: «لا» قال: «**أوف بنذرك**» وهذا يقتضي أن كون البقعة مكاناً لعيدهم، أو بها وثن من أوثانهم: مانع من الذبح بها ولو نذره. قاله

شيخ الإسلام.

وقوله: «**فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله**» دليل على أن هذا نذر معصية لو قد وجد في المكان بعض الموانع. وما كان من نذر المعصية فلا يجوز الوفاء به بإجماع العلماء.

واختلفوا: هل تجب فيه كفارة يمين؟ على قولين، هما روايتان عن أحمد.

أحدهما: تجب وهو المذهب. وروي عن ابن مسعود وابن عباس. وبه قال أبوحنيفة وأصحابه؛ لحديث عائشة رضي الله عنها مرفوعاً «**لا نذر في معصية، وكفارته كفارة يمين**» رواه أحمد وأهل السنن واحتج به أحمد وإسحاق.

والثاني: لاكفارة عليه. وروي ذلك عن مسروق والشعبي والشافعي؛ لحديث الباب. ولم يذكر فيه كفارة. وجوابه: أنه ذكر الكفارة في الحديث المتقدم. والمطلق يحمل على المقيد.

قوله: «**ولا فيما لا يملك ابن آدم**» قال في «شرح المصابيح»: يعني إذا أضاف النذر إلى معين لا يملكه بأن قال: إن شفى الله مريضي فلله عليَّ أن أعتق عبد فلان ونحو ذلك. فأما إذا التزم في الذمة شيئاً، بأن قال: إن شفي مريضي فلله عليَّ أن أعتق رقبة، وهو في تلك الحال لا يملكها ولا قيمتها، فإذا شفي مريضه ثبت ذلك في ذمته.

قوله: «**رواه أبوداود وإسناده على شرطهما**» أي: البخاري ومسلم.

وأبوداود: اسمه سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد الأزدي السجستاني صاحب الإمام أحمد، ومصنف السنن والمراسيل وغيرهما، ثقة إمام حافظ من كبار العلماء، مات سنة خمس وسبعين ومائتين. رحمه الله تعالى.

فيــه مســائل:

الأولــى: تفسير قوله: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾.

الثانيــة: أن المعصية قد تؤثر في الأرض. وكذلك الطاعة.

الثالثــة: رد المسألة المشكلة إلى المسألة البينة؛ ليزول الإشكال.

الرابعــة: استفصال المفتي إذا احتاج إلى ذلك.

الخامسة: أن تخصيص البقعة بالنذر لا بأس به إذا خلا من الموانع.

السادسة: المنع منه إذا كان فيه وثن من أوثان الجاهلية، ولو بعد زواله.

السابعــة: المنع منه إذا كان فيه عيد من أعيادهم ولو بعد زواله.

الثامــنة: أنه لا يجوز الوفاء بما نذر في تلك البقعة؛ لأنه نذر معصية.

التاسعة: الحذر من مشابهة المشركين في أعيادهم ولو لم يقصده.

العاشرة: لا نذر في معصية.

الحادية عشرة: لا نذر لابن آدم فيما لا يملك.

باب من الشرك النذر لغير الله

قوله: «باب: من الشرك النذر لغير الله تعالى»[١]

أي: لكونه عبادة يجب الوفاء به إذا نذره لله، فيكون النذر لغير الله تعالى شركاً في العبادة.

وقول الله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ۝٧﴾ [الإنسان: ٧]

وقوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ۝٧﴾، فالآية دلت على وجوب الوفاء بالنذر، ومدح من فعل ذلك طاعة لله، ووفاءً بما تقرب به

---

(١) الأول النذر المطلق مثل أن يقول لله عليَّ نذر ولم يسم شيئاً فيلزمه كفارة يمين.
الثاني: نذر اللجاج والغضب وهو تعليق نذره بشرط يقصد منه المنع.
الثالث: نذر مباح كلبس ثوبه، وركوب دابته.
الرابع: نذر المعصية.
الخامس: نذر التبرر مطلقاً. وأصل عقد النذر منهي عنه كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه نهى عن النذر وقال: إنه لا يأتي بخير وإنما يستخرج به من البخيل وإذا نذر فعليه الوفاء بما كان طاعة لله كالصلاة والصدقة والصيام والحج دون ما لم يكن طاعة لله تعالى.
والنذر في اللغة: الإيجاب ومنه قولهم: نذرت دم فلان، أي أوجبته، وشرعاً: إيجاب المكلف على نفسه ما ليس واجباً عليه شرعاً تعظيماً للمنذور له. فهم يتعبدون الله بما أوجبوه على أنفسهم بطريق النذر فأثنى الله عليهم بالإيفاء به، وهو سبحانه لا يثني إلاّ على فاعل عبادة وقال الله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ يعني وسيجازيكم عليه فدل على أنه عبادة فصرفه لغير الله شرك أكبر.

=

إليه.

وقوله: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ [البقرة: ٢٧٠].

وقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾.

قال ابن كثير: يخبر تعالى أنه عالم بجميع ما يعمله العاملون من الخيرات، من النفقات والمنذورات، وتضمن ذلك مجازاته على ذلك أوفر الجزاء للعاملين به ابتغاء وجهه اهـ.

= [النذر] كعليّ لله أو نذرت لله، ولا ينعقد بغير القول ولا بمحال، وفي الشرح لا يستحب النذر للنهي عنه وتوقف شيخ الإسلام في تحريمه. وحرمه طائفة من أهل الحديث لكن الوفاء به عبادة، والتزام الطاعة لله تعالى لا يخرج بذلك عن أربعة أقسام:

أحدها: التزام بيمين مجردة.

الثاني: التزام بنذر مجرد.

الثالث: التزام بيمين مؤكدة بنذر.

الرابع: التزام بنذر مؤكد بيمين.

فالأول: نحو [والله لأتصدقن].

والثاني: نحو [لله عليَّ أن أتصدق].

والثالث: نحو [والله إن شفا الله مريضي فعليّ صدقة كذا].

والرابع: نحو [إن يشفي الله مريضي فوالله لأتصدقن].

فما نذره لله في هذه الطاعات يجب الوفاء به.

وما أخرجه مخرج اليمين يخير بين الوفاء به، وبين التكفير لأن الأول متعلق بإلـٰهيته، والثاني بربوبيته من أعلام الموقعين (٢/ ١١٤).

=

إذا علمت ذلك: فهذه النذور الواقعة من عباد القبور، تقرباً بها إليهم، ليقضوا لهم حوائجهم وليشفعوا لهم، كل ذلك شرك في العبادة بلا ريب، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَـٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَـٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَـٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ [الأنعام: ١٣٦].

قال شيخ الإسلام رحمه الله: وأما ما نذر لغير الله، كالنذر للأصنام والشمس والقمر والقبور ونحو ذلك، فهو بمنزلة أن يحلف بغير الله من المخلوقات، والحالف بالمخلوقات لا وفاء عليه ولا كفارة، وكذلك الناذر للمخلوقات، فإن كلاهما شرك. والشرك ليس له حرمة، بل عليه أن يستغفر الله من هذا، ويقول ما قال النبي ﷺ: «**من حلف وقال: واللات والعزى، فليقل: لا إله إلا الله**».

وقال فيمن نذر للقبور أو نحوها دُهْناً لتُنَوّر به ويقول: إنما تقبل النذر كما يقوله بعض الضالين: وهذا النذر معصية باتفاق المسلمين، لا يجوز الوفاء به، وكذلك إذا نذر مالاً للسدنة أو المجاورين العاكفين بتلك البقعة، فإن فيهم شبهاً من السدنة التي كانت عند اللات والعزى ومناة، يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله. والمجاورون هناك فيهم شبه من الذين قال فيهم الخليل عليه السلام:

= والنذر منه ما هو مطلق، ومنه ما هو معلق، وهو نذر التبرر. فأما المطلق فهو ما كان بدون مطابقة ومثاله: (لله عليَّ أن أصوم أو أصلي أو زيارة أخ لله في الله تعالى مما لا يضره ولا عياله ولا غريمه وكان يقصد التقرب) والنذر للموتى من الأنبياء والمشايخ وغيرهم أو لقبورهم أو المقيمين عند قبورهم.. نذر شرك ومعصية لله تعالى سواء كان النذر نفقة أو ذهباً أو غير ذلك.

﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الأنبياء: ٥٢] والذين اجتاز بهم موسى عليه السلام وقومه، قال تعالى: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ﴾ [الأعراف: ١٣٨] فالنذر لأولئك السدنة والمجاورين في هذه البقاع نذر معصية. وفيه شبه من النذر لسدنة الصلبان والمجاورين عندها، أو لسدنة الأبداد في الهند والمجاورين عندها.

وقال الرافعي في «شرح المنهاج»: وأما النذر للمشاهد التي على قبر ولي أو شيخ، أو على اسم من حَلَّها من الأولياء، أو تردد في تلك البقعة من الأولياء والصالحين، فإن قصد الناذر بذلك ـ وهو الغالب أو الواقع من قصود العامة ـ تعظيم البقعة والمشهد، أو الزاوية، أو تعظيم من دفن بها، أو نسبت إليه، أو بنيت على اسمه، فهذا النذر باطل غير منعقد، فإن معتقدهم أن لهذه الأماكن خصوصيات، ويرون أنها مما يُدفع بها البلاء ويُستجلب بها النعماء، ويستشفى بالنذر لها من الأدواء، حتى إنهم ينذرون لبعض الأحجار لما قيل لهم: إنه استند إليها عبد صالح، وينذرون لبعض القبور السُرُجَ والشموع والزيت، ويقولون: القبر الفلاني، أو المكان الفلاني يقبل النذر، يعنون بذلك: أنه يحصل به الغرض المأمول من شفاء مريض، أو قدوم غائب أو سلامة مال، وغير ذلك من أنواع نذر المجازاة، فهذا النذر على هذا الوجه باطل لا شك فيه، بل نذر الزيت والشمع ونحوهما للقبور باطل مطلقاً.

ومن ذلك: نذر الشموع الكثيرة العظيمة وغيرها لقبر الخليل عليه السلام ولقبر غيره من الأنبياء والأولياء فإن الناذر لا يقصد بذلك الإيقاد على القبر إلا تبركاً وتعظيماً، ظاناً أن ذلك قربة، فهذا مما لا ريب في بطلانه، والإيقاد المذكور محرم، سواء انتفع به هناك منتفع أم لا.

قال الشيخ قاسم الحنفي في «شرح درر البحار»: النذر الذي ينذره أكثر العوام على ما هو مشاهد، كأن يكون للإنسان غائب أو مريض أو له حاجة، فيأتي إلى بعض الصلحاء ويجعل على رأسه سترة، ويقول: ياسيدي فلان، إن رد الله غائبي، أو عوفي مريضي أو قضيت حاجتي، فلك من الذهب كذا، أو من الفضة كذا، أو من الطعام كذا، أو من الماء كذا، أو من الشمع والزيت كذا.

فهذا النذر باطل بالإجماع لوجوه:

منها: أنه نذر لمخلوق، والنذر للمخلوق لا يجوز؛ لأنه عبادة، والعبادة لا تكون لمخلوق.

ومنها: أن المنذور له ميت والميت لا يملك.

ومنها: أنه ظن أن الميت يتصرف في الأمور دون الله. واعتقاد ذلك كفر.

إلى أن قال: إذا علمت هذا، فما يؤخذ من الدراهم والشمع والزيت وغيرهاوينقل إلى ضرائح الأولياء تقرباً إليها: فحرام بإجماع المسلمين.

نقله عن ابن نجيم في «البحر الرائق». ونقله المرشدي في «تذكرته» وغيرهما عنه، وزاد: قد ابتلي الناس بهذا لاسيما في مولد البدوي.

وقال الشيخ صنع الله الحلبي الحنفي في الرد على من أجاز الذبح والنذر للأولياء: فهذا الذبح والنذر إن كان على اسم فلان فهو لغير الله، فيكون باطلاً. وفي التنزيل: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١٢١]، ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٦٢ ـ ١٦٣] والنذر لغير الله إشراك مع الله، كالذبح لغيره.

وفي «الصحيح» عن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله

ﷺ قال: «من نذر أن يُطيع الله فليُطعه. ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه».

قوله: وفي «الصحيح» عن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال: «من نذر أن يُطيع الله فليُطعه. ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه».

قوله: «في الصحيح» أي: «صحيح البخاري».

قوله: «عن عائشة»: هي أم المؤمنين، زوج النبي ﷺ، وابنة الصديق رضي الله عنهما. تزوجها النبي ﷺ وهي ابنة سبع سنين، ودخل بها وهي ابنة تسع. وهي أفقه النساء مطلقاً، وهي أفضل أزواج النبي ﷺ إلا خديجة، ففيها خلاف. ماتت سنة سبع وخمسين على الصحيح، رضي الله عنها.

قوله: «من نذر أن يطيع الله فليطعه» أي: فليفعل ما نذره من طاعة الله، وقد أجمع العلماء على أن من نذر طاعة لشرط يرجوه، كإن شفى الله مريضي فعليّ أن أتصدق بكذا، ونحو ذلك وجب عليه، إن حصل له ما علّق نذره على حصوله. وحكي عن أبي حنيفة: أنه لا يلزم الوفاء إلا بما جنسه واجب بأصل الشرع، كالصوم، وأما ما ليس كذلك، كالاعتكاف فلا يجب عليه الوفاء به.

قوله: «ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه» زاد الطحاوي **«وليكفِّر عن يمينه»** وقد أجمع العلماء على أنه لا يجوز الوفاء بنذر المعصية.

قال الحافظ: اتفقوا على تحريم النذر في المعصية، وتنازعوا: هل ينعقد موجباً للكفارة، أم لا؟ وتقدم.

وقد يستدل بالحديث على صحة النذر في المباح، كما هو مذهب أحمد وغيره، يؤيده ما رواه أبوداود عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن

جده، وأحمد والترمذي عن بريدة «**أن امرأة قالت: يارسول الله، إني نذرت أن أضرب على رأسك بالدُّف، فقال: أوفي بنذرك**».

وأما نذر اللجاج والغضب فهو يمين عند أحمد، فيخير بين فعله وكفارة يمين، لحديث عمران بن حصين مرفوعاً: «**لا نذر في غضب، وكفارته كفارة يمين**». رواه سعيد بن منصور وأحمد والنسائي، فإن نذر مكروهاً كالطلاق استحب أن يكفِّر ولا يفعله.

فيـه مسـائل:

الأولـى: وجوب الوفاء بالنذر.

الثانيـة: إذا ثبت كونه عبادة لله، فصرفه إلى غيره شرك.

الثالثـة: أن نذر المعصية لا يجوز الوفاء به.

باب من الشرك الاستعاذة بغير الله

قوله: باب: من الشرك الاستعاذة بغير الله تعالى»[١].

«الاستعاذة»: الالتجاء والاعتصام، ولهذا يسمى المستعاذ به: معاذاً وملجأ، فالعائذ بالله قد هرب مما يؤذيه أو يهلكه، إلى ربه ومالكه، واعتصم واستجار به، والتجأ إليه، وهذا تمثيل، وإلا فما يقوم بالقلب من الالتجاء إلى الله، والاعتصام به، والانطراح بين يدي الرب، والافتقار إليه، والتذلل له، أمر لا تحيط به العبارة. قاله ابن القيم رحمه الله.

وقال ابن كثير: الاستعاذة: هي الالتجاء إلى الله، والالتصاق بجنابه من شر كل ذي شر. والعياذ يكون لدفع الشر، واللياذ لطلب الخير.

---

(١) المستعيذ ليس شخصاً معيناً بل كل مخلوق مفتقر إلى الاستعاذة بالله، المستعاذ به إنما هو الله تعالى أو كلماته التامة كما جاء في الحديث: «**أعوذ بكلمات الله التامات**» المستعاذ منه هو الشيطان، ومن شر كل ذي شر كما جاء في الحديث: «**ونعوذ بك اللهم من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا**».
الاستعاذة: هي الالتجاء والاعتصام والتحرز وحقيقتها الهرب من شيء تخافه إلى من يعصمك منه. والعياذ لدفع المكروه، واللياذ: لطلب المحبوب. قال الشاعر:

يا من ألوذ به فيما أؤمله ... ومن أعوذ به فيما أحاذره
لا يجبر الناس عظما أنت كاسره ... ولا يهيضون عظماً أنت جابره

وأما الاستعاذة بالمخلوق فهي جائزة بشروط:
الأول: أن تكون بحي.
ثانيا: حاضراً.

=

انتهى.

قلت: وهي من العبادات التي أمر الله تعالى بها عباده، كما قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾ [فصلت: ٣٦] وأمثال ذلك في القرآن كثير كقوله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾﴾ فما كان عبادة لله فصرْفه لغير الله شرك في العبادة، فمن صرف شيئاً من هذه العبادات لغير الله فقد جعله شريكاً لله في عبادته، ونازع الرب في إلٰهيته، كما أن من صلى لله وصلى لغيره يكون عابداً لغير الله، ولا فرق، كما سيأتي تقريره قريباً إن شاء الله تعالى.

وقول الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ

= ثالثا: قادراً. فلا يجوز الاستعاذة بالميت وكذلك بالغائب، ولا بالحي الحاضر الذي لا يقدر كمن يقول لحي حاضر: أعذني من الشيطان الرجيم، فإن هذا من الشرك؛ لأن لا قدرة له على إعاذته ولو كان حيّاً وحاضراً. فإن قيل: الجن قادرون فكيف لا يسأل منهم؟ فالجواب: الجن لا يجوز دعاؤهم كما لا يجوز دعاء الملائكة، وإن كان لهم قدرة فإن هذا من جنس الشرك بالملائكة. وأيضاً الجن لا يطيعون إلاَّ من أشرك بذبح لهم ونحوه، فليسوا مثل الحي الحاضر الذي تطلب منه ما يقدر عليه ويعطيك.

ومن الباطل ما يحتج به بعض المشركين بأن النبي ﷺ كلَّم موسى في مسألة عدد الصلوات في معراجه قالوا: فهذا يكلم ميتاً؟ والجواب: موسى مع محمد ﷺ كالحي مع الحي، كما أن محمداً مع جبريل كذلك فمن كان مع جبريل كمحمد أو محمد مع موسى كان له ذلك وهذا لا يدعيه إلاَّ مجنون أو ملحد زنديق لأن هذا من الممتنع قطعاً فليس لأحد مثل ذلك قطعاً والاستعاذة بالله من خصال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وكل مخلوق فهو مفتقر إلى الاستعاذة بربه جل وعلا. =

﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾ [الجن: ٦].

قوله: وقول الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ۝٦﴾.

قال ابن كثير: أي كنا نرى أن لنا فضلاً على الإنس، لأنهم كانوا يعوذون بنا: أي إذا نزلوا وادياً أو مكاناً موحشاً من البراري وغيرها، كما كانت عادة العرب في جاهليتها يعوذون بعظيم ذلك المكان من الجان أن يصيبهم بشيء يسوؤهم، كما كان أحدهم يدخل بلاد أعدائه في جوار رجل كبير وذمامه وخفارته، فلما رأت الجن أن الإنس يعوذون بهم من خوفهم منهم زادوهم رهقاً: أي خوفاً وإرهاباً وذعراً، حتى يبقوا أشد منهم مخافة وأكثر تعوذاً بهم ـ إلى أن قال ـ: قال أبوالعالية والربيع وزيد بن أسلم ﴿رَهَقًا﴾ أي خوفاً. وقال العوفي: عن ابن عباس ﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ أي: إثماً، وكذا قال قتادة. اهـ.

وذلك أن الرجل من العرب كان إذا أمسى بوادٍ قفرٍ وخاف على نفسه قال: أعوذ بسيد هذا الوادي من سفهاء قومه، يريد: كبير الجن.

= ولهذا قال الله عن نوح أنه قال: ﴿رَبِّ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ﴾ فأعطي السلام والبركات قال الله: ﴿يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ بِسَلَٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ عَلَيْكَ﴾ ويوسف قال الله تعالى عنه: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾ فصرف عنه السوء والفحشاء وقال الله عن موسى: ﴿إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ۝٢٧﴾ فأغرق الله تعالى عدوه وأورثهم أرضهم وديارهم وأموالهم وقال الله عن امرأة عمران: ﴿وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ۝٣٦ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ وقد أمر الله تعالى نبينا عليه الصلاة والسلام: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾ فوقي شر النفاثات في العقد وكفي شر الوسواس الخناس. . [من المدارج (١/ ٢٥٤)].

وقد أجمع العلماء على أنه لا يجوز الاستعاذة بغير الله.

وقال مُلاَّ علي قاري الحنفي: لا يجوز الاستعاذة بالجن، فقد ذم الله الكافرين على ذلك وذكر الآية وقال: قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ [الأنعام: ١٢٨] فاستمتاع الإنسي بالجني في قضاء حوائجه وامتثال أوامره وإخباره بشيء من المغيبات، واستمتاع الجني بالإنسي تعظيمه إياه، واستعاذته به وخضوعه له. انتهى ملخصاً.

قال المصنف: «وفيه: أن كون الشيء يحصل به منفعة دنيوية لا يدل على أنه ليس من الشرك».

وعن خولة بنت حكيم قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من نزل منزلاً، فقال: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق: لم يضره شيء حتى يرحل من منزله ذلك» رواه

= وكان من دعاء النبي ﷺ: «**اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك**» فاستعاذ ﷺ بصفة الرضا من صفة السخط، وبفعل المعافاة من فعل العقوبة، فالأول: للصفة. والثاني: لأثرها المترتب عليها ثم ربط ذلك كله بذاته سبحانه، وأن ذلك كل راجع إليه وحده، لا إلى غيره. فما أعوذ منه: واقع بمشيئتك وإرادتك وما أعوذ به: من رضاك ومعافاتك هو بمشيئتك وإرادتك ـ إلى قوله ـ: فلا أستعيذ بغيرك من غيرك، ولا أستعيذ إلاَّ بك من شيء هو صادر عن مشيئتك وخلقك، بل هو منك، ولا أستعيذ بغيرك من شيء هو صادر عن مشيئتك وقضائك، بل أنت الذي تعيذني بمشيئتك مما هو كائن بمشيئتك فأعوذ بك منك. اهـ.

مسلم.

قوله: **«وعن خولة بنت حكيم قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من نزل منزلاً، فقال: أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق: لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله ذلك. رواه مسلم»**.

هي خولة بنت حكيم بن أمية السلمية، يقال لها: أم شريك، ويقال: إنها هي الواهبة، وكانت قبلُ تحتَ عثمان بن مَظْعون.

قال ابن عبدالبر: وكانت صالحة فاضلة.

قوله: «**أعوذ بكلمات الله التامات**» شرع الله لأهل الإسلام أن يستعيذوا به بدلاً عما يفعله أهل الجاهلية من الاستعاذة بالجن، فشرع الله للمسلمين أن يستعيذوا بأسمائه وصفاته.

قال القرطبي: قيل: معناه: الكاملات التي لا يلحقها نقص ولا عيب، كما يلحق كلام البشر. وقيل: معناه: الشافية الكافية. وقيل: الكلمات هنا هي القرآن، فإن الله أخبر عنه بأنه ﴿هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت: ٤٤] وهذا الأمر على جهة الإرشاد إلى ما يدفع به الأذى.

ولما كان ذلك استعاذة بصفات الله تعالى كان من باب المندوب إليه المرغب فيه، وعلى هذا فحق المستعيذ بالله أو بأسمائه وصفاته: أن يصدق الله في التجائه إليه، ويتوكل في ذلك عليه، ويحضر ذلك في قلبه، فمتى فعل ذلك وصل إلى منتهى طلبه ومغفرة ذنبه.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: وقد نص الأئمة كأحمد وغيره على أنه لا يجوز الاستعاذة بمخلوق. وهذا مما استدلوا به على أن كلام الله غير مخلوق. قالوا: لأنه ثبت عن النبي ﷺ أنه استعاذ بكلمات الله وأمر بذلك، ولهذا نهى العلماء عن التعاويذ التي لا يعرف معناها، خشية أن

يكون فيها شرك.

وقال ابن القيم: ومن ذبح للشيطان ودعاه، واستعاذ به، وتقرب إليه بما يحب فقد عبده وإن لم يسم ذلك عبادة ويسميه استخداماً، وصدق، هو استخدام من الشيطان له، فيصير من خدم الشيطان وعابديه، وبذلك يخدمه الشيطان، لكن خدمة الشيطان له ليست خدمة عبادة، فإن الشيطان لا يخضع له ولا يعبده كما يفعل هو به. اهـ.

قوله: «**من شر ما خلق**» قال ابن القيم رحمه الله: أي من كل شر في أي مخلوق قام به الشر: من حيوان أو غيره، إنسياً كان أو جنياً، أو هامة أو دابة، أو ريحاً، أو صاعقة أي نوع كان من أنواع البلاء في الدنيا والآخرة.

و«ما» هاهنا موصولة، وليس المراد بها العموم الإطلاقي، بل المراد التقييدي الوصفي، والمعنى: من شر كل مخلوق فيه شر، لا من شر كل ما خلقه الله، فإن الجَنَّة والملائكة والأنبياء ليس فيهم شر، والشر يقال على شيئين: على الألم، وعلى ما يفضي إليه.

قوله: «**لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله ذلك**» قال القرطبي: هذا خبر صحيح وقول صادق، علمنا صدقه دليلاً وتجربة، فإني منذ سمعت هذا الخبر عملت عليه فلم يضرني شيء إلى أن تركته، فلدغتني عقرب بالمهدية ليلاً، فتفكرت في نفسي، فإذا بي قد نسيت أن أتعوذ بتلك الكلمات.

فيــه مســـائل:

الأولـــى: تفسير آية الجن.

الثانيـــة: كونه من الشرك.

الثالثـــة: الاستدلال على ذلك بالحديث؛ لأن العلماء يستدلون به على أن كلمات الله غير مخلوقة. قالوا: لأن الاستعاذة بالمخلوق شرك.

الرابعـــة: فضيلة هذا الدعاء مع اختصاره.

الخامسة: أن كون الشيء يحصل به منفعة دنيوية من كف شر أو جلب نفع، لا يدل على أنه ليس من الشرك.

باب من الشرك أن يستغيث بغير الله، أو يدعو غيره

قوله: «باب من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره»[1].

قال شيخ الإسلام رحمه الله: الاستغاثة: هي طلب الغَوْث، وهو إزالة الشدة، كالاستنصار: طلب النصر، والاستعانة: طلب العون.

وقال غيره: الفرق بين الاستغاثة والدعاء: أن الاستغاثة لا تكون إلاَّ من المكروب، والدعاء أعم من الاستغاثة؛ لأنه يكون من المكروب وغيره. فعطف الدعاء على الاستغاثة من عطف العام على الخاص، فبينهما عموم وخصوص مطلق، يجتمعان في مادة وينفرد الدعاء عنها

---

(١) اعلم ـ رحمك الله تعالى ـ أن الاستغاثة بغير الله تعالى شركٌ أكبر، فإنها ليست كالتوسل بالنبي ﷺ أو بغيره من الأنبياء والصالحين مع أنه باطل ومحرم فإن الاستغاثة من جنس الدعاء إلاَّ أن الدعاء أعم منها وكل استغاثة دعاء وليس كل دعاء استغاثة.

وأما التوسل فهو كقولهم الباطل: اللهم أسألك بجاه محمد أو أتوسل إليك بفلان الصالح فإن هذا مع بطلانه وعدم جوازه ليس كالاستغاثة، فإن الاستغاثة شرك أكبر وقد صنف رجل يقال له ابن البكري كتاباً في الاستغاثة بالنبي ﷺ وردَّ عليه شيخ الإسلام ابن تيمية في مجلد بيَّن فيه بطلان ما ذهب إليه وبيَّن أنه من الشرك.

قال الشيخ: وقد طاف ـ يعني ابن البكري ـ على علماء مصر فلم يوافقه أحد منهم. وطاف عليهم بجوابي الذي كتبته وطلب منهم معارضته فلم يعارضه أحد منهم مع أن عند بعضهم من التعصب ما لا يخفىٰ. قال شيخ الإسلام: والاستغاثة بالنبي ﷺ بعد موته موجودة في كلام بعض الناس مثل يحيى الصرصري ومحمد بن النعمان وهؤلاء لهم صلاح لكن ليسوا من أهل العلم بل جروا على عادة كعادة من يستغيث بشيخه عند الشدائد ويدعوه.

=

في مادة، فكل استغاثة دعاء، وليس كل دعاءٍ استغاثة.

وقوله: «**أو يدعو غيره**» اعلم أن الدعاء نوعان: دعاء عبادة، ودعاء مسألة، ويراد به في القرآن هذا تارة، وهذا تارة، ويراد به مجموعهما.

فدعاء المسألة: هو طلب ما ينفع الداعي من جلب نفع أو كشف ضر، ولهذا أنكر الله على من يدعو أحداً من دونه ممن لا يملك ضراً ولا نفعاً، كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾﴾ [المائدة: ٧٦]، وقوله: ﴿قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الأنعام: ٧١] وقال: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يونس: ١٠٦].

= والاستغاثة بشيئين: أحدهما: مستغيث، ومستغاث به. أما الوسيلة فلا تتم إلاَّ في وجود ثلاثة أشياء: الأول: المتوسل. الثاني: المتوسل به. الثالث: المتوسل إليه. فهذا الفرق بين الاستغاثة والتوسل، فالاستغاثة شرك أكبر إذا كانت بغير الله.

وقد ذكر الله تعالى في غير ما آية من كتابه العزيز أن المؤمنين في الشدائد والكروب ومناجزة الأعداء لا يستغيثون إلاَّ بالله. كما قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ وقال تعالى في تعليم المؤمنين وإرشادهم إلى الأخذ بالسببين: بالقوة المادية والقوة المعنوية الروحية وهي الرجوع في وقت الحاجة والشدة إلى الله تعالى وحده. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟﴾ ولم يقل فاذكروا الرسول أو اذكرو الله والرسول بل قال: «**واذكروا الله... وأطيعوا الله والرسول**» فالرسول له حق الطاعة في هذا المقام لا الإستغاثة ولا طلب العون والمدد فإن ذلك من الله وإليه وحده لا شريك=

قال شيخ الإسلام رحمه الله: فكل دعاء عبادة مستلزم لدعاء المسألة، وكل دعاء مسألة متضمن لدعاء العبادة، قال الله تعالى: ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [الأعراف: ٥٥] وقال تعالى: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ [الأنعام: ٤٠ ـ ٤١] وقال تعالى: ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ ﴾ [الجن: ١٨] وقال تعالى: ﴿ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿١٤﴾ ﴾ [الرعد: ١٤] وأمثال هذا في القرآن في دعاء المسألة أكثر من أن يحصر، وهو يتضمن دعاء العبادة، لأن السائل أخلص سؤاله لله، وذلك من أفضل العبادات، وكذلك الذاكر لله، والتالي لكتابه ونحوه، طالب من الله في المعنى، فيكون داعياً عابداً.

فتبين بهذا من قول شيخ الإسلام: أن دعاء العبادة مستلزم لدعاء المسألة، كما أن دعاء المسألة متضمن لدعاء العبادة، وقد قال تعالى عن خليله: ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ ﴾ [مريم: ٤٨ ـ ٤٩] فصار الدعاء من أنواع العبادة، فإن قوله: ﴿ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴾ كقول زكريا: ﴿ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ ﴾ [مريم: ٤].

= له.

وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ ﴾ أي الله حسبك =

وقد أمر الله تعالى به في مواضع من كتابه كقوله: ﴿ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَـٰحِهَا وَٱدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ۚ إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الأعراف: ٥٥ ـ ٥٦] وهذا هو دعاء المسألة المتضمن للعبادة، فإن الداعي يرغب إلى المدعو، ويخضع له ويتذلل.

وضابط هذا: أن كل أمر شرعه الله لعباده وأمرهم به، ففعله لله عبادة، فإذا صرف من تلك العبادة شيئاً لغير الله فهو مشرك مصادم لما بعث الله به رسوله من قوله: ﴿ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ ﴾ [الزمر: ١٤] وسيأتي لهذا مزيد بيان إن شاء الله تعالى.

= وحسب المؤمنين معك. وقال تعالى عن طالوت ومن معه من المؤمنين حينما زحفوا إلى جالوت ومن معه من الكافرين: ﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا۟ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُوا۟ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ وقال تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِىٍّ قَـٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ ﴾ إلى ﴿ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾، وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ ﴾.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ بعد كلام له: وأعرف من ذلك وقائع كثيرة في أقوام استغاثوا بي وبغيري في حال غيبتنا عنهم، فرأوني أو ذاك الآخر الذي استغاثوا به قد جئنا في الهواء ورفعنا عنهم ولماحدثوني بذلك بينت لهم أن ذلك إنما هو شيطان تصور بصورتي وصورة غيري من الشيوخ الذين استغاثوا بهم ليظنوا أن ذلك كرامات للشيخ فتقوىٰ عزائمهم في الاستغاثة بالشيوخ الغائبين والميتين وهذا من أكبر الأسباب التي بها أشرك المشركون وعبدة الأوثان. وكذلك المستغيثون من النصارىٰ بشيوخهم الذين يسمونهم العلّاس =

قال شيخ الإسلام رحمه الله في «الرسالة السنية»: فإذا كان على عهد النبي ﷺ ممن انتسب إلى الإسلام من مرق منه مع عبادته العظيمة، فليعلم أن المنتسب إلى الإسلام والسنة في هذه الأزمان قد يمرق أيضاً من الإسلام لأسباب، منها: الغلو في بعض المشايخ، بل الغلو في علي بن أبي طالب، بل الغلو في المسيح، فكل من غلا في نبي أو رجل صالح، وجعل فيه نوعاً من الإلٰهية مثل أن يقول: ياسيدي فلان انصرني، أو أغثني أو ارزقني، أو أنا في حسبك، ونحو هذه الأقوال. فكل هذا شرك وضلال يستتاب صاحبه، فإن تاب وإلا قتل، فإن الله سبحانه وتعالى إنما أرسل الرسل، وأنزل الكتب، ليُعبد وحده لا شريك له، ولا يُدعَى معه إله آخر. والذين يدعون مع الله آلهة أخرى، مثل المسيح والملائكة والأصنام، لم يكونوا يعتقدون أنها تخلق الخلائق أو تُنزل المطر أو تنبت النبات، وإنما كانوا يعبدونهم، أو يعبدون قبورهم، أو يعبدون صورهم، يقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] فبعث الله سبحانه رسله، تنهى عن أن يُدْعى أحد من دونه، لا دعاء عبادة ولا دعاء استغاثة. اهـ.

= يرون أيضاً من يأتي على صورة ذلك الشيخ النصراني الذي استغاثوا به فيقضي بعض حوائجهم.

ففي هذه الآيات ما يدل على أن المؤمنين أتباع النبيين في حالات الشدائد والكروب والمخاوف لا يذكرون سوى ربهم ولا يدعون أو يسألون إلاَّ إياه معرضين عن جميع المخلوقين الصالحين والنبيين وغيرهم من صنوف المخلوقين المربوبين ولم يذكر الله تعالى في كتابه عن أحد منهم أنه دعا مخلوقاً أو استغاث نبياً أو ولياً أو صالحاً حين الزحف إلى قتال أعداء الله أو حال نزول شدة أو كربة =

وقال أيضاً: من جعل بينه وبين الله وسائط يتوكل عليهم ويدعوهم ويسألهم، كفَر إجماعاً.

نقله عنه صاحب «الفروع» وصاحب «الإنصاف» وصاحب «الإقناع» وغيرهم. وذكره شيخ الإسلام، ونقلته عنه في الرد على ابن جِرْجيس في مسألة الوسائط.

وقال ابن القيم رحمه الله: ومن أنواعه ـ يعني الشرك ـ طلبُ الحوائج من الموتى، والاستغاثة بهم والتوجه إليهم. وهذا أصل شرك العالم، فإن الميت قد انقطع عمله، وهو لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، فضلاً

= فما ذكر عنهم سوىٰ الانقطاع إلى الله والرغبة فيه، وفي نصره، وفي تأييده وحده فإن قيل إذا كان الحلف بغير الله والطيرة قد يقال إنهما من الشرك الأصغر فلماذا ما تجعلون الاستغاثة بغير الله من ذلك. فالجواب: ليس يخفىٰ ما بينهما من الفرق. فأي مشابهة بين من وحد الله وعبده ولم يشرك معه أحداً من خلقه وأنزل حاجاته كلها بالله واستغاث به في تفريج كرباته وإغاثة لهفاته، لكنه حلف بغير الله يميناً مجردة لم يقصد بها تعظيمه على ربه ولم يسأله ولم يستغث به، وبين من استغاث بغير الله وسأله جلب الفوائد وكشف الشدائد فإن هذا أصل مخ العبادة الذي هو لبها وخالصها لغير الله وأشرك مع الله غيره في أجل العبادات وأفضل القربات التي أمر الله به في غير موضع من كتابه وأخبر النبي ﷺ أنه هو العبادة، بل سماه الله في كتابه الدين وأمر بإخلاصه له وسماه رسوله ﷺ العبادة ومخ العبادة فكيف يقال هو كالحلف. فإن الحلف لم يأمرنا الله به بل أمرنا بحفظه فقال: ﴿**واحفظوا أيمانكم**﴾ قيل المعنىٰ لا تحلفوا ـ وقيل ـ لا تحنثوا ولا يرد على هذا ما روي عن النبي ﷺ أنه حلف في مواضع فإن اليمين تستحب إذا كان فيها مصلحة راجحة. وأما لغير مصلحة فإنه ليس مشروع بل يباح إذا كان صادقاً.

وأما الدعاء فقد قال ﷺ: «**إن الله يحب الملحين في الدعاء**» وقال: «**من لم يسأل الله يغضب عليه**» وفي الترمذي مرفوعاً: «**ليس شيء على الله أكرم من الدعاء**».

عمن استغاث به أو سأله أن يشفع له إلى الله، وهذا من جهله بالشافع والمشفوع عنده. وسيأتي تتمة كلامه في باب الشفاعة إن شاء الله تعالى.

وقال الحافظ محمد بن عبدالهادي رحمه الله في رده على السبكي في قوله: «إن المبالغة في تعظيمه ـ أي: الرسول ﷺ ـ واجبة»:

إن أريد به المبالغة بحسب ما يراه كل أحد تعظيماً، حتى الحج إلى قبره، والسجود له والطواف به، واعتقاد أنه يعلم الغيب، وأنه يعطي ويمنع، ويملك لمن استغاث به من دون الله الضر والنفع، وأنه يقضي حوائج السائلين ويفرج كربات المكروبين، وأنه يشفع فيمن يشاء، ويدخل الجنة من يشاء ـ: فدعوى المبالغة في هذا التعظيم مبالغة في الشرك، وانسلاخ من جملة الدين.

وفي «الفتاوى البَزازية» من كتب الحنفية: قال علماؤنا: من قال: أرواح المشايخ حاضرة تعلم: يكفر.

وقال الشيخ صنع الله الحنفي رحمه الله ـ في كتابه في الرد على من ادعى أن للأولياء تصرفات في الحياة وبعد الممات على سبيل الكرامة: هذا وإنه قد ظهر الآن فيما بين المسلمين جماعات يدَّعون أن للأولياء تصرفات بحياتهم وبعد مماتهم، ويستغاث بهم في الشدائد والبليات وبهممهم تكشف المهمات، فيأتون قبورهم وينادونهم في قضاء الحاجات، مستدلين أن ذلك منهم كرامات، وقالوا: منهم أبدال ونقباء، وأوتاد ونجباء، وسبعون وسبعة، وأربعون وأربعة، والقطب: هو الغوث للناس، وعليه المدار بلا التباس، وجوزوا لهم الذبائح والنذور، وأثبتوا لهم فيهما الأجور، قال: وهذا كلام فيه تفريط وإفراط، بل فيه الهلاك الأبدي والعذاب السرمدي، لما فيه من روائح

الشرك المحقق. ومصادمة الكتاب العزيز المصدق، ومخالفة لعقائد الأئمة، وما اجتمعت عليه الأمة. وفي التنزيل ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء: ١١٥].

ثم قال: فأما قولهم: إن للأولياء تصرفات في حياتهم وبعد الممات، فيردُّه قوله تعالى: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾ [النمل: ٦١ ـ ٦٢] ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٨٩] ونحوها من الآيات الدالة على أنه المتفرد بالخلق والتدبير، والتصرف والتقدير، ولا شيء لغيره في شيء مّا بوجه من الوجوه فالكل تحت ملكه وقهره تصرفاً وملكاً، وإحياءً وإماتةً وخلقاً.

وتمدح الرب تبارك وتعالى بانفراده بملكه في آيات من كتابه كقوله: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ اللَّهِ﴾ [فاطر: ٣]، ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ [فاطر: ١٣ ـ ١٤] وذكر آيات في هذا المعنى.

ثم قال: فقوله في الآيات كلها ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ أي من غيره، فإنه عام يدخل فيه من اعتقدته، من وَليّ وشيطان تستمده، فإن من لم يقدر على نصر نفسه كيف يُمدُّ غيره؟

إلى أن قال: إن هذا لقولٌ وخيم، وشرك عظيم، إلى أن قال: وأما القول بالتصرف بعد الممات فهو أشنع وأبدع من القول بالتصرف في الحياة. قال جل ذكره: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الزمر: ٣٠]، ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [الزمر: ٤٢]، ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾

[آل عمران: ١٨٥]، ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾ [المدثر: ٣٨] وفي الحديث: «**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث**» الحديث.

فجميع ذلك وما هو نحوه دالٌّ على انقطاع الحس والحركة من الميت، وأن أرواحهم ممسكة، وأن أعماله منقطعة عن زيادة ونقصان. فدل ذلك على أنه ليس للميت تصرف في ذاته فضلاً عن غيره. فإذا عجز عن حركة نفسه، فكيف يتصرف في غيره؟ فالله سبحانه يخبر أن الأرواح عنده، وهؤلاء الملحدون يقولون: إن الأرواح مطلقة متصرفة ﴿قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٤٠].

قال: وأما اعتقادهم أن هذه التصرفات لهم من الكرامات، فهو من المغالطة، لأن الكرامة شيء من عند الله يكرم به أولياءه، لا قصد لهم فيه ولا تحدِّي، ولا قدرة ولا علم، كما في قصة مريم بنت عمران[(١)]، وأُسيد بن حضير[(٢)]، وأبي مسلم الخولاني[(٣)].

---

(١) كما في قوله: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾.

(٢) كان يقرأ سورة الكهف فنزل من السماء مثل الظّلة فيها أمثال السرج وهي الملائكة نزلت لقراءته وعباد بن بشر وأسيد بن حضير خرجا من عند رسول الله ﷺ في ليلة مظلمة فأضاء لهما نور مثل طرف السوط فلما افترقا افترق الضوء معهما. رواه البخاري وغيره.

(٣) فقد طلب منه الأسود العنسي لما ادعىٰ النبوة فقال له: أتشهد أني رسول الله قال: ما أسمع. قال: أتشهد أن محمداً رسول الله؟ قال: نعم. فأمر بنار فألقي فيها فوجدوه قائماً يصلي فيها وقد صارت عليه برداً وسلاماً، ومشى هو ومن معه من العسكر على دجلة وهي ترمي بالخشب من مدّها ووضعت له جاريته السم في طعامه فلم يضره.

قال: وأما قولهم: فيستغاث بهم في الشدائد، فهذا أقبح مما قبله وأبدع لمصادمته قوله جل ذكره: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ [النمل: ٦٢]، ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأنعام: ٦٣ ـ ٦٤] وذكر آيات في هذا المعنى.

ثم قال: فإنه جل ذِكره قرَّر أنه الكاشف للضر لا غيره، وأنه المتفرد بإجابة المضطرين، وأنه المستغاث لذلك كله، وأنه القادر على دفع الضر، القادر على إيصال الخير، فهو المتفرد بذلك. فإذا تعين هو جل ذكره خرج غيره من ملك ونبي وولي.

قال: والاستغاثة تجوز في الأسباب الظاهرة العادية من الأمور الحسية في قتال، أو إدراك عدو أو سبع أو نحوه، كقولهم: يالزيد، ياللمسلمين، بحسب الأفعال الظاهرة، وأما الاستغاثة بالقوة والتأثير أو في الأمور المعنوية من الشدائد، كالمرض وخوف الغرق والضيق والفقر وطلب الرزق ونحوه: فمن خصائص الله، لا يطلب فيها غيره.

قال: وأما كونهم معتقدين التأثير منهم في قضاء حاجاتهم كما تفعله جاهلية العرب والصوفية الجهال، وينادونهم ويستنجدون بهم. فهذا من المنكرات، فمن اعتقد أن لغير الله من نبي أو ولي أو روح أو غير ذلك في كشف كربة أو قضاء حاجة تأثيراً. فقد وقع في وادي جهل خطير، فهو على شفا حفرة من السعير. وأما كونهم مستدلين على أن ذلك منهم كرامات، فحاش لله أن يكون أولياء الله بهذه المثابة؛ فهذا ظن أهل الأوثان، كذا أخبر الرحمن: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣]، ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ

ٱلرَّحۡمَٰنُ بِضُرّٖ لَّا تُغۡنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـٔٗا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾﴾ [يس: ٢٣] فإن ذكر ما ليس من شأنه النفع ولا دفع الضر من نبي وولي وغيره على وجه الإمداد منه: إشراك مع الله؛ إذ لا قادر على الدفع غيره، ولا خير إلا خيره.

قال: وأما ما قالوا: إن منهم أبدالاً ونقباء، وأوتاداً ونجباء، وسبعين وسبعة، وأربعين وأربعة، والقطب؛ هو الغوث للناس: فهذا من موضوعات إفكهم. كما ذكره القاضي المحدِّث في «سراج المريدين»، وابن الجوزي، وابن تيمية. انتهى باختصار.

والمقصود: أن أهل العلم مازالوا ينكرون هذه الأمور الشركية التي عمت بها البلوى، واعتقدها أهل الأهواء، فلو تتبعنا كلام العلماء المنكرين لهذه الأمور الشركية لطال الكتاب. والبصير النبيل يدرك الحق من أول دليل، ومن قال قولاً بلا برهان فقوله ظاهر البطلان؛ مخالف ما عليه أهل الحق والإيمان، المتمسكون بمحكم القرآن، المستجيبون لداعي الحق والإيمان. والله المستعان، وعليه التكلان.

وقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ فَإِن فَعَلۡتَ فَإِنَّكَ إِذٗا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦۚ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾ [يونس: ١٠٦ ـ ١٠٧].

قال: «وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ فَإِن فَعَلۡتَ فَإِنَّكَ إِذٗا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾».

قال ابن عطية: معناه: قيل لي: ﴿وَلَا تَدۡعُ﴾ فهو عطف على ﴿أَقِمۡ﴾

وهذا الأمر والمخاطبة للنبي ﷺ، إذا كانت هكذا، فأحرى أن يحذر من ذلك غيره. والخطاب خرج مخرج الخصوص. وهو عام للأمة.

قال أبوجعفر بن جرير في هذه الآية: يقول تعالى ذكره: ولا تدع يامحمد من دون معبودك وخالقك شيئاً لا ينفعك في الدنيا ولا في الآخرة، ولا يضرك في دين ولا دنيا، يعني بذلك: الآلهة والأصنام، يقول: لا تعبدها راجياً نفعها أو خائفاً ضرها؛ فإنها لا تنفع ولا تضر. فإن فعلت ذلك فدعوتها من دون الله ﴿فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ يقول: من المشركين بالله الظالم لنفسه.

قلت: وهذه الآية لها نظائر كقوله: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾﴾ [الشعراء: ٢١٣] وقوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [القصص: ٨٨].

ففي هذه الآيات بيان أن كل مدعو يكون إلـٰهاً، والإلٰهية حق لله لا يصلح منها شيء لغيره. ولهذا قال: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾﴾ [الحج: ٦٢] وهذا هو التوحيد الذي بعث الله به رسله، وأنزل به كتبه، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة: ٥] والدِّين: كل ما يُدان الله به من العبادات الظاهرة والباطنة. وفسره ابن جرير في «تفسيره» بالدعاء، وهو فرد من أفراد العبادة، على عادة السلف في التفسير: يفسرون الآية ببعض أفراد معناها، فمن صرف منها شيئاً لقبر أو صنم أو وثن أو غير ذلك، فقد اتخذه معبوداً وجعله شريكاً لله في الإلهية التي لا يستحقها إلا هو، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [المؤمنون: ١١٧] فتبين بهذه الآية ونحوها أن

دعوة غير الله كفر وشرك وضلال.

وقوله: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ فإنه المتفرد بالملك والقهر، والعطاء والمنع، والضر والنفع، دون كل ما سواه. فيلزم من ذلك أن يكون هو المدعو وحده، المعبود وحده؛ فإن العبادة لا تصلح إلا لمالك الضر والنفع. ولا يملك ذلك ولا شيئاً منه غيره تعالى؛ فهو المستحق للعبادة وحده، دون من لا يضر ولا ينفع.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الزمر: ٣٨] وقال: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾ [فاطر: ٢] فهذا ما أخبر به الله تعالى في كتابه من تفرده بالإلهية والربوبية، ونصب الأدلة على ذلك.

فاعتقد عُبَّاد القبور والمشاهد نقيض ما أخبر به الله تعالى، واتخذوهم شركاء لله في استجلاب المنافع ودفع المكاره، بسؤالهم والالتجاء إليه بالرغبة والرهبة والتضرع، وغير ذلك من العبادات التي لا يستحقها إلا الله تعالى، واتخذوهم شركاء لله في ربوبيته وإلٰهيته. وهذا فوق شرك كفار العرب القائلين ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾، ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ فإن أولئك يدعونهم ليشفعوا لهم ويقربوهم إلى الله، وكانوا يقولون في تلبيتهم: «لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك».

وأما هؤلاء المشركون فاعتقدوا في أهل القبور والمشاهد ما هو أعظم من ذلك، فجعلوا لهم نصيباً من التصرف والتدبير، وجعلوهم

معاذاً لهم وملاذاً في الرغبات والرهبات ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

وقوله: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٧﴾﴾ أي: لمن تاب إليه.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ [العنكبوت: ١٧].

قال: «وقوله تعالى: ﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾» يأمر تعالى عباده بابتغاء الرزق عنده وحده دون ما سواه ممن لا يملك لهم رزقاً من السموات والأرض شيئاً. فتقديم الظرف يفيد الاختصاص.

وقوله: ﴿وَٱعْبُدُوهُ﴾ من عطف العام على الخاص، فإن ابتغاء الرزق عنده من العبادة التي أمر الله بها.

قال العماد ابن كثير ـ رحمه الله تعالى ـ: ﴿فَٱبْتَغُوا۟﴾ أي فاطلبوا ﴿عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾ أي لا عند غيره، لأنه المالك له، وغيره لا يملك شيئاً من ذلك ﴿وَٱعْبُدُوهُ﴾ أي اخلصوا له العبادة وحده لا شريك له، ﴿وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ﴾ أي على ما أنعم عليكم ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ أي يوم القيامة، فيجازي كل عامل بعمله.

وقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف: ٥ ـ ٦].

قال: «وقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾.

نفى سبحانه أن يكون أحد أضل ممن يدعو غيره. وأخبر أنه لا يستجيب له ما طلب منه إلى يوم القيامة.

والآية تعم كل من يدعىٰ من دون الله، كما قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ۝٥٦ ﴾ [الإسراء: ٥٦] وفي هذه الآية أخبر أنه لا يستجيب وأنه غافل عن داعيه ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ۝٦ ﴾ [الأحقاف: ٦] فتناولت الآية كل داعٍ وكل مدعوٍّ من دون الله.

قال أبوجعفر بن جرير في قوله: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً﴾ يقول تعالى ذِكره: وإذا جمع الناس ليوم القيامة في موقف الحساب كانت هذه الآلهة التي يدعونها في الدنيا لهم أعداءً، لأنهم يتبرؤون منهم ﴿وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ۝٦﴾ يقول تعالى ذكره: وكانت آلهتهم التي يعبدونها في الدنيا بعبادتهم جاحدين، لأنهم يقولون يوم القيامة: ما أمرنا بعبادتنا ولا شعرنا بعبادتهم إيانا، تبرأنا إليك منهم ياربنا، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ۝١٧ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ۝١٨ ﴾ [الفرقان: ١٧ ـ ١٨].

قال ابن جرير: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ من الملائكة والإنس والجن، وساق بسنده عن مجاهد قال: عيسى وعزير والملائكة.

ثم قال: يقول تعالى ذكره: قالت الملائكة الذين كان هؤلاء المشركون يعبدونهم من دون الله وعيسى: تنزيهاً لك ياربنا وتبرئة مما أضاف إليك هؤلاء المشركون ﴿ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ﴾

نواليهم ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ انتهى.

قلت: وأكثر ما يستعمل الدعاء في الكتاب والسنة واللغة ولسان الصحابة ومن بعدهم من العلماء: في السؤال والطلب، كما قال العلماء من أهل اللغة وغيرهم: الصلاة لغة: الدعاء، وقد قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾﴾ [فاطر: ١٣] وقال: ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأنعام: ٦٣] وقال: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا﴾ [يونس: ١٢] وقال: ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾﴾ [فصلت: ٥١] وقال: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾ [فصلت: ٤٩] وقال: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال: ٩].

وفي حديث أنس مرفوعاً «**الدعاء مُخُّ العبادة**».

وفي الحديث الصحيح «**ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة**».

وفي آخر «**من لم يسأل الله يغضب عليه**».

وحديث «**ليس شيء أكرم على الله من الدعاء**» رواه أحمد والترمذي وابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححه.

وقوله: «**الدعاء سلاح المؤمن وعماد الدين ونور السموات والأرض**» رواه الحاكم وصححه.

وقوله: «**سلوا الله كل شيء حتى الشِّسْع إذا انقطع...**» الحديث.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «أفضل العبادة الدعاء، وقرأ ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]. رواه ابن المنذر والحاكم وصححه.

وحديث «**اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت المنان...**» الحديث.

وحديث «**اللهم إني أسألك بأنك أنت الله لا إله إلا أنت، الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد**».

وأمثال هذا في الكتاب والسنة أكثر من أن يحصر، في الدعاء الذي هو السؤال والطلب، فمن جحد كون السؤال والطلب عبادة فقد صادم النصوص وخالف اللغة واستعمال الأمة سلفاً وخلفاً.

وأما ما تقدم من كلام شيخ الإسلام، وتبعه العلامة ابن القيم رحمهما الله تعالى من أن الدعاء نوعان: دعاء مسألة، ودعاء عبادة. وما ذكر بينهما من التلازم وتضمن أحدهما للآخر، فذلك باعتبار كون الذاكر والتالي والمصلي والمتقرب بالنسك وغيره طالباً في المعنى. فيدخل في مسمى الدعاء بهذا الاعتبار. وقد شرع الله تعالى في الصلاة الشرعية من دعاء المسألة ما لا تصح الصلاة إلا به، كما في الفاتحة وبين السجدتين وفي التشهد، وذلك عبادة كالركوع والسجود. فتدبر هذا المقام يتبين لك جهل الجاهلين بالتوحيد.

ومما يبين هذا المقام ويزيده إيضاحاً: قول العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠]: وهذا الدعاء المشهور أنه دعاء المسألة. قالوا: كان النبي ﷺ يدعو ربه ويقول مرة «**يا الله**» ومرة «**يا رحمٰن**» فظن المشركون أنه يدعو إلٰهين، فأنزل الله هذه الآية. ذكر هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وقيل: إن الدعاء هنا بمعنى التسمية، والمعنى: أيّ اسم سمَّيتموه به من أسماء الله تعالى: إما «**الله**» وإما «**الرحمن**» فله الأسماء الحسنى. وهذا من لوازم المعنى في الآية. وليس هو عين المراد. بل المراد بالدعاء معناه المعهود المطرد في القرآن. وهو دعاء السؤال، ودعاء

الثناء.

ثم قال: إذا عرف هذا فقوله: ﴿ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً﴾ [الأعراف: ٥٥] يتناول نوعي الدعاء، لكنه ظاهر في دعاء المسألة، متضمن لدعاء العبادة، ولهذا أمر بإخفائه. قال الحسن: «بين دعاء السر ودعاء العلانية سبعون ضعفاً» ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء، ولم يسمع لهم صوت، إن كان إلا همساً بينهم وبين ربهم.

وقوله: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ﴾ [البقرة: ١٨٦] يتناول نوعي الدعاء، وبكل منهما فسرت الآية. قيل: أعطيه إذا سألني، وقيل: أثيبه إذا عبدني. وليس هذا من استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه، بل هذا استعماله في حقيقته الواحدة المتضمنة للأمرين جميعاً. وهذا يأتي في مسألة الصلاة، وأنها نقلت عن مسماها في اللغة، وصارت حقيقة شرعية واستعملت في هذه العبادة مجازاً للعلاقة بينها وبين المسمى اللغوي، وهي باقية على الوضع اللغوي، وضم إليها أركان وشرائط.

فعلى ما قررناه: لا حاجة إلى شيء من ذلك، فإن المصلي من أول صلاته إلى آخرها لا ينفك عن دعاء: إما دعاء عبادة وثناء، أو دعاء طلب ومسألة، وهو في الحالين داع. ا.هـ ملخصاً من «البدائع».

وقوله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ﴾ [النمل: ٦٢].

قال: **وقوله:** ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ بيّن تعالى أن المشركين من العرب ونحوهم قد علموا أنه لا يجيب المضطر ويكشف

السوء إلا الله وحده. فذكر ذلك سبحانه محتجاً عليهم في اتخاذهم الشفعاء من دونه، ولهذا قال: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ يعني يفعل ذلك. فإذا كانت آلهتهم لا تجيبهم في حال الاضطرار، فلا يصلح أن يجعلوها شركاء لله الذي يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء وحده. وهذا أصح ما فسرت به الآية كسابقتها من قوله: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [النمل: ٦٠ ـ ٦١] ولاحقتها إلى قوله: ﴿أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [النمل: ٦٣ ـ ٦٤].

فتأمل هذه الآيات يتبين لك أن الله تعالى احتج على المشركين بما أقروا به على ما جحدوه: من قَصْر العبادة جميعها عليه، كما في فاتحة الكتاب ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ [الفاتحة: ٥].

قال أبوجعفر بن جرير: قوله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ يقول تعالى ذكره: أم ما تشركون بالله خير، أم الذي يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء النازل به عنه؟

وقوله: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ يقول: يستخلف بعد أمواتكم في الأرض منكم خلفاء أحياء يخلفونهم.

وقوله: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ أإله سواه يفعل هذه الأشياء بكم وينعم عليكم

هذه النعم؟

وقوله : ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾﴾ يقول تذكراً قليلاً من عظمة الله وأياديه عندكم تذكرون وتعتبرون حجج الله عليكم يسيراً فلذلك أشركتم بالله غيره في عبادته. اهـ.

وروى الطبراني بإسناده: أنه كان في زمن النبي ﷺ منافق يؤذي المؤمنين، فقال بعضهم: قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق، فقال النبي ﷺ: «إنه لا يُستغاث بي، وإنما يُستغاث بالله».

قوله: وروى الطبراني بإسناده: أنه كان في زمن النبي ﷺ منافق يؤذي المؤمنين، فقال بعضهم: قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق، فقال النبي ﷺ: «إنه لا يُستغاث بي، وإنما يُستغاث بالله».

«الطبراني»: هو الإمام الحافظ سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الطبراني، صاحب المعاجم الثلاثة وغيرها. روى عن النسائي وإسحاق ابن إبراهيم الدبري وخلق كثير. مات سنة ستين وثلاثمائة. روى هذا الحديث عن عُبادة بن الصامت رضي الله عنه.

قوله: «**أنه كان في زمان النبي ﷺ منافق يؤذي المؤمنين**» لم أقف على اسم هذا المنافق.

قلت: هو عبدالله بن أُبيّ كما صرح به ابن أبي حاتم في روايته.

قوله: «**فقال بعضهم**» أي الصحابة رضي الله عنهم، هو أبوبكر رضي الله عنه.

قوله: «**قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق**» لأنه ﷺ يقدر

على كف أذاه.

قوله: «إنه لا يستغاث بي، وإنما يستغاث بالله» فيه: النص على أنه لا يستغاث بالنبي ﷺ ولا بمن دونه. كره ﷺ أن يستعمل هذا اللفظ في حقه، وإن كان مما يقدر عليه في حياته؛ حماية لجناب التوحيد، وسداً لذرائع الشرك، وأدباً وتواضعاً لربه، وتحذيراً للأمة من وسائل الشرك في الأقوال والأفعال. فإذا كان هذا فيما يقدر عليه النبي ﷺ في حياته، فكيف يجوز أن يستغاث به بعد وفاته، ويطلب منه أموراً لا يقدر عليها إلا الله عز وجل؟ كما جرى على ألسنة كثير من الشعراء كالبوصيري والبرعي وغيرهم، من الاستغاثة بمن لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً، ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً، ويعرضون عن الاستغاثة بالرب العظيم القادر على كل شيء، الذي له الخلق والأمر وحده، وله الملك وحده، لا إله غيره، ولا رب سواه. قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ١٨٨] في مواضع من القرآن ﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾﴾ [الجن: ٢١] فأعرض هؤلاء عن القرآن، واعتقدوا نقيض ما دلت عليه هذه الآيات المحكمات وتبعهم على ذلك الضلال الخلق الكثير والجم الغفير. فاعتقدوا الشرك بالله ديناً، والهدى ضلالاً، فإنا لله وإنا إليه راجعون، فما أعظمها من مصيبة عمت بها البلوى، فعاندوا أهل التوحيد، وبدَّعوا أهل التجريد؛ فالله المستعان.

فيــه مســائل:

الأولى: أن عطف الدعاء على الاستغاثة من عطف العام على الخاص.

الثانية: تفسير قوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾.

الثالثة: أن هذا هو الشرك الأكبر.

الرابعة: أن أصلح الناس لو يفعله إرضاءً لغيره صار من الظالمين.

الخامسة: تفسير الآية التي بعدها.

السادسة: كون ذلك لا ينفع في الدنيا، مع كونه كفراً.

السابعة: تفسير الآية الثالثة.

الثامنة: أن طلب الرزق لا ينبغي إلا من الله، كما أن الجنة لا تُطلب إلا منه.

التاسعة: تفسير الآية الرابعة.

العاشرة: أنه لا أضل ممن دعا غير الله.

الحادية عشرة: أنه غافل عن دعاء الداعي، لا يدري عنه.

الثانية عشرة: أن تلك الدعوة سبب لبغض المدعو للداعي وعداوته له.

الثالثة عشرة: تسمية تلك الدعوة عبادة للمدعو.

الرابعة عشرة: كفر المدعو بتلك العبادة.

الخامسة عشرة: هي سبب كونه أضل الناس.

السادسة عشرة: تفسير الآية الخامسة.

السابعة عشرة: الأمر العجيب، وهو إقرار عبدة الأوثان: أنه لا يجيب المضطر إلا الله، ولأجل هذا يدعونه في الشدائد مخلصين له الدين.

الثامنة عشرة: حماية المصطفى ﷺ حمى التوحيد، والتأدب مع الله.

باب قول الله تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝١٩١ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ۝١٩٢﴾ [الأعراف: ١٩١-١٩٢]

قوله: باب قول الله تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ۝١٩١ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ۝١٩٢﴾[1].

قوله: ﴿أَيُشْرِكُونَ﴾ أي في العبادة.

قال المفسرون: في هذه الآية توبيخ وتعنيف للمشركين في عبادتهم مع الله تعالى ما لا يخلق شيئاً وهو مخلوق، والمخلوق لا يكون شريكاً للخالق في العبادة التي خلقهم لها، وبين أنهم لا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون، فكيف يشركون به من لا يستطيع نصر عابديه ولا نصر نفسه؟

وهذا برهان ظاهر على بطلان ما كانوا يعبدونه من دون الله، وهذا وصف كل مخلوق، حتى الملائكة والأنبياء والصالحين، وأشرف الخلق محمد ﷺ قد كان يستنصر ربه على المشركين ويقول: «**اللهم أنت عضدي ونصيري، بك أحول، وبك أصول، وبك أقاتل**» وهذا كقوله: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا

---

(١) قال الله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ﴾ مثل الله تعالى لكم مثلاً من أنفسكم هل لكم أيها الناس من عبيدكم ومماليككم من شركاء في ما رزقناكم من المال فأنتم وهم فيه سواء: ﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي تخافون أن يقاسموكم ذلك المال كخوف بعضكم بعضاً أن يقاسمه شريكه المال فإذا لم ترضوا ذلك لأنفسكم فكيف رضيتم أن تكون آلهتكم التي تعبدونها شركاً إليَّ في ملكي وأنتم وهم عبيدي ومماليكي.

وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾﴾ [الفرقان: ٣] وقوله: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ ۚ إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ [الأعراف: ١٨٨] وقوله: ﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ﴾ [الجن: ٢١ ـ ٢٣].

فكفى بهذه الآيات برهاناً على بطلان دعوة غير الله كائناً من كان. فإن كان نبياً أو صالحاً فقد شرفه الله تعالى بإخلاص العبادة له، والرضى به رباً ومعبوداً، فكيف يجوز أن يجعل العابد معبوداً مع توجيه الخطاب إليه بالنهي عن هذا الشرك؟ قال تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾﴾ [القصص: ٨٨] وقال: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [يوسف: ٤٠] فقد أمر عباده من الأنبياء والصالحين وغيرهم بإخلاص العبادة له وحده، ونهاهم أن يعبدوا معه غيره، وهذا هو دينه الذي بعث به رسله، وأنزل به كتبه، ورضيه لعباده، وهو دين الإسلام، كما روى البخاري عن أبي هريرة في سؤال جبريل عليه السلام، قال: يارسول الله، ما الإسلام؟ قال: «**الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان. . .**» الحديث.

وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ [فاطر: ١٣ ـ ١٤].

وقول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن

تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ يخبر تعالى عن حال المدعوين من دونه من الملائكة والأنبياء والأصنام وغيرها بما يدل على عجزهم وضعفهم، وأنهم قد انتفت عنهم الأسباب التي تكون في المدعو، وهي الملك، وسماع الدعاء، والقدرة على استجابته، فمتى لم توجد هذه الشروط تامة بطلت دعوته، فكيف إذا عدمت بالكلية؟

فنفى عنهم الملك بقوله: ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾﴾ قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة، وعطاء والحسن وقتادة «القطمير: اللفافة التي تكون على نواة التمر» كما قال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [النحل: ٧٣] وقال: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ: ٢٢ ـ ٢٣].

ونفى عنهم سماع الدعاء بقوله: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾ لأنهم ما بيت ميت وغائب عنهم، مشتغل بما خلق له، مسخر بما أمر به كالملائكة، ثم قال: ﴿وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ لأن ذلك ليس لهم؛ فإن الله تعالى لم يأذن لأحد من عباده في دعاء أحد منهم، لا استقلالاً ولا واسطة، كما تقدم بعض أدلة ذلك.

وقوله: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ فتبين بهذا أن دعوة غير الله شرك وقال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾﴾ [مريم: ٨١ ـ ٨٢] وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ قال ابن كثير: يتبرؤون منكم، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ

غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف: ٥-٦]

قال: وقوله: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ أي ولا يخبرك بعواقب الأمور ومآلها وما تصير إليه مثل خبير بها. قال قتادة: يعني نفسه تبارك وتعالى: فإنه أخبر بالواقع لا محالة.

قلت: والمشركون لم يسلموا للعليم الخبير ما أخبر به عن معبوداتهم، فقالوا: تملك وتسمع وتستجيب وتشفع لمن دعاها، ولم يلتفتوا إلى ما أخبر به الخبير من أن كل معبود يعادي عابده يوم القيامة ويتبرأ منه، كما قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَآؤُكُمْ ۚ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ ۖ وَقَالَ شُرَكَآؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُوا۟ كُلُّ نَفْسٍ مَّآ أَسْلَفَتْ ۚ وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [يونس: ٢٨ - ٣٠].

أخرج ابن جرير عن ابن جريج قال: قال مجاهد: ﴿إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿٢٩﴾﴾ قال: يقول ذلك كل شيء كان يعبد من دون الله.

فالكيِّس يستقبل هذه الآيات التي هي الحجة والنور والبرهان والإيمان والقبول والعمل، فيجرد أعماله لله وحده دون كل ما سواه ممن لا يملك لنفسه نفعاً ولا دفعاً، فضلاً عن غيره.

وفي «الصحيح» عن أنس قال: «شُجَّ النبي ﷺ يوم أُحد، وكُسرت رباعيته، فقال: كيف يُفلح قوم شجّوا نبيهم؟ فنزلت: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

قوله: وفي «الصحيح» عن أنس قال: «شُجَّ النبي ﷺ يوم أُحد، وكُسرت رباعيته، فقال: كيف يُفلح قوم شجّوا نبيهم؟ فنزلت: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

قوله: «في الصحيح» أي «الصحيحين». علقه البخاري، قال: وقال حميد وثابت: عن أنس. ووصله أحمد والترمذي والنسائي عن حميد عن أنس. ووصله مسلم عن ثابت عن أنس.

وقال ابن إسحاق في «المغازي». حدثنا حميد الطويل عن أنس قال: «كسرت رباعية النبي ﷺ يوم أُحد، وشج وجهه، فجعل الدم يسيل على وجهه، وجعل يمسح الدم وهو يقول: كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم؟ فأنزل الله الآية».

قوله: «شج النبي ﷺ» قال أبوالسعادات: الشج في الرأس خاصة في الأصل، وهو أن يضربه بشيء فيجرحه فيه ويشقه، ثم استعمل في غيره من الأعضاء.

وذكر ابن هشام من حديث أبي سعيد الخدري أن عُتبة بن أبي وقاص هو الذي كسر رباعية النبي ﷺ السفلى وجرح شفته العليا، وأن عبدالله بن شهاب الزهري هو الذي شجه في وجهه، وأن عبدالله بن قمئة جرحه في وجنته، فدخلت حلقتان من حلق المغفر في وجنته، وأن مالك بن سنان مص الدم من وجه رسول الله ﷺ وازدرده. فقال له: «**لن تمسك النار**».

قال القرطبي: والرباعية ـ بفتح الراء وتخفيف الياء ـ وهي كل سن بعد ثنية.

قال النووي رحمه الله: وللإنسان أربع رباعيات.

قال الحافظ: والمراد: أنها كسرت، فذهب منها فلقة، ولم تقلع من أصلها.

قال النووي: وفي هذا: وقوع الأسقام والابتلاء بالأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم؛ لينالوا بذلك جزيل الأجر والثواب، ولتعرف الأمم ما

أصابهم ويتأسوا بهم.

قال القاضي: وليعلم أنهم من البشر تصيبهم محن الدنيا، ويطرأ على أجسامهم ما يطرأ على أجسام البشر، ليتيقن أنهم مخلوقون مربوبون، ولا يفتتن بما ظهر على أيديهم من المجزات، ويلبس الشيطان من أمرهم ما لبسه على النصارى وغيرهم. انتهى.

قلت: يعني: من الغلو والعبادة.

قوله: «**يوم أُحد**» هو شرقي المدينة، قال ﷺ: «**أُحد جبل يحبنا ونحبه**» وهو جبل معروف كانت عنده الواقعة المشهورة. فأضيفت إليه.

قوله: «**كيف يفلح قوم شجوا نبيهم؟**» زاد مسلم: «**كسروا رباعيته وأدموا وجهه**».

قوله: «**فأنزل الله** ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾» قال ابن عطية: كأن النبي ﷺ لحقه في تلك الحال يأس من فلاح كفار قريش؛ فقيل له بسبب ذلك: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ أي عواقب الأمور بيد الله، فامض أنت لشأنك، ودُمْ على الدعاء لربك.

وقال ابن إسحاق: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ في عبادي إلا ما أمرتك به فيهم.

وفيه عن ابن عمر رضي الله عنهما: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول ـ إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخيرة من الفجر ـ: «اللهم العن فلاناً وفلاناً، بعدما يقول: «سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد، فأنزل الله ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾ الآية».

وفي رواية«يدعو على صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو، والحارث بن هشام، فنزلت ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾».

قوله: وفيه عن ابن عمر رضي الله عنهما: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول ـ إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخيرة من الفجر ـ: «اللهم العن فلاناً وفلاناً، بعدما يقول: «سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد، فأنزل الله ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ الآية».

وفي رواية «يدعو على صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو، والحارث ابن هشام، فنزلت ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾».

قوله: «وفيه» أي: في «صحيح البخاري»، ورواه النسائي.

قوله: «عن ابن عمر» هو عبدالله بن عمر بن الخطاب، صحابي جليل. شهد له رسول الله ﷺ بالصلاح. مات سنة ثلاث وسبعين في آخرها، أو في أول التي تليها.

قوله: «أنه سمع رسول الله ﷺ» هذا القنوت على هؤلاء بعدما شج وكسرت رباعيته يوم أُحد.

قوله: «اللهم العن فلاناً وفلاناً» قال أبوالسعادات: أصل اللعن: الطرد والإبعاد من الله، ومن الخلق: السب والدعاء، وتقدم كلام شيخ الإسلام رحمه الله.

قوله: «فلاناً وفلاناً» يعني صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو والحارث بن هشام، كما بيَّنه في الرواية الآتية.

وفيه: جواز الدعاء على المشركين بأعيانهم في الصلاة، وأن ذلك لا يضر في الصلاة.

قوله: «بعدما يقول: سمع الله لمن حمده» قال أبوالسعادات: أي أجاب

الله حمده وتقبَّله. وقال السهيلي: مفعول «سمع» محذوف؛ لأن السمع متعلق بالأقوال والأصوات دون غيرها، فاللام تؤذن بمعنى زائد وهو الاستجابة للسمع، فاجتمع في الكلمة الإيجاز والدلالة على الزائد، وهو الاستجابة لمن حمده.

وقال ابن القيم رحمه الله ما معناه: عُدِّي «سمع الله لمن حمده» باللام المتضمنة معنى «استجاب له» ولا حذف هناك، وإنما هو مضمن.

قوله: «**ربنا ولك الحمد**» في بعض روايات البخاري بإسقاط الواو. قال ابن دقيق العيد: كأن إثباتها دال على معنى زائد، لأنه يكون التقدير: ربنا استجب ولك الحمد، فيشتمل على معنى الدعاء ومعنى الخبر.

قال شيخ الإسلام: والحمد ضد الذم، والحمد يكون على محاسن المحمود مع المحبة له، كما أن الذم يكون على مساويه مع البغض له.

وكذا قال ابن القيم: وفرق بينه وبين المدح بأن الإخبار عن محاسن الغير: إما أن يكون إخباراً مجرداً عن حب وإرادة، أو يكون مقروناً بحبه وإرادته. فإن كان الأول فهو المدح، وإن كان الثاني فهو الحمد. فالحمد: إخبار عن محاسن المحمود مع حبه وإجلاله وتعظيمه. ولهذا كان خبراً يتضمن الإنشاء، بخلاف المدح؛ فإنه خبر مجرد. فالقائل إذا قال: «**الحمد لله**» أو قال: «**ربنا ولك الحمد**» تضمن كلامه الخبر عن كل ما يحمد عليه تعالى باسم جامع محيط متضمن لكل فرد من أفراد الجملة المحققة والمقدرة، وذلك يستلزم إثبات كل كمال يحمد عليه الرب تعالى، ولهذا لا تصلح هذه اللفظة على هذا الوجه ولا تنبغي إلا لمن هذا شأنه، وهو الحميد المجيد.

وفيه: التصريح بأن الإمام يجمع بين التسميع والتحميد، وهو قول الشافعي وأحمد، وخالف في ذلك مالك وأبوحنيفة، وقالا: يقتصر على

«سمع الله لمن حمده».

قوله: «وفي رواية يدعو على صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو والحارث ابن هشام».

وذلك لأنهم رؤوس المشركين يوم أُحد، هم وأبوسفيان بن حرب، فما استجيب له ﷺ فيهم، بل أنزل الله ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ ﴾ فتاب عليهم فأسلموا وحسن إسلامهم. وفي هذا كله: معنى شهادة أن لا إله إلا الله، الذي له الأمر كله، يهدي من يشاء بفضله ورحمته، ويضل من يشاء بعدله وحكمته.

وفي هذا من الحجج والبراهين: ما يبين بطلان ما يعتقده عباد القبور في الأولياء والصالحين. بل في الطواغيت من أنهم ينفعون من دعاهم، ويمنعون من لاذ بحماهم. فسبحان من حال بينهم وبين فهم الكتاب. وذلك عدله سبحانه، وهو الذي يحول بين المرء وقلبه، وبه الحول والقوة.

وفيه عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: «قام رسول الله ﷺ حين أُنزل عليه: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء: ٢١٤]. **فقال: يامعشر قريش ـ أو كلمةً نحوها ـ اشتروا أنفسكم، لا أُغني عنكم من الله شيئاً. ياعباس بن عبدالمطلب، لا أُغني عنك من الله شيئاً، ياصفية عمة رسول الله ﷺ لا أُغني عنك من الله شيئاً. ويافاطمة بنت محمد، سليني من مالي ما شئت؛ لا أُغني عنك من الله شيئاً».**

قوله: وفيه عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: «قام رسول الله ﷺ حين أُنزل عليه: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾ [الشعراء: ٢١٤]. فقال: يامعشر قريش ـ أو كلمةً نحوها ـ اشتروا أنفسكم، لا أُغني عنكم من الله شيئاً. ياعباس بن عبدالمطلب، لا أُغني عنك من الله شيئاً، ياصفية عمة رسول الله لا أُغني عنك من الله شيئاً. ويافاطمة بنت محمد، سليني من مالي ما شئت؛ لا أُغني عنك من الله شيئاً». .

قوله: «وفيه» أي: وفي «صحيح البخاري».

قوله: «عن أبي هريرة» اختلف في اسمه. وصحح النووي أن اسمه: عبدالرحمن بن صخر، كما رواه الحاكم في «المستدرك» عن أبي هريرة، قال: «كان اسمي في الجاهلية عبدشمس بن صخر، فسميت في الإسلام عبدالرحمن» وروى الدولابي بإسناده عن أبي هريرة «أن النبي ﷺ سماه عبدالله» وهو دَوْسِيٌّ، من فضلاء الصحابة وحفاظهم، حفظ عن النبي ﷺ أكثر مما حفظه غيره، مات سنة سبع ـ أو ثمان، أو تسع ـ وخمسين، وهو ابن ثمان وسبعين سنة.

قوله: «قام رسول الله ﷺ» في «الصحيح» من رواية ابن عباس «صعد رسول الله ﷺ على الصفا».

قوله: «حين أنزل عليه ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾ عشيرة الرجل: هم بنو أبيه الأدنون أو قبيلته؛ لأنهم أحق الناس ببرِّك وإحسانك الديني والدنيوي، كما قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾ [التحريم: ٦] وقد أمره الله تعالى أيضاً بالنذارة العامة، كما قال تعالى: ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَـٰفِلُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [يس: ٦] ﴿ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ ﴾ [إبراهيم: ٤٤].

قوله: «**يامعشر قريش**» المعشر: الجماعة.

قوله: «**أو كلمة نحوها**» هو بنصب «كلمة» عطف على ما قبله.

قوله: «**اشتروا أنفسكم**» أي بتوحيد الله وإخلاص العبادة له وحده لا شريك له، وطاعته فيما أمر به، والانتهاء عما نهى عنه، فإن ذلك هو الذي ينجي من عذاب الله، لا الاعتماد على الأنساب والأحساب؛ فإن ذلك غير نافع عند رب الأرباب.

قوله: «**لا أغني عنكم من الله شيئاً**» فيه حجة على من تعلق على الأنبياء والصالحين، ورغب إليهم ليشفعوا له وينفعوه، أو يدفعوا عنه، فإن ذلك هو الشرك الذي حرمه الله تعالى، وأقام نبيه ﷺ بالإنذار عنه، كما أخبر تعالى عن المشركين في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر: ٣] ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس: ١٨] فأبطل الله ذلك ونزَّه نفسه عن هذا الشرك، وسيأتي تقرير هذا المقام إن شاء الله تعالى.

وفي «صحيح البخاري» «**يابني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئاً**».

قوله: «**ياعباس بن عبدالمطلب**» بنصب «ابن» ويجوز في «عباس» الرفع والنصب، وكذا في قوله: «**ياصفية عمة رسول الله ويافاطمة بنت محمد**».

قوله: «**سليني من مالي ما شئت**» بين رسول الله ﷺ أنه لا ينجي من عذاب الله إلا الإيمان والعمل الصالح.

وفيه: أنه لا يجوز أن يسأل العبد إلا ما يقدر عليه من أمور الدنيا. وأما الرحمة والمغفرة والجنة والنجاة من النار ونحو ذلك من كل ما لا يقجر عليه إلا الله تعالى، فلا يجوز أن يطلب إلا منه تعالى، فإن ما عند

الله لا ينال إلا بتجريد التوحيد، والإخلاص له بما شرعه ورضيه لعباده أن يتقربوا إليه به، فإذا كان لا ينفع بنته ولا عمه ولا عمته ولا قرابته إلا ذلك، فغيرهم أولى وأحرى. وفي قصة عمه أبي طالب معتبر.

فانظر إلى الواقع الآن من كثير من الناس من الالتجاء إلى الأموات والتوجه إليهم بالرغبات والرهبات، وهم عاجزون لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً، فضلاً عن غيرهم ـ يتبين لك أنهم ليسوا على شيء ﴿ إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلشَّيَـٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الأعراف: ٣٠] أظهر لهم الشيطان الشرك في قالب محبة الصالحين، وكل صالح يبرأ إلى الله من هذا الشرك في الدنيا ويوم يقوم الأشهاد.

ولا ريب أن محبة الصالحين إنما تحصل بموافقتهم في الدين، ومتابعتهم في طاعة رب العالمين، لا باتخاذهم أنداداً من دون الله يحبونهم كحب الله إشراكاً بالله، وعبادة لغير الله، وعداوة لله ورسوله والصالحين من عباده. كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ ﴾ [المائدة: ١١٦ ـ ١١٧].

قال العلامة ابن القيم رحمه الله في هذه الآية بعد كلام سبق: ثم نفى أن يكون قال لهم غير ما أمر به وهو محض التوحيد فقال: ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ﴾ ثم أخبر أن شهادته عليهم مدة مقامه فيهم، وأنه بعد الوفاة لا اطلاع له عليهم، وأن الله عز وجل المتفرد بعد الوفاة بالاطلاع عليهم فقال: ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ

أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾﴾ وصف الله سبحانه بأن شهادته فوق كل شهادة وأعم. اهـ.

قلت: ففي هذا بيان أن المشركين خالفوا ما أمر الله به رسله: من توحيده الذي هو دينهم الذي اتفقوا عليه ودعوا الناس إليه، وفارقوهم فيه إلا من آمن، فكيف يقال لمن دان بدينهم، وأطاعهم فيما أمروا به من إخلاص العبادة لله وحده: إنه قد تنقصهم بهذا التوحيد الذي أطاع به ربه، واتبع فيه رسله عليهم السلام، ونزه به ربه عن الشرك الذي هو هضم للربوبية، وتنقص للإلهية وسوء ظن برب العالمين؟

والمشركون هم أعداء الرسل وخصماؤهم في الدنيا والآخرة، وقد شرعوا لأتباعهم أن يتبرؤوا من كل مشرك ويكفروا به، ويبغضوه ويعادوه في ربهم ومعبودهم: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الأنعام: ١٤٩].

فيه مسائل:

الأولى: تفسير الآيتين.

الثانية: قصة أُحد.

الثالثة: قنوت سيدالمرسلين، وخلفه سادات الأولياء يؤمِّنون في الصلاة.

الرابعة: أن المدعو عليهم كفار.

الخامسة: أنهم فعلوا أشياء ما فعلها غالب الكفار، منها: شجّهم نبيهم وحرصهم على قتله. ومنها: التمثيل بالقتلى، مع أنهم بنو عمهم.

السادسة: أنزل الله عليه في ذلك: ﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ ﴾.

السابعة: قوله: ﴿ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ ﴾ فتاب عليهم فآمنوا.

الثامنة: القنوت في النوازل.

التاسعة: تسمية المدعو عليهم في الصلاة بأسمائهم وأسماء آبائهم.

العاشرة: لعن المعَّين في القنوت.

الحادية عشرة: قصته ﷺ لما أُنزل عليه: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾.

الثانية عشرة: جده ﷺ بحيث فعل ما نُسبَ بسببه إلى الجنون، وكذلك لو يفعله مسلم الآن.

الثالثة عشرة: قوله للأبعد والأقرب «لا أُغني عنك من الله شيئاً» حتى قال: «يافاطمة بنت محمد لا أُغني عنكِ من الله شيئاً» فإذا صرح وهو سيد المرسلين بأنه لا يغني شيئاً عن سيدة نساء العالمين، وآمن الإنسان أنه ﷺ لا يقول إلا الحق، ثم نظر فيما وقع في قلوب خواص الناس اليوم، تبين له التوحيد وغربة الدين.

باب قول الله تعالى :

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾ [سبأ: ٢٣]

قوله: «باب قول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾».

قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ أي: زال الفزع عنها. قاله ابن عباس وابن عمر وأبوعبدالرحمن السلمي والشعبي والحسن وغيرهم.

وقال ابن جرير: قال بعضهم: الذي فُزِّعَ عن قلوبهم: الملائكة. قالوا: وإنما فزِّع عن قلوبهم من غشية تصيبهم عند سماعهم كلام الله بالوحي.

وقال ابن عطية: في الكلام حذف يدل عليه الظاهر. كأنه قال: ولا هم شفعاءُ كما تزعمون أنتم، بل هم عَبَدَةٌ مسلمون لله أبداً، يعني منقادون، حتى إذا فزع عن قلوبهم. والمراد: الملائكة، على ما اختاره ابن جرير وغيره.

قال ابن كثير: وهو الحق الذي لا مِرْية فيه؛ لصحة الأحاديث فيه والآثار.

وقال أبوحيان: تظاهرت الأحاديث عن رسول الله ﷺ أن قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ إنما هي في الملائكة إذا سمعت الوحي إلى جبريل يأمره الله به، سمعت كجرِّ سلسلة الحديد على الصَّفوان، فتفزع عند ذلك تعظيماً وهيبة. قال: وبهذا المعنى ـ من ذكر الملائكة في صدر الآية ـ تتَّسق هذه الآية على الأولى، ومن لم يشعر أن الملائكة

مشار إليهم من أول قوله: ﴿ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم﴾ لم تتصل له هذه الآية بما قبلها.

قوله: ﴿قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ ولم يقولوا: ماذا خلق ربنا؟ ولو كان كلام الله مخلوقاً لقالوا: ماذا خلق؟. انتهى من شرح سنن ابن ماجه.

ومثله الحديث «ماذا قال ربنا ياجبريل؟» وأمثال هذا في الكتاب والسنة كثير.

قوله: ﴿قَالُواْ ٱلْحَقَّ﴾ أي قال الله الحق. وذلك لأنهم إذا سمعوا كلام الله صعقوا، ثم إذا أفاقوا أخذوا يسألون، فيقولون: ماذا قال ربكم؟ فيقولون: قال الحق.

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ﴾ علو القدر وعلو القهر وعلو الذات، فله العلو الكامل من جميع الوجوه، كما قال عبدالله بن المبارك ـ لمَّا قيل له: بم نعرف ربنا؟ قال: «بأنه على عرشه بائن من خلقه» تمسكاً منه بالقرآن، لقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥] ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الفرقان: ٥٩] في سبعة مواضع من القرآن. [الأعراف: ٥٤] و[يونس: ٣] و[الرعد: ٢] و[السجدة: ٤] و[الحديد: ٤].

قوله: ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ أي الذي لا أكبر منه ولا أعظم منه تبارك وتعالى.

في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إذا قَضَى الله الأمرَ في السماء، ضرَبت الملائكة بأجنحتها خَضَعاناً لقوله، كأنه سلسلة على صفوان يَنفذُهم ذلك، حتى إذا فُزِّعَ عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: الحقَّ، وهو العليُّ الكبير. فيسمعها مُسترق السمع

ـ ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض ـ وَصَفه سفيان بكفه، فحرَّفها وبدَّد بين أصابعه ـ فيسمع الكلمة فيلقيها إلى مَن تحته، ثم يلقيها الآخر إلى مَن تحته، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن، فربما أدركه الشِّهاب قبل أن يلقيها، وربما ألقاها قبل أن يُدركه، فيكذب معها مائة كذبة. فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا، كذا وكذا؟ فيصدَّق بتلك الكلمة التي سُمعت من السماء».

قوله: في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إذا قَضَى الله الأمرَ في السماء، ضرَبت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله، كأنه سلسلة على صفوان يَنفذُهم ذلك، حتى إذا فُزِّعَ عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: الحقَّ، وهو العليُّ الكبير. فيسمعها مُسترق السمع ـ ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض ـ وَصَفه سفيان بكفه، فحرَّفها وبدّد بين أصابعه ـ فيسمع الكلمة فيلقيها إلى مَن تحته، ثم يلقيها إلآخر إلى مَن تحته، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن، فربما أدركه الشِّهاب قبل أن يلقيها، وربما ألقاها قبل أن يُدركه، فيكذب معها مائة كذبة. فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا، كذا وكذا؟ فيصدَّق بتلك الكلمة التي سُمعت من السماء».

قوله: «في الصحيح» أي «صحيح البخاري».

قوله: «إذا قضى الله الأمر في السماء» أي إذا تكلم الله بالأمر الذي يوحيه إلى جبريل بما أراده، كما صرح به في الحديث الآتي، وكما روى سعيد بن منصور وأبوداود وابن جرير عن ابن مسعود «إذا تكلم الله

بالوحي سمع أهل السموات صلصلة كجر السلسلة على الصفوان».

وروى ابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس قال: «لما أوحى الجبار إلى محمد ﷺ دعا الرسول من الملائكة ليبعثه بالوحي، فسمعت الملائكة صوت الجبار يتكلم بالوحي، فلما كشف عن قلوبهم سألوا عما قال الله؟ فقالوا: الحق، وعلموا أن الله لا يقول إلا حقاً».

قوله: «ضربت الملائكة بأجنحتها خضعاناً لقوله» أي لقول الله تعالى.

قال الحافظ: خضعاناً بفتحتين من الخضوع. وفي رواية: بضم أوله وسكون ثانيه، وهو مصدر بمعنى خاضعين.

قوله: «كأنه سلسلة على صفوان» أي كأن الصوت المسموع سلسلة على صفوان هو الحجر الأملس.

قوله: «ينفذهم ذلك» هو بفتح التحتية وسكون النون وضم الفاء والذال المعجمة، «ذلك» أي القول، والضمير في «ينفذهم» للملائكة، أي ينفذ ذلك القولُ الملائكة: أي يخلص ذلك القول ويمضي فيهم حتى يفزعوا منه.

وعند ابن مردويه من حديث ابن عباس «فلا ينزل على أهل سماء إلا صعقوا».

وعند أبي داود وغيره مرفوعاً «إذا تكلم الله بالوحي سمع أهل السماء الدنيا صلصلة كجر السلسلة على الصفا فيصعقون، فلايزالون كذلك حتى يأتيهم جبريل» الحديث.

قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ تقدم معناه.

قوله: ﴿قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ﴾ أي قالوا: قال الله الحق، علموا أن الله لا يقول إلا الحق.

قوله: «فيسمعها مسترق السمع»[1] أي يسمع الكلمة التي قضاها الله، وهم الشياطين يركب بعضهم بعضاً.

وفي «صحيح البخاري» عن عائشة مرفوعاً «**إن الملائكة تنزل في العنان ـ وهو السحاب ـ فتذكر الأمر قُضِيَ في السماء، فتسترق الشياطين السمع، فتوحيه إلى الكُهَّان**».

قوله: «ومسترق السمع هكذا وصفه سفيان بكفه» أي وصف ركوب بعضهم فوق بعض.

و«سفيان» هو ابن عيينة أبومحمد الهلالي الكوفي، ثم المكي، ثقة حافظ، فقيه إمام حجة. مات سنة ثمان وتسعين ومائة، وله إحدى وتسعون سنة.

قوله: «فحرَّفها» بحاء مهملة وراء مشددة وفاء.

---

(١) قال الشنقيطي ـ رحمه الله تعالى ـ قال الله تعالى: ﴿وَحَفِظْنَٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾ وصرح تعالى في هذه الآية الكريمة أنه حفظ السماء من كل شيطان رجيم وبيَّن هذا المعنى في مواضع أخر كقوله: ﴿وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾﴾ وقوله: ﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ وقوله: ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْءَانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾﴾ وقوله: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾ وقوله: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾﴾ إلى غير ذلك من الآيات والاستثناء في هذه الآية الكريمة في قوله: ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾ قال بعض العلماء: هو استثناء منقطع. وجزم به الفخر الرازي أي من استرق السمع أي الخطفة اليسيرة فإنه يتبعه شهاب فيحرقه كقوله تعالى: ﴿وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾﴾ وقيل الاستثناء متصل أي حفظنا السماء من الشياطين أن تسمع شيئاً من الوحي وغيره ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ﴾ فإنا لم نحفظها من أن تسمع الخبر من أخبار السماء سوىٰ الوحي. فأما الوحي فلما تسمع منه شيئاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴿٢١٢﴾﴾ قاله القرطي ونظيره ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ﴾ الآية، فإنه استثناء من الواو في قوله تعالى: ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ﴾ الآية.

قوله: «وبدّد» أي فرق بين أصابعه.

قوله: «**فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته**» أي يسمع الفوقاني الكلمة، فيلقيها إلى آخر تحته، ثم يلقيها إلى من تحته، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن.

قوله: «**فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها**» الشهاب: هو النجم الذي يرمى به، أي ربما أدرك الشهابُ المسترِقَ، وهذا يدل على أن الرمي بالشهب قبل المبعث. لما روى أحمد وغيره ـ والسياق له في «المسند» من طريق معمر ـ: أنبأنا الزهري عن علي بن الحسين عن ابن عباس قال: «كان رسول الله ﷺ جالساً في نفر من أصحابه ـ قال عبدالرزاق: من الأنصار ـ قال: فرُمي بنجم عظيم، فاستنار، قال: **ما كنتم تقولون إذا كان مثل هذا في الجاهلية؟** قال: كنا نقول: لعله يولد عظيم أو يموت عظيم ـ قلت للزهري: أكان يرمى بها في الجاهلية؟ قال: نعم، ولكن غلظت حين بعث النبي ﷺ ـ قال: **فإنها لا يرمى بها لموت أحد ولا لحياته، ولكن ربنا تبارك اسمه إذا قضى أمراً سبح حملة العرش، ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، حتى يبلغ التسبيح هذه السماء الدنيا، ثم يستخبر أهل السماء الذين يلون حملة العرش، فيقول الذين يلون حملة العرش لحملة العرش: ماذا قال ربكم؟ فيخبرونهم، ويخبر أهل كل سماء سماءً، حتى ينتهي الخبر إلى هذه السماء، وتخْطِفُ الجنُّ السمعَ فيرمون، فماجاؤا به على وجهه فهو حق، ولكنهم يَقْرِفون**[1]

---

(١) القرف: لعبة معروفة. قال الشاعر:

وأغلاط الكواكب مرسلات ... كجل القرف غايتها النصاب

وفي المسند: يقرفون بفتح الياء وسكون القاف وكسر الراء، أي يخلطون فيه الكذب. يقال قرف عليه: [أي كذب]. وفي المسند أيضاً: [يقذفون].

«**ويخطف الجن ويرمون**» وفي رواية له «**لكنهم يزيدون فيه ويقرفون وينقصون**».

قوله: «**فيكذب معها مائة كذبة**» أي الكاهن أو الساحر.

و«كذبة» بفتح الكاف وسكون الذال المعجمة.

قوله: «**فيقال: «أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا: كذا وكذا»** هكذا في نسخة بخط المصنف، كالذي في «صحيح البخاري» سواء.

قال المصنف: «وفيه: قبول النفوس للباطل، كيف يتعلقون بواحدة ولا يعتبرون بمائة كذبة؟».

وفيه: أن الشيء إذا كان فيه شيء من الحق فلا يدل على أنه حق كله، فكثيراً ما يلبس أهل الضلال الحق بالباطل، ليكون أقبل لباطلهم، قال تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [البقرة: ٤٢].

وفي هذه الأحاديث وما بعدها وما في معناها: إثبات علو الله تعالى على خلقه على ما يليق بجلاله وعظمته، وأنه تعالى لم يزل متكلماً إذا شاء بكلام يسمعه الملائكة، وهذا قول أهل السنة قاطبة سلفاً وخلفاً، خلافاً للأشاعرة والجهمية، ونُفاة المعتزلة. فإياك أن تلتفت إلى ما زخرفه أهل التعطيل، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

وعن النَّوَّاس بن سِمعان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله تعالى أن يوحي بالأمر تكلم بالوحي أخذَتِ السموات منه رَجفة، ـ أو قال: رَعدة ـ شديدة، خوفاً من الله عز وجل، فإذا سمع ذلك أهل السموات

صعقوا وخرُّوا لله سُجَّداً، فيكون أولَ من يرفع رأسَه جبريل، فيكلمه الله من وحيه بما أراد، ثم يمر جبريل على الملائكة، كلما مر بسماءٍ سأله ملائكتها: ماذا قال ربنا ياجبريل؟ فيقول جبريل: قال: الحق، وهو العليُّ الكبير. فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل، فينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله عز وجل».

قوله: وعن النَّوَّاس بن سِمعان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا أراد الله تعالى أن يوحي بالأمر تكلم بالوحي أخذَتِ السموات منه رَجفة، ـ أو قال: رَعدة ـ شديدة، خوفاً من الله عز وجل، فإذا سمع ذلك أهل السموات صعقوا وخرُّوا لله سُجَّداً، فيكون أولَ من يرفع رأسَه جبريل، فيكلمه الله من وحيه بما أراد، ثم يمر جبريل على الملائكة، كلما مر بسماءٍ سأله ملائكتها: ماذا قال ربنا ياجبريل؟ فيقول جبريل: قال: الحق، وهو العليُّ الكبير. فيقولون كلهم مثل ما قال جبريل، فينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله عز وجل».**

هذا الحديث رواه ابن أبي حاتم بسنده كما ذكره العماد ابن كثير في «تفسيره».

النواس بن سمعان ـ بكسر السين ـ بن خالد الكلابي، ويقال: الأنصاري، صحابي. ويقال: إن أباه صحابي أيضاً.

قوله: «إذا أراد الله أن يوحي بالأمر ـ إلى آخره» فيه: النص على أن الله تعالى يتكلم بالوحي. وهذا من حجة أهل السنة على النفاة، لقولهم: لم يزل الله متكلماً إذا شاء.

قوله: «**أخذت السموات منه رجفة**» السموات مفعول مقدَّم، والفاعل «رجفة» أي: أصاب السموات من كلامه تعالى رجفة، أي: ارتجفت. وهو صريح في أنها تسمع كلامه تعالى، كما روى ابن أبي حاتم عن عكرمة. قال: «إذا قضى الله أمراً تكلم تبارك وتعالى، رجفت السموات والأرض والجبال، وخرت الملائكة كلهم سجداً».

وقوله: «**أو قال: رعدة شديدة**» شك من الراوي. هل قال النبي ﷺ رجفة، أو قال: رعدة. والراء مفتوحة فيهما.

قوله: «**خوفاً من الله عز وجل**» وهذا ظاهر في أن السموات تخاف الله، بما يجعل تعالى فيها من الإحساس ومعرفة من خلقها. وقد أخبر تعالى: أن هذه المخلوقات العظيمة تسبحه كما قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء: ٤٤] وقال تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾﴾ [مريم: ٩٠] وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤] وقد قرر العلامة ابن القيم رحمه الله أن هذه المخلوقات تسبح الله وتخشاه حقيقة، مستدلاً بهذه الآيات وما في معناه.

وفي البخاري عن ابن مسعود قال: «كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل».

وفي حديث أبي ذر «أن النبي ﷺ أخذ في يده حصيات، فسُمع لهن تسبيح...» الحديث.

وفي «الصحيح» قصة حَنين الجِذْع الذي كان يخطب عليه النبي ﷺ قبل اتخاذ المنبر. ومثل هذا كثير.

قوله: «**صعقوا وخروا لله سجداً**» الصعوق: هو الغشي، ومعه السجود.

قوله: «**فيكون أول من يرفع رأسه جبريل**» بنصب «أول» خبر يكون مقدم على اسمها. ويجوز العكس.

ومعنى جبريل: عبدالله، كما روى ابن جرير وغيره عن علي بن الحسين قال: كان اسم جبريل: عبدالله، واسم ميكائيل: عُبيد الله، وإسرافيل: عبدالرحمن. وكل شيء رجع إلى «إيل» فهو مُعبَّد لله عز وجل.

وفيه: فضيلة جبريل عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾﴾ [التكوير: ١٩ ـ ٢١].

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: إن هذا القرآن لتبليغ رسول كريم.

وقال أبوصالح في الآية: «جبريل يدخل في سبعين حجاباً من نور بغير إذن».

ولأحمد بإسناد صحيح عن ابن مسعود قال: «رأى رسول الله ﷺ جبريل في صورته وله ستمائة جناح، كل جناح منها قد سد الأفق، يسقط من جناحه من التهاويل والدر والياقوت ما الله به عليم».

فإذا كان هذا عِظم هذه المخلوقات، فخالقها أعظم وأجلُّ وأكبر. فكيف يسوّى به غيره في العبادة: دعاءً وخوفاً ورجاءً وتوكلاً، وغير ذلك من العبادات التي لا يستحقها غيره؟ فانظر إلى حال الملائكة وشدة خوفهم من الله تعالى وقد قال تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ۞ وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّىٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الأنبياء: ٢٦ ـ ٢٩].

قوله: «**فينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله عز وجل من السماء والأرض**» وهذا تمام الحديث.

والآيات المذكورة في هذا الباب والأحاديث تقرر التوحيد الذي هو مدلول شهادة أن لا إله إلا الله، فإن الملك العظيم الذي تُصعق الأملاك من كلامه خوفاً منه ومهابة، وترجف منه المخلوقات، الكامل في ذاته وصفاته، وعلمه وقدرته، وملكه وعزه وغناه عن جميع خلقه، وافتقارهم جميعاً إليه، ونفوذ تصرفه وقدره فيهم، لعلمه وحكمته لا يجوز شرعاً ولا عقلاً أن يجعل له شريك من خلقه في عبادته التي هي حقه عليهم، فكيف يجعل المربوب رباً، والعبد معبوداً؟ أين ذهبت عقول المشركين؟ سبحان الله عما يشركون.

وقال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾﴾ [مريم: ٩٣ - ٩٥] فإذا كان الجميع عبيداً فَلِمَ يَعبدُ بعضهم بعضاً بلا دليل ولا برهان، بل بمجرد الرأي والاختراع والابتداع؟ ثم قد أرسل رسله من أولهم إلى آخرهم تزجرهم عن ذلك الشرك، وتنهاهم عن عبادة ما سوى الله. انتهى من «شرح سنن ابن ماجه».

فيه مسائل:

الأولى: تفسير الآية.

الثانية: ما فيها من الحجة على إبطال الشرك، خصوصاً ما تعلَّق على الصالحين، وهي الآية التي قيل: إنها تقطع عروق شجرة الشرك من القلب.

الثالثة: تفسير قوله: ﴿قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾.

الرابعة: سبب سؤالهم عن ذلك.

الخامسة: أن جبرائيل يجيبهم بعد ذلك بقوله: «قال كذا وكذا».

السادسة: ذكر أن أول من يرفع رأسه جبرائيل.

السابعة: أنه يقول لأهل السموات كلهم، لأنهم يسألونه.

الثامنة: أن الغَشْي يعم أهل السموات كلهم.

التاسعة: ارتجاف السموات بكلام الله.

العاشرة: أن جبرائيل هو الذي ينتهي بالوحي إلى حيث أمره الله.

الحادية عشرة: ذكر استراق الشياطين.

الثانية عشرة: صفة ركوب بعضهم بعضاً.

الثالثة عشرة: إرسال الشهاب.

الرابعة عشرة: أنه تارة يدركه الشهاب قبل أن يلقيها، وتارة يلقيها في أُذن وليّه من الإنس قبل أن يدركه.

الخامسة عشرة: كون الكاهن يصدُق بعض الأحيان.

السادسة عشرة: كونه يكذب معها مائة كذبة.

السابعة عشرة: أنه لم يصدق كذبه إلا بتلك الكلمة التي سُمعت من السماء.

الثامنة عشرة: قبول النفوس للباطل، كيف يتعلقون بواحدة ولا يعتبرون بمائة؟

التاسعة عشرة: كونهم يتلقى بعضهم من بعض تلك الكلمة، ويحفظونها ويستدلون بها.

العشرون: إثبات الصفات، خلافاً للأشعرية المعطلة.

الحادية والعشرون: أن تلك الرجفة والغشي خوفاً من الله عز وجل.

الثانية والعشرون: أنهم يخرُّون لله سُجداً.

بـاب الشـفاعة

قوله: «**باب الشفاعة**» أي: بيان ما أثبته القرآن منها وما نفاه، وحقيقة ما دل القرآن على إثباته.

وقول الله عزوجل: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الأنعام: ٥١].

قوله: «وقول الله عزوجل: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾» الإنذار: هو الإعلام بأسباب المخافة، والتحذير منها.

قوله: «به» قال ابن عباس: «بالقرآن ﴿ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ﴾ وهم المؤمنون».

وعن الفُضيل بن عياض «ليس كلَّ خلقه عاتَب، إنما عاتب الذين يعقلون، فقال: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ﴾ وهم المؤمنون أصحاب القلوب الواعية».

قوله: ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ قال الزجاج: موضع «ليس» نصب على الحال، كأنه قال: متخلِّين من كل وليّ وشفيع. والعامل فيه «يخافون».

قوله: ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أي: فيعملون في هذه الدار عملاً ينجيهم به من عذاب يوم القيامة.

وقوله: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ﴾ [الزمر: ٤٤]

قوله: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا ۖ﴾ وقبلها ﴿أَمِ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ

كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الزمر: ٤٣] وهذه كقوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يونس: ١٨] فبين تعالى في هذه الآيات وأمثالها: أن وقوع الشفاعة على هذا الوجه منتفٍ وممتنع، وأن اتخاذهم شفعاء شركٌ، يتنزه الرب تعالى عنه. وقد قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ ۖ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأحقاف: ٢٨] فبين تعالى: أن دعواهم أنهم يشفعون لهم بتألههم: أن ذلك منهم إفك وافتراء.

وقوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ﴾ أي: هو مالكها، فليس لمن تُطلب منه شيء منها، وإنما تطلب ممن يملكها دون كل من سواه، لأن ذلك عبادة وتأليه لا يصلح إلا لله.

قال البيضاوي: لعله ردٌّ لما عسى أن يجيبوا به، وهو أن الشفعاء أشخاص مقربون.

وقوله تعالى: ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ﴾ تقرير لبطلان اتخاذ الشفعاء من دونه، لأنه مالك الملك، فاندرج في ذلك ملك الشفاعة، فإذا كان هو مالكها بطل أن تطلب ممن لا يملكها ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

قال ابن جرير: نزلت لما قال الكفار: ما نعبد أوثاننا هذه إلا ليقربونا إلى الله زلفى. قال الله تعالى: ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزمر: ٤٤].

وقوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

قال: «وقوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ قد تبين مما تقدم من الآيات: أن الشفاعة التي نفاها القرآن هي التي تطلب من غير الله.

وفي هذه الآية: بيان أن الشفاعة إنما تقع في الدار الآخرة بإذنه، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِىَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾﴾ [طه: ١٠٩] فبين أنها لا تقع لأحد إلا بشرطين: إذن الرب تعالى للشافع أن يشفع، ورضاه عن المأذون بالشفاعة فيه، وهو تعالى لايرضى من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة إلا ما أريد به وجهه، ولقي العبد به ربه مخلصاً غير شاك في ذلك، كما دل على ذلك الحديث الصحيح وسيأتي ذلك مقرراً أيضاً في كلام شيخ الإسلام رحمه الله.

وقوله: ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ [النجم: ٢٦].

وقوله: ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾.

قال ابن كثير رحمه الله: ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾ كقوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾، ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ فإذا كان هذا في حق الملائكة المقربين، فكيف ترجون أيها الجاهلون شفاعة هذه الأنداد عند الله، وهو لم يشرع عبادتها، ولا أذن فيها، بل قد نهى عنها على ألسنة جميع رسله، وأنزل بالنهي عن ذلك جميع كتبه؟

وقوله: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ

ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٢ ـ ٢٣].

قال: وقوله: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ۝٢٢ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٢ ـ ٢٣].

قال ابن القيم رحمه الله تعالى في الكلام على هذه الآيات وقد قطع الله الأسباب التي يتعلق بها المشركون جميعها. فالمشرك إنما يتخذ معبوده لما يحصل له من النفع، والنفع لا يكون إلا ممن فيه خصلة من هذه الأربع: إما مالك لما يريد عابده منه، فإن لم يكن مالكاً كان شريكاً للمالك، فإن لم يكن شريكاً له كان معيناً له وظهيراً، فإن لم يكن معيناً ولا ظهيراً كان شفيعاً عنده. فنفى الله سبحانه المراتب الأربع نفياً مرتباً، متنقلاً من الأعلى إلى الأدنى. فنفى الملك والشركة والمظاهرة والشفاعة التي يطلبها المشرك، وأثبت شفاعة لا نصيب فيها لمشرك، وهي الشفاعة بإذنه.

فكفى بهذه الآية نوراً وبرهاناً، وتجريداً للتوحيد، وقطعاً لأصول الشرك وموادِّه لمن عقلها. والقرآن مملوء من أمثالها ونظائرها، ولكن أكثر الناس لا يشعرون بدخول الواقع تحته، وتضمنه له، ويظنونها في نوع، وقوم قد خلوا من قبل ولم يعقبوا وارثاً. فهذا هو الذي يحول بين القلب وبين فهم القرآن. ولعمر الله، إن كان أولئك قد خلوا، فقد ورثهم من هو مثلهم أو شر منهم، أو دونهم. وتناول القرآن لهم كتناوله لأولئك.

ثم قال: ومن أنواعه ـ أي: الشرك ـ طلب الحوائج من الموتى، والاستغاثة بهم. وهذا أصل شرك العالم؛ فإن الميت قد انقطع عمله،

وهو لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، فضلاً عمن استغاث به، وسأله أن يشفع له إلى الله. وهذا من جهله بالشافع والمشفوع عنده؛ فإنه لا يقدر أن يشفع له عند الله إلا بإذنه، والله لم يجعل استغاثته وسؤاله سبباً لإذنه، وإنما السبب كمال التوحيد، فجاء هذا المشرك بسبب يمنع الإذن، وهو بمنزلة من استعان في حاجته بما يمنع حصولها. وهذه حالة كل مشرك.

فجمعوا بين الشرك بالمعبود وتغيير دينه، ومعاداة أهل التوحيد، ونسبة أهله إلى التنقص بالأموات، وهم قد تنقصوا الخالق بالشرك، وأولياءه الموحدين بذمهم وعيبهم ومعاداتهم، وتنقصوا من أشركوا به غاية التنقص؛ إذ ظنوا أنهم راضون منهم بهذا، وأنهم أمروهم به، وأنهم يوالونهم عليه، وهؤلاء هم أعداء الرسل في كل زمان ومكان، وما أكثر المستجيبين لهم.

وما نجي من شَرَك هذا الشرك الأكبر إلا من جرد توحيده لله، وعادى المشركين في الله، وتقرب بمقتهم إلى الله واتخذ الله وحده وليه وإلـٰهه ومعبوده، فجرد حبه لله، وخوفه لله، ورجاءه لله، وذله لله، وتوكله على الله، واستعانته بالله، والتجاءه إلى الله، واستغاثته بالله، وقصده لله، متبعاً لأمره، متطلباً لمرضاته. إذا سأل سأل الله، وإذا استعان استعان بالله، وإذا عمل عمل لله. فهو لله، وبالله، ومع الله. انتهى كلامه رحمه الله تعالى.

وهذا الذي ذكره هذا الإمام في معنى هذه الآية هو حقيقة دين الإسلام، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٥﴾﴾ [النساء: ١٢٥].

قال أبوالعباس: نفى الله عما سواه كل ما يتعلق به المشركون، فنفى أن يكون لغيره ملْك أو قسطٌ منه، أو يكون عوناً لله. ولم يبقَ إلا الشفاعة. فبينَّ أنها لا تنفعُ إلا لمن أذِنَ له الربُّ، كما قال: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ فهذه الشفاعة التي يظنها المشركون هي مُنْتَفِيةٌ يوم القيامة، كما نفاها القرآن وأخبر النبي ﷺ: «أنه يأتي فيسجد لربه ويحمده، لا يبدأ بالشفاعة أولاً. ثم يقال له: ارفع رأسك وقل يسمع، وسل تعط، واشفع تشفع».

وقال أبوهريرة: «من أسعد الناس بشفاعتك؟ قال: من قال: لا إله إلا الله خالصاً من قلبه» فتلك الشفاعةُ لأهل الإخلاص بإذن الله، ولا تكون لمن أشرك بالله.

وحقيقته: أنَّ الله سبحانه هو الذي يتفضَّل على أهل الإخلاص فيغفر لهم بواسطة دعاء مَنْ أَذِنَ له أن يشفع، ليُكرمَه وينالَ المقامَ المحمود.

فالشفاعة التي نفاها القرآن، ما كان فيها شرك، ولهذا أثبت الشفاعة بإذنه في مواضع. وقد بين النبي ﷺ أنها لا تكون إلا لأهل التوحيد والإخلاص. اهـ. كلامه.

قوله: «قال أبوالعباس» هذه كنية شيخ الإسلام أحمد بن عبدالحليم بن

عبدالسلام ابن تيمية الحراني، إمام المسلمين رحمه الله.

قوله:«نفى الله عما سواه كل ما يتعلق به المشركون، فنفى أن يكون لغيره ملْك أو قسطٌ منه، أو يكون عوناً لله. ولم يبقَ إلا الشفاعة. فبينَّ أنها لا تنفعُ إلاّلمن أذِنَ له الربُّ، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ فهذه الشفاعة التي يظنها المشركون هي مُنْتَفِيةٌ يوم القيامة، كما نفاها القرآن وأخبر النبي ﷺ: «أنه يأتي فيسجد لربه ويحمده، لا يبدأ بالشفاعة أولاً. ثم يقال له: ارفع رأسك وقل يسمع، وسل تعط، واشفع تشفع».

وقال أبوهريرة: «من أسعد الناس بشفاعتك؟ قال: من قال: لا إله إلا الله خالصاً من قلبه» فتلك الشفاعةُ لأهل الإخلاص بإذن الله، ولا تكون لمن أشرك بالله.

وحقيقتها: أنَّ الله سبحانه وتعالى هو الذي يتفضَّل على أهل الإخلاص فيغفرلهم بواسطةدعاء مَنْ أَذِنَ لله أن يشفع، ليُكرمَه وينالَ المقامَ المحمود

فالشفاعة التي نفاها القرآن، ما كان فيها شرك، ولهذا أثبت الشفاعة بإذنه في مواضع. وقد بين النبي ﷺ أنها لا تكون إلا لأهل التوحيد والإخلاص. انتهى كلامه.

قوله: «وقال أبوهريرة» إلى آخره. هذا الحديث رواه البخاري والنسائي عن أبي هريرة. ورواه أحمد وصححه ابن حبان، وفيه: «وشفاعتي لمن قال: لا إلٰه إلا الله مخلصاً، يصدق قلبُه لسانَه، ولسانُه قلبَه».

وشاهده في «صحيح مسلم» عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ **«لكل نبي دعوةٌ مستجابة، فتعجل كل نبي دعوته، وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة، فهي نائلة إن شاء الله من مات لا يشرك بالله شيئاً»**.

وقد ساق المصنف رحمه الله كلام شيخ الإسلام هنا، فقام مقام

الشرح والتفسير لما في هذا الباب من الآيات، وهو كافٍ وافٍ بتحقيق مع الإيجاز. والله أعلم.

وقد عرَّف الإخلاص بتعريف حسن، فقال: الإخلاص: محبة الله وحده وإرادة وجهه. اهـ.

وقال ابن القيم رحمه الله في معنى حديث أبي هريرة: تأمل هذا الحديث كيف جعل أعظم الأسباب التي تنال بها شفاعته تجريد التوحيد، عكس ما عند المشركين أن الشفاعة تنال باتخاذهم شفعاء وعبادتهم وموالاتهم، فقلب النبي ﷺ ما في زعمهم الكاذب، وأخبر أن سبب الشفاعة تجريد التوحيد، فحينئذٍ يأذن الله للشافع أن يشفع.

ومن جهل المشرك اعتقاده أن من اتخذه ولياً أو شفيعاً أنه يشفع له وينفعه عند الله، كما يكون خواص الولاة والملوك تنفع مَن والاهم، ولم يعلموا أنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه في الشفاعة، ولا يأذن في الشفاعة إلا لمن رضي قوله وعمله، كما قال في الفصل الأول: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ وفي الفصل الثاني: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ وبقي فصل ثالث، وهو أنه لا يرضى من القول والعمل إلا توحيده واتباع رسوله ﷺ فهذه ثلاثة فصول تقطع شجرة الشرك من قلب من عقلها ورعاها. اهـ.

وذكر أيضاً رحمه الله تعالى أن الشفاعة ستة أنواع:

الأول ـ الشفاعة الكبرى التي يتأخر عنها أُولو العزم عليهم الصلاة والسلام، حتى تنتهي إليه ﷺ فيقول: «**أنا لها**» وذلك حين يرغب الخلائق إلى الأنبياء ليشفعوا لهم إلى ربهم حتى يريحهم من مقامهم في الموقف. وهذه شفاعة يختص بها لا يشركه فيها أحد.

الثاني ـ شفاعته لأهل الجنة في دخولها. وقد ذكرها أبوهريرة في

حديثه الطويل المتفق عليه.

الثالث ـ شفاعته لقوم من العصاة من أمته قد استوجبوا النار بذنوبهم، فيشفع لهم أن لا يدخلوها.

الرابع ـ شفاعته في العصاة من أهل التوحيد الذين يدخلون النار بذنوبهم. والأحاديث بها متواترة عن النبي ﷺ. وقد أجمع عليها الصحابة وأهل السنة قاطبة، وبدَّعوا من أنكرها، وصاحوا به من كل جانب، ونادوا عليه بالضلال.

الخامس ـ شفاعته لقوم من أهل الجنة في زيادة ثوابهم ورفعة درجاتهم. وهذه مما لم ينازع فيها أحد. وكلها مختصة بأهل الإخلاص الذين لم يتخذوا من دون الله ولياً ولا شفيعاً، كما قال تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾[الأنعام: ٥١]

السادس ـ شفاعته في بعض أهله الكفار من أهل النار حتى يخفف عذابه. وهذه خاصة بأبي طالب وحده.

فيـه مسـائل:

الأولـى: تفسير الآيات.

الثانيـة: صفة الشفاعة المنفية.

الثالثـة: صفة الشفاعة المثبتة.

الرابعـة: ذكر الشفاعة الكبرى، وهي المقام المحمود.

الخامسة: صفة مايفعلهﷺ أنه لايبدأ بالشفاعة، بل يسجد فإذا أُذن له شَفع

السادسة: مَنْ أسعدُ الناس بها.

السابعـة: أنها لا تكون لمن أشرك بالله.

الثامنة: بيان حقيقتها.

باب قول الله تعالى:
﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [القصص: ٥٦]

قوله: باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾﴾[1] سبب نزول هذه الآية: موت أبي طالب على ملة عبدالمطلب، كما سيأتي بيان ذلك في حديث الباب.

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: يقول تعالى لرسوله: إنك يامحمد لا تهدي من أحببت، أي ليس إليك، إنما عليك البلاغ والله يهدي من

---

(١) قال بعض أهل العلم في أبي طالب في قول الله تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ﴾ منهم أبوطالب ﴿وَعَزَّرُوهُ﴾ منهم أبوطالب ﴿وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ﴾ ليس منهم أبوطالب ومن شعر أبي طالب بالنبي ﷺ:

لعمري لقد كلفت وجداً بأحمد	وإخوته دأب المحب المواصل
فلازال في الدنيا جمالاً لأهلها	وزينا لمن ولاه ربُّ المشاكل
فمن مثله في الناس أي مؤمل	إذا قاسه الحكام عند التفاضل
حليم رشيد عادل غير طائش	يوالي إلٰهاً ليس عنه بغافل
فوالله لولا أني أجيء بسبة	تجر على أشياخنا في المحافل
لكُنّا اتبعناه على كل حالة	من الدهر جداً غير قول التهازل
لقد علموا أن ابننا لا مكذَّب	لدينا ولا يعني بقول الأباطل
فأصبح فينا أحمد في أرمّه	تعصر عنه سورة المتطاول
حدبت بنفسي دونه وحميته	ودافعت عنه بالذُّرى والكلاكل
فأيده رب العباد بنصره	وأظهر دينا حقه غير باطل
رجال كرام غيرُ ميل نماهم	إلى الخير آباء كرام المحاصل

يشاء، وله الحكمة البالغة، والحجة الدامغة، كما قال تعالى: ﴿ ۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [البقرة: ٢٧٢] وقال تعالى: ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ ﴾ [يوسف: ١٠٣].

قلت: والمنفيُّ هنا هدايةُ التوفيق والقبول؛ فإن أمر ذلك إلى الله، وهو القادر عليه. وأما الهداية المذكورة في قول الله تعالى: ﴿ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ ﴾ [الشورى: ٥٢] فإنها هداية الدلالة والبيان، فهو المبيِّن عن الله، والدالُّ على دينه وشرعه.

وفي «الصحيح» عن ابن المسيِّب عن أبيه، قال: «لمَّا حَضَرَتْ أبا طالبٍ الوفاةُ جاءه رسول الله ﷺ، وعنده عبدُالله بن أبي أُميَّة وأبوجهل. فقال له: ياعمِّ، قل: لا إلٰه إلا الله، كلمة أحاجُّ لك بها عند الله. فقالا له: أترغبُ عن مِلَّة عبدالمطلب؟ فأعاد عليه النبي ﷺ، فأعادا. فكان آخر ما قال: هو على ملة عبدالمطلب. وأبىٰ أن يقول: لا إلٰه إلا الله. فقال النبي ﷺ: لأستغفرنَّ لك ما لم أُنْه عنك، فأنزل الله عزوجل: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ ﴾ الآية [التوبة: ١١٣] **وأنزل الله في أبي طالب: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ ﴾** [القصص: ٥٦].

وقوله: «في «الصحيح» عن ابن المسيِّب عن أبيه، قال: «لمَّا حَضَرَتْ أبا طالبٍ الوفاةُ جاءه رسول الله ﷺ، وعنده عبدُالله بن أبي أُميَّة وأبوجهل.

فقال له: ياعمِّ، قل: لا إله إلا الله، كلمة أحاجُّ لك بها عند الله. فقالا له: أترغبُ عن مِلَّة عبدالمطلب؟ فأعاد عليه النبي ﷺ، فأعادا. فكان آخر ما قال: هو على ملة عبدالمطلب. وأبىٰ أن يقول: لا إله إلا الله. فقال النبي ﷺ: لأستغفرنَّ لك ما لم أُنْه عنك، فأنزل الله عزوجل: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٣﴾ ﴾ [التوبة: ١١٣] **وأنزل الله في أبي طالب: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ ﴾».**

قوله: «في الصحيح» أي في «الصحيحين».

و«ابن المسيب» هو سعيد بن المسيب بن حزن ابن أبي وهب بن عمرو بن عائذ بن عمران بن مخزوم القرشي المخزومي، أحد العلماء والفقهاء الكبار السبعة من التابعين. اتفق أهل الحديث على أن مراسيله أصح المراسيل. وقال ابن المديني: لا أعلم في التابعين أوسع علماً منه. مات بعد التسعين وقد ناهز الثمانين.

وأبوه المسيب صحابي، بقي إلى خلافة عثمان رضي الله عنه، وكذلك جده حزْن، صحابي استُشْهِدَ باليمامة.

قوله: «لما حضرت أباطالب الوفاة» أي علاماتها ومقدماتها.

قوله: «جاءه رسول الله ﷺ» يحتمل أن يكون المسيب حضر مع الاثنين؛ فإنهما من بني مخزوم، وهو أيضاً مخزومي، وكان الثلاثة إذ ذاك كفاراً؛ فقتل أبوجهل على كفره، وأسلم الآخران.

قوله: «ياعمّ» منادى مضاف، يجوز فيه إثبات الياء وحذفها. حذفت الياء هنا، وبقيت الكسرة دليلاً عليها.

قوله: «قل: لا إله إلا الله» أمره أن يقولها لعلم أبي طالب بما دلت عليه من نفي الشرك بالله، وإخلاص العبادة له وحده، فإن من قالها عن علم

ويقين فقد برىء من الشرك والمشركين ودخل في الإسلام؛ لأنهم يعلمون مادلت عليه، وفي ذلك الوقت لم يكن بمكة إلا مسلم أو كافر. فلا يقولها إلا من ترك الشرك وبرىء منه. ولما هاجر النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة كان فيها المسلمون الموحدون، والمنافقون الذين يقولونها بألسنتهم وهم يعرفون معناها لكن لا يعتقدونها، لما في قلوبهم من العداوة والشك والريب، فهم مع المسلمين بظاهر الأعمال دون الباطن، وفيها اليهود، وقد أقرهم رسول الله ﷺ لما هاجر، ووادعهم بأن لا يخونوه ولا يظاهروا عليه عدواً كما هو مذكور في كتب الحديث والسير.

قوله: «**كلمة**» قال القرطبي: بالنصب على أنه بدل من «لا إله إلا الله» ويجوز الرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف.

قوله: «**أحاجّ لك بها عند الله**» هو بتشديد الجيم من المحاجة، والمراد بها بيان الحجة بها لو قالها في تلك الحال.

وفيه: دليل على أن الأعمال بالخواتيم، لأنه لو قالها في تلك الحال معتقداً ما دلت عليه مطابقة من النفي والإثبات لنفعته.

قوله: «**فقالا له: أترغبُ عن ملة عبدالمطلب؟**» ذكّراه الحجة الملعونة التي يحتج بها المشركون على المرسلين، كقول فرعون لموسى: ﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ۝٥١﴾ [طه: ٥١] وكقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ۝٢٣﴾ [الزخرف: ٢٣].

قوله: «**فأعاد عليه النبي ﷺ فأعادا**» فيه: معرفتهما لمعنى «لا إله إلا الله» لأنهما عرفا أن أبا طالب لو قالها لبرىء من ملة عبدالمطلب، فإن ملة عبدالمطلب هي الشرك بالله في إلٰهيته. وأما الربوبية فقد أقروا بها كما

تقدم. وقد قال عبدالمطلب لأبْرَهَة: «أنا ربُّ الإبل، والبيت له رب يمنعه منك» وهذه المقالة منهما عند قول النبي ﷺ لعمه: «قل: لا إله إلا الله» استكباراً عن العمل بمدلولها. كما قال الله تعالى عنهما وعن أمثالهما من أولئك المشركين: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓاْ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾﴾ [الصافات: ٣٥ ـ ٣٦] فرد عليهم بقوله: ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [الصافات: ٣٧].

فبين تعالى استكبارهم عن قول «لا إله إلا الله» لدلالتها على نفي عبادتهم الآلهة التي كانوا يعبدونها من دون الله، فإن دلالة هذه الكلمة على نفي ذلك دلالة تضمن، ودلالتها عليه وعلى الإخلاص دلالة مطابقة

ومن حكمة الرب تعالى في عدم هداية أبي طالب إلى الإسلام ليبين لعباده أن ذلك إليه، وهو القادر عليه دون من سواه، فلو كان عند النبي ﷺ ـ الذي هو أفضل خلقه ـ من هداية القلوب، وتفريج الكروب، ومغفرة الذنوب، والنجاة من العذاب، ونحو ذلك شيء: لكان أحق الناس بذلك وأولاهم به عمه الذي كان يحوطه ويحميه وينصره ويؤويه، فسبحان من بَهَرَتْ حِكْمَتُه العقول، وأرشد العباد إلى ما يدلّهم على معرفته وتوحيده وإخلاص العمل له وتجريده.

قوله: «فكان آخر ما قال» الأحسن فيه الرفع على أنه اسم «كان» وجملة «هو» وما بعدها الخبر.

قوله: «هو على ملة عبدالمطلب» الظاهر أن أباطالب قال: «أنا» فغيره الراوي استقباحاًللفظ المذكور، وهو من التصرفات الحسنة، قاله الحافظ

قوله: «وأبىٰ أن يقول: لا إله إلا الله» قال الحافظ: هذا تأكيد من الراوي في نفي وقوع ذلك من أبي طالب.

قال المصنف رحمه الله: وفيه الرد على من زعم إسلام عبدالمطلب

وأسلافه، ومضرة أصحاب السوء على الإنسان، ومضرة تعظيم الأسلاف.

أي: إذا زاد على المشروع، بحيث تجعل أقوالهم حجة يرجع إليها عند التنازع.

قوله: «**فقال النبي ﷺ: لأستغفرنَّ لك ما لم أُنْهَ عنك**» قال النووي: وفيه جواز الحلف من غير استحلاف، وكأن الحلف هنا لتأكيد العزم على الاستغفار تطييباً لنفس أبي طالب.

وكانت وفاة أبي طالب بمكة قبل الهجرة بقليل.

قال ابن فارس: مات أبوطالب ولرسول الله ﷺ تسع وأربعون سنة وثمانية أشهر وأحد عشر يوماً.

وتوفيت خديجة أم المؤمنين رضي الله عنها بعد موت أبي طالب بثمانية أيام.

قوله: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ﴾ الآية. أي ما ينبغي لهم ذلك. وهو خبر بمعنى النهي، والظاهر أن هذه الآية: نزلت في أبي طالب. فإن الإتيان بالفاء المفيدة للترتيب في قوله: «فأنزل الله» بعد قوله: «لأستغفرن لك مالم أُنْهَ عنك» يفيد ذلك

وقد ذكر العلماء لنزول هذه الآية أسباباً أخر. فلا منافاة، لأن أسباب النزول قد تتعدد.

قال الحافظ: أما نزول الآية الثانية فواضح في قصة أبي طالب. وأما نزول الآية التي قبلها ففيه نظر، ويظهر أن المراد أن الآية المتعلقة بالاستغفار نزلت بعد أبي طالب بمدة، وهي عامة في حقه وحق غيره، يوضح ذلك ما يأتي في التفسير، فأنزل الله بعد ذلك: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ﴾ الآية. ونزل في أبي طالب ﴿ إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ﴾ كله ظاهر في أنه مات على غير الإسلام، ويُضعِّف

ما ذكره السُّهَيلي أنه روي في بعض كتب المسعودي أنه أسلم؛ لأن مثل ذلك لا يعارض ما في الصحيح. انتهى.

وفيه تحريم الاستغفار للمشركين وموالاتهم ومحبتهم، لأنه إذا حرم الاستغفار لهم فموالاتهم ومحبتهم أولى.

فيــه مســائل:

الأولــى: تفسير: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾.

الثانيــة: تفسير قوله: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾.

الثالثــة: وهي المسألة الكبيرة: تفسير قوله: «قل: لا إله إلا الله» بخلاف ما عليه مَنْ يَدَّعي العلم.

الرابعــة: أن أباجهل ومَنْ معه يعرفون مراد النبي ﷺ، إذ قال للرجل: «قل: لا إله إلا الله» فَقَبَّحَ الله مَنْ أبوجَهْل أعلم منه بأصل الإسلام.

الخامسة: جِدُّه ﷺ ومُبالغته في إسلام عمه.

السادسة: الردُّ على من زعم إسلام عبدالمطلب وأسلافه.

السابعـة: كونه ﷺ استغفر له فلم يُغْفَر له، بل نُهِيَ عن ذلك.

الثامنة: مَضَرَّةُ أصحاب السوء على الإنسان.

التاسعة: مَضَرَّةُ تعظيم الأسلاف والأكابر.

العاشرة: استدلال الجاهلية بذلك.

الحادية عشرة: الشاهد لكون الأعمال بالخواتيم، لأنه لو قالها لنفعته.

الثانية عشرة: التأملُ في كِبَرِ هذه الشبهة في قلوب الضالين، لأنَّ في القصة أنهم لم يجادلوه إلا بها، مع مبالغته ﷺ وتكريره، فلأجلِ عَظَمتها وَوُضوحها عندهم اقتصروا عليها.

باب ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هو الغُلُوُّ في الصالحين

قوله: «با ما جاء أن سبب كفر بني آدم وتركهم دينهم هوالغلو في الصالحين» .

قوله: «تركهم» بالجر عطفاً على المضاف إليه. وأراد المصنف رحمه الله تعالى: بيان ما يؤول إليه الغلو في الصالحين من الشرك بالله في الإلٰهية الذي هو أعظم ذنب عصي الله به، وهو ينافي التوحيد الذي دلت عليه كلمة الإخلاص: شهادة أن لا إلٰه إلا الله.

وقول الله عزوجل: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ﴾ [النساء: ١٧١].

قوله: وقول الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ﴾ الغلو: هو الإفراط بالتعظيم بالقول والاعتقاد: أي لا ترفعوا المخلوق عن منزلته التي أنزله الله فتنزلوه المنزلة التي لا تنبغي إلا لله. والخطاب ـ وإن كان لأهل الكتاب ـ فإنه عام يتناول جميع الأمة، تحذيراً لهم أن يفعلوا بنبيهم ﷺ فعل النصارى في عيسى، واليهود في العزير، كما قال تعالى: ﴿۞أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ١٦﴾ [الحديد: ١٦] ولهذا قال النبي ﷺ: **«لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم»** ويأتي.

فكل من دعا نبياً أو ولياً من دون الله فقد اتخذه إلٰهاً، وضاهى النصارى في شركهم، وضاهى اليهود في تفريطهم، فإن النصارى غلوْا في عيسى عليه السلام، واليهود عادوه وسبُّوه وتنقصوه. فالنصارى أفرطوا، واليهود فرَّطوا. وقال تعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥] ففي هذه الآية وأمثالها الرد على اليهود والنصارى.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: ومن تشبه من هذه الأمة باليهود والنصارى، وغلا في الدين بإفراط فيه أو تفريط فقد شابههم. قال: وعلي رضي الله عنه حرق الغالية من الرافضة، فأمر بأخاديد خُدَّت لهم عند باب كِندة فقذفهم فيها. واتفق الصحابة على قتلهم. لكن ابن عباس مذهبه أن يقتلوا بالسيف من غير تحريق. وهو قول أكثر العلماء.

في «الصحيح» عن ابن عباس رضي الله عنهما في قول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾ [نوح: ٢٣] قال: «هذه أسماءُ رجالٍ صالحين من قوم نوحٍ. فلما هلكوا أوحىٰ الشيطانُ إلى قومهم: أن انْصِبوا إلى مجّالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنْصاباً، وسمُّوها بأسمائهم، ففعلوا، ولم تُعْبد. حتى إذا هلك أُولئك ونُسِي العلم عُبِدَت».

قوله: «في الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما في قول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾﴾ قال: «هذه أسماءُ رجالٍ صالحين من قوم نوحٍ. فلما هلكوا أوحىٰ الشيطانُ

إلى قومهم: أن انْصِبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنْصاباً، وسمُّوها بأسمائهم، ففعلوا، ولم تُعْبد. حتى إذا هلك أُولئك ونُسِي العلم عُبِدَت» .

قوله: «**في الصحيح**» أي: «صحيح البخاري».

وهذا الأثر اختصره المصنف. ولفظ ما في البخاري: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «صارت الأوثان التي في قوم نوح في العرب بعدُ. أما وَدٌّ: فكانت لكلب بدَوْمَة الجندل. وأما سُواع؛ فكانت لهذيل. وأما يغوث: فكانت لمراد، ثم لبني غُطيف بالجُرف عند سبأ. وأما يعوق: فكانت لهمدان. وأما نسر: فكانت لحِمْيَر لآل ذي الكلاع: أسماء رجال صالحين في قوم نوح. . . إلخ».

وروى عكرمة والضحاك وابن إسحاق نحو هذا.

قال ابن جرير: حدثنا ابن حميد قال: حدثنا مهران عن سفيان عن موسى عن محمد بن قيس «أن يغوث ويعوق ونسراً كانوا قوماً صالحين من بني آدم، وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابهم: لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة؛ فصوروهم، فلما ماتوا وجاء آخرون دبَّ إليهم إبليس، فقال: إنما كانوا يعبدونهم وبهم يُسقون المطر، فعبدوهم».

قوله: «**أن انصبوا**» هو بكسر الصاد المهملة.

قوله: «**أنصاباً**» جمع نُصب، والمراد به هنا: الأصنام المصورة على صور أولئك الصالحين التي نصبوها في مجالسهم، وسموها بأسمائهم. وفي سياق حديث ابن عباس ما يدل على أن الأصنام تسمى أوثاناً. فاسم الوثن يتناول كل معبود من دون الله، سواء كان ذلك المعبود قبراً أو مشهداً، أو صورة أو غير ذلك.

قوله: «**حتى إذا هلك أُوْلئِكَ**» أي الذين صوروا تلك الأصنام.

قوله: «**ونُسي العلم**» ورواية البخاري «وينسخ» وللكشميهني «ونسخ العلم» أي درست آثاره بذهاب العلماء، وعم الجهل حتى صاروا لا يميزون بين التوحيد والشرك، فوقعوا في الشرك ظناً منهم أنه ينفعهم عند الله.

قوله: «**عبدت**» لما قال لهم إبليس: إن من كان قبلكم كانوا يعبدونهم وبهم يُسقون المطر، هو الذي زين لهم عبادة الأصنام وأمرهم بها، فصار هو معبودهم في الحقيقة. كما قال تعالى: ﴿۞أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُواْ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يس: ٦٠ ـ ٦٢] وهذا يفيد الحذر من الغلو ووسائل الشرك، وإن كان القصد بها حسناً، فإن الشيطان أدخل أولئك في الشرك من باب الغلو في الصالحين والإفراط في محبتهم، كما قد وقع مثل ذلك في هذه الأمة: أظهر لهم الغلو والبدع في قالب تعظيم الصالحين ومحبتهم، ليوقعهم فيما هو أعظم من ذلك، من عبادتهم لهم من دون الله. وفي رواية «أنهم قالوا: ما عظّم أوّلنا هؤلاء إلا وهم يرجون شفاعتهم عند الله» أي يرجون شفاعة أولئك الصالحين الذين صوروا تلك الأصنام على صورهم وسموها بأسمائهم. ومن هنا يعلم أن اتخاذ الشفعاء ورجاء شفاعتهم بطلبها منهم: شرك بالله، كما تقدم بيانه في الآيات المحكمات.

وقال ابن القيم: قال غير واحد من السلف: «لما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوَّروا تماثيلهم، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم».

قوله: «وقال ابن القيم رحمه الله: قال غير واحد من السلف: «لما ماتوا عكفوا على قبورهم، ثم صوَّروا تماثيلهم، ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم».

قوله: «وقال ابن القيم رحمه الله» هو الإمام العلامة محمد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي الدمشقي المعروف بابن قيم الجوزية. قال الحافظ السخاوي: العلامة الحجة المتقدم في سعة العلم ومعرفة الخلاف وقوة الجنان، المجمع عليه بين الموافق والمخالف، صاحب التصانيف السائرة، والمحاسن الجمة. مات سنة إحدى وخمسين وسبعمائة.

قوله: «وقال غير واحد من السلف» هو بمعنى ما ذكره البخاري وابن جرير، إلا أنه ذكر عكوفهم على قبورهم قبل تصويرهم تماثيلهم. وذلك من وسائل الشرك، بل هو الشرك، لأن العكوف لله في المساجد عبادة. فإذا عكفوا على القبور صار عكوفهم تعظيماً ومحبة: عبادة لها.

قوله: «ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم» أي طال عليهم الزمان. وسبب تلك العبادة والموصل إليها: هو ما جرى من الأولين من التعظيم بالعكوف على قبورهم، ونصب صورهم في مجالسهم، فصارت بذلك أوثاناً تعبد من دون الله، كما ترجم به المصنف رحمه الله تعالى. فإنهم تركوا بذلك دين الإسلام الذي كان أولئك عليه قبل حدوث وسائل هذا الشرك، وكفروا بعبادة تلك الصور واتخذوهم شفعاء. وهذا أول شرك حدث في الأرض.

قال القرطبي: وإنما صوَّر أوائلهم الصور ليتأسوا بهم، ويتذكروا أفعالهم الصالحة فيجتهدوا كاجتهادهم، ويعبدوا الله عند قبورهم. ثم خلفهم قوم جهلوا مرادهم، فوسوس لهم الشيطان أن أسلافهم كانوا

يعبدون هذه الصور ويعظمونها. اهـ.

قال ابن القيم رحمه الله: ومازال الشيطان يوحي إلى عباد القبور ويلقي إليهم أن البناء والعكوف عليها من محبة أهل القبور من الأنبياء والصالحين، وأن الدعاء عندها مستجاب، ثم ينقلهم من هذه المرتبة إلى الدعاء بها، والإقسام على الله بها، فإن شأن الله أعظم من أن يقسم عليه، أو يسأل بأحد من خلقه.

فإذا تقرر ذلك عندهم نقلهم منه إلى دعائه وعبادته، وسؤاله الشفاعة من دون الله، واتخاذ قبره وثناً تعلق عليه القناديل والستور، ويطاف به ويستلم ويقبل، ويحج إليه ويذبح عنده.

فإذا تقرر ذلك عندهم نقلهم منه إلى دعاء الناس إلى عبادته، واتخاذه عيداً ومنسكاً، ورأوا أن ذلك أنفع لهم في دنياهم وأُخراهم. وكل هذا مما قد علم بالاضطرار من دين الإسلام أنه مضاد لما بعث الله به رسوله ﷺ: من تجريد التوحيد، وأن لا يعبد إلا الله.

فإذا تقرر ذلك عندهم نقلهم منه إلى أن مَن نهى عن ذلك فقد تنقّص أهل هذه الرتب العالية، وحطهم عن منزلتهم، وزعم أنه لا حرمة لهم ولا قدر، فغضب المشركون واشمأزت قلوبهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [الزمر: ٤٥] وسرى ذلك في نفوس كثير من الجهال والطغام، وكثير ممن ينتسب إلى العلم والدين، حتى عادَوْا أهل التوحيد، ورموهم بالعظائم، ونفَّروا الناس عنهم، ووالَوْا أهل الشرك وعظَّموهم، وزعموا أنهم أولياء الله، وأنصار دينه ورسوله، ويأبى الله ذلك ﴿وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [الأنفال: ٣٤]. انتهى كلام ابن القيم رحمه الله.

وفي القصة فوائد ذكرها المصنف رحمه الله.

ومنها: رد الشبه التي يسميها أهل الكلام عقليات، ويدفعون بها ما جاء به الكتاب والسنة: من توحيد الصفات، وإثباتها على ما يليق بجلال الله وعظمته وكبريائه.

ومنها: مضرة التقليد.

ومنها: ضرورة الأمة إلى ما جاء به الرسول ﷺ علماً وعملاً بما يدل عليه الكتاب والسنة، فإن ضرورة العبد إلى ذلك فوق كل ضرورة.

وعن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: «لا تُطْرُوني كما أطرت النصارى ابن مريم. إنما أنا عبدٌ، فقولوا: عبدالله ورسوله» أخرجاه.

قوله: «وعن عمر رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «لا تُطْرُوني كما أطرت النصارى ابن مريم. إنما أنا عبدٌ، فقولوا: عبدالله ورسوله» أخرجاه.

قوله: «عن عمر» هو ابن الخطاب بن نفيل ـ بنون وفاء مصغراً ـ العدوى، أمير المؤمنين، وأفضل الصحابة بعد الصديق رضي الله عنهم. ولِيَ الخلافة عشر سنين ونصفاً، فامتلأت الدنيا عدلاً، وفتحت في أيامه ممالك كسرى وقيصر. واستشهد في ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين رضي الله عنه.

قوله: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم» الإطراء: مجاوزة الحدّ في المدح، والكذب فيه. قاله أبوالسعادات. وقال غيره: أي لا تمدحوني بالباطل، ولا تجاوزوا الحدَّ في مدحي.

قوله: «إنما أنا عبد، فقولوا عبدالله ورسوله» أي لا تمدحوني فتغلوا في مدحي، كما غلت النصارى في عيسى عليه السلام، فادَّعوا فيه الإلٰهية. وإنما أنا عبدالله ورسوله، فصِفوني بذلك كما وصفني ربي، فقولوا: عبدالله ورسوله. فأبى المشركون إلا مخالفة أمره، وارتكاب نهيه، وعظموه بما نهاهم عنه وحذرهم منه، وناقضوه أعظم مناقضة، وضاهوا النصارى في غلوهم وشركهم، ووقعوا في المحذور، وجرى منهم من الغلو والشرك شعراً ونثراً ما يطول عده، وصنفوا فيه مصنفات.

وقد ذكر شيخ الإسلام رحمه الله عن بعض أهل زمانه: أنه جوّز الاستغاثة بالرسول ﷺ في كل ما يستغاث فيه بالله؛ وصنف في ذلك مصنفاً رده شيخ الإسلام، وردُّه موجود بحمد الله. ويقول: إنه يعلم مفاتيح الغيب التي لا يعلمها إلا الله. وذكر عنهم أشياء من هذا النمط. نعوذ بالله من عمى البصيرة.

وقد اشتهر في نظم البوصيري قوله:

ياأكرم الخلق مالي من ألوذ به   سواك عند حلول الحادث العَمِمِ

وما بعده من الأبيات التي مضمونها: إخلاص الدعاء واللياذ والرجاء والاعتماد في أضيق الحالات، وأعظم الاضطرار لغير الله، فناقضوا الرسول ﷺ بارتكاب ما نهى عنه أعظم مناقضة، وشاقوا الله ورسوله أعظم مشاقة، وذلك أن الشيطان أظهر لهم هذا الشرك العظيم في قالب محبة النبي ﷺ وتعظيمه، وأظهر لهم التوحيد والإخلاص الذي بعثه الله به في قالب تنقيصه، وهؤلاء المشركون هم المتنقصون الناقصون، أفرطوا في تعظيمه بما نهاهم عنه أشد النهي، وفرطوا في متابعته، فلم يعبؤوا بأقواله وأفعاله، ولا رضوا بحكمه ولا سلموا له، وإنما يحصل تعظيم الرسول ﷺ بتعظيم أمره ونهيه، والاهتداء بهديه، واتباع سنته،

والدعوة إلى دينه الذي دعا إليه ونصرته،، وموالاة من عمل به، ومعاداة من خالفه. فعكس أولئك المشركون ما أراد الله ورسوله علماً وعملاً، وارتكبوا ما نهى الله عنه ورسوله، فالله المستعان.

قال: وقال رسول الله ﷺ: «إياكم والغلو: فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو».

قوله: «وقال رسول الله ﷺ: «إياكم والغلو؛ فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو».

هذا الحديث ذكره المصنف بدون ذكر راويه. وقد رواه الإمام أحمد والترمذي وابن ماجه من حديث ابن عباس.

وهذا لفظ رواية أحمد: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال لي رسول الله ﷺ غَداة جَمْع «هَلُمَّ الْقُطْ لي، فلقطتُ له حصيات هن حَصَى الخَذْف، فلما وضعهن في يده قال: **نعم بأمثال هؤلاء فارموا وإياكم والغلو في الدين؛ فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين**».

قال شيخ الإسلام: هذا عام في جميع أنواع الغلو في الاعتقادات والأعمال. وسبب هذا اللفظ العام رمْي الجمار، وهو داخل فيه، مثل الرمي بالحجارة الكبار، بناء على أنه أبلغ من الصغار ثم علله بما يقتضي مجانبة هدي من كان قبلنا إبعاداً عن الوقوع فيما هلكوا به؛ فإن المشارك لهم في بعض هديهم يُخاف عليه من الهلاك.

ولمسلم عن ابن مسعود: أن رسول الله ﷺ قال: «هلك المتنطعون ـ قالها ثلاثاً».

قوله: «ولمسلم عن ابن مسعود: أن رسول الله ﷺ قال: «هلك

المتنطعون ـ قالها ثلاثاً».

قال الخطابي: المتنطع: المتعمق في الشيء، المتكلف البحث عنه على مذاهب أهل الكلام الداخلين فيما لا يعنيهم، الخائضين فيما لا تبلغه عقولهم.

ومن التنطع: الامتناع من المباح مطلقاً، كالذي يمتنع من أكل اللحم والخبز، ومن لبس الكتان والقطن، ولا يلبس إلا الصوف، ويمتنع من نكاح النساء، ويظن أن هذا من الزهد المستحب، قال الشيخ تقي الدين: فهذا جاهل ضال. انتهى.

وقال ابن القيم رحمه الله: قال الغزالي: والمتنطعون في البحث والاستقصاء.

وقال أبوالسعادات: هم المتعمقون الغالون في الكلام، المتكلمون بأقصى حلوقهم. مأخوذ من النطع، وهو الغار الأعلى من الفم، ثم استعمل في كل متعمق قولاً وفعلاً.

وقال النووي: فيه: كراهة التقعر في الكلام بالتشدق وتكلف الفصاحة، واستعمال وحشي اللغة ودقائق الإعراب في مخاطبة العوام ونحوهم.

قوله: «قالها ثلاثاً» أي قال هذه الكلمة ثلاث مرات، مبالغة في التعليم والإبلاغ، فقد بلغ البلاغ المبين. صلوات الله وسلامه عليه، وعلى آله وصحبه أجمعين.

فيه مسائل:

الأولـى: أن مَنْ فهم هذا البابَ وبابين بعده تبين له غربة الإسلام، ورأى من قدرة الله وتقليبه للقلوب العجب.

الثانيـة: معرفة أول شرك حدث في الأرض أنه بشبهة الصالحين.

الثالثـة: أول شيء غُيِّر به دين الأنبياء وما سبب ذلك مع معرفة أن الله أرسلهم.

الرابعـة: قبول البدع مع كون الشرائع والفِطَر تردها.

الخامسة: أن سبب ذلك كله مَزْجُ الحق بالباطل، فالأول: محبة الصالحين. والثاني: فعل أناس من أهل العلم شيئاً أرادوا به خيراً، فظن من بعدهم أنهم أرادوا به غيره.

السادسة: تفسير الآية التي في سورة نوح.

السابعـة: جِبِلَّة الآدمي في كون الحق ينقص في قلبه والباطل يزيد.

الثامنـة: فيه شاهد لما نقل عن السلف أن البدع سبب الكفر.

التاسعة: معرفة الشيطان بما تؤول إليه البدعة، ولو حَسُن قصد الفاعل.

العاشرة: معرفة القاعدة الكلية، وهي النهي عن الغلوومعرفة مايؤول إليه

الحادية عشرة: مَضرَّة العكوف على القبر لأجل عمل صالح.

الثانية عشـرة: معرفة النهي عن التماثيل، والحكمة في إزالتها.

الثالثة عشـرة: معرفة شأن هذه القصة، وشدةالحاجة إليها مع الغفلة عنها

الرابعة عشرة: وهي أعجب وأعجب: قراءتهم إياها في كتب التفسير والحديث، ومعرفتهم بمعنى الكلام، وكون الله حال بينهم وبين قلوبهم، حتى اعتقدو أن فِعل قوم نوح أفضل العبادات، فاعتقدوا أن ما نهى الله ورسوله عنه فهو الكفر المبيح للدم والمال.

الخامسة عشرة: التصريح بأنهم لم يريدوا إلا الشفاعة.
السادسة عشرة: ظنهم أن العلماء الذين صوروا الصور أرادوا ذلك.
السابعة عشرة: البيان العظيم في قوله: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم» فصلوات الله وسلامه على من بلّغ البلاغ المبين.
الثامنة عشرة: نصيحته إيانا بهلاك المتنطعين.
التاسعة عشرة: التصريح بأنها لم تعبد حتى نُسي العلم، ففيها: بيان معرفة قدر وجوده، ومضرة فقده.
العشرون: أن سبب فقد العلم موت العلماء.

باب ما جاء من التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح، فكيف إذا عبده

قوله: «باب ما جاء من التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح، فكيف إذا عبده؟»

أي: الرجل الصالح؛ فإن عبادته هي الشرك الأكبر، وعبادة الله عنده وسيلة إلى عبادته، ووسائل الشرك محرمة؛ لأنها تؤدي إلى الشرك الأكبر، وهو أعظم الذنوب.

في «الصحيح» عن عائشة: أن أُم سلمة ذكرَت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها بأرض الحبشة وما فيها من الصور، فقال: أُولئكِ إذا مات فيهم الرجل الصالح، أو العبد الصالح، بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور، أولئكِ شرار الخلق عند الله».

فهؤلاء جمعوا بين فتنتين: فتنة القبور، وفتنة التماثيل.

قوله: «في «الصحيح» عن عائشة رضي الله عنها: أن أُم سلمة ذكرَت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها بأرض الحبشة وما فيها من الصور، فقال: أُولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح، أو العبد الصالح، بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله».

فهؤلاء جمعوا بين الفتنتين: فتنة القبور، وفتنة التماثيل.

قوله: «في «الصحيح» أي الصحيحين».

قوله: «**أن أم سلمة**» هي هند بنت أبي أمية بن المغيرة بن عبدالله بن عمرو بن مخزوم القرشية المخزومية. تزوجها رسول الله ﷺ بعد أبي سلمة سنة أربع. وقيل: ثلاث، وكانت قد هاجرت مع أبي سلمة إلى الحبشة، ماتت سنة اثنتين وستين.

قوله: «**ذكرت لرسول الله ﷺ**» وفي «الصحيحين» «أن أم حبيبة وأم سلمة ذكرتا ذلك لرسول الله ﷺ»، و«الكنيسة» بفتح الكاف وكسر النون: معبد النصارى.

قوله: «**أولئك**» بكسر الكاف، خطاب للمرأة.

قوله: «**إذا مات فيهم الرجل أو العبد الصالح**» هذا ـ والله أعلم ـ شك من بعض رواة الحديث: هل قال النبي ﷺ هذا أو هذا؟ ففيه: التحري في الرواية، وجواز الرواية بالمعنى.

قوله: «**وصوروا فيه تلك الصور**» الإشارة إلى ما ذكرت أم سلمة وأم حبيبة من التصاوير التي في الكنيسة.

قوله: «**أولئك شرار الخلق عند الله**» وهذا يقتضي تحريم بناء المساجد على القبور، وقد لعن ﷺ من فعل ذلك كما سيأتي.

قال البيضاوي: لما كانت اليهود والنصارى يسجدون لقبور الأنبياء تعظيماً لشأنهم، ويجعلونها قبلة يتوجهون في الصلاة نحوها واتخذوها أوثاناً لعنهم النبي ﷺ.

قال القرطبي: وإنما صور أوائلهم الصور ليتأسوا بها، ويتذكروا أعمالهم الصالحة فيجتهدوا كاجتهادهم، ويعبدوا الله عند قبورهم، ثم خلفهم قوم جهلوا مرادهم ووسوس لهم الشيطان أن أسلافهم كانوا يعبدون هذه الصور ويعظمونها، فحذر النبي ﷺ عن مثل ذلك، سداً للذريعة المؤدية إلى ذلك.

قوله: «فهؤلاء جمعوا بين فتنتين: فتنة القبور، وفتنة التماثيل» هذا من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى، ذكره المصنف رحمه الله تنبيهاً على ما وقع من شدة الفتنة بالقبور والتماثيل، فإن الفتنة بالقبور كالفتنة بالأصنام أو أشد.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: وهذه العلة التي لأجلها نهى الشارع ﷺ عن اتخاذ المساجد على القبور هي التي أوقعت كثيراً من الأمم، إما في الشرك الأكبر، أو فيما دونه من الشرك، فإن النفوس قد أشركت بتماثيل الصالحين، وتماثيل يزعمون أنها طلاسم الكواكب ونحو ذلك، فإن الشرك بقبر الرجل الذي يُعتقد صلاحه أقرب إلى النفوس من الشرك بخشبة أو حجر. ولهذا تجد أهل الشرك يتضرعون عندها ويخشعون ويخضعون، ويعبدون بقلوبهم عبادة لا يفعلونها في بيوت الله ولا وقت السحر، ومنهم من يسجد لها، وأكثرهم يرجون من بركة الصلاة عندها والدعاء ما لا يرجونه في المساجد، فلأجل هذه المفسدة حسم النبي ﷺ مادتها، حتى نهى عن الصلاة في المقبرة مطلقاً، وإن لم يقصد المصلي بركة البقعة بصلاته، كما يقصد بصلاته بركة المساجد، كما نهى عن الصلاة وقت طلوع الشمس وغروبها، لأنها أوقات يقصد فيها المشركون الصلاة للشمس، فنهى أمته عن الصلاة حينئذٍ وإن لم يقصد ما قصده المشركون، سداً للذريعة.

وأما إذا قصد الرجل الصلاة عند القبور متبركاً بالصلاة في تلك البقعة فهذا عين المحادة لله ولرسوله، والمخالفة لدينه، وابتداع دين لم يأذن به الله، فإن المسلمين قد أجمعوا على ما علموه بالاضطرار من دين الرسول ﷺ: أن الصلاة عند القبور منهي عنها، وأنه ﷺ لعن من اتخذها مساجد، فمن أعظم المحدثات وأسباب الشرك: الصلاة عندها،

واتخاذها مساجد وبناء المساجد عليها. وقد تواترت النصوص عن النبي ﷺ بالنهي عن ذلك والتغليظ فيه.

وقد صرح عامة الطوائف بالنهي عن بناء المساجد عليها، متابعة منهم للسنة الصحيحة الصريحة وصرح أصحاب أحمد وغيرهم من أصحاب مالك والشافعي بتحريم ذلك، وطائفة أطلقت الكراهة. والذي ينبغي: أن تحمل على كراهة التحريم، إحساناً للظن بالعلماء، وأن لا يظن بهم أن يجوزوا فعل ما تواتر عن رسول الله ﷺ من لعن فاعله والنهي عنه. اهـ كلامه رحمه الله تعالى.

ولهما عنها قالت: «لما نُزِل برسول الله ﷺ طَفِقَ يطرح خميصة له على وجهه، فإذا اغتمَّ بها كشفها فقال ـ وهو كذلك ـ: لعنة الله على اليهود والنصارى؛ اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، يُحَذِّر ما صنعوا، ولولا ذلك أُبرز قبره، غير أنه خَشِي أن يُتخذ مسجداً» أخرجاه.

قوله: ولهما عنها ـ أي عائشة ـ قالت: «لما نُزِل برسول الله ﷺ طَفِقَ يطرح خميصة له على وجهه، فإذا اغتمَّ بها كشفها فقال ـ وهو كذلك ـ: لعن الله اليهود والنصارى؛ اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، يُحَذِّر ماصنعوا، ولولا ذلك أُبرز قبره، غير أنه خَشِي أن يُتخذ مسجداً» أخرجاه.

قوله: «**ولهما**» أي البخاري ومسلم. وهو يغني عن قوله في آخره «أخرجاه».

قوله: «**لما نزل**» هو بضم النون وكسر الزاي: أي نزل به ملك الموت والملائكة الكرام عليهم السلام.

قوله: «**طفق**» بكسر الفاء وفتحها، والكسر أفصح، وبه جاء القرآن. ومعناه: جعل.

قوله: «**خميصة**» بفتح المعجمة والصاد المهملة: كساء له أعلام.

قوله: «**فإذا اغتم بها كشفها**» أي عن وجهه.

قوله: «**لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**». يبين أن من فعل مثل ذلك حَلَّ عليه من اللعنة ما حلَّ على اليهود والنصارى.

قوله: «**يحذر ما صنعوا**» الظاهر: أن هذا من كلام عائشة رضي الله عنها، لأنها فهمت من قول النبي ﷺ ذلك تحذير أمته من هذا الصنيع الذي كانت تفعله اليهود والنصارى في قبور أنبيائهم، فإنه من الغلو في الأنبياء، ومن أعظم الوسائل إلى الشرك.

ومن غربة الإسلام أن هذا الذي لعن رسول الله ﷺ فاعليه ـ تحذيراً لأمته أن يفعلوه معه ﷺ ومع الصالحين من أمته ـ قد فعله الخلق الكثير من متأخري هذه الأمة، واعتقدوه قربة من القربات، وهو من أعظم السيئات والمنكرات، وما شعروا أن ذلك محادة لله ورسوله.

قال القرطبي في معنى هذا الحديث: وكل ذلك لقطع الذريعة المؤدية إلى عبادة من فيها، كما كان السبب في عبادة الأصنام. انتهى.

إذا لا فرق بين عبادة القبر ومن فيه وعبادة الصنم، وتأمل قول الله تعالى عن نبيه يوسف بن يعقوب حيث قال: ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ﴾ [يوسف: ٣٨] نكرة في سياق النفي تعم كل شرك.

قوله: «**ولولا ذلك**» أي ما كان يحذر من اتخاذ قبر النبي ﷺ مسجداً لأبرز قبره، وجعل مع قبور الصحابة الذين كانت قبورهم في البقيع.

قوله: «**غير أنه خشي أن يتخذ مسجداً**» روي بفتح الخاء وضمها، فعلى

الفتح يكون هو الذي خشي ذلك ﷺ، وأمرهم أن يدفنوه في المكان الذي قبض فيه. وعلى رواية الضم يحتمل أن يكون الصحابة هم الذين خافوا أن يقع ذلك من بعض الأمة، فلم يبرزوا قبره، خشية أن يقع ذلك من بعض الأمة غلواً وتعظيماً بما أبدى وأعاد من النهي والتحذير منه ولعن فاعله.

قال القرطبي: ولهذا بالغ المسلمون في سد الذريعة في قبر النبي ﷺ فأغلقوا حيطان تربته وسدوا المداخل إليها، وجعلوها محدقة بقبره ﷺ، ثم خافوا أن يتخذ موضع قبره قبلة إذا كان مستقبل المصلين، فتصور الصلاة إليه بصورة العبادة فبنوا جدارين من ركني القبر الشماليين وحرفوهما حتى التقيا على زاوية مثلثة من ناحية الشمال حتى لا يتمكن أحد من استقبال قبره. انتهى.

ولمسلم عن جُنْدُب بن عبدالله قال: سمعتُ النبي ﷺ قَبْل أن يموت بخمسٍ وهو يقول: «إني أَبْرَأُ إلى الله أن يكونَ لي منكم خليلٌ: فإنّ الله قد اتخَذَني خَليلاً، كما اتخذَ إبراهيم خليلاً. ولو كنت مُتَّخذاً من أُمتي خليلاً، لاتَّخذت أبابكر خليلاً، ألا وإنَّ من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد، أَلا فَلاَ تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك».

فقد نهى عنه في آخر حياته.

ثم إنه لعن ـ وهو في السياق ـ من فعله، والصلاة عندها

من ذلك، وإن لم يُبْنَ مَسْجِد وهو معنى قولها «خشي أن يتخذ مسجداً» فإن الصحابة لم يكونوا لِيبنوا حَول قبره مسجداً. وكل موضع قُصد الصلاة فيه فقد اتخذ مسجداً، بل كل موضع يُصلَّى فيه يسمى مسجداً. كما قال ﷺ: «جُعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً».

قوله: ولمسلم عن جُنْدُب بن عبدالله قال: سمعتُ النبي ﷺ قَبْل أن يموت بخمسٍ وهو يقول: «إني أَبْرَأُ إلى الله أن يكونَ لي منكم خليلٌ: فإن الله قد اتخَذَني خَليلاً، كما اتخذَ إبراهيم خليلاً. ولو كنت مُتَّخذاً من أُمتي خليلاً، لاتَّخذت أبابكر خليلاً، ألا وإنَّ من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد، أَلا فَلاَ تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك».

قوله: «عن جندب بن عبدالله» أي ابن سفيان البجلي، وينسب إلى جده، صحابي مشهور. مات بعد الستين.

قوله: «إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل» أي أمتنع عما لا يجوز لي أن أفعله؛ والخلة فوق المحبة، والخليل هو المحبوب غاية الحب، مشتق من الخلة ـ بفتح الخاء ـ وهي تخلل المودة في القلب، كما قال الشاعر:

قد تخللت مسلك الروح مني   وبــذا سمــي الخليــل خليــلا

هذا هو الصحيح في معناها. كما ذكره شيخ الإسلام وابن القيم وابن كثير وغيرهم رحمهم الله تعالى.

قال القرطبي: وإنما كان ذلك لأن قلبه ﷺ قد امتلأ من محبة الله

وتعظيمه ومعرفته فلا يسع خلَّة غيره.

قوله: «فإن الله قد اتخذني خليلاً» فيه: بيان أن الخلة فوق المحبة.

قال ابن القيم رحمه الله: أما ما يظنه بعض الغالطين من أن المحبة أكمل من الخلة، وأن إبراهيم خليل الله، ومحمد حبيب الله ـ فمن جهلهم، فإن المحبة عامة، والخلة خاصة، وهي نهاية المحبة. وقد أخبر النبي ﷺ أن الله قد اتخذه خليلاً، ونفى أن يكون له خليل غير ربه، مع إخباره بحبه لعائشة ولأبيها، ولعمر بن الخطاب، ومعاذ بن جبل وغيرهم رضي الله عنهم. وأيضاً فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ويحب الصابرين، وخلته خاصة بالخليلين.

قوله: «ولو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبابكر خليلاً» فيه: بيان أن الصديق أفضل الصحابة. وفيه الرد على الرافضة وعلى الجهمية، وهما شر أهل البدع، وأخرجهم بعض السلف من الثنتين والسبعين فرقة. وبسبب الرافضة حدث الشرك وعبادة القبور، وهم أول من بنى عليها المساجد. قاله المصنف رحمه الله، وهو كما قال بلا ريب.

وفيه إشارة إلى خلافة أبي بكر؛ لأن من كانت محبته لشخص أشد كان أولى به من غيره، وقد استخلفه على الصلاة بالناس، وغضب ﷺ لما قيل: يصلي بهم عمر، وذلك في مرضه الذي توفي فيه ﷺ.

واسم أبي بكر: عبدالله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة. الصديق الأكبر، خليفة رسول الله ﷺ، وأفضل الصحابة بإجماع من يعتد بقوله من أهل العلم. مات في جمادى الأولى سنة ثلاث عشرة، وله ثلاث وستون سنة رضي الله عنه.

قوله: «ألا» حرف استفتاح و«إن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد...» الحديث.

قال الخطابي: وإنكار النبي ﷺ صنيعهم هذا مخرج على وجهين:
أحدهما: أنهم يسجدون لقبور الأنبياء تعظيماً.

الثاني: أنهم يجوزون الصلاة في مدافن الأنبياء والتوجه إليها حالة الصلاة، نظراً منهم بذلك إلى عبادة الله والمبالغة في تعظيم الأنبياء. والأول: هو الشرك الجلي، والثاني: الخفي، فلذلك استحقوا اللعن.

قوله: «فقد نهى عنه في آخر حياته» أي كما في حديث جندب، وهذا من كلام شيخ الإسلام، وكذا ما بعده.

قوله: «ثم إنه لعن ـ وهو في السياق ـ من فعله ـ» كما في حديث عائشة.

قلت: فكيف يسوغ بعد هذا التغليظ من سيد المرسلين أن تعظم القبور ويبنى عليها، ويصلى عندها وإليها، هذا أعظم مشاقَّة ومحادَّة لله تعالى ولرسوله ﷺ، لو كانوا يعقلون.

قوله: «الصلاة عندها من ذلك، وإن لم يبن مسجد» أي من اتخاذها مساجد، الملعون فاعله، وهذا يقتضي تحريم الصلاة عند القبور وإليها.

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعاً **«الأرض كلها مسجد إلا المقبرة والحمام»** رواه أحمد وأهل السنن، وصححه ابن حبان والحاكم.

قال ابن القيم رحمه الله: وبالجملة، فمن له معرفة بالشرك وأسبابه وذرائعه، وفهم عن رسول الله ﷺ مقاصده، جزم جزماً لا يحتمل النقيض أن هذه المبالغة واللعن والنهي بصيغتيه ـ صيغة **«لا تفعلوا»** وصيغة **«إني أنهاكم عن ذلك»** ـ ليس لأجل النجاسة، بل هو لأجل نجاسة الشرك اللاحقة لمن عصاه، وارتكب ما عنه نهاه، واتبع هواه، ولم يخش ربه ومولاه، وقلَّ نصيبه أو عدُم من «لا إله إلا الله» فإن هذا وأمثاله من النبي ﷺ صيانة لحمى التوحيد أن يلحقه الشرك ويغشاه؛

وتجريد له وغضبٌ لربه أن يعدل به سواه، فأبى المشركون إلا معصية لأمره. وارتكاباً لنهيه، وغرَّهم الشيطان بأن هذا تعظيم لقبور المشايخ والصالحين، وكلما كنتم لها أشد تعظيماً وأشد فيهم غلواً كنتم بقربهم أسعد، ومن أعدائهم أبعد.

ولعمر الله، من هذا الباب دخل الشيطان على عباد يغوث ويعوق ونسر، ودخل على عباد الأصنام منذ كانوا إلى يوم القيامة. فجمع المشركون بين الغلو فيهم والطعن في طريقتهم. فهدى الله أهل التوحيد لسلوك طريقتهم وأنزلهم منازلهم التي أنزلهم الله إياها: من العبودية، وسلب خصائص الإلٰهية عنهم.

قال الشارح رحمه الله تعالى: وممن علل بخوف الفتنة بالشرك: الإمام الشافعي، وأبوبكر الأثرم، وأبومحمد المقدسي، وشيخ الإسلام، وغيرهم رحمهم الله، وهو الحق الذي لا ريب فيه.

قوله: «فإن الصحابة لم يكونوا ليبنوا حول قبره مسجداً» أي لما علموا من تشديده في ذلك، وتغليظه النهي عنه، ولعن من فعله.

قوله: «وكل موضع قصدت الصلاة فيه فقد اتخذ مسجداً» أي وإن لم يبن مسجد، **«بل كل موضع يصلى فيه يسمى مسجداً»**، يعني وإن لم يقصد بذلك، كما إذا عرض لمن أراد أن يصلي فأوقع الصلاة عنده من غير أن يقصد ذلك الموضع بخصوصه، فصار بفعل الصلاة فيه مسجداً.

قوله: «كما قال ﷺ: «جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً»» أي فسمى الأرض مسجداً تجوز الصلاة في كل بقعة منها، إلا ما استثنى من المواضع التي لا تجوز الصلاة فيها كالمقبرة ونحوها.

قال البغوي في «شرح السنة»: أراد أنّ أهل الكتاب لم تبح لهم الصلاة إلا في بِيَعِهم وكنائسهم، فأباح الله لهذه الأمة الصلاة حيث

كانوا، تخفيفاً عليهم وتيسيراً، ثم خص من جميع المواضع الحمام والمقبرة والمكان النجس. انتهى.

ولأحمد بسند جيد عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً: «إن من شرار الناس مَن تُدركهم الساعة وهم أحياء، والذين يتخذون القبور مساجد» ورواه أبوحاتم ابن حبان في «صحيحه».

قوله: «ولأحمد بسند جيد عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً: «إن من شرار الناس مَن تُدركهم الساعة وهم أحياء، والذين يتخذون القبور مساجد» ورواه أبوحاتم ابن حبان في «صحيحه».

قوله: «إن من شرار الناس» بكسر الشين جمع شرير.

قوله: «من تدركهم الساعة وهم أحياء» أي مقدماتها، كخروج الدابة، وطلوع الشمس من مغربها. وبعد ذلك ينفخ في الصور نفخة الفزع.

قوله: «والذين يتخذون القبور مساجد» معطوف على خبر «إن» في محل نصب على نية تكرار العامل، أي وإن من أشرار الناس الذين يتخذون القبور مساجد أي بالصلاة عندها وإليها، وبناء المساجد عليها، وتقدم في الأحاديث الصحيحة أن هذا من عمل اليهود والنصارى، وأن النبي ﷺ لعنهم على ذلك، تحذيراً للأمة أن يفعلوا مع نبيهم وصالحيهم مثل اليهود والنصارى، فما رفع أكثرهم بذلك رأساً، بل اعتقدوا أن هذا الأمر قربة إلى الله، وهو ما يبعدهم عن الله ويطردهم عن رحمته ومغفرته. والعجب أن أكثر من يدَّعي العلم ممن هو من هذه الأمة لا ينكرون ذلك، بل ربما استحسنوه ورغَّبوا في فعله، فلقد اشتدت غربة

الإسلام وعاد المعروف منكراً والمنكر معروفاً، والسنة بدعة والبدعة سنة، نشأ على هذا الصغير، وهرم عليه الكبير.

قال شيخ الإسلام: أما بناء المساجد على القبور: فقد صرح عامة الطوائف بالنهي عنه، متابعة للأحاديث الصحيحة، وصرح أصحابنا وغيرهم من أصحاب مالك والشافعي بتحريمه. قال: ولاريب في القطع بتحريمه، ثم ذكر الأحاديث في ذلك ـ إلى أن قال ـ: وهذه المساجد المبنية على قبور الأنبياء والصالحين أو الملوك وغيرهم، تتعين إزالتها بهدم أو غيره، هذا مما لا أعلم فيه خلافاً بين العلماء المعروفين.

وقال ابن القيم رحمه الله: يجب هدم القِباب التي بنيت على القبور، لأنها أسست على معصية الرسول ﷺ، وقد أفتى جماعة من الشافعية بهدم ما في القرافة من الأبنية منهم ابن الجميزي والظهير الترميني وغيرهما.

وقال القاضي ابن كج: ولا يجوز أن تجصص القبور، ولا أن يبنى عليها قباب ولا غير قباب، والوصية بها باطلة.

وقال الأذرعي: وأما بطلان الوصية ببناء القباب وغيرها من الأبنية وإنفاق الأموال الكثيرة، فلا ريب في تحريمه.

وقال القرطبي في حديث جابر رضي الله عنه «نهى أن يجصص القبر أو يبنى عليه» وبظاهر هذا الحديث قال مالك، وكره البناء والجص على القبور، وقد أجازه غيره، وهذا الحديث حجة عليه.

وقال ابن رشد: كره مالك البناء على القبر وجعل البلاطة المكتوبة، وهو من بدع أهل الطول، أحدثوه إرادة الفخر والمباهاة والسمعة، وهو مما لا اختلاف فيه.

وقال الزيلعي: في «شرح الكنز»: ويكره أن يبنى على القبر. وذكر

قاضي خان: أنه لا يجصص القبر ولايبنى عليه، لما روي عن النبي ﷺ أنه نهى عن التجصيص والبناء فوق القبر. والمراد بالكراهة ـ عند الحنفية رحمهم الله ـ كراهة التحريم. وقد ذكر ذلك ابن نجيم في «شرح الكنز».

وقال الشافعي رحمه الله: أكره أن يعظم مخلوق، حتى يجعل قبره مسجداً؛ مخافة الفتنة عليه وعلى من بعده من الناس. وكلام الشافعي رحمه الله يبين أن مراده بالكراهة: كراهة التحريم.

قال الشارح رحمه الله تعالى: وجزم النووي رحمه الله في «شرح المهذب» بتحريم البناء مطلقاً، وذكر في «شرح مسلم» نحوه أيضاً.

وقال أبومحمد عبدالله بن أحمد بن قدامة إمام الحنابلة صاحب المصنفات الكبار «كالمغني» و«الكافي» وغيرهما رحمه الله تعالى: ولا يجوز اتخاذ المساجد على القبور، لأن النبي ﷺ قال: **«لعن الله اليهود والنصارى. . .»** الحديث. وقد روينا أن ابتداء عبادة الأصنام: تعظيم الأموات واتخاذ صورهم، والتمسح بها والصلاة عندها، انتهى.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: وأما المقبرة فلا فرق فيها بين الجديدة والعتيقة، انقلبت تربتها أو لم تنقلب. ولا فرق بين أن يكون بينه وبين الأرض حائل أو لا، لعموم الاسم وعموم العلة، ولأن النبي ﷺ لعن الذين اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، ومعلوم أن قبور الأنبياء لا تنجس.

وبالجملة، فمن علل النهي عن الصلاة في المقبرة بنجاسة التربة خاصة فهو بعيد عن مقصود النبي ﷺ، ثم لا يخلو أن يكون القبر قد بني عليه مسجد، فلا يصلى في هذا المسجد، سواء صلى خلف القبر أو أمامه بغير خلاف في المذهب، لأن النبي ﷺ قال: **«إن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، ألا فلا تتخذوا**

القبور مساجد، **فإني أنهاكم عن ذلك**». وخص قبور الأنبياء، لأن عكوف الناس على قبورهم أعظم، واتخاذها مساجد أشد، وكذلك إن لم يكن بني عليه مسجد، فهذا قد ارتكب حقيقة المفسدة التي كان النهي عن الصلاة عند القبور من أجلها، فإن كل مكان صلي فيه يسمى مسجداً، كما قال ﷺ: «**جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً**» وإن كان موضع قبر أو قبرين.

وقال بعض أصحابنا: لا يمنع الصلاة فيها لأنه لا يتناولها اسم المقبرة، وليس في كلام أحمد ولا بعض أصحابه هذا الفرق، بل عموم كلامهم يقتضي منع الصلاة عند كل قبر.

وقد تقدم عن علي رضي الله عنه أنه قال: «لا أصلي في حمام ولا عند قبر».

فعلى هذا: ينبغي أن يكون النهي متناولاً تحريم القبر وفنائه، ولا تجوز الصلاة في مسجد بني في مقبرة، سواء كان له حيطان تحجز بينه وبين القبور أو كان مكشوفاً.

قال في رواية الأثرم: إذا كان المسجد بين القبور لا يصلى فيه الفريضة، وإن كان بينها وبين المسجد حاجز فرخص أن يصلى فيه على الجنائز ولا يصلى فيه على غير الجنائز. وذكر حديث أبي مَرْثَد عن النبي ﷺ: «**لا تصلوا إلى القبور**» وقال: إسناده جيد انتهى.

ولو تتبعنا كلام العلماء في ذلك لاحتمل عدة أوراق. فتبين بهذا أن العلماء رحمهم الله بينوا أن علة النهي ما يؤدي إليه ذلك: من الغلو فيها وعبادتها من دون الله كما هو الواقع والله المستعان.

وقد حدث بعد الأئمة الذين يعتد بقولهم أناس كثر في أبواب العلم بالله اضطرابهم، وغلظ عن معرفة ما بعث الله به رسوله من الهدى

والعلم حجابهم، فقيدوا نصوص الكتاب والسنة بقيود أوهنت الانقياد، وغيروا بها ما قصده الرسول ﷺ بالنهي وأراد. فقال بعضهم: النهي عن البناء على القبور يختص بالمقبرة المسبلة، والنهي عن الصلاة فيها لتنجسها بصديد الموتى، وهذا كله باطل من وجوه:

منها: أنه من القول على الله بلا علم. وهو حرام بنص الكتاب.

ومنها: أن ما قالوه لا يقتضي لعن فاعله والتغليظ عليه، وما المانع له أن يقول: من صلى في بقعة نجسة فعليه لعنة الله. ويلزم على ما قاله هؤلاء: أن النبي ﷺ لم يبين العلة وأحال الأمة في بيانها على من يجيء بعده ﷺ وبعد القرون المفضلة والأئمة، وهذا باطل قطعاً وعقلاً وشرعاً، لما يلزم عليه من أن الرسول ﷺ عجز عن البيان أو قصر في البلاغ، وهذا من أبطل الباطل، فإن النبي ﷺ بلغ البلاغ المبين، وقدرته في البيان فوق قدرة كل أحد، فإذا بطل اللازم بطل الملزوم.

ويقال أيضاً: هذا اللعن والتغليظ الشديد إنما هو فيمن اتخذ قبور الأنبياء مساجد، وجاء في بعض النصوص ما يَعُم الأنبياء وغيرهم، فلو كانت هذه هي العلة لكانت منتفية في قبور الأنبياء، لكون أجسادهم طرية لا يكون لها صديد يمنع من الصلاة عند قبورهم، فإذا كان النهي عن اتخاذ المساجد عند القبور يتناول قبور الأنبياء بالنص، عُلم أن العلة ما ذكره هؤلاء العلماء الذين قد نقلت أقوالهم، والحمد لله على ظهور الحجة وبيان المحجة. والحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

فيــه مســائل:

الأولى: ما ذكر الرسول فيمن بنى مسجداً يعبد الله فيه عند قبر رجل صالح، ولو صحت نية الفاعل.

الثانيـــة: النهي عن التماثيل، وغِلظ الأمر في ذلك.

الثالثـــة: العبرة في مبالغته ﷺ في ذلك. كيف بيَّن لهم هذا أوَّلاً، ثم قبل موته بخمس قال ما قال، ثم لما كان في السياق لم يكتف بما تقدم.

الرابعـــة: نهيه عن فعله عند قبره قبل أن يوجد القبر.

الخامسة: أنه من سنن اليهود والنصارى في قبور أنبيائهم.

السادسة: لعنه إياهم على ذلك.

السابعـة: أن مراده تحذيره إيانا عن قبره.

الثامنـــة: العلة في عدم إبراز قبره.

التاسعة: في معنى اتخاذها مسجداً.

العاشرة: أنه قَرَن بين من اتخذها وبين من تقوم عليه الساعة، فذكر الذريعة إلى الشرك قبل وقوعه مع خاتمته.

الحادية عشرة: ذكره في خطبته قبل موته بخمس: الرد على الطائفتين اللتين هما أشرّ أهل البدع، بل أخرجهم بعض أهل العلم من الثنتين والسبعين فرقة، وهم الرافضة والجهمية. وبسبب الرافضة حدث الشرك وعبادة القبور. وهم أول من بنى عليها المساجد.

الثانية عشرة: ما بُلي به ﷺ من شدة النزع.

الثالثة عشرة: ما أُكرم به من الخلة.

الرابعة عشرة: التصريح بأنها أعلى من المحبة.

الخامسة عشرة: التصريح بأن الصديق أفضل الصحابة.

السادسة عشرة: الإشارة إلى خلافته.

باب ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثاناً تعبد من دون الله

روى مالك في «الموطأ»: أن رسول الله ﷺ قال: **اللهم لا تجعل قبري وثناً يُعبد، اشتد غضبُ اللهِ على قوم اتخذوا قبورَ أنبيائهم مساجد».**

قوله: (باب ما جاء أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثاناً تعبد من دون الله).

روى مالك في «الموطأ»: أن رسول الله ﷺ قال: **اللهم لا تجعل قبري وثناً يُعبد، اشتد غضبُ اللهِ على قوم اتخذوا قبورَ أنبيائهم مساجد».**

هذا الحديث رواه مالك مرسلاً عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار: أن رسول الله ﷺ قال: . . . الحديث. ورواه ابن أبي شيبة في «مصنفه» عن ابن عجلان عن زيد بن أسلم به ولم يذكر عطاء. ورواه البزار عن زيد عن عطاء عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً.

وله شاهد عند الإمام أحمد بسنده عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة رفعه «**اللهم لا تجعل قبري وثناً، لعن الله قوماً اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**».

قوله: «**روى مالك في «الموطأ»**» هو الإمام مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر بن عمرو الأصبحي، أبوعبدالله المدني. إمام دار الهجرة وأحد الأئمة الأربعة، وأحد المتقنين للحديث حتى قال البخاري: أصح

الأسانيد مالك عن نافع عن ابن عمر، مات سنة تسع وسبعين ومائة. وكان مولده سنة ثلاث وتسعين، وقيل: أربع وتسعين. وقال الواقدي: بلغ تسعين سنة.

قوله: «اللهم لا تجعل قبري وثناً يُعبد» قد استجاب الله دعاءه كما قال ابن القيم رحمه الله تعالى.

فأجاب ربُّ العالمين دعاءَه ... وأحاطه بثلاثة الجدران
حتى غدت أرجاؤه بدعائه ... في عزة وحماية وصيان

ودل الحديث على أن قبر النبي ﷺ لو عبد لكان وثناً، لكن حماه الله تعالى بما حال بينه وبين الناس فلا يوصل إليه.

ودل الحديث على أن الوثن هو ما يباشره العابد من القبور والتوابيت التي عليها. وقد عظمت الفتنة بالقبور بتعظيمها وعبادتها، كما قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: «كيف أنتم إذا لبستكم فتنة يهرم فيها الكبير، وينشأ فيها الصغير. تجري على الناس يتخذونها سنة، إذا غُيِّرت قيل: غيرت السنة» انتهى.

ولخوف الفتنة نهى عمر عن تتبع آثار النبي ﷺ.

قال ابن وضاح: سمعت عيسى بن يونس يقول: «أمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقطع الشجرة التي بويع تحتها النبي ﷺ» فقطعها؛ لأن الناس كانوا يذهبون فيصلون تحتها، فخاف عليهم الفتنة.

وقال المعرور بن سُويد: «صليتُ مع عمر بن الخطاب بطريق مكة صلاة الصبح. ثم رأى الناس يذهبون مذاهب، فقال: أين يذهب هؤلاء؟ فقيل: ياأمير المؤمنين، مسجدٌ صلى فيه النبي ﷺ فهم يصلون فيه، فقال: إنما هلك من كان قبلكم بمثل هذا؛ كانوا يتتبعون آثار أنبيائهم ويتخذونها كنائس وبِيَعاً. فمن أدركته الصلاة في هذه المساجد

فليصلِّ، ومن لا فليمض ولا يتعمدها».

وفي «مغازي ابن إسحاق» من زيادات يونس بن بُكير عن أبي خلدة خالد بن دينار. حدثنا أبوالعالية قال: «لما فتحنا تُسْتَرَ وجدنا في بيت مال الهرمزان سريراً عليه رجل ميت، عند رأسه مصحف، فأخذنا المصحف فحملناه إلى عمر، فدعا له كعباً فنسخه بالعربية، فأنا أول رجل قرأه من العرب. قرأته مثل ما أقرأ القرآن. فقلت: لأبي العالية: ما كان فيه؟ قال: سيرتكم وأموركم ولحون كلامكم وما هو كائن بعد. قلت: فماذا صنعتم بالرجل؟ قال: حفرنا له بالنهار ثلاثة عشر قبراً متفرقة. فلما كان الليل دفناه وسوينا القبور كلها لِنُعميّه على الناس لا ينبشونه. قلت: وما يرجون منه؟ قال: كانت السماء إذا حبست عنهم برزوا بسريره فيمطرون، فقلت: من كنتم تظنون الرجل؟ قال: رجل يقال له: دانيال، فقلت: منذ كم وجدتموه مات؟ قال: منذ ثلاثمائة سنة. قلت: ما كان تغيّر منه شيء؟ قال: لا، إلا شُعيرات من قفاه، إنّ لحوم الأنبياء لا تبليها الأرض».

قال ابن القيم رحمه الله: ففي هذه القصة ما فعله المهاجرون والأنصار رضي الله عنهم من تعمية قبره لئلا يُفتتن به، ولم يبرزوه للدعاء عنده والتبرك به، ولو ظفر به المتأخرون لجالدوا عليه بالسيوف، ولعبدوه من دون الله.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: وهو إنكار منهم لذلك، فمن قصد بقعة يرجو الخير بقصدها ـ ولم يستحب الشارع قصدها ـ فهو من المنكرات وبعضه أشد من بعض، سواء قصدها ليصلي عندها أو ليدعو عندها، أو ليقرأ عندها، أو ليذكر الله عندها، أو لينسك عندها، بحيث يخص تلك البقعة بنوع من العبادة التي لم يشرع تخصيصها به، لا نوعاً ولا عيناً،

إلا أن ذلك قد يجوز بحكم الاتفاق، لا لقصد الدعاء فيها، كمن يزورها ويسلم عليها، ويسأل الله العافية له وللموتى، كما جاءت به السنة. وأما تحري الدعاء عندها بحيث يستشعر أن الدعاء هناك أجْوَب منه في غيره، فهذا هو المنهي عنه. انتهى ملخصاً.

قوله: «اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» فيه تحريم البناء على القبور، وتحريم الصلاة عندها، وأن ذلك من الكبائر. وفي «القِرى» للطبري عن أصحاب مالك عن مالك أنه كره أن يقول: زرت قبر النبي ﷺ، وعَلَّل ذلك بقوله ﷺ: **«اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد»** الحديث. كره إضافة هذا اللفظ إلى القبر؛ لئلا يقع التشبه بفعل أولئك، سداً للذريعة.

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: ومالك قد أدرك التابعين، وهم أعلم الناس بهذه المسألة، فدل ذلك على أنه لم يكن معروفاً عندهم ألفاظ زيارة قبر النبي ﷺ ـ إلى أن قال ـ: وقد ذكروا في أسباب كراهته لأن يقول: «زرت قبر النبي ﷺ» لأن هذا اللفظ قد صار كثير من الناس يريد به الزيارة البدعية، وهو قصد الميت لسؤاله ودعائه، والرغبة إليه في قضاء الحوائج، ونحو ذلك مما يفعله كثير من الناس، فهو يعنون بلفظ الزيارة مثل هذا. وهذا ليس بمشروع باتفاق الأئمة. وكره مالك أن يتكلم بلفظ مجمل يدل على معنى فاسد، بخلاف الصلاة والسلام عليه، فإن ذلك مما أمر الله به.

أما لفظ الزيارة في عموم القبور فلا يفهم منها مثل هذا المعنى، ألا ترى إلى قوله: **«فزوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة»** مع زيارته لقبر أمه. فإن هذا يتناول قبور الكفار. فلا يفهم من ذلك زيارة الميت لدعائه وسؤاله والاستغاثة به، ونحو ذلك مما يفعله أهل الشرك والبدع،

بخلاف ما إذا كان المزور معظماً في الدين كالأنبياء والصالحين، فإنه كثيراً ما يعني بزيارة قبورهم هذه الزيارة البدعية الشركية، فلهذا كره مالك ذلك في هذا، وإن لم يكره ذلك في موضع آخر ليس فيه هذه المفسدة. اهـ.

وفيه: أن النبي ﷺ لم يستعذ إلا مما يخاف وقوعه. ذكره المصنف رحمه الله تعالى.

ولابن جرير بسنده عن سفيان عن منصور عن مجاهد ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ١٩﴾ [النجم: ١٩] **قال: «كان يَلُتُّ لهم السويق فمات، فعكفوا على قبره».**

وكذا قال أبوالجوزاء عن ابن عباس: «كان يلت السويق للحاج».

قوله: «ولابن جرير بسنده عن سفيان عن منصور عن مجاهد «﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ١٩﴾ قال: «كان يَلُتُّ لهم السويق فمات، فعكفوا على قبره».

وكذا قال أبوالجوزاء عن ابن عباس قال: «كان يلت السويق للحاج».

قوله: «ولابن جرير» هو الإمام الحافظ محمد بن جرير بن يزيد الطبري، صاحب التفسير والتاريخ والأحكام وغيرها. قال ابن خزيمة: لا أعلم على وجه الأرض أعلم من محمد بن جرير. وكان من المجتهدين لا يقلد أحداً. وله أصحاب يتفقهون على مذهبه ويأخذون بأقواله. ولد سنة أربع وعشرين ومائتين، ومات ليومين بقيا من شوال سنة عشر

وثلاثمائة.

قوله: «**عن سفيان**» الظاهر: أنه سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري أبوعبدالله الكوفي ثقة حافظ فقيه إمام عابد. كان مجتهداً، وله أتباع يتفقهون على مذهبه. مات سنة إحدى وستين ومائة، وله أربع وستون سنة.

قوله: «**عن منصور**» هو ابن المعتمر بن عبدالله السلمي، ثقة ثبت فقيه. مات سنة اثنتين وثلاثين ومائة.

قوله: «**عن مجاهد**» هو ابن جبر ـ بالجيم والموحدة ـ أبوالحجاج المخزومي مولاهم المكي ثقة إمام في التفسير، أخذ عن ابن عباس وغيره رضي الله عنهم. مات سنة أربع ومائة، قاله يحيى القطان، وقال ابن حبان: مات سنة اثنتين ـ أو ثلاث ـ ومائة وهو ساجد. ولد سنة إحدى وعشرين في خلافة عمر رضي الله عنه.

قوله: «**كان يلت لهم السويق فمات فعكفوا على قبره**» وفي رواية «فيطعم من يمر من الناس. فلما مات عبدوه، وقالوا: هو اللات» رواه سعيد ابن منصور.

ومناسبته للترجمة: أنهم غلوا فيه لصلاحه حتى عبدوه وصار قبره وثناً من أوثان المشركين.

قوله: «**وكذا قال أبوالجوزاء**» هو أوس بن عبدالله الربعي، بفتح الراء والباء. مات سنة ثلاث وثمانين.

قال البخاري: حدثنا مسلم وهو ابن إبراهيم: حدثنا أبوالأشهب، حدثنا أبوالجوزاء عن ابن عباس قال: «كان اللات رجلاً يلت سويق الحجاج».

قال ابن خزيمة: وكذا العزَّى، وكانت شجرة عليها بناء وأستار

بنخلة، بين مكة والطائف، كانت قريش يعظمونها، كما قال أبوسفيان يوم أُحد: «لنا العزّى ولا عُزّى لكم».

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لعن رسول الله ﷺ زائراتِ القبور، والمتخذين عليها المساجد والسُّرُج» رواه أهل السنن.

قوله: وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لعن رسول الله ﷺ زائراتِ القبور، والمتخذين عليها المساجد والسُّرُج» رواه أهل السنن.

قلت: وفي الباب حديث أبي هريرة وحديث حسان بن ثابت. فأما حديث أبي هريرة فرواه أحمد والترمذي وصححه. وحديث حسان أخرجه ابن ماجه من رواية عبدالرحمن بن حسان بن ثابت عن أبيه قال: «لعن رسول الله ﷺ زوارات القبور».

وحديث ابن عباس هذا في إسناده أبوصالح مولى أم هانيء، وقد ضعفه بعضهم ووثقه بعضهم. قال علي بن المديني: عن يحيى القطان: لم أر أحداً من أصحابنا ترك أباصالح مولى أم هانيء. وما سمعت أحداً من الناس يقول فيه شيئاً، ولم يتركه شعبة ولا زائدة ولا عبدالله بن عثمان. قال ابن معين: ليس به بأس، ولهذا أخرجه ابن السكن في «صحيحه». انتهى من «الذهب الإبريز» عن الحافظ المزي.

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: وقد جاء عن النبي ﷺ من طريقين: فعن أبي هريرة رضي الله عنه «أن رسول الله ﷺ لعن زوّارات القبور» وذكر حديث ابن عباس. ثم قال: ورجال هذا ليس رجال هذا، فلم يأخذه أحدهما عن الآخر، وليس في الإسنادين من يتهم بالكذب،

ومثل هذا حجة بلا ريب. وهذا من أجود الحسن الذي شرطه الترمذي، فإنه جعل الحسن: ما تعددت طرقه ولم يكن فيه متهم، ولم يكن شاذاً، أي مخالفاً لما ثبت بنقل الثقات.

وهذا الحديث تعددت طرقه وليس فيها متهم ولا خالفه أحد من الثقات، هذا لو كان عن صاحبٍ واحد، فكيف إذا كان هذا رواه عن صاحب وذاك عن آخر؟ فهذا كله يبين أن الحديث في الأصل معروف.

والذين رخصوا في الزيارة اعتمدوا على ما رُوي عن عائشة رضي الله عنها: أنها زارت قبر أخيها عبدالرحمن وقالت: «لو شهدتك مازرتك» وهذا يدل على أن الزيارة ليست مستحبة للنساء كما تستحب للرجال، إذ لو كان كذلك لاستحبت زيارته، سواء شهدته أم لا.

قلت: فعلى هذا لا حجة فيه لمن قال بالرخصة.

وهذا السياق لحديث عائشة رواه الترمذي من رواية عبدالله بن أبي مليكة عنها، وهو يخالف سياق الأثرم له عن عبدالله بن أبي مليكة أيضاً «أن عائشة رضي الله عنها أقبلت ذات يوم من المقابر. فقلت لها: ياأم المؤمنين، أليس نهى رسول الله ﷺ عن زيارة القبور؟ قالت: نعم، نهى عن زيارة القبور، ثم أمر بزيارتها».

فأجاب شيخ الإسلام رحمه الله عن هذا وقال: ولا حجة في حديث عائشة؛ فإن المحتج عليها احتج بالنهي العام، فدفعت ذلك بأن النهي منسوخ، ولم يذكر لها المحتج النهي الخاص بالنساء الذي فيه لعنهن على الزيارة. يبين ذلك قولها: «قد أمر بزيارتها» فهذا يبين أنه أمر بها أمراً يقتضي الاستحباب، والاستحباب إنما هو ثابت للرجال خاصة. ولو كانت تعتقد أن النساء مأمورات بزيارة القبور لكانت تفعل ذلك كما يفعله الرجال، ولم تقل لأخيها: «لما زرتك». واللعن صريح في

التحريم، والخطاب بالإذن في قوله: «**فزوروها**» لم يتناول النساء فلا يدخلن في الحكم الناسخ، والعام إذا عرف أنه بعد الخاص لم يكن ناسخاً له عند جمهور العلماء، وهو مذهب الشافعي وأحمد في أشهر الروايتين عنه، وهو المعروف عند أصحابه، فكيف إذا لم يعلم أن هذا العام بعد الخاص؟ إذ قد يكون قوله: «**لعن الله زوارات القبور**» بعد إذنه للرجال في الزيارة. يدل على ذلك: أنه قرنه بالمتخذين عليها المساجد والسرج، ومعلوم أن اتخاذ المساجد والسرج المنهي عنها محكم، كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة وكذلك الآخر.

والصحيح: أن النساء لم يدخلن في الإذن في زيارة القبور لعدة أوجه:

أحدها: أن قوله ﷺ: «**فزوروها**» صيغة تذكير، وإنما يتناول النساء أيضاً على سبيل التغليب. لكن هذا فيه قولان، قيل: إنه يحتاج إلى دليل منفصل، وحينئذٍ فيحتاج تناول ذلك للنساء إلى دليل منفصل، وقيل: إنه يحمل على ذلك عند الإطلاق، وعلى هذا فيكون دخول النساء بطريق العموم الضعيف، والعام لا يعارض الأدلة الخاصة ولا ينسخها عند جمهور العلماء، ولو كان النساء داخلات في هذا الخطاب لاستحب لهن زيارة القبور. وما علمنا أحداً من الأئمة استحب لهن زيارة القبور، ولا كان النساء على عهد النبي ﷺ وخلفائه الراشدين يخرجن إلى زيارة القبور.

ومنها: أن النبي ﷺ علل الإذن للرجال بأن ذلك «**يذكِّر الموت، ويرقق القلب، وتدمع العين**» هكذا في «مسند أحمد». ومعلوم أن المرأة إذا فتح لها هذا الباب أخرجها إلى الجزع والندب والنياحة؛ لما فيها من الضعف وقلة الصبر. وإذا كانت زيارة النساء مظنَّة وسبباً للأمور

المحرمة، فإنه لا يمكن أن يُحَدَّ المقدار الذي لا يفضي إلى ذلك، ولا التمييز بين نوع ونوع، ومن أصول الشريعة: أن الحكمة إذا كانت خفية أو منتشرة علق الحكم بمظنتها. فيحرم هذا الباب سداً للذريعة، كما حرم النظر إلى الزينة الباطنة، وكما حرم الخلوة بالأجنبية وغير ذلك، وليس في ذلك من المصلحة ما يعارض هذه المفسدة، فإنه ليس في ذلك إلا دعاؤها للميت. وذلك ممكن في بيتها.

ومن العلماء من يقول: التشييع كذلك، ويحتج بقوله ﷺ: «**ارجعن مأزورات غير مأجورات، فإنكن تفتنَّ الحي وتؤذين الميت**» وقوله لفاطمة: «**أما إنك لو بلغت معهم الكدى لم تدخلي الجنة**» ويؤيده ما ثبت في «الصحيحين» من «**أنه نهى النساء عن اتباع الجنائز**» ومعلوم أن قوله ﷺ: «**من صلى على جنازة فله قيراط، ومن تبعها حتى تدفن فله قيراطان**» هو أدل على العموم من صيغة التذكير، فإن لفظ «من» يتناول الرجال والنساء باتفاق الناس، وقد علم بالأحاديث الصحيحة أن هذا العموم لم يتناول النساء لنهي النبي ﷺ لهن عن اتباع الجنائز، فإذا لم يدخلن في هذا العموم. فكذلك في ذلك بطريق الأولى. انتهى ملخصاً.

قلت: ويكون الإذن في زيارة القبور مخصوصاً بالرجال، خص بقوله: «**لعن الله زوارات القبور...**» الحديث. فيكون من العام المخصوص.

وعما استدل به القائلون بالنسخ أجوبة أيضاً.

منها: ما ذكروه عن عائشة وفاطمة رضي الله عنهما معارض بما ورد عنهما في هذا الباب فلا يثبت به نسخ.

ومنها: أن قول الصحابي وفعله ليس حجة على الحديث بلا نزاع.

وأما تعليمه عائشة كيف تقول: إذا زارت القبور ونحو ذلك، فلا يدل على نسخ ما دلت عليه الأحاديث الثلاثة من لعن زائرات القبور، لاحتمال أن يكون ذلك قبل هذا النهي الأكيد والوعيد الشديد. والله أعلم.

قال محمد بن إسماعيل الصنعاني رحمه الله في كتابه «تطهير الاعتقاد»: فإن هذه القباب والمشاهد التي صارت أعظم ذريعة إلى الشرك والإلحاد، وأكبر وسيلة إلى هدم الإسلام وخراب بنيانه: غالب - بل كل - من يعمرها هم الملوك والسلاطين والرؤساء والولاة، إما على قريب لهم، أو على من يحسنون الظن فيه من فاضل أو عالم أو صوفي أو فقير أو شيخ كبير، ويزوره الناس الذين يعرفونه زيارة الأموات من دون توسل به ولا هتف باسمه، بل يدعون له ويستغفرون، حتى ينقرض من يعرفه أو أكثرهم، فيأتي مَنْ بعدهم فيجد قبراً قد شيّد عليه البناء، وسرجت عليه الشموع، وفرش بالفراش الفاخر، وأرخيت عليه الستور، وألقيت عليه الأوراد والزهور، فيعتقد أن ذلك لنفع أو دفع ضر، وتأتيه السدنة يكذبون على الميت بأنه فعل وفعل، وأنزل بفلان الضر وبفلان النفع. حتى يغرسوا في جبلته كل باطل، والأمر ما ثبت في الأحاديث النبوية من لعن من أسرج على القبور وكتب عليها وبنى عليها. وأحاديث ذلك واسعة ومعروفة. فإن ذلك في نفسه منهي عنه. ثم هو ذريعة إلى مفسدة عظيمة. انتهى.

ومنه تعلم مطابقة الحديث للترجمة، والله أعلم.

قوله: «**والمتخذين عليها المساجد**» تقدم شرحه في الباب قبله.

قوله: «**والسُرُج**» قال أبومحمد المقدسي: لو أبيح اتخاذ السرج عليها لم يلعن من فعله، لأن فيه تضييعاً للمال في غير فائدة، وإفراطاً في تعظيم

القبور أشبه بتعظيم الأصنام.

وقال: ابن القيم رحمه الله: اتخاذها مساجد وإيقاد السرج عليها من الكبائر.

قوله: «**رواه أهل السنن**» يعني أباداود والترمذي وابن ماجه فقط، ولم يروه النسائي.

فيـه مســائل:

الأولــى: تفسير الأوثان.

الثانيــة: تفسير العبادة.

الثالثــة: أنه ﷺ لم يستعذ إلا مما يخاف وقوعه.

الرابعــة: قَرْنه بهذا اتخاذ قبور الأنبياء مساجد.

الخامسة: ذكر شدة الغضب من الله.

السادسة: وهي من أهمها: صفة معرفة عبادة اللات التي هي أكبر الأوثان

السابعـة: معرفة أنه قبر رجل صالح.

الثامنــة: أنه اسم صاحب القبر وذكر معنى التسمية.

التاسعة: لعنه زوّارات القبور.

العاشرة: لعنه مَن أسرجها.

باب ما جاء في حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد وسدّه كل طريق يوصل إلى الشرك

قوله: «باب ما جاء في حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد وسده كل طريق يوصل إلى الشرك»

الجناب: هو الجانب، والمراد حمايته عما يقرب منه أو يخالطه من الشرك وأسبابه.

وقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ [التوبة: ١٢٨ ـ ١٢٩].

قوله: وقال الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾

قال ابن كثير رحمه الله: يقول الله تعالى ممتناً على المؤمنين بما أرسل إليهم رسولاً من أنفسهم، أي من جنسهم وعلى لغتهم كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٩] وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤] وقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي منكم، كما قال جعفر بن أبي طالب للنجاشي، والمغيرة بن شعبة لرسول كسرى: «إن الله بعث فينا رسولاً منا نعرف نسبه وصفته،

ومدخله ومخرجه، وصدقه وأمانته» وذكر الحديث.

وقال سفيان بن عيينة عن جعفر بن محمد عن أبيه في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ قال: «لم يصبه شيء من ولادة الجاهلية».

وقوله: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ أي يعزُّ عليه الشيء الذي يعنت أمته ويشق عليها، ولهذا جاء في الحديث المروي من طرق عنه ﷺ أنه قال: «**بعثت بالحنيفية السمحة**» وفي «الصحيح» «**إن هذا الدين يسر**» وشريعته كلها سمحة سهلة كاملة، يسيرة على من يسرها الله عليه.

قوله: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ أي على هدايتكم ووصول النفع الدنيوي والأخروي إليكم.

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: «تركنا رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في الهواء إلا وهو يذكر لنا منه علماً» أخرجه الطبراني، قال: وقال رسول الله ﷺ: «**ما بقي شيء يقرب من الجنة ويباعد من النار إلا وقد بينته لكم**».

وقوله: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ كما قال تعالى: ﴿وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾﴾ [الشعراء، الآية: ٢١٥ ـ ٢١٧]، وهكذا أمره تعالى في هذه الآية الكريمة وهي قوله: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾ أي عما جئتم به من الشريعة المطهرة الكاملة الشاملة ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾.

قلت: فاقتضت هذه الأوصاف التي وصف بها رسول الله ﷺ في حق أمته أن أنذَرَهم وحذرهم الشرك الذي هو أعظم الذنوب، وبيَّن لهم ذرائعه الموصلة إليه، وأبلغ في نهيهم عنها، ومن ذلك تعظيم القبور

والغلو فيها، والصلاة عندها وإليها، ونحو ذلك مما يوصل إلى عبادتها، كما تقدم، وكما سيأتي في أحاديث الباب.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، ولا تجعلوا قبري عيداً، وصلوا عليَّ، فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم» رواه أبوداود بإسناد حسن رواته ثقات.

وقوله: «عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، ولا تجعلوا قبري عيداً، وصلوا عليَّ، فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم» رواه أبوداود بإسناد حسن ورواته ثقات».

قوله: «**لا تجعلوا بيوتكم قبوراً**» قال شيخ الإسلام: أي لا تعطلوها من الصلاة فيها والدعاء والقراءة، فتكون بمنزلة القبور، فأمر بتحري العبادة في البيوت، ونهى عن تحريها عند القبور، عكس ما يفعله المشركون من النصارى ومن تشبه بهم من هذه الأمة.

وفي «الصحيحين» عن ابن عمر مرفوعاً «**اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم ولا تتخذوها قبوراً**».

وفي «صحيح مسلم» عن ابن عمر مرفوعاً «**لا تجعلوا بيوتكم مقابر؛ فإن الشيطان يفرُّ من البيت الذي يسمع سورة البقرة تقرأ فيه**».

قوله: «**ولا تجعلوا قبري عيداً**» قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: العيد: اسم لما يعود من الاجتماع العام على وجه معتاد، عائداً: إما بعود السنة، أو بعود الأسبوع، أو الشهر ونحو ذلك.

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى: العيد: ما يعتاد مجيئه وقصده من

زمان ومكان، مأخوذ من العادة والاعتياد، فإذا كان اسماً للمكان فهو المكان الذي يقصد فيه الاجتماع وانتيابه للعبادة وغيرها، كما أن المسجد الحرام ومنى ومزدلفة وعرفة والمشاعر جعلها الله عيداً للحنفاء ومثابة، كما جعل أيام العيد فيها عيداً، وكان للمشركين أعياد زمانية ومكانية. فلما جاء الله بالإسلام أبطلها وعوّض الحنفاء منها عيد الفطر وعيد النحر، وأيام منى، كما عوضهم من أعياد المشركين المكانية بالكعبة ومنى ومزدلفة وعرفة والمشاعر.

قوله: «وصلوا عليَّ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم».

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: يشير بذلك إلى أن ما ينالني منكم من الصلاة والسلام يحصل مع قربكم من قبري وبُعدكم، فلا حاجة لكم إلى اتخاذه عيداً.

قوله: «لا تجعلوا بيوتكم قبوراً» تقدم كلام شيخ الإسلام في معنى الحديث قبله. اهـ.

وعن عليّ بن الحسين: «أنه رأى رجلاً يجيء إلى فُرجة كانت عند قبر النبي ﷺ، فيدخل فيها فيدعو، فنهاه، وقال: ألا أحدثكم حديثاً سمعته من أبي عن جدي، عن رسول الله ﷺ، قال: «لاتتخذوا قبري عيداً، ولا بيوتكم قبوراً، وصلوا عليَّ فإن تسليمكم يبلغني أين كنتم». رواه في «المختارة».

قوله: «وعن عليّ بن الحسين رضي الله عنه: «أنه رأى رجلاً يجيء إلى فُرجة كانت عند قبر النبي ﷺ، فيدخل فيها فيدعو، فنهاه، وقال: ألا أحدثكم حديثاً سمعته من أبي عن جدي، عن رسول الله ﷺ، قال: «لا

تتخذوا قبري عيداً، ولا بيوتكم قبوراً، وصلوا عليَّ فإن تسليمكم يبلغني أين كنتم». رواه في «المختارة».

هذا الحديث والذي قبله جيدان حسنا الإسنادين.

أما الأول: فرواه أبوداود وغيره من حديث عبدالله بن نافع الصائغ، قال: أخبرني ابن أبي ذئب، عن سعيد المقبري، عن أبي هريرة فذكره، ورواته ثقات مشاهير، لكن عبدالله بن نافع، قال فيه أبوحاتم: ليس بالحافظ، تعرف وتنكر. وقال ابن معين: هو ثقة. وقال أبوزرعة: لا بأس به.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: ومثل هذا إذا كان لحديثه شواهد علم أنه محفوظ، وهذا له شواهد متعددة.

وقال الحافظ محمد بن عبدالهادي: هو حديث حسن جيد الإسناد، وله شواهد يرتقي بها إلى درجة الصحة.

وأما الحديث الثاني: فرواه أبويعلى والقاضي إسماعيل والحافظ الضياء محمد بن عبدالواحد المقدسي في «المختارة».

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: فانظر هذه السنة كيف مخرجها من أهل المدينة وأهل البيت الذين لهم من رسول الله ﷺ قرب النسب وقرب الدار، لأنهم إلى ذلك أحوج من غيرهم، فكانوا له أضبط. اهـ.

وقال سعيد بن منصور في «سننه»: حدثنا عبدالعزيز بن محمد، أخبرني سهيل بن أبي سهيل، قال: «رآني الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم عند القبر، فناداني، وهو في بيت فاطمة رضي الله عنها يتعشى، فقال: هلمّ إلى العشاء. فقلت: لا أريده. فقال: ما لي رأيتك عند القبر؟ فقلت: سلمت على النبي ﷺ، فقال: إذا دخلت المسجد فسلم. ثم قال: إن رسول الله ﷺ قال: «**لا تتخذوا**

قبري عيداً، ولا تتخذوا بيوتكم مقابر، وصلوا عليَّ فإن صلاتكم تبلغني حيثما كنتم، لعن الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، ما أنتم ومن بالأندلس إلا سواء».

وقال سعيد أيضاً: حدثنا حِبان بن علي، حدثنا محمد عجلان، عن أبي سعيد مولى المهري، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تتخذوا قبري عيداً، ولا بيوتكم قبوراً، وصلوا عليَّ فإن صلاتكم تبلغني**».

قال شيخ الإسلام: فهذان المرسلان من هذين الوجهين المختلفين يدلان على ثبوت الحديث، لاسيما وقد احتج به من أرسله. وذلك يقتضي ثبوته عنده، هذا لو لم يُرْوَ من وجوه مسندة من غير هذين، فكيف وقد تقدم مسنداً؟

قوله: «**علي بن الحسين**» أي ابن علي بن أبي طالب، المعروف بزين العابدين رضي الله عنه، أفضل التابعين من أهل بيته وأعلمهم. قال الزهري: ما رأيت قرشياً أفضل منه.

مات سنة ثلاث وتسعين على الصحيح. وأبوه الحسين سِبْط رسول الله ﷺ وريحانته، حفظ عن النبي ﷺ واستشهد يوم عاشوراء سنة إحدى وستين وله ست وخمسون سنة رضي الله عنه.

قوله: «**أنه رأى رجلاً يجيء إلى فرجة**» بضم الفاء وسكون الراء، وهي الكُوّة في الجدار والخوخة ونحوهما.

قوله: «**فيدخل فيها فيدعو فنهاه**» هذا يدل على النهي عن قصد القبور والمشاهد لأجل الدعاء والصلاة عندها.

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: ما علمت أحداً رخص فيه، لأن ذلك نوع من اتخاذه عيداً، ويدل أيضاً أن قصد القبر للسلام إذا دخل المسجد ليصلي منهي عنه، لأن ذلك لم يشرع، وكره مالك لأهل

المدينة كلما دخل الإنسان المسجد أن يأتي قبر النبي ﷺ، لأن السلف لم يكونوا يفعلون ذلك، قال: «ولن يُصلح آخر هذه الأمة إلاَّ ما أصلح أولها». وكان الصحابة والتابعون رضي الله عنهم يأتون إلى مسجد النبي ﷺ فيصلون، فإذا قضوا الصلاة قعدوا أو خرجوا، ولم يكونوا يأتون القبر للسلام، لعلمهم أن الصلاة والسلام عليه في الصلاة أكمل وأفضل، وأما دخولهم عند قبره للصلاة والسلام عليه هناك، أو للصلاة والدعاء، فلم يشرعه لهم، بل نهاهم عنه في قوله: «**لا تتخذوا قبري عيداً وصلوا عليَّ فإن صلاتكم تبلغني**»، فبين أن الصلاة تصل إليه من بُعد وكذلك السلام، ولعن من اتخذ قبور الأنبياء مساجد.

وكانت الحجرة في زمانهم يُدخَل إليها من الباب، إذ كانت عائشة رضي الله عنها فيها، وبعد ذلك، إلى أن بني الحائط الآخر، وهم مع ذلك التمكن من الوصول إلى قبره لا يدخلون عليه، لا للسلام ولا للصلاة، ولا للدعاء لأنفسهم ولا لغيرهم، ولا لسؤال عن حديث أو علم، ولا كان الشيطان يطمع فيهم حتى يسمعهم كلاماً أو سلاماً فيظنون أنه هو كلمهم وأفتاهم، وبيَّن لهم الأحاديث، أو أنه قد ردَّ عليهم السلام بصوت يسمع من خارج، كما طمع الشيطان في غيرهم فأضلهم عند قبره، وقبر غيره، حتى ظنوا أن صاحب القبر يأمرهم وينهاهم ويفتيهم ويحدثهم في الظاهر، وأنه يخرج من القبر ويرونه خارجاً من القبر، ويظنون أن نفس أبدان الموتى خرجت تكلمهم، وأن روح الميت تجسدت لهم فرأوها، كما رآهم النبي ﷺ ليلة المعراج.

والمقصود: أن الصحابة رضي الله عنهم لم يكونوا يعتادون الصلاة والسلام عليه عند قبره كما يفعله من بعدهم من الخلوف، وإنما كان بعضهم يأتي من خارج فيسلم عليه إذا قدم من سفر. كما كان ابن عمر

يفعله.

قال عبيد الله بن عمر عن نافع «كان ابن عمر إذا قدم من سفر أتى قبر النبي ﷺ فقال: السلام عليك يارسول الله. السلام عليك ياأبابكر. السلام عليك ياأبتاه ثم ينصرف» قال عبيد الله: «ما نعلم أحداً من أصحاب النبي ﷺ فعل ذلك إلاَّ ابن عمر» وهذا يدل على أنه لا يقف عند القبر للدعاء إذا سلم كما يفعله كثير.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: لأن ذلك لم ينقل عن أحد من الصحابة، فكان بدعة محضة. وفي «المبسوط» قال مالك: لا أرى أن يقف عند قبر النبي ﷺ ولكن يسلم ويمضي. ونص أحمد أنه يستقبل القبلة ويجعل الحجرة عن يساره لئلا يستدبره.

وبالجملة، فقد اتفق الأئمة على أنه إذا دعا لا يستقبل القبر، وتنازعوا: هل يستقبله عند السلام عليه أم لا؟ وفي الحديث دليل على منع شد الرحال إلى قبره ﷺ وإلى غيره من القبور والمشاهد؛ لأن ذلك من اتخاذها أعياداً. بل من أعظم أسباب الإشراك بأصحابها. وهذه هي المسألة التي أفتى بها شيخ الإسلام رحمه الله ـ أعني من سافر لمجرد زيارة قبور الأنبياء والصالحين ـ ونقل فيها اختلاف العلماء. فمن مبيح لذلك، كالغزالي وأبي محمد المقدسي. ومن مانع لذلك، كابن بَطّة وابن عقيل، وأبي محمد الجُويني، والقاضي عياض. وهو قول الجمهور. نص عليه مالك، ولم يخالفه أحد من الأئمة. وهو الصواب. لما في «الصحيحين» عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال: «**لا تُشَدُّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى**» فدخل في النهي شَدُّها لزيارة القبور والمشاهد، فإما أن يكون نهياً، وإما أن يكون نفياً. وجاء في رواية بصيغة النهي، فتعين أن يكون للنهي.

ولهذا فَهِمَ منه الصحابة رضي الله عنهم المنع ـ كما في «الموطأ» و«المسند» و«السنن» ـ عن بَصرْة بن أبي بصرة الغِفاري: أنه قال لأبي هريرة ـ وقد أقبل من الطور ـ: «لو أدركتك قبل أن تخرج إليه لما خرجت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لا تُعْمل المَطِيُّ إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى**».

وروى الإمام أحمد وعمر بن شَبّة في أخبار المدينة بإسناد جيد عن قَزَعة قال: «أتيت ابن عمر، فقلت: إني أريد الطور. فقال: إنما تشد الرحال إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجد المدينة، والمسجد الأقصى. فدع عنك الطور ولا تأته» فابن عمر وبَصرْة بن أبي بصرة جعلا الطور مما نهي عن شد الرحال إليه، لأن اللفظ الذي ذكراه فيه النهي عن شدها إلى غير الثلاثة مما يقصد به القربة، فعلم أن المستثنى منه عام في المساجد وغيرها، وأن النهي ليس خاصاً بالمساجد، ولهذا نهيا عن شدها إلى الطور مستدلين بهذا الحديث. والطور إنما يسافر من يسافر إليه لفضيلة البقعة. فإن الله سماه «الوادي المقدس، والبقعة المباركة» وكلّم كليمه موسى عليه السلام هناك، وهذا هو الذي عليه الأئمة الأربعة وجمهور العلماء، ومن أراد بسط القول في ذلك والجواب عما يعارضه فعليه بما كتبه شيخ الإسلام مجيباً لابن الأخنائي فيما اعترض به على ما دلت عليه الأحاديث الصحيحة وأخذ به العلماء وقياس الأولى؛ لأن المفسدة في ذلك ظاهرة.

وأما النهي عن زيارة غير المساجد الثلاثة فغاية ما فيها: أنها لا مصلحة في ذلك توجب شد الرحال، ولا مزية تدعو إليه. وقد بسط القول في ذلك الحافظ محمد بن عبدالهادي في كتاب «الصارم المنكي في رده على السبكي» وذكر فيه علل الأحاديث الواردة في زيارة قبر

النبي ﷺ. وذكر هو وشيخ الإسلام رحمهما الله تعالى: أنه لا يصح منها حديث عن النبي ﷺ ولا عن أحد من أصحابه، مع أنها لاتدل على محل النزاع؛ إذ ليس فيها إلا مطلق الزيارة، وذلك لا ينكره أحد بدون شد الرحال، فيحمل على الزيارة الشرعية التي ليس فيها شرك ولابدعة.

قوله: «رواه في المختارة» المختارة: كتاب جمع فيه مؤلفه الأحاديث الجياد الزائدة على «الصحيحين».

ومؤلفه: هو أبوعبدالله محمد بن عبدالواحد المقدسي الحافظ ضياء الدين الحنبلي أحد الأعلام. قال الذهبي: أفنى عمره في هذا الشأن مع الدين المتين، والورع والفضيلة التامة والإتقان، فالله يرحمه ويرضى عنه.

وقال شيخ الإسلام: تصحيحه في مختاراته خير من تصحيح الحاكم بلا ريب. مات سنة ثلاث وأربعين وستمائة.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية براءة.

الثانية: إبعاده أُمته عن هذا الحِمى غاية البعد.

الثالثة: ذكر حرصه علينا ورأفته ورحمته.

الرابعة: نهيه عن زيارة قبره على وجه مخصوص، مع أن زيارته من أفضل الأعمال.

الخامسة: نهيه عن الإكثار من الزيارة.

السادسة: حثه على النافلة في البيت.

السابعة: أنه متقرر عندهم أنه لا يصلى في المقبرة.

الثامنة: تعليله ذلك بأن صلاة الرجل وسلامه عليه يبلغه وإن بعُد، فلا حاجة إلى ما يتوهمه مَن أراد القرب.

التاسعة: كونه ﷺ في البرزخ تعرَض أعمال أمته من الصلاة والسلام عليه

باب ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان

قوله: «باب ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان»(١).

«الوثن» يطلق على ما قصد بنوع من أنواع العبادة من دون الله من القبور والمشاهد وغيرها لقول الخليل عليه السلام: ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ [العنكبوت: ١٧] ومع قوله: ﴿قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الشعراء: ٧١] وقوله: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [الصافات: ٥٩] فبذلك يعلم أن الوثن يطلق على الأصنام وغيرها مما عبد من دون الله، كما تقدم في الحديث.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَٰؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾﴾ [النساء: ٥١].

وقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ

---

(١) أراد المصنف ـ رحمه الله ـ بهذه الترجمة الرد على من قال: إن كل ما يقع ممن ينتسب إلى الإسلام مما يقال إنه كفر أو شرك ليس كفراً ولا شركاً وذلك كالاستغاثة بالأموات والانقطاع إليهم والعكوف على أجداثهم رغبة ورهبة، لأن هذا كله مما يفعله من ينتسب إلى الإسلام وأقروه ورضوه، والمسلمون كلهم أعمالهم كلها إسلام وإيمان وهم لن يفعلوا ما هو شرك وما هو كفر ولن يرضوا بذلك ولا يقروه واحتجوا بما رواه البخاري ومسلم أن النبي ﷺ قال: «**إني والله ما أخاف عليكم أن تشركوا بعدي ولكن أخاف الدنيا أن تنافسوا فيها**» وبما روى الإمام أحمد وغيره عنه ﷺ: «**إن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب ولكن في التحريش بينهم**».

=

بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾.

قوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ روى ابن أبي حاتم عن عكرمة، قال: «جاء حُيَيُّ بن أخْطَب وكعبُ بن الأشرف إلى أهل مكة، فقالوا لهم: أنتم أهل الكتاب وأهل العلم، فأخبرونا عنا وعن محمد، فقالوا: ما أنتم وما محمد؟ فقالوا: نحن نصل الأرحام، وننحر الكَوْماء، ونسقي الماء على اللبن، ونفُكُّ العناة، ونسقي الحجيج، ومحمد صُنبور، قطع أرحامنا، واتبعه سُرّاق الحجيج من غِفار، فنحن خير أم هو؟ فقالوا: أنتم خير وأهدى سبيلاً، فأنزل الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾﴾.

وفي «مسند أحمد» عن ابن عباس نحوه.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «الجبت: السحر، والطاغوت:

= والمصنف وهو شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب ـ رحمه الله تعالى ـ رد عليهم في هذه الترجمة ثم يذكر هذه الآيات والأحاديث بعدها من أن المسلمين كغيرهم من أهل الدين السابق لابد أن يقع منهم التغيير والتبديل والخروج عن دينهم الصحيح المأثور ولابد أن تترامى فيما ترامت به الأمم الأولى من الشرك والكفر والجهل، ولكن ولله الحمد لن يقع ذلك من المسلمين كلهم فإن المسلمين لن يكفروا ولن يشركوا كلهم بل لن تزال طائفة منهم على الحق منصورة لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم على ذلك، ولن يزال هذا الدين القيم قائماً في الأرض معروفاً بين طوائف من أهله وإن قلُّوا وضعفوا، فإن هذا هو الحق الذي لا ريب فيه وأما أنه لا يقع في الشرك بعض منهم أبداً فإن هذا باطل فقد دلت النصوص الصحيحة الصريحة أن طوائف من المسلمين سوف يصابون بداء الأمم.

الشيطان» وكذلك قال ابن عباس وأبوالعالية ومجاهد والحسن وغيرهم.

وعن ابن عباس وعكرمة وأبي مالك «الجبت: الشيطان ـ زاد ابن عباس: بالحبشية».

وعن ابن عباس أيضاً: «الجبت: «الشرك» وعنه «الجبت: الأصنام» وعنه «الجبت: حيي بن أخطب».

وعن الشعبي «الجبت: الكاهن».

وعن مجاهد «الجبت: كعب بن الأشرف».

قال الجوهري: «الجبت: كلمة تقع على الصنم والكاهن والساحر» ونحو ذلك.

قال المصنف رحمه الله تعالى: «وفيه: معرفة الإيمان بالجبت والطاغوت في هذا الموضع هل هو اعتقاد قلب، أو هو موافقة أصحابها، مع بغضها ومعرفة بطلانها؟».

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ﴾ [المائدة: ٦٠].

قوله: وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ﴾.

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ: قل يامحمد هل أخبركم بشر جزاء عند الله يوم القيامة مما تظنونه بنا؟ وهم أنتم أيها المتصفون بهذه الصفات المفسرة بقوله: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ أي أبعده من رحمته ﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ أي غضباً لا يرضى بعده أبداً ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ﴾.

وقد قال الثوري عن عَلْقمة بن مَرْثَد، عن المغيرة بن عبدالله

اليَشْكُري، عن المعرور بن سُويد: إن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: «**سئل رسول الله ﷺ عن القردة والخنازير: أهي مما مسخ الله؟ فقال: إن الله لم يُهلك قوماً ـ أو قال: لم يمسخ قوماً ـ فيجعل لهم نسلاً ولا عقباً، وإن القردة والخنازير كانت قبل ذلك**» رواه مسلم.

قال البغوي في «تفسيره»: ﴿قُلْ﴾ يامحمد ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُم﴾ أخبركم ﴿بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ﴾ الذي ذكرتم، يعني قولهم: لم نر أهل دين أقل حظاً في الدنيا والآخرة منكم، ولا ديناً شراً من دينكم، فذكر الجواب بلفظ الابتداء، وإن لم يكن الابتداء شراً: لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ٱلنَّارُ﴾ [الحج: ٧٢].

قوله: ﴿مَثُوبَةً﴾ ثواباً وجزاءً، نصب على التفسير ﴿عِندَ ٱللَّهِ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ أي هو من لعنه الله ﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ يعني اليهود ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ﴾ فالقردة أصحاب السبت، والخنازير كفار مائدة عيسى. وعن علي بن أبي طلحة عن ابن عباس «أن المسخين كلاهما من أصحاب السبت، فشبابهم مسخوا قردة، وشيوخهم مسخوا خنازير».

﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ أي وجعل منهم من عبد الطاغوت، أي أطاع الشيطان فيما سوّل له، وقرأ ابن مسعود **﴿عَبَدُوا الطاغوت﴾** وقرأ حمزة: «وعبُد» بضم الباء، و«الطاغوت» بجر التاء أراد العبد، وهما لغتان: عبد بسكون الباء، وعبد بضمها، مثل سَبْع وسَبُع وقرأ الحسن «وعبد الطاغوت» على الواحد.

وفي «تفسير الطبري»: قرأ حمزة وحده «وعبُد الطاغوت» بضم الباء وجر التاء، والباقون «وعبَد الطاغوت» بنصب الباء وفتح التاء. وقرأ ابن عباس وابن مسعود وإبراهيم النخعي والأعمش وأبان بن تغلب «وعُبُد الطاغوت» بضم العين والباء وفتح الدال وخفض التاء، قال: وحجة

حمزة في قراءته «وعبُد الطاغوت» أنه يحمله على ما عمل فيه ﴿جَعَلَ﴾ كأنه: وجعل منهم عبدالطاغوت. ومعنى «﴿جَعَلَ﴾: خلق» كقوله: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١] وليس «عبد» لفظ جمع؛ لأنه ليس من أبنية الجموع شيء على هذا البناء، ولكنه واحد يراد به الكثرة، ألا ترى أن في الأسماء المفردة المضافة إلى المعارف ما لفظه لفظ الإفراد ومعناه الجمع، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤] ولأن بناء فَعُل يراد به المبالغة والكثرة نحو يَقُظَ ودَنُس، وكأن تقديره: أنه ذهب في عبادة الطاغوت كل مذهب.

وأما من فتح فقال: ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ فإنه عطفه على بناء المضي الذي في الصلة، وهو قوله: ﴿لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ وأفرد الضمير في «عبد» وإن كان المعنى فيه الكثرة؛ لأن الكلام محمول على لفظه دون معناه، وفاعله ضمير «من» كما أن فاعل الأمثلة المعطوف عليها ضمير «من» فأفرد لحمل ذلك جميعاً على اللفظ. وأما قوله: ﴿وعَبُد الطاغوت﴾ فهو جمع عبد.

وقال أحمد بن يحيى: عُبُد جمع عابد؛ كبازل وبزل، وشارف وشرف، وكذلك عبد جمع عابد. ومثله عباد وعبَّاد.

وقال شيخ الإسلام في قوله: ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ الصواب: أنه معطوف على ما قبله من الأفعال، أي مَن لعنه وغضب عليه، ومَن جعل منهم القردة والخنازير ومن عبد الطاغوت. قال: والأفعال المتقدمة الفاعل فيها اسم الله، مظهراً أو مضمراً. وهنا الفاعل اسم مَنْ عبد الطاغوت. وهو الضمير في «عبد» ولم يعد سبحانه «من» لأنه جعل هذه الأفعال صفة لصنف واحد وهم اليهود.

قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ مما تظنون بنا ﴿وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ۝٦٠﴾ وهذا

من باب استعمال أفعل التفضيل فيما ليس في الطرف الآخر له مشارك، كقوله تعالى: ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾ [الفرقان: ٢٤] قاله العماد ابن كثير في «تفسيره». وهو ظاهر.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾﴾ [الكهف: ٢١].

قوله: «وقول الله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾.

والمراد أنهم. فعلوا مع الفتية بعد موتهم ما يُذَم فاعله؛ لأن النبي ﷺ قال: «**لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد**» أراد تحذير أمته أن يفعلوا كفعلهم.

وعن أبي سعيد رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «لتتبعنّ سنن من كان قبلكم حَذْوَ القُذَّةِ بالقذّة، حتى لو دخلوا جُحْر ضَبٍّ لدخلتموه، قالوا: يارسول الله اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟» أخرجاه.

قوله: «**عن أبي سعيد رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «لتتبعنّ سنن من كان قبلكم حَذْوَ القُذَّةِ بالقذَّة، حتى لو دخلوا جُحْر ضَبٍّ لدخلتموه، قالوا: يارسول الله اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟» أخرجاه**» وهذا سياق مسلم.

قوله: «سنن» بفتح المهملة، أي طريق من كان قبلكم. قال المهلب: الفتح أولى.

قوله: «**حذو القذة بالقذة**» بنصب «حذو» على المصدر. والقذة ـ بضم القاف ـ واحدة القذذ وهو ريش السهم. أي لتتبعن طريقهم في كل ما فعلوه، وتشبهوهم في ذلك كما تشبه قُذة السهم القذة الأخرى. وبهذا تظهر مناسبة الآيات للترجمة. وقد وقع كما أخبر، وهو عَلَم من أعلام النبوة.

قوله: «**حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه**» وفي حديث آخر: «**حتى لو كان فيهم من يأتي أُمَّه علانية لكان في أمتي من يفعل ذلك**» أراد ﷺ أن أمته لا تدع شيئاً مما كان يفعله اليهود والنصارى إلا فعلته كله لا تترك منه شيئاً. ولهذا قال سفيان بن عيينة: من فسد من علمائنا ففيه شبه من اليهود، ومن فسد من عُبَّادنا ففيه شبه من النصارى. اهـ.

قلت: فما أكثر الفريقين، لكن من رحمة الله تعالى ونعمته أن جعل هذه الأمة لا تجتمع على ضلالة كما في حديث ثوبان الآتي قريباً.

قوله: «**قالوا: يارسول الله اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟**» هو برفع «اليهود» خبر مبتدأ محذوف، أي أهم اليهود والنصارى الذي نتبع سننهم؟ ويجوز النصب بفعل محذوف تقديره: تعني.

قوله: «**قال فمن؟**» استفهام إنكاري: أي فمن هم غير أولئك؟

ولمسلم عن ثَوبانَ رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله زَوَى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أُمَّتي سيبلغُ ملكها ما زُوِيَ لي منها. وأُعطيت الكنزين: الأحمر والأبيض. وإني سألت ربي لأُمتي أن لا يُهلكها بسنةٍ بعامة، وأن لا يُسلِّط عليهم عدواً من سِوى أنفسهم،

فيستبيحَ بيْضتهم. وإن ربي قال: يامحمد، إذا قضيت قضاءً فإنه لا يُرَدُّ. وإني أعطيتك لأُمتك أن لا أهلكهم بسنة عامة، وأن لا أُسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم. ولو اجتمع عليهم من بأقطارها، حتى يكون بعضهم يُهلِكُ بعضاً، ويَسْبي بعضهم بعضاً» ورواه البرقاني في «صحيحه». وزاد: «وإنما أخاف على أُمتي الأئمة المضلِّين. وإذا وقع عليهم السيف لم يُرْفَع إلى يوم القيامة. ولا تقوم الساعة حتى يَلْحَقَ حَيٌّ من أمتي بالمشركين، وحتى تَعْبُدَ فِئَامٌ من أمتي الأوثان. وإنه سيكون في أُمتي كذابون ثلاثون، كلهم يزعم أنه نبي. وأنا خاتم النبيين، لا نبيَّ بعدي. ولا تزالُ طائفة من أُمتي على الحقِّ منصورة، لا يَضُرُّهم مَنْ خذلهم حتى يأتي أَمْرُ الله، تبارك وتعالى».

قوله: ولمسلم عن ثَوبانَ رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله زَوَى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أُمَّتي سيبلغُ ملكها ما زُوِيَ لي منها. وأُعطيت الكنزين: الأحمر والأبيض. وإني سألت ربي لأُمتي أن لا يُهلكها بسنةٍ بعامة، وأن لا يُسلِّط عليهم عدواً من سِوى أنفسهم، فيستبيحَ بيْضتهم. وإن ربي قال: يامحمد، إذا قضيت قضاءً فإنه لا يُرَدُّ. وإني أعطيتك لأُمتك أن لا أهلكها بسنة بعامة، وأن لا أُسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم. ولو اجتمع عليهم من بأقطارها، حتى يكون بعضهم يُهلِكُ بعضاً، ويَسْبي بعضهم بعضاً»

ورواه البرقاني في «صحيحه». وزاد: «وإنما أخاف على أُمتي الأئمة المضلِّين. وإذا وقع عليهم السيف لم يُرْفَع إلى يوم القيامة. ولا تقوم الساعة حتى يَلْحَقَ حَيٌّ من أمتي بالمشركين، وحتى تَعْبُدَ فِئَامٌ من أمتي الأوثان. وإنه سيكون في أُمتي كذابون ثلاثون، كلهم يزعم أنه نبي. وأنا خاتم النبيين، لا نبيَّ بعدي. ولا تزالُ طائفة من أُمتي على الحقِّ منصورة، لا يَضُرُّهم مَنْ خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أَمْرُ الله تبارك وتعالى».

هذا الحديث رواه أبوداود في «سننه» وابن ماجه بالزيادة التي ذكرها المصنف.

قوله: «عن ثوبان» هو مولى النبي ﷺ، صحبه. ولازمه ونزل بعده الشام. ومات بحمص سنة أربع وخمسين.

قوله: «زوى لي الأرض» قال التُّوربشْتي: زويت الشيء جمعته وقبضته، يريد تقريب البعيد منها حتى اطلع عليه اطلاعه على القريب. وحاصله. أنه طوى له الأرض وجعلها مجموعة كهيئة كف في مرآة ينظره. قال الطيبي: أي جمعها لي حتى أبصرت ما تملكه أمتي من أقصى المشارق والمغارب منها.

قوله: «وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها» قال القرطبي: هذا الخبر وجد مخبره كما قال. وكان ذلك من دلائل نبوته، وذلك أن مُلك أمته اتسع إلى أن بلغ أقصى طَنْجة ـ بالنون والجيم ـ الذي هو منتهى عمارة المغرب، إلى أقصى المشرق مما هو وراء خراسان والنهر، وكثير من بلاد السند والهند والصغد، ولم يتسع ذلك الاتساع من جهة الجنوب والشمال. ولذلك لم يذكر عليه السلام أنه أريه ولا أخبر أن مُلك أمته يبلغه.

قوله: «**زوي لي منها**» يحتمل أن يكون مبنياً للفاعل، وأن يكون مبنياً للمفعول.

قوله: «**وأعطيت الكنزين: الأحمر والأبيض**» قال القرطبي: يعني به كنز كسرى، وهو ملك الفرس، وكنز قيصر وهو ملك الروم وقصورهما وبلادهما. وقد قال ﷺ: «**والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله**» وعبر بالأحمر عن كنز قيصر؛ لأن الغالب عندهم كان الذهب، وبالأبيض عن كنز كسرى؛ لأن الغالب عندهم كان الجوهر والفضة. ووجد ذلك في خلافة عمر. فإنه سيق إليه تاج كسرى وحليته وما كان في بيوت أمواله، وجميع ما حوته مملكته على سعتها وعظمتها، وكذلك فعل الله بقيصر. و«الأبيض والأحمر» منصوبان على البدل.

قوله: «**وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة بعامة**» هكذا ثبت في أصل المصنف رحمه الله «بعامة» بالباء، وهي رواية صحيحة في «صحيح مسلم» وفي بعضها بحذفها. قال القرطبي: وكأنها زائدة، لأن «عامة» صفة السنة، والسنة الجدب الذي يكون به الهلاك العام، ويسمى الجدب والقحط: سنة. ويجمع على سنين، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٠] أي الجدب المتوالي.

قوله: «**من سوى أنفسهم**» أي من غيرهم من الكفار من إهلاك بعضهم بعضاً، وسبي بعضهم بعضاً، كما هو مبسوط في التاريخ فيما قبل، وفي زماننا هذا. نسأل الله العفو والعافية.

قوله: «**فيستبيح بيضتهم**» قال الجوهري: بيضة كل شيء: حوزته. وبيضة القوم: ساحتهم، وعلى هذا فيكون معنى الحديث: إن الله تعالى لا يسلط العدو على كافة المسلمين حتى يستبيح جميع ما حازوه من البلاد والأرض، ولو اجتمع عليهم من بأقطار الأرض وهي جوانبها. وقيل:

بيضتهم: معظمهم وجماعتهم، وإن قلوا.

قوله: «حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً، ويسبي بعضهم بعضاً» والظاهر أن «حتى» عاطفة، أو تكون لانتهاء الغاية، أي أن أمر الأمة ينتهي إلى أن يكون بعضهم يهلك بعضاً. وقد سلط بعضهم على بعض، كما هوالواقع، وذلك لكثرة اختلافهم وتفرقهم.

قوله: «وإن ربي قال: يامحمد، إذا قضيت قضاءً فإنه لا يُردّ» قال بعضهم: أي إذا حكمت حكماً مبرماً نافذاً فإنه لا يرد بشيء، ولا يقدر أحد على رده، كما قال النبي ﷺ: **«ولا راد لما قضيت»**.

قوله: «ورواه البرقاني في «صحيحه»» هو الحافظ الكبير أبوبكر أحمد بن محمد بن أحمد بن غالب الخوارزمي الشافعي. ولد سنة ست وثلاثين وثلاثمائة، ومات سنة خمس وعشرين وأربعمائة. قال الخطيب: كان ثبتاً ورعاً، لم نَر في شيوخنا أثبت منه، عارفاً بالفقه. كثير التصانيف، صنف مسنداً ضمَّنه ما اشتمل عليه الصحيحان، وجمع حديث الثوري وحديث شعبة وطائفة.

وهذا الحديث رواه أبوداود بتمامه بسنده إلى أبي قلابة عن أبي أسماء عن ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ **«إن الله ـ أو قال: إن ربي ـ زوى لي الأرض، فأريت مشارق الأرض ومغاربها، وإن ملك أمتي سيبلغ ما زوي لي منها، وأعطيت الكنزين: الأحمر والأبيض، وإني سألت ربي لأمّتي أن لا يهلكها بسنة عامة، ولا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، وإن ربي قال لي: يامحمد، إني إذا قضيت قضاءً فإنه لا يرد، ولا أهلكهم بسنة عامة، ولا أسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بين أقطارها ـ أو قال: بأقطارها ـ حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً،**

وحتى يكون بعضهم يسبي بعضاً، وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين. وإذا وُضع السيف في أمتي لم يُرفع عنها إلى يوم القيامة. ولا تقوم الساعة حتى يلحق قبائل من أمتي بالمشركين، وحتى تعبد قبائل من أمتي الأوثان. وإنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين، لا نبيَّ بعدي ولاتزال طائفة من أمتي على الحق ـ قال ابن عيسى: ظاهرين، ثم اتفقا ـ لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله تعالى».

وروى أبوداود أيضاً عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «**تدور رَحَى الإسلام لخمس وثلاثين، أو ست وثلاثين، أو سبع وثلاثين، فإن يهلكوا فسبيل من هلك، وإن يَقُمْ لهم دينهم يقم سبعين عاماً، قال: قلت: أَمِمَّا بقي أو مما مضى؟ قال: مما مضى**».

وروى في «سننه» أيضاً عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**يتقارب الزمان وينقص العلم، وتظهر الفتن، ويلقى الشُّحُّ، ويكثر الهرْجُ، قيل: يارسول الله، أيّه هو؟ قال: القتل القتل**».

قوله: «وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين» أي الأمراء والعلماء والعباد فيحكمون فيهم بغير علم فيضلونهم، كما قال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الأحزاب: ٦٧].

وكان بعض هؤلاء يقول لأصحابه: من كان له حاجة فليأت إلى قبري فإني أقضيها له، ولا خير في رجل يحجبهُ عن أصحابه ذراع من تراب، ونحو هذا. وهذا هو الضلال البعيد، يدعو أصحابه إلى أن يعبدوه من دون الله، ويسألوه ما لا يقدر عليه من قضاء حاجاتهم، وتفريج كرباتهم، وقد قال تعالى: ﴿ يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا لَا يَنفَعُهُۥ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِۦ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ

﴿ٱلْعَشِيرُ ﴿١٣﴾﴾ [الحج: ١٢ ـ ١٣] وقال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوٰةً وَلَا نُشُورًا ﴿٣﴾﴾ [الفرقان: ٣] وقال تعالى: ﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ [العنكبوت: ١٧] وأمثال هذا في القرآن كثير، يبين الله تعالى به الهدى من الضلال.

ومن هذا الضرب: مَنْ يدّعي أنه يصل مع الله إلى حال تسقط فيها عنه التكاليف، ويدَّعي أن الأولياء يُدعون ويستغاث بهم في حياتهم ومماتهم، وأنهم ينفعون ويضرون ويدبرون الأمور على سبيل الكرامة، وأنه يطلع على اللوح المحفوظ، ويعلم أسرار الناس وما في ضمائرهم، ويجُوّز بناء المساجد على قبور الأنبياء والصالحين، وإيقادها بالسرج، ونحو ذلك من الغلو والإفراط والعبادة لغير الله، فما أكثر هذا الهذيان والكفر والمحادة لله ولكتابه ولرسوله.

وقوله ﷺ: «**وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين**» أتى بإنما التي قد تأتي للحصر بياناً لشدة خوفه على أمته من أئمة الضلال، وما وقع في خَلَد النبي ﷺ من ذلك إلا لما أطلعه الله عليه من غيبه أنه سيقع نظير ما في الحديث قبله من قوله: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم**. . .» الحديث.

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن أخوف ما أخاف على أمتي الأئمة المضلين**» رواه أبوداود الطيالسي. .

وعن ثوبان رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**إنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين**» رواه الدارمي.

وقد بين الله تعالى في كتابه صراطَهُ المستقيم الذي هو سبيل المؤمنين، فكل من أحدث حدثاً ليس في كتاب الله ولا في سنة رسوله ﷺ فهو ملعون وحدثه مردود، كما قال ﷺ: «**من أحدث حدثاً، أو آوى**

محدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه يوم القيامة صَرْفاً ولا عَدْلاً».

وقال: «**من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد**».

وقال: «**كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة**».

وهذه أحاديث صحيحة. ومدار أصول الدين وأحكامه على هذه الأحاديث ونحوها، وقد بين الله تعالى هذا الأصل في مواضع من كتابه العزيز، كما قال تعالى: ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ ﴾ [الأعراف: ٣] وقال تعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلۡنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ فَٱتَّبِعۡهَا وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الجاثية: ١٨] ونظائرها في القرآن كثير.

وعن زياد بن حُدَير قال: قال لي عمر رضي الله عنه: «هل تعرف ما يهدم الإسلام؟ قلت: لا، قال: يهدمه زَلّة العالم، وجدال المنافق بالكتاب، وحكم الأئمة المضلين» رواه الدارمي.

وقال يزيد بن عميرة: «كان معاذ بن جبل رضي الله عنه لا يجلس مجلساً للذكر إلا ويقول: الله حكم قسط، هلك المرتابون ـ وفيه: فاحذروا زيغة الحكيم، فإن الشيطان قد يقول الضلالة على لسان الحكيم، وقد يقول المنافق كلمة الحق، قلت لمعاذ: وما يدريني رحمك الله أن الحكيم قد يقول كلمة الضلالة، والمنافق قد يقول كلمة الحق؟ فقال: اجتنب من كلام الحكيم المشتبهات التي يقال: ما هذه؟ ولا يثنيك ذلك عنه، فإنه لعله أن يراجع الحق، وتَلَقَّ الحق إذا سمعته، فإن على الحق نوراً» رواه أبوداود وغيره.

قوله: «وإذا وقع عليهم السيف لم يرفع إلى يوم القيامة» وكذلك وقع، فإن السيف لما وقع بقتل عثمان رضي الله عنه لم يرفع، وكذلك يكون

إلى يوم القيامة، ولكن قد يكثر تارة، ويقل أخرى، ويكون في جهة، ويرتفع عن أخرى.

قوله: «ولا تقوم الساعة حتى يلحق حيٌّ من أمتي بالمشركين» «الحي» واحد الأحياء وهي القبائل: وفي رواية أبي داود: **«حتى يلحق قبائل من أمتي بالمشركين»** والمعنى: أنهم يكونون معهم ويرتدون برغبتهم عن أهل الإسلام، ويلحقون بأهل الشرك.

قوله: «وحتى تعبد فئام من أمتي الأوثان» «الفئام» بكسر الفاء مهموز: الجماعات الكثيرة، قاله أبوالسعادات.

وفي رواية أبي داود: **«وحتى تعبد قبائل من أمتي الأوثان»**.

وهذا هو شاهد الترجمة، ففيه الرد على من قال بخلافه من عباد القبور، الجاحدين لما يقع منهم من الشرك بالله بعبادتهم الأوثان. وذلك لجهلهم بحقيقة التوحيد وما يناقضه من الشرك والتنديد، فالتوحيد هو أعظم مطلوب، والشرك هو أعظم الذنوب.

وفي معنى هذا الحديث: ما في «الصحيحين» عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: **«لا تقوم الساعة حتى تضطرب ألَيات نساء دَوْس على ذي الخَلَصة.** قال: وذو الخلصة طاغية دوس التي كانوا يعبدون في الجاهلية» وروى ابن حبان عن معمر قال: إن عليه الآن بيتاً مبنياً مغلقاً.

قال العلامة ابن القيم رحمه الله في قصة هدم اللات لما أسلمت ثقيف: فيه أنه لا يجوز إبقاء مواضع الشرك والطواغيت بعد القدرة على هدمها وإبطالها يوماً واحداً، وكذا حكم المشاهد التي بنيت على القبور، والتي اتخذت أوثاناً تعبد من دون الله، والأحجار التي تقصد للتبرك والنذر لا يجوز إبقاء شيء منها على وجه الأرض مع القدرة على إزالتها، وكثير منها بمنزلة اللات والعزى ومناة، أو أعظم شركاً عندها

وبها، فاتبع هؤلاء سنن من كان قبلهم، وسلكوا سبيلهم حذو القذة بالقذة، وغلب الشرك على أكثر النفوس، لظهور الجهل وخفاء العلم، وصار المعروف منكراً والمنكر معروفاً، والسنة بدعة والبدعة سنة، وطمست الأعلام، واشتدت غربة الإسلام، وقلّ العلماء، وغلب السفهاء، وتفاقم الأمر، واشتد البأس، وظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس، ولكن لاتزال طائفة من العصابة المحمدية بالحق قائمين، ولأهل الشرك والبدع مجاهدين، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين. اهـ ملخصاً.

قلت: فإذا كان هذا في القرن السابع وقبله، فما بعده أعظم فساداً كما هو الواقع.

قوله: «وإنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون كلهم يزعم أنه نبي» قال القرطبي: وقد جاء عددهم معيناً في حديث حذيفة قال: قال رسول الله ﷺ: **«يكون في أمتي كذابون دجالون سبع وعشرون، منهم أربع نسوة»** أخرجه أبونعيم. وقال: هذا حديث غريب. انتهى.

وحديث ثوبان أصح من هذا.

قال القاضي عياض: عدَّ من تنبأ من زمن رسول الله ﷺ إلا الآن ممن اشتهر بذلك وعرف واتبعه جماعة على ضلالة. فوجد هذا العدد فيهم، ومن طالع كتب الأخبار والتواريخ عرف صحة هذا.

وقال الحافظ: وقد ظهر مصداق ذلك في زمن رسول الله ﷺ، فخرج مسيلمة الكذاب باليمامة، والأسود العنسي باليمن، وفي خلافة أبي بكر: طليحة بن خويلد في بني أسد بن خزيمة، وسَجاح في بني تميم، وقتل الأسود قبل أن يموت النبي ﷺ، وقتل مسيلمة في خلافة أبي بكر رضي الله عنه، قتله وَحْشي قاتل حمزة يوم أُحد، وشاركه في

قتل مسيلمة يوم اليمامة رجل من الأنصار، وتاب طليحة ومات على الإسلام في زمن عمر رضي الله عنه. ونقل أن سجاح تابت أيضاً. ثم خرج المختار ابن أبي عبيد الثقفي وغلب على الكوفة في أول خلافة ابن الزبير، وأظهر محبة أهل البيت ودعا الناس إلى طلب قتلة الحسين، فتتبعهم فقتل كثيراً ممن باشر ذلك، وأعان عليه، فأحبه الناس، ثم ادعى النبوة وزعم أن جبريل عليه السلام يأتيه. ومنهم الحارث الكذاب، خرج في خلافة عبدالملك بن مروان فقتل. وخرج في خلافة بني العباس جماعة.

وليس المراد بالحديث من ادعى النبوة مطلقاً. فإنهم لا يحصون كثرة لكون غالبهم تنشأ دعوته عن جنون أو سوداء. وإنما المراد من قامت له شوكة وبدا له شبهة كمن وصفنا. وقد أهلك الله تعالى من وقع له منهم ذلك وبقي منهم من يلحقه بأصحابه وآخرهم الدجال الأكبر.

قوله: «وأنا خاتم النبيين» قال الحسن: الخاتم: الذي ختم به، يعني أنه آخر النبيين، كما قال تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ [الأحزاب: ٤٠] وإنما ينزل عيسى بن مريم في آخر الزمان حاكماً بشريعة محمد ﷺ مصلياً إلى قبلته، فهو كأحد أمته، بل هو أفضل هذه الأمة. قال النبي ﷺ: **«والذي نفسي بيده لينزلن فيكم ابن مريم حكماً مُقْسِطاً. فليكسرن الصليب، وليقتلن الخنزير، وليضعنَّ الجزية»**.

قوله: «ولاتزال طائفة من أمتي على الحق منصورة لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم».

قال يزيد بن هارون، وأحمد بن حنبل: «إن لم يكونوا أهل الحديث فلا أدري من هم؟».

قال ابن المبارك وعلي بن المديني، وأحمد بن سنان، والبخاري وغيرهم: «إنهم أهل الحديث». وعن ابن المديني، رواية «هم العرب» واستدل برواية من روى، هم أهل الغرب، وفسر الغرب بالدلو العظيمة؛ لأن العرب هم الذين يستقون بها.

قال النووي: يجوز أن تكون الطائفة جماعة متعددة من أنواع المؤمنين ما بين شجاع وبصير بالحرب، وفقيه ومحدث ومفسر، وقائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وزاهد وعابد، ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين في بلد واحد، بل يجوز اجتماعهم في قطر واحد، وافتراقهم في أقطار الأرض، ويجوز أن يجتمعوا في البلد الواحد، وأن يكونوا في بعض دون بعض منه، ويجوز إخلاء الأرض من بعضهم أولاً فأولاً، إلى أن لا يبقى إلا فرقة واحدة ببلد واحد، فإذا انقرضوا جاء أمر الله. اهـ ملخصاً مع زيادة فيه. قاله الحافظ.

قال القرطبي: وفيه دليل على أن الإجماع حجة، لأن الأمة إذا اجتمعت فقد دخل فيهم الطائفة المنصورة.

قال المصنف رحمه الله: «وفيه: الآية العظيمة: أنهم مع قلتهم لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم، وفيه البشارة بأن الحق لا يزول بالكلية».

قلت: واحتج به الإمام أحمد على أن الاجتهاد لا ينقطع مادامت هذه الطائفة موجودة.

قوله: «حتى يأتي أمر الله» الظاهر أن المراد به ما روي من قبض مَنْ بقي من المؤمنين بالريح الطيبة، ووقوع الآيات العظام، ثم لا يبقى إلا شرار الناس، كما روى الحاكم: أن عبدالله بن عمرو قال: «لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق، هم شر أهل الجاهلية»، فقال عُقبة بن عامر

لعبدالله: أعلم ما تقول، وأما أنا فسمعت النبي ﷺ يقول: «**لاتزال عصابة من أمتي يقاتلون على أمر الله، ظاهرين، لا يضرهم من خالفهم حتى تأتيهم الساعة وهم على ذلك**» قال عبدالله: «ويبعث الله ريحاً ريحها المسك، ومسها مس الحرير، فلا تترك أحداً في قلبه مثقال ذرة من إيمان إلا قبضته، ثم يبقى شرار الناس، فعليهم تقوم الساعة».

وفي «صحيح مسلم»: «**لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض: الله الله**».

وعلى هذا: فالمراد بقوله في حديث عقبة وما أشبهه: «**حتى تأتيهم الساعة**» ساعتهم وهي وقت موتهم بهبوب الريح. ذكره الحافظ.

وقد اختلف في محل هذه الطائفة، فقال ابن بطال: إنها تكون في بيت المقدس، كما رواه الطبراني من حديث أبي أمامة «قيل: يارسول الله، أين هم؟ قال: **ببيت المقدس**» وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه: «هم بالشام» وفي كلام الطبري ما يدل على أنه لا يجب أن تكون في الشام أو في بيت المقدس دائماً، بل قد تكون في موضع آخر في بعض الأزمنة.

قلت: ويشهد له الواقع وحال أهل الشام وأهل بيت المقدس، فإنهم من أزمنة طويلة لا يعرف فيهم من قام بهذا الأمر بعد شيخ الإسلام ابن تيمية رضي الله عنه، وأصحابه في القرن السابع وأول الثامن، فإنهم كانوا في زمانهم على الحق يدعون إليه، ويناظرون عليه، ويجاهدون فيه. وقد يجيء من أمثالهم بعد بالشام من يقوم مقامهم بالدعوة إلى الحق والتمسك بالسنة، والله على كل شيء قدير.

ومما يؤيد هذا أن أهل الحق والسنة في زمن الأئمة الأربعة، وتوافر العلماء في ذلك الزمان وقبله وبعده، لم يكونوا في محل واحد، بل هم

في غالب الأمصار: في الشام منهم الأئمة، وفي الحجاز، وفي مصر، وفي العراق واليمن، وكلهم على الحق يناضلون ويجاهدون أهل البدع، ولهم المصنفات التي صارت أعلاماً لأهل السنة، وحجة على كل مبتدع.

فعلى هذا: فهذه الطائفة قد تجتمع وقد تتفرق، وقد تكون في الشام، وقد تكون في غيره، فإن حديث أبي أمامة، وقول معاذ، لا يفيد حصرها بالشام، وإنما يفيد أنها تكون في الشام في بعض الأزمان لا في كلها.

وكل جملة من هذا الحديث عَلَم من أعلام النبوة، فإن كل ما أخبر به النبي ﷺ في هذا الحديث وقع كما أخبر ﷺ.

وقوله: «تبارك وتعالى» قال ابن القيم رحمه الله: البركة نوعان:

أحدهما: بركة هي فَعَلة، والفعل منها بارك، ويتعدى بنفسه تارة، وبأداة «على» تارة، وبأداة «في» تارة، والمفعول منها مبارك. وهو ما جعل منها كذلك، فكان مباركاً بجعله تعالى.

والنوع الثاني: بركة تضاف إليه إضافة الرحمة والعزة، والفعل منها تبارك، ولهذا لا يقال لغيره ذلك، ولا يصلح إلا له عزوجل، فهو سبحانه المبارك، وعبده ورسوله المبارَك، كما قال المسيح عليه السلام: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم: ٣١] فمن يبارك الله فيه وعليه فهو المبارك.

وأما صفة تبارك فمختصة به، كما أطلقه على نفسه في قوله: ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: ٥٤]، ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾ [الملك: ١]، أفلا تراها كيف اطردت في القرآن جارية عليه مختصة به، لا تطلق على غيره؟ وجاءت على بناء السعة والمبالغة،

كتعالى وتعاظم ونحوه، فجاء بناء ﴿تَبَارَكَ﴾ على بناء «تعالى» الذي هو دال على كمال العلو ونهايته، فكذلك ﴿تَبَارَكَ﴾ دال على كمال بركته وعظمته وسعتها. وهذا معنى قول من قال من السلف ﴿تَبَارَكَ﴾ تعاظم. وقال ابن عباس رضي الله عنهما «جاء بكل بركة».

فيــه مســائل:

الأولــى: تفسير آية النساء.

الثانيــة: تفسير آية المائدة.

الثالثــة: تفسير آية الكهف.

الرابعــة: ـ وهي أهمها ـ: ما معنى الإيمان بالجِبْتِ والطاغوتِ: هل هو اعتقادُ قلب، أو هو موافقةُ أصحابها مع بُغْضها ومعرفة بطلانها؟.

الخامسة: قولهم: إن الكفار الذين يعرفون كُفْرَهم أهدَىٰ سبيلاً من المؤمنين.

السادسة: ـ وهي المقصودة بالترجمة ـ أنَّ هذا لابد أن يوجد في هذه الأمة، كما تقرر في حديث أبي سعيد.

السابعة: التصريح بوقوعها، أعني عبادة الأوثان في هذه الأمة في جموع كثيرة.

الثامنــة: العجبُ العجاب: خروج مَنْ يَدَّعي النبوة، مثل المختار، مع تكلُّمه بالشهادتين، وتصريحه بأنه من هذه الأمة، وأنَّ الرسول حَقٌّ، وأن القرآن حقٌّ، وفيه أن محمداً خاتم النبيين، ومع هذا يُصَدَّق في هذا كله مع التضادِّ الواضح. وقد خرج المختارُ في آخر عصر الصحابة، وتبعه فِئَامٌ كثيرة.

التاسعة: البشارة بأن الحق لا يزول بالكلية، كما زال فيما مضى، بل لا

تزالُ عليه طائفة.

العاشرة: الآية العظمى: أنهم مع قلَّتهم لا يضرهم مَنْ خذلهم ولا من خالفهم.

الحادية عشرة: أنَّ ذلك الشرط إلى قيام الساعة.

الثانية عشرة: ما فيهن من الآيات العظيمة.

منها: إخبارهُ بأن الله زَوَىٰ له المشارقَ والمغارب، وأخبر بمعنى ذلك، فوقع كما أخبر، بخلاف الجنوب والشمال.

وإخباره بأنه أُعطي الكنزين.

وإخباره بإجابة دعوته لأمته في الاثنتين.

وإخبارُه بأنه مُنعَ الثالثة.

وإخبارُه بوقوع السيف، وأنه لا يُرفع إذا وقع.

وإخبارُه بظهور المتنبئين في هذه الأمة.

وإخبارُه ببقاء الطائفة المنصورة.

وكل هذا وقع كما أخبر، مع أن كل واحدٍ منها من أبعدِ ما يكون في العقول.

الثالثة عشرة: حَصْرُ الخوف على أمته من الأئمة المضلين.

الرابعة عشرة: التنبيه على معنى عبادة الأوثان.

باب ما جاء في السحر

قوله: «باب ما جاء في السحر»(١).

أي: والكهانة. السحر في اللغة: عبارة عما خفي ولطُف سببه، ولهذا جاء في الحديث «**إن من البيان لسحراً**» وسمي السَّحَر سحراً، لأنه يقع خفياً آخر الليل.

قال أبومحمد المقدسي في «الكافي»: السحر عزائم ورُقىً وعقد يؤثر في القلوب والأبدان، فيمرض ويقتل، ويفرق بين المرء وزوجه. قال

---

(١) السحر حق وقوعه ووجوده ولو لم يكن موجوداً حقيقة لم ترد النواهي في الشرع. والوعيد على فاعله. والعقوبات الدينية والأخروية على متعاطيه، والاستعاذة منه أمراً وخبراً. وقد أخبر الله تعالى أنه كان موجوداً في زمن فرعون وأنه أراد أن يعارض به معجزات نبي الله موسى عليه السلام في العصا بعد أن رماه هو وقومه بقولهم: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧٦﴾ - إلى قوله - ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ٱئْتُونِي بِكُلِّ سَٰحِرٍ عَلِيمٍ ۝٧٩﴾.
وقد أخبر الله تعالى عن قوم صالح وكانوا قبل إبراهيم عليه السلام أنهم قالوا لنبيهم عليه السلام: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ۝١٥٣﴾.
وكذا قال قوم شعيب له عليه السلام: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ۝١٥٣﴾ وقالت قريش لنبينا محمد ﷺ كما ذكر الله تعالى ذلك عنهم في غير موضع بل ذكر الله عز وجل أن ذلك القول تداوله كل الكفار لرسلهم فقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ۝٥٢ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ﴾ وقال سبحانه وتعالى في ذم اليهود ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ الآيات فله تأثير؟ فمنه ما يمرض، ومنه ما يقتل، ومنه ما يأخذ بالعقول، ومنه ما يأخذ بالأبصار، ومنه ما يفرق بين المرء وزوجه، لكن تأثيره بإذن الله تعالى الإذن الكوني القدري لا الشرعي فإن الله تعالى حرمه وجعله من الكفر.

الله تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ [البقرة: ١٠٢] وقال سبحانه: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾﴾ [الفلق: ٤] يعني السواحر اللاتي يعقدن في سحرهن وينفثن في عقدهن. ولولا أن للسحر حقيقة لم يأمر الله بالاستعاذة منه.

وعن عائشة رضي الله عنها: «أن النبي ﷺ سُحر حتى إنه ليخيل إليه أنه يفعل الشيء وما يفعله، وأنه قال لها ذات يوم: أتاني مَلكان، فجلس أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي، فقال: ما وجع الرجل؟ قال: مطبوب. قال: ومَن طَبَّه؟ قال: لبيد ابن الأعصم في مشط ومشاطة، وفي جف طلعة ذَكر في بئر ذَرْوان» رواه البخاري.

وقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ [البقرة: ١٠٢].

قال: «وقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ قال ابن عباس: «من نصيب» قال قتادة: وقد علم أهل الكتاب فيما عهد إليهم: أن الساحر لا خلاق له في الآخرة. وقال الحسن: ليس له دين.

فدلت الآية على تحريم السحر، وكذلك هو محرم في جميع أديان الرسل عليهم السلام، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾﴾ [طه: ٦٩].

وقد نص أصحاب أحمد أنه يكفر بتعلمه وتعليمه.

وروى عبدالرزاق عن صفوان بن سليم قال: قال رسول الله ﷺ: **«من تعلم شيئاً من السحر قليلاً كان أو كثيراً كان آخر عهده من الله»** وهذا مرسل.

واختلفوا: هل يكفر الساحر أو لا؟ فذهب طائفة من السلف إلى أنه يكفر، وبه قال مالك وأبوحنيفة وأحمد رحمهم الله. قال أصحابه: إلا أن يكون سحره بأدوية وتدخين وسقي شيء يضر فلا يكفر.

وقال الشافعي: إذا تعلم السحر قلنا له: صف لنا سحرك، فإن وصف ما يوجب الكفر، مثل ما اعتقده أهل بابل من التقرب إلى الكواكب السبعة، وأنها تفعل ما يلتمس منها فهو كافر، وإن كان لا يوجب الكفر فإن اعتقد إباحته كفر. اهـ.

وقد سماه الله كفراً بقوله: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢] وقوله: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا﴾ [البقرة: ١٠٢] قال ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ وذلك أنهما علما الخير والشر والكفر والإيمان، فعرفا أن السحر من الكفر.

قوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ [النساء: ٥١].

قال: «وقوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ تقدم الكلام عليهما في الباب قبله. وفيه أن السحر من الجبت. قاله المصنف رحمه الله.

قال عمر: الجبت: السحر، والطاغوت: الشيطان».

قوله: قال عمر رضي الله عنه: الجبت: السحر، والطاغوت: الشيطان». هذا الأثر رواه ابن أبي حاتم وغيره.

وقال جابر: «الطواغيت: كهان، كان ينزل عليهم الشيطان في كل حي واحد».

قوله: وقال جابر: «الطواغيت: كهان، كان ينزل عليهم الشيطان في كل

حي واحد». هذا الأثر رواه ابن أبي حاتم بنحوه مطولاً عن وهب بن منبه قال: «سألت جابر بن عبدالله عن الطواغيت التي كانوا يتحاكمون إليها؛ فقال: إن في جهينة واحداً، وفي أسلم واحداً، وفي هلال واحداً، وفي كل حي واحداً، وهم كهان كانت تنزل عليهم الشياطين».

قوله: «قال جابر» هو ابن عبدالله بن حرام الأنصاري.

قوله: «الطواغيت: كهان» أراد أن الكهان من الطواغيت، فهو من أفراد المعنى.

قوله: «كان ينزل عليهم الشيطان» أراد الجنس لا الشيطان الذي هو إبليس خاصة، بل تنزل عليهم الشياطين ويخاطبونهم ويخبرونهم بما يسترقون من السمع، فيصدقون مرة، ويكذبون مائة.

قوله: «في كل حي واحد» الحي واحد الأحياء، وهم القبائل، أي في كل قبيلة كاهن يتحاكمون إليه ويسألونه عن الغيب، وكذلك كان الأمر قبل مبعث النبي ﷺ فأبطل الله ذلك بالإسلام، وحرست السماء بكثرة الشهب.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات، قالوا: يارسول الله، وما هُنَّ؟ قال: الشرك بالله، والسحر؛ وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق. وأكلُ الربا، وأكلُ مال اليتيم، والتوَلِّي يَوم الزحْف، وقذف المحصناتِ الغافلات المؤمنات».

قوله: «وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات، قالوا: يارسول الله، وما هُنَّ؟ قال: الشرك بالله،

والسحر؛ وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق. وأكلُ الربا، وأكلُ مال اليتيم، والتوَلِّي يَوم الزحْف، وقذف المحصناتِ الغافلات المؤمنات».

كذا أورده المصنف غير معزو. وقد رواه البخاري ومسلم.

قوله: «اجتنبوا» أي ابتعدوا، وهو أبلغ من قوله: دعوا واتركوا؛ لأن النهي عن القربان أبلغ، كقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأنعام: ١٥١].

قوله: «الموبقات» بموحدة وقاف: أي المهلكات. وسميت هذه موبقات لأنها تهلك فاعلها في الدنيا بما يترتب عليها من العقوبات، وفي الآخرة من العذاب.

وفي حديث ابن عمر عند البخاري في «الأدب المفرد» والطبري في «التفسير»، وعبدالرزاق مرفوعاً وموقوفاً قال: **«الكبائر تسع ـ وذكر السبعة المذكورة ـ وزاد: والإلحاد في الحرم. وعقوق الوالدين»**.

ولابن أبي حاتم عن علي قال: «الكبائر ـ فذكر السبع ـ إلاّ مال اليتيم. وزاد: العقوق، والتعرب بعد الهجرة، وفراق الجماعة، ونكث الصفقة».

قال الحافظ: ويحتاج عندي هذا الجواب عن الحكمة في الاقتصار عندي على سبع.

ويجاب: بأن مفهوم العدد ليس بحجة وهو ضعيف، أو بأنه أعلم أولاً بالمذكورات. ثم أعلم بما زاد، فيجب الأخذ بالزائد، أو أن الاقتصار وقع بحسب المقام بالنسبة إلى السائل.

وقد أخرج الطبراني وإسماعيل القاضي عن ابن عباس أنه قيل له: «الكبائر سبع» قال: «هن أكثر من سبع وسبع» وفي رواية: «هي إلى السبعين أقرب» وفي رواية «إلى السبعمائة».

قوله: «**قال الشرك بالله**» هو أن يجعل لله نداً يدعوه ويرجوه، ويخافه كما يخاف الله، بدأ به لأنه أعظم ذنب عصي الله به، كما في «الصحيحين» عن ابن مسعود «سألت النبي ﷺ أيُّ الذنب أعظم عند الله؟ قال: **أن تجعل لله نداً وهو خلقك**. . .» الحديث.

وأخرج الترمذي بسنده عن صفوان بن عسال قال: «قال يهودي لصاحبه: اذهب بنا إلى هذا النبي، فقال له صاحبه: لا تقل: نبي، إنه لو سمعك لكان له أربع أعين، فأتيا رسول الله ﷺ فسألاه عن تسع آيات بينات، فقال النبي ﷺ: «**لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا تمشوا ببريء إلى ذي سلطان ليقتله، ولا تسحروا، ولا تأكلوا الربا، ولا تقذفوا محصنة، ولا تولوا للفرار يوم الزحف، وعليكم خاصة اليهود أن لا تَعْدُوا في السبت**». فقبَّلا يديه ورجليه. وقالا: نشهد أنك نبي. . . الحديث. وقال: حسن صحيح.

قوله: «**السحر**» تقدم معناه. وهذا وجه مناسبة الحديث للترجمة.

وقوله: «**وقتل النفس التي حرم الله**» أي حرم قتلها. وهي نفس المسلم المعصوم.

قوله: «**إلا بالحق**» أي بأن تفعل ما يوجب قتلها، كالشرك، والنفس بالنفس، والزاني بعد الإحصان، وكذا قتل المعاهد، كما في الحديث «**من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة**».

واختلف العلماء فيمن قتل مؤمناًمتعمداً، وهل له توبة أم لا؟ فذهب ابن عباس وأبوهريرة وغيرهما إلى أنه لا توبة له، استدلالاً بقوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا﴾ [النساء: ٩٣].

وقال ابن عباس: «نزلت هذه الآية وهي آخر ما نزل، وما نسخها

شيء» وفي رواية «لقد نزلت في آخر ما نزل، وما نسخها شيء حتى قبض رسول الله ﷺ وما نزل وحي».

وروي في ذلك آثار تدل لما ذهب إليه هؤلاء، كما عند الإمام أحمد والنسائي وابن المنذر عن معاوية: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**كل ذنب عسى الله أن يغفره إلاّ الرجل يموت كافراً أو الرجل يقتل مؤمناً متعمداً**».

وذهب جمهور الأمة سلفاً وخلفاً إلى أن القاتل له توبة فيما بينه وبين الله، فإن تاب وأناب وعمل صالحاً بدل الله سيئاته حسنات، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾﴾ [الفرقان: ٦٨ ـ ٧١].

قوله: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا﴾ قال أبوهريرة وغيره: «هذا جزاؤه إن جازاه».

وقد روي عن ابن عباس ما يوافق قول الجمهور، فروى عبد بن حُميد والنحاس عن سعيد بن عبادة: أن ابن عباس رضي الله عنهما كان يقول: «لمن قتل مؤمناً توبة» وكذلك ابن عمر رضي الله عنهما. وروي مرفوعاً «أن جزاءه جهنم إن جازاه».

قوله: «وأكل الربا» أي تناوله بأي وجه كان، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ﴾ الآيات [البقرة: ٢٧٥]. قال ابن دقيق العيد: وهو مجرب لسوء الخاتمة، نعوذ بالله من ذلك.

قوله: «وأكل مال اليتيم» يعني التعدِّي فيه. وعبَّر بالأكل لأنه أعم وجوه الانتفاع، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾ [النساء: ١٠].

قوله: «والتولي يوم الزحف» أي الإدبار عن الكفار وقت التحام القتال، وإنما يكون كبيرة إذا فرَّ إلى غير فئة أو غير متحرف لقتال، كما قيد به في الآية.

قوله: «وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات» وهو بفتح الصاد: المحفوظات من الزنا، وبكسرها: الحافظات فروجهن منه. والمراد الحرائر العفيفات، والمراد رميهن بزنا أو لواط، والغافلات: أي عن الفواحش وما رمين به. فهو كناية عن البريئات؛ لأن الغافل بريء عما بهت به، والمؤمنات: أي بالله تعالى، احترازاً من قذف الكافرات.

وعن جُندب مرفوعاً: «حَدُّ الساحر: ضربهُ بالسيف» رواه الترمذي، وقال: الصحيح أنه موقوف.

قوله: «**وعن جُندب مرفوعاً: «حَدُّ الساحر: ضربهُ بالسيف» رواه الترمذي، وقال: الصحيح أنه موقوف**».

قوله: «عن جندب» ظاهر صنيع الطبراني في «الكبير»: أنه جندب بن عبدالله البجلي، لا جندب الخير الأزدي قاتل الساحر، فإنه رواه في ترجمة جندب البجلي من طريق خالد العبد عن الحسن، عن جندب عن النبي ﷺ، وخالد العبد ضعيف، قال الحافظ: والصواب أنه غيره، وقد رواه ابن قانع والحسن بن سفيان من وجهين عن الحسن عن جُندب الخير «أنه جاء إلى ساحر فضربه بالسيف حتى مات، وقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ... فذكره».

وجندب الخير: هو جندب بن كعب، وقيل: جندب بن زهير. وقيل: هما واحد، كما قال ابن حبان: أبوعبدالله الأزدي الغامدي صحابي، روى ابن السكن من حديث بريدة: أن النبي ﷺ قال: «يضرب ضربة واحدة فيكون أُمّةً وحده».

قوله: «**حد الساحر: ضربة بالسيف**» وروي بالهاء والتاء، وكلاهما صحيح.

وبهذا الحديث أخذ مالك وأحمد وأبوحنيفة. فقالوا: يقتل الساحر. وروي ذلك عن عمر، وعثمان، وابن عمر، وحفصة، وجندب بن عبدالله، وجندب بن كعب، وقيس بن سعد، وعمر بن عبدالعزيز.

ولم ير الشافعي القتل عليه بمجرد السحر إلا إن عمل في سحره ما يبلغ الكفر. وبه قال ابن المنذر، وهو رواية عن أحمد.

والأول أولى للحديث ولأثر عمر، وعمل به الناس في خلافته من غير نكير.

وفي «صحيح البخاري» عن بَجالة بن عَبَدة قال: «كتب عمر بن الخطاب أن اقتلوا كلَّ ساحر وساحرة قال: فقتلنا ثلاث سواحر».

قوله: «**وفي «صحيح البخاري» عن بَجالة بن عَبَدة قال: «كتب عمر بن الخطاب أن اقتلوا كلَّ ساحر وساحرة قال: فقتلنا ثلاث سواحر»**».

هذا الأثر رواه البخاري كما قال المصنف رحمه الله، لكن لم يذكر قتل السواحر.

قوله: «**عن بجالة**» بفتح الموحدة بعدها جيم: ابن عبدة ـ بفتحتين ـ

التميمي العنبري بصري ثقة.

قوله: «كتب إلينا عمر بن الخطاب: أن اقتلوا كل ساحر وساحرة» وظاهره أنه يقتل من غير استتابة. وهو كذلك على المشهور عن أحمد، وبه قال مالك، لأن علم السحر لا يزول بالتوبة. وعن أحمد يستتاب، فإن تاب قبلت توبته، وبه قال الشافعي، لأن ذنبه لا يزيد عن الشرك، والمشرك يستتاب وتقبل توبته. ولذلك صح إيمان سحرة فرعون وتوبتهم.

وصح عن حفصة رضي الله عنها «أنها أمرت بقتل جارية لها سحرتها فقتلت» وكذا صح عن جندب.

قوله: «وصح عن حفصة رضي الله عنها «أنها أمرت بقتل جارية لها سحرتها فقتلت» هذا الأثر رواه مالك في «الموطأ».

و«حفصة» هي أم المؤمنين بنت عمر بن الخطاب، تزوجها النبي ﷺ بعد خنيس بن حذافة وماتت سنة خمس وأربعين.

قوله: «وكذا صح عن جندب» أشار المصنف بهذا إلى قتله الساحر، كما رواه البخاري في «تاريخه» عن أبي عثمان النهدي قال: «كان عند الوليد رجل يلعب فذبح إنساناً وأبان رأسه فعجبنا، فأعاد رأسه فجاء جندب الأزدي فقتله».

ورواه البيهقي في «الدلائل» مطولاً. وفيه «فأمر به الوليد فسجن» فذكر القصة بتمامها ولها طرق كثيرة.

قال أحمد: عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ.

قوله: قال أحمد: عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ. أحمد هو الإمام

أحمد بن محمد بن حنبل.

قوله: «**عن ثلاثة**» أي صح قتل الساحر عن ثلاثة، أو جاء قتل الساحر عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ، يعني: عمر، وحفصة، وجندباً، والله أعلم.

فيـه مسـائل:

الأولـى: تفسير آية البقرة.

الثانيـة: تفسير آية النساء.

الثالثـة: تفسير الجبت والطاغوت، والفرق بينهما.

الرابعـة: أن الطاغوت قد يكون من الجنّ، وقد يكون من الإنس.

الخامسة: معرفة السبع الموبقات المخصوصات بالنهي.

السادسة: أن الساحر يكفر.

السابعـة: أنه يُقتل ولا يستتاب.

الثامنـة: وجود هذا في المسلمين على عهد عمر، فكيف بعده؟

باب بيان شيء من أنواع السحر

قوله: «باب بيان شيء من أنواع السحر».

قلت: ذكر الشارح ـ رحمه الله تعالى ـ هاهنا شيئاً من الخوارق وكرامات الأولياء، وذكر ما اغتر به كثير من الناس من الأحوال الشيطانية التي غرت كثيراً من العوام والجهال، وظنوا أنها تدل على ولاية من جرت على يديه ممن هو من أولياء الشيطان لا من أولياء الرحمن، ثم قال: ولشيخ الإسلام كتاب «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» فراجعه. انتهى.

قال أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا عوف، عن حيان بن العلاء، حدثنا قَطَن بن قبيصة، عن أبيه: أنه سمع النبي ﷺ قال: «إن العِيَافَة والطَّرْق والطِّيرَة من الجبت».

قال عوف: العيافة: زَجر الطير. والطرق: الخط يخط بالأرض. والجبت: قال الحسن: «رنة الشيطان». إسناده جيد. ولأبي داود والنسائي وابن حبان في صحيحه: المسند منه.

قال رحمه الله تعالى: «قال أحمد: حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا عوف، عن حيان بن العلاء، حدثنا قَطَن بنِ قَبيصة، عن أبيه: أنه سمع النبي ﷺ قال: **«إن العيافة. والطّرق، والطِّيرة من الجِبْت»** قال عوف: العيافة: زجر الطير، والطرق: الخط يخط في الأرض. والجبت: قال

الحسن: «رنة الشيطان» إسناده جيد. ولأبي داود والنسائي وابن حبان في «صحيحه»: المسند منه».

قوله: «قال أحمد» هو الإمام **أحمد** بن محمد بن حنبل.

ومحمد بن جعفر: هو المشهور بغُنْدَر الهذلي البصري، ثقة مشهور. مات سنة ست ومائتين.

وعوف: هو ابن أبي جميلة - بفتح الجيم - العبدي البصري، المعروف بعوف الأعرابي، ثقة. مات سنة ست - أو سبع - وأربعين، وله ست وثمانون سنة.

وحيان بن العلاء: هو بالتحتية، ويقال: حيان بن مخارق أبوالعلاء البصري، مقبول. وقَطَن - بفتحتين -: أبوسهل البصري، صدوق.

قوله: «عن أبيه» هو قبيصة - بفتح أوله - ابن مخارق - بضم الميم - أبوعبدالله الهلالي. صحابي نزل البصرة.

قوله: «إن العيافة والطرق والطيرة من الجبت» قال عوف: العيافة: زجر الطير، والتفاؤل بأسمائها وأصواتها وممرها، وهو من عادات العرب، وكثير في أشعارهم. يقال: عاف يعيف: عيفاً: إذا زجر وحدس وظن.

قوله: «والطرق: الخط يخط بالأرض» كذا فسره عوف، وهو كذلك.

وقال أبوالسعادات: هو الضرب بالحصى الذي يفعله النساء.

وأما الطيرة: فيأتي الكلام عليها في بابها إن شاء الله تعالى.

قوله: «من الجبت» أي: السحر، قال القاضي: والجبت في الأصل: الفشل الذي لا خير فيه، ثم استعير لما يعبد من دون الله، وللساحر والسحر.

قوله: «قال الحسن: رنة الشيطان» قلت: ذكر إبراهيم بن محمد بن

مفلح: أن في تفسير بَقِيٍّ بن مَخْلَد «أن إبليس رنَّ أربع رنات: رنة حين لُعن، ورنة حين أُهبط، ورنة حين ولد رسول الله ﷺ، ورنة حين نزلت فاتحة الكتاب».

قال سعيد بن جبير: لما لعن الله تعالى إبليس، تغيَّرت صورته عن صورة الملائكة، ورنَّ رنة، فكل رنة منها في الدنيا إلى يوم القيامة» رواه ابن أبي حاتم.

وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: «لما فتح رسول الله ﷺ مكة، رنَّ إبليس رَنَّة اجتمعت إليه جنوده» رواه الحافظ الضياء في «المختارة».

الرنين: الصوت. وقد رن يرن رنيناً. وبهذا يظهر معنى قول الحسن ـ رحمه الله تعالى ـ.

قوله: «ولأبي داود وابن حبان في صحيحه: **المسند منه**» ولم يذكر التفسير الذي فسَّره به عوف. وقد رواه أبوداود بالتفسير المذكور بدون كلام الحسن.

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من اقتبس شُعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر، زاد ما زاد». رواه أبوداود، وإسناده صحيح.

قوله: «وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «من اقتبس شُعبة من النجوم، فقد اقتبس شعبة من السحر، زاد ما زاد» رواه أبوداود بإسناد صحيح» وكذا صححه النووي والذهبي. ورواه أحمد وابن ماجه.

قوله: «من اقتبس» قال أبوالسعادات: قبست العلم واقتبسته: إذا علمته. اهـ.

قوله: «شعبة» أي طائفة من علم النجوم. والشعبة الطائفة، ومنه الحديث: «**الحياء شعبة من الإيمان**» أي جزء منه.

قوله: «فقد اقتبس شعبة من السحر» المحرم تعلمه.

قال شيخ الإسلام ـ رحمه الله تعالى ـ: «فقد صرح رسول الله ﷺ بأن علم النجوم من السحر، وقال تعالى: ﴿وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾﴾ [طه: ٦٩].

قوله: «زاد ما زاد» أي كلما زاد من تعلم علم النجوم، زاد في الإثم الحاصل بزيادة الاقتباس من شُعَبه، فإن ما يعتقده في النجوم من التأثير باطل، كما أن تأثير السحر باطل.

وللنسائي من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: «من عَقد عُقدة ثم نفث فيها فقد سَحر، ومن سَحر فقد أشرك، ومن تعلَّق شيئاً وُكِلَ إليه».

قوله: «**وللنسائي من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ: «من عَقَدَ عقدة ثم نَفَثَ فيها فقد سحر، ومن سحر فقد أشرك، ومن تعلَّق شيئاً وُكِلَ إليه**» هذا حديث ذكره المصنف من حديث أبي هريرة وعزاه للنسائي. وقد رواه النسائي مرفوعاً، وحسَّنه ابن مفلح.

قوله: «وللنسائي» هو الإمام الحافظ أحمد بن شعيب بن علي بن سنان ابن بحر بن دينار أبوعبدالرحمن صاحب «السنن» وغيرها. روى عن محمد بن المثنى وابن بشار وقتيبة وخلق. وكان إليه المنتهى في العلم

بعلل الحديث. مات سنة ثلاث وثلاثمائة، وله ثمان وثمانون سنة ـ رحمه الله تعالى ـ.

قوله: «**من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر**» اعلم أن السحرة إذا أرادوا عمل السحر عقدوا الخيوط ونفثوا على كل عقدة، حتى ينعقد ما يريدون من السحر، قال الله تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ۝٤﴾ يعني السواحر اللاتي يفعلن ذلك، والنفث هو النفخ مع الريق، وهو دون التفل، والنفث فعل الساحر، فإذا تكيَّفت نفسه بالخبث والشر الذي يريده بالمسحور ويستعين عليه بالأرواح الخبيثة نفخ في تلك العقدة نفخاً معه ريق، فيخرج من نفسه الخبيثة نفس ممازج للشر والأذى مقارن للريق الممازج لذلك، وقد يتساعد هو والروح الشيطانية على أذى المسحور فيصيبه بإذن الله الكوني القدري لا الشرعي، قاله ابن القيم رحمه الله تعالى.

قوله: «**ومن سحر فقد أشرك**» نص في أن الساحر مشرك، إذ لا يتأتى السحر بدون الشرك كما حكاه الحافظ عن بعضهم.

قوله: «**ومن تعلّق شيئاً وُكل إليه**» أي من تعلق قلبه شيئاً، بحيث يعتمد عليه ويرجوه وكله الله إلى ذلك الشيء، فمن تعلق على ربه وإلـٰهه وسيده ومولاه رب كل شيء ومليكه، كفاه ووقاه وحفظه وتولاه، فنعم المولى ونعم النصير. قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦] ومن تعلق على السحرة والشياطين وغيرهم من المخلوقين وكله الله إلى من تعلقه فهلك. ومن تأمل ذلك في أحوال الخلق ونظر بعين البصيرة رأى ذلك عياناً، وهذا من جوامع الكلم، والله أعلم.

وعن ابن مسعود: أن رسول الله ﷺ قال: «ألا هل أُنبئكم

ما العَضْه هي النميمة: القالة بين الناس» رواه مسلم.

قال: وعن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: أن رسول الله ﷺ قال: «**ألا هل أنبئكم ما العَضْه؟ هي النميمة، القالَة بين الناس**» رواه مسلم.

قوله: «**ألا هل أنبئكم**» أخبركم، و«العضه» بفتح المهملة وسكون المعجمة.

قال أبوالسعادات: هكذا يروى في كتب الحديث. والذي في كتب الغريب «**ألا أنبئكم ما العِضَه**» بكسر العين وفتح الضاد.

قال الزمخشري: أصلها «العضهة» فعلة من العضه وهو البهت فحذفت لامه، كما حذفت من السَّنَة والشَّفة. وتجمع على «عضين».

ثم فسره بقوله: «هي النميمة القالة بين الناس» فأطلق عليها «العضه» لأنها لا تنفك عن الكذب والبهتان غالباً. ذكره القرطبي.

وذكر ابن عبدالبر عن يحيى بن أبي كثير قال: «يفسد النمام والكذاب في ساعة ما لا يفسد الساحر في سنة».

وقال أبوالخطاب في «عيون المسائل»: ومن السحر السعي بالنميمة والإفساد بين الناس.

قال في «الفروع»: «ووجهه أنه يقصد الأذى بكلامه وعمله على وجه المكر والحيلة، أشبه السحر، وهذا يعرف بالعرف والعادة أنه يؤثر، وينتج ما يعمله السحر أو أكثر فيعطى حكمه تسوية بين المتماثلين أو المتقاربين. لكن يقال: الساحر إنما يكفر لوصف السحر، وهو أمر خاص ودليله خاص، وهذا ليس بساحر. وإنما يؤثر عمله ما يؤثره فيعطى حكمه إلاّ فيما اختص به من الكفر وعدم قبول التوبة». انتهى ملخصاً.

وبه يظهر مطابقة الحديث للترجمة. وهو يدل على تحريم النميمة،

وهو مجمع عليه قال ابن حزم ـ رحمه الله : «اتفقوا على تحريم الغيبة والنميمة في غير النصيحة الواجبة. وفيه دليل على أنها من الكبائر».
قوله: «القالة بين الناس» قال أبوالسعادات: أي كثرة القول وإيقاع الخصومة بين الناس. ومنه الحديث: «**فشت القالة بين الناس**».

ولهما عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: «أن رسول الله ﷺ قال: «إن من البيان لسحراً».

قال: ولهما عن ابن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: أن رسول الله ﷺ قال: «**إن من البيان لسحراً**» البيان: البلاغة والفصاحة.

قال صعصعة بين صوحان: «صدق نبي الله، فإن الرجل يكون عليه الحق وهو ألحن بالحجج من صاحب الحق، فيسحر القوم ببيانه فيذهب بالحق».

وقال ابن عبدالبر: تأولته طائفة على الذم؛ لأن السحر مذموم، وذهب أكثر أهل العلم وجماعة أهل الأدب إلى أنه على المدح؛ لأن الله تعالى مدح البيان. قال: وقد قال عمر بن عبدالعزيز لرجل سأله عن حاجة فأحسن المسألة فأعجبه قوله. قال: «هذا والله السحر الحلال» انتهى.

والأول أصح. والمراد به البيان الذي فيه تمويه على السامع وتلبيس، كما قال بعضهم:

في زخرف القول تزيين لباطله ... والحق قد يعتريه سوء تعبير

مأخوذ من قول الشاعر:

تقول هذا مُجاج النحل، تمدحه ... وإن تشأ قلت ذا قيء الزنابير
مدحاً وذماً، وماجاوزتَ وصفهما ... والحق قد يعتريه سوء تعبير

قوله: «إن من البيان لسحراً» هذا من التشبيه البليغ، لكون ذلك يعمل عمل السحر، فيجعل الحق في قالب الباطل، والباطل في قالب الحق. فيستميل به قلوب الجهال، حتى يقبلوا الباطل وينكروا الحق، ونسأل الله الثبات والاستقامة على الهدى.

وأما البيان الذي يوضح الحق ويقرره، ويبطل الباطل ويبينه. فهذا هو الممدوح. وهكذا حال الرسل وأتباعهم، ولهذا علت مراتبهم في الفضائل، وعظمت حسناتهم.

وبالجملة: فالبيان لا يحمد إلاَّ إذا لم يخرج إلى حد الإسهاب والإطناب، وتغطية الحق وتحسين الباطل. فإذا خرج إلى هذا فهو مذموم. وعلى هذا تدل الأحاديث كحديث الباب، وحديث: **«إن الله يبغض البليغ من الرجال الذي يتخلل بلسانه كما تتخلل البقرة بلسانها»** رواه أحمد وأبوداود.

فيه مسائل:

الأولى: أن العيافة والطرق والطيرة من الجبت.

الثانية: تفسير العيافة والطرق.

الثالثة: أن علم النجوم نوع من السحر.

الرابعة: العقد مع النفث من ذلك.

الخامسة: أن النميمة من ذلك.

السادسة: أن من ذلك بعض الفصاحة.

باب ما جاء في الكهان ونحوهم

قوله: «باب ما جاء في الكهان ونحوهم».

الكاهن هو الذي يأخذ عن مسترق السمع، وكانوا قبل المبعث كثيراً. وأما بعد المبعث فإنهم قليل، لأن الله تعالى حرس السماء بالشُّهُب. وأكثر ما يقع في هذه الأمة ما يخبر به الجن أولياءهم من الإنس عن الأشياء الغائبة بما يقع في الأرض من الأخبار. فيظنه الجاهل كشفاً وكرامة، وقد اغتر بذلك كثير من الناس يظنون المخبر لهم بذلك عن الجن وليًا لله، وهو من أولياء الشيطان، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [الأنعام: ١٢٨].

روى مسلم في «صحيحه» عن بعض أزواج النبي ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «من أتىٰ عَرَّافاً فسأله عن شيء فصدَّقه بما يقول، لم تقبَل له صلاة أربعين يوماً».

قوله: «روى مسلم في «صحيحه» عن بعض أزواج النبي ﷺ، عن النبي ﷺ قال: «من أتى عرافاً فسأله عن شيء فصدقه بمايقول لم تقبل له صلاة أربعين يوماً».

قوله: «عن بعض أزواج النبي ﷺ» هي حفصة، ذكره أبومسعود الثقفي، لأنه ذكر هذا الحديث في الأطراف في مسندها.

قوله: «من أتىٰ عرافاً» سيأتي بيان العرَّاف إن شاء الله تعالى.

وظاهر هذا الحديث: أن الوعيد مرتب على مجيئه وسؤاله، سواء صدقه أو شك في خبره، فإن في بعض روايات الصحيح **«من أتى عرافاً فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة»**.

قوله: **«لم تقبل له صلاة»** إذا كانت هذه حال السائل، فكيف بالمسؤول؟

قال النووي وغيره: معناه أنه لا ثواب له فيها، وإن كانت مجزئة بسقوط الفرض عنه، ولابد من هذا التأويل في هذا الحديث، فإن العلماء متفقون على أنه لا يلزم من أتى العرَّاف إعادة صلاة أربعين ليلة. اهـ ملخصاً.

وفي الحديث: النهي عن إتيان الكاهن ونحوه.

قال القرطبي: يجب على من قدر على ذلك من محتسب وغيره أن يقيم من يتعاطى شيئاً من ذلك من الأسواق وينكر عليهم أشد النكير، وعلى من يجيء إليهم، ولا يغتر بصدقهم في بعض الأمور، ولا بكثرة من يجيء إليهم ممن ينتسب إلى العلم، فإنهم غير راسخين في العلم، بل من الجهال بما في إتيانهم من المحذور.

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: «من أتىٰ كاهناً فصدَّقه بما يقول، فقد كفر بما أُنزل على محمد ﷺ» رواه أبوداود.

قال: وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ﷺ قال: **«من أتى كاهناً فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أُنْزِلَ على محمد ﷺ»** رواه أبوداود.

وفي رواية أبي داود: **«أو أتى امرأة** ـ قال مسدد: امرأته ـ **حائضاً،**

أو أتى امرأة ـ قال مسدد: امرأته ـ في دبرها، فقد بريء مما أنزل على محمد ﷺ» فناقل هذا الحديث من السنن حذف منه هذه الجملة واقتصر على ما يناسب الترجمة.

وللأربعة والحاكم وقال: صحيح على شرطهما عن [أبي هريرة] من أتى عَرَّافاً أو كاهناً فصدَّقه بما يقول، فقد كفر بما أُنزل على محمد ﷺ».

قال: وللأربعة والحاكم ـ وقال: صحيح على شرطهما عن [أبي هريرة] «**من أتى عرَّافاً أو كاهناً فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أُنزل على محمد ﷺ**».

هكذا بيّض المصنف لاسم الراوي. وقد رواه أحمد والبيهقي والحاكم عن أبي هريرة مرفوعاً.

قوله: «**من أتىٰ كاهناً**» قال بعضهم: لا تعارض بين هذا وبين حديث «**من أتى عرافاً فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين ليلة**» هذا على قول من يقول: هو كفر دون كفر، أما على قول من يقول بظاهر الحديث فيسأل عن وجه الجمع بين الحديثين.

وظاهر الحديث: أنه يكفر متى اعتقد صدقه بأي وجه كان. وكان غالب الكهان قبل النبوة إنما كانوا يأخذون عن الشياطين.

قوله: «**فقد كفر بما أُنزل على محمد ﷺ**» قال القرطبي: المراد بالمنزل الكتاب والسنة. اهـ. وهل الكفر في هذا الموضع كفر دون كفر، فلا ينقل عن الملة، أم يتوقف فيه، فلا يقال: يخرج عن الملة ولا لا يخرج؟ وهذا أشهر الروايتين عن أحمد رحمه الله تعالى.

ولأبي يعلى بسند جيد عن ابن مسعود مثله موقوفاً.

قال: «ولأبي يعلى بسند جيد عن ابن مسعود مثله موقوفاً».

«أبويعلى» اسمه أحمد بن علي بن المثنى الموصلي الإمام صاحب التصانيف كالمسند وغيره. روى عن يحيى بن معين وأبي خيثمة وأبي بكر بن أبي شيبة وخلق. وكان من الأئمة الحفاظ. مات سنة سبع وثلاثمائة.

وهذا الأثر رواه البزار أيضا، ولفظه: «**من أتى كاهناً أو ساحراً فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ**» وفيه دليل على كفر الكاهن والساحر، لأنهما يدَّعيان علم الغيب، وذلك كفر، والمصدق لهما يعتقد ذلك ويرضى به، وذلك كفر أيضاً.

وعن عمران بن حصين رضي الله عنه مرفوعاً: «ليس منا من تطير أو تُطيِّر له، أو تكهَّن أو تُكُهِّن له، أو سَحر، أو سُحر له. ومَن أتىٰ كاهناً فصدَّقهُ بما يقول، فقد كفر بما أُنزِلَ على محمد ﷺ» رواه البزار بإسناد جيد.

ورواه الطبراني في «الأوسط» بإسناد حسن من حديث ابن عباس دون قوله: «ومن أتى... إلى آخره».

قوله: «وعن عمران بن حصين ـ رضي الله عنه ـ مرفوعاً: «ليس منا من تطير أو تُطيّر له، أو تكهن أو تُكُهن له، أو سَحر أو سُحر له، ومن أتى كاهناً فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ» رواه البزار بإسناد جيد، ورواه الطبراني في «الأوسط» بإسناد حسن من حديث ابن

عباس دون قوله: «ومن أتىٰ كاهناً. . . إلى آخره».

قوله: «**ليس منا**» فيه: وعيد شديد يدل على أن هذه الأمور من الكبائر، وتقدم أن الكهانة والسحر كفر.

قوله: «**من تطير**» أي فعل الطيرة، «**أو تُطير له**» أي قبل قول المتطير له وتابعه، وكذا معنى «**أو تكهن أو تُكهن له**» كالذي يأتي الكاهن ويصدقه ويتابعه، وكذلك من عمل الساحر له السحر.

فكل من تلقى هذه الأمور عمن تعاطاها فقد برىء منه رسول الله ﷺ لكونها إما شركاً، كالطيرة، أو كفراً كالكهانة والسحر، فمن رضي بذلك وتابع عليه فهو كالفاعل؛ لقبوله الباطل واتباعه.

قوله: «**رواه البزار**» هو أحمد بن عمرو بن عبدالخالق، أبوبكر البزار البصري صاحب «المسند الكبير». وروى عن ابن بشار وابن المثنى وخلق. مات سنة اثنتين وتسعين ومائتين.

قال البغوي: العرَّاف: الذي يدَّعي معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها على المسروق ومكان الضالة، ونحو ذلك.

وقيل: هو الكاهن. والكاهن: هو الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل. وقيل: الذي يخبر عما في الضمير.

وقال أبوالعباس ابن تيمية: العرَّاف: اسم للكاهن والمنجم والرمال ونحوهم ممن يتكلم في معرفة الأمور بهذه الطرق.

قوله: «قال البغوي. . . إلى آخره».

البغوي ـ بفتحتين ـ هو الحسين بن مسعود الفرَّاء الشافعي، صاحب التصانيف وعالم أهل خراسان، كان ثقة فقيهاً زاهداً. مات في شوال سنة ست عشرة وخمسمائة ـ رحمه الله تعالى ـ.

قوله: «العرَّاف: الذي يدَّعي معرفة الأمور» ظاهره: أن العراف هو الذي يخبر عن الوقائع كالسرقة وسارقها، والضالة ومكانها.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ: إن العرَّاف اسم للكاهن والمنجم والرمَّال ونحوهم، كالحازر الذي يدَّعي علم الغيب، أو يدَّعي الكشف.

وقال أيضاً: والمنجم يدخل في اسم العراف، وعند بعضهم هو معناه.

وقال أيضاً: والمنجم يدخل في اسم الكاهن عند الخطابي وغيره من العلماء، وحكي ذلك عن العرب.

وعند آخرين: هو من جنس الكاهن، وأسوى حالاً منه، فيلحق به من جهة المعنى.

وقال الإمام أحمد: العرافة: طَرَف من السحر. والساحر أخبث.

وقال أبوالسعادات: العرَّاف: المنجم، والحازر: الذي يدعي علم الغيب، وقد استأثر الله تعالى به.

وقال ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ: من اشتهر بإحسان الزجر عندهم سموه عائفاً، وعرافاً.

والمقصود من هذا: معرفة أن من يدَّعي معرفة علم شيء من المغيبات، فهو إما داخل في اسم الكاهن، وإما مشارك له في المعنى فيلحق به. وذلك أن إصابة المخبر ببعض الأمور الغائبة في بعض الأحيان يكون بالكشف. ومنه ما هو من الشياطين، ويكون بالفأل

والزجر والطيرة والضرب بالحصى والخط في الأرض والتنجيم والكهانة والسحر، ونحو هذا من علوم الجاهلية.

ونعني بالجاهلية كل من ليس من أتباع الرسل عليهم السلام، كالفلاسفة والكهان والمنجمين، وجاهلية العرب الذين كانوا قبل مبعث النبي ﷺ، فإن هذه علوم لقوم ليس لهم علم بما جاءت به الرسل صلوات الله عليهم.

وكل هذه الأمور يسمى صاحبها كاهناً وعرافاً أو في معناهما، فمن أتاهم فصدقهم بما يقولون لحقه الوعيد. وقد ورث هذه العلوم عنهم أقوام، فادعوا بها علم الغيب الذي استأثر الله بعلمه، وادعوا أنهم أولياء، وأن ذلك كرامة.

ولا ريب أن من ادعى الولاية، واستدل بإخباره ببعض المغيبات فهو من أولياء الشيطان، لا من أولياء الرحمن؛ إذ الكرامة أمر يجريه الله على يد عبده المؤمن التقي: إما بدعاءٍ، أو أعمال صالحة لا صنع للولي فيها، ولا قدرة له عليها، بخلاف من يدعي أنه ولي ويقول للناس: اعلموا أني أعلم المغيبات، فإن هذه الأمور قد تحصل بما ذكرنا من الأسباب، وإن كانت أسباباً محرمة كاذبة في الغالب.

ولهذا قال النبي ﷺ في وصف الكهان: «**فيكذبون معها مائة كذبة**» فبين أنهم يصدقون مرة ويكذبون مائة، وهكذا حال من سلك سبيل الكهان ممن يدعي الولاية والعلم بما في ضمائر الناس، مع أن نفس دعواه دليل على كذبه؛ لأن في دعواه الولاية تزكية النفس المنهي عنها بقوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ [النجم: ٣٢] وليس هذا من شأن الأولياء، فإن شأنهم الإزراء على نفوسهم وعيبهم لها، وخوفهم من ربهم، فكيف يأتون الناس ويقولون: اعرفوا أننا أولياء، وأنا نعلم

الغيب؟ وفي ضمن ذلك طلب المنزلة في قلوب الخلق واقتناص الدنيا بهذه الأمور.

وحسبك بحال الصحابة والتابعين ـ رضي الله عنهم ـ وهم سادات الأولياء، أفكان عندهم من هذه الدعاوي والشطحات شيء؟ لا والله، بل كان أحدهم لا يملك نفسه من البكاء إذا قرأ القرآن، كالصديق ـ رضي الله عنه ـ وكان عمر ـ رضي الله عنه ـ يسمع نشيجه من وراء الصفوف يبكي في صلاته، وكن يمرّ بالآية في ورده من الليل فيمرض منها ليالي يعودونه، وكان تميم الداري يتقلب على فراشه ولا يستطيع النوم إلاّ قليلاً خوفاً من النار ثم يقوم إلى صلاته.

ويكفيك في صفات الأولياء ما ذكره الله تعالى في صفاتهم في سورة الرعد والمؤمنين والفرقان والذاريات والطور فالمتصفون بتلك الصفات هم الأولياء، لا أهل الدعوى والكذب ومنازعة رب العالمين فيما اختص به من الكبرياء والعظمة وعلم الغيب، بل مجرد دعواه علم الغيب كفر.

فكيف يكون المدعي لذلك وليًا لله؟ ولقد عظم الضرر واشتد الخطب بهؤلاء المفترين الذين ورثوا هذه العلوم عن المشركين، ولبسوا بها على خفافيش القلوب. نسأل الله السلامة والعافية في الدنيا والآخرة.

وقال ابن عباس ـ في قوم يكتبون أباجاد وينظرون في النجوم ـ: ما أرى مَن فعل ذلك له عند الله من خلاق.

قوله: «وقال ابن عباس في قوم يكتبون أبا جاد...»إلى آخره. هذا الأثر رواه الطبراني عن ابن عباس مرفوعاً. وإسناده ضعيف. ولفظه: «رُبَّ

مُعَلِّم حروف أبي جاد دارسٍ في النجوم. ليس له عند الله خلاق يوم القيامة» ورواه حميد بن زَنْجويه عنه بلفظ: «رُبَّ ناظرٍ في النجوم ومتعلم حروف أبي جاد ليس له عند الله خلاق».

قوله: «ما أرى» يجوز فتح الهمزة بمعنى: لا أعلم. ويجوز ضمها بمعنى: لا أظن.

وكتابة: «أبي جاد» وتعلمها لمن يدعي بها علم الغيب هو الذي يسمى علم الحرف، وهو الذي جاء فيه الوعيد، فأما تعلمها للتهجي وحساب الجمل فلا بأس به.

قوله: «وينظرون في النجوم» أي ويعتقدون أن لها تأثيراً كما سيأتي في باب التنجيم.

وفيه من الفوائد: عدم الاغترار بما يؤتاه أهل الباطل من معارفهم وعلومهم كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [غافر: ٨٣].

فيه مسائل:

الأولى: لا يجتمع تصديق الكاهن مع الإيمان بالقرآن.

الثانية: التصريح بأنه كفر.

الثالثة: ذكر من تُكهِّن له.

الرابعة: ذكر من تُطيِّر له.

الخامسة: ذكر من سُحر له.

السادسة: ذكر من تعلم أبا جاد.

السابعة: ذكر الفرق بين الكاهن والعرَّاف.

باب ما جاء في النُّشْرة

قوله: «باب ما جاء في النُّشرة»[١].

بضم النون، كما في القاموس، قال أبوالسعادات: النشرة: ضرب من العلاج والرقية، يعالج به من يظن أن به مسًّا من الجن، سميت نشرة لأنه ينشر بها عنه ما خامره من الداء، أي: يكشف ويزال.

قال الحسن: النشرة من السحر. وقد نشرت عنه تنشيراً، ومنه الحديث: «**فلعل طباً أصابه، ثم نشره بـ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾ أي: رقاه**».

وقال ابن الجوزي: النشرة: حل السحر عن المسحور. ولا يكاد يقدر عليه إلاَّ من يعرف السحر.

عن جابر «أن رسول الله ﷺ سئل عن النشرة؟ فقال: هي من عمل الشيطان» رواه أحمد بسند جيد، وأبوداود، وقال: سئل أحمد عنها؟ فقال: ابن مسعود يكره هذا كله.

قوله: عن جابر ـ رضي الله عنهما ـ: أن رسول الله ﷺ سئل عن النشرة؟ فقال: «**هي من الشيطان**» رواه أحمد بسند جيد، وأبوداود، وقال: سئل أحمد عنها؟ فقال: ابن مسعود يكره هذا كله.

هذا الحديث رواه أحمد، ورواه عنه أبوداود في «سننه»، والفضل بن زياد في «كتاب المسائل» عن عبدالرزاق عن عقيل بن معقل بن منبه عن

---

(١) لما ذكر المصنف ـ رحمه الله ـ حكم السحرة والكهان ذكر ما جاء في النشرة لأنها قد تكون من قبل الشياطين والسحرة فتكون مضادة للتوحيد.

جابر، فذكره. قال ابن مفلح: إسناد جيد وحسن الحافظ إسناده.

قوله: «**سئل عن النشرة**» والألف واللام في «النشرة» للعهد أي النشرة المعهودة التي كان أهل الجاهلية يصنعونها هي من عمل الشيطان.

قوله: «**وقال: سئل أحمد عنها؟ فقال: ابن مسعود يكره هذا كله**» أراد أحمد ـ رحمه الله ـ أن ابن مسعود يكره النشرة التي هي من عمل الشيطان كما يكره تعليق التمائم مطلقاً.

وفي البخاري عن قتادة «قلت لابن المسيب: رجل به طب أو يؤخذ عن امرأته، أيُحَلّ عنه أو يُنْشر؟ قال: لا بأس به، إنما يريدون به الإصلاح، فأما ما ينفع فلم ينه عنه» اهـ.

قوله: «وللبخاري عن قتادة «قلت لابن المسيب: رجل به طبٌّ أو يُؤَخذُ عن امرأته أيُحَلُّ عنه، أو يُنَشر؟ قال: لا بأس به، إنما يريدون به الإصلاح، فأما ما ينفع فلم يُنه عنه».

قوله: «**عن قتادة**» هو ابن دعامة ـ بكسر الدال ـ السدوسي، ثقة، فقيه، من أحفظ التابعين. قالوا: إنه ولد أكمه. مات سنة بضع عشرة ومائة.

قوله: «**رجل به طب**» بكسر الطاء. أي: سحر، يقال: طُبَّ الرجل ـ بالضم ـ إذا سحر. ويقال: كنوا عن السحر بالطب تفاؤلاً. كما يقال للديغ: سليم.

وقال ابن الأنباري: الطب من الأضداد. يقال لعلاج الداء: طب، والسحر من الداء يقال له: طب.

قوله: «**يؤخَّذ**» بفتح الواو مهموزة وتَشديد الخاء المعجمة وبعدها ذال معجمة، أي يحبس عن امرأته ولا يصل إلى جماعها. والأخذة ـ بضم

الهمزة ـ الكلام الذي يقوله الساحر.

قوله: «**أيُحَل**» بضم الياء وفتح الحاء مبني للمفعول.

قوله: «**أو ينشر**» بتشديد المعجمة.

قوله: «**لا بأس به**» يعني: أن النشرة لا بأس بها؛ لأنهم يريدون بها الإصلاح، أي إزالة السحر، ولم ينه عما يراد به الإصلاح، وهذا من ابن المسيب يحمل على نوع من النشرة لا يعلم أنه سحر.

وروي عن الحسن أنه قال: «لا يَحِلُّ السحر إلاَّ ساحر»

قوله: «**وروي عن الحسن أنه قال: لا يَحِلُّ السحر إلاَّ ساحر**» هذا الأثر ذكره ابن الجوزي في «جامع المسانيد».

والحسن: هو ابن أبي الحسن، واسمه: يسار ـ بالتحتية والمهملة ـ البصري الأنصاري مولاهم. ثقة فقيه، إمام من خيار التابعين. مات سنة عشر ومائة ـ رحمه الله ـ وقد قارب التسعين.

قال ابن القيم: النشرة حل السحر عن المسحور، وهي نوعان:

أحدهما: حل بسحر مثله، وهو الذي من عمل الشيطان. وعليه يحمل قول الحسن، فيتقرب الناشر والمنتشر إلى الشيطان بما يحب، فيبطل عمله عن المسحور.

والثاني: النشرة بالرقية والتعوذات والأدوية والدعوات المباحة. فهذا جائز.

قوله: «**قال ابن القيم: النشرة: حل السحر عن المسحور، وهي نوعان،**

حل بسحر مثله، وهو الذي من عمل الشيطان... إلى آخره».

ومما جاء في صفة النشرة الجائزة: ما رواه ابن أبي حاتم وأبوالشيخ عن ليث بن أبي سليم قال: «بلغني أن هؤلاء الآيات شفاء من السحر بإذن الله، تقرأ في إناء فيه ماء، ثم يصب على رأس المسحور: الآية التي في سورة يونس: ﴿فَلَمَّآ أَلْقَوْاْ قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [يونس: ٨١ ـ ٨٢] وقوله: ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾﴾ [الأعراف: ١١٨] إلى آخر الآيات الأربع وقوله: ﴿إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾﴾ [طه: ٦٩].

وقال ابن بطال: في كتاب وهب بن منبه: أنه يأخذ سبع ورقات من سدر أخضر فيدقه بين حجرين ثم يضربه بالماء ويقرأ فيه آية الكرسي والقواقل، ثم يحسو منه ثلاث حسوات ثم يغتسل به، يذهب عنه كل ما به، وهو جيد للرجل إذا حبس عن أهله.

قلت: قول العلامة ابن القيم: «والثاني: النشرة بالرقية والتعوذات والدعوات والأدوية المباحة. فهذا جائز» يشير رحمه الله إلى مثل هذا، وعليه يحمل كلام من أجاز النشرة من العلماء.

والحاصل: أن ما كان منه بالسحر فيحرم، وما كان بالقرآن والدعوات والأدوية المباحة، فجائز، والله أعلم.

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن النشرة.

الثانية: الفرق بين المنهي عنه والمرخص فيه عما يزيل الإشكال.

باب ما جاء في التطير

قوله: «باب ما جاء في التطير» .

أي: من النهي عنه والوعيد فيه، مصدر تطير يتطير، و«الطِّيَرَة» بكسر الطاء وفتح الياء، وقد تسكن: اسم مصدر من تطير طيرة، كما يقال: تخير خيرة، ولم يجىء في المصادر على هذه الزنة غيرهما، وأصله: التطير بالسوانح والبوارح من الطير والظباء وغيرهما، وكان ذلك يصدهم عن مقاصدهم، فنفاه الشارع وأبطله، وأخبر أنه لا تأثير له في جلب نفع ولا دفع ضر.

قال المدائني: «سألت رُؤْبَةَ بن العجاج. قلت: ما السانح؟ قال: ما ولأك ميامنه. قلت: فما البارح؟ قال: ما ولاك مياسره. والذي يجيء من أمامك فهو الناطح والنطيح، والذي يجيء من خلفك فهو القاعد والقعيد».

ولما كانت الطيرة من الشرك المنافي لكمال التوحيد الواجب، لكونها من إلقاء الشيطان وتخويفه ووسوسته ذكرها المصنف رحمه الله في «كتاب التوحيد». تحذيراً مما ينافي كمال التوحيد الواجب.

وقول الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ١٣١﴾ [الأعراف: ١٣١].

قوله: وقول الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ الآية ذكر تعالى هذه الآية في سياق قوله: ﴿فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ الآية [الأعراف: ١٣١] المعنى: أن آل فرعون كانوا

إذا أصابتهم الحسنة ـ أي الخصب والسعة والعافية، كما فسره مجاهد وغيره ـ قالوا: لنا هذه، أي نحن الجديرون والحقيقون به، ونحن أهله. وإن تصبهم سيئة ـ أي بلاء وقحط ـ تطيروا بموسى ومن معه، فيقولون: هذا بسبب موسى وأصحابه أصابنا بشؤمهم. فقال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾ قال ابن عباس: «طائرهم: ما قضىٰ عليهم وقدر لهم» وفي رواية «شؤمهم عند الله ومن قِبَله» أي إنما جاءهم الشؤم من قبله بكفرهم وتكذيبهم بآياته ورسله.

قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾أي أن أكثرهم جهال لا يدرون. ولو فهموا وعقلوا لعلموا أنه ليس فيما جاء به موسى عليه السلام إلا الخير والبركة والسعادة والفلاح لمن آمن به واتبعه.

وقوله: ﴿قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ١٩﴾ [يس: ١٩].

قوله: وقوله تعالى: ﴿قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ﴾ الآية» المعنى ـ والله أعلم ـ حظكم وما نابكم من شر معكم، بسبب أفعالكم وكفركم ومخالفتكم الناصحين، ليس هو من أجلنا ولا بسببنا، بل ببغيكم وعدوانكم. فطائر الباغي الظالم معه، فما وقع به من الشر فهو سببه الجالب له. وذلك بقضاء الله وقدره وحكمته وعدله، كما قال تعالى: ﴿أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ ٣٥ مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ٣٦﴾ [القلم: ٣٥ ـ ٣٦] ويحتمل أن يكون المعنى: طائركم معكم. أي راجع عليكم، فالتطير الذي حصل لكم إنما يعود عليكم. وهذا من باب القصاص في الكلام. ونظيره قوله عليه الصلاة والسلام: «**إذا سلم عليكم أهل الكتاب فقولوا: وعليكم**» ذكره ابن القيم رحمه الله.

قوله تعالى: ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾ أي من أجل أنا ذكرناكم وأمرناكم بتوحيد الله قابلتمونا بهذا الكلام ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ قال قتادة: أئن ذكرناكم بالله تطيرتم بنا؟

ومناسبة الآيتين للترجمة: أن التطير من عمل أهل الجاهلية والمشركين. وقد ذمهم الله تعالى به ومقتهم، وقد نهى رسول الله ﷺ عن التطير وأخبر أنه شرك. كما سيأتي في أحاديث الباب.

عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «لا عَدوَىٰ ولا طِيرَة ولا هامَة ولا صفر» أخرجاه.

زاد مسلم: «ولا نَوْءَ ولا غُول».

قال: **وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «لا عَدوَىٰ ولا طِيرَة ولا هامَة ولا صفر» أخرجاه. زاد مسلم: «ولا نَوْءَ ولا غُول».**

قال أبوالسعادات: «العدوى» اسم من الإعداء. كالدعوى. يقال: أعداه الداء يعديه إعداءً: إذا أصابه مثل ما يصاحب الداء.

وقال غيره: «لا عدوى» هو اسم من الإعداء، وهو مجاوزة العلة من صاحبها إلى غيره والمنفي نفس سراية العلة أو إضافتها إلى العلة. والأول هو الظاهر.

وفي رواية لمسلم: أن أباهريرة كان يحدث بحديث **«لا عدوى»**، ويحدث عن النبي ﷺ أنه قال: **«لا يورد ممرض على مصح»** ثم إن أباهريرة اقتصر على حديث **«لا يورد ممرض على مصح»** وأمسك عن حديث **«لا عدوى»** فراجعوه، وقالوا: سمعناك تحدث به، فأبى أن

يعترف به. قال أبومسلمة ـ الراوي عن أبي هريرة: فلا أدري أنسي أبوهريرة أو نسخ أحد القولين الآخر؟

وقد روى حديث **«لا عدوى»** جماعة من الصحابة: أنس بن مالك، وجابر بن عبدالله، والسائب بن يزيد، وابن عمر، وغيرهم، وفي بعض روايات هذا الحديث **«وفِرّ من المجذوم كما تفر من الأسد»**.

وقد اختلف العلماء في ذلك. وأحسن ما قيل فيه قول البيهقي، وتبعه ابن الصلاح، وابن القيم، وابن رجب، وابن مفلح وغيرهم. أن قوله: **«لا عدوى»** على الوجه الذي يعتقده أهل الجاهلية من إضافة الفعل إلى غير الله تعالى، وأن هذه الأمور تعدي بطبعها. وإلا فقد يجعل الله بمشيئته مخالطة الصحيح من به شيء من الأمراض سبباً لحدوث ذلك، ولهذا قال: **«فِرّ من المجذوم كما تفر من الأسد»** وقال: **«لا يورد ممرض على مصح»** وقال في الطاعون: **«من سمع به في أرض فلا يقدم عليه»** وكل ذلك بتقدير الله تعالى.

ولأحمد والترمذي عن ابن مسعود مرفوعاً: **«لا يعدي شيء»** ـ قالها ثلاثاً ـ فقال أعرابي: يارسول الله إنَّ النقْبَة من الجرَب تكون بمِشْفَر البعير أو بذنبه في الإبل العظيمة فتجرب كلها؟ فقال رسول الله ﷺ: **«فمن أجرب الأول؟ لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر، خلق الله كل نفس وكتب حياتها ومصائبها ورزقها»**.

فأخبر ﷺ أن ذلك كله بقضاء الله وقدره، والعبد مأمور باتقاء أسباب الشر إذا كان في عافية. فكما أنه يؤمر أن لا يلقي نفسه في الماء وفي النار، مما جرت العادة أنه يهلك أو يضر. فكذلك اجتناب مقاربة المريض كالمجذوم، والقدوم على بلد الطاعون، فإن هذه كلها أسباب للمرض والتلف، فالله سبحانه هو خالق الأسباب ومسبباتها. لا خالق

غيره، ولا مقدر غيره.

وأما إذا قوي التوكل على الله والإيمان بقضاء الله وقدره فقويت النفس على مباشرة بعض هذه الأسباب. اعتماداً على الله، ورجاءً منه أن لا يحصل به ضرر، ففي هذه الحال تجوز مباشرة ذلك، لاسيما إذا كانت مصلحة عامة أو خاصة.

وعلى هذا يحمل الحديث الذي رواه أبوداود والترمذي: أن النبي ﷺ أخذ بيد مجذوم فأدخلها معه في القصعة، ثم قال: «**كل بسم الله، ثقة بالله وتوكلاً عليه**» وقد أخذ به الإمام أحمد. وروي ذلك عن عمر وابنه وسلمان رضي الله عنهم.

ونظير ذلك ما روي عن خالد بن الوليد رضي الله عنه أنه أكل السم، ومنه مشي سعد بن أبي وقاص وأبي مسلم الخولاني على متن البحر، قاله ابن رجب رحمه الله.

قوله: «ولا طيرة»[(١)] قال ابن القيم رحمه الله تعالى: يحتمل أن يكون نفياً أو نهياً: أي لا تطيروا، ولكن قوله في الحديث «**لا عدوى ولا صفر ولا هامة**» يدل على أن المراد النفي وإبطال هذه الأمور التي كانت الجاهلية تعانيها، والنفي في هذا أبلغ من النهي، لأن النفي يدل على بطلان ذلك وعدم تأثيره، والنهي إنما يدل على المنع منه.

وفي «صحيح مسلم» عن معاوية بن الحكم: أنه قال لرسول الله ﷺ: «**ومنا أُناس يتطيرون، قال: ذلك شيء يجده أحدكم في نفسه فلا يصدنكم**» فأخبر أن تأذيه وتشاؤمه بالطيرة إنما هو في نفسه وعقيدته، لا

---

(١) والفرق بين الفأل والطيرة؛ أن الطيرة تمضيه وترده، بخلاف الفأل فإنه فيه نوع بشارة.

في المتطير به، فوهمه وخوفه وإشراكه هو الذي يطيره ويصده لما رآه وسمعه، فأوضح ﷺ لأمته الأمر، وبين لهم فساد الطيرة ليعلموا أن الله سبحانه لم يجعل لهم عليها علامة، ولا فيها دلالة، ولا نصبها سبباً لما يخافونه ويحذرونه، ولتطمئن قلوبهم، وتسكن نفوسهم إلى وحدانيته تعالى التي أرسل بها رسله، وأنزل بها كتبه، وخلق لأجلها السموات والأرض، وعمر الدارين الجنة والنار بسبب التوحيد، فقطع ﷺ علق الشرك من قلوبهم؛ لئلا يبقى فيها علقة منها، ولا يتلبسوا بعمل من أعمال أهل النار البتة.

فمن استمسك بعروة التوحيد الوثقى، واعتصم بحبله المتين، وتوكل على الله، قطع هاجس الطيرة من قبل استقرارها، وبادر خواطرها من قبل استمكانها.

قال عكرمة: كنا جلوساً عند ابن عباس، فمر طائر يصيح، فقال رجل من القوم: خير خير. فقال له ابن عباس: لا خير ولا شر. فبادره بالإنكار عليه، لئلا يعتقد تأثيره في الخير والشر.

وخرج طاوس مع صاحب له في سفر، فصاح غراب، فقال الرجل: خير. فقال طاوس: وأي خير عند هذا؟ لا تصحبني. اهـ ملخصاً.

وقد جاءت أحاديث ظن بعض الناس أنها تدل على جواز الطيرة، كقوله ﷺ: «**الشؤم في ثلاث: في المرأة، والدابة، والدار**» ونحو هذا.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: إخباره ﷺ بالشؤم في هذه الثلاثة ليس فيه إثبات الطيرة التي نفاها الله سبحانه، وإنما غايته أن الله سبحانه قد يخلق منها أعياناً مشؤومة على من قاربها وساكنها، وأعياناً مباركة لا يلحق من قاربها منها شؤم ولا شر، وهذا كما يعطي سبحانه الوالدين ولداً مباركاً يريان الخير على وجهه، ويعطي غيرهما ولداً مشؤوماً يريان

الشر على وجهه، وكذلك ما يعطاه العبد من ولاية وغيرها، فكذلك الدار والمرأة والفرس.

والله سبحانه خالق الخير والشر والسعود والنحوس، فيخلق بعض هذه الأعيان سعوداً مباركاً، ويقضي بسعادة من قاربها وحصول اليُمْن والبركة له، ويخلق بعضها نحوساً يتنحس بها من قاربها، وكل ذلك بقضائه وقدره، كما خلق سائر الأسباب وربطها بمسبباتها المتضادة والمختلفة. كما خلق المسك وغيره من الأرواح الطيبة ولذذ بها من قاربها من الناس. وخلق ضدها وجعلها سبباً لألم من قاربها من الناس، والفرق بين هذين النوعين مدرك بالحس، فكذلك في الديار والنساء والخيل. فهذا لون، والطيرة الشركية لون. انتهى.

قوله: «**ولا هامة**» بتخفيف الميم على الصحيح. قال الفراء: الهامة: طير من طير الليل. كأنه يعني البومة.

قال ابن الأعرابي: كانوا يتشاءمون بها إذا وقعت على بيت أحدهم يقول: نَعَتْ إليَّ نفسي أو أحداً من أهل داري، فجاء الحديث بنفي ذلك وإبطاله.

قوله: «**ولا صفر**» بفتح الفاء، روى أبوعبيدة في «غريب الحديث» عن رؤبة أنه قال: هي حيّة تكون في البطن تصيب الماشية والناس، وهي أعدى من الجرب عند العرب.

وعلى هذا: فالمراد بنفيه ما كانوا يعتقدونه من العدوى، وممن قال بهذا سفيان بن عيينة والإمام أحمد والبخاري وابن جرير.

وقال آخرون: المراد به شهر صفر، والنفي لما كان أهل الجاهلية يفعلونه في النسيء. وكانوا يحلون المحرم ويحرمون صفر مكانه، وهو قول مالك.

وروى أبوداود عن محمد بن راشد عمن سمعت يقول: إن أهل الجاهلية يتشاءمون بصفر ويقولون: إنه شهر مشؤوم، فأبطل النبي ﷺ ذلك.

قال ابن رجب: ولعل هذا القول أشبه الأقوال، والتشاؤم بصفر هو جنس الطيرة المنهي عنها، وكذلك التشاؤم بيوم من الأيام كيوم الأربعاء، وتشاؤم أهل الجاهلية بشوال في النكاح فيه خاصة.

قوله: «ولا نوء» النوء واحد الأنواء، وسيأتي الكلام عليه في بابه إن شاء الله تعالى.

قوله: «ولا غول» هو بالضم اسم، وجمعه أغوال وغيلان. وهو المراد هنا.

قال أبوالسعادات: الغول واحد الغيلان، وهو جنس من الجن والشياطين كانت العرب تزعم أن الغول في الفلاة تتراءى للناس، تتلون تلوناً في صور شتى وتغولهم: أي تضلهم عن الطريق وتهلكهم، فنفاه النبي ﷺ وأبطله.

فإن قيل: ما معنى النفي وقد قال النبي ﷺ: **«إذا تغولت الغيلان فبادروا بالأذان»**؟

أجيب عنه: بأن ذلك كان في الابتداء، ثم دفعها الله عن عباده. أو يقال: المنفي ليس وجود الغول، بل ما يزعمه العرب من تصرفه في نفسه، أو يكون المعنى بقوله: **«لا غول»** أنها لا تستطيع أن تضل أحداً مع ذكر الله والتوكل عليه. ويشهد له الحديث الآخر **«لا غول ولكن السعالي سحرة الجن»** أي ولكن في الجن سحرة لهم تلبيس وتخييل.

ومنه الحديث **«إذا تغولت الغيلان فبادروا بالأذان»** أي ادفعوا شرها بذكر الله، وهذا يدل على أنه لم يرد بنفيها وعدمها.

ومنه حديث أبي أيوب: «كان لي تمر في سهوة فكانت الغول تجيء فتأخذ».

ولهما عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا عدوى ولا طيرة ويعجبني الفأل، قالوا: ومالفأل؟ قال: الكلمة الطيبة».

قوله: ولهما عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا عدوى ولا طيرة ويعجبني الفأل، قالوا: وما الفأل؟ قال: الكلمة الطيبة».

قوله: «ويعجبني الفأل» قال أبوالسعادات: الفأل، مهموز فيما يسر ويسوء، والطيرة لا تكون إلا فيما يسوء، وربما استعملت فيما يسر. يقال: تفاءلت بكذا وتفاولت، على التحقيق والقلب، وقد أولع الناس بترك الهمز تخفيفاً، وإنما أحب الفأل لأن الناس إذا أمّلوا فائدة الله، ورجوا عائدته عند كل سبب ضعيف أو قوي فهم على خير، وإذا قطعوا آمالهم ورجاءهم من الله تعالى كان ذلك من الشر.

وأما الطيرة فإن فيها سوء الظن بالله وتوقع البلاء، والتفاؤل: أن يكون رجل مريض فيسمع آخر يقول: ياسالم، أويكون طالب ضالة فيسمع آخر يقول: ياواجد، فيقع في ظنه أنه يبرأ من مرضه ويجد ضالته. ومنه الحديث «قيل: يارسول الله، مالفأل؟ قال: **الكلمة الطيبة**».

قوله: «قالوا: وما الفأل؟ قال: الكلمة الطيبة» بين ﷺ أن الفأل يعجبه، فدل على أنه ليس من الطيرة المنهي عنها.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: ليس في الإعجاب بالفأل ومحبته شيء من الشرك، بل ذلك إبانة عن مقتضى الطبيعة، وموجب الفطرة الإنسانية التي تميل إلى ما يوافقها ويلائمها. كما أخبرهم ﷺ أنه حبب إليه من الدنيا النساء والطيب، وكان يحب الحلواء والعسل، ويحب

حسن الصوت بالقرآن والأذان ويستمع إليه، ويحب معالي الأخلاق ومكارم الشيم.

وبالجملة، يحب كل كمال وخير وما يفضي إليهما: والله سبحانه قد جعل في غرائز الناس الإعجاب لسماع الإسم الحسن ومحبته وميل نفوسهم إليه، وكذلك جعل فيها الارتياح والاستبشار والسرور باسم الفلاح والسلام والنجاح والتهنئة والبشرى والفوز والظفر ونحو ذلك، فإذا قرعت هذه الأسماء الأسماع استبشرت بها النفوس، وانشرح لها الصدر، وقوي بها القلب، وإذا سمعت أضدادها أوجب لها ضد هذه الحال، فأحزنها ذلك، وأثار لها خوفاً وطيرة وانكماشاً وانقباضاً عما قصدت له وعزمت عليه، فأورث لها ضرراً في الدنيا ونقصاً في الإيمان ومقارفة الشرك.

وقال الحليمي: وإنما كان ﷺ يعجبه الفأل؛ لأن التشاؤم سوء ظن بالله تعالى بغير سبب محقق، والتفاؤل حسن ظن به، والمؤمن مأمور بحسن الظن بالله تعالى على كل حال.

ولأبي داود بسند صحيح عن عُقبة بن عامر قال: «ذُكرتْ الطِّيرةُ عند رسول الله ﷺ فقال: أحسنها الفألُ، ولا تَرُدُّ مسلماً، فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقل: اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك».

قوله: «ولأبي داود بسند صحيح عن عُقبة بن عامر قال: «ذُكرتْ الطِّيرةُ عند رسول الله ﷺ فقال: أحسنها الفألُ، ولا تَرُدُّ مسلماً، فإذا رأى

أحدكم ما يكره فليقل: **اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك»**.

قوله: «**عن عقبة بن عامر**» هكذا وقع في نسخ التوحيد، وصوابه: عن عروة بن عامر، كذا أخرجه أحمد وأبوداود وغيرهما. وهو مكي اختلف في نسبه، فقال أحمد: عن عروة بن عامر القرشي، وقال غيره: الجهني، واختلف في صحبته، فقال الماوردي: له صحبة. وذكره ابن حبان في ثقات التابعين. وقال المزي: لا صحبة له تصح.

قوله: «**فقال أحسنها الفأل**» قد تقدم أن النبي ﷺ كان يعجبه الفأل.

وروى الترمذي وصححه عن أنس رضي الله عنه «أن النبي ﷺ كان إذا خرج لحاجته يحب أن يسمع: يانجيح، ياراشد».

وروى أبوداود عن بريدة «أن النبي ﷺ كان لا يتطير من شيء، وكان إذا بعث عاملاً سأله عن اسمه، فإذا أعجبه فرح به، وإن كره اسمه رئي كراهية ذلك في وجهه» وإسناده حسن. وهذا فيه استعمال الفأل.

قال ابن القيم: أخبر ﷺ أن الفأل من الطيرة وهو خيرها، فأبطل الطيرة وأخبر أن الفأل منها ولكنه خير منها، ففصل بين الفأل والطيرة؛ لما بينهما من الامتياز والتضاد، ونفع أحدهما، ومضرة الآخر، ونظير هذا: منعه من الرقى بالشرك، وإذنه في الرقية إذا لم يكن فيها شرك، لما فيها من المنفعة الخالية من المفسدة.

قوله: «**ولا ترد مسلماً**» قال الطيبي: تعريض بأن الكافر بخلافه.

قوله: «**اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت ولا يدفع السيئات إلا أنت**» أي لا تأتي الطيرة بالحسنات ولا تدفع المكروهات، بل أنت وحدك لا شريك لك الذي تأتي بالحسنات، وتدفع السيئات. و«الحسنات» هنا النعم، و«السيئات» المصائب، كقوله: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ

عِندِ ٱللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٨-٧٩] ففيه نفي تعليق القلب بغير الله في جلب نفع أو دفع ضر، وهذا هو التوحيد، وهو دعاء مناسب لمن وقع في قلبه شيء من الطيرة، وتصريح بأنها لا تجلب نفعاً ولا تدفع ضراً، ويعد من اعتقدها سفيهاً مشركاً.

قوله: «**ولا حول ولا قوة إلا بك**» استعانة بالله تعالى على فعل التوكل، وعدم الالتفات إلى الطيرة التي قد تكون سبباً لوقوع المكروه عقوبة لفاعلها. وذلك الدعاء إنما يصدر عن حقيقة التوكل الذي هو أقوى الأسباب في جلب الخيرات ودفع المكروهات.

و«الحول» التحول والانتقال من حال إلى حال، و«القوة» على ذلك بالله وحده لا شريك له. ففيه: التبري من الحول والقوة والمشيئة بدون حول الله وقوته ومشيئته وهذا هو التوحيد في الربوبية، وهو الدليل على توحيد الإلهية الذي هو إفراد الله تعالى بجميع أنواع العبادة، وهو توحيد القصد والإرادة، وقد تقدم بيان ذلك بحمد الله.

وعن ابن مسعود مرفوعاً: «الطِّيَرَة شِرْك، الطيرة شرك. وما منا إلا، ولكن الله يُذْهِبُه بالتوكل» رواه أبوداود والترمذي وصححه، وجعل آخره من قول ابن مسعود.

قوله: عن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعاً: «**الطِّيَرَة شِرْك، الطيرة شرك. وما منا إلا، ولكن الله يُذْهِبُه بالتوكل**» **رواه أبوداود والترمذي وصححه، وجعل آخره من قول ابن مسعود.**

وورواه ابن ماجه وابن حبان. ولفظ أبي داود «**الطيرة شرك، الطيرة شرك، الطيرة شرك**. ثلاثاً» وهذا صريح في تحريم الطيرة، وأنها من الشرك؛ لما فيها من تعلق القلب على غير الله تعالى.

قال ابن حمدان: تكره الطيرة، وكذا قال غيره من أصحاب أحمد. قال ابن مفلح: والأولى القطع بتحريمها لأنها شرك، وكيف يكون الشرك مكروهاً الكراهية الاصطلاحية؟

قال في «شرح السنن»: وإنما جعل الطيرة من الشرك لأنهم كانوا يعتقدون أن الطيرة تجلب لهم نفعاً أو تدفع عنهم ضراً إذا عملوا بموجبها، فكأنهم أشركوا مع الله تعالى.

قوله: «وما منا إلا» قال أبوالقاسم الأصبهاني، والمنذري: في الحديث إضمار، التقدير: وما منا إلا وقد وقع في قلبه شيء من ذلك. اهـ.

وقال الخلخالي: حذف المستثنى لما يتضمنه من الحالة المكروهة. وهذا من أدب الكلام.

قوله: «ولكن الله يذهبه بالتوكل» أي لكن لما توكلنا على الله في جلب النفع ودفع الضر، أذهبه الله عنا بتوكلنا عليه وحده.

قوله: ««وجعل آخره من قول ابن مسعود» قال ابن القيم: وهو من الصواب: فإن الطيرة نوع من الشرك.

ولأحمد من حديث ابن عمرو: «مَنْ رَدَّته الطِّيَرَةُ عن حاجته فقد أشرك. قالوا: فما كفارة ذلك؟ قال: أن تقول: اللهم لا خيرَ إلا خيرُك، ولا طَيْرَ إلا طيرُك، ولا إله غيرك».

قال: ولأحمد من حديث ابن عمرو: «مَنْ رَدَّته الطِّيَرَةُ عن حاجته فقد

أشرك. قالوا: فما كفارة ذلك؟ قال: أن تقول: اللهم لا خيرَ إلا خيرُك، ولا طَيْرَ إلا طيرُك، ولا إله غيرك».

هذا الحديث رواه أحمد والطبراني عن عبدالله بن عمرو بن العاص، وفي إسناده ابن لهيعة وبقية رجاله ثقات.

قوله: «من حديث ابن عمرو» هو عبدالله بن عمرو بن العاص بن وائل السهمي أبومحمد: وقيل: أبوعبدالرحمن، أحد السابقين المكثرين من الصحابة، وأحد العبادلة الفقهاء. مات في ذي الحجة ليالي الحرة ـ على الأصح ـ بالطائف.

قوله: «من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك» وذلك أن الطيرة هي التشاؤم بالشيء المرئي أو المسموع، فإذا رده شيء من ذلك عن حاجته التي عزم عليها، كإرادة السفر ونحوه، فمنعه عما أراده وسعى فيه ما رأى وما سمع تشاؤماً، فقد دخل في الشرك. كما تقدم، فلم يخلص توكله على الله بالتفاته إلى ما سواه، فيكون للشيطان منه نصيب.

قوله: «فما كفارة ذلك؟» إلى آخره، فإذا قال ذلك وأعرض عما وقع في قلبه ولم يلتفت إليه، كفَّر الله عنه ما وقع في قلبه ابتداءً، لزواله عن قلبه بهذا الدعاء المتضمن للاعتماد على الله وحده، والإعراض عما سواه.

وتضمن الحديث: أن الطيرة لا تضر من كرهها ومضى في طريقه، وأما من لم يخلص توكله على الله واسترسل مع الشيطان في ذلك، فقد يعاقب بالوقوع فيما يكره؛ لأنه أعرض عن واجب الإيمان بالله، وأن الخير كله بيده، فهو الذي يجلبه لعبده بمشيئته وإرادته، وهو الذي يدفع عنه الضر وحده بقدرته ولطفه وإحسانه، فلا خير إلا منه، وهو الذي يدفع الشر عن عبده، فما أصابه من ذلك فبذنبه، كما قال تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩].

وله من حديث الفضل بن عباس رضي الله عنه «إنما الطِّيرة ما أمضاك أو رَدَّك».

قوله: وله من حديث الفضل بن عباس «إنما الطِّيرة ما أمضاك أو رَدَّك».

هذا الحديث عند الإمام أحمد من حديث الفضل بن عباس قال: «خرجت مع رسول الله ﷺ يوماً، فبرّح ظبي، فمال في شقه فاحتضنته، فقلت: يارسول الله، تطيرت فقال: **إنما الطيرة ما أمضاك أو ردك**» وفي إسناده انقطاع، أي بين مسلمة راويه وبين الفضل وهو الفضل بن العباس بن عبدالمطلب ابن عم النبي ﷺ. قال ابن معين: قتل يوم اليرموك. وقال غيره: قتل يوم مرج الصُّفَّر سنة ثلاث عشرة وهو ابن اثنتين وعشرين سنة. وقال أبوداود: قتل بدمشق، كان عليه درع رسول الله ﷺ.

قوله: «إنما الطيرة ما أمضاك أو ردك» هذا حد الطيرة المنهي عنها: أنها ما يحمل الإنسان على المضي فيما أراده ويمنعه من المضي فيه كذلك. وأما الفأل الذي كان يحبه النبي ﷺ ففيه نوع بشارة، فيسر به العبد ولا يعتمد عليه؛ بخلاف ما يمضيه أو يرده؛ فإن للقلب عليه نوع اعتماد، فافهم الفرق، والله أعلم.

فيـــه مســـائل:

الأولى: التنبيه على قوله ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ مع قوله: ﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾.

الثانيـــة: نفي العدوى.

الثالثـــة: نفي الطيرة.

الرابعـــة: نفي الهامة.

الخامسة: نفي الصفر.

السادسة: أن الفأل ليس من ذلك، بل مستحب.

السابعـة: تفسير الفأل.

الثامنـــة: أن الواقع في القلوب من ذلك مع كراهته لا يضر، بل يذهبه الله بالتوكل.

التاسعة: ذكر ما يقول من وجده.

العاشرة: التصريح بأن الطيرة شرك.

الحادية عشرة: تفسير الطيرة المذمومة.

باب ما جاء في التنجيم

قوله: «باب ما جاء في التنجيم».

قال شيخ الإسلام رحمه الله: التنجيم: هو الاستدلال بالأحوال الفلكية، على الحوادث الأرضية.

وقال الخطابي: علم النجوم المنهي عنه هو ما يدعيه أهل التنجيم من علم الكوائن والحوادث التي ستقع في مستقبل الزمان، كأوقات هبوب الرياح ومجيء المطر، وتغير الأسعار، وما في معناها من الأمور التي يزعمون أنهاتدرك معرفتها بمسير الكواكب في مجاريها، واجتماعها وافتراقها، يدعون أن لها تأثيراً في السفليات. وهذا منهم تحكم على الغيب، وتعاط لعلم قد استأثر الله به، ولا يعلم الغيب سواه.

قال البخاري في «صحيحه»: قال قتادة: «خلق الله هذه النجوم لثلاث: زينة للسماء، ورجوماً للشياطين، وعلامات يُهتَدىٰ بها. فمن تأول فيها غير ذلك أخطأ، وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا عِلْمَ له به» انتهى.

وكره قتادة تعلم منازل القمر ولم يرخص ابن عيينة فيه. ذكره حرب عنهما. ورخص في تعلم المنازل أحمد وإسحاق

قوله: «قال البخاري في «صحيحه»: قال قتادة: «خلق الله هذه النجوم لثلاث: زينة للسماء، ورجوماً للشياطين، وعلامات يُهتَدىٰ بها. فمن تأول فيها غير ذلك أخطأ، وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا عِلْمَ له به»».

هذا الأثر علقه البخاري في «صحيحه». وأخرجه عبدالرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وغيرهم.

وأخرجه الخطيب في كتاب النجوم عن قتادة، ولفظه قال: «إنما جعل الله هذه النجوم لثلاث خصال: جعلها زينة للسماء، وجعلها يهتدى بها، وجعلها رجوماً للشياطين. فمن تعاطى فيها غير ذلك فقد قال برأيه، وأخطأ حظه، وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به. وإن ناساً جهلة بأمر الله قد أحدثوا في هذه النجوم كهانة: من أعرس بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا، ومن سافر بنجم كذا وكذا كان كذا وكذا. ولعمري ما من نجم إلا يولد به الأحمر والأسود، والطويل والقصير، والحسن والدميم، وما علم هذه النجوم وهذه الدابة وهذا الطائر بشيء من هذا الغيب. ولو أن أحداً علم الغيب لعلمه آدم الذي خلقه الله بيده وأسجد له ملائكته وعلمه أسماء كل شيء». انتهى.

فتأمل ماأنكره هذا الإمام مما حدث من المنكرات في عصر التابعين. ومازال الشر يزداد في كل عصر بعدهم حتى بلغ الغاية في هذه الأعصار وعمت به البلوى في جميع الأمصار، فمقل ومستكثر، وعزّ في الناس من ينكره، وعظمت المصيبة به في الدين. فإنا لله وإنا إليه راجعون.

قوله: «خلق الله هذه النجوم لثلاث» قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك: ٥] وقال تعالى: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾﴾ [النحل: ١٦].

وفيه: إشارة إلى أن النجوم في السماء الدنيا، كما روى ابن مردويه عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أما السماء الدنيا: فإن الله خلقها من دخان، وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً، وزينها بمصابيح، وجعلها رجوماً للشياطين، وحفظاً من كل شيطان رجيم».

قوله: «وعلامات» أي: دلالات على الجهات «يهتدى بها» أي يهتدي بها الناس في ذلك. كما قال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾ [الأنعام: ٩٧] أي لتعرفوا بها جهة قصدكم، وليس المراد أنه يهتدى بها في علم الغيب، كما يعتقده المنجمون، وقد تقدم وجه بطلانه، وأنه لا حقيقة له كما قال قتادة: «فمن تأول فيها غير ذلك» أي: زعم فيها غير ما ذكر الله في كتابه من هذه الثلاث فقد أخطأ. حيث زعم شيئاً ما أنزل الله به من سلطان، وأضاع نصيبه من كل خير؛ لأنه شغل نفسه بما يضره ولا ينفعه.

فإن قيل: المنجم قد يصدق: قيل: صدقه كصدق الكاهن، يصدق في كلمة ويكذب في مائة. وصدقه ليس عن علم، بل قد يوافق قدراً، فيكون فتنة في حق من صدقه.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَـٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَـٰمَـٰتٍ ﴾ [النحل: ١٥-١٦].

فقوله: ﴿ وَعَلَـٰمَـٰتٍ ﴾ معطوف على ما تقدم مما ذكره في الأرض، ثم استأنف فقال: ﴿ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ ذكره ابن جرير عن ابن عباس بمعناه.

وقد جاءت الأحاديث عن النبي ﷺ بإبطال علم التنجيم، كقوله: «**من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر. زاد ما زاد**».

وعن رجاء بن حيوة: أن النبي ﷺ قال: «**إن مما أخاف على أمتي: التصديق بالنجوم، والتكذيب بالقدر، وحيف الأئمة**» رواه عبدبن حميد.

وعن أبي محجن مرفوعاً: «**أخاف على أمتي ثلاثاً: حيف الأئمة، وإيماناً بالنجوم، وتكذيباً بالقدر**» رواه ابن عساكر، وحسنه السيوطي.

وعن أنس رضي الله عنه مرفوعاً: «**أخاف على أمتي بعدي خصلتين:

تكذيباً بالقدر وإيماناً بالنجوم» رواه أبويعلى وابن عدي والخطيب في كتاب النجوم، وحسنه السيوطي أيضاً.

والأحاديث في ذم التنجيم والتحذير منه كثيرة.

قوله: «وكره قتادة تعلم منازل القمر. ولم يرخص ابن عيينة فيه. ذكره حرب عنهما. ورخص في تعلم المنازل أحمد وإسحاق».

قال الخطابي: أما علم النجوم الذي يدرك من طريق المشاهدة والخبر الذي يعرف به الزوال، وتعلم به جهة القبلة: فإنه غير داخل فيما نهى عنه. وذلك أن معرفة رصد الظل ليس شيئاً أكثر من أن الظل مادام متناقصاً، فالشمس بعد صاعدة نحو وسط السماء من الأفق الشرقي، وإذا أخذ في الزيادة فالشمس هابطة من وسط السماء نحو الأفق الغربي، وهذا علم يصح إدراكه بالمشاهدة، إلا أن أهل هذه الصناعة قد دبروها بما اتخذوه من الآلات التي يستغني الناظر فيها عن مراعاة مدته ومراصدته.

وأما ما يستدل به من النجوم على جهة القبلة: فإنها كواكب رصدها أهل الخبرة من الأئمة الذين لا نشك في عنايتهم بأمر الدين ومعرفتهم بها، وصدقهم فيما أخبروا به عنها، مثل أن يشاهدها بحضرة الكعبة، ويشاهدها على حال الغيبة عنها، فكان إدراكهم الدلالة منها بالمعاينة، وإدراكنا ذلك بقبول خبرهم إذ كانوا عندنا غير متهمين في دينهم، ولا مقصرين في معرفتهم. انتهى.

وروى ابن المنذر عن مجاهد «أنه كان لا يرى بأساً أن يتعلم الرجل منازل القمر».

وروي عن إبراهيم «أنه كان لا يرى بأساً أن يتعلم الرجل من النجوم ما يهتدي به».

قال ابن رجب: والمأذون في تعلمه التسيير لا علم التأثير، فإنه باطل محرم، قليله وكثيره. وأما علم التسيير فيتعلم ما يحتاج إليه من الاهتداء ومعرفة القبلة والطرق جائز عند الجمهور.

قوله: «ذكره حرب عنهما» هو الإمام الحافظ حرب بن إسماعيل أبومحمد الكرماني الفقيه من جلة أصحاب الإمام أحمد. روى عن أحمد وإسحاق وابن المديني وابن معين وغيرهم. وله كتاب المسائل التي سئل عنها الإمام أحمد وغيره، مات سنة ثمانين ومائتين.

وأما إسحاق: فهو ابن إبراهيم بن مخلد أبويعقوب الحنظلي النيسابوري، الإمام المعروف بابن راهويه. روى عن ابن المبارك وأبي أسامة وابن عيينة وطبقتهم. قال أحمد: إسحاق عندنا إمام من أئمة المسلمين. روى عنه أحمد والبخاري ومسلم وأبوداود وغيرهم، وروى هو أيضاً عن أحمد. مات سنة تسع وثلاثين ومائتين.

وعن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يدخلون الجنة: مُدْمِن الخمر، ومصدق بالسحر، وقاطع الرحم» رواه أحمد وابن حبان في «صحيحه».

قال: وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«ثلاثة لا يدخلون الجنة: مُدْمِن الخمر، وقاطع الرحم، ومصدق بالسحر» رواه أحمد وابن حبان في «صحيحه».**

هذا الحديث رواه أيضاً الطبراني والحاكم وقال: صحيح، وأقره الذهبي. وتمامه: **«ومن مات وهو يدمن الخمر سقاه الله من نهر الغوطة: نهر يجري من فروج المومسات، يؤذي أهل النار ريحُ فروجهن».**

قوله: «وعن أبي موسى» هو عبدالله بن قيس بن سليم بن حضار - بفتح المهملة وتشديد الضاد - أبي موسى الأشعري، صحابي جليل، مات سنة خمسين.

قوله: «**ثلاثة لا يدخلون الجنة**» هذا من نصوص الوعيد التي كره السلف تأويلها، وقالوا: أمِرُّوها كما جاءت، ومن تأولها فهو على خطر من القول على الله بلا علم.

وأحسن ما يقال: إن كل عمل دون الشرك والكفر المخرج عن ملة الإسلام فإنه يرجع إلى مشيئة الله، فإن عذبه فقد استوجب العذاب، وإن غفر له فبفضله وعفوه ورحمته.

قوله: «**مدمن الخمر**» أي المداوم على شربها.

قوله: «**وقاطع الرحم**» يعني القرابة كما قال تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾﴾ [محمد: ٢٢]الآية.

قوله: «**ومصدق بالسحر**» أي مطلقاً، ومنه التنجيم؛ لما تقدم من الحديث، وهذا وجه مطابقة الحديث للترجمة.

قال الذهبي في «الكبائر»: ويدخل فيه تعلم السيميا وعملها، وعقْد المرء عن زوجته، ومحبة الزوج لامرأته، وبغضها وبغضه، وأشباه ذلك بكلمات مجهولة. قال: وكثير من الكبائر - بل عامتها إلا الأقل - يجهل خلق من الأمة تحريمه، وما بلغه الزجر فيه، ولا الوعيد عليه. اهـ.

فيه مسائل:

الأولى: **الحكمة في خلق النجوم**.

الثانية: **الرد على من زعم غير ذلك**.

الثالثة: **ذكر الخلاف في تعلم المنازل**.

الرابعة: **الوعيد فيمن صدق بشيء من السحر، ولو عرف أنه باطل**.

باب ما جاء في الاستسقاء بالأنواء

قوله: «باب ما جاء في الاستسقاء بالأنواء».

أي من الوعيد، والمراد: نسبة السقيا ومجيء المطر إلى الأنواء.

و«الأنواء» جمع «نَوْء» وهي منازل القمر.

قال أبوالسعادات: وهي ثمان وعشرون منزلة، ينزل القمر كل ليلة منزلة منها. ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ [يس: ٣٩] يسقط في الغرب كل ثلاث عشرة ليلة منزلة مع طلوع الفجر، وتطلع أخرى مقابلتها ذلك الوقت من المشرق، فتنقضي جميعها مع انقضاء السنة. وكانت العرب تزعم أن مع سقوط المنزلة وطلوع رقيبها يكون مطر، وينسبونه إليها، ويقولون: «مطرنا بنوء كذا وكذا» وإنما سمي نَوْءاً: لأنه إذا سقط الساقط منها ناء الطالع بالمشرق، أي نهض وطلع.

وقول الله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الواقعة: ٨٢].

قال: وقوله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ روى الإمام أحمد والترمذي ـ وحسنه ـ وابن جرير وابن أبي حاتم والضياء في «المختارة» عن علي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾ **يقول: شكركم ﴿أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ تقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا، بنجم كذا وكذا**» وهذا أولى ما فسرت به الآية. وروي ذلك عن علي وابن عباس وقتادة والضحاك وعطاء الخراساني وغيرهم، وهو قول جمهور المفسرين، وبه يظهر وجه استدلال المصنف رحمه الله بالآية.

قال ابن القيم رحمه الله: أي تجعلون حظكم من هذا الرزق الذي به

حياتكم: التكذيب به، يعني القرآن.

قال الحسن: تجعلون حظكم ونصيبكم من القرآن أنكم تكذبون، قال: وخسر عبد لا يكون حظه من القرآن إلا التكذيب.

وعن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة». وقال: «النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران، ودرع من جرب» رواه مسلم.

قوله: وعن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة». وقال: «النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران، ودرع من جرب» رواه مسلم.

«أبومالك» اسمه الحارث بن الحارث الشامي. صحابي تفرد عنه بالرواية أبوسلام، وفي الصحابة أبومالك الأشعري اثنان غير هذا.

قوله: «أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن» ستفعلها هذه الأمة إما مع العلم بتحريمها أو مع الجهل بذلك. مع كونها من أعمال الجاهلية المذمومة المكروهة المحرمة. والمراد بالجاهلية هنا ما قبل المبعث، سموا بذلك لفرط جهلهم، وكل ما يخالف ما جاء به الرسول ﷺ فهو جاهلية، فقد خالفهم رسول الله ﷺ في كثير من أمورهم أو

أكثرها، وذلك يدرك بتدبر القرآن ومعرفة السنة. ولشيخنا رحمه الله مصنف لطيف ذكر فيه ما خالف رسول الله ﷺ فيه أهل الجاهلية، بلغ مائة وعشرين مسألة.

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: أخبر أن بعض أمر الجاهلية لا يتركه الناس كلهم ذماً لمن لم يتركه، وهذا يقتضي أن كل ما كان من أمر الجاهلية وفعلهم فهو مذموم في دين الإسلام، وإلا لم يكن في إضافة هذه المنكرات إلى الجاهلية ذم لها، ومعلوم أن إضافتها إلى الجاهلية خرج مخرج الذم، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب: ٣٣] فإن ذلك ذماً للتبرج وذماً لحال الجاهلية الأولى، وذلك يقتضي المنع من مشابهتهم في الجملة.

قوله: «الفخر بالأحساب» أي التعاظم على الناس بالآباء ومآثرهم، وذلك جهل عظيم، إذ لا كرم إلا بالتقوى، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [سبأ: ٣٧].

ولأبي داود عن أبي هريرة مرفوعاً: **«إن الله قد أذهب عنكم عُبيَّة الجاهلية، وفخرها بالآباء إنما هو مؤمن تقي، أو فاجر شقي، الناس بنو آدم، وآدم خلق من تراب، لَيَدَعَنَّ رجال فخرهم بأقوام، إنما هم فحم من فحم جهنم، أو ليكونُنَّ أهونَ على الله من الجُعلان»**.

قوله: «والطعن في الأنساب» أي الوقوع فيها بالعيب والتنقص.

ولما عَيَّر أبو ذر رضي الله عنه رجلاً بأمه قال له النبي ﷺ: **«أعيَّرته بأمه؟ إنك امرؤ فيك جاهلية»** متفق عليه.

فدل على أن الطعن في الأنساب من عمل الجاهلية، وأن المسلم قد

يكون فيه شيء من هذه الخصال المسماة بجاهلية ويهودية ونصرانية، ولا يوجب ذلك كفره ولا فسقه. قاله شيخ الإسلام رحمه الله.

قوله: «**والاستسقاء بالنجوم**» أي نسبة المطر إلى النوء وهو سقوط النجم. كما أخرج الإمام أحمد وابن جرير عن جابر السوائي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**أخاف على أمتي ثلاثاً: استسقاءً بالنجوم، وحيف السلطان، وتكذيباً بالقدر**».

فإذا قال قائلهم: مطرنا بنجم كذا أو بنوء كذا، فلا يخلو: إما أن يعتقد أن له تأثيراً في إنزال المطر، فهذا شرك وكفر. وهو الذي يعتقده أهل الجاهلية، كاعتقادهم أن دعاء الميت والغائب يجلب لهم نفعاً، أو يدفع عنهم ضراً، أو أنه يشفع بدعائهم إياه، فهذا هو الشرك الذي بعث الله رسول ﷺ بالنهي عنه وقتال من فعله. كما قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩] والفتنة الشرك.

وإما أن يقول: مطرنا بنوء كذا مثلاً، لكن مع اعتقاده أن المؤثر هو الله وحده. ولكنه أجرى العادة بوجود المطر عند سقوط ذلك النجم، والصحيح: أنه يحرم نسبة ذلك إلى النجم ولو على طريق المجاز، فقد صرح ابن مفلح في «الفروع»، بأنه يحرم قول: «مطرنا بنوء كذا» وجزم في «الإنصاف» بتحريمه ولو على طريق المجاز، ولم يذكر خلافاً. وذلك أن القائل لذلك نسب ما هو من فعل الله تعالى الذي لا يقدر عليه غيره إلى خلق مسخر، لا ينفع ولا يضر، ولا قدرة له على شيء فيكون ذلك شركاً أصغر، والله أعلم.

قوله: «**والنياحة**» أي رفع الصوت بالندب على الميت لأنها تَسخُّط بقضاء الله، وذلك ينافي الصبر الواجب، وهي من الكبائر لشدة الوعيد

والعقوبة.

قوله: «**النائحة إذا لم تتب قبل موتها**» فيه: تنبيه على أن التوبة تكفر الذنب وإن عظم، هذا مجمع عليه في الجملة، ويكفر أيضاً بالحسنات الماحية والمصائب، ودعاء المسلمين بعضهم لبعض، وبالشفاعة بإذن الله، وعفو الله عمن شاء ممن لا يشرك به شيئاً.

وفي الحديث عن ابن عمر مرفوعاً: «**إن الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يُغَرْغِر**» رواه أحمد والترمذي وابن ماجه وابن حبان.

قوله: «**تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب**» قال القرطبي: السربال واحد السرابيل، وهي الثياب والقُمُص، يعني أنهن يُلطَّخن بالقطران، فيكون لهن كالقمص، حتى يكون اشتعال النار بأجسادهن أعظم، ورائحتهن أنتن، وألمهن بسبب الجرب أشد.

وروي عن ابن عباس: إن القطران هو النحاس المذاب.

ولهما عن زيد بن خالد رضي الله عنه، قال: «صلى لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماءٍ كانت من الليل، فلما انصرف أقبل على الناس، فقال: هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مُطِرْنَا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب. وأما من قال: مُطرنا بنَوْءِ كذا وكذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب».

قال: «**ولهما عن زيد بن خالد رضي الله عنه، قال: «صلى لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماءٍ كانت من الليل، فلما**

انصرف أقبل على الناس، فقال: هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مُطِرْنَا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب. وأما من قال: مُطرنا بنَوْءِ كذا وكذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب».

زيد بن خالد الجهني صحابي مشهور، مات سنة ثمان وستين، وقيل: غير ذلك، وله خمس وثمانون سنة.

قوله: «**صلى لنا رسول الله ﷺ**» أي بنا، فاللام بمعنى الباء. قال الحافظ وفيه إطلاق ذلك مجازاً. وإنما الصلاة لله.

قوله: ««**بالحديبية**» بالمهملة المضمومة وتخفيف يائها وتثقل.

قوله: «**على إثر سماءٍ كانت من الليل**» بكسر الهمزة وسكون المثلثة على المشهور، وهو ما يعقب الشيء.

قوله: «**سماء**» أي مطر؛ لأنه ينزل من السحاب، والسماء يطلق على كل ما ارتفع.

قوله: «**فلما انصرف**» أي من صلاته، أي التفت إلى المأمومين، كما يدل عليه قوله: «أقبل على الناس» ويحتمل أنه أراد السلام.

قوله: «**هل تدرون**» لفظ استفهام ومعناه التنبيه.

وفي النسائي «**ألم تسمعوا ما قال ربكم الليلة؟**» وهذا من الأحاديث القدسية. وفيه: إلقاء العالم على أصحابه المسألة ليختبرهم.

قوله: «**قالوا الله ورسوله أعلم**» فيه حسن الأدب للمسؤول عما لا يعلم أن يكل العلم إلى عالمه. وذلك يجب.

قوله: «**أصبح من عبادي**» الإضافة هنا للعموم بدليل التقسيم إلى مؤمن وكافر، كقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢].

قوله: «مؤمن بي وكافر» إذ اعتقد أن للنوء تأثيراً في إنزال المطر فهذا كفر، لأنه أشرك في الربوبية، والمشرك كافر. وإن لم يعتقد ذلك فهو من الشرك الأصغر؛ لأنه نسب نعمة الله إلى غيره، ولأن الله لم يجعل النوء سبباً لإنزال المطر فيه، وإنما هو فضل من الله ورحمة يحبسه إذا شاء، وينزله إذا شاء.

ودل هذا الحديث على أنه لا يجوز لأحد أن يضيف أفعال الله إلى غيره، ولو على سبيل المجاز. وأيضاً، الباء تحتمل معاني، وكلها لا تصدق بهذا اللفظ، فليست للسببية ولا للاستعانة، لما عرفت من أن هذا باطل. ولا تصدق أيضاً على أنها للمصاحبة؛ لأن المطر قد يجيء في هذا الوقت وقد لا يجيء فيه. وإنما يجيء المطر في الوقت الذي أراد الله مجيئه فيه برحمته وحكمته وفضله. فكل معنى تحمل عليه الباء في هذا اللفظ المنهي عنه فاسد. فيظهر على هذا: تحريم هذه اللفظة مطلقاً لفساد المعنى. وقد تقدم القطع بتحريمه في كلام صاحب «الفروع» و«الإنصاف».

قال المصنف رحمه الله: «وفيه التفطن للإيمان في هذا الموضع» يشير إلى أنه الإخلاص.

قوله: «فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته» فالفضل والرحمة صفتان لله، ومذهب أهل السنة والجماعة: أن ما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله من صفات الذات: كالحياة والعلم، وصفات الأفعال، كالرحمة التي يرحم بها عباده، كلها صفات لله قائمة بذاته، ليست قائمة بغيره، فتفطن لهذا فقد غلط فيه طوائف.

وفي هذا الحديث: أن نعم الله لا يجوز أن تضاف إلا إليه وحده، وهو الذي يحمد عليها، وهذه حال أهل التوحيد.

قوله: «**وأما من قال مطرنا بنوء كذا وكذا**» إلى آخره، تقدم ما يتعلق بذلك.

قال المصنف رحمه الله: «وفيه: التفطن للكفر في هذا الموضع».

يشير إلى أن نسبة النعمة إلى غير الله كفر، ولهذا قطع بعض العلماء بتحريمه، وإن لم يعتقد تأثير النوء بإنزال المطر، فيكون من كفر النعم؛ لعدم نسبتها إلى الذي أنعم بها، ونسبتها إلى غيره، كما سيأتي في قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ [النحل: ٨٣].

قال القرطبي في شرح حديث زيد بن خالد: وكانت العرب إذا طلع نجم من المشرق وسقط آخر من المغرب فحدث عند ذلك مطر أو ريح، فمنهم من ينسبه إلى الطالع، ومنهم من ينسبه إلى الغارب؛ نسبة إيجاد واختراع، ويطلقون ذلك القول المذكور في الحديث. فنهى الشارع عن إطلاق ذلك؛ لئلا يعتقد أحد اعتقادهم ولا يتشبه بهم في نطقهم. انتهى.

قوله: فمنهم من ينسبه نسبة إيجاد ـ يدل على أن بعضهم كان لا يعتقد ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [العنكبوت: ٦٣] فدل على أن منهم من يعرف ويقر بأن الله هو الذي أوجد المطر، وقد يعتقد هؤلاء أن للنوء فيه شيئاً من التأثير. والقرطبي في شرحه لم يصرح أن العرب كلهم يعتقدون ذلك المعتقد الذي ذكره. فلا اعتراض عليه بالآية للاحتمال المذكور.

ولهما من حديث ابن عباس بمعناه، وفيه: «قال بعضهم: لقد صدق نوء كذا وكذا. فأنزل الله هذه الآيات: ﴿۞ فَلَآ

أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٍ مَّكۡنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الواقعة: ٧٥ ـ ٨٢].

قوله: ولهما من حديث ابن عباس بمعناه، وفيه: «قال بعضهم: لقد صدق نوء كذا وكذا. فأنزل الله هذه الآيات: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٍ مَّكۡنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ **[الواقعة: ٧٥ ـ ٨٢].**

وبلفظه عن ابن عباس قال: «مُطر الناس على عهد النبي ﷺ، فقال النبي ﷺ: أصبح من الناس شاكر، ومنهم كافر. قالوا: هذه رحمة الله. وقال بعضهم: لقد صدق نوء كذا وكذا. قال. فنزلت هذه الآية: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾﴾».

هذا قسم من الله عزوجل، يقسم بما شاء من خلقه على ما شاء. وجواب القسم ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ فتكون «لا» صلة لتأكيد النفي، فتقدير الكلام: ليس الأمر كما زعمتم في القرآن أنه سحر، أو كهانة، بل هو قرآن كريم.

قال ابن جرير: قال بعض أهل العربية: معنى قوله ﴿فَلَآ﴾ فليس الأمر كما تقولون، ثم استؤنف القسم بعد، فقيل: ﴿أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾.

قال ابن عباس: يعني نجوم القرآن، فإنه نزل جملة ليلة القدر من السماء العليا إلى السماء الدنيا، ثم نزل مفرقاً في السنين بعد، ثم قرأ

ابن عباس هذه الآية ومواقعها نزولها شيئاً بعد شيء. وقال مجاهد: مواقع النجوم: مطالعها ومشارقها. واختاره ابن جرير.

وعلى هذا فتكون المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه ـ وهو القرآن ـ من وجوه:

أحدها: أن النجوم جعلها الله ليهتدى بها في ظلمات البر والبحر وآيات القرآن يهتدىٰ بها في ظلمات الغي والجهل. فتلك هداية في الظلمات الحسية، والقرآن هداية في الظلمات المعنوية، فجمع بين الهدايتين مع ما في النجوم من الزينة الظاهرة، وفي القرآن من الزينة الباطنة، ومع ما في النجوم من الرجوم للشياطين، وفي القرآن من رجوم شياطين الجن والإنس، والنجوم آياته المشهودة العيانية، والقرآن آياته المتلوة السمعية؛ مع ما في مواقعها عند الغروب من العبرة والدلالة على آياته القرآنية ومواقعها عند النزول. ذكره ابن القيم رحمه الله.

وقوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ قال ابن كثير: أي وإن هذا القسم الذي أقسمت به لقسم عظيم، لو تعلمون عظمته لَعَظَّمتم المقسم به عليه.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾﴾ هذا هو المقسم عليه، وهو القرآن، أي إنه وحي الله وتنزيله وكلامه، لا كما يقول الكفار: إنه سحر أو كهانة، أو شعر. بل هو قرآن كريم: أي عظيم كثير الخير؛ لأنه كلام الله.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: فوصفه بما يقتضي حسنه وكثرة خيره ومنافعه وجلالته؛ فإن الكريم هو البهي الكثير الخير العظيم، وهو من كل شيء أحسنه وأفضله، والله سبحانه وتعالى وصف نفسه بالكرم، ووصف به كلامه، ووصف به عرشه، ووصف به ما كثر خيره وحسن

منظره من النبات وغيره، ولذلك فسر السلف «الكريم» بالحسن قال الأزهري: الكريم اسم جامع لما يحمد، والله تعالى كريم جميل الفعال. وإنه لقرآن كريم يحمد، لما فيه من الهدى والبيان والعلم والحكمة.

قوله: ﴿ فِي كِتَٰبٍ مَّكۡنُونٖ ﴿٧٨﴾ ﴾ أي في كتاب معظم محفوظ موقر. قاله ابن كثير.

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى: اختلف المفسرون في هذا، فقيل: هو اللوح المحفوظ والصحيح أنه الكتاب الذي بأيدي الملائكة، وهو المذكور في قوله: ﴿ فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ ﴿١٣﴾ مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ﴿١٤﴾ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ﴿١٥﴾ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ ﴿١٦﴾ ﴾ [عبس: ١٣ ـ ١٦] ويدل على أنه الكتاب الذي بأيدي الملائكة قوله: ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴾ فهذا يدل على أنه بأيديهم يمسونه.

قوله: ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴾ قال: الكتاب الذي في السماء، وفي رواية ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴾ يعني الملائكة. وقال قتادة: لا يمسه عند الله إلا المطهرون. فأما في الدنيا فإنه يمسه المجوسي النجس والمنافق الرجس. واختار هذا القول كثيرون. منهم ابن القيم رحمه الله ورجحه.

وقال ابن زيد: زعمت قريش أن هذا القرآن تنزلت به الشياطين، فأخبر الله تعالى أنه لا يمسه إلا المطهرون، كما قال تعالى: ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمۡ عَنِ ٱلسَّمۡعِ لَمَعۡزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ ﴾ [الشعراء: ٢١٠ ـ ٢١٢] قال ابن كثير: هذا قول جيد، وهو لا يخرج عن القول قبله. وقال البخاري رحمه الله تعالى في «صحيحه» في هذه الآية: «لا يجد طعمه إلا من آمن به».

قال ابن القيم رحمه الله: هذا من إشارة الآية وتنبيهها، وهو أنه لا يلتذ به، وبقراءته، وفهمه، وتدبره، إلا من يشهد أنه كلام الله تكلم به حقاً، وأنزله على رسوله وحياً. لا ينال معانيه إلا من لم يكن في قلبه حرج منه بوجه من الوجوه.

وقال آخرون: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾﴾ أي من الجنابة والحدث. قالوا: ولفظ الآية خبر ومعناه الطلب.

قالوا: والمراد بالقرآن هاهنا المصحف. واحتجوا على ذلك بما رواه مالك في «الموطأ» عن عبدالله بن محمد بن أبي بكر بن محمد بن عمرو ابن حزم: «إن في الكتاب الذي كتبه رسول الله ﷺ لعمرو بن حزم: أن لا يمس القرآن إلا طاهر».

وقوله: ﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ قال ابن كثير: هذا القرآن منزل من الله رب العالمين، وليس كما يقولون: إنه سحر أو كهانة أو شعر، بل هو الحق الذي لا مرية فيه، وليس وراءه حق نافع. وفي هذه الآية: أنه كلام الله تكلم به.

قال ابن القيم رحمه الله: ونظيره ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى﴾ [السجدة: ١٣] وقوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢] هو إثبات علو الله تعالى على خلقه. فإن النزول والتنزيل الذي تعقله العقول وتعرفه الفطر هو وصول الشيء من أعلى إلى أسفل، ولا يرد عليه قوله: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر: ٦] لأنا نقول: إن الذي أنزلها فوق سمواته. فأنزلها لنا بأمره.

قال ابن القيم رحمه الله: وذكر التنزيل مضافاً إلى ربوبيته للعالمين المستلزمة لملكهِ لهم وتصرفه فيهم، وحكمه عليهم، وإحسانه إليهم، وإنعامه عليهم، وأن من هذا شأنه مع الخلق كيف يليق به مع ربوبيته

التامة أن يتركهم سُدىً، ويدعهم هملاً، ويخلقهم عبثاً، لا يأمرهم ولا ينهاهم ولا يثيبهم ولا يعاقبهم؟ فمن أقرَّ بأنه رب العالمين، أقر بأن القرآن تنزيله على رسوله، واستدل بكونه رب العالمين على ثبوت رسالة رسوله وصحة ما جاء به، وهذا الاستدلال أقوى وأشرف من الاستدلال بالمعجزات والخوارق، وإن كانت دلالتها أقرب إلى أذهان عموم الناس، وتلك إنما تكون لخواص العقلاء.

قوله: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾﴾ قال مجاهد: أتريدون أن تمالئوهم فيه وتركنوا إليهم؟

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: ثم وبخهم على وضعهم الإدهان في غير موضعه، وأنهم يداهنون فيما حقه أن يصدع به ويعرف به، ويعض عليه بالنواجذ، وتثنى عليه الخناصر، وتعقد عليه القلوب والأفئدة، ويحارب ويسالم لأجله، ولا يلتوى عنه يمنة ويسرة، ولا يكون للقلب التفات إلى غيره، ولا محاكمة إلا إليه، ولا مخاصمة إلا به، ولا اهتداء في طرق المطالب العالية إلا بنوره، ولا شفاء إلا به، فهو روح الوجود، وحياة العالم، ومدار السعادة، وقائد الفلاح، وطريق النجاة، وسبيل الرشاد، ونور البصائر فكيف تطلب المداهنة بما هذا شأنه، ولم ينزل للمداهنة، وإنما نزل بالحق وللحق، والمداهنة إنما تكون في باطل قوي لا تمكن إزالته، أو في حق ضعيف لا تمكن إقامته، فيحتاج المداهن إلى أن يترك بعض الحق ويلتزم بعض الباطل، فأما الحق الذي قام به، كل حق فكيف يداهن به؟

قوله: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ تقدم الكلام عليها أول الباب، والله تعالى أعلم.

فيـــه مســـائل:

الأولـــى: تفسير آية الواقعة.

الثانيـــة: ذكر الأربع التي من أمر الجاهلية.

الثالثـــة: ذكر الكفر في بعضها.

الرابعـــة: أن من الكفر ما لا يُخْرِج من الملة.

الخامسة: قوله: «أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر» بسبب نزول النعمة.

السادسة: التفطن للإيمان في هذا الموضع.

السابعـة: التفطن للكفر في هذا الموضع.

الثامنـــة: التفطن لقوله «لقد صدق نوء كذا وكذا».

التاسعة: إخراج العالم للتعليم للمسألة بالاستفهام عنها، لقوله: «أتدرون ماذا قال ربكم؟».

العاشرة: وعيد النائحة.

باب قول الله تعالى:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾

[البقرة: ١٦٥]

قوله: «باب قول الله تعالى» ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾.

لما كانت محبته سبحانه هي أصل دين الإسلام الذي يدور عليه قطب رحاه، فبكمالها يكمل، وبنقصها ينقص توحيد الإنسان، نبه المصنف على ذلك بهذه الترجمة.

قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا ﴾ الآية. قال في «شرح المنازل»: أخبر تعالى أن من أحب من دون الله شيئاً كما يحب الله تعالى فهو ممن اتخذ من دون الله أنداداً، فهذا ند في المحبة، لا في الخلق والربوبية، فإن أحداً من أهل الأرض لا يثبت هذا الند، بخلاف ند المحبة. فإن أكثر أهل الأرض قد اتخذوا من دون الله أنداداً في الحب والتعظيم. ثم قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ وفي تقدير الآية قولان:

أحدهما: والذين آمنوا أشد حباً لله من أصحاب الأنداد لأندادهم وآلهتهم التي يحبونها ويعظمونها من دون الله.

وروى ابن جرير عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿ يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾مباهاة ومضاهاة للحق بالأنداد ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ من الكفار لأوثانهم. ثم روى عن ابن زيد قال: هؤلاء المشركون أندادهم آلهتهم التي عبدوا مع الله يحبونهم كما يحب الذين آمنوا الله، والذين

آمنوا أشد حباً لله من حبهم آلهتهم انتهى.

والثاني: والذين آمنوا أشد حباً لله من المشركين بالأنداد لله؛ فإن محبة المؤمنين خالصة، ومحبة أصحاب الأنداد قد ذهبت أندادهم بقسط منها، والمحبة الخالصة أشد من المشتركة. والقولان مرتبان على القولين في قوله تعالى: ﴿ يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾ فإن فيها قولين أيضاً، أحدهما: يحبونهم كما يحبون الله. فيكون قد أثبت لهم محبة الله، ولكنها محبة أشركوا فيها مع الله تعالى أندادهم. والثاني: أن المعنى: يحبون أندادهم كما يحب المؤمنون الله، ثم بين تعالى أن محبة المؤمنين لله أشد من محبة أصحاب الأنداد لأندادهم.

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يرجح القول الأول ويقول: إنما ذموا بأن شركوا بين الله وبين أندادهم في المحبة ولم يخلصوها لله كمحبة المؤمنين له، وهذه التسوية المذكورة في قوله تعالى حكاية عنهم وهم في النار أنهم يقولون لآلهتهم وأندادهم وهي محضرة معهم في العذاب: ﴿ تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٨﴾ ﴾ [الشعراء: ٩٧ ـ ٩٨] ومعلوم أنهم ما سووهم برب العالمين في الخلق والربوبية، وإنما سووهم به في المحبة والتعظيم.

وهذا أيضاً هو العدل المذكور في قوله تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ ﴾ [الأنعام: ١] به غيره في العبادة التي هي المحبة والتعظيم.

وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١] وهذه تسمى آية المحبة. قال بعض السلف: ادعى قوم محبة الله، فأنزل الله تعالى آية المحبة ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ إشارة إلى دليل المحبة وثمرتها وفائدتها، فدليلها وعلامتها: اتباع الرسول ﷺ،

وفائدتها وثمرتها: محبة المرسِل لكم، فما لم تحصل منكم المتابعة فمحبتكم له غير حاصلة، ومحبته لكم منتفية.

وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ يُجَـٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ﴾ [المائدة: ٥٤] ذكر لهم أربع علامات:

إحداها: أنهم أذلة على المؤمنين، قيل معناه، أرقاء رحماء مشفقين عاطفين عليهم، فلما ضمن «أذلة» هذا المعنى عدَّاه بأداة «على» قال عطاء رحمه الله: للمؤمنين كالولد لوالده وكالعبد لسيده. وعلى الكافرين كالأسد على فريسته ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

العلامة الثالثة: الجهاد في سبيل الله بالنفس واليد والمال واللسان. وذلك تحقيق دعوى المحبة.

العلامة الرابعة: أنهم لا تأخذهم في الله لومة لائم، وهذه علامة صحة المحبة.

فكل محب أخذه اللوم على محبوبه فليس بمحب على الحقيقة. وقال تعالى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ [الإسراء: ٥٧] فذكر المقامات الثلاثة: الحب، وهوابتغاء القرب إليه، والتوسل إليه بالأعمال الصالحة. والرجاء والخوف يدل على أن ابتغاء الوسيلة أمر زائد على رجاء الرحمة وخوف العذاب.

ومن المعلوم قطعاً أنه لا يتنافس إلا في قرب من يحب قربه، وحب قربه تبع لمحبة ذاته، بل محبة ذاته أوجبت محبة القرب منه. وعند الجهمية والمعطلة: ما من ذلك كله شيء؛ فإنه عندهم لا تقرب ذاته من شيء، ولايقرب من ذاته شيء، ولايحب. فأنكروا حياة القلوب، ونعيم الأرواح، وبهجة النفوس، وقرة العيون، وأعلى نعيم الدنيا والآخرة.

ولذلك ضربت قلوبهم بالقسوة، وضرب دونهم ودون الله حجاب على معرفته ومحبته، فلا يعرفونه ولا يحبونه ولا يذكرونه إلّاعند تعطيل أسمائه وصفاته، فذكرهم أعظم آثامهم وأوزارهم، بل يعاقبون من يذكره بأسمائه وصفاته ونعوت جلاله، ويرمونهم بالأدواء التي هم أحق بها وأهلها.

وحسب ذي البصيرة وحياة القلب ما يرى على كلامهم من القسوة والمقت والتنفير عن محبة الله تعالى ومعرفته وتوحيده، والله المستعان.

وقال رحمه الله تعالى أيضاً: لا تحد المحبة بحد أوضح منها، فالحدود لا تزيدها إلا خفاءً، فحدها وجودها، ولا توصف بوصف أظهر من المحبة، وإنما يتكلم الناس في أسبابها وموجباتها وعلاماتها وشواهدها وثمراتها وأحكامها.

وأجمع ما قيل في ذلك: ما ذكره أبوبكر الكتاني عن الجنيد.

قال أبوبكر: «جرت مسألة في المحبة بمكة ـ أعزها الله ـ في أيام الموسم، فتكلم الشيوخ فيها، وكان الجنيد أصغرهم سناً، فقالوا: هات ما عندك ياعراقي، فأطرق رأسه، ودمعت عيناه، ثم قال: عبد ذاهب عن نفسه، متصل بذكر ربه، قائم بأداء حقوقه، ناظر إليه بقلبه، أحرق قلبه أنوار هيبته، وصفا شرابه من كأس مودته، وانكشف له الحياء من أستار غيبه، فإن تكلم فبالله، وإن نطق فعن الله، وإن تحرك فبأمر الله، وإن سكن فمع الله، فهو لله وبالله، ومع الله، فبكى الشيوخ، وقالوا: ما على هذا مزيد، جبرك الله ياتاج العارفين».

وذكر رحمه الله تعالى: أن الأسباب الجالبة للمحبة عشرة.

أحدها: قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه وما أريد به.

الثاني: التقرب إلى الله تعالى بالنوافل بعد الفرائض.

الثالث: دوام ذكره على كل حال باللسان والقلب والعمل والحال، فنصيبه من المحبة على قدر هذا.

الرابع: إيثار محابه على محابِّك عند غلبات الهوى.

الخامس: مطالعة القلب لأسمائه وصفاته ومشاهدتها وتقلبه في رياض هذه المعرفة وميادينها.

السادس: مشاهدة بره وإحسانه ونعمه الظاهرة والباطنة.

السابع: وهو ـ أعجبها ـ: انكسار القلب بين يديه.

الثامن: الخلوة وقت النزول الإلـٰهي، وتلاوة كتابه ثم ختم ذلك بالاستغفار والتوبة.

التاسع: مجالسة المحبين الصادقين، والتقاط أطايب ثمرات كلامهم، ولا تتكلم إلا إذا ترجحت مصلحة الكلام، وعلمت أن فيه مزيداً لحالك، ومنفعة لغيرك.

العاشر: مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله عزوجل.

فمن هذه الأسباب العشرة وصل المحبون إلى منازل المحبة، ودخلوا على الحبيب.

وقوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [التوبة: ٢٤].

قوله: «وقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ

إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾».

أمر الله نبيه ﷺ أن يتوعد من أحب أهله وماله وعشيرته وتجارته ومسكنه فآثرها، أو بعضها على فعل ما أوجبه الله عليه من الأعمال التي يحبها الله تعالى ويرضاها، كالهجرة والجهاد ونحو ذلك.

قال العماد ابن كثير رحمه الله تعالى: أي إن كانت هذه الأشياء ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟﴾ أي انتظروا ماذا يحل بكم من عقابه. روى الإمام أحمد وأبوداود ـ واللفظ له ـ من حديث أبي عبدالرحمن السلمي عن عطاء الخراساني عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه عنكم حتى تراجعوا دينكم**».

فلابد من إيثار ما أحبه الله من عبده وأراده على ما يحبه العبد ويريده، فيحب ما يحبه الله، ويبغض ما يبغضه، ويوالي فيه، ويعادي فيه، ويتابع رسوله ﷺ كما تقدم في آية المحنة ونظائرها.

عن أنس: أن رسول الله ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين» أخرجاه.

قوله: «**عن أنس رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين أخرجاه**» أي البخاري ومسلم.

قوله: «**لا يؤمن أحدكم**» أي الإيمان الواجب، والمراد كماله، حتى يكون الرسول أحب إلى العبد من ولده ووالده والناس أجمعين، بل ولا

يحصل هذا الكمال إلا بأن يكون الرسول أحب إليه من نفسه، كما في الحديث: «أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: يارسول الله لأنت أحب إليَّ من كل شيء إلا من نفسي، فقال: «**والذي نفسي بيده، حتى أكون أحب إليك من نفسك**. فقال له عمر: فإنك الآن أحب إلي من نفسي، فقال: **الآن ياعمر**» رواه البخاري.

فمن قال: إن المنفي هو الكمال، فإن أراد الكمال الواجب الذي يذم تاركه ويعرض للعقوبة فقد صدق، وإن أراد أن المنفي الكمال المستحب، فهذا لم يقع قط في كلام الله تعالى ورسوله ﷺ، قاله شيخ الإسلام رحمه الله.

فمن ادعى محبة النبي ﷺ بدون متابعته وتقديم قوله على قول غيره فقد كذب، كما قال تعالى: ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ [النور: ٤٧] فنفى الإيمان عمن تولى عن طاعة الرسول ﷺ، لكن كل مسلم يكون محباً بقدر ما معه من الإسلام، وكل مسلم لابد أن يكون مؤمناً، وإن لم يكن مؤمناً الإيمان المطلق، لأن ذلك لا يحصل إلى لخواص المؤمنين.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: وعامة الناس إذا أسلموا بعد كفر، أو ولدوا على الإسلام والتزموا شرائعه، وكانوا من أهل الطاعة لله ورسوله، فهم مسلمون ومعهم إيمان مجمل. لكن دخول حقيقة الإيمان إلى قلوبهم يحصل شيئاً فشيئاً، إن أعطاهم الله ذلك، وإلا فكثير من الناس لا يصلون إلى اليقين ولا إلى الجهاد، ولو شُكِّكوا لشكُّوا، ولو أمروا بالجهاد لما جاهدوا، إذ ليس عندهم من علم اليقين ما يدرأ الريب، ولا عندهم من قوة الحب لله ورسوله ما يقدمونه على الأهل والمال. فهؤلاء إن عوفوا من المحنة وماتوا دخلوا الجنة، وإن ابتلوا

بمن يدخل عليهم شبهات توجب ريبهم، فإن لم ينعم الله عليهم بما يزيل الريب، وإلا صاروا مرتابين، وانتقلوا إلى نوع من النفاق. انتهى.

وفي هذا الحديث: أن الأعمال من الإيمان، لأن المحبة عمل القلب.

وفيه: أن محبة الرسول ﷺ واجبة تابعة لمحبة الله لازمة لها، فإنها محبة لله ولأجله، تزيد بزيادة محبة الله في قلب المؤمن وتنقص بنقصها، وكل من كان محباً لله فإنما يحب في الله ولأجله، كما يحب الإيمان والعمل الصالح. وهذه المحبة ليس فيها شيء من شوائب الشرك كالاعتماد عليه ورجائه في حصول مرغوب منه، أو دفع مرهوب منه. وما كان فيها ذلك فمحبته مع الله، لما فيها من التعلق على غيره والرغبة إليه من دون الله، فبهذا يحصل التمييز بين المحبة في الله ولأجله، التي هي من كمال التوحيد، وبين المحبة مع الله التي هي محبة الأنداد من دون الله، لما يتعلق في قلوب المشركين من الإلٰهية التي لا تجوز إلا لله وحده.

ولهما عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما. وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه، كمايكره أن يُقذف في النار». وفي رواية: «لايجد أحد حلاوة الإيمان حتى..» إلى آخره.

قوله: ولهما عنه ـ أي البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه ـ **قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما. وأن يحب المرء لا يحبه إلا**

لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه، كما يكره أن يُقذف في النار».

وفي رواية: «لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى يحب المرء لا يحبه إلا لله... إلخ».

قوله: «ثلاث» أي ثلاث خصال.

قوله: «من كن فيه» أي وجدت فيه تامة.

قوله: «وجد بهن حلاوة الإيمان» الحلاوة هنا: هي التي يعبر عنها بالذوق؛ لما يحصل به من لذة القلب ونعيمه وسروره وغذائه، وهي شيء محسوس يجده أهل الإيمان في قلوبهم.

قال السيوطي رحمه الله في «التوشيح»: «وجد حلاوة الإيمان» فيه: استعارة تخييلية. شبه رغبة المؤمن في الإيمان بشيء حلو، وأثبت له لازم ذلك الشيء، وأضافه إليه.

وقال النووي: معنى حلاوة الإيمان: استلذاذ الطاعات وتحمل المشاق، وإيثار ذلك على أغراض الدنيا، ومحبة العبد لله بفعل طاعته وترك مخالفته، وكذلك الرسول ﷺ.

قال يحيىٰ بن معاذ: حقيقة الحب في الله: أن لا يزيد بالبر، ولا ينقص بالجفاء.

قوله: «أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما» يعني بالسوىٰ: ما يحبه الإنسان بطبعه، كمحبة الولد والمال والأزواج ونحوها، فتكون «أحب» هنا على بابها.

وقال الخطابي: المراد بالمحبة هنا: حب الاختيار لا حب الطبع. كذا قال.

وأما المحبة الشركية التي قد تقدم بيانها فقليلها وكثيرها ينافي محبة

الله ورسوله. وفي بعض الأحاديث «**أحبوا الله بكل قلوبكم**» فمن علامات محبة الله ورسوله: أن يحب ما يحبه الله ويكره ما يكرهه الله، ويؤثر مرضاته على ما سواه، ويسعى في مرضاته ما استطاع، ويبعد عما حرمه الله ويكرهه أشد الكراهة، ويتابع رسوله ويمتثل أمره ويترك نهيه، كما قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] فمن آثر أمر غيره على أمره وخالف ما نهى عنه، فذلك عَلَمٌ على عدم محبته لله ورسوله؛ فإن محبة الرسول من لوازم محبة الله، فمن أحب الله وأطاعه أحب الرسول وأطاعه، ومن لا فلا. كما في آية المحنة ونظائرها، والله المستعان.

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: أخبر النبي ﷺ أن هذه الثلاث من كُنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان؛ لأن وجود الحلاوة للشيء يتبع المحبة له. فمن أحب شيئاً واشتهاه إذا حصل له مراده، فإنه يجد الحلاوة واللذة والسرور بذلك، واللذة أمر يحصل عقيب إدراك الملائم الذي هو المحبوب أو المشتهى.

قال: فحلاوة الإيمان المتضمنة للذة والفرح تتبع كمال محبة العبد لله. وذلك بثلاثة أمور: تكميل هذه المحبة، وتفريغها، ودفع ضدها. فتكميلها: أن يكون الله ورسوله أحب إلى العبد مما سواهما. فإن محبة الله ورسوله لا يكتفى فيها بأصل الحب، بل لابد أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما.

قلت: ومحبة الله تعالى تستلزم محبة طاعته. فإنه يحب من عبده أن يطيعه، والمحب يحب ما يحبه محبوبه ولابد.

ومن لوازم محبة الله أيضاً: محبة أهل طاعته، كمحبة أنبيائه ورسله والصالحين من عباده، فمحبة ما يحبه الله ومن يحبه الله من كمال

الإيمان، كما في حديث ابن عباس الآتي.

قال: وتفريغها: أن يحب المرء لا يحبه إلا لله، قال: ودفع ضدها: أن يكره ضد الإيمان كما يكره أن يقذف في النار.

قوله: «أحب إليه مما سواهما» فيه جمع ضمير الله تعالى وضمير رسوله ﷺ وفيه قولان:

أحدهما: أنه ثنى الضمير هنا إيماءً إلى أن المعتبر هو المجموع المركب من المحبتين، لا كل واحدة، فإنها وحدها لاغية، وأمر بالإفراد في حديث الخطيب إشعاراً بأن كل واحد من العصيانين مستقل بإلزام الغواية، إذ العطف في تقدير التكرير، والأصل استقلال كل من المعطوفين في الحكم.

الثاني: حمل حديث الخطيب على الأدب والأولى، وهذا على الجواز.

وجواب ثالث: وهو أن هذا ورد على الأصل، وحديث الخطيب ناقل فيكون أرجح.

قوله: «كما يكره أن يقذف في النار» أي يستوي عنده الأمران. وفيه: رد على الغلاة الذين يتوهمون أن صدور الذنب من العبد نقص في حقه مطلقاً، وإن تاب منه.

والصواب: أنه إن لم يكن يتب كان نقصاً، وإن تاب فلا، ولهذا كان المهاجرون والأنصار رضي الله عنهم أفضل هذه الأمة مع كونهم في الأصل كفاراً، فهداهم الله إلى الإسلام، والإسلام يمحو ما قبله وكذلك الهجرة، كما صح الحديث بذلك.

قوله: وفي رواية «لا يجد أحد» هذه الرواية أخرجها البخاري في الأدب من «صحيحه». ولفظها **«لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى يحب المرء لا**

يحبه إلا لله، وحتى أن يقذف في النار أحب إليه من أن يرجع إلى الكفر بعد إذ أنقذه الله منه، وحتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما».

وقد تقدم أن المحبة هنا عبارة عما يجده المؤمن من اللذة والبهجة والسرور والإجلال والهيبة ولوازم ذلك، قال الشاعر:

أهابكِ إجلالاً وما بكِ قدرةٌ   عليَّ، ولكن ملءُ عين حبيبها

وعن ابن عباس: رضي الله عنهما: قال: «من أحب في الله، وأبغض في الله، ووالىٰ في الله، وعادىٰ في الله، فإنما تُنال ولاية الله بذلك، ولن يجد عبد طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصومه حتى يكون كذلك. وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا، وذلك لا يجدي على أهله شيئاً» رواه ابن جرير.

قوله: وعن ابن عباس: رضي الله عنهما: قال: «من أحب في الله، وأبغض في الله، ووالىٰ في الله، وعادىٰ في الله، فإنما تُنال ولاية الله بذلك، ولن يجد عبد طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصومه حتى يكون كذلك. وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا، وذلك لا يجدي على أهله شيئاً» رواه ابن جرير.

وأخرج ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم الجملة الأولى منه فقط.

قوله:«من أحب في الله» أي أحب أهل الإيمان بالله وطاعته من أجل ذلك

قوله: «وأبغض في الله» أي أبغض من كفر بالله وأشرك به وفسق عن طاعته لأجل ما فعلوه مما يسخط الله وإن كانوا أقرب الناس إليه، كما قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ

وَرَسُولَهُۥ﴾ الآية [المجادلة: ٢٢].

قوله: «ووالى في الله» هذا والذي قبله من لوازم محبة العبد لله تعالى، فمن أحب الله تعالى أحب فيه، ووالى أولياءه، وعادى أهل معصيته وأبغضهم، وجاهد أعداءه ونصر أنصاره، وكلما قويت محبة العبد لله في قلبه قويت هذه الأعمال المترتبة عليها، وبكمالها يكمل توحيد العبد ويكون ضعفها على قدر ضعف محبةالعبد لربه؛ فمقل ومستكثر ومحروم

قوله: «فإنما تنال ولاية الله بذلك» أي توليه لعبده. و«ولاية» بفتح الواو لاغير: أي الأخوة والمحبة والنصرة، وبالكسر الإمارة، والمراد هنا الأول

ولأحمد والطبراني عن النبيﷺ قال: «**لايجد العبدصريح الإيمان حتى يحب لله ويبغض لله. فإذا أحب لله وأبغض لله، فقد استحق الولاية لله**».

وفي حديث آخر: «**أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله عزوجل**» رواه الطبراني.

قوله: «ولن يجد عبد طعم الإيمان» إلىٰ آخره: أي لا يحصل له ذوق الإيمان ولذته وسروره وإن كثرت صلاته وصومه، حتى يكون كذلك، أي حتى يحب في الله، ويبغض في الله، ويعادي في الله، ويوالي فيه.

وفي حديث أبي أمامة مرفوعاً: «**من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع لله، فقد استكمل الإيمان**» رواه أبوداود.

قوله:«وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمرالدنيا، وذلك لايجدي على أهله شيئاً» أي لا ينفعهم بل يضرهم، كما قال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزخرف: ٦٧] فإذا كانت البلوى قد عمت بهذا في زمن ابن عباس خير القرون، فما زاد الأمر بعد ذلك إلا شدة، حتى وقعت الموالاة على الشرك والبدع والفسوق والعصيان، وقد وقع ما أخبر به ﷺ بقوله: «**بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ**».

وقد كان الصحابة رضي الله عنهم من المهاجرين والأنصار في عهد نبيهم ﷺ وعهد أبي بكر وعمر رضي الله عنهما يؤثر بعضهم بعضاً على نفسه محبة في الله وتقرباً إليه، كما قال تعالى: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر: ٩].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «لقد رأيتُنا على عهد رسول الله ﷺ وما منا أحدٌ يرى أنه أحق بديناره ودرهمه من أخيه المسلم» رواه ابن ماجه.

وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴾ [البقرة: ١٦٦] قال: «المودة».

قوله: وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ ﴾ [البقرة: ١٦٦] **قال: «المودة»**. هذا الأثر رواه عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه.

قوله: «**قال: المودة**» أي التي كانت بينهم في الدنيا خانتهم أحوج ما كانوا إليها، وتبرأ بعضهم من بعض، كما قال تعالى: ﴿ وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

قال العلامة ابن القيم في قوله تعالى: ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ﴾ الآيتين [البقرة: ١٦٦] فهؤلاء المتبوعون كانوا على الهدى، وأتباعهم ادعوا أنهم على طريقهم ومنهاجهم، وهم مخالفون لهم سالكين غير طريقهم، ويزعمون أن محبتهم لهم تنفعهم مع مخالفتهم، فيتبرؤون منهم يوم القيامة، فإنهم اتخذوهم أولياء من دون

الله، وهذا حال كل من اتخذ من دون الله وليجة وأولياء، يوالي لهم، ويعادي لهم، ويرضى لهم، ويغضب لهم، فإن أعماله كلها باطلة، يراها يوم القيامة حسرات عليه مع كثرتها وشدة تعبه فيها ونصبه، إذ لم يجرد موالاته ومعاداته وحبه وبغضه وانتصاره وإيثاره لله ورسوله، فأبطل الله عزوجل ذلك العمل كله. وقطع تلك الأسباب.

فينقطع يوم القيامة كل سبب ووصلة ووسيلة ومودة كانت لغير الله، ولا يبقى إلا السبب الواصل بين العبد وربه. وهو حظه من الهجرة إليه وإلى رسوله، وتجريده عبادته لله وحده ولوازمها: من الحب والبغض، والعطاء والمنع، والموالاة والمعاداة، والتقريب والإبعاد، وتجريد متابعة رسول الله ﷺ تجريداً محضاً بريئاً من شوائب الالتفات إلى غيره، فضلاً عن الشرك بينه وبين غيره، فضلاً عن تقديم قول غيره عليه، فهذا السبب هو الذي لا ينقطع بصاحبه، وهذه هي النسبة بين العبد وربه، وهي نسبة العبودية المحضة، وهي آخيته التي يجول ما يجول وإليها مرجعه، ولا تتحقق إلا بتجريده متابعة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، إذ هذه العبودية إنما جاءت على ألسنتهم، وما عرفت إلا بهم، ولا سبيل إليها إلا بمتابعتهم، وقد قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٣]. فهذه هي الأعمال التي كانت في الدنيا على غير سنة رسله وطريقتهم ولغير وجهه، يجعلها الله هباءً منثوراً، لا ينتفع منها صاحبها بشيء أصلاً، وهذا من أعظم الحسرات على العبد يوم القيامة: أن يرى سعيه ضائعاً. وقد سعد أهل السعي النافع بسعيهم. انتهى ملخصاً.

فيــه مســائل:

الأولـى: تفسير آية البقرة.

الثانيــة: تفسير آية براءة.

الثالثــة: وجوب محبته ﷺ على النفس والأهل والمال.

الرابعــة: نفي الإيمان لا يدل على الخروج من الإسلام.

الخامسة: أن للإيمان حلاوة قد يجدها الإنسان وقد لا يجدها.

السادسة: أعمال القلب الأربع التي لا تنال ولاية الله إلا بها، ولا يجد أحد طعم الإيمان إلا بها.

السابعـة: فهم الصحابي للواقع: أن عامة المؤاخاة على أمر الدنيا.

الثامنــة: تفسير ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾﴾.

التاسعة: أن من المشركين من يحب الله حباً شديداً.

العاشرة: الوعيد على من كان الثمانية أحب إليه من دينه.

الحادية عشرة: أن من اتخذ نداً تساوي محبته محبة الله فهو الشرك الأكبر.

باب قول الله تعالى:

﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾ [آل عمران: ١٧٥]

قوله: «باب قول الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾».

الخوف من أفضل مقامات الدين وأجلها، وأجمع أنواع العبادة التي يجب إخلاصها لله تعالى. قال الله تعالى: ﴿ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِۦ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الأنبياء: ٢٨] وقال تعالى: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ ﴾ [النحل: ٥٠] وقال تعالى: ﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ ﴾ [الرحمن: ٤٦] وقال تعالى: ﴿ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ ﴾ [البقرة: ٤٠] وقال تعالى: ﴿ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ ﴾ [المائدة: ٤٤] وأمثال هذه الآيات في القرآن كثير.

والخوف من حيث هو على ثلاثة أقسام.

أحدها: خوف السر، وهو أن يخاف من غير الله من وثن أو طاغوت أن يصيبه بما يكره، كما قال تعالى عن قوم هود عليه السلام إنهم قالوا له: ﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ۗ قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾ ﴾ [هود: ٥٤ ـ ٥٥] وقال تعالى: ﴿ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ [الزمر: ٣٦] وهذا هو الواقع من عباد القبور ونحوها من الأوثان، يخافونها ويخوفون بها أهل التوحيد إذا أنكروا عبادتها وأمروا بإخلاص العبادة لله، وهذا ينافي التوحيد.

الثاني: أن يترك الإنسان ما يجب عليه، خوفاً من بعض الناس، فهذا محرم وهو نوع من الشرك بالله المنافي لكمال التوحيد، وهذا هو سبب

نزول هذه الآية، كما قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُواْ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[آل عمران: ١٧٣ ـ ١٧٥]

وفي الحديث: «**إن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة: ما منعك إذ رأيت المنكر أن لا تغيره؟ فيقول: رب خشية الناس، فيقول: إياي كنت أحق أن تخشى**».

الثالث: الخوف الطبيعي، وهو الخوف من عدو أو سبع أو غير ذلك، فهذا لا يذم كما قال تعالى في قصة موسى عليه السلام: ﴿ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ ﴾ الآية [القصص: ٢١].

ومعنى قوله: ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ ﴾ أي خوفكم أولياءه ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ ﴾ وهذا نهي من الله تعالى للمؤمنين أن يخافوا غيره، وأمر لهم أن يقصروا خوفهم على الله، فلا يخافون إلا إياه، وهذا هو الإخلاص الذي أمر الله به عباده ورضيه منهم. فإذا أخلصوا له الخوف وجميع العبادة أعطاهم ما يرجون وأمنهم من مخاوف الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ ﴾ الآية [الزمر: ٣٦].

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى: ومن كيد عدو الله: أنه يخوف المؤمنين من جنده وأوليائه، لئلا يجاهدوهم، ولا يأمروهم بمعروف، ولا ينهوهم عن منكر، وأخبر تعالى أن هذا من كيد الشيطان وتخويفه، ونهانا أن نخافهم. قال: والمعنى عند جميع المفسرين: يخوفهم بأوليائه. قال قتادة: يعظمهم في صدوركم. فكلما قوي إيمان العبد زال خوف أولياء الشيطان من قلبه. وكلما ضعف إيمانه قوي

خوفه منهم. فدلت هذه الآية على أن إخلاص الخوف من كمال شروط الإيمان.

وقوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾ [التوبة: ٩].

قوله: «وقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ الآية».

أخبر تعالى أن مساجد الله لا يعمرها إلا أهل الإيمان بالله واليوم الآخر، الذين آمنوا بقلوبهم وعملوا بجوارحهم، وأخلصوا له الخشية دون من سواه، فأثبت لهم عمارة المساجد بعد أن نفاها عن المشركين، لأن عمارة المساجد بالطاعة والعمل الصالح، والمشرك وإن عمل فعمله: ﴿كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا﴾ [النور: ٣٩] أو ﴿كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ [إبراهيم: ١٨] وما كان كذلك فالعدم خير منه، فلا تكون المساجد عامرة إلا بالإيمان الذي معظمه التوحيد مع العمل الصالح الخالص من شوائب الشرك والبدع، وذلك كله داخل في مسمى الإيمان المطلق عند أهل السنة والجماعة.

قوله: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ قال ابن عطية: يريد خشية التعظيم والعبادة والطاعة، ولا محالة أن الإنسان يخشى المحاذير الدنيوية. وينبغي أن يخشى في ذلك كله قضاء الله وتصريفه.

وقال ابن القيم رحمه الله: الخوف عبودية القلب، فلا يصلح إلا لله، كالذل والإنابة والمحبة والتوكل والرجاء وغيرها من عبودية القلب.

قوله: ﴿فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾﴾ قال ابن أبي طلحة عن

ابن عباس رضي الله عنهما: «يقول: إن أولئك هم المهتدون، وكل ﴿عسى﴾ في القرآن فهي واجبة».

وفي الحديث: «**إذا رأيتم الرجل يعتاد المسجد فاشهدوا له بالإيمان، قال الله تعالى:** ﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾» رواه أحمد والترمذي والحاكم عن أبي سعيد الخدري.

وقوله: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ **الآية [العنكبوت: ١٠].**

قوله: «﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾».

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: يقول تعالى مخبراً عن صفات قوم من المكذبين الذين يدعون الإيمان بألسنتهم، ولم يثبت في قلوبهم: إنهم إذا جاءتهم محنة وفتنة في الدنيا اعتقدوا أنها من نقمة الله بهم، فارتدوا عن الإسلام. قال ابن عباس رضي الله عنهما: يعني فتنته أن يرتد عن دينه إذا أوذي في الله.

وقال ابن القيم رحمه الله تعالى: الناس إذا أرسل إليهم الرسل بين أمرين: إما أن يقول أحدهم: آمنا، وإما أن لا يقول ذلك. بل يستمر على السيئات والكفر، فمن قال: آمنا امتحنه ربه وابتلاه وفتنه. والفتنة: الابتلاء والاختبار، ليتبين الصادق من الكاذب، ومن لم يقل: آمنا. فلا يحسب أنه يعجز الله ويفوته ويسبقه.

فمن آمن بالرسل وأطاعهم عاداه أعداؤهم وآذوه وابتلي بما يؤلمه، ومن لم يؤمن بهم ولم يطعهم، عوقب في الدنيا والآخرة وحصل له ما يؤلمه، وكان هذا الألم أعظم وأدوم من ألم أتباعهم.

فلابد من حصول الألم لكل نفس آمنت أو رغبت عن الإيمان. لكن المؤمن يحصل له الألم في الدنيا ابتداءً ثم تكون له العاقبة في الدنيا والآخرة.

والمعرض عن الإيمان تحصل له اللذة ابتداءً، ثم يصير في الألم الدائم.

والإنسان لابد أن يعيش مع الناس، والناس لهم إرادات وتصورات، فيطلبون منه أن يوافقهم عليها، وإن لم يوافقهم آذوه وعذبوه، وإن وافقهم حصل له العذاب تارة منهم وتارة من غيرهم، كمن عنده دين وتُقىً حلّ بين قوم فجّار ظلمة لا يتمكنون من فجورهم وظلمهم إلا بموافقته لهم أو سكوته عنهم، فإن وافقهم أو سكت عنهم سلم من شرهم في الابتداء، ثم يتسلطون عليه بالإهانة والأذى أضعاف ما كان يخافه ابتداءً لو أنكر عليهم وخالفهم، وإن سلم منهم فلابد أن يهان ويعاقب على يد غيرهم.

فالحزم كل الحزم في الأخذ بما قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها لمعاوية رضي الله عنه «من أرضى الله بسخط الناس كفاه الله مؤونة الناس، ومن أرضى الناس بسخط الله لم يغنوا عنه من الله شيئاً».

فمن هداه الله وألهمه رشده، ووقاه شر نفسه، امتنع من الموافقة على فعل المحرم، وصبر على عداوتهم، ثم تكون له العاقبة في الدنيا والآخرة، كما كانت للرسل وأتباعهم.

ثم أخبر تعالى عن حال الداخل في الإيمان بلا بصيرة وأنه إذا أوذي في الله جعل فتنة الناس له،وهي أذاهم ونيلهم إياه بالمكروه، وهو الألم الذي لابد أن ينال الرسل وأتباعهم ممن خالفهم، جعل ذلك في فراره منه وتركه السبب الذي يناله به: كعذاب الله الذي فرّ منه المؤمنون

بالإيمان.

فالمؤمنون لكمال بصيرتهم فرُّوا من ألم عذاب الله إلى الإيمان، وتحملوا ما فيه من الألم الزائل المفارق عن قرب. وهذا لضعف بصيرته فرّ من ألم أعداء الرسل إلى موافقتهم ومتابعتهم، ففر من ألم عذابهم إلى ألمِ عذاب الله، فجعل ألم فتنة الناس في الفرار منه بمنزلة عذاب الله. وغُبن كل الغبن؛ إذ استجار من الرّمْضاء بالنار، وفر من ألم ساعة إلى ألم الأبد، وإذا نصر الله جنده وأولياءه قال: إني كنت معكم، والله أعلم بما انطوى عليه صدره من النفاق. انتهى.

وفي الآية: رد على المرجئة والكرّامية، ووجهه: أنه لم ينفع هؤلاء قولهم: آمنا بالله. مع عدم صبرهم على أذى من عاداهم في الله، فلا ينفع القول والتصديق بدون العمل. فلا يصدق الإيمان الشرعي على الإنسان إلا باجتماع الثلاثة: التصديق بالقلب وعمله، والقول باللسان، والعمل بالأركان. وهذا قول أهل السنة والجماعة سلفاً وخلفاً، والله سبحانه وتعالى أعلم.

وفيه الخوف من مداهنة الخلق في الحق، والمعصوم من عصمه الله تعالى.

وعن أبي سعيد رضي الله عنه مرفوعاً: «إن من ضعف اليقين: أن تُرضي الناس بسخط الله، وأن تحمدهم على رزق الله، وأن تَذُمَّهم على ما لم يؤتك الله، إن رزق الله لا يجُرُّه حرص حريص، ولا يرده كراهية كاره».

قوله: «عن أبي سعيد رضي الله عنه مرفوعاً: «**إن من ضعف اليقين: أن تُرضي الناس بسخط الله، وأن تحمدهم على رزق الله، وأن تَذُمَّهم**

على ما لم يؤتك الله، إن رزق الله لا يجُرُّه حرص حريص، ولا يرده كراهية كاره».

هذا الحديث رواه أبونعيم في «الحلية»، والبيهقي وأعله بمحمد بن مروان السدي وقال: ضعيف، وفيه أيضاً عطية العوفي، ذكره الذهبي في الضعفاء والمتروكين، ومعنى الحديث صحيح، وتمامه: «**وإن الله بحكمته جعل الروح والفرح في الرضى واليقين، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط**».

قوله: «**إن من ضعف اليقين**» الضعف يضم ويحرك، ضد القوة ضعف ككرم ونصر، ضعفاً، وضعفة، وضعافية، فهو ضعيف وضعوف وضعفان، والجمع: ضعاف وضعفاء وضعفة وضعفى وضعافى. أو الضعف ـ بالفتح ـ في الرأي، وبالضم في البدن، فهي ضعيفة وضعوف. و«اليقين» كمال الإيمان.

قال ابن مسعود: «اليقين الإيمان كله، والصبر نصف الإيمان» رواه أبونعيم في «الحلية»، والبيهقي في الزهد من حديثه مرفوعاً. قال: ويدخل في ذلك تحقيق الإيمان بالقدر السابق، كما في حديث ابن عباس مرفوعاً «**فإن استطعت أن تعمل بالرضى في اليقين فافعل، فإن لم تستطع، فإن في الصبر على ما تكره خيراً كثيراً**» وفي رواية «قلت: يارسول الله كيف أصنع باليقين؟ قال: **أن تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطئك لم يكن ليصيبك**».

قوله: «**أن ترضي الناس بسخط الله**» أي تؤثر رضاهم على رضى الله، وذلك إذا لم يقم بقلبه من إعظام الله وإجلاله وهيبته ما يمنعه من استجلاب رضى المخلوق بما يجلب له سخط خالقه وربه ومليكه، الذي يتصرف في القلوب ويفرج الكروب، ويغفر الذنوب، وبهذا

الاعتبار يدخل في نوع من الشرك؛ لأنه آثر رضى المخلوق على رضى الله. وتقرب إليه بما يسخط الله. ولا يسلم من هذا إلا من سلمه الله، ووفقه لمعرفته ومعرفة ما يجوز على الله من إثبات صفاته على ما يليق بجلاله، وتنزيهه تعالى عن كل ما ينافي كماله، ومعرفة توحيده في ربوبيته وإلهيته، وبالله التوفيق.

قوله: «وأن تحمدهم على رزق الله» أي على ما وصل إليك من أيديهم، بأن تضيفه إليهم وتحمدهم عليه، فإن المتفضل في الحقيقة هو الله وحده الذي قدره لك وأوصله إليك، وإذا أراد أمراً قيض له أسباباً. ولا ينافي هذا حديث «**من لايشكر الناس لايشكر الله**» لأن شكرهم إنما هو بالدعاء لهم، لكون الله ساقه على أيديهم، فتدعو لهم أو تكافئهم، لحديث «**من صنع إليكم معروفاً فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه**» فإضافة الصنيعة إليهم لكونهم صاروا سبباً في إيصال المعروف إليك، والذي قدره وساقه هوالله وحده.

قوله: «وأن تذمهم على ما لم يؤتك الله» لأنه لم يقدر لك ما طلبته على أيديهم. فلو قدره لساقته المقادير إليك، فمن علم أن المتفرد بالعطاء والمنع هو الله وحده، وأنه هو الذي يرزق العبد بسبب وبلا سبب، ومن حيث لا يحتسب، لم يمدح مخلوقاً على رزق، ولم يذمه على منع، ويفوض أمره إلى الله، ويعتمد عليه في أمر دينه ودنياه.

وقد قرر النبي هذا المعنى بقوله في الحديث: «**إن رزق الله لا يجره حرص حريص، ولايرده كراهية كاره**» كما قال تعالى: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ ﴾ [فاطر]

قال شيخ الإسلام رحمه الله: اليقين يتضمن اليقين في القيام بأمر الله وما وعد الله أهل طاعته، ويتضمن اليقين بقدر الله وخلقه وتدبيره، فإذا

أرضيتهم بسخط الله لم تكن موقناً لا بوعده ولا برزقه، فإنه إنما يحمل الإنسان على ذلك: إما ميل إلى ما في أيديهم فيترك القيام فيهم بأمر الله لما يرجوه منهم، وإما ضعف تصديقه بما وعد الله أهل طاعته من النصر والتأييد والثواب في الدنيا والآخرة. فإنك إذا أرضيت الله نصرك ورزقك وكفاك مؤونتهم. وإرضاؤهم بما يسخطه إنما يكون خوفاً منهم ورجاءً لهم، وذلك من ضعف اليقين. وإذا لم يقدر لك ما تظن أنهم يفعلونه معك، فالأمر في ذلك إلى الله لا لهم. فإنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، فإذا ذممتهم على ما لم يُقَدَّر كان ذلك من ضعف يقينك. فلا تخفهم ولا ترجهم ولا تذمهم من جهة نفسك وهواك، ولكن من حمده الله ورسوله منهم فهو المحمود، ومن ذمه الله ورسوله منهم فهو المذموم. ولما قال بعض وفد بني تميم «أي محمد أعطني. فإن حمدي زَيْن وذَمِّي شين، قال النبي ﷺ: ذاك الله».

ودل الحديث على أن الإيمان يزيد وينقص، وأن الأعمال من مسمى الإيمان.

وعن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال: «من التمس رضى الله بسخط الناس، رضي الله عنه وأرضى عنه الناس، ومن التمس رضى الناس بسخط الله، سخط الله عليه وأسخط عليه الناس» رواه ابن حبان في «صحيحه».

قوله: «وعن عائشة رضي الله عنها: أن رسول الله ﷺ قال: «من التمس رضى الله بسخط الناس، رضي الله عنه وأرضى عنه الناس، ومن التمس رضى الناس بسخط الله، سخط الله عليه وأسخط عليه الناس» رواه ابن

حبان في «صحيحه».

هذا الحديث رواه ابن حبان بهذا اللفظ، ورواه الترمذي عن رجل من أهل المدينة قال: «كتب معاوية رضي الله عنه إلى عائشة رضي الله عنها: أن اكتبي لي كتاباً توصيني فيه، ولا تكثري عليّ، فكتبت عائشة رضي الله عنها إلى معاوية: سلام عليك، أما بعد: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: من التمس رضى الله بسخط الناس كفاه الله مؤونة الناس، ومن التمس رضى الناس بسخط الله وكَلَه الله إلى الناس». والسلام عليك، ورواه أبونعيم في «الحلية».

قوله: «من التمس»: أي طلب.

قال شيخ الإسلام: وكتبت عائشة إلى معاوية، وروي أنها رفعته «**من أرضى الله بسخط الناس كفاه الله مؤونة الناس، ومن أرضى الناس بسخط الله لم يغنوا عنه من الله شيئاً**» هذا لفظ المرفوع. ولفظ الموقوف «من أرضى الله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضى عنه الناس، ومن أرضى الناس بسخط الله عاد حامده من الناس له ذاماً» وهذا من أعظم الفقه في الدين، فإن من أرضى الله بسخطهم كان قد اتقاه وكان عبده الصالح، والله يتولى الصالحين، والله كافٍ عبده ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢ ـ ٣] والله يكفيه مؤونة الناس بلا ريب.

وأما كون الناس كلهم يرضون عنه فقد لا يحصل ذلك. لكن يرضون عنه إذا سلموا من الأغراض، وإذا تبين لهم العاقبة. «**ومن أرضى الناس بسخط الله لم يغنوا عنه من الله شيئاً**» كالظالم الذي يعض على يديه. وأما كون حامده ينقلب ذاماً، فهذا يقع كثيراً، ويحصل في العاقبة. فإن العاقبة للتقوى لا تحصل ابتداءً عند أهوائهم. اهـ.

وقد أحسن من قال:

إذا صح منك الود يا غاية المنى فكل الذي فوق التراب تراب

قال ابن رجب رحمه الله: فمن تحقق أن كل مخلوق فوق التراب فهو تراب فكيف يقدم طاعة من هو تراب على طاعة رب الأرباب؟ أم كيف يرضي التراب بسخط الملك الوهاب؟ إن هذا لشيء عجاب.

وفي الحديث: عقوبة من خاف الناس وآثر رضاهم على الله، وأن العقوبة قد تكون في الدين. عياذاً بالله من ذلك. كما قال تعالى: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [التوبة: ٧٧].

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية آل عمران.

الثانية: تفسير آية براءة.

الثالثة: تفسير آية العنكبوت.

الرابعة: أن اليقين يضعف ويقوى.

الخامسة: علامة ضعفه. ومن ذلك هذه الثلاث.

السادسة: أن إخلاص الخوف لله من الفرائض.

السابعة: ذكر ثواب من فعله.

الثامنة: ذكر عقاب من تركه.

باب قول الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾

[المائدة: ٢٣]

قوله: «باب قول الله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾»[(١)].

قال أبوالسعادات: يقال: توكل بالأمر: إذا ضمن القيام به، ووكلت أمري إلى فلان: إذا اعتمدت عليه، ووكل فلان فلاناً: إذا استكفاه أمره ثقة بكفايته، أو عجزاً عن القيام بأمر نفسه اهـ.

وأراد المصنف رحمه الله بهذه الترجمة بالآية: بيان أن التوكل فريضة يجب إخلاصه لله تعالى، فإن تقديم المعمول يفيد الحصر: أي وعلى الله فتوكلوا لا على غيره، فهو من أجمع أنواع العبادة وأعظمها، لما ينشأ عنه من الأعمال الصالحة، فإنه إذا اعتمد على الله في جميع أموره الدينية والدنيوية، دون كل من سواه، صح إخلاصه ومعاملته مع الله تعالى، فهو من أعظم منازل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾﴾ فلا يحصل كمال التوحيد بأنواعه الثلاثة إلا بكمال التوكل على الله، كما في هذه الآية، وكما قال تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾ [يونس: ٨٤] وقوله: ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾ [المزمل: ٩] والآيات في الأمر به كثيرة جداً.

قال الإمام أحمد رحمه الله: «التوكل عمل القلب».

وقال ابن القيم في معنى الآية المترجم بها: فجعل التوكل على الله شرطاً في الإيمان، فدل على انتفاء الإيمان عند انتفائه، وفي الآية الأخرى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴿٨٤﴾﴾

---

(١) في المدارج (٢/ ١٢٣) كلام لابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ في التوكل الكامل المحمود بالمذموم الناقص.

[يونس: ٨٤] فجعل دليل صحة الإسلام التوكل، وكلما قوي إيمان العبد كان توكله أقوى، وإذا ضعف الإيمان ضعف التوكل، وإذا كان التوكل ضعيفاً كان دليلاً على ضعف الإيمان ولابد. والله تعالى يجمع بين التوكل والعبادة، وبين التوكل والإيمان، وبين التوكل والتقوى، وبين التوكل والإسلام، وبين التوكل والهداية.

فظهر أن التوكل أصل لجميع مقامات الإيمان والإحسان، ولجميع أعمال الإسلام، وأن منزلته منها كمنزلة الرأس من الجسد، فكما لا يقوم الرأس إلا على البدن، فكذلك لا يقوم الإيمان ومقاماته وأعماله إلا على ساق التوكل.

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: وما رجا أحد مخلوقاً ولا توكل عليه إلا خاب ظنه فيه، فإنه مشرك: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾ [الحج: ٣١].

قال الشارح رحمه الله تعالى: قلت: لكن التوكل على الله قسمان:

أحدهما: التوكل في الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله، كالذين يتوكلون على الأموات والطواغيت في رجاء مطالبهم من نصر أو حفظ أو رزق أو شفاعة، فهذا شرك أكبر.

الثاني: التوكل في الأسباب الظاهرة، كمن يتوكل على أمير أو سلطان فيما أقدره الله تعالى عليه: من رزق، أو دفع أذى ونحو ذلك، فهو نوع شرك أصغر. والوكالة الجائزة: هي توكيل الإنسان في فعل ما يقدر عليه نيابة عنه، لكن ليس له أن يعتمد عليه في حصول ما وُكل فيه، بل يتوكل على الله في تيسير أمره الذي يطلبه بنفسه أو نائبه، وذلك من جملة الأسباب التي يجوز فعلها، ولا يعتمد عليها، بل يعتمد على المسبِّب الذي أوجد السبب والمسبَّب.

وقوله: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ﴾ [الأنفال: ٢].

قال: «وقول الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ **الآيات** [الأنفال: ٢].

قال ابن عباس في الآية: «المنافقون لا يدخل في قلوبهم شيء من ذكر الله عند أداء فرائضه، ولا يؤمنون بشيء من آيات الله، ولا يتوكلون على الله، ولا يصلون إذا غابوا، ولا يؤدون زكاة أموالهم، فأخبر الله أنهم ليسوا بمؤمنين، ثم وصف المؤمنين فقال: ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ «فأدوا فرائضه» رواه ابن جرير وابن أبي حاتم. ووجل القلب من الله يستلزم القيام بفعل ما أمر به وترك ما نهى عنه.

قال السدي: ﴿ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾. هو الرجل يريد أن يظلم، أو قال: يهم بمعصية، فيقال له: اتق الله، فيجل قلبه» رواه ابن أبي شيبة وابن جرير.

قوله: ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا ﴾ استدل الصحابة رضي الله عنهم والتابعون ومن تبعهم من أهل السنة بهذه الآية ونظائرها على زيادة الإيمان ونقصانه.

قال عمير بن حبيب الصحابي «إن الإيمان يزيدوينقص، فقيل له: وما زيادته ونقصانه؟ قال: إذا ذكرنا الله وخشيناه، فذلك زيادته، وإذا غفلنا ونسينا وضيعنا، فذلك نقصانه» رواه ابن سعد. وقال مجاهد: الإيمان يزيد وينقص، وهو قول وعمل. رواه ابن أبي حاتم. وحكى الإجماع على ذلك الشافعي وأحمد وأبوعبيد وغيرهم رحمهم الله تعالى.

قوله: ﴿ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ﴾ أي يعتمدون عليه بقلوبهم، مفوضين إليه

أمورهم، فلا يرجون سواه، ولا يقصدون إلا إياه، ولا يرغبون إلا إليه، ويعلمون أن ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه المتصرف في الملك وحده، والمعبود وحده لا شريك له.

وفي الآية: وصف المؤمنين حقاً بثلاث مقامات من مقامات الإحسان، وهي: الخوف، وزيادة الإيمان، والتوكل على الله وحده، وهذه المقامات تقتضي كمال الإيمان، وحصول أعماله الباطنة والظاهرة، مثال ذلك: الصلاة، فمن أقام الصلاة وحافظ عليها، وأدى الزكاة كما أمره الله، استلزم ذلك العمل بما يقدر عليه من الواجبات، وترك جميع المحرمات، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأنفال: ٦٤].

قال: «وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾».

قال ابن القيم رحمه الله: أي: الله وحده كافيك وكافي أتباعك، فلا تحتاجون معه إلى أحد، وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.

وقيل: المعنى: حسبك الله وحسبك المؤمنون.

قال ابن القيم رحمه الله: وهذا خطأ محض لا يجوز حمل الآية عليه؛ فإن الحسب والكفاية لله وحده، كالتوكل والتقوى والعبادة، قال الله تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾ [الأنفال: ٦٢] ففرق بين الحسب والتأييد، فجعل الحسب له وحده، وجعل التأييد له بنصره وبعباده، وأثنى على أهل التوحيد من عباده حيث أفردوه بالحسب، فقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ

ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [آل عمران: ١٧٣] ولم يقولوا: حسبنا الله ورسوله ونظير هذا قوله سبحانه: ﴿ وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [التوبة: ٥٩].

فتأمل كيف جعل الإيتاء لله والرسول، وجعل الحسب له وحده، فلم يقل: وقالوا حسبنا الله ورسوله، بل جعله خالص حقه، كما قال: ﴿ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ فجعل الرغبة إليه وحده، كما قال تعالى: ﴿ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾ ﴾ [الإنشراح: ٨] فالرغبة والتوكل الإنابة والحسب لله وحده، كما أن العبادة والتقوى والسجود والنذر والحلف لا يكون إلا له سبحانه وتعالى. انتهى.

وبهذا يتبين مطابقة الآية للترجمة، فإذا كان هو الكافي لعبده، وجب ألا يتوكل إلا عليه، ومتى التفت بقلبه إلى سواه وكله الله إلى من التفت إليه، كما في الحديث. «من تعلق شيئاً وكل إليه».

وقوله: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ [الطلاق: ٣].

قال: «**وقول الله تعالى: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾**».

قال ابن القيم: رحمه الله وغيره: أي كافيه: ومن كان الله كافيه وواقيه فلا مطمع فيه لعدوه، ولا يضره إلا أذى لابد منه، كالحر والبرد والجوع والعطش، وأما أن يضره بما يبلغ به مراده منه، فلا يكون أبداً، وفرق بين الأذى الذي هو في الظاهر إيذاء، وفي الحقيقة إحسان وإضرار بنفسه، وبين الضرر الذي يتشفى به منه.

قال بعض السلف: جعل الله لكل عمل جزاءً من نفسه، وجعل جزاء التوكل عليه نفس كفايته، فقال: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ فلم

يقل: فله كذا وكذا من الأجر، كما قال في الأعمال، بل جعل نفسه سبحانه كافي عبده المتوكل عليه وحسبه وواقيه، فلو توكل العبد على الله حق توكله، وكادته السموات والأرض ومن فيهن، لجعل الله له مخرجاً، وكفاه رزقه ونصره. انتهى.

وفي أثر رواه أحمد في «الزهد» عن وهب بن منبه قال: «قال الله عزوجل في بعض كتبه: بعزتي، إنه من اعتصم بي فكادته السموات بمن فيهن والأرضون بمن فيهن، فإني أجعل له من ذلك مخرجاً، ومن لم يعتصم بي، فإني أقطع يديه من أسباب السماء، وأخسف من تحت قدميه الأرض، فأجعله في الهواء، ثم أكله إلى نفسه، كفى بي لعبدي مآلاً، إذا كان عبدي في طاعتي أعطيه قبل أن يسألني، وأستجيب له قبل أن يدعوني، فأنا أعلم بحاجته التي ترفق به منه».

وفي الآية: دليل على فضل التوكل، وأنه أعظم الأسباب في جلب المنافع ودفع المضار، لأن الله تعالى علق الجملة الأخيرة على الأولى تعليق الجزاء على الشرط، فيمتنع أن يكون وجود الشرط كعدمه، لأن الله تعالى رتب الحكم على الوصف المناسب له، فعلم أن توكله هو سبب كون الله حسباً له.

وفيها تنبيه على القيام بالأسباب مع التوكل، لأنه تعالى ذكر التقوى، ثم ذكر التوكل كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾﴾ [المائدة: ١١] فجعل التوكل مع التقوى الذي هو قيام بالأسباب المأمور بها، فالتوكل بدون القيام بالأسباب المأمور بها عجز محض، وإن كان مشوباً بنوع من التوكل، فلا ينبغي للعبد أن يجعل توكله عجزاً، ولا عجزه توكلاً، بل يجعل توكله من جملة الأسباب التي لا يتم المقصود إلا بها كلها. ذكره ابن القيم بمعناه.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ﴿ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ ﴾ قالها إبراهيم ﷺ حين أُلْقِيَ في النار، وقالها محمدٌ ﷺ حين قالوا له: ﴿ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴾ [آل عمران: ١٧٣]» رواه البخاري والنسائي.

قال: وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ﴿ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ ﴾ قالها إبراهيم ﷺ حين أُلْقِيَ في النار، وقالها محمدٌ ﷺ حين قالوا له: ﴿ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ ﴾ [آل عمران: ١٧٣]» رواه البخاري والنسائي.

قوله: ﴿ حَسْبُنَا ٱللَّهُ ﴾ أي كافينا، فلا نتكل إلاّ عليه، قال تعالى: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾ [الزمر: ٣٦].

قوله: ﴿ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ ﴾ أي نعم الموكول إليه، كما قال تعالى: ﴿ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾ ﴾ [الحج: ٧٨] ومخصوص «نعم» محذوف تقديره «هو».

قال ابن القيم رحمه الله: هو حسب من توكل عليه وكافي من لجأ إليه، وهو الذي يُؤَمّن خوف الخائف، ويجير المستجير، فمن تولاه واستنصر به وتوكل عليه، وانقطع بكليته إليه، تولاه وحفظه وحرسه وصانه. ومن خافه واتقاه، أمَّنه مما يخاف ويحذر، ويجلب إليه ما يحتاج إليه من المنافع.

قوله: «قالها إبراهيم ﷺ حين أُلقي في النار» قال تعالى: ﴿ قَالُواْ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾

﴿وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأنبياء: ٦٨ ـ ٧٠].

قوله: «وقالها محمد ﷺ حين قالوا له: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾» وذلك بعد منصرف قريش والأحزاب من أُحد «بلغه أن أبا سفيان ومن معه قد أجمعوا الكَرَّة عليهم، فخرج النبي ﷺ في سبعين راكباً حتى انتهى إلى حمراء الأسد، فألقى الله الرعب في قلب أبي سفيان. فرجع إلى مكة بمن معه، ومر به ركب من عبد القيس، فقال: أين تريدون؟ قالوا: نريد المدينة. قال: فهل أنتم مبلغون محمداً عني رسالة؟ قالوا: نعم. قال: فإذا وافيتموه فأخبروه أنا قد أجمعنا السير إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم. فمر الركب برسول الله ﷺ وهو بحمراء الأسد، فأخبروه بالذي قال أبوسفيان. فقال: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ ففي هاتين القصتين فضل هذه الكلمة العظيمة، وأنها قول الخليلين عليهما الصلاة والسلام في الشدائد.

وجاء في الحديث: «**إذا وقعتم في الأمر العظيم فقولوا:** ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾».

فيـه مسـائل:

الأولـى: أن التوكل من الفرائض.

الثانيـة: أنه من شروط الإيمان.

الثالثـة: تفسير آية الأنفال.

الرابعـة: تفسير الآية في آخرها.

الخامسة: تفسير آية الطلاق.

السادسة: عظم شأن هذه الكلمة وأنها قول إبراهيم عليه السلام ومحمد ﷺ في الشدائد.

باب قول الله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف: ٩٩]

قوله: باب قول الله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾».

قصد المصنف رحمه الله بهذه الآية التنبيه على أن الأمن من مكر الله من أعظم الذنوب، وأنه ينافي كمال التوحيد، كما أن القنوط من رحمة الله كذلك، وذلك يرشد إلى أن المؤمن يسير إلى الله بين الخوف والرجاء. كما دل على ذلك الكتاب والسنة، وأرشد إليه سلف الأمة والأئمة.

ومعنى الآية: أن الله تبارك وتعالى لما ذكر حال أهل القرى المكذبين للرسل بيَّن أن الذي حملهم على ذلك هو الأمن من مكر الله وعدم الخوف منه. كما قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف: ٩٧ ـ ٩٩] أي الهالكون. وذلك أنهم أمنوا مكر الله لما استدرجهم بالسراء والنِّعم، فاستبعدوا أن يكون ذلك مكراً.

قال الحسن رحمه الله: «من وسَّع الله عليه فلم ير أنه يمكر به فلا رأي له».

وقال قتادة: «بَغتَ القومَ أمرُ الله، وما أخذ الله قوماً قط إلا عند سَلْوتهم ونعمتهم وغِرَّتهم فلا تغتروا بالله».

وفي الحديث: «**إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما**

يحب، **فإنما هو استدراج**» رواه أحمد وابن جرير وابن أبي حاتم.

وقال إسماعيل بن رافع: من الأمن من مكر الله: إقامة العبد على الذنب، يتمنى على الله المغفرة. رواه ابن أبي حاتم.

وهذا هو تفسير المكر في قول بعض السلف: «يستدرجهم الله بالنعم إذا عصوه، ويملي لهم، ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر. وهذا هو معنى المكر والخديعة ونحو ذلك. ذكره ابن جرير بمعناه.

وقوله: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ۝٥٦﴾ [الحجر: ٥٦].

قال: «وقول الله تعالى: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾»[1].

القنوط: استبعاد الفرج واليأس منه. وهو يقابل الأمن من مكر الله. وكلاهما ذنب عظيم. وتقدم ما فيه لمنافاته لكمال التوحيد.

وذكر المصنف رحمه الله تعالى هذه الآية مع التي قبلها؛ تنبيهاً على أنه لا يجوز لمن خاف الله أن يقنط من رحمته بل يكون خائفاً راجياً، يخاف ذنوبه، ويعمل بطاعته، ويرجو رحمته، كما قال تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٩].

وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٢١٨﴾ [البقرة: ٢١٨].

---

(١) كلام لابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ في المدارج (٣/ ١٠٧) من أن الفرح من أسباب المكر ما لم يقارنه خوف. اهـ.

ومما يدل على أن الفرح من أسباب المكر، ما لم يقارنه خوف قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ۝٤٤﴾ وقال الله عن قوم قارون: ﴿لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ۝٧٦﴾ فالفرح متى كان بالله وبما منَّ الله مقارناً للخوف والحذر لم يضر صاحبه، ومتى خلا عن ذلك أضره ولابد.

فالرجاء مع المعصية وترك الطاعة غرور من الشيطان؛ ليوقع العبد في المخاوف مع ترك الأسباب المنجية من المهالك، بخلاف حال أهل الإيمان الذين أخذوا بأسباب النجاة خوفاً من الله تعالى، وهرباً من عقابه، وطمعاً في المغفرة، ورجاءً لثوابه.

والمعنى: أن الله تعالى حكى قول خليله إبراهيم عليه السلام، لما بشَّرته الملائكة بابنه إسحاق: ﴿قَالَ أَبَشَّرۡتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلۡكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ۝٥٤﴾ [الحجر: ٥٤] لأن العادة أن الرجل إذا كبر سنه وسن زوجته استبعد أن يولد له منها. والله على كل شيء قدير، فقالت الملائكة: ﴿بَشَّرۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ﴾ الذي لا ريب فيه؛ فإن الله إذا أراد شيئاً إنما يقول له كن فيكون ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡقَٰنِطِينَ ۝٥٥﴾ أي من الآيسين، فقال عليه السلام: ﴿وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ۝٥٦﴾ فإنه يعلم من قدرة الله ورحمته ما هو أبلغ من ذلك وأعظم؛ لكنه ـ والله أعلم ـ قال ذلك على وجه التعجب.

﴿إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ۝٥٦﴾ قال بعضهم: إلا المخطئون بطريق الصواب، أو إلا الكافرون كقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ۝٨٧﴾ [يوسف: ٨٧].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن رسول الله ﷺ سئل عن الكبائر؟ فقال: الشرك بالله، واليأسُ من روح الله، والأمن من مكر الله».

قوله: «وعن ابن عباس رضي الله عنهما «أن رسول الله ﷺ سئل عن الكبائر؟ فقال: الشرك بالله، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله».

هذا الحديث رواه البزار وابن أبي حاتم من طريق شبيب بن بشر، عن عكرمة، عن ابن عباس. ورجاله ثقات إلا شبيب بن بشر. فقال ابن معين: ثقة. ولَيَّنَه أبوحاتم. وقال ابن كثير: في إسناده نظر، والأشبه أن يكون موقوفاً.

قوله: «**الشرك بالله**» هو أكبر الكبائر. قال ابن القيم رحمه الله: **الشرك** بالله هضم للربوبية، وتنقص للإلـٰهية، وسوء ظن برب العالمين. انتهى.

ولقد صدق ونصح قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ ۝١﴾ [الأنعام: ١] وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٌ ۝١٣﴾ [لقمان: ١٣] ولهذا لا يغفره الله إلا بالتوبة منه.

قوله: «**واليأس من روح الله**» أي قطع الرجاء والأمل من الله فيما يخافه ويرجوه، وذلك إساءة ظن بالله، وجهل به وبسعة رحمته وجوده ومغفرته.

قوله: «**والأمن من مكر الله**» أي من استدراجه للعبد، وسلبه ما أعطاه من الإيمان، نعوذ بالله من ذلك. وذلك جهل بالله وبقدرته، وثقة بالنفس وعجب بها.

واعلم أن هذا الحديث لم يُرد به حَصْرَ الكبائر في الثلاث، بل الكبائر كثيرة وهذه الثلاث من أكبر الكبائر المذكورة في الكتاب والسنة، وضابطها: ما قاله المحققون من العلماء: كل ذنب ختمه الله بنار أو لعنة أو غضب أو عذاب. زاد شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: أو نفي الإيمان.

قلت: ومن برىء منه رسول الله ﷺ، أو قال: «**ليس منا من فعل كذا وكذا**».

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: «هي إلى سبعمائة أقرب منها إلى

سبع، غير أنه لا كبيرة مع الاستغفار، ولا صغيرة مع الإصرار».

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «أكبر الكبائر: الإشراك بالله، والأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله» رواه عبدالرزاق.

قوله: «وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «أكبر الكبائر: الإشراك بالله، والأمن من مكر الله والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله» رواه عبدالرزاق.»

ورواه ابن جرير بأسانيد صحاح عن ابن مسعود رضي الله عنه.

قوله: «أكبر الكبائر: الإشراك بالله» أي في ربوبيته أو عبادته. وهذا بالإجماع.

قوله: «والقنوط من رحمة الله» قال أبوالسعادات: هو أشد اليأس.

وفيه: التنبيه على الرجاء والخوف، فإذا خاف فلا يقنط ولا ييأس، بل يرجو رحمة الله وكان السلف يستحبون أن يقوى في الصحة الخوف، وفي المرض الرجاء، وهذه طريقة أبي سليمان الداراني وغيره. قال: وينبغي للقلب أن يكون الغالب عليه الخوف، فإذا غلب الرجاء الخوف فسد القلب.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ ﴾ [الملك: ١٢] وقال: ﴿ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ ﴿٣٧﴾ ﴾ [النور: ٣٧] وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَـٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [المؤمنون: ٦٠ ـ ٦١] وقال تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ

رَبِّهِۦ﴾ الآية [الزمر: ٩] قدم الحذر على الرجاء في هذه الآية.

فيـه مسـائل:

الأولـى: تفسير آية الأعراف.

الثانيـة: تفسير آية الحجر.

الثالثـة: شدة الوعيد فيمن أمن مكر الله.

الرابعـة: شدة الوعيد في القنوط.

باب من الإيمان بالله: الصبر على أقدار الله

قوله: «باب من الإيمان بالله: الصبر على أقدار الله».

قال الإمام أحمد: ذكر الله تعالى الصبر في تسعين موضعاً من كتابه. وفي الحديث الصحيح «الصبر ضياء» رواه أحمد ومسلم.

وللبخاري ومسلم مرفوعاً «**ما أُعْطِيَ أحد عطاءً خيراً وأوسع من الصبر**».

قال عمر رضي الله عنه: «وجدنا خير عيشنا بالصبر» رواه البخاري.

قال علي رضي الله عنه: «إن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد - ثم رفع صوته - فقال: ألا إنه لا إيمان لمن لا صبر له».

واشتقاقه: من صبر: إذا حبس ومنع. والصبر حبس النفس عن الجزع، وحبس اللسان عن التشكي والتسخط، والجوارح عن لطم الخدود وشق الجيوب، ونحوهما. ذكره ابن القيم رحمه الله.

واعلم أن الصبر ثلاثة أقسام: صبر على ما أمر الله به، وصبر عما نهى عنه، وصبر على ما قدره من المصائب.

وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾﴾ [التغابن: ١١].

قوله: «وقول الله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾».

وأول الآية: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي بمشيئته وإرادته وحكمته، كما قال في الآية الأخرى: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾﴾

[الحديد: ٢٢] وقال: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٧].

قوله: ﴿ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ ﴾ قال ابن عباس في قوله: ﴿ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ ﴾ «إلا بأمر الله» يعني عن قدره ومشيئته ﴿ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ ﴾ أي من أصابته مصيبة فعلم أنها بقدر الله فصبر واحتسب واستسلم لقضاء الله هدى الله قلبه وعوضه عما فاته من الدنيا هدى في قلبه، ويقيناً صادقاً. وقد يخلف عليه ما كان أخذ منه.

قوله: ﴿ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿١١﴾﴾ تنبيه على أن ذلك إنما يصدر عن علمه المتضمن لحكمته. وذلك يوجب الصبر والرضا.

قال علقمة: «هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله، فيرضى ويسلم».

قوله: قال علقمة: «هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله، فيرضى ويسلم». هذا الأثر رواه ابن جرير وابن أبي حاتم.

وعلقمة: هو ابن قيس بن عبدالله النخعي الكوفي ولد في حياة النبي ﷺ، وسمع من أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وسعد وابن مسعود وعائشة وغيرهم رضي الله عنهم، وهو من كبار التابعين وأجلائهم وعلمائهم وثقاتهم. مات بعد الستين.

قوله: «هو الرجل تصيبه المصيبة... إلخ» هذا الأثر رواه الأعمش عن أبي ظبيان. قال: «كنا عند علقمة فقرىء عليه هذه الآية: ﴿ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ ﴾ قال: هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم» هذا سياق ابن جرير.

وفي هذا دليل على أن الأعمال من مسمى الإيمان.

قال سعيد بن جبير ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ يعني يسترجع، يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون. وفي الآية: بيان أن الصبر سبب لهداية القلوب، وأنها من ثواب الصابرين.

وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «اثنتان في الناس هُما بهم كفرٌ: الطعنُ في النَّسبِ، والنِّياحة على الميت».

قوله: «وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «اثنتان في الناس هما بهم كفر: الطعن في النسب، والنياحة على الميت».

أي: هما بالناس كفر حيث كانتا من أعمال الجاهلية، وهما قائمتان بالناس ولا يسلم منهما إلا من سلمه الله تعالى، ورزقه علماً وإيماناً يستضيء به. ولكن ليس من قام به شعبة من شعب الكفر يصير كافراً الكفر المطلق. كما أنه ليس من قام به شعبة من شعب الإيمان يصير مؤمناً الإيمان المطلق.

وفرق بين الكفر المعرف باللام كما في قوله: «**ليس بين العبد وبين الكفر أو الشرك إلا ترك الصلاة**» وبين كفر منكر في الإثبات.

قوله: «الطعن في النسب» أي عيبه، يدخل فيه أن يقال: هذا ليس ابن فلان مع ثبوت نسبه.

قوله: «والنياحة على الميت» أي رفع الصوت بالندب، وتعداد فضائل الميت؛ لما فيه من التسخط على القدر المنافي للصبر، كقول النائحة: واعضداه، واناصراه، ونحو ذلك.

وفيه: دليل على أن الصبر واجب، وأن من الكفر ما لا ينقل عن الملة.

ولهما عن ابن مسعود مرفوعاً: «ليس منا من ضرب الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية».

قوله: «ولهما عن ابن مسعود مرفوعاً «ليس منا من ضرب الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية.

هذا من نصوص الوعيد. وقد جاء عن سفيان الثوري وأحمد كراهية تأويلها؛ ليكون أوقع في النفوس؛ وأبلغ في الزجر، وهو يدل على أن ذلك ينافي كمال الإيمان الواجب.

قوله: «من ضرب الخدود» وقال الحافظ: خص الخد لكونه الغالب، وإلا فضرب بقية الوجه مثله.

قوله: «وشق الجيوب» هو الذي يدخل فيه الرأس من الثوب، وذلك من عادة أهل الجاهلية حزناً على الميت.

قوله: «ودعا بدعوى الجاهلية» قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: هو ندب الميت: وقال غيره: هو الدعاء بالويل والثبور. وقال ابن القيم رحمه الله: الدعاء بدعوى الجاهلية، كالدعاء إلى القبائل والعصبية، ومثله التعصب إلى المذاهب والطوائف والمشايخ، وتفضيل بعضهم على بعض، يدعو إلى ذلك، ويوالي عليه ويعادي. فكل هذا من دعوى الجاهلية.

وعند ابن ماجه وصححه ابن حبان عن أبي أمامة **«أن رسول الله ﷺ لعن الخامشة وجهها، والشاقة جيبها، والداعية بالويل والثبور»**.

وهذا يدل على أن هذه الأمور من الكبائر، وقد يعفى عن الشيء

اليسير من ذلك إذا كان صدقاً، وليس على وجه النوح والتسخط. نص عليه أحمد رحمه الله «لما وقع لأبي بكر وفاطمة رضي الله عنهما لما توفي رسول الله ﷺ».

وليس في هذه الأحاديث ما يدل على النهي عن البكاء؛ لما في «الصحيح»: أن رسول الله ﷺ لما مات ابنه إبراهيم قال: «**تدمع العين ويحزن القلب، ولا نقول إلا ما يرضي الرب، وإنا بك ياإبراهيم لمحزونون**».

وفي «الصحيحين» عن أسامة بن زيد رضي الله عنه «أن رسول الله ﷺ انطلق إلى إحدى بناته ولها صبي في الموت، فرُفع إليه ونفسه تَقَعْقَع كأنها شَنّ، ففاضت عيناه، فقال سعد: ما هذا يارسول الله؟ قال: **هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء**».

وعن أنس رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافي به يوم القيامة».

قوله: «وعن أنس رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافي به يوم القيامة».

هذا الحديث رواه الترمذي والحاكم. وحسنه الترمذي، وأخرجه الطبراني والحاكم عن عبدالله بن مغفل. وأخرجه ابن عدي عن أبي هريرة، والطبراني عن عمار بن ياسر.

قوله: «إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا» أي يصب عليه

البلاء والمصائب لما فرط من الذنوب منه، فيخرج منها وليس عليه ذنب يوافي به يوم القيامة.

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: المصائب نعمة؛ لأنها مكفرات للذنوب، وتدعو إلى الصبر فيثاب عليها. وتقتضي الإنابة إلى الله والذل له، والإعراض عن الخلق، إلى غير ذلك من المصالح العظيمة. فنفس البلاء يكفر الله به الذنوب والخطايا. وهذا من أعظم النعم. فالمصائب رحمة ونعمة في حق عموم الخلق، إلا أن يدخل صاحبها بسببها في معاصي أعظم مما كان قبل ذلك، فيكون شراً عليه من جهة ما أصابه في دينه، فإن من الناس من إذا ابتلي بفقر أو مرض أو وجع حصل له من النفاق والجزع ومرض القلب والكفر الظاهر وترك بعض الواجبات وفعل بعض المحرمات ما يوجب له الضرر في دينه، فهذا كانت العافية خيراً له من جهة ما أورثته المصيبة، لا من جهة نفس المصيبة، كما أن من أوجبت له المصيبة صبراً وطاعة، كانت في حقه نعمة دينية، فهي بعينها فعل الرب عزوجل ورحمة للخلق، والله تعالى محمود عليها.

فمن ابتلي فرزق الصبر، كان الصبر عليه نعمة في دينه، وحصل له بعدما كفر من خطاياه رحمة، وحصل له بثنائه علي ربه صلاة ربه عليه، قال تعالى: ﴿أُوْلَتَبِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ وحصل له غفران السيئات ورفع الدرجات. فمن قام بالصبر الواجب حصل له ذلك. انتهى ملخصاً.

قوله: «وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه بذنبه» أي أخر عنه العقوبة بذنبه **«حتى يوافي به يوم القيامة»** وهو بضم الياء وكسر الفاء منصوباً بحتى مبنياً للفاعل.

قال العزيزي: أي لا يجازيه بذنبه في الدنيا حتى يجيء في الآخرة

مستوفر الذنوب وافيها، فيستوفي ما يستحقه من العقاب. وهذه الجملة هي آخر الحديث.

فأما قوله: وقال النبي ﷺ: **«إن عظم الجزاء مع عظم البلاء»** إلى آخره، فهو أول حديث آخر، لكن لما رواهما الترمذي بإسناد واحد وصحابي واحد جعلهما المصنف كالحديث الواحد.

وفيه: التنبيه على حسن الرجاء وحسن الظن بالله فيما يقضيه لك، كما قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢١٦﴾ [البقرة: ٢١٦].

وقال ﷺ: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله تعالى إذا أحب قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط» حسنه الترمذي.

قوله: «وقال النبي ﷺ: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء. وإن الله تعالى إذا أحب قوماً ابتلاهم. فمن رضي فله الرضىٰ، ومن سخط فله السخط» حسنه الترمذي».

قال الترمذي: حدثنا قتيبة، حدثنا الليث، عن يزيد بن أبي حبيب، عن سعد ابن سنان، عن أنس، فذكر الحديث السابق، ثم قال: وبهذا الإسناد عن النبي ﷺ أنه قال: **«إن عظم الجزاء...** الحديث. ثم قال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه. ورواه ابن ماجه.

وروى الإمام أحمد عن محمود بن لبيد رفعه **«إذا أحب الله قوماً ابتلاهم، فمن صبر فله الصبر، ومن جزع فله الجزع»** قال المنذري: رواته ثقات.

قوله: «إن عظم الجزاء» بكسر العين وفتح الظاء فيها. ويجوز ضمها مع

سكون الظاء. أي: من كان ابتلاؤه أعظم كمية وكيفية.

وقد يحتج بهذا الحديث من يقول: إن المصائب يثاب عليها مع تكفير الخطايا. ورجح ابن القيم أن ثوابها تكفير الخطايا فقط، إلا إذا كانت سبباً لعمل صالح، كالصبر والرضا والتوبة والاستغفار، فإنه حينئذٍ يثاب على ما تولد منها، وعلى هذا يقال في معنى الحديث: إن عظم الجزاء مع عظم البلاء إذا صبر واحتسب.

قوله: «**وإن الله تعالى إذا أحب قوماً ابتلاهم**» ولهذا ورد في حديث سعد «سئل النبي ﷺ: أي الناس أشد بلاءً؟ قال: **الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل؛ يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلي على قدر دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة**» رواه الدارمي وابن ماجه والترمذي وصححه.

وهذا الحديث ونحوه من أدلة التوحيد، فإذا عرف العبد أن الأنبياء والأولياء يصيبهم البلاء في أنفسهم الذي هو في الحقيقة رحمة، ولا يدفعه عنهم إلا الله، عرف أنهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا دفعاً، فلأن لا يملكوه لغيرهم أولى وأحرى، فيحرم قصدهم والرغبة إليهم في قضاء حاجة أو تفريج كربة. وفي وقوع الابتلاء بالأنبياء والصالحين من الأسرار والحكم والمصالح وحسن العاقبة ما لا يحصى.

قوله: «**فمن رضي فله الرضا**» أي من الله تعالى. والرضا قد وصف الله تعالى به نفسه في مواضع من كتابه، كقوله تعالى: ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [البينة: ٨].

ومذهب السلف وأتباعهم من أهل السنة: إثبات الصفات التي وصف

الله بها نفسه، ووصفه بها رسول الله ﷺ على ما يليق بجلاله وعظمته، إثباتاً بلا تمثيل، وتنزيهاً بلا تعطيل. فإذا رضي الله تعالى عنه حصل له كل خير، وسلم من كل شر، والرضا: هو أن يسلم العبد أمره إلى الله، ويحسن الظن به، ويرغب في ثوابه. وقد يجد لذلك راحة وانبساطاً؛ محبة لله وثقة به، كما قال ابن مسعود رضي الله عنه: إن الله بقسطه وعدله جعل الروح والفرح في اليقين والرضا، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط.

قوله: «**ومن سخط**» وهو بكسر الخاء. قال أبوالسعادات: السخط: الكراهية للشيء وعدم الرضا به. أي من سخط على الله فيما دبره فله السخط، أي من الله، وكفى بذلك عقوبة. وقد يستدل به على وجوب الرضا، وهو اختيار ابن عقيل. واختار القاضي عدم الوجوب، ورجحه شيخ الإسلام وابن القيم.

قال شيخ الإسلام: ولم يجيء الأمر به كما جاء الأمر بالصبر. وإنما جاء الثناء على أصحابه. قال: وأما ما يروى «من لم يصبر على بلائي ولم يرض بقضائي فليتخذ رباً سوائي» فهذا إسرائيلي، لم يصح عن النبي ﷺ.

قال شيخ الإسلام: وأعلى من ذلك ـ أي من الرضا ـ أن يشكر الله على المصيبة لما يرى من إنعام الله عليه بها. اهـ. والله أعلم.

فيــه مســائل:

الأولــى: تفسير آية التغابن.

الثانيــة: أن هذا من الإيمان بالله.

الثالثــة: الطعن في النسب.

الرابعــة: شدة الوعيد فيمن ضرب الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية.

الخامسة: علامة إرادة الله بعبده الخير.

السادسة: إرادة الله به الشر.

السابعة: علامة حب الله للعبد.

الثامنــة: تحريم السخط.

التاسعة: ثواب الرضا بالبلاء.

باب ما جاء في الرياء

قوله: «باب ما جاء في الرياء» .

أي: من النهي والتحذير. قال الحافظ: هو مشتق من الرؤية والمراد به: إظهار العبادة لقصد رؤية الناس لها فيحمدون صاحبها. والفرق بينه وبين السمعة: أن الرياء لما يرى من العمل كالصلاة. والسمعة لما يسمع كالقراءة والوعظ والذكر. ويدخل في ذلك التحدث بما عمله.

وقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠].

قوله: «وقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾» أي: ليس لي من الربوبية ولا من الإلـٰهية شيء، بل ذلك كله لله وحده لا شريك له، أوحاه إليَّ ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ أي: يخافه: ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴿١١٠﴾﴾ .

قوله: ﴿أَحَدًا﴾ نكرة في سياق النهي تعم، وهذا العموم يتناول الأنبياء والملائكة والصالحين والأولياء وغيرهم.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: أما اللقاء: فقد فسره طائفة من السلف والخلف بما يتضمن المعاينة، وقالوا: لقاء الله يتضمن رؤيته سبحانه وتعالى يوم القيامة، وذكر الأدلة على ذلك.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى في الآية: أي كما أن الله واحد لا إله سواه، فكذلك ينبغي أن تكون العبادة له وحده لا شريك له، فكما تفرد

بالإلـٰهية يجب أن يفرد بالعبودية، فالعمل الصالح: هو الخالص من الرياء المقيد بالسنة.

وفي الآية دليل على أن أصل الدين الذي بعث الله به رسوله ﷺ والمرسلين قبله، هو إفراده تعالى بأنواع العبادة، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ۝٢٥﴾ [الأنبياء: ٢٥].

والمخالف لهذا الأصل من هذه الأمة أقسام: إما طاغوت ينازع الله في ربوبيته وإلـٰهيته، ويدعو الناس إلى عبادته، أو طاغوت يدعو الناس إلى عبادة الأوثان، أو مشرك يدعو غير الله ويتقرب إليه بأنواع العبادة أو بعضها، أو شاك في التوحيد: أهو حق، أم يجوز أن يجعل لله شريك في عبادته؟ أو جاهل يعتقد أن الشرك دين يقرب إلى الله، وهذا هو الغالب على أكثر العوام لجهلهم وتقليدهم من قبلهم؛ لما اشتدت غربة الدين ونسي العلم بدين المرسلين.

وعن أبي هريرة مرفوعاً: «قال الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه» رواه مسلم.

قوله: «وعن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «قال الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه» رواه مسلم.

قوله: «من عمل عملاً أشرك فيه غيري» أي من قصد بعمله غيري من المخلوقين «تركته وشركه».

ولابن ماجه «فأنا منه بريء وهو للذي أشرك» قال الطيبي: الضمير

المنصوب في قوله: «تركته» يجوز أن يرجع إلى العمل.

قال ابن رجب رحمه الله: واعلم أن العمل لغير الله أقسام: فتارة يكون رياء محضاً كحال المنافقين. كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ۝١٤٢﴾ [النساء: ١٤٢] وهذا الرياء المحض لا يكاد يصدر عن مؤمن في فرض الصلاة والصيام. وقد يصدر في الصدقة أو الحج الواجب أو غيرهما من الأعمال الظاهرة، أو التي يتعدى نفعها، فإن الإخلاص فيها عزيز، وهذا العمل لا يشك مسلم أنه حابط، وأن صاحبه يستحق المقت من الله والعقوبة.

وتارة يكون العمل لله ويشاركه الرياء، فإن شاركه من أصله فالنصوص الصحيحة تدل على بطلانه.

وذكر أحاديث تدل على ذلك، منها: هذا الحديث، وحديث شداد ابن أوس مرفوعاً «**من صلى يرائي فقد أشرك، ومن صام يرائي فقد أشرك، ومن تصدق يرائي فقد أشرك، وإن الله عزوجل يقول: أنا خير قسيم لمن أشرك بي، فمن أشرك بي شيئاً فإن جدة عمله وقليله وكثيره لشريكه الذي أشرك به. أنا عنه غني**» رواه أحمد.

وذكر أحاديث في المعنى، ثم قال: فإن خالط نية الجهاد مثلاً نية غير الرياء، مثل أخذ أجرة للخدمة أو أخذ شيء من الغنيمة أو التجارة، نقص بذلك أجر جهاده، ولم يبطل بالكلية.

قال ابن رجب: وقال الإمام أحمد رحمه الله: التاجر والمستأجر والمكري أجرهم على قدر ما يخلص من نياتهم في غزواتهم، ولا يكونون مثل من جاهد بنفسه وماله لا يخلط به غيره.

وقال أيضاً فيمن يأخذ جعل الجهاد: إذا لم يخرج لأجل الدراهم فلا

بأس كأنه خرج لدينه إن أعطي شيئاً أخذه.

وروي عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما قال: «إذا أجمع أحدكم على الغزو فعوَّضه الله رزقاً فلا بأس بذلك؛ وأما إن كان أحدكم أعطي دراهم غزا، وإن لم يعط لم يغز، فلا خير في ذلك».

وروي عن مجاهد رحمه الله: أنه قال في حج الجمال وحج الأجير، وحج التاجر «هو تام لا ينقص من أجرهم شيء» أي لأن قصدهم الأصلي كان هو الحج دون التكسب..

قال: وأما إن كان أصل العمل لله، ثم طرأ عليه نية الرياء: فإن كان خاطراً ثم دفعه فلا يضره بغير خلاف، وإن استرسل معه فهل يحبط عمله أم لا، فيجازى على أصل نيته؟ في ذلك اختلاف بين العلماء من السلف، قد حكاه الإمام أحمد وابن جرير، ورجحا أن عمله لا يبطل بذلك، وأنه يجازى بنيته الأولى، وهو مروي عن الحسن وغيره.

وفي هذا المعنى جاء حديث أبي ذر عن النبي ﷺ «أنه سئل عن الرجل يعمل العمل من الخير يحمده الناس عليه، فقال: تلك عاجل بشرى المؤمن» رواه مسلم. انتهى ملخصاً.

قلت: وتمام هذا المقام يتبين في شرح حديث أبي سعيد إن شاء الله تعالى.

وعن أبي سعيد مرفوعاً: «ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال؟ قالوا: بلى يارسول الله. قال: الشرك الخفي؛ يقوم الرجل فيصلي فيزين صلاته؛ لما يرى من نظر رجل» رواه أحمد.

قوله: «وعن أبي سعيد رضي الله عنه مرفوعاً: «ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال؟ قالوا: بلى يارسول الله. قال: الشرك الخفي؛ يقوم الرجل فيصلي فيزين صلاته؛ لما يرى من نظر رجل» رواه أحمد».

وروى ابن خزيمة في «صحيحه» عن محمود بن لبيد قال: «خرج **علينا رسول الله ﷺ فقال: أيها الناس، إياكم وشرك السرائر، قالوا: يارسول الله وما شرك السرائر؟ قال: يقوم الرجل فيصلي فيزين صلاته لما يرى من نظر الرجل إليه. فذلك شرك السرائر»**.

قوله: «عن أبي سعيد» الخدري. وتقدم.

قوله: «الشرك الخفي» سماه خفياً لأن صاحبه يظهر أن عمله لله وقد قصد به غيره، أو شركه فيه بتزيين صلاته لأجله. وعن شداد بن أوس قال: «كنا نعد الرياء على عهد رسول الله ﷺ الشرك الأصغر» رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الإخلاص، وابن جرير في التهذيب، والطبراني والحاكم وصححه.

قال ابن القيم: وأما الشرك الأصغر فكيسير الرياء والتصنع للخلق والحلف بغير الله، وقول الرجل للرجل، ما شاء الله وشئت، وهذا من الله ومنك، وأنا بالله وبك، ومالي إلا الله وأنت، وأنا متوكل على الله وعليك، ولولا الله وأنت لم يكن كذا وكذا. وقد يكون هذا شركاً أكبر بحسب حال قائله ومقصده. انتهى.

ولا خلاف أن الإخلاص شرط لصحة العمل وقبوله ، وكذلك المتابعة ، كما قال الفضيل بن عياض رحمه الله في قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢] قال: «أخلصه وأصوبه».

قيل : ياأبا علي ، ما أخلصه وأصوبه، قال: إن العمل إذا كان

خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل حتى يكون خالصاً صواباً، فالخالص ما كان لله، والصواب ما كان على السنة».

وفي الحديث من الفوائد : شفقة النبي ﷺ على أمته ونصحه لهم، وأن الرياء أخوف على الصالحين من فتنة الدجال. فإذا كان النبي ﷺ يخافه على سادات الأولياء مع قوة إيمانهم وعلمهم، فغيرهم ممن هو دونهم بأضعاف أولى بالخوف من الشرك، أصغره وأكبره.

فيـــه مســـائل:

الأولـــى: تفسير آية الكهف.

الثانيـــة: الأمر العظيم في رد العمل الصالح إذا دخله شيء لغير الله.

الثالثـــة: ذكر السبب الموجب لذلك وهو كمال الغنى.

الرابعـــة: أن من الأسباب: أنه تعالى خير الشركاء.

الخامسة: خوف النبي ﷺ على أصحابه من الرياء.

السادسة: أنه فسر ذلك بأن يصلي المرء لله، لكن يُزَيِّنها لما يرى من نظر رجل إليه.

باب من الشرك: إرادة الإنسان بعمله الدنيا

قوله: «باب من الشرك: إرادة الإنسان بعمله الدنيا».

فإن قيل: فما الفرق بين هذه الترجمة وبين ترجمة الباب قبله؟

قلت: بينهما عموم وخصوص مطلق، يجتمعان في مادة، وهو ما إذا أراد الإنسان بعمله التزين عند الناس والتصنع لهم والثناء، فهذا رياء كما تقدم بيانه، كحال المنافقين، وهو أيضاً إرادة الدنيا بالتصنع عند الناس، وطلب المدحة منهم والإكرام. ويفارقه الرياء بكونه عمل عملاً صالحاً، أراد به عرضاً من الدنيا، كمن يجاهد ليأخذ مالاً، كما في الحديث: «تعس عبدالدينار» أو يجاهد للمغنم أو غير ذلك من الأمور التي ذكرها شيخنا عن ابن عباس رضي الله عنه وغيره من المفسرين في معنى قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ [هود: ١٥].

وأراد المصنف رحمه الله بهذه الترجمة وما بعدها: أن العمل لأجل الدنيا شرك ينافي كمال التوحيد الواجب، ويحبط الأعمال، وهو أعظم من الرياء، لأن مريد الدنيا قد تغلب إرادته تلك على كثير من عمله وأما الرياء فقد يعرض له في عمل دون عمل، ولا يسترسل معه، والمؤمن يكون حذراً من هذا وهذا.

وقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝١٥ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝١٦﴾

[هود: ١٥ ـ ١٦]

قال: «وقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾».

قال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ أي ثوابها ﴿وَزِينَتَهَا﴾ أي مالها ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ﴾ أي نوفر لهم ثواب أعمالهم بالصحة والسرور في المال والأهل والولد ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾﴾ لا ينقصون، ثم نسختها ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ [الإسراء: ١٨] الآيتين» رواه النحاس في ناسخه.

قوله: «ثم نسختها» أي قيدتها. فلم تبق الآية على إطلاقها.

وقال قتادة: «من كانت الدنيا همه وطلبته ونيته جازاه الله بحسناته في الدنيا ثم يفضي إلى الآخرة وليس له حسنة يعطى بها جزاءً. وأما المؤمن فيجازى بحسناته في الدنيا ويثاب عليها في الآخرة» ذكره ابن جرير بسنده، ثم ساق حديث أبي هريرة عن ابن المبارك عن حيوة بن شريح.

قال: حدثني الوليد بن أبي الوليد أبو عثمان أن عقبة بن مسلم حدثه أن شفي ابن ماتع الأصبحي حدثه «أنه دخل المدينة فإذا هو برجل قد اجتمع عليه الناس، فقال: من هذا؟ فقالوا: أبوهريرة. قال: فدنوت منه حتى قعدت بين يديه، وهو يحدث الناس. فلما سكت وخلا. قلت: أنشدك بحق وبحق لما حدثتني حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ عقلته وعلمته. قال: فقال أبوهريرة: أفعل، لأحدثنك حديثاً حدثنيه رسول الله ﷺ في هذا البيت ما فيه أحد غيري وغيره، ثم نشغ أبوهريرة نشغة، ثم أفاق فقال: لأحدثنك حديثاً حدثنيه رسول الله ﷺ في هذا البيت ما فيه

أحد غيري وغيره، ثم نشغ أبوهريرة نشغة أخرى، ثم مال خاراً على وجهه، واشتد به طويلاً. ثم أفاق فقال: حدثني رسول الله ﷺ: **أن الله تبارك وتعالى إذا كان يوم القيامة نزل إلى القيامة ليقضي بينهم، وكل أمة جاثية.**

فأول من يدعى به رجل جمع القرآن، ورجل قتل في سبيل الله، ورجل كثير المال. فيقول الله تبارك وتعالى للقارىء: ألم أعلمك ما أنزلت على رسولي؟ قال: بلى يارب، قال: فماذا عملت فيما علمت؟ قال: كنت أقوم آناء الليل وآناء النهار. فيقول الله له: كذبت وتقول له الملائكة: كذبت، ويقول الله له: بل أردت أن يقال فلان قارىء، فقد قيل ذلك.

ويؤتى بصاحب المال فيقول الله له: ألم أوسع عليك حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد؟ قال: بلى يارب، قال: فما عملت فيما آتيتك؟ قال: كنت أصل الرحم وأتصدق، فيقول الله له: كذبت، وتقول الملائكة: كذبت، ويقول الله له: بل أردت أن يقال فلان جواد، فقد قيل ذلك.

ويؤتى بالذي قتل في سبيل الله فياق له: فبماذا قتلت؟ فيقول: أمرتُ بالجهاد في سبيلك فقاتلت حتى قتلت، فيقول الله له: كذبت، وتقول له الملائكة: كذبت، ويقول الله له: بل أردت أن يقال: فلان جريء، فقد قيل ذلك.

ثم ضرب رسول الله ﷺ على ركبتي، فقال: ياأباهريرة، أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة».

وقد سئل شيخنا المصنف رحمه الله عن هذه الآية؟ فأجاب بما حاصله: ذكر عن السلف فيها أنواعاً مما يفعله الناس اليوم، ولا يعرفون معناه.

فمن ذلك: العمل الصالح الذي يفعله كثير من الناس ابتغاء وجه الله: من صدقة وصلاة، وصلة وإحسان إلى الناس، وترك ظلم، ونحو ذلك مما يفعله الإنسان أو يتركه خالصاً لله، لكنه لا يريد ثوابه في الآخرة، إنما يريد أن يجازيه الله بحفظ ماله وتنميته، أو حفظ أهله وعياله، أو إدامة النعمة عليهم، ولا همة له في طلب الجنة والهرب من النار، فهذا يعطى ثواب عمله في الدنيا وليس له في الآخرة من نصيب. وهذا النوع ذكره ابن عباس.

النوع الثاني: وهو أكبر من الأول وأخوف، وهو الذي ذكره مجاهد في الآية: أنها نزلت فيه: وهو أن يعمل أعمالاً صالحة ونيته رياء الناس، لا طلب ثواب الآخرة.

النوع الثالث: أن يعمل أعمالاً صالحة يقصد بها مالاً، مثل أن يحج لمال يأخذه أو يهاجر لدنيا يصيبها، أو امرأة يتزوجها، أو يجاهد لأجل المغنم، فقد ذكر أيضاً هذا النوع في تفسير هذه الآية، وكما يتعلم الرجل لأجل مدرسة أهله أو مكسبهم، أو رياستهم، أو يتعلم القرآن ويواظب على الصلاة لأجل وظيفة المسجد، كما هو واقع كثيراً.

النوع الرابع: أن يعمل بطاعة الله مخلصاً في ذلك لله وحده لا شريك له، لكنه على عمل يكفره كفراً يخرجه عن الإسلام، مثل اليهود والنصارى إذا عبدوا الله، أو تصدقوا أو صاموا ابتغاء وجه الله والدار الآخرة، ومثل كثير من هذه الأمة الذين فيهم كفر أو شرك أكبر يخرجهم من الإسلام بالكلية، إذا أطاعوا الله طاعة خالصة يريدون بها ثواب الله في الدار الآخرة، لكنهم على أعمال تخرجهم من الإسلام وتمنع قبول أعمالهم، فهذا النوع أيضاً قد ذكر في هذه الآية عن أنس بن مالك وغيره، وكان السلف يخافون منها.

قال بعضهم: لو أعلم أن الله تقبل مني سجدة واحدة لتمنيت الموت لأن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝٢٧﴾ [المائدة: ٢٧].

ثم قال: بقي أن يقال: إذا عمل الرجل الصلوات الخمس والزكاة والصوم والحج ابتغاء وجه الله، طالباً ثواب الآخرة، ثم بعد ذلك عمل أعمالاً قاصداً بها الدنيا، مثل أن يحج فرضه لله، ثم يحج بعده لأجل الدنيا كما هو واقع، فهو لما غلب عليه منهما.

وقد قال بعضهم: القرآن كثيراً ما يذكر أهل الجنة الخلص وأهل النار الخلص، ويسكت عن صاحب الشائبتين، وهو هذا وأمثاله. اهـ.

وفي «الصحيح» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تعس عبد الدينار، تعس عبدالدرهم، تعس عبدالخميصة، تعس عبدالخميلة، إن أُعطي رضي، وإن لم يُعط سخط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش، طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله، أشعث رأسه، مغبرة قدماه. إن كان في الحراسة كان في الحراسة. وإن كان في الساقة كان في الساقة، إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يشفع».

قوله: «في «الصحيح» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «تعس عبد الدينار، تعس عبدالدرهم، تعس عبدالخميصة، تعس عبدالخميلة، إن أُعطي رضي، وإن لم يُعط سخط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش، طوبى لعبد أخذ بعنان فرسه في سبيل الله، أشعث

رأسه، مغبرة قدماه. إن كان في الحراسة كان في الحراسة. وإن كان في الساقة كان في الساقة، إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يشفع».

قوله: «في الصحيح» أي: «صحيح البخاري».

قوله: «تعس» وهو بكسر العين ويجوز الفتح، أي سقط، والمراد هنا: هلك قاله الحافظ. وقال في موضع آخر: وهو ضد سعد: أي شقي. وقال أبوالسعادات: يقال تعس يتعس. إذا عثر وانكب لوجهه. وهو دعاء عليه بالهلاك.

قوله: «عبدالدينار» هو المعروف من الذهب كالمثقال في الوزن.

قوله: «تعس عبدالدرهم» هو من الفضة، قدره الفقهاء بالشعير وزناً، وعندنا منه درهم من ضرب بني أمية وهو زنة خمسين حبة شعير وخمسا حبة. سماه عبداً له؛ لكونه هو المقصود بعمله، فكل من توجه بقصد لغير الله فقد جعله شريكاً له في عبوديته كما هو حال الأكثر.

قوله: «تعس عبدالخميصة» قال أبوالسعادات: هي ثوب خز أو صوف معلم، وقيل: لا تسمى خميصة إلا أن تكون سوداء معلمة؛ وتجمع على خمائص. والخميلة ـ بفتح الخاء المعجمة ـ وقال أبوالسعادات: ذات الخمل ـ ثياب لها خمل من أي شيء كان.

قوله: «تعس وانتكس» قال الحافظ: هو بالمهملة، أي عاوده المرض. وقال أبوالسعادات: أي انقلب على رأسه وهو دعاء عليه بالخيبة.

قال الطيبي: فيه الترقي بالدعاء عليه؛ لأنه إذا تعس انكب على وجهه. وإذا انتكس انقلب على رأسه بعد أن سقط.

قوله: «وإذا شيك» أي أصابته شوكة «فلا انتقش» أي فلا يقدر على إخراجها بالمنقاش. قاله أبوالسعادات.

والمراد: أن من كانت هذه حاله فإنه يستحق أن يدعى عليه بما

يسوؤه في العواقب، ومن كانت هذه حاله فلابد أن يجد أثر هذه الدعوات في الوقوع فيما يضره في عاجل دنياه وآجل آخراه.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: فسماه النبي ﷺ عبدالدينار والدرهم وعبدالقطيفة وعبدالخميصة. وذكر فيه ما هو دعاء بلفظ الخبر، وهو قوله: «تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش» وهذه حال من إذا أصابه شر لم يخرج منه ولم يفلح لكونه تعس وانتكس، فلا نال المطلوب، ولا خلص من المكروه، وهذه حال من عبدالمال. وقد وصف ذلك بأنه «إن أعطي رضي، وإن مُنع سخط» كما قال تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ [التوبة: ٥٨] فرضاهم لغير الله وسخطهم لغير الله، وهكذا حال من كان متعلقاً منها برياسة أو صورة ونحو ذلك من أهواء نفسه، إن حصل له رضي، وإن لم يحصل له سخط، فهذا عبد ما يهواه من ذلك وهو رقيق له؛ إذ الرق والعبودية في الحقيقة هو رق القلب وعبوديته، فما استرق القلب واستعبده فهو عبده ـ إلى أن قال:

وهكذا أيضاً طالب المال، فإن ذلك يستعبده ويسترقه، وهذه الأمور نوعان.

فمنها: ما يحتاج إليه العبد، كما يحتاج إلى طعامه وشرابه ومنكحه ومسكنه ونحو ذلك، فهذا يطلب من الله ويرغب إليه فيه، فيكون المال عنده يستعمله في حاجته بمنزلة حماره الذي يركبه، وبساطه الذي يجلس عليه، من غير أن يستعبده فيكون هلوعاً.

ومنها ما لا يحتاج إليه العبد، فهذا ينبغي أن لا يعلق قلبه بها، فإذا تعلق قلبه بها صار مستعبداً لها، وربما صار مستعبداً ومعتمداً على غير الله فيها، فلا يبقى معه حقيقة العبودية لله ولا حقيقة التوكل عليه، بل

فيه شعبة من العبادة لغير الله، وشعبة من التوكل على غير الله، وهذا من أحق الناس بقوله ﷺ: «تعس عبدالدينار، تعس عبدالدرهم، تعس عبدالخميصة، تعس عبد الخميلة» وهذا هو عبد لهذه الأمور، ولو طلبها من الله، فإن الله إذا أعطاه إياها رضي، وإن منعه إياها سخط، وإنما عبدالله من يرضيه ما يرضي الله، ويسخطه ما يسخط الله، ويحب ما أحبه الله ورسوله، ويبغض ما أبغض اللهُ ورسولهُ، ويوالي أولياء الله، ويعادي أعداء الله، فهذا الذي استكمل الإيمان. انتهى ملخصاً.

قوله: «**طوبى لعبد**» قال أبوالسعادات «طوبى» اسم الجنة، وقيل: هي شجرة فيها.

ويؤيد هذا: ما روى ابن وهب بسنده عن أبي سعيد قال: قال رجل: يارسول الله؛ وما طوبى؟ قال: «شجرة في الجنة مسيرة مائة سنة، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها». ورواه الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى سمعت عبدالله بن لهيعة، حدثنا دراج أبو السمح: أنا أباالهيثم حدثه عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ «أن رجلاً قال: يارسول الله، طوبى لمن رآك وآمن بك. قال: طوبى لمن رآني وآمن بي، وطوبى ثم طوبى ثم طوبى لمن آمن بي ولم يرني. قال له رجل: وما طوبى؟ قال: شجرة في الجنة مسيرة مائة عام، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها». وله شواهد في «الصحيحين» وغيرهما.

وقد روى ابن جرير عن وهب بن منبه هاهنا أثراً غريباً عجيباً، قال وهب رحمه الله: «إن في الجنة شجرة يقال لها: طوبى، يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها: زهرها رياط، ورقها برود، وقضبانها عنبر، وبطحاؤها ياقوت، وترابها كافور، ووحلها مسك، يخرج من أصلها أنهار الخمر واللبن والعسل، وهي مجلس لأهل الجنة، بينما هم

في مجلسهم إذ أتتهم الملائكة من ربهم يقودون نجباً مزمومة بسلاسل من ذهب، وجوها كالمصابيح من حسنها، ووبرها كخز المرعزي من لينه، عليها رحال ألواحها من ياقوت، ودفوفها من ذهب، وثيابها من سندس وإستبرق، فينيخونها ويقولون: إن ربنا أرسلنا إليكم لتزوروه وتسلموا عليه، قال: فيركبونها. قال: فهي أسرع من الطائر، وأوطأ من الفراش. خبا من غير مهنة، يسير الراكب إلى جنب أخيه وهو يكلمه ويناجيه، لا تصيب أذن راحلة منها أذن صاحبتها، ولا برك راحلة برك صاحبتها، حتى إن الشجرة لتنتحي عن طريقهم لئلا تفرق بين الرجل وأخيه. قال: فيأتون إلى الرحمن الرحيم فيسفر لهم عن وجهه الكريم حتى ينظروا إليه، فإذا رأوه قالوا: اللهم أنت السلام ومنك السلام، وحق لك الجلال والإكرام، قال: فيقول تبارك وتعالى عند ذلك: أنا السلام ومني السلام، وعليكم حقت رحمتي ومحبتي، ومرحباً بعبادي الذين خشوني بالغيب وأطاعوا أمري: قال: فيقولون: ربنا إنا لم نعبدك حق عبادتك، ولم نقدرك حق قدرك، فائذن لنا بالسجود قدامك، قال: فيقول الله: إنها ليست بدار نصب ولا عبادة، ولكنها دار ملك ونعيم، وإني قد رفعت عنكم نصب العبادة، فسلوني ما شئتم، بأن لكل رجل منكم أمنيته. فيسألونه، حتى إن أقصرهم أمنية ليقول: ربي، تنافس أهل الدنيا في دنياهم فتضايقوا فيها، رب فآتني من كل شيء كانوا فيه من يوم خلقتها إلى أن انتهت الدنيا، فيقول الله تعالى: لقد قصرت بك اليوم أمنيتك. ولقد سألت دون منزلتك، هذا لك مني وسأتحفك بمنزلتي؛ لأنه ليس في عطائي نكد ولا قصر يد. قال: ثم يقول: اعرضوا على عبادي ما لم تبلغ أمانيهم ولم يخطر لهم على بال قال: فيعرضون عليهم حتى تقصر بهم أمانيهم التي في أنفسهم، فيكون فيما يعرضون

عليهم براذين مقرنة، على كل أربعة منها سرير من ياقوتة واحدة. على كل سرير منها قبة من ذهب مفرغة. في كل قبة منها فرش من فرش الجنة مظاهرة في كل قبة منها جاريتان من الحور العين. على كل جارية منهن ثوبان من ثياب الجنة، وليس في الجنة لون إلا وهو فيهما، ولا ريح طيب إلا قد عبق بهما. ينفذ ضوء وجوههما غلظ القبة، حتى يظن من يراهما أنهما من دون القبة، يرى مخهما من فوق سوقهما كالسلك الأبيض في ياقوته حمراء، يريان له من الفضل على صحابته كفضل الشمس على الحجارة أو أفضل. ويرى لهما مثل ذلك. ثم يدخل عليهما فيحييانه ويقبلانه ويعانقانه ويقولان له: والله ما ظننا أن الله يخلق مثلك، ثم يأمر الله تعالى الملائكة فيسيرون بهم صفاً في الجنة، حتى ينتهي كل رجل منهم إلى منزلته التي أعدت له».

وقد روى هذا الأثر ابن أبي حاتم بسنده عن وهب بن منبه وزاد: «فانظروا إلى مواهب ربكم الذي وهب لكم، فإذا بقباب في الرفيق الأعلى، وغرف مبنية بالدر والمرجان، أبوابها من ذهب، وسررها من ياقوت، وفرشها من سندس وإستبرق، ومنابرها من نور، يفور من أبوابها وعراصها نور مثل شعاع الشمس، عنده مثل الكوكب الدري في النهار المضيء، وإذا بقصور شامخة في أعلى عليين من الياقوت يزهو نورها، فلولا أنه مسخر إذاً لالتمع الأبصار، فما كان من تلك القصور من الياقوت الأبيض فهو مفروش بالحرير الأبيض. وما كان منها من الياقوت الأخضر فهو مفروش بالسندس الأخضر، وما كان منها من الياقوت الأصفر، فهو مفروش بالأرجوان الأصفر، مبوبة بالزمرد الأخضر والذهب الأحمر والفضة البيضاء، قوائمها وأركانها من الجوهر، وشرفها قباب من لؤلؤ، وبروجها غرف من المرجان، فلما

انصرفوا إلى ما أعطاهم ربهم، قربت لهم براذين من ياقوت أبيض منفوخ فيها الروح، تحتها الولدان المخلدون، بيد كل وليد منهم حَكَمَة برذون من تلك البراذين، ولجمها وأعنتها من فضة بيضاء منظومة بالدر والياقوت، سرر موضونة مفروشة بالسندس والإستبرق، فانطلقت بهم تلك البراذين تزف بهم، فينظرون رياض الجنة. فلما انتهوا إلى منازلهم وجدوا الملائكة قعوداً على منابر من نور؛ ينتظرونهم ليزوروهم ويصافحوهم ويهنئوهم كرامة ربهم، فلما دخلوا قصورهم وجدوا فيها جميع ما تطاول به عليهم وما سألوا وما تمنوا، وإذا على باب كل قصر من تلك القصور أربعة جنان: جنتان ذواتا أفنان، وجنتان مدهامتان، وفيهما عينان نضاختان، وفيهما من كل فاكهة زوجان، وحور مقصورات في الخيام، فلما تبوؤوا منازلهم، واستقروا قال لهم ربهم: ﴿فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ﴾ [الأعراف: ٤٤] وربنا. قال: هل رضيتم ثواب ربكم؟ قالوا: ربنا رضينا فارض عنا، قال: فبرضاي عنكم أحللتكم داري ونظرتم إلى وجهي، فعند ذلك قالوا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾ [فاطر: ٣٤ ـ ٣٥] وهذا سياق غريب وأثر عجيب، ولبعضه شواهد في «الصحيحين».

وقال خالد بن معدان: إن في الجنة شجرة يقال لها: طوبى، ضروع كلها، ترضع صبيان أهل الجنة، وإن سقط المرأة يكون في نهر من أنهار الجنة يتقلب فيه حتى تقوم القيامة فيبعث ابن أربعين سنة» رواه ابن أبي حاتم.

قوله: «**آخذ بعنان فرسه في سبيل الله**» أي في جهاد المشركين.

قوله: «**أشعث**» مجرور بالفتحة لأنه اسم لا ينصرف للوصفية ووزن

الفعل، و«رأسه» مرفوع على الفاعلية، وهو طائر الشعر، شغله الجهاد في سبيل الله عن التنعم بالأدهان وتسريح الشعر.

قوله: «مغبرة قدماه» هو بالجر صفة ثانية لعبد.

قوله: «إن كان في الحراسة كان في الحراسة» هو بكسر الحاء أي حماية الجيش عن أن يهجم العدو عليهم.

قوله: «كان في الحراسة» أي غير مقصر فيها ولا غافل، وهذا اللفظ يستعمل في حق من قام بالأمر على وجه الكمال.

قوله: «وإن كان في الساقة كان في الساقة» أي في مؤخرة الجيش، يقلب نفسه في مصالح الجهاد، فكل مقام يقوم فيه إن كان ليلاً أو نهاراً، رغبة في ثواب الله وطلباً لمرضاته ومحبة لطاعته.

قال ابن الجوزي رحمه الله: وهو خامل الذكر لا يقصد السمو.

وقال الخلخالي: المعنى: ائتماره بما أمر، وإقامته حيث أقيم. لا يفقد من مقامه، وإنما ذكر الحراسة والساقة لأنهما أشد مشقة، انتهى.

وفيه: فضل الحراسة في سبيل الله.

قوله: «إن استأذن لم يؤذن له» أي: إذا استأذن على الأمراء ونحوهم لم يؤذن له؛ لأنه لا جاه له عندهم ولا منزلة؛ لأنه ليس من طلابها، وإنما يطلب ما عند الله لا يقصد بعمله سواه.

قوله: «وإن شفع» بفتح أوله وثانيه «لم يشفع» بفتح الفاء مشددة، يعني لو ألجأته الحال إلى أن يشفع في أمر يحبه الله ورسوله، لم تقبل شفاعته عند الأمراء ونحوهم.

وروى الإمام أحمد ومسلم عن أبي هريرة مرفوعاً «رب أشعث مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبره».

قال: الحافظ: فيه ترك حب الرياسة والشهرة: وفضل الخمول

والتواضع انتهى.

وروى الإمام أحمد أيضاً عن مصعب بن ثابت بن عبدالله بن الزبير، قال: قال عثمان رضي الله عنه ـ وهو يخطب على منبره: «إني محدثكم حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ، لم يكن يمنعني أن أحدثكم به إلا الظن بكم. سمعت رسول الله ﷺ يقول: حرس ليلة في سبيل الله أفضل من ألف ليلة يقام ليلها ويصام نهارها».

وروى الحافظ ابن عساكر في ترجمة عبدالله بن المبارك: قال عبدالله ابن محمد قاضي نصيبين: حدثني محمد بن إبراهيم بن أبي سكينة أنه أملى عليه عبدالله بن المبارك هذه الأبيات بطرسوس وواعده الخروج. وأنشدها معه إلى الفضيل بن عياض في سنة سبع وسبعين ومائة. قال:

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا ... لعلمت أنك في العبادة تلعب
من كان يخضب خده بدموعه ... فنحورنا بدمائنا تتخضب
أو كان يتعب خيله في باطل ... فخيولهم يوم الصبيحة تتعب
ريح العبير لكم، ونحن عبيرنا ... رهج السنابك والغبار الأطيب
ولقد أتانا من مقال نبينا ... قول صحيح صادق لا يكذب
لا يستوي غبار خيل الله في ... أنف امرىءٍ ودخان نار تلهب
هذا كتاب الله ينطق بيننا ... ليس الشهيد بميت لا يكذب

قال: فلقيت الفضيل بكتابه في المسجد الحرام، فلما قرأه ذرفت عيناه، فقال: صدق أبوعبدالرحمن ونصحني، ثم قال: أنت ممن يكتب الحديث؟ قلت: نعم، قال لي: اكتب هذا الحديث، وأملي عليَّ الفضيلُ بن عياض: حدثنا منصور بن المعتمر، عن أبي صالح، عن أبي هريرة «أن رجلاً قال: يارسول الله، علمني عملاً أنال به ثواب المجاهدين في سبيل الله، فقال: «هل تستطيع أن تصلي فلا تفتر،

وتصوم فلا تفطر؟» فقال: يارسول الله أنا أضعف من أن أستطيع ذلك، ثم قال النبي ﷺ: «فوالذي نفسي بيده لو طوقت ذلك ما بلغت فضل المجاهدين في سبيل الله، أما علمت أن فرس المجاهد ليستن في طوله فيكتب له بذلك حسنات؟».

فيــه مســائل:

الأولــى: إرادة الإنسان الدنيا بعمل الآخرة.

الثانيــة: تفسير آية هود.

الثالثــة: تسمية الإنسان المسلم عبدالدينار والدرهم والخميصة.

الرابعــة: تفسير ذلك بأنه إن أُعطي رضي، وإن لم يعط سخط.

الخامسة: قوله: «تعس وانتكس».

السادسة: قوله: «وإذا شيك فلا انتقش».

السابعـة: الثناء على المجاهد الموصوف بتلك الصفات.

باب من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرم الله، فقد اتخذهم أرباباً من دون الله

قوله: «باب من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرم الله، فقد اتخذهم أرباباً من دون الله».(١)

---

(١) لما كانت الطاعة من أنواع العبادة بل هي العبادة فإنها طاعة الله بامتثال ما أمر به على ألسنة رسله عليهم السلام، نبه المصنف ـ رحمه الله تعالى ـ بهذه الترجمة على وجوب اختصاص الخالق تبارك وتعالى بها وأنه لا يطاع أحد من الخلق إلاّ حيث كانت طاعته مندرجة تحت طاعة الله وإلاّ فلا تجب طاعة أحد من الخلق استقلالاً. والمقصود هنا الطاعة الخاصة في تحريم الحلال وتحليل الحرام فمن أطاع مخلوقاً في ذلك غير الرسول ﷺ فإنه لا ينطق عن الهوى فهو مشرك كما بينه تعالى في قوله: ﴿اتخذوا﴾ الآية فإن قيل: قد قال تعالى: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ قيل: هم العلماء، وقيل: هم الأمراء، وهما روايتان عن أحمد. قال ابن القيم: والتحقيق بأن الآية تعم الطائفتين، قيل: إنما تجب طاعتهم إذا أمروا بطاعة الله وطاعة رسوله.. قال شيخ الإسلام: وهؤلاء الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله حيث أطاعوهم في تحليل ما حرم الله وعكسه يكون على وجهين: أحدهما أنهم يعلمون أنهم بدلوا دين الله ويتبعونهم على التبديل فيعتقدون تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل، اتباعاً لرؤسائهم مع علمهم أنهم خالفوا دين الرسل، فهذا كفر وقد جعله الله ورسوله شركاً وإن لم يكونوا يصلون لهم ويسجدون.

الثاني: أن يكون اعتقادهم وإيمانهم بتحريم الحلال وتحليل الحرام ثابتاً لكنهم أطاعوهم في معصية الله كما يفعل المسلم ما يفعله من المعاصي التي يعتقد أنها معاصي، فهؤلاء لهم حكم أمثالهم من أهل الذنوب كما ثبت في =

لقول الله تعالى: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١) ﴾ [التوبة: ٣١]

وتقدم تفسير هذا في أصل المصنف رحمه الله عند ذكر حديث عدي ابن حاتم رضي الله عنه.

وقال ابن عباس: «يُوشِكُ أن تنزل عليكم حجارة من السماء؛ أقول: قال رسول الله ﷺ، وتقولون: قال أبوبكر وعمر؟».

قوله: وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «يُوشِكُ أن تنزل عليكم حجارة من السماء؛ أقول: قال رسول الله ﷺ، وتقولون: قال أبوبكر وعمر؟».

قوله: «يوشك» بضم أوله وكسر الشين المعجمة: أي يقرب ويسرع.

وهذا القول من ابن عباس رضي الله عنهما جواب لمن قال له: «إن أبابكر وعمر رضي الله عنهما لا يريان التمتع بالعمرة إلى الحج، ويريان أن إفراد الحج أفضل» أو ما هو معنى هذا، وكان ابن عباس يرى أن التمتع بالعمرة إلى الحج واجب، ويقول: «إذا طاف بالبيت وسعى بين الصفا والمروة سبعة أشواط فقد حل من عمرته شاء أم أبى» لحديث سراقة بن مالك حين أمرهم النبي ﷺ أن يجعلوها عمرة، ويحلوا إذا طافوا بالبيت وسعوا بين الصفا والمروة، فقال سراقة «يارسول الله، ألِعامنا هذا أم للأبد؟ فقال: بل للأبد» والحديث في «الصحيحين»، وحينئذٍ فلا عذر لمن استفتى أن ينظر في مذاهب العلماء وما استدل به

= الصحيحين: «**إنما الطاعة في المعروف**».

كل إمام ويأخذ من أقوالهم ما دل عليه الدليل إذا كان له ملكة يقتدر بها على ذلك. كما قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾ [النساء: ٥٩].

وللبخاري ومسلم وغيرهما: أن النبي ﷺ قال: «**لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما أهديت، ولولا أن معي الهدي لأحللت**» هذا لفظ البخاري في حديث عائشة رضي الله عنها. ولفظه في حديث جابر «**افعلوا ما أمرتكم به، فلولا أني سقت الهدي لفعلت مثل الذي أمرتكم**». في عدة أحاديث تؤيد قول ابن عباس.

وبالجملة، فلهذا قال ابن عباس لما عارضوا الحديث برأي أبي بكر وعمر رضي الله عنهما «يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء...» الحديث.

وقال الإمام الشافعي رحمه الله: «أجمع العلماء على أن من استبانت له سنة رسول الله ﷺ لم يكن له أن يدعها لقول أحد».

وقال الإمام مالك رحمه الله تعالى: «ما منا إلا رادٌّ ومردود عليه، إلا صاحب هذا القبر ﷺ» وكلام الأئمة في هذا المعنى كثير.

ومازال العلماء رحمهم الله يجتهدون في الوقائع: فمن أصاب منهم فله أجران، ومن أخطأ فله أجر، كما في الحديث. لكن إذا استبان لهم الدليل أخذوا به وتركوا اجتهادهم. وأما إذا لم يبلغهم الحديث، أو لم يثبت عن النبي ﷺ عندهم فيه حديث، أو ثبت وله معارض أو مخصص ونحو ذلك، فحينئذٍ يسوغ للإمام أن يجتهد.

وفي عصر الأئمة الأربعة رحمهم الله تعالى إنما كان طلب الأحاديث ممن هي عنده باللقىٰ والسماع، ويسافر الرجل في طلب الحديث إلى الأمصار عدة سنين، ثم اعتنى الأئمة بالتصانيف ودونوا الأحاديث

ورووها بأسانيد، وبينوا صحيحها من حسنها من ضعيفها. والفقهاء صنفوا في كل مذهب. وذكروا حجج المجتهدين. فسهل الأمر على طالب العلم. وكل إمام يذكر الحكم بدليله عنده.

وفي كلام ابن عباس رضي الله عنهما ما يدل على أن من بلغه الدليل فلم يأخذ به ـ تقليداً لإمامه ـ فإنه يجب الإنكار عليه بالتغليظ؛ لمخالفته الدليل.

وقال الإمام أحمد: حدثنا أحمد بن عمر البزار، حدثنا زياد بن أيوب، حدثنا أبوعبيدة الحداد، عن مالك بن دينار، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: «ليس منا أحد إلا يؤخذ من قوله ويدع غير النبي ﷺ».

وعلى هذا: فيجب الإنكار على من ترك الدليل لقول أحد من العلماء، كائناً من كان، ونصوص الأئمة على هذا، وأنه لا يسوغ التقليد إلا في مسائل الاجتهاد التي لا دليل فيها يرجع إليه من كتاب ولا سنة، فهذا هو الذي عناه بعض العلماء بقوله: لا إنكار في مسائل الاجتهاد. وأما من خالف الكتاب والسنة: فيجب الرد عليه، كما قال ابن عباس والشافعي ومالك وأحمد، وذلك مجمع عليه، كما تقدم في كلام الإمام الشافعي رحمه الله تعالى.

وقال الإمام أحمد: عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته، ويذهبون إلى رأي سفيان. والله تعالى يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النور: ٦٣] **أتدري ما الفتنة؟ الفتنة: الشرك. لعله إذا رَدَّ بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك».**

قوله: «وقال الإمام أحمد: عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته، ويذهبون إلى رأي سفيان. والله تعالى يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ [النور: ٦٣] **أتدري ما الفتنة؟ الفتنة: الشرك. لعله إذا رَدَّ بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك».** [(١)]

هذا الكلام من الإمام أحمد رحمه الله رواه عنه الفضل بن زياد وأبوطالب. قال الفضل عن أحمد: «نظرت في المصحف فوجدت طاعة الرسول ﷺ في ثلاث وثلاثين موضعاً، ثم جعل يتلو ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ الآية. فذكر من قوله: الفتنة: الشرك ـ إلى قوله: فيهلك» ثم جعل يتلو هذه الآية: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥].

وقال أبوطالب عن أحمد وقيل له: «إن قوماً يدعون الحديث ويذهبون إلى رأي سفيان وغيره، فقال: أعجب لقوم سمعوا الحديث وعرفوا الإسناد وصحته يدعونه، ويذهبون إلى رأي سفيان وغيره، قال الله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾ أتدري ما الفتنة؟ الفتنة: الكفر. قال الله تعالى ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقرة: ٢١٧] فيدعون الحديث عن رسول الله ﷺ وتغلبهم أهواؤهم إلى الرأي» ذكر ذلك عنه شيخ الإسلام رحمه الله تعالى.

---

(١) وفي كلام أحمد ـ رحمه الله ـ إشارة إلى أن التقليد قبل بلوغ الحجة لا يذم إنما المذموم المنكر الحرام الإقامة على ذلك بعد بلوغ الحجة.

قوله: «عرفوا الإسناد» أي إسناد الحديث وصحته، فإذا صح إسناد الحديث فهو صحيح عند أهل الحديث وغيرهم من العلماء.

وسفيان: هو الثوري الإمام الزاهد، العابد الثقة الفقيه، وكان له أصحاب يأخذون عنه، ومذهبه مشهور يذكره العلماء رحمه الله في الكتب التي يذكر فيها مذاهب الأئمة، كـ: «التمهيد» لابن عبدالبر، و«الاستذكار» له، و«كتاب الإشراف على مذاهب الأشراف» لابن المنذر، و«المحلى» لابن حزم و«المغني» لأبي محمد عبدالله بن أحمد ابن قدامة الحنبلي، وغير هؤلاء.

فقول الإمام أحمد رحمه الله: «عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته...إلخ» إنكار منه لذلك. وأنه يؤول إلى زيغ القلوب الذي يكون به المرء كافراً.

وقد عمت البلوى بهذا المنكر، خصوصاً ممن ينتسب إلى العلم، نصبوا الحبائل في الصد عن الأخذ بالكتاب والسنة، وصدوا عن متابعة الرسول ﷺ وتعظيم أمره ونهيه، فمن ذلك قولهم: لا يستدل بالكتاب والسنة إلا المجتهد، والاجتهاد قد انقطع ويقول: هذا الذي قلدته أعلم منك بالحديث وبناسخه ومنسوخه، ونحو ذلك من الأقوال التي غايتها ترك متابعة الرسول ﷺ، الذي لا ينطق عن الهوى، والاعتماد على قول من يجوز عليه الخطأ، وغيره من الأئمة يخالفه ويمنع قوله بدليل، فما من إمام إلا والذي معه بعض العلم لا كله.

فالواجب على كل مكلف، إذا بلغه الدليل من كتاب الله وسنة رسوله وفهم معنى ذلك: أن ينتهي إليه ويعمل به، وإن خالفه من خالفه، كما قال تعالى: ﴿ ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ٣] وقال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ

ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [العنكبوت: ٥١] وقد تقدم حكاية الإجماع على ذلك؛ وبيان أن المقلد ليس من أهل العلم، وقد حكى أيضاً أبوعمر بن عبدالبر وغيره الإجماع على ذلك.

قلت: ولا يخالف في ذلك إلا جهال المقلدة، لجهلهم بالكتاب والسنة، ورغبتهم عنهما، وهؤلاء وإن ظنوا أنهم قد اتبعوا الأئمة، فإنهم في الحقيقة قد خالفوهم، واتبعوا غير سبيلهم، كما قدمنا من قول مالك والشافعي وأحمد، ولكن في كلام أحمد رحمه الله إشارة إلى أن التقليد قبل بلوغ الحجة لا يذم، وإنما ينكر على من بلغته الحجة وخالفهم لقول إمام من الأئمة، وذلك إنما نشأ عن الإعراض عن تدبر كتاب الله وسنة رسوله والإقبال على كتب من تأخر والاستغناء بها عن الوحيين، وهذا يشبه ما وقع من أهل الكتاب الذين قال الله فيهم: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١] كما سيأتي بيان ذلك في حديث عدي بن حاتم.

فيجب على من نصح نفسه إذا قرأ كتب العلماء ونظر فيها وعرف أقوالهم أن يعرضها على ما في الكتاب والسنة، فإن كل مجتهد من العلماء ومن تبعه وانتسب إلى مذهبه لابد أن يذكر دليله، والحق في المسألة واحد، والأئمة مثابون على اجتهادهم، فالمنصف يجعل النظر في كلامهم وتأمله طريقاً إلى معرفة المسائل واستحضارها ذهناً، وتمييزاً للصواب من الخطأ بالأدلة التي يذكرها المستدلون، ويعرف بذلك من هو أسعد بالدليل من العلماء فيتبعه.

والأدلة على هذا الأصل في كتاب الله أكثر من أن تحصر، وفي السنة كذلك، كما أخرج أبوداود بسنده عن أناس من أصحاب معاذ: «أن

رسول الله ﷺ لما أراد أن يبعث معاذاً إلى اليمن قال: **كيف تقضي إذا عرض لك قضاء؟** قال: أقضي بكتاب الله تعالى، قال: **فإن لم تجد في كتاب الله؟** قال: فبسنة رسول الله ﷺ. قال: **فإن لم تجد في سنة رسول الله ﷺ ولا في كتاب الله؟** قال: أجتهد رأيي ولا آلوا، قال: فضرب رسول الله ﷺ صدره، وقال: **الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضى رسول الله**» وساق بسنده عن الحارث بن عمر عن أناس من أصحاب معاذ بن جبل رضي الله عنه «أن رسول الله ﷺ لما بعثه إلى اليمن. . . بمعناه».

والأئمة رحمهم الله لم يقصروا في البيان، بل نهوا عن تقليدهم إذا استبانت السنة، لعلمهم أن من العلم شيئاً لم يعلموه، وقد يبلغ غيرهم، وذلك كثير، كما لا يخفى على من نظر في أقوال العلماء.

قال أبوحنيفة رحمه الله: إذا جاء الحديث عن رسول الله ﷺ فعلى الرأس والعين، وإذا جاء عن الصحابة رضي الله عنهم فعلى الرأس والعين، وإذا جاء عن التابعين فنحن رجال وهم رجال.

وقال: إذا قلت قولاً وكتاب الله يخالفه، فاتركوا قولي لكتاب الله. قيل: إذا كان قول رسول الله ﷺ يخالفه؟ قال: اتركوا قولي لخبر الرسول ﷺ. قيل: إذا كان قول الصحابة يخالفه؟ قال: اتركوا قولي لقول الصحابة.

وقال الربيع: سمعت الشافعي رحمه الله يقول: إذا وجدتم في كتابي خلاف سنة رسول الله ﷺ فخذوا بسنة رسول الله ﷺ ودعوا ما قلت.

وقال: إذا صح الحديث بما يخالف قولي فاضربوا بقولي الحائط.

وقال مالك: كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله ﷺ.

وتقدم له مثل ذلك، فلا عذر لمقلد بعد هذا. ولو استقصينا كلام

العلماء في هذا لخرج عما قصدناه من الاختصار، وفيما ذكرناه كفاية لطالب الهدى.

قوله: «لعله إذا رد بعض قوله» أي قول الرسول ﷺ **«أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك»** نبه رحمه الله أن رد قول الرسول ﷺ سبب لزيغ القلب، وذلك هو الهلاك في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ۝٥﴾ [الصف: ٥].

قال شيخ الإسلام رحمه الله في معنى قول الله تعالى: ﴿فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ﴾ فإذا كان المخالف لأمره قد حذر من الكفر والشرك؛ أو من العذاب الأليم، دل على أنه قد يكون مفضياً إلى الكفر والعذاب الأليم. ومعلوم أن إفضاءه إلى العذاب الأليم هو مجرد فعل المعصية، فإفضاؤه إلى الكفر إنما هو لما يقترن به من الاستخفاف في حق الأمر؛ كما فعل إبليس لعنه الله تعالى اهـ.

وقال أبوجعفر بن جرير رحمه الله تعالى عن الضحاك ﴿فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ﴾ قال: يطبع على قلبه فلا يؤمن أن يظهر الكفر بلسانه فتضرب عنقه.

قال أبوجعفر بن جرير: أدخلت «عن» لأن معنى الكلام: فليحذر الذين يلوذون عن أمره، ويدبرون عنه معرضين.

قوله: «أو يصيبهم» في عاجل الدنيا عذاب من الله موجع على خلافهم أمر رسول الله ﷺ.

عن عدي بن حاتم «أنه سمع النبي ﷺ يقرأ هذه الآية: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ

﴿إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة: ٣١] فقلت له: إنا لسنا نعبدهم، قال: أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرم الله فتحلونه، فقلت: بلى قال: فتلك عبادتهم» رواه أحمد والترمذي وحسنه.

قوله: «عن عدي بن حاتم ـ رضي الله عنه ـ: «أنه سمع النبي ﷺ يقرأ هذه الآية: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ الآية [التوبة: ٣١] فقلت له: إنا لسنا نعبدهم، قال: أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرم الله فتحلونه، فقلت: بلى قال: فتلك عبادتهم» رواه أحمد والترمذي وحسنه».

هذا الحديث قد روي من طرق. فرواه ابن سعد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن جرير وابن أبي حاتم والطبراني، وأبوالشيخ وابن مردويه والبيهقي.

قوله: «عن عدي بن حاتم» أي الطائي المشهور. وحاتم هو ابن عبدالله بن سعد بن الحشرج ـ بفتح الحاء ـ المشهور بالسخاء والكرم. قدم عدي على النبي ﷺ في شعبان سنة تسع من الهجرة فأسلم. وعاش مائة وعشرين سنة.

وفي الحديث دليل على أن طاعة الأحبار والرهبان في معصية الله عبادة لهم من دون الله، ومن الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله؛ لقوله تعالى في آخر الآية: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾﴾ ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [الأنعام: ١٢١] وهذا قد وقع فيه

كثير من الناس مع من قلدوهم، لعدم اعتبارهم الدليل إذا خالف المقلد، وهو من هذا الشرك، ومنهم من يغلوا في ذلك ويعتقد أن الأخذ بالدليل ـ والحالة هذه ـ يكره، أو يحرم؛ فعظمت الفتنة. ويقول: هم أعلم منا بالأدلة، ولا يأخذ بالدليل إلا المجتهد. وربما تفوهوا بذم من يعمل بالدليل، ولا ريب أن هذا من غربة الإسلام، كما قال شيخنا رحمه الله في المسائل.

فتغيرت الأحوال، وآلت إلى هذه الغاية. فصارت عند الأكثر عبادة الرهبان هي أفضل الأعمال، ويسمونها ولاية، وعبادة الأحبار هي العلم والفقه. ثم تغيرت الحال إلى أن عبد من ليس من الصالحين، وعبد بالمعنى الثاني من هو من الجاهلين.

وأما طاعة الأمراء ومتابعتهم فيما يخالف ما شرعه الله ورسوله: فقد عمت بها البلوى قديماً وحديثاً في أكثر الولاة بعد الخلفاء الراشدين وهلم جرا. وقد قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾﴾ [القصص: ٥٠].

وعن زياد بن حُدير قال: قال لي عمر رضي الله عنه: «هل تعرف ما يهدم الإسلام؟ قلت: لا. قال: يهدمه زلة العالم. وجدال المنافق بالقرآن، وحكم الأئمة المضلين» رواه الدارمي.

جعلنا الله وإياكم من الذين يهدون بالحق وبه يعدلون.

فيــه مســائل:

الأولى: تفسير آية النور.

الثانيـة: تفسير آية براءة.

الثالثـة: التنبيه على معنى العبادة التي أنكرها عدي.

الرابعــة: تمثيل ابن عباس بأبي بكر وعمر، وتمثيل أحمد بسفيان.

الخامسة: تغير الأحوال إلى هذه الغاية حتى صار عند الأكثر عبادة الرهبان هي أفضل الأعمال، وتسمى الولاية. وعبادة الأحبار: هي العلم والفقه، ثم تغيرت الحال إلى أن عُبِدَ من دون الله من ليس من الصالحين. وعُبد بالمعنى الثاني من هو من الجاهلين.

باب قول الله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا (٦٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا (٦١) فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا (٦٢)﴾ [النساء].

باب قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ «الآيات»[(١)].

(١) لما كان التوحيد الذي هو معنىٰ شهادة أن لا إله إلاَّ الله مشتملاً على الإيمان بالرسول ﷺ مستلزماً له، وذلك هو الشهادتان ولهذا جعلها النبي ﷺ ركناً واحداً في قوله: «**بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلاَّ الله وأن محمداً رسول الله..**» إلخ نبه في هذا الباب على ما تضمنه التوحيد واستلزمه من تحكيم الرسول ﷺ في موارد النزاع إذ هو مقتضىٰ شهادة أن لا إله إلاَّ الله ولازمها الذي لابد منه لكل مؤمن، فإن من عرف أن [لا إله إلاَّ الله] فلابد من الانقياد لحكم الله والتسليم لأمره الذي جاء من عنده على يد رسوله محمد ﷺ، فمن شهد أن لا إله إلاَّ الله ثم عدل إلى تحكيم غير الرسول ﷺ في موارد النزاع فقد كذب في شهادته، وإن شئت قلت لما كان التوحيد مبنياً على الشهادتين إذ لا تنفك إحداهما عن الأخرىٰ لتلازمهما وكان ما تقدم من هذا الكتاب في معنى شهادة [أن لا إله إلاَّ الله] التي تتضمن حق الله على عباده نبه في هذا الباب على معنى شهادة أن محمداً رسول الله التي تتضمن حق الرسول ﷺ، ومن ذلك متابعته وتحكيمه في موارد النزاع وترك التحاكم =

قال العماد ابن كثير رحمه الله تعالى: والآية ذامة لمن عدل عن الكتاب والسنة، وتحاكم إلى ما سواهما من الباطل، وهو المراد بالطاغوت هاهنا.

وتقدم ما ذكره العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى في حده للطاغوت، وأنه كل ما تجاوز به العبد حده: من معبود أو متبوع أو مطاع، فكل من حاكم إلى غير كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فقد حاكم إلى الطاغوت الذي أمر الله تعالى عباده المؤمنين أن يكفروا به، فإن التحاكم ليس إلا إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ومن كان يحكم بهما. فمن تحاكم إلى غيرهما، فقد تجاوز به حده، وخرج عما شرعه الله ورسوله ﷺ، وأنزله منزلة لا يستحقها، وكذلك من عبد شيئاً دون الله فإنما عبد الطاغوت، فإن كان المعبود صالحاً صارت عبادة العابد له راجعة إلى الشيطان الذي أمره بها، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ ﴿٢٨﴾ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٩﴾ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [يونس: ٢٨ ـ ٣٠] وكقوله: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهَٰؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سبأ: ٤٠ ـ ٤١].

وإن كان ممن يدعو إلى عبادة نفسه، أو كان شجراً أو حجراً أو قبراً أو غير ذلك مما يتخذه المشركون أصناماً على صور الصالحين والملائكة وغير ذلك، فهي من الطاغوت الذي أمر الله تعالى عباده أن

= إلى غيره.

يكفروا بعبادته، ويتبرؤوا منه، ومن عبادة كل معبود سوى الله كائناً من كان، وهذا كله من عمل الشيطان وتسويله، فهو الذي دعا إلى كل باطل وزينه لمن فعله، وهذا ينافي التوحيد الذي هو معنى شهادة أن لا إله إلا الله.

فالتوحيد: هو الكفر بكل طاغوت عبده العابدون من دون الله، كما قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤] وكل من عبد غير الله فقد جاوز به حده وأعطاه من العبادة ما لا يستحقه.

قال الإمام مالك رحمه الله: الطاغوت: ما عبد من دون الله.

وكذلك من دعا إلى تحكيم غير الله ورسوله فقد ترك ما جاء به الرسول ﷺ ورغب عنه، وجعل لله شريكاً في الطاعة، وخالف ما جاء به رسول الله ﷺ فيما أمره الله تعالى به في قوله: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩] وقوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء: ٦٥].

فمن خالف ما أمر الله به ورسوله ﷺ بأن حكم بين الناس بغير ما أنزل الله؛ أو طلب ذلك اتباعاً لما يهواه ويريده، فقد خلع ربقة الإسلام والإيمان من عنقه. وإن زعم أنه مؤمن، فإن الله تعالى أنكر على من أراد ذلك، وأكذبهم في زعمهم الإيمان لما في ضمن قوله: «يزعمون» من نفي إيمانهم؛ فإن «يزعمون» إنما يقال غالباً لمن ادعى دعوى هو فيها كاذب لمخالفته لموجبها، وعمله بما ينافيها. يحقق هذا قوله:

﴿وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ﴾ لأن الكفر بالطاغوت ركن التوحيد، كما في آية البقرة، فإذا لم يحصل هذا الركن لم يكن موحداً، والتوحيد هو أساس الإيمان الذي تصلح به جميع الأعمال وتفسد بعدمه. كما أن ذلك بين في قوله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٥٦] وذلك أن التحاكم إلى الطاغوت إيمان به.

قوله: ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾ يبين تعالى في هذه الآية: أن التحاكم إلى الطاغوت مما يأمر به الشيطان ويزينه لمن أطاعه، ويبين أن ذلك مما أضل به الشيطان من أضله وأكده بالمصدر، ووصفه بالبعد، فدل على أن ذلك من أعظم الضلال وأبعده عن الهدى.

ففي الآية أربعة أمور. الأول: أنه من إرادة الشيطان. الثاني: أنه ضلال. الثالث: تأكيده بالمصدر. الرابع: وصفه بالبعد عن سبيل الحق والهدى.

فسبحان الله؛ ما أعظم هذا القرآن وما أبلغه، وما أدله على أنه كلام رب العالمين، أوحاه إلى رسوله الكريم، وبلغه عبده الصادق الأمين. صلوات الله وسلامه عليه.

قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾ بين تعالى أن هذه صفة المنافقين، وأن من فعل ذلك أو طلبه، وإن زعم أنه مؤمن فإنه في غاية البعد من الإيمان.

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى: هذا دليل على أن من دعي إلى تحكيم الكتاب والسنة فأبى أنه من المنافقين.

قوله: ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ لازم. وهو بمعنى يعرضون؛ لأن مصدره «صدوداً» فما أكثر من اتصف بهذا الوصف، خصوصاً ممن يدعي العلم. فإنهم

صدوا عما توجبه الأدلة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ إلى أقوال من يخطىء كثيراً ممن ينتسب إلى الأئمة الأربعة في تقليدهم من لا يجوز تقليده، واعتمادهم على قول من لا يجوز الاعتماد على قوله، ويجعلون قوله المخالف لنص الكتاب والسنة وقواعد الشريعة هو المعتمد عندهم الذي لا تصح الفتوى إلا به. فصار المتبع للرسول ﷺ بين أولئك غريباً، كما تقدم التنبيه على هذا في الباب الذي قبل هذا.

فتدبر هذه الآيات وما بعدها يتبين لك ما وقع فيه غالب الناس من الإعراض عن الحق وترك العمل به في أكثر الوقائع. والله المستعان.

وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾﴾ [البقرة: ١١].

قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾﴾ قال أبوالعالية في الآية. يعني: لا تعصوا في الأرض؛ لأن من عصى الله في الأرض؛ أو أمر بمعصية الله: فقد أفسد في الأرض؛ لأن صلاح الأرض والسماء إنما هو بطاعة الله ورسوله.

وقد أخبر تعالى عن إخوة يوسف عليه السلام في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [يوسف: ٧٠ ـ ٧٣] فدلت الآية على أن كل معصية فساد في الأرض.

ومناسبة الآية للترجمة: أن التحاكم إلى غير الله ورسوله من أعمال المنافقين. وهو من الفساد في الأرض.

وفي الآية: التنبيه على عدم الاغترار بأقوال أهل الأهواء وإن

زخرفوها بالدعوى. وفيها: التحذير من الاغترار بالرأي، ما لم يقم على صحته دليل من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ. فما أكثر من يصدق بالكذب ويكذب بالصدق إذا جاءه، وهذا من الفساد في الأرض، ويترتب عليه من الفساد أمور كثيرة تخرج صاحبها عن الحق وتدخله في الباطل. نسأل الله العفو والعافية والمعافاة الدائمة في الدين والدنيا والآخرة.

فتدبر تجد ذلك في حال الأكثر إلا من عصمه الله، ومنَّ عليه بقوة داعي الإيمان، وأعطاه عقلاً كاملاً عند ورود الشهوات، وبصراً نافذاً عند ورود الشبهات. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

وقوله: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الأعراف: ٥٦].

قوله: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ قال أبوبكر بن عياش في الآية: إن الله بعث محمداً ﷺ إلى أهل الأرض وهم في فساد، فأصلحهم الله بمحمد ﷺ. فمن دعا إلى خلاف ما جاء به محمد ﷺ فهو من المفسدين في الأرض.

وقال ابن القيم رحمه الله: قال أكثر المفسرين: لا تفسدوا فيها بالمعاصي، والدعاء إلى غير طاعة الله، بعد إصلاح الله لها ببعث الرسل، وبيان الشريعة، والدعاء إلى طاعة الله؛ فإن عبادة غير الله والدعوة إلى غيره والشرك به: هو أعظم فساد في الأرض، بل فساد الأرض في الحقيقة إنما هو بالشرك به ومخالفة أمره. فالشرك والدعوة إلى غير الله وإقامة معبود غيره، ومطاع متبع غير رسول الله ﷺ: هو أعظم فساد في الأرض، ولا صلاح لها ولا لأهلها إلا بأن يكون الله

وحده هو المعبود المطاع، والدعوة له لا لغيره. والطاعة والاتباع لرسوله ليس إلا. وغيره إنما تجب طاعته إذا أمر بطاعة الرسول ﷺ. فإذا أمر بمعصيته وخلاف شريعته فلا سمع له ولا طاعة.

ومن تدبر أحوال العالم وجد كل صلاح في الأرض فسببه توحيد الله وعبادته وطاعة رسوله، وكل شر في العالم وفتنة وبلاء وقحط وتسليط عدو وغير ذلك فسببه: مخالفة رسوله، والدعوة إلى غير الله ورسوله. اهـ.

ووجه مطابقة هذه الآية للترجمة: أن التحاكم إلى غير الله ورسوله من أعظم ما يفسد الأرض من المعاصي، فلا صلاح لها إلا بتحكيم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وهو سبيل المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء: ١١٥].

وقوله: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [المائدة: ٥٠].

قوله: «وقول الله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾».

قال ابن كثير رحمه الله: ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله تعالى المشتمل على كل خير، الناهي عن كل شر، وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الجهالات والضلالات، كما يحكم به التتار من السياسات المأخوذة عن جنكزخان الذي وضع لهم «الياسق» وهو عبارة عن كتاب أحكام قد اقتبسها من

شرائع شتى: من اليهودية والنصرانية والملة الإسلامية، وفيها كثير من الأحكام أخذها عن مجرد نظره وهواه. فصارت في بنيه شرعاً يقدمونها على الحكم بالكتاب والسنة. فمن فعل ذلك: فهو كافر يجب قتاله حتى يرجع إلى حكم الله ورسوله، فلا يحكم بسواه في قليل ولا كثير.

قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾ استفهام إنكار، أي لا حكم أحسن من حكمه تعالى. وهذا من باب استعمال أفعل التفضيل فيما ليس له في الطرف الآخر مشارك، أي: ومن أعدل من الله حكماً لمن عقل عن الله شرعه، وآمن وأيقن أنه تعالى أحكم الحاكمين، وأرحم بعباده من الوالدة بولدها، العليم بمصالح عباده، القادر على كل شيء، الحكيم في أقواله وأفعاله، وشرعه وقدره؟

وفي الآية: التحذير من حكم الجاهلية، واختياره على حكم الله ورسوله، فمن فعل ذلك فقد أعرض عن الأحسن، وهو الحق، إلى ضده من الباطل.

عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به» قال النووي: حديث صحيح، رويناه في كتاب الحجة بإسناد صحيح.

قوله: **«عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به» قال النووي: حديث صحيح، رويناه في كتاب الحجة بإسناد صحيح».**

هذا الحديث رواه الشيخ أبوالفتح نصر بن إبراهيم المقدسي الشافعي في كتاب «الحجة على تارك المحجة» بإسناد صحيح، كما قاله

المصنف رحمه الله عن النووي. ورواه الطبراني وأبوبكر بن عاصم، والحافظ أبونعيم في «الأربعين» التي شرط لهاأن تكون من صحيح الأخبار، وشاهده في القرآن: قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ الآية [النساء: ٦٥] وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦] وقوله: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ [القصص: ٥٠] ونحو هذه الآيات.

قوله: «لا يؤمن أحدكم» أي لا يكون من أهل كمال الإيمان الواجب الذي وعد الله أهله عليه بدخول الجنة والنجاة من النار. وقد يكون في درجة أهل الإساءة والمعاصي من أهل الإسلام.

قوله: «حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به».

«الهوى» بالقصر، أي: ما يهواه وتحبه نفسه وتميل إليه.

فإن كان الذي تحبه وتميل إليه نفسه ويعمل به تابعاً لما جاء به رسول الله ﷺ لا يخرج عنه إلا ما يخالفه. فهذه صفة أهل الإيمان المطلق.

وإن كان بخلاف ذلك أو في بعض أحواله أو أكثرها انتفى عنه من الإيمان كماله الواجب، كما في حديث أبي هريرة **«لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن»** يعني أنه بالمعصية ينتفي كمال الإيمان الواجب، وينزل عنه في درجة الإسلام، وينقص إيمانه، فلا يطلق عليه الإيمان إلا بقيد المعصية، أو الفسوق، فيقال: مؤمن عاص، أو يقال: مؤمن بإيمانه فاسق بمعصيته، فيكون معه مطلق الإيمان الذي لا يصح إسلامه إلا به. كما قال تعالى: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾ [النساء: ٩٢].

والأدلة على ما عليه سلف الأمة وأئمتها ـ: أن الإيمان قول وعمل ونية، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية: من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ ـ أكثر من أن تحصر.

فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَـٰنَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣] أي صلاتكم إلى بيت المقدس قبل تحويل القبلة، وقول النبي ﷺ لوفد عبد القيس «**آمركم بالإيمان بالله وحده، أتدرون ما الإيمان بالله وحده؟ شهادة أن لا إله إلا الله**» الحديث، وهو في «الصحيحين» و«السنن».

والدليل على أن الإيمان يزيد قوله تعالى: ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِيمَـٰنًا﴾ الآية [المدثر: ٣١] وقوله: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا﴾ الآية[التوبة: ١٢٤] خلافاً لمن قال: إن الإيمان هو القول، وهم المرجئة، ولمن قال: إن الإيمان هو التصديق كالأشاعرة.

ومن المعلوم عقلاً وشرعاً: أن نية الحق تصديق، والعمل به تصديق، وقول الحق تصديق، وليس مع أهل البدع ما ينافي قول أهل السنة والجماعة. ولله الحمد والمنة.

قال الله تعالى: ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُواْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ﴾ [البقرة: ١٧٧] أي فيما عملوا به في هذه الآية من الأعمال الظاهرة والباطنة. وشاهده في كلام العرب قولهم: حملة صادقة.

وقد سمىٰ الله تعالى «الهوى» المخالف لما جاء به الرسول ﷺ إلهاً، فقال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الفرقان: ٤٣] قال بعض

المفسرين: لا يهوى شيئاً إلا ركبه.

قال ابن رجب رحمه الله: أما معنى الحديث: فهو أن الإنسان لا يكون مؤمناً كامل الإيمان الواجب حتى تكون محبته تابعة لما جاء به الرسول ﷺ من الأوامر والنواهي وغيرها. فيحب ما أمر به، ويكره ما نهى عنه، وقد رد القرآن بمثل هذا المعنى في غير موضع، وذم سبحانه من كره ما أحبه الله، أو أحب ما كرهه الله، كما قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٨﴾ ﴾ [محمد: ٢٨].

فالواجب على كل مؤمن أن يحب ما أحبه الله محبة توجب له الإتيان بما أوجب عليه منه، فإن زادت المحبة حتى أتى بما ندب إليه منه كان ذلك فضلاً، وأن يكره ما يكرهه الله كراهة توجب له الكف عما حرم عليه منه، فإن زادت الكراهة حتى أوجبت الكف عما كرهه تنزيهاً كان ذلك فضلاً.

فمن أحب الله ورسوله محبة صادقة من قلبه أوجب ذلك له أن يحب بقلبه: ما يحب الله ورسوله، ويكره ما يكرهه الله ورسوله، فيرضى ما يرضى به الله ورسوله، ويسخط ما يسخط الله ورسوله، ويعمل بجوارحه بمقتضى هذا الحب والبغض، فإن عمل بجوارحه شيئاً يخالف ذلك، بأن ارتكب بعض ما يكرهه الله ورسوله، وترك ما يحبه الله ورسوله، مع وجوبه والقدرة عليه ـ دل ذلك على نقص محبته الواجبة، فعليه أن يتوب من ذلك ويرجع إلى تكميل المحبة الواجبة التي هي ركن العبادة إذا كملت. فجميع المعاصي تنشأ عن تقديم هوى النفس على محبة الله ورسوله.

وقد وصف الله المشركين باتباع الهوى في مواضع من كتابه، فقال

تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠].

وكذلك البدع إنما تنشأ من تقديم الهوى على الشرع. ولهذا سمى أهلها أهل الأهواء، وكذلك المعاصي إنما تنشأ من تقديم الهوى على محبة الله ومحبة ما يحبه.

وكذلك حب الأشخاص، الواجب فيه أن يكون تبعاً لما جاء به الرسول ﷺ، فيجب على المؤمن محبة من يحبه الله من الملائكة والرسل والأنبياء والصديقين والشهداء والصالحين عموماً، ولهذا كان من علامات وجود حلاوة الإيمان: أن يحب المرء لا يحبه إلا لله، فتحرم موالاة أعداء الله ومن يكرهه الله عموماً، وبهذا يكون الدين كله لله، ومن أحب لله وأبغض لله، وأعطى لله ومنع لله، فقد استكمل الإيمان، ومن كان حبه وبغضه وعطاؤه ومنعه لهوى نفسه: كان ذلك نقصاً في إيمانه الواجب. فتجب التوبة من ذلك. انتهى ملخصاً.

ومناسبة الحديث للترجمة: بيان الفرق بين أهل الإيمان وأهل النفاق والمعاصي في أقوالهم وأفعالهم وإراداتهم.

وقال الشعبي: «كان بين رجل من المنافقين ورجل من اليهود خصومة، فقال اليهودي: نتحاكم إلى محمد ـ لأنه عرف أنه لا يأخذ الرشوة ـ وقال المنافق: نتحاكم إلى اليهود؛ لعلمه أنهم يأخذون الرشوة. فاتفقا أن يأتيا كاهناً في جهينة فيتحاكما إليه، فنزلت ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾ الآية.

وقيل: «نزلت في رجلين اختصما، فقال أحدهما: نترافع إلى النبي ﷺ، وقال الآخر: إلى كعب بن الأشرف، ثم ترافعا إلى عمر، فذكر له أحدهما القصة فقال للذي لم يرض برسول الله ﷺ: أكذلك؟ قال: نعم، فضربه بالسيف فقتله».

قوله: «وقال الشعبي» هو عامر بن شراحيل الكوفي، عالم أهل زمانه، وكان حافظاً علامة، ذا فنون. كان يقول: «ما كتبت سوداء في بيضاء [إلا حفظته]»، وأدرك خلقاً كثيراً من الصحابة. وعاش بضعاً وثمانين سنة. قاله الذهبي.

وفيما قاله الشعبي ما يبين أن المنافق يكون أشد كراهة لحكم الله ورسوله من اليهود والنصارى. ويكون أشد عداوة منهم لأهل الإيمان، كما هو الواقع في هذه الأزمنة وقبلها من إعانة المنافقين العدو على المسلمين، وحرصهم على إطفاء نور الإسلام والإيمان.

ومن تدبر ما في التاريخ وما وقع منهم من الوقائع عرف أن هذا حال المنافقين قديماً وحديثاً، وقد حذر الله نبيه ﷺ من طاعتهم والقرب منهم، وحضه على جهادهم في مواضع من كتابه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ الآية [التحريم: ٩] وفي قصة عمر رضي الله عنه وقتله المنافق الذي طلب التحاكم إلى كعب بن الأشرف اليهودي: دليل على قتل من أظهر الكفر والنفاق.

وكان كعب بن الأشرف هذا شديد العداوة للنبي ﷺ والأذى له، والإظهار لعداوته، فانتقض به عهده. وحل به قتله. وروى مسلم في

«صحيحه» عن عمرو: سمعت جابراً يقول: قال رسول الله ﷺ: **من لكعب بن الأشرف؟ فإنه آذى الله ورسوله**. قال محمد بن مسلمة: يارسول الله، أتحب أن أقتله؟ قال: **نعم**. قال: ائذن لي فلأقل، قال: قل، فأتاه فقال له، وذكر ما بينهما وقال: إن هذا الرجل قد أراد صدقة وقد عنانا. فلما سمعه قال: وأيضاً والله لتملنه، قال: إنا قد اتبعناه الآن، ونكره أن ندعه حتى ننظر إلى أي شيء يصير أمره، قال: وقد أردت أن تسلفني سلفاً. قال: فما ترهنني؟ قال: ما تريد؟ قال: ترهنني نساءكم؟ قال: أنت أجمل العرب، أنرهنك نساءنا؟ قال: ترهنوني أولادكم؟ قال: يسب ابن أحدنا فيقال: رُهن في وسقين من تمر. ولكن نرهنك اللامة ـ يعني السلاح ـ قال: فنعم. وواعده أن يأتيه بالحارث وأبي عبس ابن جبر وعباد بن بشر. قال: فجاؤوا فدعوه ليلاً فنزل إليهم، قال سفيان قال غير عمرو: قالت له امرأته: إني أسمع صوتاً كأنه صوت دم، قال: إنما هذا محمد بن مسلمة ورضيعه وأبونائلة إن الكريم لو دعي إلى طعنة ليلاً لأجاب، قال محمد: إني إذا جاء فسوف أمد يدي إلى رأسه، فإذا استمكنت منه فدونكم، قال: فلما نزل، نزل وهو متوشح فقالوا: نجد منك ريح الطيب، قال: نعم، تحتي فلانة أعطر نساء العرب، قال: فتأذن لي أن أشم منه؟ قال: نعم فشم، فتناول فشم، ثم قال: أتأذن لي أن أعود؟: قال: فاستمكن من رأسه. ثم قال: دونكم. قال فقتلوه».

وفي قصة عمر: بيان أن المنافق المغموص بالنفاق إذا أظهر نفاقه قتل، كما في «الصحيحين» وغيرهما: أن النبي ﷺ إنما ترك قتل من أظهر نفاقه منهم تأليفاً للناس، فإنه قال: **«لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه»** فصلوات الله وسلامه عليه.

فيــه مســائل:

الأولــى: تفسير آية النساء وما فيها من الإعانة على فهم الطاغوت.

الثانيــة: تفسير آية البقرة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الآية.

الثالثــة: تفسير آية الأعراف: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾.

الرابعــة: تفسير: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾.

الخامسة: ما قال الشعبي في سبب نزول الآية الأولى.

السادسة: تفسير الإيمان الصادق والكاذب.

السابعـة: قصة عمر مع المنافق.

الثامنة: كون الإيمان لا يحصل لأحد حتى يكون هواه تبعاً لما جاء به الرسول ﷺ.

باب من جحد شيئاً من الأسماء والصفات،

وقول الله تعالى: ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ ﴾ [الرعد: ٣٠]

قوله: «باب من جحد شيئاً من الأسماء والصفات، وقول الله تعالى: ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾ ﴾.

سبب نزول هذه الآية معلوم مذكور في كتب التفسير وغيرها. وهو أن مشركي قريش جحدوا اسم ﴿ الرَّحْمَٰنَ ﴾ عناداً، وقال تعالى: ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ۚ ﴾ [الإسراء: ١١٠] و﴿ الرَّحْمَٰنَ ﴾ اسمه وصفته، دل هذا الاسم على أن الرحمة صفته سبحانه؛ وهي من صفات الكمال.

فإذا كان المشركون جحدوا اسماً من أسمائه تعالى، وهو من الأسماء التي دلت على كماله سبحانه وبحمده، فجحود معنى هذا الاسم ونحوه من الأسماء يكون كذلك، فإن جهم بن صفوان ومن تبعه يزعمون أنها لا تدل على صفة قائمة بالله تعالى. وتبعهم على ذلك طوائف من المعتزلة والأشاعرة وغيرهم، فلهذا كفرهم كثيرون من أهل السنة. قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى:

ولقد تقلد كفرهم خمسون في ... عشر من العلماء في البلدان
واللالكائي الإمام حكاه عنـ ... ـهم بل حكاه قبله الطبراني

فإن هؤلاء الجهمية ومن وافقهم على التعطيل جحدوا ما وصف الله به نفسه، ووصفه به رسوله من صفات كماله ونعوت جلاله، وبنوا هذا التعطيل على أصل باطل أصّلوه من عند أنفسهم، فقالوا: هذه الصفات

هي صفات الأجسام. فيلزم من إثباتها أن يكون الله جسماً. هذا منشأ ضلال عقولهم، لم يفهموا من صفات الله إلا ما فهموه من خصائص صفات المخلوقين، فشبهوا الله في ابتداء آرائهم الفاسدة بخلقه، ثم عطلوه عن صفات كماله، وشبهوه بالناقصات والجمادات والمعدومات، فشبهوا أولاً، وعطلوا ثانياً، وشبهوه ثالثاً بكل ناقص ومعدوم، فتركوا ما دل عليه الكتاب والسنة من إثبات ما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله على ما يليق بجلاله وعظمته. وهذا هو الذي عليه سلف الأمة وأئمتها. فإنهم أثبتوا لله ما أثبته لنفسه وأثبته له رسوله ﷺ، إثباتاً بلا تمثيل، وتنزيهاً بلا تعطيل. فإن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات يحتذى حذوه. فكما أن هؤلاء المعطلة يثبتون لله ذاتاً لا تشبه الذوات. فأهل السنة يقولون ذلك، ويثبتون ما وصف الله به نفسه، ووصفه به رسوله من صفات كماله ونعوت جلاله، لا تشبه صفاته صفات خلقه، فإنهم آمنوا بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ولم يتناقضوا، وأولئك المعطلة كفروا بما في الكتاب والسنة من ذلك، وتناقضوا. فبطل قول المعطلين بالعقل والنقل، ولله الحمد والمنة، وإجماع أهل السنة من الصحابة والتابعين وتابعيهم وأئمة المسلمين.

وقد صنف العلماء رحمهم الله تعالى في الرد على الجهمية والمعطلة والمعتزلة والأشاعرة وغيرهم في إبطال هذه البدع وما فيها من التناقض والتهافت، كالإمام أحمد في رده المشهور، وكتاب السنة لابنه عبدالله، وصاحب «الحيدة» عبدالعزيز الكناني في رده على بشر المريسي. وكتاب السنة لأبي عبدالله المروزي، ورد عثمان بن سعيد على الكافر العنيد وهو بشر المريسي. وكتاب التوحيد لإمام الأئمة محمد بن خزيمة الشافعي، وكتاب السنة لأبي بكر الخلال، وأبي عثمان الصابوني

الشافعي، وشيخ الإسلام الأنصاري، وأبي عمر ابن عبدالبر النمري، وخلق كثير من أصحاب الأئمة الأربعة وأتباعهم، وأهل الحديث ومن متأخريهم أبومحمد عبدالله بن أحمد بن قدامة، وشيخ الإسلام ابن تيمية وأصحابه وغيرهم رحمهم الله تعالى، فلله الحمد والمنة على بقاء السنة وأهلها مع تفرق الأهواء وتشعب الآراء، والله أعلم.

وفي «صحيح البخاري» قال علي: «حدثوا الناس بما يعرفون، أتريدون أن يُكَذَّب الله ورسوله».

قوله: وفي «صحيح البخاري» عن علي رضي الله عنه: «حدثوا الناس بما يعرفون، أتريدون أن يُكَذَّب الله ورسوله».

«علي» هو أمير المؤمنين أبوالحسن علي بن أبي طالب، وأحد الخلفاء الراشدين. وسبب هذا القول ـ والله أعلم ـ ما حدث في خلافته من كثرة إقبال الناس على الحديث، وكثرة القصاص وأهل الوعظ، فيأتون في قصصهم بأحاديث لا تعرف من هذا القبيل. فربما استنكرها بعض الناس وردها. وقد يكون لبعضها أصل أو معنى صحيح، فيقع بعض المفاسد لذلك، فأرشدهم أمير المؤمنين رضي الله عنه إلى أنهم لا يحدثون عامة الناس إلا بما هو معروف، ينفع الناس في أصل دينهم وأحكامه، من بيان الحلال من الحرام الذي كلفوا به علماً وعملاً، دون ما يشغل عن ذلك، مما قد يؤدي إلى رد الحق وعدم قبوله، فيفضي بهم إلى التكذيب، ولاسيما مع اختلاف الناس في وقته، وكثرة خوضهم وجدلهم.

وقد كان شيخنا المصنف رحمه الله لا يحب أن يقرأ على الناس إلاَّ ما ينفعهم في أصل دينهم وعبادتهم ومعاملاتهم الذي لا غنى لهم عن

معرفته، وينهاهم عن القراءة في مثل كتب ابن الجوزي. «كالمنعش»، و«المرعش»، و«التبصرة»، لما في ذلك من الإعراض عما هو أوجب وأنفع، وفيها ما الله به أعلم مما لا ينبغي اعتقاده، والمعصوم من عصمه الله.

وقد كان أمير المؤمنين معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه ينهى القصاص عن القصص، لما في قصصهم من الغرائب والتساهل في النقل وغير ذلك، ويقول: لا يقص إلا أمير أو مأمور. وكل هذا محافظة على لزوم الثبات على الصراط المستقيم علماً وعملاً ونية وقصداً، وترك كل ما كان وسيلة إلى الخروج عنه من البدع ووسائلها، والله الموفق للصواب، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وروى عبدالرزاق عن معمر، عن ابن طاوس، عن أبيه، عن ابن عباس «أنه رأى رجلاً انتفض ـ لما سمع حديثاً عن النبي ﷺ في الصفات، استنكاراً لذلك ـ فقال: ما فَرَقُ هؤلاء؟ يجدون رِقّة عند محكمه. ويهلكون عند متشابهه» انتهى.

قوله: «وروى عبدالرزاق عن معمر، عن ابن طاوس، عن أبيه، عن ابن عباس «أنه رأى رجلاً انتفض ـ لما سمع حديثاً عن النبي ﷺ في الصفات، استنكاراً لذلك ـ فقال: ما فَرَقُ هؤلاء؟ يجدون رِقّة عند محكمه. ويهلكون عند متشابهه».

قوله: «وروى عبدالرزاق» هو ابن همام الصنعاني المحدث، محدث اليمن صاحب التصانيف، أكثر الرواية عن معمر بن راشد صاحب

الزهري. وهو شيخ عبدالرزاق يروي عنه كثيراً.

ومعمر ـ بفتح الميمين وسكون العين ـ أبوعروة بن أبي عمرو، راشد الأزدي الحراني ثم اليماني، أحد الأعلام من أصحاب محمد بن شهاب الزهري، يروي عنه كثيراً.

قوله: «عن ابن طاوس» هو عبدالله بن طاوس اليماني. قال معمر: كان من أعلم الناس بالعربية. وقال ابن عيينة: مات سنة اثنتين وثلاثين ومائة.

قوله: «عن أبيه» هو طاوس بن كيسان الجندي ـ بفتح الجيم والنون ـ الإمام العلم، قيل: اسمه ذكوان، قاله ابن الجوزي.

قلت: وهو من أئمة التفسير ومن أوعية العلم. قال في «تهذيب الكمال»: عن الوليد الموقري عن الزهري قال: «قدمت على عبدالملك بن مروان، فقال: من أين قدمت يازهري؟ قال: قلت: من مكة، قال: ومن خلفت يسودها وأهلها؟ قلت: عطاء بن أبي رباح، قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قلت: من الموالي، قال: فبم سادهم؟ قال: قلت: بالديانة والرواية. قال: إن أهل الديانة والرواية لينبغي أن يسودوا. قال: فمن يسود أهل اليمن؟ قلت: طاوس بن كيسان، قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قال: قلت: من الموالي؟ قال: فبم سادهم؟ قلت: بما ساد به عطاء، قال: إنه لينبغي ذلك، قال: فمن يسود أهل مصر؟ قلت: يزيد بن حبيب، قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قال: قلت: من الموالي، قال: فمن يسود أهل الشام؟ قلت: مكحول. قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قال: قلت: من الموالي، عبد نوبي أعتقته امرأة من هذيل، قال: فمن يسود أهل الجزيرة؟ قلت: ميمون بن مهران، قال: فمن العرب أم من الموالي؟

قال: قلت: من الموالي، قال: فمن يسود أهل خراسان؟ قال: قلت: الضحاك بن مزاحم، قال فمن العرب أم من الموالي؟ قال: قلت: من الموالي. قال: فمن يسود أهل البصرة؟ قال: قلت: الحسن البصري، قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قال: قلت: من الموالي، قال: ويلك، ومن يسود أهل الكوفة؟ قال: قلت: إبراهيم النخعي، قال: فمن العرب أم من الموالي؟ قال: قلت: من العرب، قال: ويلك يازهري، فرجت عني، والله لتسودن الموالي على العرب في هذا البلد، حتى يخطب لها على المنابر والعرب تحتها. قال: قلت: ياأمير المؤمنين، إنما هو دين. من حفظه ساد ومن ضيعه سقط».

قوله: «عن ابن عباس» قد تقدم، وهو حبر الأمة وترجمان القرآن، ودعا له النبي ﷺ، وقال: **«اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل»** وروى عنه أصحابه أئمة التفسير، كمجاهد وسعيد بن جبير، وعطاء بن أبي رباح، وطاوس وغيرهم.

قوله: «ما فرق هؤلاء» يستفهم من أصحابه، يشير إلى أناس ممن يحضر مجلسه من عامة الناس، فإذا سمعوا شيئاً من محكم القرآن ومعناه حصل معهم فرق أي خوف، فإذا سمعوا شيئاً من أحاديث الصفات انتفضوا كالمنكرين له، فلم يحصل منهم الإيمان الواجب الذي أوجبه الله تعالى على عباده المؤمنين.

قال الذهبي: حدث وكيع عن إسرائيل بحديث: إذا جلس الرب على الكرسي، فاقشعر رجل عند وكيع. فغضب وكيع، وقال: «أدركنا الأعمش وسفيان يحدثون بهذه الأحاديث ولا ينكرونها» أخرجه عبدالله بن أحمد في كتاب «الرد على الجهمية».

وربما حصل معهم من عدم تلقيه بالقبول ترك ما وجب من الإيمان

به، فتشبه حالهم حال من قال الله فيهم: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾ [البقرة: ٨٥] فلا يسلم من الكفر إلا من عمل بما وجب عليه في ذلك، من الإيمان بكتاب الله كله واليقين، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٧﴾﴾ [آل عمران: ٧]. فهؤلاء الذين ذكرهم ابن عباس تركوا ما وجب عليهم من الإيمان بما لم يعرفوا معناه من القرآن، وهو حق لا يرتاب فيه مؤمن، وبعضهم يفهم منه غير المراد من المعنى الذي أراد الله، فيحمله على غير معناه، كما جرى لأهل البدع، كالخوارج والرافضة والقدرية، ونحوهم ممن يتأول بعض آيات القرآن على بدعته. وقد وقع منهم الابتداع والخروج عن الصراط المستقيم، فإن الواقع من أهل البدع وتحريفهم لمعنى الآيات يبين معنى قول ابن عباس رضي الله عنهما.

وسبب هذه البدع جهل أهلها وقصورهم في الفهم، وعدم أخذ العلوم الشرعية على وجهها. وتلقيها من أهلها العارفين لمعناها الذين وفقهم الله تعالى لمعرفة المراد، والتوفيق بين النصوص، والقطع بأن بعضها لا يخالف بعضاً، ورد المتشابه إلى المحكم. وهذه طريقة أهل السنة والجماعة في كل زمان ومكان. فلله الحمد لا نحصي ثناءً عليه.

ذكر ما ورد عن علماء السلف في المتشابه:

قال في «الدر المنثور»: أخرج الحاكم ـ وصححه ـ عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال: **«كان الكتاب الأول ينزل من باب واحد على حرف واحد، فنزل القرآن من سبعة أبواب على سبعة أحرف: زجر، وأمر،**

وحلال، وحرام، ومحكم، ومتشابه، وأمثال. فأحلوا حلاله، وحرموا حرامه، وافعلوا ما أمرتم به، وانتهوا عما نهيتم عنه، واعتبروا بأمثاله، واعملوا بمحكمه، وآمنوا بمتشابهه، وقولوا: آمنا به كل من عند ربنا».

قال: وأخرج عبد بن حميد عن قتادة في قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ﴾ الآية، قال: طلب القوم التأويل، فأخطأوا التأويل وأصابوا الفتنة، وطلبوا ما تشابه منه، فهلكوا بين ذلك.

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله: ﴿ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ﴾ قال: «منهن قوله تعالى: ﴿۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ إلى ثلاث آيات [الأنعام: ١٥١ ـ ١٥٣].

ومنهن: ﴿۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ﴾ إلى آخر الآيات [الإسراء: ٢٣ ـ ٣٩].

وأخرج ابن جرير من طريق أبي مالك عن أبي صالح، عن ابن عباس، وعن مُرّة عن ابن مسعود وناس من الصحابة رضي الله عنهم «المحكمات: الناسخات التي يعمل بهن، والمتشابهات: المنسوخات».

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم عن إسحاق بن سويد أن يحيى بن يعمر وأبا فاختة تراجعا هذه الآية: ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ فقال أبوفاختة: هن فواتح السور. منها يستخرج القرآن ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ منها استخرجت البقرة و﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ منها استخرجت آل عمران. وقال يحيى: هن اللاتي فيهن الفرائض، والأمر والنهي والحلال والحرام، والحدود وعماد الدين».

وأخرج ابن جرير عن محمد بن جعفربن الزبير، قال: (المحكمات) فيهن حجة الرب وعصمة العباد، ودفع الخصوم والباطل، ليس فيها تصريف ولا تحريف عما وضعت عليه ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ في الصدق،

لهن تصريف وتحريف وتأويل، ابتلى الله بهن العباد، كما ابتلاهم بالحلال والحرام، لا يصرفن إلى الباطل، ولا يحرفن عن الحق».

وأخرج ابن أبي حاتم عن مقاتل بن حيان إنما قال: ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ لأنه ليس من أهل دين لا يرضى بهن ﴿وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ﴾ يعني فيما بلغنا ﴿الٓمٓ ①﴾ و﴿الٓمٓصٓ ①﴾ و﴿الٓمٓر﴾.

قلت: وليس في هذه الآثار ونحوها ما يشعر بأن أسماء الله تعالى وصفاته من المتشابه، وما قال النفاة من أنها من المتشابه دعوى بلا برهان.

ولما سمعت قريش رسول الله ﷺ يذكر «الرحمن» أنكروا ذلك، فأنزل الله فيهم ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الرعد: ٣٠].

قوله: «ولما سمعت قريش رسول الله ﷺ يذكر «الرحمن» أنكروا ذلك، فأنزل الله فيهم ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾».

روى ابن جرير عن قتادة: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ ذُكر لنا أن النبي ﷺ زمن الحديبية حين صالح قريشاً كتب «هذا ما صالح عليه محمد رسول الله، فقال مشركوا قريش: لئن كنت رسول الله ثم قاتلناك لقد ظلمناك، ولكن اكتب: هذا ما صالح عليه محمد بن عبدالله، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: يارسول الله دعنا نقاتلهم، فقال: لا. اكتبوا كما يريدون، إني محمد بن عبدالله، فلما كتب الكاتب ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ③⓪﴾ قالت قريش: أما الرحمن فلا نعرفه ـ وكان أهل الجاهلية يكتبون باسمك اللهم ـ فقال أصحابه: دعنا نقاتلهم. قال: لا. ولكن اكتبوا كما يريدون».

وروى أيضاً عن مجاهد قال قوله: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن

قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾﴾ [الرعد: ٣٠] قال: «هذا ما كاتب عليه رسول الله ﷺ قريشاً في الحديبية» كتب ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾﴾ فقالوا: لا نكتب الرحمن، ولا ندري ما الرحمن؟ ولا نكتب إلا باسمك اللهم. قال الله تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِۚ﴾ الآية».

وروى أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان رسول الله ﷺ يدعو ساجداً: يارحمن يارحيم فقال المشركون: هذا يزعم أنه يدعو واحداً، وهو يدعو مثنى مثنى. فأنزل ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَۖ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰۚ﴾ [الإسراء: ١١٠] الآية».

فيـه مسـائل:

الأولـى: عدم الإيمان بجحد شيء من الأسماء والصفات.

الثانيـة: تفسير آية الرعد.

الثالثـة: ترك التحديث بما لا يفهم السامع.

الرابعـة: ذكر العلة أنه يفضي إلى تكذيب الله ورسوله، ولو لم يتعمد المنكر.

الخامسة: كلام ابن عباس لمن استنكر شيئاً من ذلك، وأنه أهلكه.

باب قول الله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٨٣﴾ [النحل: ٨٣]

قوله: «باب قول الله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٨٣﴾»(١).

ذكر المصنف رحمه الله ما ذكر بعض العلماء في معناها.

وقال ابن جرير: فإن أهل التأويل اختلفوا في المعنى بالنعمة. فذكر عن سفيان عن السدي: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ قال: «محمد ﷺ» وقال آخرون: بل معنى ذلك: أنهم يعرفون أن ما عدد الله تعالى ذكره في هذه السورة من النعم من عند الله، وأن الله هو المنعم عليهم بذلك، ولكنهم ينكرون ذلك، فيزعمون أنهم ورثوه عن آبائهم.

وأخرج عن مجاهد: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾، قال: هي المساكن والأنعام وما يرزقون منها، والسرابيل من الحديد والثياب، تعرف هذا كفار قريش ثم تنكره، بأن تقول: هذا كان لآبائنا فورثونا إياه. وقال آخرون: معنى ذلك أن الكفار إذا قيل لهم: من رزقكم؟

---

(١) المراد بهذه الترجمة التأدب مع جناب الربوبية عن الألفاظ الشركية الخفية كنسبة النعم إلى غير الله، فإن ذلك باب من أبواب الشرك الخفي وضده باب من أبواب الشكر كمافي الحديث الذي رواه ابن حبان في صحيحه عن جابر مرفوعاً: **«من أولي معروفاً فلم يجد له جزاء إلاَّ الثناء، فقد شكره ومن كتمه فقد كفره»** وفي رواية جيدة لأبي داود: **«من أبلي فذكره فقد شكره، ومن كتمه فقد كفره»** قال المنذري: «من أبلى» أي من أنعم عليه الإبلاء الإنعام، فإذا كان ذكر المعروف الذي يقدره على يدي إنسان من شكره فذكر معروف رب العالمين وآلائه وإحسانه ونسبة ذلك إليه أولىٰ بأن يكون شكراً.

أقروا بأن الله هو الذي يرزقهم، ثم ينكرونه بقولهم: رزقنا ذلك بشفاعة آلهتنا.

وذكر المصنف مثل هذا عن ابن قتيبة. وهو أبومحمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة الدينوري قاضي مصر النحوي اللغوي، صاحب المصنفات البديعة المفيدة المحتوية على علوم جمة، اشتغل ببغداد: وسمع الحديث على إسحاق بن راهوية وطبقته. توفي سنة ست وسبعين ومائتين.

وقال آخرون: ما ذكره المصنف: «عن عون بن عبدالله بن عتبة بن مسعود الهذلي» أبوعبدالله الكوفي الزاهد، عن أبيه وعائشة وابن عباس. وعنه قتادة وأبوالزبير. والزهري وثقه أحمد وابن معين. قال البخاري: مات بعد العشرين ومائة.

﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ قال: «إنكارهم إياها: أن يقول الرجل: لولا فلان ما كان كذا وكذا، ولولا فلان ما أصبت كذا وكذا».

واختار ابن جرير القول الأول، واختار غيره أن الآية تعم ما ذكره العلماء في معناها، وهو الصواب، والله أعلم.

قال مجاهد ما معناه: هو قول الرجل: هذا مالي، ورثته عن آبائي.

وقال عون بن عبدالله: يقولون: لولا فلان لم يكن كذا. (١)

---

(١) قال ابن القيم ـ رحمه الله ـ ما معناه: هذا يتضمن قطع إضافته عن من لولاه لم يكن، وإضافتها إلى من لم يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً فضلاً عن غيره =

وقال قتيبة: يقولون: هذا بشفاعة آلهتنا.

قوله: «قال مجاهد» هو شيخ التفسير، الإمام الرباني، مجاهد بن جبر المكي مولى بني مخزوم. قال الفضل بن ميمون: سمعت مجاهداً يقول: عرضت المصحف على ابن عباس مرات، أقفه عند كل آية، وأسأله: فيم نزلت؟ وكيف نزلت؟ وكيف معناها؟ توفي سنة اثنتين ومائة. وله ثلاث وثمانون سنة رحمه الله.

وقال أبوالعباس ـ بعد حديث زيد بن خالد الذي فيه: أن الله تعالى قال: «أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر ـ الحديث» وقد تقدم ـ وهذا كثير في الكتاب والسنة، يذم سبحانه من يضيف إنعامه إلى غيره ويشرك به.

قال بعض السلف: هو كقولهم: كانت الريح طيبة، والملاح حاذقاً، ونحو ذلك مما هو جارٍ على ألسنة كثير.

قوله: «وقال أبوالعباس» هو شيخ الإسلام أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام ابن تيمية، الإمام الجليل رحمه الله «بعد حديث زيد بن خالد» وقد تقدم في باب ما جاء في الاستسقاء بالأنواء. قال: «وهذا

= وغايته أن يكون جزءاً من أجزاء السبب أجرى الله نعمته على يده والسبب لا يستقل بالإيجاد وجعله سبباً هو من نعم الله عليه فهو المنعم بتلك النعمة وهو المنعم بما جعله من أسبابها فالسبب والمسبب من إنعامه وهو تعالى كما أنه قد ينعم بذلك السبب فقد ينعم بدونه ولا يكون له أثر وقد يسلبه سببيته وقد يجعل لها معارضاً يقاومها وقد يترتب على السبب ضد مقتضاها فهو وحده المنعم على الحقيقة.

كثير في الكتاب والسنة، يذم سبحانه من يضيف إنعامه إلى غيره ويشرك به. قال بعض السلف: هو كقولهم: كانت الريح طيبة؛ والملاح حاذقاً. ونحو ذلك مما هو جار على ألسنة كثير» اهـ.

وكلام شيخ الإسلام يدل على أن حكم هذه الآية عام فيمن نسب النعم إلى غير الله الذي أنعم بها، وأسند أسبابها إلى غيره، كما هو مذكور في كلام المفسرين المذكور بعضه هنا.

قال شيخنا رحمه الله: وفيه اجتماع الضدين في القلب، وتسمية هذا الكلام إنكاراً للنعمة.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير معرفة النعمة وإنكارها.

الثانية: معرفة أن هذا جارٍ على ألسنة كثير.

الثالثة: تسمية هذا الكلام إنكاراً للنعمة.

الرابعة: اجتماع الضدين في القلب.

باب قول الله تعالى:
﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢٢]

قوله: «باب قول الله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[1]».

الند: المثل والنظير. وجعل الند لله: هو صرف أنواع العبادة ـ أو شيء منها ـ لغير الله، كحال عبدة الأوثان الذين يعتقدون فيمن يدعونه ويرجونه أنه ينفعهم ويدفع عنهم؛ ويشفع لهم.

وهذه الآية في سياق قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ

---

(١) اعلم أن من تحقيق التوحيد الاحتراز من الشرك بالله في الألفاظ وإن لم يقصد المتكلم بها معنىً لا يجوز. بل ربما تجري على لسانه من غير قصد، كمن يجري على لسانه ألفاظ من أنواع الشرك الأصغر لا يقصدها.
فإن قيل الآية نزلت في الأكبر. قيل السلف يحتجون بما أنزل في الأكبر على الأصغر كما فسرها ابن عباس وغيره فيما ذكره المصنف عنه بأنواع من الشرك الأصغر، وفسرها أيضاً بالشرك الأكبر.
فإن قيل قد جاء في الحديث أن النبي ﷺ قال للأعرابي الذي سأله عن أمور الإسلام فأخبره. فقال النبي ﷺ: «**أفلح وأبيه إن صدق**» رواه البخاري.
وقال للذي سأله أي الصدقة أفضل: «**أما وأبيك لتنبأنه**» رواه مسلم. ونحو ذلك من الأحاديث.
وقد أجاب بعضهم عن ذلك أن هذا اللفظ كان يجري على ألسنتهم من غير قصد للقسم به.
والنهي إنما ورد في حق من قصد الحقيقة؟ =

تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢١ ـ ٢٢] قال العماد ابن كثير رحمه الله في «تفسيره»: قال أبوالعالية: ﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أي: عدلاء شركاء. وهكذا قال الربيع بن أنس وقتادة والسدي وأبومالك وإسماعيل بن أبي خالد.

وقال ابن عباس: ﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ أي لا تشركوا بالله شيئاً من الأنداد التي لا تنفع ولا تضر، وأنتم تعلمون أنه ربكم، لا رب لكم يرزقكم غيره، وقد علمتم أن الذي يدعوكم الرسول إليه من توحيده هو الحق الذي لا شك فيه. وكذلك قال قتادة.

وعن قتادة ومجاهد: ﴿فَلَا تَجْعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ قال: أكفاء من الرجال تطيعونهم في معصية الله.

وقال ابن زيد: (الأنداد) هي الآلهة التي جعلوها معه، وجعلوا لها

= الجواب: هذا من التأويل المردود، بل أحاديث النهي عامة مطلقة ليس فيها تفريق بين من قصد القسم وبين من لم يقصد ويؤيد ذلك أن سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ حلف مرة باللات والعزىٰ ويبعد أن يكون سعد أراد حقيقة الحلف بهما ولكن جرى على لسانه من غير قصد على ما كانوا يعتادونه قبل ذلك ومع هذا نهاه النبي ﷺ وقال له: «**قل لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له ثم انفث عن يسارك ثلاثاً وتعوذ ولا تعد**» رواه النسائي.

ومن التأويل المردود أيضاً قول بعضهم إن مثل ذلك يقصد به التأكيد لا التعظيم وإنما وقع النهي عما يقصد به التعظيم، بل لعل الصواب في الجواب عن الأحاديث التي تقدم ذكرها مما ورد فيه ذكر الحلف بغير الله فهو جار على العادة قبل النهي؛ لأن ذلك هو الأصل حتى ورد النهي عن ذلك، يؤيد ذلك ما روىٰ ابن عمر أن النبي ﷺ أدرك عمر بن الخطاب يسير في ركب يحلف بأبيه فقال: «**ألا إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت**» رواه البخاري ومسلم.

مثل ما جعلوا له.

وعن ابن عباس ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ أشباهاً.

وقال مجاهد ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ قال: تعلمون أنه إله واحد في التوراة والإنجيل. وذكر حديثاً في معنى هذه الآية الكريمة، وهو ما في «مسند أحمد» عن الحارث الأشعري أن نبي الله ﷺ قال: «**إن الله أمر يحيى بن زكريا عليه السلام بخمس كلمات: أن يعمل بهن، وأن يأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن، وأنه كاد أن يبطىء بها. فقال له عيسى عليه السلام: إن الله أمرك بخمس كلمات: أن تعمل بهن، وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن، فإما أن تبلغهن، وإما أن أبلغهن، فقال: ياأخي إني أخشى إن سبقتني أن أعذب أو يخسف بي. قال: فجمع يحيى بن زكريا بني إسرائيل في بيت المقدس، حتى امتلأ المسجد وقعد على الشرف. فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إن الله أمرني بخمس كلمات: أن أعمل بهن، وآمركم أن تعملوا بهن:**

أولاهن: أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، فإن مثل ذلك كمثل رجل اشترى عبداً من خالص ماله بذهب أو ورق، فجعل يعمل ويؤدي غلته إلى غير سيده، فأيكم يسره أن يكون عبده كذلك؟ وإن الله خلقكم ورزقكم، فاعبدوه ولا تشركوا به شيئاً.

وآمركم بالصلاة، فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده ما لم يلتفت، فإذا صليتم فلا تلتفتوا.

وآمركم بالصيام، فإن مثل ذلك كمثل رجل معه صرة من مسك في عصابة كلهم يجد ريح المسك. وإن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من المسك.

وآمركم بالصدقة، فإن مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو فشدوا يديه إلى عنقه، وقدموه ليضربوا عنقه، فقال لهم: هل لكم أن أفتدي نفسي منكم؟ فجعل يفتدي بالقليل والكثير حتى فك نفسه.

وآمركم بذكر الله كثيراً، فإن مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سراعاً في أثره، فأتى حصناً حصيناً فتحصن فيه، وإن العبد أحصن ما يكون من الشيطان إذا كان في ذكر الله.

قال: وقال رسول الله ﷺ: **وأنا آمركم بخمس، الله أمرني بهن: الجماعة، والسمع، والطاعة، والهجرة، والجهاد في سبيل الله. فإنه من خرج من الجماعة قيدشبر فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلاّ أن يراجع، ومن دعا بدعوى الجاهلية فهو من جثى جهنم.** قالوا: يارسول الله وإن صلى وصام؟ فقال: **وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم، فادعوا المسلمين بأسمائهم التي سماهم الله عزوجل: المسلمين المؤمنين، عباد الله».**

وهذا حديث حسن، والشاهد منه في هذه الآية قوله: «**إن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئاً**» وهذه الآية دالة على توحيد الله تعالى بالعبادة وحده لا شريك له. وقد استدل بها كثير من المفسرين على وجود الصانع، وهي دالة على ذلك بطريق الأولى. والآيات الدالة على هذا المقام في القرآن كثيرة جداً.

وسئل أبونواس عن ذلك؟ فأنشد:

تأمل في نبات الأرض، وانظر ... إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين ناظرات ... بأحداق هي الذهب السبيك
على قضب الزبرجد شاهدات ... بأن الله ليس له شريك

وقال ابن المعتز:

فيا عجباً، كيف يعصىٰ الإلـ ... ـه، أم كيف يجحده الجاحد؟

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

قال ابن عباس في الآية: «الأنداد: هو الشرك، أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل. وهو أن تقول: والله، وحياتك يافلان، وحياتي، وتقول: لولا كليبة هذا لأتانا اللصوص، ولولا البط في الدار لأتانا اللصوص. وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئت، وقول الرجل: لولا الله وفلان، لا تجعل فيها فلاناً. هذا كله به شرك» رواه ابن أبي حاتم.

قوله: «وعن ابن عباس رضي الله عنهما في الآية: «الأنداد: هو الشرك، أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل. وهو أن تقول: والله، وحياتك يافلان، وحياتي، وتقول: لولا كليبة هذا لأتانا اللصوص، ولولا البط في الدار لأتانا اللصوص. وقول الرجل لصاحبه: ما شاء الله وشئت، وقول الرجل: لولا الله وفلان، لا تجعل فيها فلاناً. هذا كله به شرك» رواه ابن أبي حاتم».

بين ابن عباس رضي الله عنهما أن هذا كله من الشرك، وهو الواقع اليوم على ألسن كثير ممن لا يعرف التوحيد ولا الشرك. فتنبه لهذه الأمور. فإنها من المنكر العظيم الذي يجب النهي عنه والتغليظ فيه، لكونه من أكبر الكبائر. وهذا من ابن عباس رضي الله عنهما تنبيه بالأدنى من الشرك على الأعلى.

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ

قال: «من حلف بغير الله فقد كفر، أو أشرك» رواه الترمذي، وحسنه، وصححه الحاكم.

قوله: «وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «من حلف بغير الله فقد كفر، أو أشرك» رواه الترمذي، وحسنه، وصححه الحاكم».

قوله: «فقد كفر أو أشرك» يحتمل أن يكون شكاً من الراوي. ويحتمل أن تكون «أو» بمعنى الواو، فيكون قد كفر وأشرك. ويكون من الكفر الذي هو دون الكفر الأكبر. كما هو من الشرك الأصغر. وورد مثل هذا عن ابن مسعود بهذا اللفظ.

وقال ابن مسعود: «لأن أحلف بالله كاذباً أحب إلي من أن أحلف بغيره صادقاً».

قوله: «وقال ابن مسعود: «لأن أحلف بالله كاذباً أحب إلي من أن أحلف بغيره صادقاً».

ومن المعلوم أن الحلف بالله كاذباً كبيرة من الكبائر، لكن الشرك أكبر من الكبائر وإن كان أصغر، كما تقدم بيان ذلك، فإذا كان هذا حال الشرك الأصغر، فكيف بالشرك الأكبر الموجب للخلود في النار؟ كدعوة غير الله والاستغاثة به، والرغبة إليه، وإنزال حوائجه به، كما هو حال الأكثر من هذه الأمة في هذه الأزمان وما قبلها: من تعظيم القبور، واتخذها أوثاناً، والبناء عليها، واتخاذها مساجد، وبناء المشاهد باسم الميت لعبادة من بنيت باسمه وتعظيمه، والإقبال عليه بالقلوب والأقوال

والأعمال.

وقد عظمت البلوى بهذا الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله، وتركوا ما دل على القرآن العظيم من النهي عن هذا الشرك وما يوصل إليه، قال تعالى: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوٓا۟ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الأعراف: ٣٧] كفرهم الله تعالى بدعوتهم من كانوا يدعونهم من دونه في دار الدنيا. وقال تعالى: ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ ﴾ [الجن: ١٨] وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ ﴾ [الجن: ٢٠ ـ ٢١].

وهؤلاء المشركون عكسوا الأمر، فخالفوا ما بلَّغه الرسول الأمة وأخبر به عن نفسه ﷺ، فعاملوه بما نهاهم عنه من الشرك بالله والتعلق على غير الله، حتى قال قائلهم:

يا أكرم الخلق مالي من ألوذ به   سواك عند حلول الحادث العمم
إن لم تكن في معادي آخذاً بيدي   فضلاً؛ وإلا فقل: يازلة القدم
فإن من جودك الدنيا وضرتها   ومن علومك علم اللوح والقلم

فانظر إلى هذا الجهل العظيم، حيث اعتقد أنه لا نجاة له إلا بعياذه ولياذه بغير الله، وانظر إلى هذا الإطراء العظيم الذي تجاوز الحد في الإطراء، الذي نهى عنه ﷺ بقوله: «**لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا عبدالله ورسوله**» رواه مالك وغيره، وقد قال تعالى: ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ﴾ [الأنعام: ٥٠].

فانظر إلى هذه المعارضة العظيمة للكتاب والسنة، والمحادة لله

ورسوله. وهذا الذي يقوله هذا الشاعر هو الذي في نفوس كثير، خصوصاً ممن يدعون العلم والمعرفة. ورأوا قراءة هذه المنظومة ونحوها لذلك وتعظيمها من القربات، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وعن حذيفة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا تقولوا: ما شاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان» رواه أبوداود بسند صحيح.

قوله: «وعن حذيفة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا تقولوا: ما شاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان» رواه أبوداود بسند صحيح».

وذلك لأن المعطوف بالواو يكون مساوياً للمعطوف عليه، لكونها إنما وضعت لمطلق الجمع. فلا تقتضي ترتيباً ولا تعقيباً. وتسوية المخلوق بالخالق شرك، إن كان في الأصغر ـ مثل هذا ـ فهو أصغر، وإن كان في الأكبر فهو أكبر. كما قال الله تعالى عنهم في الدار الآخرة: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الشعراء: ٩٧ ـ ٩٨] بخلاف المعطوف بـ «ثم» فإن المعطوف بها يكون متراخياً عن المعطوف عليه بمهلة. فلا محذور لكونه صار تابعاً.

وجاء عن إبراهيم النخعي أنه يكره أن يقول الرجل: أعوذ بالله وبك. ويجوز أن يقول: بالله ثم بك، قال: ويقول: لولا الله ثم فلان. ولا تقولوا: لولا الله وفلان.

قوله: «وجاء عن إبراهيم النخعي أنه يكره أن يقول الرجل: أعوذ بالله وبك. ويجوز أن يقول: بالله ثم بك، قال: ويقول: لولا الله ثم فلان. ولا

تقولوا: لولا الله وفلان».

وقد تقدم الفرق بين ما يجوز وما لا يجوز من ذلك. وهذا إنما هو في الحي الحاضر الذي له قدرة وسبب في الشيء. وهو الذي يجري في حقه مثل ذلك. وأما في حق الأموات الذين لا إحساس لهم بمن يدعوهم، ولا قدرة لهم على نفع ولا ضر. فلا يقال في حقهم شيء من ذلك. فلا يجوز التعلق عليه بشيء ما، بوجه من الوجوه. والقرآن يبين ذلك وينادي بأنه يجعلهم آلهة إذا سُئلوا شيئاً من ذلك، أو رغب إليهم أحد بقوله: أو عمله الباطن أو الظاهر، فمن تدبر القرآن ورزق فهمه صار على بصيرة من دينه، وبالله التوفيق.

والعلم لا يؤخذ قسراً، وإنما يؤخذ بأسباب ذكرها بعضهم في قوله:

أخي، لن تنال العلم إلا بستة ... سأنبيك عن تفصيلها ببيان
ذكاءٍ، وحرص، واجتهاد، وبلغة ... وإرشاد أستاذ، وطول زمان

وأعظم من هذه الستة: من رزقه الله تعالى الفهم والحفظ، وأتعب نفسه في تحصيله، فالله الموفق لمن شاء من عباده، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴿١١٣﴾﴾ [النساء: ١١٣].

ولقد أحسن العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى حيث قال:

والجهل داءٌ قاتل وشفاؤه ... أمران في التركيب متفقان
نص من القرآن، أو من سنة ... وطبيب ذاك العالم الرباني
والعلم أقسام ثلاث، مالها ... من رابع، والحق ذو تبيان
علم بأوصاف الإله وفعله ... وكذلك الأسماء للرحمن
والأمر والنهي الذي هو دينه ... وجزاؤه يوم المعاد الثاني
والكل في القرآن والسنن التي ... جاءت عن المبعوث بالقرآن
والله ما قال امرؤ متحذلق ... بسواهما إلا من الهذيان

فيـــه مســـائل:

الأولـــى: تفسير آية البقرة في الأنداد.

الثانيـــة: أن الصحابة رضي الله عنهم يفسرون الآية النازلة في الشرك الأكبر أنها تعم الأصغر.

الثالثـــة: أن الحلف بغير الله شرك.

الرابعـــة: أنه إذا حلف بغير الله صادقاً فهو أكبر من اليمين الغموس.

الخامسة: الفرق بين الواو وثم في اللفظ.

باب ما جاء فيمن لم يقنع بالحلف بالله

عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «لا تحلفوا بآبائكم، من حُلف له بالله فليصدق. ومن حُلِف له بالله فليرض، ومن لم يرض فليس من الله» رواه ابن ماجه بسند حسن.

قوله: باب ما جاء فيمن لم يقنع بالحلف بالله.[١]

عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ قال: «لا تحلفوا بآبائكم، من حُلف له بالله فليصدق. ومن حُلِف له بالله فليرض، ومن لم يرض فليس من الله» رواه ابن ماجه بسند حسن.

قوله: «لا تحلفوا بآبائكم» تقدم النهي عن الحلف بغير الله عموماً.

قوله: «من حلف له بالله فليصدق» هذا مما أوجبه الله على عباده،

(١) أي من الوعيد لأن ذلك يدل على قلة تعظيمه لجناب الربوبية إذ القلب الممتلىء بمعرفة عظمة الله وجلاله وعزته وكبريائه لا يفعل ذلك.
ولما رأىٰ عيسى عليه السلام رجلاً يسرق فقال له: سرقت فقال: كلا والله الذي لا إله إلاَّ هو فقال عيسى: آمنت بالله وكذبت عيني.
قال ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ إن الله تعالى كان في قلبه أجل من أن يحلف به أحد كاذباً فدار الأمر بين تهمة الحالف وتهمة بصره فرد التهمة إلى بصره.
كما ظن آدم عليه السلام صدق إبليس لما حلف له أنه ناصح؛ وهذا عام في الدعاوى وغيرها ما لم يُفضِ إلى إلغاء حكم شرعي كما تشهد عليه البينة الشرعية فيحلف على تكذيبها فلما يقبل حلفه.

وحضهم عليه في كتابه. قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩]، وقال: ﴿ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ ﴾ [الأحزاب: ٣٥]، وقال: ﴿ فَلَوْ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ [محمد: ٢١] وهو حال أهل البر، كما قال تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقوله: «ومن حُلف له بالله فليرض، ومن لم يرض فليس من الله» أما إذا لم يكن له بحكم الشريعة على خصمه إلا اليمين فأحلفه، فلا ريب أنه يجب عليه الرضا. وأما إذا كان فيمايجري بين الناس مما قد يقع في الاعتذارات من بعضهم لبعض ونحو ذلك، فهذا من حق المسلم على المسلم: أن يقبل منه إذا حلف له معتذراً أو متبرئاً من تهمة. ومن حقه عليه: أن يحسن به الظن إذا لم يتبين خلافه، كما في الأثر عن عمر رضي الله عنه: «ولا تظنن بكلمة خرجت من مسلم شراً وأنت تجد لها في الخير محملاً».

وفيه: من التواضع والألفة والمحبة وغير ذلك من المصالح التي يحبها الله ما لا يخفى على من له فهم. وذلك من أسباب اجتماع القلوب على طاعة الله، ثم إنه يدخل في حسن الخلق الذي هو أثقل ما يوضع في ميزان العبد، كما في الحديث وهو من مكارم الأخلاق.

فتأمل أيها الناصح لنفسه ما يصلحك مع الله تعالى: من القيام بحقوقه، وحقوق عباده وإدخال السرور على المسلمين، وترك الانقباض عنهم والترفع عليهم، فإن فيه من الضرر ما لا يخطر بالبال

ولا يدور بالخيال. وبسط هذه الأمور وذكر ما ورد فيها مذكور في كتب الأدب وغيرها. فمن رزق ذلك والعمل بما ينبغي العمل به منه، وترك ما يجب تركه من ذلك: دل على وفور دينه، وكمال عقله، والله الموفق والمعين لعبده الضعيف المسكين، والله أعلم.

فيــه مســائل:

الأولــى: النهي عن الحلف بالآباء.

الثانيــة: الأمر للمحلوف له بالله أن يرضى.

الثالثــة: وعيد من لم يرض.

باب قول: ما شاء الله وشئت

عن قُتَيلة: «أن يهودياً أتى النبي ﷺ، فقال إنكم تشركون تقولون: ما شاء الله وشئت: وتقولون: والكعبة. فأمرهم النبي ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا: ورب الكعبة. وأن يقولوا: ما شاء الله ثم شئت» رواه النسائي وصححه.

قوله: «باب قول: ما شاء الله وشئت»

عن قُتَيلة: «أن يهودياً أتى النبي ﷺ، فقال إنكم تشركون تقولون: ما شاء الله وشئت: وتقولون: والكعبة. فأمرهم النبي ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا: ورب الكعبة. وأن يقولوا: ما شاء الله ثم شئت» رواه النسائي وصححه».

قوله: «عن قتيلة» بمثناة مصغرة بنت صيفي الأنصارية صحابية مهاجرة، لها حديث في «سنن النسائي»، وهو المذكور في الباب. ورواه عنها عبدالله بن يسار الجعفي.

وفيه: قبول الحق ممن جاء به كائناً من كان. وفيه: بيان النهي عن الحلف بالكعبة، مع أنها بيت الله التي حجها وقصدها بالحج والعمرة فريضة.

وهذا يبين أن النهي عن الشرك بالله عام لا يصلح منه شيء، لا لملك مقرب ولا لنبي مرسل. ولا للكعبة التي هي بيت الله في أرضه. وأنت ترى ما وقع من الناس اليوم من الحلف بالكعبة وسؤالها ما لا يقدر عليه إلا الله، ومن المعلوم أن الكعبة لا تضر ولا تنفع، وإنما شرع

الله لعباده الطواف بها والعبادة عندها وجعلها للأمة قبلة، فالطواف بها مشروع، والحلف بها ودعاؤها ممنوع، فميز أيها المكلف بين ما يشرع وما يمنع، وإن خالفك من خالفك من جهلة الناس الذين هم كالأنعام، بل هم أضل سبيلاً.

قوله: «إنكم تشركون؛ تقولون: ما شاء الله وشئت» والعبد وإن كانت له مشيئة فمشيئته تابعة لمشيئة الله، ولا قدرة له على أن يشاء شيئاً إلا إذا كان الله قد شاءه، كما قال تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٩﴾ [التكوير: ٢٨ ـ ٢٩] وقوله: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ۝٢٩ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٣٠﴾ [الإنسان: ٢٩ ـ ٣٠].

وفي هذه الآيات والحديث: الرد على القدرية والمعتزلة نفاة القدر، الذين يثبتون للعبد مشيئة تخالف ما أراده الله تعالى من العبد وشاءه، وسيأتي ما يبطل قولهم، في «باب ما جاء في منكري القدر» إن شاء الله تعالى، وأنهم مجوس هذه الأمة.

وأما أهل السنة والجماعة فتمسكوا بالكتاب والسنة في هذا الباب وغيره. واعتقدوا أن مشيئة العبد تابعة لمشيئة الله تعالى في كل شيء مما يوافق ما شرعه الله وما يخالفه، من أفعال العباد وأقوالهم. فالكل بمشيئة الله وإرادته. فما وافق ما شرعه رضيه وأحبه. وما خالفه كرهه من العبد، كما قال تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ﴾ [الزمر: ٧] الآية.

وفيه: بيان أن الحلف بالكعبة شرك؛ فإن النبي ﷺ أقر اليهودي على قوله: «إنكم تشركون».

وله أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن رجلاً قال للنبي ﷺ: ما شاء الله وشئت، فقال: أجعلتني له نداً، ما شاء الله وحده».

قوله: «وله أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أن رجلاً قال للنبي ﷺ: ما شاء الله وشئت، قال: أجعلتني له نداً، بل ما شاء الله وحده».

هذا يقرر ما تقدم من أن هذا شرك؛ لوجود التسوية في العطف بالواو.

وقوله: «أجعلتني لله نداً؟» فيه: بيان أن من سوّى العبد بالله ولو في الشرك الأصغر فقد جعله نداً لله، شاء أم أبى، خلافاً لما يقوله الجاهلون، مما يختص بالله تعالى من عبادة، ومايجب النهي عنه من الشرك بنوعيه. و«من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين».

ولابن ماجه: عن الطُّفيل ـ أخي عائشة لأمها ـ قال: «رأيت كأني أتيت على نفر من اليهود، قلت: إنكم لأنتم القوم، لولا أنكم تقولون: عزير ابن الله. قالوا: وإنكم لأنتم القوم، لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد. ثم مررت بنفرٍ من النصارى فقلت: إنكم لأنتم القوم، لولا أنكم تقولون: المسيح ابن الله. قالوا: وإنكم لأنتم القوم، لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد. فلما أصبحت أخبرت بها من أخبرت. ثم أتيت النبي ﷺ فأخبرته، قال: هل أخبرت بها أحداً؟ قلت: نعم. قال: فحمد الله وأثنى

عليه، ثم قال: أما بعد، فإن طفيلاً رأى رؤيا أخبر بها من أخبر منكم، وإنكم قلتم كلمة كان يمنعني كذا وكذا أن أنهاكم عنها، فلا تقولوا: ما شاء الله وشاء محمد، ولكن قولوا: ما شاء الله وحده».

قوله: «ولابن ماجه: عن الطُّفيل ـ أخي عائشة لأمها ـ قال: «رأيت فيما يرى النائم كأني أتيت على نفر من اليهود، فقلت: من أنتم؟ قالوا: نحن اليهود، قلت: إنكم لأنتم القوم، لولا أنكم تقولون: عزير ابن الله. قالوا: وإنكم لأنتم القوم، لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد. ثم مررت بنفرٍ من النصارى فقلت: من أنتم؟ قالوا: نحن النصارى، قلت: إنكم لأنتم القوم، لولا أنكم تقولون: المسيح ابن الله. قالوا: وإنكم لأنتم القوم، لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد. فلما أصبحت أخبرت بها من أخبرت. ثم أتيت النبي ﷺ فأخبرته، قال: هل أخبرت بها أحداً؟ قلت: نعم. قال: فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، فإن طفيلاً رأى رؤيا أخبر بها من أخبر منكم، وإنكم قلتم كلمة كان يمنعني كذا وكذا أن أنهاكم عنها، فلا تقولوا: ما شاء الله وشاء محمد، ولكن قولوا: ما شاء الله وحده».

قوله: «عن الطفيل أخي عائشة لأمها» هو الطفيل بن عبدالله بن سخبرة أخو عائشة لأمها، صحابي له حديث عند ابن ماجه، وهو ما ذكره المصنف في الباب.

وهذه الرؤيا حق أقرها رسول الله ﷺ وعمل بمقتضاها. فنهاهم أن يقولوا: ما شاء الله وشاء محمد، وأمرهم أن يقولوا: «ما شاء الله وحده».

وهذا الحديث والذي قبله أمرهم فيه أن يقولوا: «ما شاء الله وحده». ولا ريب أن هذا أكمل في الإخلاص وأبعد عن الشرك من أن يقولوا: «ثم شاء فلان» لأن فيه التصريح بالتوحيد المنافي للتنديد من كل وجه. فالبصير يختار لنفسه أعلى مراتب الكمال في مقام التوحيد والإخلاص.

قوله: «كان يمنعني كذا وكذا أن أنهاكم عنها» ورد في بعض الطرق أنه كان يمنعه الحياء منهم، وبعد هذا الحديث الذي حدثه به الطفيل عن رؤياه خطبهم ﷺ فنهى عن ذلك نهياً بليغاً، فمازال ﷺ يبلغهم حتى أكمل الله له الدين وأتم له به النعمة، وبلغ البلاغ المبين، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

وفيه معنى قوله ﷺ: **«الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة»**.

قلت: وإن كانت رؤيا منام فهي وحي، يثبت بها ما يثبت بالوحي أمراً ونهياً والله أعلم.

فيـه مسـائل:

الأولـى: معرفة اليهود بالشرك الأصغر.

الثانيـة: فهم الإنسان إذا كان له هوى.

الثالثـة: قوله ﷺ: «أجعلتني لله نداً؟» فكيف بمن قال: مالي من ألوذ به سواك». والبيتين بعده؟.

الرابعـة: أن هذا ليس من الشرك الأكبر لقوله: «يمنعني كذا وكذا».

الخامسة: أن الرؤيا الصالحة من أقسام الوحي.

السادسة: أنها قد تكون سبباً لشرع بعض الأحكام.

باب من سب الدهر فقد آذى الله

وقول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الجاثية: ٢٤].

في «الصحيح» عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «قال تعالى: يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر وأنا الدهر، أُقلِّب الليل والنهار».

وفي رواية: «لا تسبوا الدهر؛ فإن الله هو الدهر».

قوله: «باب من سب الدهر فقد آذى الله».

وقول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ۚ﴾.

قال العماد ابن كثير في «تفسيره»: يخبر تعالى عن دهرية الكفار ومن وافقهم من مشركي العرب في إنكار المعاد: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ۚ﴾ ما ثم إلا هذه الدار، يموت قوم ويعيش آخرون، وما ثم معاد ولا قيامة. وهذا يقوله مشركو العرب المنكرون للمعاد، ويقوله الفلاسفة الإلـٰهيون منهم، وهم ينكرون البدأة والرجعة. وتقول الفلاسفة الدهرية الدورية، المنكرون للصانع، المعتقدون أن في كل ستة وثلاثين ألف سنة يعود كل شيء إلى ما كان عليه. وزعموا أن هذا قد تكرر مرات لا تتناهى، فكابروا المعقول وكذبوا المنقول، ولهذا قالوا: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ ۚ﴾ قال الله تعالى: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾﴾ أي يتوهمون ويتخيلون.

فأما الحديث الذي أخرجه صاحبا«الصحيح» وأبوداود والنسائي من

رواية سفيان بن عيينة عن الزهري، عن سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «**يقول الله تعالى: يؤذيني ابن آدم يسب الدهر وأنا الدهر، بيدي الأمر أقلِّب الليل والنهار**». وفي رواية: «**لا تسبوا الدهر فإني أنا الدهر**». وفي راوية «**لا يقل ابن آدم: ياخيبة الدهر، فإني أنا الدهر، أرسل الليل والنهار، فإن شئت قبضتهما**» اهـ.

قال في «شرح السنة» حديث متفق على صحته أخرجاه من طريق معمر من أوجه عن أبي هريرة، قال: ومعناه أن العرب كان من شأنها ذم الدهر أي سبه عند النوازل، لأنهم كانوا ينسبون إليه ما يصيبهم من المصائب والمكاره، فيقولون: أصابتهم قوارع الدهر وأبادهم الدهر، فإذا أضافوا إلى الدهر ما نالهم من الشدائد سبوا فاعلها، فكان مرجع سبها إلى الله عزوجل إذ هو الفاعل في الحقيقة للأمور التي يصنعونها فنهوا عن سب الدهر اهـ باختصار.

وقد أورده ابن جرير بسياق غريب جداً بهذا الطريق. قال: «**كان أهل الجاهلية يقولون: إنما يهلكنا الليل والنهار، وهو الذي يهلكنا ويميتنا ويحيينا، فقال الله في كتابه:** ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ **ويسبون الدهر. فقال الله عزوجل: «يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر وأنا الدهر، بيدي الأمر، أقلب الليل والنهار»**.

وكذا رواه ابن أبي حاتم عن أحمد بن منصور، عن شريح بن النعمان، عن ابن عيينة مثله. ثم روى عن يونس، عن ابن وهب، عن الزهري، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يقول الله تعالى: يسب ابن آدم الدهر وأنا الدهر، بيدي الليل والنهار**» وأخرجه صاحب «الصحيح» والنسائي من حديث يونس بن يزيد به.

وقال محمد بن إسحاق عن العلاء بن عبدالرحمن عن أبيه، عن أبي

هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «**يقول الله عزوجل: استقرضت عبدي فلم يعطني، ويسبني عبدي، يقول: وادهراه، وأنا الدهر**».

قال الشافعي وأبوعبيد وغيرهما من الأئمة في تفسير قوله: «**لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر**» كانت العرب في جاهليتها إذا أصابهم شدة أو بلاء أو نكبة قالوا: ياخيبة الدهر، فيسندون تلك الأفعال إلى الدهر ويسبونه، وإنما فاعلها هو الله تعالى. فكأنما سبوا الله سبحانه؛ لأنه فاعل ذلك في الحقيقة، فلهذا نهى عن سب الدهر بهذا الاعتبار؛ لأن الله هو الدهر الذي يعنونه ويسندون إليه تلك الأفعال. هذا أحسن ما قيل في تفسيره ـ وهو المراد ـ والله أعلم.

وقد غلط ابن حزم ومن نحا نحوه من الظاهرية في عَدِّهم «الدهر» من الأسماء الحسنى أخذاً من هذا الحديث اهـ.

وقد بين معناه في الحديث بقوله: «**أُقلِّب الليل والنهار**» وتقليبه تصرفه تعالى فيه بما يحبه الناس ويكرهونه.

وفي هذا الحديث زيادة لم يذكرها المصنف رحمه الله تعالى، وهي قوله: «**بيدي الأمر**».

قوله: «وفي رواية «لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر»».

معنى هذه الرواية: هو ما صرح به في الحديث من قوله: «**وأنا الدهر، أقلب الليل والنهار**»، يعني أن ما يجري فيه من خير وشر بإرادة الله وتدبيره بعلم منه تعالى وحكمة، لا يشاركه في ذلك غيره، ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن. فالواجب عند ذلك حمده في الحالتين وحسن الظن به سبحانه وبحمده، والرجوع إليه بالتوبة والإنابة، كما قال تعالى: ﴿وَبَلَوْنَاهُم بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾ [الأعراف: ١٦٨] وقال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾

[الأنبياء: ٣٥] ونسبة الفعل إلى الدهر ومسبته كثيرة، كما في أشعار المولدين، كابن المعتز والمتنبي وغيرهما. وليس منه وصف السنين بالشدة ونحو ذلك كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ﴾ الآية [يوسف: ٤٨] وقال بعض الشعراء:

إن الليالي من الزمان مهولة ... تُطوَى وتنشر بينها الأعمار
فقصارهن مع الهموم طويلة ... وطوالهن مع السرور قصار

وقال أبوتمام:

أعوام وصل كاد ينسى طيبها ... ذكر النوى، فكأنها أيام
ثم انبرت أيام هجر أعقبت ... نحوي أسى، فكأنها أعوام
ثم انقضت تلك السنون وأهلها ... فكأنها وكأنهم أحلام

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن سب الدهر.

الثانية: تسميته أذى الله.

الثالثة: التأمل في قوله: «فإن الله هو الدهر».

الرابعة: أنه قد يكون ساباً، ولو لم يقصده بقلبه.

باب التسمي بقاضي القضاة ونحوه

قوله : «باب التسمي بقاضي القضاة ونحوه»

ذكر المصنف رحمه الله هذه الترجمة إشارة إلى النهي عن التسمي بقاضي القضاة قياساً على ما في حديث الباب: لكونه شبهة في المعنى. فينهى عنه

في «الصحيح» عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن أَخْنَعَ اسمٍ عند الله رجلٌ تسمى ملك الأملاك، لا مالك إلا الله». قال سفيان: مثل شاهان شاه.

قوله : في «الصحيح» عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن أخنع اسم عند الله رجل تسمى ملك الأملاك، لا مالك إلا الله».

لأن هذا اللفظ إنما يصدق على الله تعالى. فهو ملك الأملاك، لا ملك أعظم ولا أكبر منه، مالك الملك ذو الجلال والإكرام. وكل ملك يؤتيه الله من يشاء من عباده فهو عارية يسرع ردها إلى المعير. وهو الله تعالى، ينزع المِلكَ من مُلكه تارة، وينزع المُلْكَ منه تارة، فيصير لا حقيقة له سوى اسم زال مسماه. وأما رب العالمين فملكه دائم كامل لانتهاء له، بيده القسط يخفضه ويرفعه، ويحفظ على عباده أَعمالهم بعلمه سبحانه وتعالى، وما تكتبه الحفظة عليهم، فيجازي كل عامل بعمله إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. كما ورد في الحديث **«اللهم لك الحمد كله، ولك الملك كله، وبيدك الخير كله، وإليك يرجع الأمر كله، أسألك من الخير كله، وأعوذ بك من الشر كله»**.

قوله: «قال سفيان» يعني ابن عيينة**«مثل شاهان شاه»** عند العجم عبارة عن

ملك الأملاك، ولهذا مثل به سفيان؛ لأنه عبارة عنه بلغة العجم.

وفي رواية: «أَغْيَظُ رجل على الله يوم القيامة وأخبثه».

قوله: «أخنع» يعني: أوضع.

قوله: «وفي رواية: أغيظ رجل على الله وأخبثه».

قوله: «أغيظ» من الغيظ وهو مثل الغضب والبغض. فيكون بغيضاً إلى الله مغضوباً عليه، والله أعلم.

قوله: «وأخبثه» وهو يدل أيضاً على أن هذا خبيث عند الله. فاجتمعت في حقه هذه الأمور لتعاظمه في نفسه وتعظيم الناس له بهذه الكلمة التي هي من أعظم التعظيم، فتعظمه في نفسه وتعظيم الناس له بما ليس له بأهل، وضعه عند الله يوم القيامة، فصار أخبث الخلق وأبغضهم إلى الله وأحقرهم؛ لأن الخبيث البغيض عند الله يكون يوم القيامة أحقر الخلق وأخبثهم. لتعاظمه في نفسه على خلق الله بنعم الله.

قوله: «أخنع، يعني أوضع» هذا هو معنى **«أخنع»** فيفيد ما ذكرنا في معنى **«أغيظ»** أنه يكون حقيراً بغيضاً عند الله.

وفيه: التحذير من كل ما فيه تعاظم. كما أخرج أبو داود عن أبي مِجْلز قال: «خرج معاوية رضي الله عنه على ابن الزبير وابن عامر. فقام ابن عامر وجلس ابن الزبير. فقال معاوية لابن عامر: اجلس، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«من أحب أن يتمثل له الرجال قياماً فيتلبوأ مقعده من النار»** وأخرجه الترمذي أيضاً، وقال: حسن.

وعن أبي أمامة رضي الله عنه قال: «خرج علينا رسول الله ﷺ متكئاً على عصا، فقمنا إليه، فقال: **لا تقوموا كما تقوم الأعاجم، يعظم بعضهم بعضاً»** رواه أبو داود.

قوله : «**أغيظ رجل**» هذا من الصفات التي تُمرُّ كما جاءت. وليس شيء مما ورد في الكتاب والسنة إلا ويجب اتباع الكتاب والسنة في ذلك وإثباته على وجه يليق بجلال الله وعظمته تعالى، إثباتاً بلا تمثيل وتنزيهاً بلا تعطيل كما تقدم. والباب كله واحد، وهذا هو قول أهل السنة والجماعة من الصحابة والتابعين فمن بعدهم من الفرق الناجية من الثلاث والسبعين فرقة. وهذا التفرق والاختلاف إنما حدث في أواخر القرن الثالث وما بعده، كما لا يخفى على من له معرفة بما وقع في الأمة من التفرق والاختلاف والخروج عن الصراط المستقيم، والله المستعان.

فيه مسائل :

الأولى: النهي عن التسمي بملك الأملاك.

الثانية: أن ما في معناه مثله، كما قال سفيان.

الثالثة: التفطن للتغليظ في هذا ونحوه، مع القطع بأنَّ القلب لم يقصد معناه.

الرابعة: التفطن أن هذا لأجل الله سبحانه.

باب احترام أسماء الله تعالى، وتغيير الاسم لأجل ذلك

عن أبي شريح: «أنه كان يكنى أبا الحكم، فقال له النبي ﷺ: «إن الله هو الحَكَم، وإليه الحُكْمُ». فقال: إن قومي إذا اختلفوا في شيء أتوني فحكمت بينهم، فرضي كلا الفريقين، فقال: ما أحسن هذا، فمالك من الولد؟ قال: شُريح، ومسلم، وعبدالله. قال: فمن أكبرهم؟ قلت: شريح. قال: فأنت أبو شريح» رواه أبو داود وغيره.

قوله: «**باب احترام أسماء الله تعالى وتغيير الاسم لأجل ذلك**».

عن أبي شريح: «أنه كان يكنى أبا الحكم. فقال له النبي ﷺ: **إن الله هو الحكم وإليه الحكم**، فقال: إن قومي إذا اختلفوا في شيء أتوني فحكمت بينهم فرضي كلا الفريقين، فقال: **ما أحسن هذا. فما لك من الولد؟** قلت: شريح ومسلم وعبدالله. قال: **فمن أكبرهم؟ قلت: شريح. قال: فأنت أبو شريح**» رواه أبو داود وغيره.

قوله: «**عن أبي شريح**» قال في: «خلاصة التذهيب»: هو أبو شريح الخزاعي، اسمه خويلد بن عمرو، أسلم يوم الفتح، له عشرون حديثاً، اتفقا على حديثين وانفرد البخاري بحديث، وروى عنه أبو سعيد المقبري ونافع بن جبير وطائفة. قال ابن سعد: مات بالمدينة سنة ثمان وستين، وقال الشارح: اسمه هانىء بن يزيد الكندي، قاله الحافظ. وقيل: الحارث الضبابي، قاله المزِّي.

قوله: «**يكنى**» الكنية: ما صدر بأب أو أم ونحو ذلك، واللقب ما ليس

كذلك، كزين العابدين ونحوه.

وقول النبي ﷺ: «**إن الله هو الحكم وإليه الحكم**» فهو سبحانه الحكَم في الدنيا والآخرة؛ يحكم بين خلقه في الدنيا بوحيه الذي أنزل على أَنبيائه ورسله، وما من قضية إلاَّ ولله فيها حكم بما أنزل على نبيه من الكتاب والحكمة، وقد يسَّر الله معرفة أكثر ذلك لأكثر العلماء من هذه الأمة؛ فإنها لا تجتمع على ضلالة، فإن العلماء وإن اختلفوا في بعض الأحكام فلابد أن يكون المصيب فيهم واحداً، فمن رزقه الله تعالى قوة الفهم وأعطاه ملكة يقتدر بها على فهم الصواب من أقوال العلماء، يسر له ذلك بفضله ومنِّه عليه، وإحسانه إليه، فما أَجَلَّها من عطية، فنسأل الله من فضله.

قوله: «**وإليه الحكم في الدنيا والآخرة**» كما قال تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠] وقال: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾﴾ [النساء: ٥٩] فالحكم إلى الله هو الحكم إلى كتابه، والحكم إلى رسوله هو الحكم إليه في حياته وإلى سنته بعد وفاته.

وقد قال ﷺ لمعاذ لما بعثه إلى اليمن: «**بِمَ تحكم؟**» قال: بكتاب الله. قال: «**فإن لم تجد؟**» قال: بسنة رسول الله ﷺ. قال: «**فإن لم تجد؟**» قال: أجتهد رأيي. فقال: «**الحمد لله الذي وفق رسولَ رسولِ الله إلى ما يرضي رسول الله**» فمعاذ من أَجَلّ علماء الصحابة بالأحكام ومعرفة الحلال من الحرام، ومعرفة أحكام الكتاب والسنة. ولهذا ساغ له الاجتهاد إذا لم يجد للقضية حكماً في كتاب الله، ولا في سنة رسوله ﷺ بخلاف ما يقع اليوم وقبله من أهل التفريط في الأحكام ممن يجهل حكم الله في كتابه وسنة رسوله، فيظن أن الاجتهاد يسوغ له مع الجهل

بأحكام الكتاب والسنة وهيهات.

وأما يوم القيامة فلا يحكم بين الخلق إلا الله عز وجل إذا نزل لفصل القضاء بين العباد، فيحكم بين خلقه بعلمه. وهو الذي لا يخفى عليه خافية من أعمال خلقه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ۝٤٠﴾ [النساء: ٤٠] والحكم يوم القيامة إنما هو بالحسنات والسيئات، فيؤخذ للمظلوم من الظالم، من حسناته بقدر ظلامته إن كان له حسنات، وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات المظلوم، فطرح على سيئات الظالم لا يزيد على هذا مثقال ذرة، ولا ينقص هذا عن حقه بمثقال ذرة.

قوله: «**فإن قومي إذا اختلفوا في شيء أتوني فحكمت بينهم فرضي كلا الفريقين، فقال: ما أحسن هذا**» فالمعنى ـ والله أعلم ـ أن أبا شريح لما عرف منه قومه أنه صاحب إنصاف وتحرٍّ للعدل بينهم، ومعرفة ما يرضيهم من الجانبين، صار عندهم مرضياً، وهذا هو الصلح؛ لأن مداره على الرضى لا على الإلزام، ولا على الكهان وأهل الكتاب من اليهود والنصارى، ولا على الاستناد إلى أوضاع أهل الجاهلية من أحكام كبرائهم وأسلافهم التي تخالف حكم الكتاب والسنة، كما قد يقع اليوم كثيراً، كحال الطواغيت الذين لا يلتفتون إلى حكم الله ولا إلى حكم رسوله. وإنما المعتمد عندهم ما حكموا به بأهوائهم وآرائهم.

وقد يلتحق بهذا بعض المقلدة لمن لم يسغ تقليده، فيعتمد على قول من قلَّده ويترك ما هو الصواب، الموافق لأصول الكتاب والسنة، والله المستعان.

وقول رسول الله ﷺ: «**فما لك من الولد**»؟ قال: شريح، ومسلم،

وعبدالله قال: «**فمن أكبرهم؟**» قلت: شريح. قال: «**فأنت أبو شريح**» فيه: تقديم الأكبر في الكنية، وغيرها غالباً. وجاء هذا المعنى في غير ما حديث. والله أَعلم.

فيه مسائل :

الأولى: احترام أسماء الله وصفاته، ولو لم يقصد معناه.

الثانـية: تغيير الإسم لأجل ذلك.

الثالـثة: اختيار أَكبر الأبناء للكُنْيَة.

باب من هزل بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول

قوله: «باب من هزل بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول» أي: فقد كفر.

وقول الله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [التوبة: ٦٥]

عن ابن عمر، ومحمد بن كعبٍ، وزيد بن أسْلَم، وقتادة - دخل حديث بعضهم في بعض - أنه قال رجل في غزْوة تَبوك: «ما رأينا مثل قُرَّائنا هؤلاء أرْغَبَ بطوناً، ولا أكذب ألسُناً، ولا أجبن عند اللقاء، يعني رسول الله ﷺ وأصحابه القرَّاء. فقال له عَوْفُ بن مالك: كذبت، ولكنك منافق، لأخبرن رسول الله ﷺ. فذهب عوف إلى رسول الله ﷺ ليخبره، فوجد القرآن قد سبقه. فجاء ذلك الرجلُ إلى رسول الله ﷺ وقد ارتحل وركب ناقته. فقال: يا رسول الله، إنما كُنا نخوض ونتحدثُ حديثَ الركب نقطع به عنا الطريق. قال ابن عمر: كأنِّي أنظر إليه متعلقاً بنسْعَة ناقةِ رسول الله ﷺ وإن الحجارة تَنكبُ رجليه، وهو يقول: إنما كنا نخوض ونلعب. فيقول له رسول ﷺ ﴿ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ

وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ﴾ [التوبة: ٦٥ ـ ٦٦] **ما يلتفت إليه، وما يزيده عليه»**

قوله: «وقول الله تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝﴾»

قال العماد ابن كثير رحمه الله في «تفسيره»: قال أبو مَعْشرَ المدني عن محمد بن كعب القُرظي وغيره: «قالوا: قال رجل من المنافقين: ما أرى مثل قُرَّائنا هؤلاء؟ أرغبنا بطوناً، وأكذبنا ألسناً، وأجبننا عند اللقاء، فرُفع ذلك إلى رسول الله ﷺ، وقد ارتحل وركبَ ناقته، فقال: يا رسول الله إنما كُنا نخوض ونلعب، ونتحدث حديث الركب نقطع به عنا الطريق، فقال: ﴿ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ۝ ﴾ [التوبة: ٦٥، ٦٦] وإن رجليه ليسفعان الحجارة، وما يلتفت إليه رسول الله ﷺ وهو متعلق بِنسْعَة ناقة رسول الله ﷺ وقال عبدالله بن وهب: أخبرني هشام بن سعد عن زيد بن أَسلم، عن عبدالله بن عمر، قال: «قال رجل في غزوة تبوك في مجلس: ما رأينا مثل قرَّائنا هؤلاء أَرغب بطوناً، ولا أكذب ألسناً، ولا أَجبن عند اللقاء، فقال رجل في المجلس: كذبتَ، ولكنك منافق، لأخبرن رسول الله ﷺ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ونزل القرآن. قال عبدالله بن عمر: وأَنا رأيته متعلقاً بحِقْب ناقة رسول الله ﷺ تَنكُبه الحجارة، وهو يقول: يا رسول الله، إنما كنا نخوض ونلعب، ورسول الله ﷺ يقول: ﴿ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ﴾ وقد رواه الليث عن هشام بن سعد بنحو من هذا.

وقال ابن إسحاق: «وقد كان جماعة من المنافقين منهم: وديعة بن ثابت أخو بني أمية بن زيد بن عمرو بن عوف، ورجل من أشجع حليف لبني سلمة يقال له: مخْشي بن حميْر، يشيرون إلى رسول الله ﷺ وهو منطلق إلى تَبوك، فقال بعضهم لبعض: أَتحسبون جلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضاً؟ والله لكأنا بكم غداً مقرنين في الحبال، إرجافاً وترهيباً للمؤمنين. فقال مخشي بن حمير: والله لوددت أَني أقاضي على أَن يُضْرَبَ كل رجل منا مائة جلدة، وإنَّا نتفلت أَن ينزل فينا قرآن لمقالتكم هذه، وقال رسول الله ﷺ ـ فما بلغني ـ لعمار بن ياسر: أدرك القوم فإنهم قد احترقوا فسلهم عما قالوا: فإن أنكروا فقل بل قلتم كذا وكذا، فانطلق إليهم عمار، فقال ذلك لهم، فأتوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه، فقال وديعة بن ثابت ـ ورسول الله ﷺ واقف على راحلته ـ فجعل يقول وهو آخذ بحقبها: يا رسول الله، إنما كنا نخوض ونلعب، فقال مخشي بن حمير: يا رسول الله قعد بي اسمي واسم أَبي، فكأَن الذي عناه أَي بقوله تعالى: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةً﴾ في هذه الآية: مخشي بن حمير، فسُمِّي: عبدَالرحمن، وسأل الله أَن يُقتل شهيداً لا يُعلم بمكانه، فقتل يوم اليمامة فلم يوجد له أَثر».

وقال عكرمة في تفسير هذه الآية: «كان رجل ممن إن شاء الله عفا عنه يقول: اللهم إنِّي أَسمع آية وأَنا أُعنىٰ بها تَقْشَعر منها الجلود وتجلُ منها القلوب. اللهم فاجعل وفاتي قتلاً في سبيلك، لا يقول أَحد أَنا غَسلت، أَنا كفنت، أَنا دفنت، قال: فأُصيب يوم اليمامة، فما أَحد من المسلمين إلاَّ وقد وُجدَ غيره».

قوله: ﴿لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ أَي بهذه المقالة التي استهزأتم بها ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ﴾ أَي مخشي بن حمير ﴿نُعَذِّبْ طَآئِفَةً﴾ أَي

لا يعفى عن جميعكم ولابد من عذاب بعضكم ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ أي بهذه المقالة الفاجرة الخاطئة، انتهى.

قال شيخ الإسلام: وقد أمره الله تعالى أن يقول لهم: ﴿قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ وقول من يقول: إنَّهم كفروا بعد إيمانهم بلسانهم مع كفرهم أولاً بقلوبهم: لا يصح؛ لأن الإيمان باللسان مع كفر القلب قد قارنه الكفر، فلا يقال: قد كفرتم بعد إيمانكم؛ فإنهم لم يزالوا كافرين في نفس الأمر، وإن أُريد أنكم أَظهرتم الكفر بعد إظهاركم الإيمان، فهم لم يظهروا للناس إلاَّ لخواصهم، وهم مع خواصهم ما زالوا كذلك، ولا يدل اللفظ على أَنهم مازالوا منافقين.

وقال رحمه الله في موضع آخر: فقد أَخبر أَنهم كفروا بعد إيمانهم مع قولهم: إنَّما تكلمنا بالكفر من غير اعتقاد له، بل إنَّما كنا نخوض ونلعب، وبيَّن أن الاستهزاء بآيات الله كفر، ولا يكون هذا إلاَّ ممن شرح صدراً بهذا الكلام، ولو كان الإيمان في قلبه لمنعه أَن يتكلم بهذا الكلام، والقرآن يبين أَن إيمان القلب يستلزم العمل الظاهر بحسبه، كقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُوْلَـٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ بَلْ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾﴾ [النور: ٤٧ - ٥١] فنفى الإيمان عمَّن تولَّى عن طاعة الرسول، وأَخبر أَن المؤمنين إذا دُعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم سمعوا وأَطاعوا، فبيَّن أَن هذا من لوازم الإيمان، انتهى.

وفيه: بيان أَن الإنسان قد يكفر بكلمة يتكلم بها أَو عمل يعمل به،

وأَشدها خطراً إرادات القلوب، فهي كالبحر الذي لا ساحل له، ويفيد الخوف من النفاق الأكبر، فإن الله تعالى أثبت لهؤلاء إيماناً قبل أَن يقولوا ما قالوه، كما قال ابن أَبي مليكة: «أَدركت ثلاثين من أَصحاب رسول الله ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه» نسأل الله السلامة والعفو والعافية في الدنيا والآخرة.

فيه مسائل:

الأولى: وهي العظيمة ـ أَن مَنْ هَزَل بهذا: إنه كافر.

الثانية: أَن هذا هو تفسير الآية فيمن فعل ذلك كائناً من كان.

الثالثة: الفرقُ بين النميمة، وبين النصيحة لله ولرسوله.

الرابعة: الفرقُ بين العفو الذي يُحِبُّه الله، وبين الغِلْظَة على أَعداءِ الله.

الخامسة: أَن من الاعتذار ما لا ينبغي أَن يُقبلَ.

باب قول الله تعالى

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّي إِنَّ لِي عِندَهُ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ ﴾

[فصلت: ٥٠]

قال مجاهد: «هذا بعملي وأنا محقوق به».

وقال ابن عباس: «يريد من عندي».

وقوله: ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ﴾ قال قتادة: «على علم مني بوجوه المكاسب».

وقال آخرون: «على علم من الله أنِّي له أهل» وهذا معنى قول مجاهد: «أُوتيته على شرف».

قوله: «باب قول الله تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ ﴾ الآية.

ذكر المصنف رحمه الله تعالى عن ابن عباس وغيره من المفسرين في معنى هذه الآية وما بعدها ما يكفي في المعنى ويشفي.

قوله: «قال مجاهد: هذا بعملي وأنا محقوق به». وقال ابن عباس: «يريد من عندي» وقوله: ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي ﴾ قال قتادة: «على علم مني بوجوه المكاسب» وقال آخرون «على علم من الله أني له أهل»

وهذا معنى قول مجاهد: «أوتيته على شرف»

وليس فيما ذكروه اختلاف، وإنما هي أفراد المعنى.

قال العماد ابن كثير رحمه الله في معنى قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ ﴾ [الزمر: ٤٩] يخبر أن الإنسان في حال الضر يضرع إلى الله تعالى وينيب إليه ويدعوه، ثم إذا خوّله نعمة منه طغى وبغى و﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ ۚ ﴾ أي لما يعلم الله من استحقاقي له، ولولا أني عند الله حظيظ لما خوّلني هذا قال تعالى: ﴿ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ ﴾ أي ليس الأمر كما زعمتم، بل إنما أنعمنا عليه بهذه النعمة لنختبره فيما أنعمنا عليه، أيطيع أم يعصي؟ مع علمنا المتقدم بذلك ﴿ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ ﴾ أي اختبار ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ ﴾ فلهذا يقولون ما يقولون، ويدعون ما يدعون ﴿ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أي قد قال هذه المقالة، وزعم هذا الزعم، وادّعى هذه الدعوى كثير ممن سلف من الأمم ﴿ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ أي فما صح قولهم، ولا نفعهم جمعهم وما كانوا يكسبون، كما قال تعالى مخبراً عن قارون: ﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ ﴾ [القصص: ٧٦ ـ ٧٨]. وقال تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [سبأ: ٣٥] اهـ.

وعن أَبي هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن ثلاثة من بني إِسرائيل: أَبرصَ، وأَقرعَ، وأَعمى، فأَراد الله أَن

يبتلَيهم، فبعث إِليهم مَلَكاً، فأَتى الأَبرص، فقال: أَيُّ شيءٌ أَحبُّ إِليك؟ قال: لونٌ حسن، وجلد حسن، ويَذْهَبُ عني الذي قد قَذرني الناسُ به. قال: فمسحه فذهب عنه قَذَره فأُعطي لوناً حسناً وجلداً حسناً، قال: فأَيُّ المال أَحبُّ إِليك؟ قال: الإِبل أَو البقر - شك إِسحَاق - فأُعطي ناقة عُشرَاء، وقال: بارك الله لك فيها. قال: فأتى الأَقرعَ، فقال: أَيُّ شيء أَحبُّ إِليك؟ قال: شعر حسن، ويذهب عني الذي قد قذَرني الناس به، فمسحه، فذهب عنه، وأُعطي شعراً حسناً، فقال: أَيُّ المال أَحبُّ إِليك؟ قال: البقر أَو الإِبل، فأُعطي بقرة حاملاً. قال: بارك الله لك فيها. فأتى الأعمى، فقال: أي شيء أحبُّ إليك؟ قال: أن يردَّ الله إِليَّ بصَري، فأَبصر به الناس، فمسحه، فردَّ الله إِليه بصره، قال: فأَيُّ المال أَحبُّ إِليك؟ قال: الغنم، فأُعطي شاة والداً، فأَنتجَ هذان، وولَّد هذا. فكان لهذا وادٍ من الإِبل، ولهذا وادٍ من البقر، ولهذا وادٍ من الغنم. قال: ثم إِنه أَتى الأَبرصَ في صورته وهيئته، فقال: رجلٌ مسكين قد انقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلغ لي اليوم إلا بالله ثم بك، أَسألك بالذي أَعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال - بعيراً أَتبَلَّغُ به في سفري، فقال: الحقوق كثيرة، فقال:

كأَني أَعرفك، أَلم تكن أَبرص يَقْذَرُك الناس، فقيراً، فأَعطاك الله عز وجل المال؟ فقال: إِنَّما ورثت هذا المال كابراً عن كابر، فقال: إن كنت كاذباً فصيَّرك الله إلى ما كنتَ. وأتى الأقرعَ في صورته، فقال له مثل ما قال لهذا، ورَدَّ عليه مثل ما ردَّ عليه هذا، وأتى الأقرعَ في صورته، فقال له مثل ما قال لهذا، ورَدَّ عليه مثل ما ردَّ عليه هذا، فقال: إن كنتَ كاذباً فصيرَّك الله إلى ما كنتَ، قال: وأتى الأعمى في صورته، فقال: رجلٌ مسكين وابنُ سبيل، قد انقطعت بي الحبال في سفري. فلا بلغ لي اليومَ إلا بالله ثم بك. أَسألكَ بالذي رَدَّ عليك بصرك شاةً أَتبلَّغُ بها في سفري، فقال: قد كنت أعمى فرَدَّ الله إِليَّ بصري، فخذْ ما شئتَ ودَعْ ما شئت، فوالله لا أَجْهَدُك اليومَ بشيءٍ أَخذته لله. فقال: أَمْسِك مالك، فإِنما ابتُليتم، فقذ رضي الله عنك، وسَخِطَ على صاحبيك» أَخرجاه.

قوله: «وعن أَبي هريرة رضي الله تعالى عنه أَنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن ثلاثة. . . » الحديث.

«أخرجاه» أي البخاري ومسلم.

والناقة العشراء ـ بضم العين وفتح الشين وبالمد ـ هي الحامل.

قوله : «أَنتج» وفي رواية «فنتج» معناه: تولى نتاجها، والناتج للناقة كالقابلة للمرأة.

قوله : «**ولد هذا**» هو بتشديد اللام، أَي تولَّى ولادتها، وهو بمعنى «أنتج» في الناقة. فالمولد والناتج والقابلة بمعنى واحد، لكن هذا للحيوان، وذلك لغيره.

وقوله : «**انقطعت بي الحبال**» هو بالحاء المهملة والباء الموحدة، هي الأسباب.

قوله : «**لا أجهدك**» معناه: لا أشق عليك في رد شيء تأخذه، أو تطلبه من مالي، ذكره النووي.

وهذا حديث عظيم، وفيه معتبر: فإِنَّ الأولَين جحدا نعمة الله، فما أَقرا لله بنعمة، ولا نسبا النعمة إِلى المنعم بها، ولا أَدَّيا حق الله، فحلَّ عليهما السخط، وأَما الأعمى فاعترف بنعمة الله ونسبها إِلى من أَنعم عليه بها، وأَدى حق الله فيها، فاستحق الرضا من الله بقيامه بشكر النعمة لما أَتى بأَركان الشكر الثلاثة التي لا يقوم الشكر إِلاَّ بها، وهي الإِقرار بالنعمة، ونسبتها إِلى المنعم، وبذلها فيما يحب.

قال العلاَّمة ابن القيم رحمه الله: أَصل الشكر هو الاعتراف بإِنعام المنعم على وجه الخضوع له والذل والمحبة، فمن لم يعرف النعمة بل كان جاهلاً بها لم يشكرها؛ ومن عرفها ولم يعرف المنعم بها لم يشكرها أَيضاً، ومن عرف النعمة والمنعم لكن جحدها كما يجحد المنكر لنعمة المنعم عليه بها فقد كفرها، ومن عرف النعمة والمنعم بها، وأَقر بها ولم يجحدها، ولكن لم يخضع له ولم يحبه ويرض به وعنه، لم يشكره أَيضاً، ومن عرفها وعرف المنعم وأَقر بها، وخضع للمنعم بها، وأَحبه ورضي به وعنه، واستعملها في محابه وطاعته، فهذا هو الشاكر لها، فلابد في الشكر من علم القلب، وعمل يتبع العلم، وهو الميل إِلى المنعم ومحبته والخضوع له.

قوله: «قذرني الناس» بكراهة رؤيته وقربه منهم.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير الآية.

الثانيـة: ما معنى ﴿ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى ﴾.

الثالثـة: مامعنى قوله: ﴿ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾.

الرابعة: ما في هذه القصة العجيبة من العِبرِ العظيمة.

باب قول الله تعالى:

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

[الأعراف: ١٩٠]

قوله: «**باب قول الله تعالى**: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾ [الأعراف: ١٩٠].

قال الإمام أَحمد رحمه الله في معنى هذه الآية: حدَّثنا عبدالصمد، حدَّثنا عمر بن إبراهيم، حدَّثنا قتادة، عن الحسن، عن سَمُرة، عن النبي ﷺ قال: «**لما ولدت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد، فقال: سَمِّيه عبدالحارث؛ فإنَّه يعيش، فسمته عبدالحارث فعاش. وكان ذلك من وحي الشيطان وأمره**». وهكذا رواه ابن جرير عن محمد بن بشار، بُندار، عن عبدالصمد بن عبدالوارث به، ورواه الترمذي في تفسير هذه الآية عن محمد بن المثنى عن عبدالصمد به، وقال: هذا حديث حسن غريب؛ لا نعرفه إلا من حديث عمر بن إبراهيم، ورواه بعضهم عن عبدالصمد ولم يرفعه. ورواه الحاكم في «مستدركه» من حديث عبدالصمد مرفوعاً، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. ورواه الإمام أَبو محمد بن أَبي حاتم في «تفسيره» عن أَبي زرعة الرازي، عن هلال بن فياض، عن عمر بن إبراهيم به مرفوعاً.

وقال ابن جرير: حدَّثنا ابن وكيع، حدَّثنا سهيل بن يوسف، عن عمرو، عن الحسن ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ﴾ قال: «كان هذا في بعض أَهل الملل ولم يكن بآدم».

وحدَّثنا بشر بن معاذ، قال: حدَّثني يزيد، حدَّثنا سعيد، عن قتادة،

قال: «كان الحسن يقول: هم اليهود والنصارى، رزقهم الله أولاداً فهوّدوا ونَصرّوا» وهذا إسناد صحيح عن الحسن رحمه الله.

قال العماد ابن كثير في «تفسيره»: وأما الآثار: فقال محمد بن إسحاق عن داود بن الحصين، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: «كانت حواء تلد لآدم عليه السلام أولاداً فتعبِّدهم لله وتسميهم عبدالله وعبيدالله ونحو ذلك، فيصيبهم الموت؛ فأتاهما إبليس فقال: أما إنكما لو تسميانه بغير الذي تسميانه به لعاش، فولدت له رجلاً فسماه عبدالحارث، ففيه أنزل الله ﴿۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ الآية. [الأعراف: ١٨٩].

وقال العوفي عن ابن عباس: «فأتاهما الشيطان فقال: هل تدريان ما يولد لكما؟ أم هل تدريان ما يكون: أبهيمة أم لا؟ وزين لهما الباطل؛ إنه لغويٌّ مبين، وقد كانت قبل ذلك ولدت ولدين فماتا، فقال لهما الشيطان: إنكما إن لم تسمياه بي لم يخرج سوياً، ومات كما مات الأول. فسميا ولدهما عبدالحارث، فذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾﴾.

وذكر مثله عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، ورواه ابن أبي حاتم.

وقد تلقى هذا الأثر عن ابن عباس جماعة من أصحابه كمجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير، ومن الطبعة الثانية: قتادة والسدي وجماعة من الخلف، ومن المفسرين والمتأخرين جماعات لا يحصون كثرة.

قال العماد ابن كثير: وكأن أصله ـ والله أعلم ـ مأخوذ من أهل الكتاب.

قلت: وهذا بعيد جداً.

قال ابن حزم: اتفقوا على تحريم كل اسم مُعَبَّد لغيرِ الله، كعبدعمرو، وعبدالكعبة، وما أَشبه ذلك. حاشى عبدَالمطلب.

قوله: «قال ابن حزم: اتفقوا على تحريم كل اسم معبَّد لغير الله كعبدعمرو، وعبدالكعبة وما أَشبه ذلك، حاشَى عبدالمطلب».

«ابن حزم»: هو عالم الأندلس، أبو محمد علي بن أَحمد بن سعيد بن حزم القرطبي الظاهري. صاحب التصانيف، توفي سنة ست وخمسين وأَربعمائة، وله اثنتان وسبعون سنة.

وعبدالمطلب هذا هو جد رسول الله ﷺ. وهو ابن هاشم بن عبدمناف بن قُصَيٍّ بن كلاب بن مُرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، ومافوق عدنان مختلف فيه. ولا ريب أَنهم من ذرية إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام.

حكى رحمه الله اتفاق العلماء على تحريم كل ما عُبّد لغير الله؛ لأنه شرك في الربوبية والإِلٰهية؛ لأن الخلق كلهم ملك لله وعبيد له، استعبدهم لعبادته وحده، وتوحيده في ربوبيته وإِلٰهيته، فمنهم من عبدالله ووحَّده في ربوبيته وإلـٰهيته، ومنهم من أَشرك به في إِلٰهيته وأَقر له بربوبيته وأَسمائه وصفاته، وأَحكامه القدرية جارية عليهم ولابد، كما قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ [مريم:٩٣] فهذه هي العبودية العامة. وأَما العبودية الخاصة فإِنها تختص بأَهل الإِخلاص والطاعة، كما قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزُّمر: ٣٦]. ونحوها.

قوله: «**حاشى عبدالمطلب**» هذا استثناء من العموم المستفاد من «كل» وذلك أَن تسميته بهذا الإِسم لا محذور فيها، لأن أَصله من عبودية الرق، وذلك أَن المطلب أَخو هاشم قدم المدينة، وكان ابن أَخيه «شيبة» هذا قد نشأ في أَخواله بني النجار من الخزرج، لأَن هاشماً تزوج فيهم امرأة، فجاءت منه بهذا الابن، فلما شب في أَخواله، وبلغ سن التمييز سافر به عمه المطلب إِلى مكة بلد أَبيه وعشيرته، فقدم به مكة وهو رديفه، فرآه أَهل مكة وقد تغيَّر لونه بالسفر، فحسبوه عبداً للمطلب، فقالوا: هذا عبدالمطلب، فعلق به هذا الإِسم وركبه، فصار لا يذكر ولا يدعى إلا به، فلم يبق للأصل معنى مقصود، وقد قال النبي ﷺ: «**أَنا ابن عبدالمطلب**» وقد صار معظماً في قريش والعرب، فهو سيد قريش وأَشرفهم في جاهليته، وهو الذي حفر زمزم وصارت له السقاية وفي ذريته من بعده.

و«عبدالله» والد رسول الله ﷺ أحد بني عبدالمطلب، وتوفي في حياة أَبيه، قال الحافظ صلاح الدِّين العلائي في كتاب «الدرة السنية في مولد خير البرية»: كان سن أَبيه عبدالله حين حملت منه آمنة برسول الله ﷺ نحو ثمانية عشر عاماً، ثم ذهب إِلى المدينة ليمتار منها تمراً لأَهله، فمات بها عند أَخواله بني عدي بن النجار والنبي ﷺ حملٌ على الصحيح. انتهى.

قلت: وصار النبي ﷺ لما وضعته أُمه في كفالة جده عبدالمطلب.

قال الحافظ الذهبي: وتوفي أَبوه عبدالله وللنبي ﷺ ثمانية وعشرون شهراً، وقيل: أَقل من ذلك، وقيل: وهو حمل. توفي بالمدينة، وكان قد قدمها ليمتار تمراً، وقيل: بل مر بها راجعاً من الشام، وعاش خمسة وعشرين سنة، قال الواقدي: وذلك أَثبت الأَقاويل في سنه ووفاته.

وتوفيت أمه آمنة بالأبواء، وهي راجعة به ﷺ إلى مكة من زيارة أَخوال أَبيه بني عدي بن النجار، وهو يومئذ ابن ست سنين ومائة يوم، وقيل: أَربع سنين، فلما ماتت أمه حملته أُم أَيمن مولاته إلى جده، فكان في كفالته إلى أن توفي جده، وللنبي ﷺ ثمان سنين، فأَوصى به إلى عمه أَبي طالب. اهـ.

وعن ابن عباس في الآية «قال: لما تَغَشَّاها آدم حملت، فأَتاهما إبليس، فقال: إني صاحبكما الذي أَخرجتكما من الجنة لتُطيعُنني أَو لأَجعلنَّ له قَرْنَي أيْلٍ فيخرج من بطنك فَيَشقه. ولأفعلنَّ ولأَفعلنَّ، يُخوِّفهما، سمِّياه عبدالحارث، فأَبيا أَن يطيعاه، فخرج ميتاً. ثم حملت، فأَتاهما، فقال مثل قوله: فأَبيا أَن يطيعاه، فخرج ميتاً، ثم حملت فأَتاهما، فذكر لهما، فأَدركهما حُبُّ الولد، فسمياه عبدالحارث، فذلك قوله: ﴿جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاءَ فيما آتاهُما﴾ رواه ابن أَبي حاتم.

وله بسند صحيح عن قتادة قال: «شركاء في طاعته، ولم يكن في عبادته.

وله بسند صحيح عن مجاهد في قوله: ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾ قال: «أشفقا أَن لا يكون إِنساناً» وذكر معناه عن الحسن وسعيد وغيرهما.

قوله : «**وعن ابن عباس رضي الله عنهما في الآية**» قد قدمنا نظيره عن ابن عباس في المعنى.

قوله : «**وله بسند صحيح عن قتادة قال: «شركاء في طاعته ولم يكن في عبادته»**.

قال شيخنا رحمه الله: إن هذا الشرك في مجرد تسمية، لم يقصدا حقيقته التي يريدها إبليس وهو محمل حسن، يبين أَن ما وقع من الأَبوين من تسميتهما ابنهما عبدالحارث، إنَّما هو مجرد تسمية لم يقصدا تعبيده لغير الله. وهذا معنى قول قتادة: شركاء في طاعته ولم يكن في عبادته.

فيه مسائل :

الأولـى: **تحريم كل اسم معبد لغير الله.**

الثانيـة: **تفسير الآية.**

الثالثـة: **أَن هذا الشرك في مجرد تسمية لم تقصد حقيقتها.**

الرابعـة: **أَن هِبَةَ الله للرجل البنتَ السوية من النعم.**

الخامسة: **ذكر السلف الفرق بين الشرك في الطاعة والشرك في العبادة.**

بـاب قول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾ الآية [الأعراف: ١٨٠]

ذكر ابن أَبي حاتم عن ابن عباس: «﴿يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾: يشركون».

وعنه: «سَمُّوا اللات من الإِله، والعُزَّى من العزيز».

وعن الأعمش: يدخلون فيها ما ليس منها.

قوله: «باب قول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾ الآية.

عن أَبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «**إن لله تسعة وتسعين اسماً، مائة إلاَّ واحداً، من أَحصاها دخل الجنة، وهو وتر يحب الوتر**» أخرجاه في «الصحيحين» من حديث سفيان بن عيينة. ورواه البخاري عن أَبي اليمان عن أَبي الزناد عن الأعرج عنه.

وأَخرجه [الترمذي عن] الجوزجاني عن صفوان بن صالح عن الوليد بن مسلم عن شعيب بسنده مثله. وزاد بعد قوله «**يحب الوتر: هو الله الذي لا إله إلا هو، الرحمن، الرحيم، الملك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر، الخالق، البارىء، المصور، الغفار، القهار، الوهاب، الرزاق، الفتاح، العليم، القابض، الباسط، الخافض، الرافع، المعز، المذل، السميع، البصير، الحكم، العدل، اللطيف، الخبير، الحليم، العظيم، الغفور الشكور، العلي،**

الكبير، الحفيظ، المقيت، الحسيب الجليل، الكريم، الرقيب، المجيب، الواسع، الحكيم، الودود، المجيد، الباعث، الشهيد، الحق، الوكيل، القوي، المتين، الولي، الحميد، المحصي، المبدىء، المعيد، المحيي، المميت، الحي، القيوم، الواجد، الماجد، الواحد، الأحد، الفرد، الصمد، القادر، المقتدر، المقدم، المؤخر، الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، الوالي، المتعالي، البر، التواب، المنتقم، العفو، الرؤوف، مالك الملك، ذو الجلال والإكرام، المقسط، الجامع، الغني، المغني، المعطي، المانع، الضار، النافع، النور، الهادي، البديع، الباقي، الوارث، الرشيد، الصبور» ثم قال الترمذي: هذا حديث غريب: قد روي من غير وجه عن أَبي هريرة، ولا نعلم في كثير من الروايات ذكر الأسماء إلا في هذا الحديث.

والذي عوّل عليه جماعة من الحفاظ أَن سرد الأسماء في هذا الحديث مدرج فيه وإِنما ذلك كما رواه الوليد بن مسلم وعبدالملك بن محمد الصنعاني عن زهير بن محمد أَنه بلغه عن غير واحد من أَهل العلم أَنهم قالوا ذلك: أَي إِنهم جمعوها من القرآن. كما روي عن جعفر بن محمد وسفيان، وأَبي زيد اللغوي. والله أَعلم.

هذا ما ذكره العماد ابن كثير في «تفسيره». ثم قال: ليعلم أَن الأَسماء الحسنى ليست منحصرة في تسعة وتسعين. بدليل ما رواه أَحمد عن يزيد بن هارون، عن فضيل ابن مرزوق، عن أَبي سلمة الجهني عن القاسم بن عبدالرحمن، عن أَبيه، عن عبدالله ابن مسعود، عن رسول الله ﷺ قال: **«ما أَصاب أَحداً قط هَمٌّ ولا حَزَن، فقال: اللهم إِنِّي عبدك، ابن عبدك، ابن أَمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حكمك، عَدلٌ فيَّ قضاؤك. أَسألك اللهم بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أَو أَنزلته في**

كتابك، أَو علمته أَحداً من خلقك، أَو استأثرت به في علم الغيب عندك: أَن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب هَمِّي وغمي. إلا أَذهب الله همه وحزنه، وأَبدله مكانه فرحاً. فقيل: يا رسول الله، أَلَا نتعلمها؟ فقال: بلى. ينبغي لمن سمعها أَن يتعلمها» وقد أَخرجه أَبو حاتم وابن حبان في صحيحه».

وقال العوفي عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ﴾ قال: «إلحاد الملحدين: أَن ادعوا اللات في أَسماء الله».

وقال ابن جريج عن مجاهد: ﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ﴾ قال: اشتقوا اللات من الله: واشتقوا العُزَّى من العزيز.

وقال قتادة: «يلحدون: يشركون» وقال علي بن أَبي طلحة عن ابن عباس «الإِلحاد: التكذيب».

وأَصل الإِلحاد في كلام العرب: العدول عن القصد. والميل والجور والانحراف. ومنه اللحد في القبر؛ لانحرافه إلى جهة القبلة عن سمت الحفر.

قال ابن القيم رحمه الله تعالى:

وحقيقة الإِلحاد فيها الميل بالـ إِشـراك والتعطيـل والنكـران

وأَسماء الرب تعالى كلها أَسماء وأَوصاف تعرّف بها تعالى إلى عباده، ودلت على كماله جل وعلا.

وقال رحمه الله: فالإِلحاد: إما بجحدها وإِنكارها، وإِما بجحد معانيها وتعطيلها، وإِما بتحريفها عن الصواب، وإِخراجها عن الحق بالتأويلات، وإِما أَن يجعلها أَسماء لهذه المخلوقات كإِلحاد أَهل الاتحاد، فإِنهم جعلوها أَسماء هذا الكون، محمودها ومذمومها، حتى قال زعيمهم: هو المسمى بمعنى كل اسم ممدوح عقلاً وشرعاً وعرفاً.

وبكل اسم مذموم عقلاً وشرعاً وعرفاً. تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً. انتهى.

قلت: والذي عليه أهل السنة والجماعة قاطبة ـ متقدمهم ومتأخرهم ـ إثبات الصفات التي وصف الله بها نفسه، ووصفه بها رسول الله ﷺ على ما يليق بجلال الله وعظمته، إثباتاً بلا تمثيل، وتنزيهاً بلا تعطيل، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: ١١] وأن الكلام في الصفات فرع عن الكلام في الذات، يحتذي حذوه ومثاله، فكما أنه يجب العلم بأن لله ذاتاً حقيقة لا تشبه شيئاً من ذوات المخلوقين، فله صفات حقيقة لا تشبه شيئاً من صفات المخلوقين، فمن جحد شيئاً مما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله، أو تأوله على غير ما ظهر من معناه: فهو جهمي، قد اتبع غير سبيل المؤمنين. كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء: ١١٥].

وقال العلامة ابن القيم ـ رحمه الله تعالى ـ أيضاً:

فائدة جليلة:

ما يجري صفة أو خبراً على الرب تبارك وتعالى أقسام:

أحدها: ما يرجع إلى نفس الذات، كقولك: ذات، وموجود.

الثاني: ما يرجع إلى صفاته ونعوته، كالعليم، والقدير، والسميع، والبصير.

الثالث: ما يرجع إلى أفعاله: كالخالق، والرازق.

الرابع: التنزيه المحض، ولابد من تضمنه ثبوتاً: إذ لا كمال في العدم المحض، كالقدوس، والسلام.

الخامس: ـ ولم يذكره أكثر الناس ـ وهو الإسم الدال على جملة

أوصاف عديدة لا تختص بصفة معينة، بل دال على معان، نحو المجيد، العظيم، الصمد؛ فإن المجيد: من اتصف بصفات متعددة من صفات الكمال، ولفظه يدل على هذا، فإنه موضوع للسعة والزيادة والكثرة، فمنه «استمجد المرخ والعفار» وأمجد الناقة: علفها، ومنه: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ۝١٥﴾ صفة للعرش، لسعته وعظمته وشرفه.

وتأمل كيف جاء هذا الإسم مقترناً بطلب الصلاة من الله على رسوله كما علَّمناه ﷺ؛ لأنه في مقام طلب المزيد والتعرض لسعة العطاء، وكثرته ودوامه، فأتى في هذا المطلوب باسم يقتضيه، كما تقول: اغفر لي وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم، فهو راجع إلى التوسل إليه بأسمائه وصفاته، وهو من أقرب الوسائل وأحبها إليه، ومنه الحديث الذي في الترمذي **«ألِظُّوا بياذا الجلال والإكرام»** ومنه **«اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلاّ أنت المنان، بديع السموات والأرض ياذا الجلال والإكرام»**. فهذا سؤال له، وتوسل إليه بحمده، وأنه: لا إله إلا هو المنان، فهو توسل إليه بأسمائه وصفاته، وما أحق ذلك بالإجابة، وأعظمه موقعاً عند المسؤول. وهذا باب عظيم من أبواب التوحيد.

السادس: صفة تحصل من اقتران أحد الاسمين والوصفين بالآخر، وذلك قدر زائد على مفرديهما نحو الغني الحميد، الغفور القدير، الحميد المجيد، وهكذا عامة الصفات المقترنة والأسماء المزدوجة في القران، فإن «الغنى» صفة كمال، و«الحمد» كذلك، واجتماع «الغنى» مع «الحمد» كمال آخر، فله ثناء من غناه، وثناء من حمده، وثناء من اجتماعهما، وكذلك الغفور القدير، والحميد المجيد، والعزيز الحكيم، فتأمله، فإنه من أشرف المعارف.

فيه مسائل:

الأولى: إثبات الأسماء.

الثانية: كونها حسنى.

الثالثة: الأمر بدعائه بها.

الرابعة: ترك من عارض من الجاهلين الملحدين.

الخامسة: تفسير الإلحاد فيها.

السادسة: وعيد من ألحد.

باب لا يقال: السلام على الله

في «الصحيح» عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «كنا إذا كنا مع النبي ﷺ في الصلاة، قلنا: السلام على الله من عباده، السلام على فلان وفلان، فقال النبي ﷺ: لا تقولوا: السلامُ على الله: فإن الله هو السلام».

قوله: «باب لا يقال: السلام على الله»

قوله: «في الصحيح» عن ابن مسعود... إلخ».

وهذا الحديث رواه البخاري ومسلم. وأبو داود والنسائي وابن ماجه، من حديث شقيق بن سلمة، عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: «كنا إذا جلسنا مع رسول الله ﷺ في الصلاة. قلنا: السلام على الله قبل عباده. السلام على فلان وفلان...» الحديث. وفي آخره ذكر التشهد الأخير. رواه الترمذي من حديث الأسود بن يزيد عن ابن مسعود، وذكر في حديث سبب النهي عن ذلك بقوله: «**فإن الله هو السلام ومنه السلام**».

وقد كان النبي ﷺ إذا انصرف من الصلاة المكتوبة يستغفر ثلاثاً، ويقول «**اللهم أنت السلام ومنك السلام، تبارك يا ذا الجلال والإكرام**».

وفي الحديث: «**إن هذا هو تحية أهل الجنة لربهم تبارك وتعالى**»، وفي التنزيل ما يدل على أن الرب تبارك وتعالى يسلم عليهم في الجنة، كما قال تعالى: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾.

ومعنى قوله: «**إن الله هو السلام**»: أن الله سالم من كل نقص، ومن

كل تمثيل، فهو الموصوف بكل كمال، المنزه عن كل عيب ونقص.

قال العلامة ابن القيم في «بدائع الفوائد»: السلام اسم مصدر، وهو من ألفاظ الدعاء، يتضمن الإنشاء والإخبار، فجهة الخبرية فيه لا تناقض الجهة الإنشائية، وهو معنى السلام المطلوب عند التحية، وفيه قولان مشهوران.

الأول: أن السلام هنا هو الله عز وجل، ومعنى الكلام: نزلت بركته عليكم، ونحو ذلك، فاختير في هذا المعنى من أسمائه عز وجل اسم «السلام» دون غيره من الأسماء.

الثاني: أن السلام مصدر بمعنى السلامة، وهو المطلوب المدعو به عند التحية، ومن حجة أصحاب هذا القول: أنه يأتي مُنكَّراً، فيقول المسلِّم: «سلام عليكم» ولو كان اسماً من أسماء الله لم يستعمل كذلك، ومن حجتهم أنه ليس المقصود من السلام هذا المعنى، وإنَّما المقصود منه: الإيذان بالسلامة خبراً ودعاءً.

قال العلامة ابن القيم رحمه الله: وفصل الخطاب أن يقال: الحق في مجموع القولين، فكل منهما بعض الحق، والصواب في مجموعهما، وإنما يتبين ذلك بقاعدة، وهي: أن حق من دعا الله بأسمائه الحسنى أن يسأل في كل مطلوب، ويتوسل بالاسم المقتضي لذلك المطلوب، المناسب لحصوله، حتى إن الداعي متشفع إلى الله تعالى متوسل به إليه.

فإذا قال: رب اغفر لي وتب عليَّ إنك أنت التواب الغفور. فقد سأله أمرين، وتوسل إليه باسمين من أسمائه مقتضين لحصول مطلوبه.

وقال ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه وقد سأله ما يدعو به: «**قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي**

مغفرة من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم».

فالمقام لما كان مقام طلب السلامة التي هي أَهم عند الرجل، أَتى في طلبها بصيغة اسم من أَسماء الله تعالى وهو «السلام» الذي تطلب منه السلامة، فتضمن لفظ السلام معنيين: أَحدهما: ذكر الله، والثاني: طلب السلامة وهو مقصود المسلم.

فقد تضمن «سلام عليكم» اسماً من أَسماء الله، وطلب السلامة منه، فتأمل هذه الفائدة. وحقيقته: البراءة والخلاص والنجاة من الشر والعيوب، وعلى هذا المعنى تدور تصاريفه، فمن ذلك قولهم: سلمك الله، ومنه دعاء المؤمنين على الصراط «رب سلم سلم» ومنه سلم الشيء لفلان، أَي خلص له وحده، قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ [الزمر: ٢٩] أي خالصاً له وحده لا يملكه معه غيره، ومنه السلم ضد الحرب؛ لأن كل واحد من المتحاربين يخلص ويسلم من أذى الآخر، ولهذا بني فيه على المفاعلة، فقيل: المسالمة مثل المشاركة. ومنه: القلب السليم، وهو النقي من الدغل والعيب.

وحقيقته: الذي قد سلم لله وحده، فخلص من دغل الشرك وغله، ودغل الذنوب والمخالفات، فهو مستقيم على صدق حبه، وحسن معاملته، وهذا هو الذي ضمن له النجاة من عذاب الله والفوز بكرامته.

ومنه أَخذ الإِسلام، فإنه من هذه المادة؛ لأَنه الاستسلام والانقياد لله والتخلص من شوائب الشرك، فسلم لربه وخلص له، كالعبد الذي سلم لمولاه ليس له فيه شركاء متشاكسون. ولهذا ضرب سبحانه هذين المثلين للمسلم الخالص لربه. وللمشرك به.

فيه مسائل :

الأولـى: تفسير السلام.

الثانيـة: أنه تحية.

الثالثـة: أنها لا تصلح لله.

الرابـعة: العلة في ذلك.

الخامسة: تعليمهم التحية التي تصلح لله.

باب قول: اللهم اغفر لي إن شئت

قوله: «باب قول: اللهم اغفر لي إن شئت» يعني: أن ذلك لا يجوز، لورود النهي عنه في حديث الباب.

في «الصحيح» عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقلْ أحدكم: اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت، لِيَعْزِم المسألة: فإن الله لا مُكْرِه له».

ولمسلم: «وليُعْظِم الرغبةَ، فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه»

قوله: في «الصحيح» عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقلْ أحدكم: اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت، لِيَعْزِم المسألة: فإن الله لا مُكْرِه له». بخلاف العبد، فإنه قد يعطي السائل مسألته لحاجته إليه، أو لخوفه أو رجائه، فيعطيه مسألته وهو كاره، فاللائق بالسائل للمخلوق أن يعلق حصول حاجته على مشيئة المسؤول، مخافة أن يعطيه وهو كاره، بخلاف رب العالمين، فإنه تعالى لا يليق به ذلك لكمال غناه عن جميع خلقه، وكمال جوده وكرمه، وكلهم فقير إليه، محتاج لا يستغني عن ربه طرفة عين، وعطاؤه كلام.

وفي الحديث **«يَمينُ الله مَلأى، لا يغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار؛ أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض؟ فإنه لم يغض ما في يمينه، وفي يده الأخرى القسط يخفضه ويرفعه»** يعطي تعالى لحكمة، ويمنع لحكمة، وهو الحكيم الخبير.

فاللائق بمن سأل الله أن يعزم المسألة، فإنه لا يعطي عبده شيئاً عن كراهة، ولا عن عظم مسألة.

وقد قال بعض الشعراء فيمن يمدحه:

ويعظم في عين الصغير صغارها ويصغر في عين العظيم العظائم

وهذا بالنسبة إلى ما في نفوس أرباب الدنيا، وإلا فإن العبد يعطي تارة، ويمنع أكثر، ويعطي كرهاً؛ والبخل عليه أَغلب، وبالنسبة إلى حاله هذه فليس عطاؤه بعظيم، وأما ما يعطيه الله تعالى عباده فهو دائم مستمر، يجود بالنوال قبل السؤال، من حيث وضعت النطفة في الرحم، فنعمه على الجنين في بطن أُمه دارة، يربيه أحسن تربية، فإذا وضعت أمه عطف عليه والديه ورباه بنعمه حتى يبلغ أَشدّه، يتقلب في نعم الله مدة حياته، فإن كانت حياته على الإيمان والتقوى ازدادت نعم الله تعالى عليه إذا توفاه أضعاف أضعاف ماكان عليه في الدنيا من النعم التي لا يقدر قدرها إلا الله، مما أَعده الله تعالى لعباده المؤمنين المتقين.

وكل ما يناله العبد في الدنيا من النعم وإن كان بعضها على يد مخلوق، فهو بإذن الله وإرادته وإحسانه إلى عبده، فالله تعالى هو المحمود على النعم كلها، فهو الذي شاءها وقدَّرها، وأجراها عن كرمه وفضله، فله النعمة وله الفضل، وله الثناء الحسن، قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [النحل: ٥٣] وقد يمنع سبحانه عبده إذاسأله لحكمة وعلم بما يصلح عبده من العطاء والمنع، وقد يؤخر ما سأله عبده لوقته المقدَّر، أو ليعطيه أَكثر، فتبارك الله رب العالمين.

قوله: «**ولمسلم: وليعظم الرغبة**» أي في سؤاله ربه حاجته، فإنه يعطي العظائم كرماً وجوداً وإحساناً، فالله تعالى لا يتعاظمه شيء أعطاه، أي

ليس شيء عنده بعظيم، وإن عظم في نفس المخلوق؛ لأن سائل المخلوق لا يسأله إلا ما يهون عليه بذله، بخلاف رب العالمين فإن عطاءه كلام: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢] فسبحان من لايقدر الخلق قدره، لا إله غيره، ولا رب سواه.

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن الاستثناء في الدعاء.

الثانية: بيان العلة في ذلك.

الثالثة: قوله: ليعزم المسألة.

الرابعة: إعظام الرغبة.

الخامسة: التعليل لهذا الأمر.

باب لا يقول: عبدي وأمتي

في «الصحيح» عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «لايقلْ أحدُكم: أطعِمْ رَبَّكَ، وَضِّىء رَبَّك، وليقلْ: سيدي ومولاي، ولا يقل أحدكم: عبدي وأمتي، وليقل: فتَاي وفتاتي وغلامي».

قوله: «باب لا يقول: عبدي وأمتي»

ذكر الحديث الذي في «الصحيح» عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: **«لا يقولن أحدكم: أطعم ربك، وضىء ربك، وليقل: سيدي ومولاي. ولا يقل أحدكم: عبدي وأمتي، وليقل: فتاي وفتاتي وغلامي»**.

هذه الألفاظ المنهي عنها. وإن كانت تطلق لغة، فالنبي ﷺ نهى عنها تحقيقاً للتوحيد. وسدّاً لذرائع الشرك، لما فيها من التشريك في اللفظ؛ لأن الله تعالى هو رب العباد جميعهم، فإذا أطلق على غيره شاركه في الاسم، فينهى عنه لذلك، وإن لم يقصد بذلك التشريك في الربوبية التي هي وصف الله تعالى، وإنما المعنى أن هذا مالك له، فيطلق عليه هذا اللفظ بهذا الاعتبار، فالنهي عنه حسماً لمادة التشريك بين الخالق والمخلوق، وتحقيقاً للتوحيد، وبعداً عن الشرك حتى في اللفظ.

وهذا من أحسن مقاصد الشريعة، لما فيه من تعظيم الرب تعالى، وبعده عن مشابهة المخلوقين، فأرشدهم ﷺ إلى ما يقوم مقام هذه

الألفاظ، وهو قوله: «سيدي ومولاي» وكذا قوله: «**ولا يقل أحدكم: عبدي وأمتي**» لأن العبيد عبيد الله، والإماء إماء الله. قال الله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾ ففي إطلاق هاتين الكلمتين على غير الله تشريك في اللفظ، فنهاهم عن ذلك تعظيماً لله تعالى، وأدباً وبعداً عن الشرك، وتحقيقاً للتوحيد وأرشدهم إلى أن يقولوا: «فتاي وفتاتي وغلامي» وهذا من باب حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد، فقد بلغ ﷺ أمته كل ما فيه لهم نفع، ونهاهم عن كل ما فيه نقص في الدين. فلا خير إلا دلهم عليه، خصوصاً في تحقيق التوحيد، ولا شر إلا حذرهم منه، خصوصاً ما يقرب من الشرك لفظاً، وإن لم يقصد به، وبالله التوفيق.

فيه مسائل:

الأولى: النهيُ عن قول: عبدي وأمتي.

الثانية: لا يقول العبد رَبِّي، ولا يُقال له: أَطْعِمْ رَبَّك.

الثالثة: تعليم الأول قول: فتاي وفتاتي وغلامي.

الرابعة: تعليم الثاني قول: سيدي ومولاي.

الخامسة: التنبيه للمراد، وهو تحقيق التوحيد حتى في الألفاظ.

باب لا يُرَدُّ مَنْ سأل بالله

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من سأل بالله فأعطوه، ومن استعاذ بالله فأعيذوه، ومن دعاكم فأجيبوه، ومَنْ صنع إليكم معروفاً فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له، حتى تروا أنكم قد كافأتموه» رواه أبو داود والنسائي بسند صحيح.

قوله: «باب لا يردُّ من سأل بالله».

ظاهر الحديث النهي عن رد السائل إذا سأل بالله. لكن هذا العموم يحتاج إلى تفصيل بحسب ما ورد في الكتاب والسنة. فيجب إذا سأل السائل ما له فيه حق كبيت المال أن يجاب، فيعطى منه على قدر حاجته وما يستحقه وجوباً، وكذلك إذا سأل المحتاج من في ماله فضل فيجب أن يعطيه على حسب حاله ومسألته، خصوصاً إذا سأل من لا فضل عنده، فيستحب أن يعطيه على قدر حال المسؤول ما لا يضر به ولا يضر عائلته، وإن كان مضطراً وجب أن يعطيه ما يدفع ضرورته.

ومقام الإنفاق من أشرف مقامات الدين، وتفاوت الناس فيه بحسب ماجبلوا عليه من الكرم والجود، وضدهما من البخل والشح. فالأول محمود في الكتاب والسنة. والثاني مذموم فيهما. وقد حث الله تعالى عباده على الإنفاق لعظم نفعه وتعديه وكثرة ثوابه. قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ

حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾﴾ [البقرة: ٢٦٧ ـ ٢٦٨] وقال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ﴾ [الحديد:٧] وذلك الإنفاق من خصال البر المذكورة في قوله: ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ﴾ الآية [البقرة: ١٧٧] فذكره بعد ذكر أصول الإيمان وقبل ذكر الصلاة، وذلك ـ والله أعلم ـ لتعدي نفعه. وذكره تعالى في الأعمال التي أمر بها عباده. وتعبدهم بها ووعدهم عليها الأجر العظيم. قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وكان النبي ﷺ يحث أصحابه على الصدقة حتى النساء؛ نصحاً للأمة وحثاً لهم على ما ينفعهم عاجلاً وآجلاً. وقد أثنى الله سبحانه على الأنصار رضي الله عنهم بالإيثار. فقال تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾﴾ والإيثار من أفضل خصال المؤمن كما تفيده هذه الآية الكريمة، وقد قال تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾﴾.

والآيات والأحاديث في فضل الصدقة كثيرة جداً، ومن كان سعيه للآخرة رغَّب في هذا ورغب، وبالله التوفيق.

قوله : من دعاكم فأجيبوه» هذا من حقوق المسلمين بعضهم على بعض: إجابة دعوة المسلم، وتلك من أسباب الألفة والمحبة بين المسلمين.

قوله : «ومن صنع إليكم معروفاً فكافئوه» ندبهم ﷺ إلى المكافأة على المعروف، فإن المكافأة على المعروف من المروءة التي يحبها الله ورسوله، كما دل عليه هذا الحديث، ولا يهمل المكافأة على المعروف إلا اللئام من الناس، وبعض اللئام يكافىء على الإحسان بالإساءة، كما يقع كثيراً من بعضهم، نسأل الله العفو والعافية في الدنيا والآخرة.

بخلاف حال أهل التقوى والإيمان، فإنهم يدفعون السيئة بالحسنة؛ طاعة لله ومحبة لما يحبه لهم ويرضاه، كما قال تعالى: ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ ﴾ [المؤمنون: ٩٦ـ٩٨] وقال تعالى: ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ [فصلت: ٣٤ـ٣٥] . وهم الذين سبقت لهم من الله تعالى السعادة.

قوله : «فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له» أرشدهم رسول الله ﷺ إلى أن الدعاء في حق من لم يجد المكافأة: مكافأة للمعروف، فيدعو له على حسب معروفه.

قوله : «تروا ـ بضم التاء: تظنوا ـ **أنكم قد كافأتموه»** ويحتمل أنها مفتوحة بمعنى: تعلموا. ويؤيده ما في «سنن أبي داود» من حديث ابن عمر **«حتى تعلموا»** فتعين الثاني للتصريح به. وفيه **«من سألكم بالله فأجيبوه»** أي إلىّ ما سأل. فيكون بمعنى: أعطوه! وعند أبي داود في

رواية أبي نهيك عن ابن عباس «من سألكم بوجه الله فأعطوه» وفي رواية عبيد الله القواريري لهذا الحديث «ومن سألكم بالله» كما في حديث ابن عمر.

فيه مسائل:

الأولى: إعاذة من استعاذ بالله.

الثانية: إعطاء من سأل بالله.

الثالثة: إجابة الدعوة.

الرابعة: المكافأة على الصنيعة.

الخامسة: أن الدعاء مكافأة لمن لم يقدر إلا عليه.

السادسة: قوله: حتى تروا أنكم قد كافأتموه.

باب لا يُسأل بوجه الله إلا الجنة

عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يُسأل بوجه الله إلا الجنة» رواه أبو داود.

قوله: «باب لا يُسأل بوجه الله إلا الجنة».

ذكر فيه حديث جابر ـ رواه أبو داود عن جابر ـ قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا يسأل بوجه الله إلا الجنة»**.

وهنا سؤال: وهو أنه قد ورد في دعاء النبي ﷺ عند منصرفه من الطائف حين كذبه أَهل الطائف ومن في الطائف من أَهل مكة، فدعا النبي ﷺ بالدعاء المأثور **«اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تَكِلني؟ إلى بعيد يتَجهَّمُني، أو إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أُبالي، غير أن عافيتك هي أوسع لي»** وفي آخره **«أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة: أن يَحُلَ عليّ غضبك، أو ينزلَ بي سخطك، لك العُتْبىٰ حتى ترضىٰ، ولا حول ولا قوة إلا بالله»**. والحديث المروي في الأذكار **«اللهم أنت أحق من ذُكر، وأحق من عُبِد** ـ وفي آخره ـ **أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له السموات والأرض»**.

وفي حديث آخر **«أعوذ بوجه الله الكريم، وباسم الله العظيم، وبكلماته التامة، من شر السامة واللامة، ومن شر ما خلقت أي رب، ومن شر هذا اليوم ومن شر ما بعده، ومن شر الدنيا والآخرة»** وأمثال

ذلك في الأحاديث المرفوعة بالأسانيد الصحيحة أو الحسان.

فالجواب: أن ما ورد من ذلك فهو في سؤال ما يقرب إلى الجنة، أو ما يمنعه من الأعمال التي تمنعه من الجنة، فيكون قد سأل بوجه الله وبنور وجهه ما يقرب إلى الجنة كما في الحديث الصحيح: «**اللهم إني أسألك الجنة وما يقرب إليها من قول وعمل، وأعوذ بك من النار وما يقرب إليها من قول وعمل**».

بخلاف ما يختص بالدنيا كسؤال المال والرزق والسعة في المعيشة رغبة في الدنيا، مع قطع النظر عن كونه أراد بذلك ما يعينه على عمل الآخرة، فلا ريب أن الحديث يدل على المنع من أن يسأل حوائج دنياه بوجه الله.

وعلى هذا: فلا تعارض بين الأحاديث. كما لا يخفى، والله أعلم.

وحديث الباب من جملة الأدلة المتواترة في الكتاب والسنة على إثبات الوجه لله تعالى، فإنه صفة كمال، وسلبه غاية النقص والتشبيه بالناقصات، كسلبهم جميع الصفات أو بعضها، فوقعوا في أعظم مما فروا منه، تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

وطريقة أهل السنة والجماعة سلفاً وخلفاً: الإيمان بما وصف الله به نفسه في كتابه، ووصفه به رسوله ﷺ في سنته على ما يليق بجلال الله وعظمته، فيثبتون له ما أثبته لنفسه في كتابه وأثبته له رسوله ﷺ، وينفون عنه مشابهة المخلوق. فكما أن ذات الله لا تشبه الذوات. فصفاته كذلك لا تشبه الصفات، فمن نفاها فقد سلبه الكمال.

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن أن يسأل بوجه الله إلا غاية المطالب.

الثانيـة: إثبات صفة الوجه.

باب ماجاء في اللَّوِّ

قوله: «**باب ما جاء في اللّوّ**»[(١)].

أي: من الوعيد والنهي عنه عند الأمور المكروهة، كالمصائب إذا جرى بها القدر، لما فيه من الإشعار بعدم الصبر والأسى على ما فات، مما لا يمكن استدراكه، فالواجب التسليم للقدر، والقيام بالعبودية الواجبة، وهو الصبر على ما أَصاب العبد مما يكره، والإيمان بالقدر أَصل من أُصول الإيمان الستة.

وأدخل المصنف رحمه الله أداة التعريف على «لو» وهذه في هذا المقام لا تفيد تعريفاً كنظائرها، لأن المراد هذا اللفظ كما قال الشاعر:

رأيت الوليد بن اليزيد مباركاً ... شديداً بأَعباء الخلافة كاهله

وقول الله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَـٰهُنَا﴾ [آل عمران: ١٥٤].

---

(١) وقد ذكر البخاري فيما يجوز من [اللو] كحديث: «**لولا حُدْثَانُ قومك بالكفر لأتممت البيت على قواعد إبراهيم؛ ولو كنت راجماً بغير بينة لرجمت هذه؛ ولولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك**» وشبه ذلك وكله مستقبل لا اعتراض فيه على القدر ولا كراهة فيه لأنه أخبر عن اعتقاده فيما كان يفعل لولا المانع وعما هو في قدرته فأما ما ذهب فليس في قدرته وكذلك: «**لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما سقت الهدي ولجعلتها عمرة**»، فإنه خبر عن مستقبل لا اعتراض فيه على قدر. فأخبرهم أنه لو استقبل الإحرام بالحج ماساق الهدي ولا أحرم بالعمرة، فالنهي في ذلك إنما هو في معارضة القدر مع اعتقاد أن ذلك المانع لو يقع لوقع خلاف المقدور.

قوله: «وقول الله عز وجل: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾. قاله بعض المنافقين يوم أُحد: لخوفهم وجزعهم وخَوَرهم.

قال ابن إسحاق: فحدَّثني يحيى بن عَبّاد بن عبدالله بن الزبير، عن أبيه عن عبدالله بن الزبير، قال: قال الزبير: «لقد رأيتُني مع رسول الله ﷺ حين اشتد الخوف علينا أرسل الله علينا النوم، فما منا رجل إلا ذقنه في صدره، قال: فوالله إني لأسمع قول مُعَتِّب بن قُشير، ما أسمعه إلا كالحُلم: لو كان لنا من الأمر شيء ما قُتلنا ههنا. فحفظتها منه، وفي ذلك أنزل الله عز وجل: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ لقول معتب» رواه ابن أبي حاتم. قال الله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ أي هذا قدر مقدّر من الله عز وجل، وحكم حتم لازم، لا محيد عنه ولا مناص منه.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟﴾

[آل عمران: ١٦٨]

قال العماد ابن كثير: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟﴾ أي لو سمعوا مشورتنا عليهم بالقعود وعدم الخروج ما قتلوا مع من قتل. قال الله تعالى: ﴿قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾﴾ أي إذا كان القعود يسلم به الشخص من القتل والموت، فينبغي لكم أن لا تموتوا، والموت لابد آتٍ إليكم، ولو كنتم في بروج مشيدة، فادفعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين.

قال مجاهد عن جابر بن عبدالله: «نزلت هذه الآية في عبدالله ابن أُبيّ وأصحابه» يعني أنه هو الذي قال ذلك.

وأخرج البيهقي عن أنس: أن أبا طلحة قال: «غشينا النعاس ونحن

في مصافنا يوم أُحد، فجعل يسقط سيفي وآخذه، ويسقط وآخذه، قال: والطائفة الأخرى المنافقون ـ ليس لها هَمٌّ إلا أنفسهم، أجبن قوم، وأرعبه، وأخذله للحق ﴿ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ﴾ [آل عمران: ١٥٤] إنما هم أهل ريب وشك بالله عزوجل».

قوله: ﴿ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ ﴾ يعني لا يغشاهم النعاس من القلق والجزع والخوف ﴿ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ﴾.

قال شيخ الإسلام رحمه الله: لما ذكر ما وقع من عبدالله بن أبي في غزوة أُحد، قال: فلما انخذل يوم أُحد وقال: «يَدَعُ رأيي ورأيه، ويأخذ برأي الصبيان؟» أو كما قال ـ انخذل معه خلق كثير، كان كثير منهم لم ينافق قبل ذلك، فأولئك كانوا مسلمين، وكان معهم إيمان هو الضوء الذي ضرب الله به المثل، فلو ماتوا قبل المحنة والنفاق لماتوا على الإسلام، ولم يكونوا من المؤمنين حقاً الذين امتحنوا فثبتوا على المحنة، ولا من المنافقين حقاً الذين ارتدوا عن الإيمان بالمحنة.

وهذا حال كثير من المسلمين في زماننا أو أكثرهم، إذا ابتلوا بالمحنة التي يتضعضع فيها أهل الإيمان ينقص إيمانهم كثيراً، وينافق كثير منهم، ومنهم من يظهر الردة إذا كان العدو غالباً، وقد رأينا ـ ورأى غيرنا ـ من هذا ما فيه عبرة. وإذا كانت العافية، أو كان المسلمون ظاهرين على عدوهم كانوا مسلمين، وهم مؤمنون بالرسل باطناً وظاهراً، لكنه إيمان لا يثبت على المحنة، ولهذا يكثر في هؤلاء ترك الفرائض وانتهاك المحارم، وهؤلاء من الذين قالوا آمنا: فقيل لهم: ﴿ لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَـٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٤] أي الإيمان المطلق الذي أهله هم المؤمنون حقاً: فإن هذا هو الإيمان إذا أطلق في كتاب الله تعالى، كما دل عليه الكتاب والسنة، فلم

يحصل لهم ريب عند المحن التي تقلقل الإيمان في القلوب. انتهى.

قوله: وقد رأينا ـ ورأى غيرنا ـ من هذا ما فيه عبرة.

قلت: ونحن كذلك رأينا من ذلك ما فيه عبرة عند غلبة العدو، من إعانتهم العدو على المسلمين، والطعن في الدين، وإظهار العداوة والشماتة، وبذل الجهد في إطفاء نور الإسلام، وذهاب أهله، وغير ذلك مما يطول ذكره، والله المستعان.

في «الصحيح» عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «احرص على ما ينفعُك، واستعن بالله ولا تَعْجِزْن، وإن أصابك شيءٌ فلا تقل: لو أني فعلتُ كذا لكان كذا وكذا، ولكن قل: قدَّر الله وما شاء فعل؛ فإن لو تفتح عمل الشيطان».

قوله: «في الصحيح» ـ أي صحيح مسلم ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: احرص. . . .» الحديث. .

اختصر المصنف رحمه الله هذا الحديث، وتمامه: عن النبي ﷺ أنه قال «**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍّ خير، احرص على ما ينفعك**» أي: في معاشك ومعادك. والمراد: الحرص على فعل الأسباب التي تنفع العبد في دنياه وأخراه، مما شرعه الله تعالى لعباده من الأسباب الواجبة والمستحبة والمباحة، ويكون العبد في حال فعله السبب مستعيناً بالله وحده دون كل ما سواه؛ ليتم له سببه وينفعه، ويكون اعتماده على الله تعالى في ذلك؛ لأن الله تعالى هو الذي خلق السبب والمسبب، ولا ينفعه سبب إلا إذا نفعه الله به، فيكون

اعتماده في فعل السبب على الله تعالى. ففعل السبب سنة، والتوكل على الله توحيد، فإذا جمع بينهما: تم له مراده بإذن الله.

قوله: «**ولا تعجزن**» النون نون التأكيد الخفيفة، نهاه ﷺ عن العجز وذمه، والعجز مذموم شرعاً وعقلاً.

وفي الحديث: «**الكيِّس من دانَ نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبعَ نفسه هواها، وتمنّى على الله الأماني**» فأرشده ﷺ في هذا الحديث إذا أصابه ما يكره أن لايقول: لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا، ولكن يقول: قدّر الله وما شاء فعل، أي: هذا قدر الله، والواجب التسليم للقدر، والرضى به، واحتساب الثواب عليه.

قوله: «**فإن «لو» تفتح عمل الشيطان**» أي: لما فيها مِنَ التأسف على ما فات والتحسر ولوم القدر، وذلك ينافي الصبر والرضى، والصبر واجب، والإيمان بالقدر فرض، قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾﴾ [الحديد: ٢٢ ـ ٢٣].

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد».

وقال الإمام أحمد: «ذكر الله الصبر في تسعين موضعاً من القرآن».

قال شيخ الإسلام رحمه الله ـ وذكر حديث الباب بتمامه ـ ثم قال في معناه: لاتعجز عن مأمور، ولا تجزع من مقدور، ومن الناس من يجمع كلا الشرين، فأمر النبي ﷺ بالحرص على النافع والاستعانة بالله، والأمر يقتضي الوجوب، وإلا فالاستحباب. ونهى عن العجز وقال: «**إن الله يلوم على العجز**» والعاجز ضد: ﴿الَّذين هم ينتصرون﴾ فالأمر

بالصبر والنهي عن العجز مأمور به في مواضع كثيرة؛ وذلك لأن الإنسان بين أمرين: أمر أُمِرَ بفعله، فعليه أن يفعله ويحرص عليه، ويستعين الله ولا يعجز. وأمرٌ أصيب به من غير فعله، فعليه أن يصبر عليه ولا يجزع منه.

ولهذا قال بعض العقلاء ـ ابن المقفع وغيره ـ الأمور أمران: أمر فيه حيلة فلا تعجز عنه، وأمر لا حيلة فيه فلا تجزع منه. وهذا في جميع الأمور لكن عند المؤمن: الذي فيه حيلة هو ما أمره الله به، وأحبه له، فإن الله لم يأمره إلا بما فيه حيلة له، إذ لا يكلف الله نفساً إلا وسعها، وقد أمره بكل خير له فيه حيلة. وما لا حيلة له فيه هو ما أصيب به من غير فعله. واسم الحسنات والسيئات يتناول قسمين.

فالأفعال مثل قوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠] ومثل قوله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ﴾ [الإسراء:٧] ومثل قوله تعالى: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ﴾ [الشورى: ٤٠]، ومثل قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ [البقرة:٨١] إلى آيات كثيرة من هذا الجنس. والله أعلم.

والقسم الثاني، ما يجري على العبد بغير فعله من النعم والمصائب، كما قال تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ﴾ [النساء: ٧٩] والآية قبلها، فالحسنة في هاتين الآيتين: النعم، والسيئة: المصائب، هذا هو الثاني من القسمين.

وأظن شيخ الإسلام رحمه الله ذكره في هذا الموضع، ولعل الناسخ أسقطه، والله أعلم.

ثم قال رحمه الله: فإن الإنسان ليس مأموراً أن ينظر إلى القدر عندما

يؤمر به من الأفعال، ولكن عندما يجري عليه من المصائب التي لا حيلة له في دفعها، فما أصابك بفعل الآدميين أو بغير فعلهم فاصبر عليه، وارض وسلِم، قال تعالى: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾ [التغابن:١١] ولهذا قال آدم لموسى: «أتلومني على أمر قَدَّرَهُ الله عليَّ قبل أن أُخلق بأربعين سنة؟ فحج آدم موسى» لأن موسى قال له: «لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة» فلامه على المصيبة التي حصلت بسبب فعله، لا لأجل كونها ذَنْباً، وأما كونه لأجل الذنب ـ كما يظنه طوائف من الناس ـ فليس مراداً بالحديث، فإن آدم عليه السلام كان قد تاب من الذنب، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له، ولا يجوز لوم التائب باتفاق الناس. انتهى.

قال العلامة ابن القيم رحمه الله: فتضمن هذا الحديث أصولاً عظيمة من أصول الإيمان.

أحدها: أن الله سبحانه موصوف بالمحبة وأنه يحب حقيقة.

الثاني: أنه يحب مقتضى أسمائه وصفاته، وما يوافقها، فهو القوي، ويحب المؤمن القوي، وهو وتر يحب الوتر، وجميل يحب الجمال، وعليم يحب العلماء، ونظيف يحب النظافة، ومؤمن يحب المؤمنين، ومحسن يحب المحسنين، وصابر يحب الصابرين، وشاكر يحب الشاكرين.

ومنها: أن محبته للمؤمنين تتفاضل، فيحب بعضهم أكثر من بعض.

ومنها: أن سعادة الإنسان في حرصه على ما ينفعه في معاشه ومعاده، والحرص: هو بذل الجهد واستفراغ الوسع، فإذا صادف ما ينتفع به الحريص كان حرصه محموداً. وكماله كله في مجموع هذين الأمرين: أن يكون حريصاً، وأن يكون حرصه على ما ينتفع به، فإن

حرص على ما لا ينفعه، أو فعل ما ينفعه من غير حرص: فاته من الكمال بقدر ما فاته من ذلك، فالخير كله في الحرص على ما ينفع.

ولما كان حرص الإنسان وفعله إنما هو بمعونة الله ومشيئته وتوفيقه: أمره أن يستعين بالله ليجتمع له مقام ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ فإن حرصه على ما ينفعه عبادة لله تعالى. ولا يتم إلا بمعونته، فأمره أن يعبده ويستعين به. فالحريص على ما ينفعه المستعين بالله، ضد العاجز، فهذا إرشاد له قبل وقوع المقدور إلى ما هو من أعظم أسباب حصوله، وهو الحرص عليه مع الاستعانة بمن أزمة الأمور بيده، ومصدرها منه، ومردها إليه.

فإن فاته ما لم يقدر له فله حالتان: عجز، وهو مفتاح عمل الشيطان؛ فيلقيه العجز إلى «لو» ولا فائدة من «لو» ها هنا، بل هي مفتاح اللوم والعجز والسخط والأسف والحزن، وذلك كله من عمل الشيطان، فنهاه ﷺ عن افتتاح عمله بهذا الافتتاح، وأمره بالحالة الثانية، وهي النظر إلى القدر وملاحظته، وأنه لو قدر له: لم يفته ولم يغلبه عليه أحد، فلم يبق له هاهنا أنفع من شهود القدر، ومشيئة الرب النافذة التي توجب وجوب المقدور، وإن انتفت امتنع وجوده، ولهذا قال: «**فإن غلبك أمر فلا تقل: لو أني فعلت لكان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل**» فأرشده إلى ما ينفعه في الحالتين: حَالة حصول المطلوب، وحالة فواته، فلهذا كان هذا الحديث مما لايستغني عنه العبد أبداً، بل هو أشد إليه ضرورة، وهو يتضمن إثبات القدر، والكسب والاختيار، والقيام بالعبودية ظاهراً وباطناً في حالتي حصول المطلوب وعدمه، وبالله التوفيق.

فيه مسائل :

الأولى : تفسير الآيتين في آل عمران .

الثانية : النهي الصريح عن قول : «لو» إذا أصابك شيء .

الثالثة : تعليل المسألة بأن ذلك يفتح عمل الشيطان .

الرابعة : الإرشاد إلى الكلام الحسن .

الخامسة : الأمر بالحرص على ما ينفع ، مع الاستعانة بالله .

السادسة : النهي عن ضد ذلك ، وهو العجز .

باب النهي عن سب الريح

عن أُبَي بن كعب رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «لا تَسبُّوا الريح، فإذا رأيتم ما تكرهون فقولوا: اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح وخير ما فيها، وخير ما أُمرتْ به، ونعوذ بك من شر هذه الريح وشر ما فيها، وشر ما أُمرت به» صححه الترمذي.

قوله: «باب النهي عن سب الريح».

عن أُبَي بن كعب رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: لا تَسبُّوا الريح، فإذا رأيتم ما تكرهون فقولوا: اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح وخير ما فيها، وخير ما أُمرت به، ونعوذ بك من شر هذه الريح وشر ما فيها، وشر ما أُمرت به» صححه الترمذي.

لأنها ـ أي الريح ـ إنما تهب عن إيجاد الله تعالى وخلقه لها، وأَمره، لأَنه هو الذي أَوجدها وأَمرها، فمسبتها مسبة للفاعل، وهو الله سبحانه، كما تقدَّم في النهي عن سب الدهر، وهذا يشبهه، ولا يفعله إلا أَهل الجهل بالله ودينه، وبما شرعه لعباده.

فنهى ﷺ أهل الإيمان عما يقوله أَهل الجهل والجفاء، وأَرشدهم إلى ما يجب أَن يُقال عند هبوب الرياح، فقال: «**إذا رأيتم ما تكرهون فقولوا: اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح وخير ما فيها وخير ما أُمرت به**» يعني إذا رأيتم ما تكرهون من الريح إذا هبت، فارجعوا إلى ربكم بالتوحيد وقولوا: «**اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح وخير ما فيها**،

وخير ما أُمرت به، ونعوذ بك من شر هذه الريح وشر ما فيها وشر ما أُمرت به». ففي هذا عبودية لله، وطاعة له ولرسوله، واستدفاع للشرور به، وتعرض لفضله ونعمته، وهذه حال أهل التوحيد والإيمان، خلافاً لحال أَهل الفسوق والعصيان الذين حرموا ذوق طعم التوحيد الذي هو حقيقة الإيمان.

فيه مسائل :

الأولى: النهي عن سبّ الريح.

الثانيـة: الإرشاد إلى الكلام النافع إذا رأى الإنسان ما يكره.

الثالثـة: الإرشاد إلى أنها مأمورة.

الرابعة: أنها قد تؤمر بخير، وقد تؤمر بشر.

باب قول الله تعالى:

﴿ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ ﴾ [آل عمران]

وقوله: ﴿ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ ﴾ [الفتح: ٦]

قال ابن القيم في الآية الأولى: فُسر هذا الظنُّ بأنه سبحانه لا يَنصُرُ رسوله، وأن أمره سيضمحلُّ، وفسر بأن ما أصابه لم يكن بقَدر الله وحكمته، ففسر بإنكار الحكمة، وإنكار القدر، وإنكار أن يتم أَمرُ رسوله، وأن يظهره الله على الدين كله، وهذا هو ظنُّ السوء الذي ظن المنافقون والمشركون في سورة الفتح، وإنما كان هذا ظن السوء لأنه ظن غير ما يليقُ به سبحانه، وما يليقُ بحكمته وحمده ووعده الصادق، فمن ظن أنه يُديلُ الباطل على الحقِّ إدالةً مستقرة يضمحلُّ معها الحق، أو أنكر أن يكونَ ما جَرَى بقضائه وقدره، أو أَنكر أن يكون قَدرُه لحكمة بالغة يستحق عليها

الحمد، بل زَعَم أن ذلك لمشيئةٍ مجرَّدة. فذلك ظن الذين كفروا، فويلٌ للذين كفروا من النار.

وأكثر الناس يظنون بالله ظَنَّ السوء فيمايختصُّ بهم، وفيما يَفْعله بغيرهم، ولا يَسْلَمُ من ذلك إلا مَنْ عَرَف الله وأسماءه وصفاته، وموجِبَ حكمته وحمده، فَلْيَعْتَنِ اللبيبُ الناصحُ لنفسه بهذا، ولْيَتُبْ إلى الله، وَلْيَسْتَغْفِرْهُ من ظنه بربه ظَنَّ السوء. ولو فتَّشتَ من فَتَّشْتَ لرأيت عنده تَعَنتاً على القَدَر وملامَةً له، وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا. فمُسْتَقِلٌّ ومستكثر، وفَتّش نفسك: هل أَنتَ سالم؟

فإن تَنْجُ منها تَنْجُ من ذي عظيمةٍ
وإلا فإنـــي لا إخـــالك ناجـــياً

قوله: «باب قول الله تعالى: ﴿ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٍ﴾ الآية.

هذه الآية ذكرها الله تعالى في سياق قوله تعالى في ذكر وقعة أُحد: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغۡشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمۡ﴾ يعني أهل الإيمان والثبات والتوكل الصادق، وهم الجازمون بأن الله تعالى ينصر رسوله ﷺ، وينجز له مأموله، ولهذا قال: ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾ يعني لا يغشاهم النعاس من الجزع والقلق والخوف ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِ﴾ كما قال تعالى: ﴿ بَلۡ ظَنَنتُمۡ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهۡلِيهِمۡ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمۡ وَظَنَنتُمۡ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِ وَكُنتُمۡ قَوۡمَۢا بُورًا ﴿١٢﴾﴾

[الفتح: ١٢] وهكذا هؤلاء اعتقدوا أَن المشركين لما ظهروا تلك الساعة ظنوا أَنها الفيصلة، وأَن الإِسلام قد باد وأَهله، وهذا شأن أَهل الريب والشك إذا حصل أَمر من الأُمور الشنيعة.

عن ابن جريج قال: قيل: لعبدالله بن أُبي: «قُتِل بنو الخزرج اليوم؟ قال: وهل لنا من الأَمر من شيء؟».

قال العلاَّمة ابن القيم رحمه الله تعالى في الكلام على ما تضمنته وقعة أُحد: وقد فسّر هذا الظن الذي لايليق بالله سبحانه بأَنه لا ينصر رسوله، وأَن أَمره سيضمحل، وأَنه يسلمه للقتل، وفسر بظنهم أَن ما أَصابهم لم يكن بقضاء الله وقدره، ولا حكمة له فيه، ففسر بإِنكار الحكمة، وإِنكار القدر، وإِنكار أَن يتم أَمر رسوله ﷺ، وأَن يظهره على الدِّين كله، وهذا هو ظن السوء الذي ظنه المنافقون والمشركون في سورة الفتح حيث يقول: ﴿ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ۝٦ ﴾ [الفتح: ٦] وإنما كان هذا هو ظن السوء وظن الجاهلية ـ وهو المنسوب إلى أَهل الجهل ـ وظن غير الحق، لأَنه ظن غير ما يليق بأَسمائه الحسنى وصفاته العليا وذاته المبرأة من كل عيب وسوءٍ، وخلاف ما يليق بحكمته وحمده وتفرده بالربوبية والإِلـٰهية، وما يليق بوعده الصادق الذي لا يخلفه، وبكلمته التي سبقت لرسله أَنه ينصرهم ولايخذلهم، ولجنده بأَنهم هم الغالبون.

فمن ظن به أنه لا ينصر رسوله ولا يتم أَمره ولا يؤيده ويؤيد حزبه ويعليهم ويظفرهم بأَعدائهم ويظهرهم، وأَنه لاينصر دينه وكتابه، وأَنه يُديل الشرك على التوحيد، والباطل على الحق إدالة مستقرة، يضمحل معها التوحيد والحق اضمحلالاً لايقوم بعده أَبداً: فقد ظن بالله ظن

السوء، ونسبه إلى خلاف ما يليق بجلاله وكماله وصفاته ونعوته، فإن حمده وعزته وحكمته وإلٰهيته تأبى ذلك، وتأبى أن يُذل حزبه وجنده، وأن تكون النصرة المستقرة والظفر الدائم لأعدائه المشركين به العادلين به، فمن ظن به ذلك: فما عرفه ولا عرف أسماءه ولا عرف صفاته وكماله، وكذلك من أنكر أن يكون ذلك بقضائه وقدره، فما عرفه ولا عرف ربوبيته وملكه وعظمته، وكذلك من أنكر أن يكون قَدّر ما قدّره من ذلك وغيره لحكمة بالغة وغاية محمودة يستحق الحمد عليها، وأن ذلك إنما صدر عن مشيئة مجردة، عن حكمة وغاية مطلوبه هي أحب إليه من فواتها، وأن تلك الأسباب المكروهة له المفضية إليها لا يخرج تقديرها عن الحكمة لإفضائها إلى ما يحب وإن كانت مكروهة له، فما قدرها سدى ولا شاءها عبثاً، ولا خلقها باطلاً: ﴿ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [ص: ٢٧].

وأكثر الناس يظنون بالله غير الحق ظن السوء فيما يختص بهم، وفيما يفعله بغيرهم، ولا يسلم من ذلك إلا من عرف الله وعرف أسماءه وصفاته، وعرف موجب حكمته وحمده، فمن قنط من رحمته وأيس من روحه: فقد ظن به ظن السوء، ومن جوّزَ عليه أن يعذب أولياءه مع إحسانهم وإخلاصهم، ويسوي بينهم وبين أعدائه: فقد ظن به ظن السوء، ومن ظن أنه يترك خلقه سُدىً معطلين عن الأمر والنهي، لايرسل إليهم رسله ولاينزل عليهم كتبه، بل يتركهم هَمَلاً كالأنعام. فقد ظن به ظن السوء. ومن ظن أنه لن يجمع عبيده بعد موتهم للثواب والعقاب في دار يجازي المحسن فيها بإحسانه، ويبين لخلقه حقيقة ما اختلفوا فيه، ويظهر للعالمين، كلهم صدقه وصدق رسله، وأن أعداءه كانوا هم الكاذبين. فقد ظن به ظن السوء، ومن ظن أنه يضيع عليه

عمله الصالح الذي عمله خالصاً لوجهه على امتثال أَمره، ويبطله عليه بلا سبب من العبد، وأَنه يعاقبه بما لا صنع له فيه ولا اختيار له ولا قدرة ولا إرادة له في حصوله، بل يعاقبه على فعله هو سبحانه به، أَو ظن به أَنه يجوز عليه أَن يؤيد أَعداءه الكاذبين عليه بالمعجزات التي يؤيد بها أَنبياءه ورسله، ويجريها على أَيديهم ليضلوا بها عباده، وأَنه يحسن منه كل شيء حتى تعذيب من أَفنى عمره في طاعته، فيخلده في الجحيم في أَسفل سافلين، وينعم من استنفد عمره في عداوته وعداوة رسله ودينه فيرفعه إلى أعلىٰ عليين، وكلا الأَمرين في الحسن عنده سواء، ولا يعرف امتناع أَحدهما ووقوع الآخر إلاَّ بخبر صادق، وإلاَّ فالعقل لا يقضي بقبح أَحدهما وحسن الآخر: فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن أَنه أَخبر عن نفسه وصفاته وأَفعاله بما ظاهره باطل وتشبيه وتمثيل، وترك الحق لم يخبر به وإنَّما رمز إليه رموزاً بعيدة، وأَشار إليه إشارات ملغزة ولم يصرح به وصرح دائماً بالتشبيه والتمثيل والباطل، وأَراد من خلقه أَن يتعبوا أَذهانهم وقواهم وأَفكارهم في تحريف كلامه عن مواضعه، وتأويله على غير تأويله، ويتطلبوا له وجوه الاحتمالات المستكرهة والتأويلات التي هي بالألغاز والأحاجي أَشبه منها بالكشف والبيان، وأَحالهم في معرفة أَسمائه وصفاته على عقولهم وآرائهم لا على كتابه. بل أَراد منهم أَن لا يحملوا كلامه على ما يعرفونه من خطابهم ولغتهم، مع قدرته على أَن يصرح لهم بالحق الذي ينبغي التصريح به، ويريحهم من الألفاظ التي توقعهم في اعتقاد الباطل فلم يفعل، بل سلك بهم خلاف طريق الهدى والبيان: فقد ظن به ظن السوء، فإنه إن قال: إنه غير قادر على التعبير عن الحق باللفظ الصريح الذي عبر به هو وسلفه: فقد ظن بقدرته العجز، وإن قال: إنه قادر،

ولم يبين وعدل عن البيان وعن التصريح بالحق إلى ما يوهم، بل يوقع في الباطل المحال، والاعتقاد الفاسد: فقد ظن بحكمته ورحمته ظن السوء.

ومن ظن أنه هو وسلفه عبَّروا عن الحق بصريحه دون الله ورسوله، وأَن الهدى والحق في كلامهم وعباراتهم، وأَما كلام الله فإنما يؤخذ من ظاهره التشبيه والتمثيل والضلال، وظاهر كلام المتَهَوِّكين والحيارَى هو الهدى والحق، فهذا من أسوإ الظن بالله.

فكل هؤلاء من الظانين بالله ظن السوء، ومن الظانين بالله غير الحق ظن الجاهلية.

ومن ظن به أَن يكون في مُلكه ما لا يشاء، ولا يقدر على إيجاده وتكوينه؛ فقد ظن بالله ظن السوء.

ومن ظن أنه كان معطلاً من الأزل إلى الأبد عن أَن يفعل، ولا يوصف حينئذ بالقدرة على الفعل، ثم صار قادراً عليه بعد أَن لم يكن قادراً؛ فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن به أَنه لا يسمع ولا يبصر، ولا يعلم الموجودات، ولا عدد السموات ولاالنجوم ولا بني آدم وحركاتهم وأَفعالهم، ولا يعلم شيئاً من الموجودات في الأَعيان؛ فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن به أَنه لا سمع له ولا بصر، ولا علم ولا إرادة، ولا كلام يقوم به، وأَنه لايكلم أَحداً من الخلق ولا يتكلم أَبداً، ولا قال ولا يقول، ولا له أَمر ولا نهي يقوم به؛ فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن به أَنه ليس فوق سمواته على عرشه بائن من خلقه، وأَن نسبة ذاته إلى عرشه كنسبتها إلى أَسفل سافلين، وإلى الأَمكنة التي يرغب عن ذكرها، وأَنه أَسفل كما أَنه أَعلى، وأَن من قال: سبحان ربي

الأَسفل كان كمن قال؛ سبحان ربي الأعلى؛ فقد ظن به أَقبح الظن وأَسوأه.

ومن ظن أَنه يحب الكفر والفسوق والعصيان، ويحب الفساد كما يحب الإِيمان والبر والطاعة والإِصلاح؛ فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن به أَنه لا يحب ولا يرضى، ولا يغضب ولا يسخط، ولا يوالي ولا يعادي، ولا يقرب من أَحد من خلقه، ولا يقرب منه أَحد، وأَن ذوات الشياطين في القرب من ذاته كذوات الملائكة المقربين وأَوليائه المفلحين، فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن به أَنه يسوي بين المتضادين، أَو يفرق بين المتساويين من كل وجه، أَو يحبط طاعات العمر المديد الخالصة الصواب بكبيرة واحدة تكون بعدها، فيخلد فاعل تلك الطاعات في الجحيم أَبد الآبدين بتلك الكبيرة، ويحبط بها جميع طاعاته ويخلد في العذاب، كما يخلد من لم يؤمن به طرفة عين، واستنفد ساعات عمره في مساخطة ومعاداة رسله ودينه؛ فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن به أَن له ولداً أَو شريكاً، أَو أَن أَحداً يشفع عنده بدون إِذنه، أَو أَن بينه وبين خلقه وسائط يرفعون حوائجهم إِليه، وأَنه نصب لعبادة أَولياء من دونه يتقربون بهم إِليه، ويتوصلون بهم إِليه، ويجعلونهم وسائط بينه وبينهم، فيدعونهم ويخافونهم؛ فقد ظن به أَقبح الظن وأَسوأه.

ومن ظن به أَنه ينال ماعنده بمعصيته ومخالفته، كما يناله بطاعته والتقرب إِليه؛ فقد ظن به خلاف حكمته، وخلاف موجب أَسمائه وصفاته، وهو من ظن السوء.

ومن ظن به أَنه إِذا ترك شيئاً من أَجله لم يعوضه خيراً منه، أَو من

فعل شيئاً لأَجله لم يعطه أَفضل منه؛ فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن به أَنه يغضب على عبده ويعاقبه ويحرمه بغير جرم ولا سبب من العبد، إلا بمجرد المشيئة ومحض الإرادة؛ فقد ظن به ظن السوء.

ومن ظن به أنه إذا صدَّقه في الرغبة والرهبة، وتضرع إليه وسأله، واستعان به وتوكل عليه أَنه يخيبه ولا يعطيه ما سأله؛ فقد ظن به ظن السوء، وظن به خلاف ما هو أَهله.

ومن ظن أَنه يثيبه إذا عصاه كما يثيبه إذا أَطاعه، وسأله ذلك في دعائه؛ فقد ظن به خلاف ماتقتضيه حكمته وحمده، وخلاف ما هو أَهله وما لا يفعله.

ومن ظن به أَنه إذا أَغضبه وأَسخطه وأَوضع في معاصيه، ثم اتخذ من دونه أَولياء، ودعا من دونه ملكاً أَو بشراً حياً أَو ميتاً يرجو بذلك أَن ينفعه عند ربه، ويخلصه من عذابه؛ فقد ظن به ظن السوء.

فأَكثر الخلق بل كلهم ـ إلاَّ من شاء الله ـ يظنون بالله غير الحق وظن السوء؛ فإن غالب بني آدم يعتقد أَنه مبخوس الحق ناقص الحظ، وأَنه يستحق فوق ما شاءه الله وأَعطاه ولسان حاله يقول: ظلمني ربي، ومنعني ما أَستحقه، ونفسه تشهد عليه بذلك، وهو بلسانه ينكره ولا يتجاسر على التصريح به، ومن فتش نفسه وتغلغل في معرفة طواياها رأى ذلك فيها كامناً كمون النار في الزناد، فاقدح زناد من شئت ينبئك شراره عما في زناده، ولو فتشت من فتشت لرأيت عنده تعنُّتاً ـ وتعتباً ـ على القدر وملامة له، واقتراحاً عليه خلاف ماجرى به، وأَنه كان ينبغي أَن يكون كذا وكذا، فمستقل ومستكثر، وفتش نفسك: هل أَنت سالم من ذلك؟

فإن تنج منها تنج من ذي عظيمة　　وإلا فإنِّي لا إخالك ناجياً

فليعتنِ اللبيب الناصح لنفسه بهذا الموضع، وَلْيَتُبْ إلى الله ويستغفره في كل وقت من ظنه بربه ظن السوء، وليظن السوء بنفسه التي هي مادة كل سوء، ومنبع كل شر، المركبة على الجهل والظلم، فهي أولى بظن السوء من أحكم الحاكمين، وأعدل العادلين، وأرحم الراحمين، الغني الحميد، الذي له الغنى التام، والحمد التام، والحكمة التامة، المنزه عن كل سوءٍ في ذاته وصفاته، وأفعاله وأسمائه، فذاته لها الكمال المطلق من كل وجه، وصفاته كذلك، وأفعاله كلها حكمة ومصلحة، ورحمة وعدل، وأسماؤه كلها حسنى.

فلا تَظُنن بربك ظنّ سوءٍ　　فإن الله أولى بالجميل
ولا تظنن بنفسك قَطُّ خيراً　　فكيف بظالم جانٍ جهول
وقل: يا نفس مأوى كل سوءٍ　　أترجو الخير من ميت بخيل؟
وظُنَّ بنفسك السوأى تجدها　　كذاك، وخيرها كالمستحيل
وما بك من تُقى فيها وخير　　فتلك مواهب الرب الجليل
وليس لها ولا منها، ولكن　　من الرحمن، فاشكر للدليل

قوله: «**الظَّانِّين بالله ظن السوء**» قال ابن جرير في «تفسيره» ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾: الظانين بالله أنه لن ينصرك وأهل الإيمان بك على أعدائك، ولن يظهر كلمته، فيجعلها العليا على كلمة الكافرين به، وذلك كان السوء من ظنونهم التي ذكرها الله في هذا الموضع. يقول تعالى ذكره على المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الذين ظنوا هذا الظن دائرة السوء. يعني دائرة العذاب تدور عليهم به.

واختلف القراء في قراءة ذلك. فقرأته عامة قراء الكوفة: ﴿دَائِرَةُ

السَّوْءِ﴾ بفتح السين، وقرأ بعض قراء البصرة ﴿دَائِرَةُ السُّوْءِ﴾ بالضم. وكان الفراء يقول: الفتح أَفشى في السين. وقلَّ ما تقول العرب ﴿دَائِرَةُ السُّوْءِ﴾ بضم السين.

وقوله: ﴿وَغَضِبَ الله عَلَيْهِم وَلَعَنَهُم﴾ يعني ونالهم الله بغضب منه ولعنهم يقول: وأبعدهم فأَقصاهم من رحمته ﴿وأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ﴾ يقول: وأَعد لهم جهنم يصلونها يوم القيامة ﴿وَسَآءَتْ مَصِيراً﴾ يقول: وساءت جهنم منزلاً يصير إليه هؤلاء المنافقون والمنافقات والمشركون والمشركات.

وقال العماد ابن كثير رحمه الله تعالى: ﴿ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ ﴾ أي: يتهمون الله في حكمه، ويظنون بالرسول ﷺ وأصحابه أن يُقتلوا ويذهبوا بالكلية، ولهذا قال تعالى: ﴿عَلَيْهِم دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ وذكر في معنى الآية الأخرى نحواً مما ذكره ابن جرير رحمهما الله تعالى.

قوله: «**قال ابن القيم رحمه الله تعالى**» الذي ذكره المصنف في المتن قدمته لاندراجه في كلامه الذي سقته من أوله إلى آخره.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية آل عمران.

الثانيـة: تفسير آية الفتح.

الثالثـة: الإِخبار بأَنَّ ذلك أَنواعُ لاتُحْصرَ.

الرابعة: أنه لا يسلمُ من ذلك إلا من عرف الأَسماء والصفات وعَرفَ نفسه.

باب ماجاء في منكري القدر

قوله: «باب ما جاء في منكري القدر».

أي: من الوعيد الشديد، ونحو ذلك.

أَخرج أَبو داود عن عبدالعزيز بن أَبي حازم عن أَبيه عن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «**القدرية مجوس هذه الأمة، إن مرضوا فلا تعودُوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم**».

وعن عمر مولى غُفرة عن رجل من الأنصار عن حذيفة ـ وهو ابن اليمان ـ رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لكل أمة مجوس، ومجوس هذه الأمة الذين يقولون: لا قدر، من مات منهم فلا تشهدوا جنازته، ومن مرض منهم فلا تعودوه، وهم شيعة الدجال، وحق على الله أن يلحقهم بالدجال».

وقال ابن عمر: «والذي نفس ابن عمر بيده، لو كانَ لأحدهم مثل أُحدٍ ذهباً ثم أَنفقه في سبيل الله ما قَبِله الله منه، حتى يُؤمِنَ بالقدَر، ثم استدل بقول النبي ﷺ: «الإِيمان أَنْ تؤمنَ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقَدَرِ خَيرِه وشَره» رواه مسلم.

قوله: «**وقال ابن عمر: والذي نفسي بيده... إلخ**» حديث ابن عمر هذا أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه عن يحيى بن يعمر قال: «كان أَول منْ تكلم في القدر بالبصرة معبد الجهني، فانطلقت أَنا وحميد بن عبدالرحمن الحميري حاجَّين، أَو معتمرين،

فقلنا: لو لقينا أَحداً من أَصحاب رسول الله ﷺ فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر؟ فَوَفَّق الله تعالى لنا عبدالله بن عمر داخلاً في المسجد، فاكتنفته أَنا وصاحبي، فظننت أَن صاحبي سيكِل الكلام إِليَّ، فقلت: أَبا عبدالرحمن، إِنه قد ظهر قبلنا أُناس يقرؤون القرآن، ويتقفرون العلم يزعمون أَن لا قدر، وأَن الأمر أُنُف، فقال: إِذا لقيتَ أُولئك فأَخبرهم أَني منهم بريء، وأَنهم مني برآء، والذي يحلف به عبدالله بن عمر، لو أَن لأحدهم مثل أحد ذهباً فأنفقه في سبيل الله ما قبله الله منه، حتى يؤمن بالقدر.

ثم قال: حدَّثني عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر لا يُرَى عليه أَثر السفر، ولا يعرفه منا أَحد، حتى جلس إلى النبي ﷺ فأسند رُكبتيه إلى ركبتيه، ووضع كفيه على فخذيه، وقال: يا محمد، أَخبرني عن الإِسلام، قال رسول الله ﷺ: **الإِسلام أَن تشهد أَن لا إله إلا الله وأَن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً**، قال: صدقت. فعجبنا له يسأله ويصدقه، قال: فأَخبرني عن الإِيمان، قال: **أَن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره**، قال: صدقت، قال: فأَخبرني عن الإِحسان، قال: **أَن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**. قال: فأَخبرني عن الساعة، قال: **ما المسؤول عنها بأَعلم من السائل**. قال: فأَخبرني عن أماراتها قال: **أن تَلد الأَمَةُ ربتها، وأَن تَرى الحُفاة العُراة العالة رعاءَ الشاءِ يتطاولون في البنيان**. قال: فانطلق. فلبثت ثلاثاً ـ وفي رواية: ملياً ـ ثم قال: **يا عمر، أتدري من السائل؟** قلتُ: الله ورسوله أعلم، قال: **فإنه**

جبريل أتاكم يعلمكم دينكم».

ففي هذا الحديث أن الإيمان بالقدر من أُصول الإيمان الستة المذكورة، فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره فقد ترك أَصلاً من أُصول الدين وجحده، فيشبه من قال الله فيهم: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾.

وعن عُبادة بن الصامِت أنه قال لابنه: «يا بُنَيَّ، إنك لن تَجِدَ طَعْمَ الإِيمان حتى تَعلمَ أَنَّ ما أَصابكَ لم يَكُنْ لِيُخْطِئَك، وما أَخطأك لم يكن لِيصِيبكَ، سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن أَولَ ما خَلَقَ الله القَلَمَ، فقال له: اكتب، فقال: رَبِّ، وماذا أَكتبُ؟ قال: اكتب مقادير كُلِّ شيء حتى تقوم الساعة، يا بُنَيَّ، سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: من ماتَ على غيرِ هذا فليس مني».

وفي رواية لأحمد: «إن أَوَّلَ ما خلق الله تعالى القلم، فقال له: اكتب، فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة».

وفي رواية لابن وهب قال رسول الله ﷺ: «فمن لم يؤمن بالقدر خَيرِه وشره: أَحْرقَه الله بالنار».

قوله: «وعن عبادة» قد تقدم ذكره في باب فضل التوحيد، وحديثه هذا رواه أبو داود، ورواه الإمام أحمد بكماله، قال: حدَّثنا الحسن بن سوار، حدَّثنا ليث، عن معاوية، عن أَيوب بن زياد، حدَّثني عبادة بن

الوليد بن عبادة، حدَّثني أَبي قال: «دخلت على عبادة وهو مريض أَتخايل فيه الموت، فقلت: يا أَبتاه أَوصني واجتهد لي، فقال: أَجلسوني. قال: يا بنيَ إنك لن تجد طعم الإيمان، ولن تبلغ حقيقة العلم بالله حتى تؤمن بالقدر خيره وشره، قلت: يا أَبتاه فكيف لي أن أَعلم ما خير القدر وشره؟ قال: تعلم أَن ما أَخطأك لم يكن ليصيبك، وما أَصابك لم يكن ليخطئك، يا بني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن أَول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب، فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة**»، يا بنيّ، إن مت ولست على ذلك دخلت النار». ورواه الترمذي بسنده المتصل إلى عطاء بن أبي رباح عن الوليد بن عبادة عن أَبيه، وقال: حسن صحيح غريب.

وفي هذا الحديث ونحوه: بيان شمول علم الله تعالى وإحاطته بما كان وما يكون في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق: ١٢].

وقد قال الإمام أَحمد رحمه الله لما سئل عن القدر؟ قال: «القدر قدرة الرحمن» واستحسن ابن عقيل هذا من أحمد رحمه الله.

والمعنى: أنه لا يمنع عن قدرة الله شيء. ونفاة القدر قد جحدوا كمال قدرة الله تعالى، فضلوا عن سواء السبيل.

وقد قال بعض السلف: ناظروهم بالعلم، فإن أَقروا به خُصموا، وإن جحدوه كفروا.

وفي «المسند» و«السنن» عن ابن الديلمي قال: «أتيت أُبَي بن كعب فقلت: في نفسي شيء من القدَر، فحدَّثني

بشيء لعل الله يُذهبه من قلبي، فقال: لو أَنفقت مثل أُحد ذهباً ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر، وتعلم أن ما أَصابك لم يكن ليخطئك، وما أَخطأك لم يكن ليصيبك، ولو مُتَّ على غير هذا لكنت من أَهل النار، قال: فأتيت عبدالله بن مسعود، وحذيفة بن اليمان، وزيد بن ثابت، فكلهم حدَّثني بمثل ذلك عن النبي ﷺ» حديث صحيح. رواه الحاكم في «صحيحه».

قوله: «وفي «المسند» و«سنن أبي داود» عن ابن الديلمي» وهو أبو بسر ـ بالسين المهملة، وبالباء المضمومة. ويقال: أَبو بشر ـ بالشين المعجمة وكسر الباء ـ وبعضهم صحح الأول، واسمه عبدالله بن فيروز.

ولفظ أبي داود قال: «**لو أن الله عذَّب أَهل سمواته وأَهل أَرضه، عذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم لكانت رحمته خيراً لهم من أَعمالهم، ولو أَنفقت مثل أُحد ذهباً ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر، وتعلم أَن ما أَصابك لم يكن ليخطئك وما أَخطأك لم يكن ليصيبك، ولو مت على غير هذا لكنت من أَهل النار.** قال: فأَتيتُ عبدَ الله بن مسعود فقال مثل ذلك، ثم أَتيت حذيفة بن اليمان فقال مثل ذلك، قال: ثم أَتيت زيد بن ثابت، قال: فحدَّثني عن النبي ﷺ مثل ذلك» وأخرجه ابن ماجه.

وقال العماد ابن كثير رحمه الله: عن سفيان عن منصور عن ربعي بن حراش عن رجل عن علي بن أَبي طالب رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأَربع: يشهد أن لا إله إلا الله، وأني**

رسول الله بعثني بالحق، ويؤمن بالبعث بعد الموت، ويؤمن بالقدر خيره وشره» وكذا رواه الترمذي عن النضر بن شميل عن شعبة عن منصور به. ورواه من حديث أبي داود الطيالسي عن شعبة عن ربعي عن علي، فذكره.

وقد ثبت في «صحيح مسلم» من رواية عبدالله بن وهب وغيره عن أَبي هانىء الخولاني، عن أَبي عبدالرحمن الحُبْلي عن عبدالله بن عمرو، قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين أَلف سنة** ؛ زاد ابن وهب ـ: **وكان عرشه على الماء»** ورواه الترمذي، وقال: حديث حسن غريب.

وكل هذه الأحاديث وما في معناها فيها الوعيد الشديد على عدم الإيمان بالقدر، وهي الحجة على نفاة القدر من المعتزلة وغيرهم، ومن مذهبهم: تخليد أَهل المعاصي في النار. وهذا الذي اعتقدوه من أَكبر الكبائر، وأَعظم المعاصي.

وفي الحقيقة إذا اعتبرنا إقامة الحجة عليهم بما تواترت به نصوص الكتاب والسنة من إثبات القدر، قد حكموا على أنفسهم بالخلود في النار إن لم يتوبوا، وهذا لازم لهم على مذهبهم هذا، وقد خالفوا ما تواترت به أَدلة الكتاب والسنة من إثبات القدر، وعدم تخليد أَهل الكبائر من الموحدين في النار.

فيه مسائل :

الأولى: بيان فرض الإيمان بالقدر.

الثانية: بيان كيفية الإيمان.

الثالثة: إحباط عمل من لم يؤمن به.

الرابعة: الاخبار أن أحداً لا يجد طعم الإيمان حتى يؤمن به.

الخامسة: ذكر أول ما خلق الله.

السادسة: أنه جرى بالمقادير في تلك الساعة إلى قيام الساعة.

السابعة: براءته ﷺ ممن لم يؤمن به.

الثامنة: عادةُ السلف في إزالة الشبهة بسؤال العلماء.

التاسعة: أن العلماء أجابوه بما يزيل شبهته، وذلك أنهم نسبوا الكلام إلى رسول الله ﷺ فقط.

باب ما جاء في المصورين

عن أبي هريرة رضي الله عنه: قال: قال رسول الله ﷺ: قال الله تعالى: «ومن أَظلم ممن ذهب يخلقُ كخلقي، فليخلقوا ذَرَّة أو ليخلقوا حبة، أو ليخلقوا شعيرة» أخرجاه.

ولهما عن عائشة رضي الله عنها: أَن رسول الله ﷺ قال: «أشدُّ الناس عذاباً يوم القيامة الذين يضاهئون بخلق الله».

ولهما عن ابن عباس: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «كل مصوِّرٍ في النار، يُجعل له بكل صورة صوَّرها نفسٌ يعذب بها في جهنم».

ولهما عنه مرفوعاً «من صور صورة في الدنيا كُلِّف أن ينفخ فيها الروح، وليس بنافخ».

قوله: «باب ما جاء في المصورين»

أي: من عظيم عقوبة الله لهم وعذابه. وقد ذكر النبي ﷺ العلة: وهي المضاهاة بخلق الله؛ لأن الله تعالى له الخلق والأمر، فهو رب كل شيء ومليكه، وهو خالق كل شيء، وهو الذي صوَّر جميع المخلوقات، وجعل فيها الأرواح التي تحصل بها الحياة، كما قال الله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ

وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝٩﴾ [السجدة: ٧ ـ ٩] فالمصور لما صور الصورة على شكل ما خلقه الله تعالى من إنسان وبهيمة صار مضاهياً لخلق الله. فصار ما صوره عذاباً له يوم القيامة، وكلف أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ. فكان أشد الناس عذاباً؛ لأن ذنبه من أكبر الذنوب.

فإذا كان هذا فيمن صور صورة على مثال ما خلقه الله تعالى من الحيوان، فكيف بحال من سوَّى المخلوق برب العالمين، وشبهه بخلقه، وصرف له شيئاً من العبادة التي ما خلق الله الخلق إلا ليعبدوه وحده بما لا يستحقه غيره من كل عمل يحبه الله من العبد ويرضاه؟ فتسوية المخلوق بالخالق بصرف حقه لمن لا يستحقه من خلقه، وجعله شريكاً له فيما اختص به تعالى وتقدس: هو أعظم ذنب عُصي الله تعالى به. ولهذا أرسل رسله، وأنزل كتبه؛ لبيان هذا الشرك والنهي عنه، وإخلاص العبادة بجميع أنواعها لله تعالى. فنجى الله تعالى رسله ومن أطاعهم، وأهلك من جحد التوحيد، واستمر على الشرك والتنديد، فما أعظمه من ذنب: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦] ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ۝٣١﴾ [الحج: ٣١].

ولمسلم عن أَبي الهيَّاج قال: «قل لي عليٌّ: ألا أبْعثُك على ما بَعَثني عليه رسول الله ﷺ؟ أن لا تَدَعَ صورَة إلا طَمَسْتها، ولا قَبْراً مُشرِفاً إلا سَوَّيْته».

قوله: «ولمسلم عن أبي الهياج الأسدي ـ حيان بن حصين ـ قال: قال لي

علي رضي الله عنه» هو أَمير المؤمنين علي بن أَبي طالب رضي الله عنه.

قوله: «**ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ؟ أن لا تدع صورة إلا طمستها، ولا قبراً مشرفاً إلا سويته**».

فيه: تصريح بأن النبي ﷺ بعث علياً لذلك. أَما الصور: فلمضاهاتها لخلق الله. وأما تسوية القبور: فلما في تعليتها من الفتنة بأربابها وتعظيمها، وهو من ذرائع الشرك ووسائله، فصرف الهمم إلى هذا وأمثاله من مصالح الدِّين ومقاصده وواجباته، ولما وقع التساهل في هذه الأمور وقع المحذور، وعظمت الفتنة بأَرباب القبور، وصارت محطاً لرحال العابدين المعظمين لها، فصرفوا لها جلّ العبادة: من الدعاء والاستعانة والاستغاثة والتضرع لها، والذبح لها، والنذور، وغير ذلك من كل شرك محظور.

قال العلامة ابن القيم رحمه الله: ومن جمع بين سنة رسول الله ﷺ في القبور وما أمر به، ونهى عنه، وما كان عليه أَصحابه، وبين ما عليه أَكثر الناس اليوم. رأى أحدهما مضاداً للآخر، مناقضاً له، بحيث لا يجتمعان أَبداً.

فنهى رسول الله ﷺ عن الصلاة إلى القبور، وهؤلاء يصلون عندها وإليها.

ونهى عن اتخاذها مساجد وهؤلاء يبنون عليها المساجد ويسمونها مشاهد مضاهاة لبيوت الله.

ونهى عن إيقاد السرج عليها، وهؤلاء يوقفون الوقوف على إيقاد القناديل عليها.

ونهى عن أن تتخذ عيداً، وهؤلاء يتخذونها أعياداً ومناسك، ويجتمعون لها كاجتماعهم للعيد أو أَكثر.

وأمر بتسويتها، كما روى مسلم في «صحيحه» عن أبي الهياج الأسدي ـ فذكر حديث الباب ـ.

وحديث ثمامة بن شُفَي وهو عند مسلم أيضاً، قال: «كنا مع فَضالة بن عُبيد بأرض الروم برودس، فتُوُفِّي صاحب لنا، فأمر فضالة بقبره فسوِّي، ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يأمر بتسويتها».

وهؤلاء يبالغون في مخالفة هذين الحديثين، ويرفعونها عن الأرض كالبيت ويعقدون عليها القباب.

ونهى عن تجصيص القبر والبناء عليه، كما روى مسلم في «صحيحه» عن جابر رضي الله عنه قال: «**نهى رسول الله ﷺ عن تجصيص القبر، وأن يقعد عليه، وأن يبنى عليه**».

ونهى عن الكتابة عليه، كما روى أبو داود في «سننه» عن جابر: أن رسول الله ﷺ: «**نهى عن تجصيص القبور، وأن يكتب عليها**» قال الترمذي: حديث حسن صحيح. وهؤلاء يتخذون عليها الألواح، ويكتبون عليها القرآن وغيره.

ونهى أن يزاد عليها غير ترابها، كما روى أبو داود عن جابر أيضاً: أن رسول الله ﷺ: «**نهى أن يجصص القبر، أو يكتب عليه، أو يزاد عليه**» وهؤلاء يزيدون عليه الآجر والجص والأحجار.

قال إبراهيم النخعي: كانوا يكرهون الآجر على قبورهم.

والمقصود: أن هؤلاء المعظمين للقبور المتخذينها أَعياداً، الموقدين عليها السرج، الذين يبنون عليها المساجد والقباب مناقضون لما أَمر به رسول الله ﷺ محادون لما جاء به، وأَعظم ذلك اتخاذها مساجد، وإيقاد السرج عليها، وهو من الكبائر. وقد صرح الفقهاء من أَصحاب أَحمد وغيرهم بتحريمه.

قال أبو محمد المقدسي: ولو أُبيح اتخاذ السرج عليها لم يلعن من فعله، ولأن فيه تضييعاً للمال في غير فائدة، وإفراطاً في تعظيم القبور أشبه تعظيم الأصنام. قال: ولايجوز اتخاذ المساجد على القبور لهذا الخبر، ولأن النبي ﷺ قال: «**لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، يحذّر ما صنعوا**» متفق عليه. ولأن تجصيص القبور بالصلاة عندها يشبه تعظيم الأصنام بالسجود لها والتقرب إليها. وقد روينا أن ابتداء عبادة الأصنام تعظيم الأموات باتخاذ صورهم، والتمسح بها، والصلاة عندها. انتهى.

وقد آل الأمر بهؤلاء الضُّلال المشركين إلى أن شرعوا للقبور حجاً، ووضعوا لها مناسك، حتى صنف بعض غلاتهم في ذلك كتاباً وسمَّاه «مناسك حج المشاهد». مضاهاة منه القبور بالبيت الحرام، ولا يخفى أن هذا مفارقة لدين الإسلام، ودخول في دين عباد الأصنام، فانظر إلى هذا التباين العظيم بين ما شرعه رسول الله ﷺ وقصده من النهي عما تقدم ذكره في القبور، وبين ما شرعه هؤلاء وقصدوه، ولا ريب أن في ذلك من المفاسد ما يعجز عن حصره.

فمنها: تعظيم الموقع في الافتتان بها.

ومنها: اتخاذها أعياداً.

ومنها: السفر إليها.

ومنها: مشابهة عباد الأصنام بما يفعل عندها من العكوف عليها والمجاورة عندها وتعليق الستور عليها وسدانتها، وعُبّادها يرجحون المجاورة عندها على المجاورة عند المسجد الحرام، ويرون سدانتها أفضل من خدمة المساجد، والويل عندهم لقيِّمها ليلة يطفأ القنديل المعلق عليها.

ومنها: النذر لها ولسدنتها.

ومنها: اعتقاد المشركين فيها أن بها يكشف البلاء وينصر على الأعداء، ويستنزل غيث السماء، وتفرج الكروب، وتقضى الحوائج، وينصر المظلوم، ويجار الخائف إلى غير ذلك.

ومنها: الدخول في لعنة الله ورسوله، باتخاذ المساجد عليها، وإيقاد السرج عليها.

ومنها: الشرك الأكبر الذي يفعل عندها.

ومنها: إذاء أصحابها بما يفعله المشركون بقبورهم، فإنهم يؤذيهم ما يفعل عند قبورهم، ويكرهونه غاية الكراهية، كما أن المسيح عليه السلام يكره ما يفعله النصارى عند قبره، وكذلك غيره من الأنبياء والأولياء والمشايخ يؤذيهم ما يفعله أشباه النصارى عند قبورهم. ويوم القيامة يتبرؤون منهم، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٧﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٨﴾﴾ [الفرقان: ١٧-١٨] قال الله تعالى للمشركين: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ﴾ [الفرقان: ١٩]. وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ﴾ الآية [المائدة: ١١٦] وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سبأ: ٤٠-٤١].

ومنها: إماتة السنن وإحياء البدع.

ومنها: تفضيلها على خير البقاع وأحبها إلى الله، فإن عُبَّاد القبور يقصدونها مع التعظيم والاحترام، والخشوع ورقة القلب، والعكوف

بالهمة على الموتى بما لا يفعلونه في المساجد ولا يحصل لهم فيها نظيره ولا قريباً منه.

ومنها: أن الذي شرعه الرسول ﷺ عند زيارة القبور إنما هو تذكّر الآخرة، والإحسان إلى المزور بالدعاء له والترحم عليه، والاستغفار له، وسؤال العافية له: فيكون الزائر محسناً إلى نفسه وإلى الميت. فقلَب هؤلاء المشركون الأمر، وعكسوا الدين وجعلوا المقصود بالزيارة الشرك بالميت، ودعاءه والدعاء به، وسؤاله حوائجهم، واستنزال البركة منه، ونصره لهم على الأعداء، ونحو ذلك، فصاروا مسيئين إلى أنفسهم وإلى الميت.

وكان رسول الله ﷺ قد نهى الرجال عن زيارة القبور سداً للذريعة. فلما تمكن التوحيد في قلوبهم أذن لهم في زيارتها على الوجه الذي شرعه، ونهاهم أن يقولوا هُجراً، ومن أعظم الهجر: الشرك عندها قولاً وفعلاً.

وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: **«زوروا القبور، فإنها تذكِّر الموت»**.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «مر رسول الله ﷺ بقبور المدينة، فأقبل عليهم بوجهه، فقال: **السلام عليكم يا أهل القبور، يغفر الله لنا ولكم، أنتم سلفنا ونحن بالأثر**» رواه أحمد والترمذي وحسنه».

فهذه الزيارة التي شرعها رسول الله ﷺ لأمته، وعلمهم إياها، هل تجد فيها شيئًا مما يعتمده أهل الشرك والبدع؟ أم تجدها مضادة لما هم عليه من كل وجه؟ وما أحسن ما قال مالك بن أنس رحمه الله: «لن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها» ولكن كلما ضعف تمسك الأمم بعهود أنبيائهم ونقص إيمانهم: عوضوا عن ذلك بما أحدثوه من

البدع والشرك.

ولقد جرد السلف الصالح التوحيد وحموا جانبه، حتى كان أحدهم إذا سلم على النبي ﷺ ثم أراد الدعاء استقبل القبلة، وجعل ظهره إلى جدار القبر، ثم دعا، ونص على ذلك الأئمة الأربعة: أنه يستقبل القبلة وقت الدعاء، حتى لا يدعو عند القبر، فإن الدعاء عبادة، وفي الترمذي وغيره «**الدعاء هو العبادة**» فجرد السلف العبادة لله ولم يفعلوا عند القبور منها إلا ما أذن فيه رسول الله ﷺ، من الدعاء لأصحابها والاستغفار لهم والترحم عليهم.

وأخرج أبو داود عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا تجعلوا بيوتكم قبوراً، ولا تجعلوا قبري عيداً، وصلوا عليَّ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم**» وإسناده جيد، ورواته ثقات مشاهير.

وقوله: «**ولا تجعلوا بيوتكم قبوراً**» أي: لا تعطلوها عن الصلاة فيها والدعاء والقراءة فتكون بمنزلة القبور، فأمر بتحري النافلة في البيوت، ونهى عن تحري النافلة عند القبور، وهذا ضد ما عليه المشركون من النصارى وأشباههم.

ثم إن في تعظيم القبور واتخاذها أعياداً من المفاسد العظيمة التي لايعلمها إلا الله ما يغضب لأجله كل من في قلبه وقار لله وغيرة على التوحيد، وتهجين وتقبيح للشرك؛ ولكن ما لجرح بميت إيلام.

فمن المفاسد: اتخاذها أعياداً، والصلاة إليها، والطواف بها، وتقبيلها، واستلامها، وتعفير الخدود على ترابها، وعبادة أصحابها، والاستغاثة بهم، وسؤالهم النصر والرزق والعافية وقضاء الدين، وتفريج الكربات، وإغاثة اللهفات، وغير ذلك من أنواع الطلبات، التي كان عباد الأوثان يسألونها أوثانهم، فلو رأيت غلاة المتخذين لها عيداً، وقد

نزلوا عن الأكوار والدواب إذا رأوها من مكان بعيد، فوضعوا لها الجباه، وقبّلوا الأرض، وكشفوا الرؤوس، وارتفعت أصواتهم بالضجيج، وتباكوا حتى تسمع لهم النشيج، ورأوا أنهم قد أربوا في الربح على الحجيج، فاستغاثوا بمن لا يبدىء ولا يعيد، ونادوا ولكن من مكان بعيد، حتى إذا دنوا منها صلوا عند القبر ركعتين، ورأوا أنهم قد أحرزوا من الأجر ولا أجر من صلى إلى القبلتين، فتراهم حول القبر ركعاً سجداً، يبتغون فضلاً من الميت ورضواناً، وقد ملؤوا أكفهم خيبة وخسراناً.

فلغير الله ـ بل للشيطان ـ ما يراق هناك من العبرات، ويرتفع من الأصوات، ويطلب من الميت من الحاجات، ويسأل من تفريج الكربات، وإغاثة اللهفات، وإغناء ذوي الفاقات، ومعافاة ذوي العاهات والبليات، ثم انثنوا بعد ذلك حول القبر طائفين، تشبيهاً له بالبيت الحرام الذي جعله الله مباركاً وهدىً للعالمين، ثم أخذوا في التقبيل والاستلام. أرأيت الحجر الأسود وما يفعل به وفد البيت الحرام؟ ثم عفروا لديه تلك الجباه والخدود، التي يعلم الله أنها لم تعفر كذلك بين يديه في السجود، ثم كملوا مناسك حج القبر بالتقصير هناك والحلاق، واستمتعوا بخلاقهم من ذلك الوثن إذ لم يكن لهم عند الله من خلاق، وقد قربوا لذلك الوثن القرابين، وكانت صلاتهم ونسكهم وقربانهم لغير الله رب العالمين، فلو رأيتهم يهنىء بعضهم بعضاً ويقول: أجزل الله لنا ولكم أجراً وافراً وحظاً، فإذا رجعوا سألهم غلاة المتخلفين أن يبيع أحدهم ثواب حجة القبر بحجة المتخلف إلى البيت الحرام، فيقول: لا، ولا بحجك كل عام.

هذا، ولم نتجاوز فيما حكيناه عنهم، ولا استقصينا جميع بدعهم

وضلالهم؛ إذ هي فوق ما يخطر بالبال، ويدور في الخيال، وهذا مبدأ عبادة الأصنام في قوم نوح كما تقدم. وكل من شم أدنى رائحة من العلم والفقه يعلم أن من أهم الأمور: سد الذريعة إلى هذا المحظور، وأن صاحب الشرع أعلم بعاقبة ما نهى عنه وما يؤول إليه. وأحكم في نهيه عنه وتوعده عليه، وأن الخير والهدى في اتباعه وطاعته، والشر والضلال في معصيته ومخالفته. اهـ كلامه رحمه الله تعالى.

فيه مسائل:

الأولى: التغليظ الشديد في المصورين.

الثانية: التنبيه على العلة، وهو تركُ الأدب مع الله؛ لقوله: «ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي».

الثالثة: التنبيه على قدرته وعجزهم؛ لقوله: «فليخلقوا ذرة أو حبة أو شعيرة».

الرابعة: التصريح بأنهم أشَدُّ الناس عذاباً.

الخامسة: أن الله يخلق بعدد كل صورة نفساً يعذب بها المصور في جهنم.

السادسة: أنه يكلف أن ينفخ فيها الروح.

السابعة: الأمر بطمسها إذا وجدت.

باب ما جاء في كثرة الحلف

وقول الله تعالى: ﴿وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَـٰنَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩]

قوله: «**باب ما جاء في كثرة الحلف**» أي: من النهي عنه والوعيد، وقول الله تعالى: ﴿وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَـٰنَكُمْ﴾.

قال ابن جرير: لا تتركوها بغير تكفير. وذكر غيره من المفسرين عن ابن عباس: «يريد لا تحلفوا». وقال آخرون: احفظوا أيمانكم عن الحنث فلا تحنثوا.

والمصنف أراد من الآية المعنى الذي ذكره ابن عباس؛ فإن القولين متلازمان، فيلزم من كثرة الحلف كثرة الحنث مع ما يدل عليه من الاستخفاف، وعدم التعظيم لله، وغير ذلك مما ينافي كمال التوحيد الواجب أو عدمه.

عن أبي هريرة رضي الله عنه: قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الحلف مَنْفَقَةٌ للسِّلْعة، ممحقة للكسب» أخرجاه.

قوله: «**عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول «الحلف منفقة للسلعة، ممحقة للكسب» أخرجاه**». أي البخاري ومسلم. وأخرجه أبو داود والنسائي.

والمعنى: أنه إذا حلف على سلعته أنه أُعطي فيها كذا وكذا، أو أنه اشتراها بكذا وكذا، وقد يظنه المشتري صادقاً فيما حلف عليه، فيأخذها بزيادة على قيمتها، والبائع كذاب، وحلف طمعاً في الزيادة، فيكون قد عصى الله تعالى، فيعاقب بمحق البركة، فإذا ذهبت بركة كسبه دخل عليه من النقص أعظم من تلك الزيادة التي دخلت عليه

بسبب حلفه، وربما ذهب ثمن تلك السلعة رأساً، وما عند الله لا ينال إلا بطاعته، وإن تزخرفت الدنيا للعاصي فعاقبتها اضمحلال وذهاب وعقاب.

وعن سلمان: أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة لا يكلمهم الله ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: أُشَيْمِط زانٍ، وعائلٌ مستكبرٌ، ورجل جعل الله بضاعته، لايشتري إلا بيمينه، ولا يبيع إلا بيمينه» رواه الطبراني بسند صحيح.

قوله: «وعن سلمان رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة لايكلمهم الله ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: أشيمط زان، وعائل مستكبر، ورجل جعل الله بضاعته، لا يشتري إلا بيمينه، ولا يبيع إلا بيمينه» رواه الطبراني بسند صحيح».

و «سلمان» لعله سلمان الفارسي، أبو عبدالله، أسلم مقدم النبي ﷺ المدينة وشهد الخندق، روى عنه أبو عثمان النهدي، وشرحبيل بن السمط، وغيرهما. قال النبي ﷺ: **«سلمان منا أهل البيت، إن الله يحب من أصحابي أربعة: علياً، وأبا ذر، وسلمان، والمقداد»** أخرجه الترمذي وابن ماجه.

قال الحسن: كان سلمان أميراً على ثلاثين ألفاً يخطب بهم في عباءة يفترش نصفها ويلبس نصفها، توفي في خلافة عثمان رضي الله عنه. قال أبو عبيدة: سنة ست وثلاثين عن ثلاثمائة وخمسين سنة. ويحتمل أنه سلمان ابن عامر بن أوس الضبي.

قوله: «ثلاثة لا يكلمهم الله» نفي كلام الرب تعالى وتقدس عن هؤلاء

العصاة دليل على أنه يكلم من أطاعه، وأن الكلام صفة من صفات كماله، والأدلة على ذلك من الكتاب والسنة أظهر شيء وأبينه، وهذا هو الذي عليه أَهل السنة والجماعة من المحققين قيام الأفعال بالله سبحانه، وأَن الفعل يقع بمشيئته تعالى وقدرته شيئاً فشيئاً ولم يزل متصفاً به، فهو حادث الآحاد، قديم النوع، كما يقول ذلك أَئمة أَصحاب الحديث وغيرهم من أصحاب الشافعي وأحمد وسائر الطوائف، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢] فأتى بالحروف الدالة على الاستقبال والأفعال الدالة على الحال والاستقبال أيضاً، وذلك في القرآن كثير.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: فإذا قالوا لنا ـ يعني النفاة ـ فهذا يلزمه أن تكون الحوادث قائمة به؟ قلنا: ومن أنكر هذا قبلكم من السلف والأَئمة؟ ونصوص القرآن والسنة تتضمن ذلك مع صريح العقل. ولفظ الحوادث مجمل، فقد يراد به الأعراض والنقائص، والله تعالى منزه عن ذلك ـ ولكن يقوم به ما يشاء من كلامه وأفعاله ونحو ذلك، مما دل عليه الكتاب والسنة، والقول الصحيح: هو قول أهل العلم والحديث الذين يقولون: لم يزل الله متكلماً إذا شاء. كما قال ابن المبارك وأحمد بن حنبل وغيرهما من أئمة السنة. اهـ.

قلت: ومعنى قيام الحوادث به تعالى: قدرته عليها، وإيجاده لها بمشيئته وأمره، والله أعلم.

قوله: «**ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم**» لما عظم ذنبهم عظمت عقوبتهم، فعوقبوا بهذه الثلاث التي هي أعظم العقوبات.

قوله: «**أشيمط زان**» صغره تحقيراً له وذلك لأن داعي المعصية ضعف في حقه، فدل على أن الحامل له على الزنا: محبة المعصية والفجور،

وعدم خوفه من الله. وضعف الداعي إلى المعصية مع فعلها يوجب تغليظ العقوبة عليه. بخلاف الشاب؛ فإن قوة داعي الشهوة منه قد تغلبه مع خوفه من الله، وقد يرجع على نفسه بالندم، ولومها على المعصية، فينتهي ويراجع.

وكذا العائل المستكبر ليس له ما يدعوه إلى الكبر، لأن الداعي إلى الكبر في الغالب كثرة المال والنعم والرياسة. والعائل الفقير لا داعي له إلى أن يستكبر، فاستكباره مع عدم الداعي إليه يدل على أن الكبر طبيعة له، كامن في قلبه، فعظمت عقوبته؛ لعدم الداعي إلى هذا الخلق الذميم، الذي هو من أكبر المعاصي.

قوله : «**ورجل جعل الله بضاعته**» بنصب الإسم الشريف، أي الحلف به، جعله بضاعته، لملازمته له وغلبته عليه. وهذه أعمال تدل على أن صاحبها إن كان موحداً فتوحيده ضعيف، وأعماله ضعيفة، بحسب ما قام بقلبه وظهر على لسانه وعمله من تلك المعاصي العظيمة على قلة الداعي إليها، نسأل الله السلامة والعافية، ونعوذ بالله من كل عمل لا يحبه ربنا ولا يرضاه.

وفي «الصحيح» عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خير أُمتي قرني، ثم الذين يَلُونهم، ثم الذين يلونهم ـ قال عمران: فلا أدري: أذكر بعد قرنه مرتين أو ثلاثاً؟ ثم إن بعدكم قومٌ يشهدون ولا يُسْتَشهدون، ويخونون ولا يُؤتمنون، وينذرون ولا يوفون، ويظهر فيهم السِّمَن».

قوله : «**وفي «الصحيح**» أي «صحيح مسلم» وأخرجه أبو داود والترمذي ورواه البخاري بلفظ «خيركم».

قوله : «**عن عمران بن حصين رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «خير أمتي قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم ـ قال عمران: فلا أَدري أَذكر بعد قرنه مرتين أَو ثلاثاً، ثم إن بعدكم قوماً يشهدون ولا يستشهدون، ويخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يوفون، ويظهر فيهم السمن**».

قوله : «**خير أمتي قرني**» لفضيلة أهل ذلك القرن في العلم والإيمان، والأعمال الصالحة التي يتنافس فيها المتنافسون، ويتفاضل فيها العاملون فغلب الخير فيها وكثر أَهله، وقلّ الشر فيها وأَهله، واعتز فيها الإسلام والإيمان، وكثر فيها العلم والعلماء «**ثم الذين يلونهم**» فضّلوا على من بعدهم لظهور الإسلام فيهم وكثرة الداعي إليه، والراغب فيه والقائم به، وما ظهر فيه من البدع أُنكر واستعظم وأُزيل، كبدعة الخوارج والقدرية والرافضة، فهذه البدع وإن كانت قد ظهرت، فأهلها في غاية الذل والمقت والهوان والقتل فيمن عاند منهم ولم يتب.

قوله : «**فلا أَدري أذكر بعد قرنه مرتين أو ثلاثاً؟**» هذا شك من راوي الحديث عمران بن حصين رضي الله عنه. والمشهور في الروايات: أن القرون المفضلة ثلاثة، الثالث دون الأولين في الفضل: لكثرة البدع فيه، لكن العلماء متوافرون، والإسلام فيه ظاهر، والجهاد فيه قائم، ثم ذكر ما وقع بعد القرون الثلاثة من الجفاء في الدِّين، وكثرة الأَهواء.

فقال: «**ثم إن بعدكم قوماً يشهدون ولايستشهدون**» لاستخفافهم بأَمر الشهادة، وعدم تحريهم للصدق، وذلك لقلة دينهم، وضعف إسلامهم.

قوله: «**ويخونون ولا يؤتمنون**» يدل على أن الخيانة قد غلبت على كثير

منهم أو أكثرهم.

قوله: «**وينذرون ولا يوفون**» أي لا يؤدون ماوجب عليهم، فظهور هذه الأعمال الذميمة يدل على ضعف إسلامهم وعدم إيمانهم.

قوله: «**ويظهر فيهم السمن**» لرغبتهم في الدنيا، ونيل شهواتهم والتنعم بها وغفلتهم عن الدار الآخرة والعمل لها.

وفي حديث أَنس «**لا يأتي على الناس زمان إلا والذي بعده شر منه حتى تلقوا ربكم**» قال أنس: سمعته من نبيكم ﷺ، فما زال الشر يزيد في الأمة، حتى ظهر الشرك والبدع في كثير منهم، حتى فيمن ينتسب إلى العلم ويتصدَّر للتعليم والتصنيف.

قلت: بل قد دعوا إلى الشرك والضلال والبدع، وصنفوا في ذلك نظماً ونثراً، فنعوذ بالله من موجبات غضبه.

وفيه عن ابن مسعود: أن النبي ﷺ قال: «خير الناس قَرْني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء قوم تَسْبق شهادةُ أَحدهم يَمِينَه، ويمينُه شهادَتَه».

قوله: «**وفيه عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: أن النبي ﷺ قال: خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء قوم تسبق شهادةُ أَحدهم يمينَه، ويمينُه شهادتَه**».

قلت: وهذه حال من صرف رغبته إلى الدنيا ونسي المعاد، فخف أَمر الشهادة واليمين عنده تحملاً وأداءً: لقلة خوفه من الله وعدم مبالاته بذلك، وهذا هو الغالب على الأَكثر، والله المستعان، فإذا كان هذا قد وقع في صدر الإسلام الأَول فما بعده أَكثر بأَضعاف. فكن من الناس

على حذر.

وقال إبراهيم: كانوا يضربوننا على الشهادة والعهد ونحن صغار.

قوله: «قال إبراهيم ـ هو النخعي ـ كانوا يضربوننا على الشهادة والعهد ونحن صغار» وذلك لكثرة علم التابعين، وقوة إيمانهم ومعرفتهم بربهم، وقيامهم بوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأَنه من أَفضل الجهاد، ولا يقوم الدين إلا به، وفي هذا الرغبة في تمرين الصغار على طاعة ربهم ونهيهم عما يضرهم، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

فيه مسائل:

الأولى: الوصية بحفظ الأَيمان.

الثانية: الإِخبار بأن الحلف منفقة للسلعة، ممحقة للبركة.

الثالثة: الوعيد الشديد فيمن لا يبيع ولا يشتري إلا بيمينه.

الرابعة: التنبيه على أَن الذنب يعظم مع قلة الداعي.

الخامسة: ذَمُّ الذين يحلفون ولا يستحلفون.

السادسة: ثناؤه ﷺ على القرون الثلاثة أَو الأربعة، وذكر ما يحدث.

السابعة: ذَمُّ الذين يشهدون ولا يستشهدون.

الثامنة: كون السلف يضربون الصغار على الشهادة والعهد.

باب ما جاء في ذمة الله وذمة نبيه

وقوله : ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾﴾ [النحل: ٩١]

قوله : «باب ما جاء في وذمة الله وذمة رسوله». وقول الله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾﴾ **الآية.**

قال العماد ابن كثير: وهذا مما يأمر الله تعالى به، وهو الوفاء بالعهود والمواثيق، والمحافظة على الأيمان المؤكدة. ولهذا قال: ﴿وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ ولا تعارض بين هذا وقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٤] وبين قوله: ﴿ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ أي لا تتركوها بلا تكفير. وبين قوله ﷺ في «الصحيحين» «**إني والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيراً منها إلا أتيت الذي هو خير منها وتحللتها** ـ وفي رواية ـ **وكفّرت عن يميني**» لا تعارض بين هذا كله وبين الآية المذكورة هنا وهي: ﴿وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ لأن هذه الأيمان المراد بها: الداخلة في العهود والمواثيق، لا الأيمان الواردة على حث أو منع، ولهذا قال مجاهد في الآية: يعني الحلف أي حلف الجاهلية.

ويؤيده ما رواه الإمام أحمد عن جبير بن مطعم قال: قال رسول الله ﷺ: «**لا حلف في الإسلام وأيما حلف كان في الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدة**» وكذا رواه مسلم، ومعناه أن الإسلام لا يحتاج معه

إلى الحلف الذي كان أَهل الجاهلية يفعلونه، فإن في التمسك بالإسلام كفاية عما كانوا فيه.

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا تَفۡعَلُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ تهديد ووعيد لمن نقض الأيمان بعد توكيدها.

وعن بُريدة قال: «كان رسول الله ﷺ، إذا أَمَّر أَميراً على جيش أو سَرِيَّة، أَوصاه بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيراً، فقال: اغزوا بسم الله، في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تَغُلُّوا ولا تَغدِروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليداً. وإذا لقيت عدوَّك من المشركين، فادعهم إلى ثلاث خصال ـ أو خلال ـ فأَيتهن ما أَجابوك فاقْبل منهم وكف عنهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، فإن أَجابوك فاقْبل منهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأَخبرهم أَنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين، وعليهم ما على المهاجرين، فإن أَبوا أَن يتحولوا منها فأَخبرهم أَنهم يكونون كأَعراب المسلمين، يجري عليهم حكم الله تعالى، ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء، إلا أَن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أَبَوْا فاسألهم الجزية، فإن هم أَجابوك فاقبل منهم وكُفَّ عنهم، فإن هم أَبوا فاستعن بالله، وقاتلهم، وإذا حاصرت أَهل حصن فأَرادوك أَن تجعل لهم

ذمة الله وذمة نبيه، فلا تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أَصحابك؛ فإنكم إن تخفروا ذممكم وذمة أَصحابكم، أَهْوَنُ من أَن تخفروا ذمة الله وذمة نبيه، وإذا حاصرت أَهل حصن فأَرادوك أَن تنزلهم على حُكم الله، فلا تنزلهم، ولكن أَنزلهم على حكمك، فإنك لا تدري، أَتصيب فيهم حكم الله أم لا؟» رواه مسلم.

قوله : «**عن بُريدة**» هو ابن الحُصيب الأسلمي، وهذا الحديث من رواية ابنه سليمان عنه. قاله في «المفهم».

قوله : «**قال: كان رسول الله ﷺ إذا أَمّر أَميراً على جيش أَو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله تعالى**» فيه من الفقه: تأمير الأمراء، ووصيتهم.

قال الحربي: السرية: الخيل تبلغ أربعمائة ونحوها، والجيش: ما كان أَكثر من ذلك، وتقوى الله: التحرز بطاعته من عقوبته.

قلت: وذلك بالعمل بما أَمر الله به والانتهاء عما نهى عنه.

قوله : «**ومن معه من المسلمين خيراً**» أي ووصاه بمن معه أَن يفعل معهم خيراً: من الرفق بهم، والإحسان إليهم، وخفض الجناح لهم، وترك التعاظم عليهم.

قوله : «**اغزوا باسم الله**» هذا أَي اشرعوا في فعل الغزو مستعينين بالله مخلصين له. قلت: فتكون الباء في «بسم الله» هنا للاستعانة والتوكل على الله.

قوله : «**قاتلوا من كفر بالله**» هذا العموم يشمل جميع أَهل الكفر المحاربين وغيرهم، وقد خصص منهم من له عهد، والرهبان

والنسوان، ومن لم يبلغ الحلم، وقد قال متصلاً به: «**ولا تقتلوا وليداً**» وإنما نهى عن قتل الرهبان والنسوان؛ لأنه لايكون منهم قتال غالباً. وإن كان منهم قتال أو تدبير قتلوا.

قلت: وكذلك الذراري والأولاد.

قوله : «**ولا تَغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا**» الغلول الأخذ من الغنيمة من غير قسمتها. والغدر: نقض العهد. والتمثيل هنا: التشويه بالقتيل، كقطع أنفه وأُذنه والعبث به. ولا خلاف في تحريم الغلول والغدر، وفي تحريم المثلة.

قوله : «**وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خلال ـ أو خصال**» الرواية بالشك وهو من بعض الرواة. ومعنى الخلال والخصال واحد.

قوله : «**فأيتهن ما أَجابوك فاقبل منهم وكفّ عنهم**» قيدناه عمن يوثق بعلمه وتقييده بنصب «**أيتهن**» على أن يعمل فيها «**أجابوك**» لا على إسقاط حرف الجر. و«ما» زائدة، ويكون تقدير الكلام: فإلى أيتهن أَجابوك فاقبل منهم. كما تقول: جئتك إلى كذا وفي كذا. فيعدى إلى الثاني بحرف الجر.

قلت: فيكون في ناصب «**أيتهن**» وجهان: ذكرهما الشارح. الأول: منصوب على الاشتغال. والثاني: على نزع الخافض.

قوله : «**ثم ادعهم إلى الإسلام**» كذا وقعت الرواية في جميع نسخ كتاب مسلم «ثم ادعهم» بزيادة «ثم» والصواب إسقاطها. كما روي في غير كتاب مسلم، كـ «مصنف أبي داود»، و«كتاب الأموال» لأبي عبيد؛ لأَن ذلك هو ابتداء تفسير الثلاث الخصال.

قوله : «**ثم ادعهم إلى التحول إلى دار المهاجرين**» يعني المدينة، وكان

في أول الأمر وجوب الهجرة إلى المدينة على كل من دخل في الإسلام، وهذا يدل على أن الهجرة واجبة على كل من آمن من أهل مكة وغيرهم.

قوله: **«فإن أبوا أن يتحولوا»** يعني: أن من أسلم ولم يهاجر ولم يجاهد لا يُعطى من الخمس ولا من الفيء شيئاً.

وقد أخذ الشافعي رحمه الله بالحديث في الأعراب، فلم ير لهم من الفيء شيئاً، وإنما لهم الصدقة المأخوذة من أغنيائهم فترد على فقرائهم، كما أن أهل الجهاد وأجناد المسلمين لا حق لهم في الصدقة عنده، ومصرف كل مال في أهله، وسوّى مالك رحمه الله وأبو حنيفة رحمه الله بين المالين، وجوّزا صرفهما للضعيف.

قوله: **«فإن هم أبوا فاسألهم الجزية»** فيه: حجة لمالك وأصحابه، والأوزاعي في أخذ الجزية من كل كافر: عربياً كان أو غيره، كتابياً كان أو غيره.

وذهب أبو حنيفة رحمه الله إلى أنها تؤخذ من الجميع، إلا من مشركي العرب ومجوسهم. وقال الشافعي: لا تؤخذ إلا من أهل الكتاب؛ عرباً كانوا أو عجماً، وهو قول الإمام أحمد في ظاهر مذهبه، وتؤخذ من المجوس.

قلت: لأن النبي ﷺ أخذها منهم، وقال: **«سنوا بهم سنة أهل الكتاب»**.

وقد اختلفوا في القدر المفروض من الجزية. فقال مالك: أربعة دنانير على أهل الذهب، وأربعون درهماً على أهل الورِق. وهل ينقص منها الضعيف أو لا؟ قولان. وقال الشافعي: فيه دينار على الغني والفقير. وقال أبوحنيفة رحمه الله والكوفيون: على الغني ثمانية

وأَربعون درهماً، والوسط أَربعة وعشرون درهماً، والفقير اثنا عشر درهماً، وهو قول أَحمد بن حنبل رحمه الله.

قال يحيى بن يوسف الصرصري الحنبلي رحمه الله:

وقاتــل يهـوداً والنصـارى وعصبة الـ
مجوس، فإن هم سلموا الجزية اصدد

على الأدون اثني عشر درهماً افرضــن
وأربعــة مــن بعــد عشريــن زيـــد

لأوسطهــم حــالاً، ومن كان موسـراً
ثمـــانيـــة مـع أَربعـــين لتنــقــد

وتسقـــط عن صبيانهـــم ونسائهـــم
وشـــيخ لهـم فانٍ وأَعمـى ومقعـــد

وذي الفقــر والمجــنون أو عبد مسلم
ومـن وجبــت منهــم علــيه فيهــتدي

وعند مالك وكافة العلماء: على الرجال الأحرار البالغين العقلاء دون غيرهم، وإنما تؤخذ ممن كان تحت قهر المسلمين، لا ممن نأى بداره، ويجب تحويلهم إلى بلاد المسلمين أو حربهم.

قوله: «**وإذا حاصرت أَهل حصن**» الكلام إلى آخره فيه حجة لمن يقول من الفقهاء وأَهل الأصول: إن المصيب في مسائل الاجتهاد واحد، وهو المعروف من مذهب مالك وغيره، ووجه الاستدلال به: أنه ﷺ قد نص على أَن الله تعالى قد حكم حكماً معيناً في المجتهدات. فمن وافقه فهو المصيب، ومن لم يوافقه فهو المخطىء.

قوله: «**وإذا حاصرت أهل حصن فأَرادوك أَن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه...**» الحديث. الذمة: العهد، وتخفر: تنقض، يقال: أَخفرت

الرجل: إذا نقضت عهده، وخفرته: أجرته، ومعناه: أنه خاف من نقض من لم يعرف حق الوفاء بالعهد، كجملة الأعراب: فكأنه يقول: إن وقع نقض من متعد معتد كان نقض عهد الخلق أهون من نقض عهد الله تعالى، والله أعلم.

قوله: «**وقول نافع وقد سئل عن الدعوة قبل القتال**، ذكر فيه: أن مذهب مالك يجمع بين الأحاديث في الدعوة قبل القتال. قال: وهو أن مالكاً قال: لا يقاتل الكفار قبل أن يُدْعَوا، ولا تلتمس غرتهم إلا أن يكونوا قد بلغتهم الدعوة، فيجوز أن تلتمس غرتهم. وهذا الذي صار إليه مالك هو الصحيح؛ لأن فائدة الدعوة أن يعرف العدو أن المسلمين لا يقاتلون للدنيا ولا للعصبية، وإنما يقاتلون للدين، فإذا علموا بذلك أمكن أن يكون ذلك سبباً مميلاً لهم إلى الانقياد إلى الحق، بخلاف ما إذا جهلوا مقصود المسلمين، فقد يظنون أنهم يقاتلون للملك وللدنيا فيزيدون عتواً وبغضاً، والله أعلم.

فيه مسائل:

الأولى: الفرق بين ذمة الله وذمة نبيه وذمة المسلمين.

الثانية: الإرشاد إلى أقل الأمرين خطراً.

الثالثة: قوله: «اغزوا بسم الله في سبيل الله».

الرابعة: قوله: «قاتلوا من كفر بالله».

الخامسة: قوله: «استعن بالله وقاتلهم».

السادسة: الفرق بين حُكْم اللهِ وحُكْم العلماءِ.

السابعة: في كون الصحابي يحكم عند الحاجة، بحكم لايدري: أيوافق حكم الله أم لا؟

باب ما جاء في الإقسام على الله

عن جندب بن عبدالله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال رجل: واللهِ لا يغفر الله لفلان، فقال الله عز وجل: من ذا الذي يتألَّى عليَّ أن لا أَغفر لفلان؟ إني قد غفرت له، وأحبطتُ عملك» رواه مسلم.

وفي حديث أبي هريرة: «أن القائل رجل عابد، قال أبوهريرة: تكلم بكلمة أو بقت دنياه وآخرته».

قوله: «باب ما جاء في الإقسام على الله».

ذكر المصنف فيه حديث جندب بن عبدالله قال: قال رسول الله ﷺ: **«قال رجل: والله لا يغفر الله لفلان. قال الله عز وجل: من ذا الذي يتألى عليّ أن لا أغفر لفلان، إني قد غفرت له، وأحبطت عملك»** رواه مسلم.

قوله: «يتألى» أي يحلف، والألية بالتشديد: الحلف. وصح من حديث أبي هريرة. قال البغوي في «شرح السنة» ـ وساق بالسند إلى عكرمة بن عمار ـ قال: «دخلت مسجد المدينة فناداني شيخ قال: يايمامي، تعال، وما أعرفه، قال: لا تقولن لرجل: والله لا يغفر الله لك أبداً ولا يدخلك الجنة. قلت: ومن أنت يرحمك الله؟ قال: أبو هريرة، فقلت: إن هذه كلمة يقولها أحدنا لبعض أَهله إذا غضب، أو لزوجته أو لخادمه، قال: فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: **إن رجلين كانا في بني إسرائيل متحابين، أحدهما مجتهد في العبادة، والآخر؛ كأنه يقول مذنب، فجعل**

يقول: أقصر عما أنت فيه. قال فيقول: خلّني وربي، قال: فوجده يوماً على ذنب استعظمه فقال: أقصر، فقال: خلني وربي، أبعثت عليَّ رقيباً، فقال: والله لا يغفر الله لك ولا يدخلك الجنة أبداً. قال: فبعث الله إليهما ملكاً، فقبض أرواحهما، فاجتمعا عنده، فقال للمذنب: ادخل الجنة برحمتي، وقال للآخر: أتستطيع أن تحظر على عبدي رحمتي؟ قال: لا يارب، قال اذهبوا به إلى النار. قال أبو هريرة: والذي نفسي بيده، لتكلم بكلمة أو بقيت دنياه وآخرته».

ورواه أبو داود في «سننه»، وهذا لفظه عن أبي هريرة رضي الله عنه يقول «كان رجلان في بني إسرائيل متآخيين، فكان أحدهما يذنب، والآخر مجتهد في العبادة، فكان لا يزال المجتهد يرى الآخر على الذنب فيقول: أَقصر، فوجده يوماً على ذنب فقال له: أَقصر، فقال: خلني وربي، أبعثت عليّ رقيباً؟ قال: والله لا يغفر الله لك، ولا يدخلك الجنة، فقبضت أرواحهما، فاجتمعا عند رب العالمين، فقال لهذا المجتهد: أكنت بي عالماً، أو كنت على ما في يدي قادراً؟ فقال للمذنب: اذهب فادخل الجنة، وقال للآخر: اذهبوا به إلى النار».

قوله: «وفي حديث أبي هريرة أن القائل رجل عابد» يشير إلى قوله في هذا الحديث «أحدهما مجتهد في العبادة».

وفي هذه الأحاديث: بيان خطر اللسان، وذلك يفيد التحرز من الكلام، كما في حديث معاذ «قلت: يا رسول الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ قال: ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يَكُب الناس في النار على وجوههم ـ أو قال: على مناخرهم ؛ إلا حصائد ألسنتهم؟» والله أعلم.

فيه مسائل :

الأولى: التحذير من التألي على الله.

الثانية: كون النار أَقرب إلى أحدنا من شِراك نعله.

الثالثة: أن الجنة مثل ذلك.

الرابعة: فيه شاهد لقوله: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة. . .» إلخ.

الخامسة: أن الرجل قد يغفر له بسبب هو من أكره الأمور إليه.

باب لا يُستشفع بالله على خلقه

عن جُبير بن مطعم رضي الله عنه قال: «جاء أَعرابي إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، نُهِكت الأنفس، وجاع العيَال، وهَلكتِ الأموال، فاستسق لنا ربك، فإنا نستشفع بالله عليك، وبك على الله، فقال النبي ﷺ: سبحان الله سبحان الله! فما زال يسبح حتى عُرف ذلك في وجوه أَصحابه، ثم قال: ويحك، أَتدري ما الله؟ إن شأن الله أعظم من ذلك، إنه لا يُستشفع بالله على أحد» وذكر الحديث، رواه أبو داود.

قوله: «باب لا يستشفع بالله على خلقه»

وذكر الحديث وسياق أبي داود في «سننه» أتم مما ذكره المصنف رحمه الله ولفظه:

عن جبير بن محمد بن جبير بن مطعم عن أَبيه عن جده، قال: «أتى رسول الله ﷺ أعرابي فقال: يا رسول الله، جهدت الأنفس، وضاعت العيال، ونهكت الأموال، وهلكت الأنعام، فاستسق الله لنا، فإنا نستشفع بك على الله، ونستشفع بالله عليك، قال رسول الله ﷺ: **ويحك، أَتدري ما تقول؟** وسبح رسول الله ﷺ فما زال يسبح حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه، ثم قال: **ويحك، إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه، شأن الله أعظم من ذلك، ويحك، أَتدري ما الله؟ إن عرشه**

على سمواته لهكذا ـ وقال بأصابعه مثل القبة عليه ـ **وإنه ليئط به أطيط الرحل بالراكب**».

قال ابن بشار في حديثه: «**إن الله فوق عرشه، وعرشه فوق سمواته**».

قال الحافظ الذهبي: رواه أبو داود بإسناد حسن عنده في الرد على الجهمية من حديث محمد بن إسحاق بن يسار.

قوله: «**ويحك إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه**» فإنه تعالى رب كل شيء ومليكه، والخير كله بيده، لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، ولا راد لما قضى، وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض إنه كان عليماً قديراً، إنما أمره إذا أَراد شيئاً أَن يقول له: كن، فيكون، والخلق وما في أيديهم ملكه يتصرف فيهم كيف يشاء، وهو الذي يشفع الشافع إليه، ولهذا أنكر على الأعرابي.

قوله: «**وسبح الله كثيراً وعظمه**» لأن هذا القول لا يليق بالخالق سبحانه وبحمده «**إن شأن الله أعظم من ذلك**».

وفي هذا الحديث: إثبات علو الله على خلقه، وأن عرشه فوق سمواته، وفيه: تفسير الاستواء بالعلو كما فسره الصحابة والتابعون والأَئمة، خلافاً للمعطلة والجهمية والمعتزلة ومن أَخذ عنهم، كالأَشاعرة ونحوهم ممن ألحد في أَسماء الله وصفاته وصرفها عن المعنى الذي وضعت له ودلت عليه، من إثبات صفات الله تعالى التي دلت على كماله جل وعلا، كما عليه السلف الصالح والأَئمة ومن تبعهم ممن تمسك بالسنة، فإنهم أثبتوا ما أثبته الله لنفسه وأثبته له رسوله من صفات كماله، على ما يليق بجلاله وعظمته، إثباتاً بلا تمثيل، وتنزيهاً بلا تعطيل.

قال العلامة ابن القيم رحمه الله تعالى في «مفتاح دار السعادة» ـ بعد

كلام سبق فيما يُعرف العبد بنفسه وبربه من عجائب مخلوقاته ـ قال بعد ذلك:

والثاني: أن يتجاوز هذا إلى النظر بالبصيرة الباطنة، فتفتح له أبواب السماء، فيجول في أَقطارها وملكوتها وبين ملائكتها، ثم يفتح له باب بعد باب حتى ينتهي به سير القلب إلى عرش الرحمن، فينظر سعته وعظمته وجلاله ومجده ورفعته، ويرى السموات السبع والأرضين السبع بالنسبة إليه كحلقة ملقاة بأرض فلاة، ويرى الملائكة حافّين من حول العرش لهم زَجل بالتسبيح والتحميد، والتقديس والتكبير، والأمر ينزل من فوقه بتدبير المالك والجنود التي لا يعلمها إلا ربها ومليكها، فينزل الأمر بإحياء قوم وإماتة آخرين، وإعزاز قوم وإذلال آخرين، وإنشاء ملك وسلب ملك، وتحويل نعمة من محل إلى محل وقضاء الحاجات على اختلافها وتبيانها وكثرتها: من جبر كسير، وإغناء فقير، وشفاء مريض، وتفريج كرب، ومغفرة ذنب، وكشف ضر، ونصر مظلوم، وهداية حيران، وتعليم جاهل، ورَدِّ آبق، وأمان خائف، وإجارة مستجير، ومدد لضعيف، وإغاثة لملهوف، وإعانة لعاجز، وانتقام من ظالم، وكف لعدوان، فهي مراسيم دائرة بين العدل والفضل والحكمة والرحمة، تنفذ في أقطار العوالم، لا يشغله سمع شيء منها عن سمع غيره، ولا تغلطه كثرة المسائل والحوائج على اختلاف لغاتها وتبيانها واتحاد وقتها، ولا يتبرم بإلحاح الملحين، ولا تنقض ذرة من خزائنه، لا إله إلا هو العزيز الحكيم، فحينئذ يقوم القلب بين يدي الرحمن مطرقاً لهيبته خاشعاً لعظمته عانياً لعزته، فيسجد بين يدي الملك الحق المبين، سجدة لا يرفع رأسه منها إلى يوم المزيد، فهذا سفر القلب، وهو في وطنه وداره ومحل ملكه، وهذا من أَعظم آيات الله، وعجائب

صنعه، فيا له من سفر ما أَبركه وما أَروجه، وأَعظم ثمرته وربحه، وأَجل منفعته وأَحسن عاقبته، سفر هو حياة الأرواح، ومفتاح السعادة وغنيمة العقول والألباب، لا كالسفر الذي هو قطعة من العذاب. اهـ كلامه رحمه الله.

وأَما الاستشفاع بالرسول ﷺ في حياته، فالمراد به: استجلاب دعائه وليس خاصاً به ﷺ، بل كل حي صالح يرجى أن يستجاب له، فلا بأس أن يطلب منه أن يدعو للسائل بالمطالب الخاصة والعامة، كما قال النبي ﷺ لعمر لما أَراد أن يعتمر من المدينة: «**لا تنسنا يا أَخي من صالح دعائك**».

وأَما الميت: فإنما يشرع في حقه الدعاء له على جنازته وعلى قبره وفي غير ذلك. وهذا هو الذي يشرع في حق الميت، وأما دعاؤه: فلم يشرع، بل قد دل الكتاب والسنة على النهي عنه والوعيد عليه، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر: ١٣ ـ ١٤] فبين الله تعالى أن دعاء من لا يسمع ولا يستجيب شرك يكفر به المدعو يوم القيامة: أي ينكره ويعادي من فعله، كما في آية الأحقاف: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾ [الأحقاف: ٦] فكل ميت أو غائب لا يسمع ولا يستجيب ولا ينفع ولا يضر.

والصحابة رضي الله عنهم، لا سيما أَهل السوابق منهم كالخلفاء الراشدين، لم ينقل عن أحد منهم ولا عن غيرهم: أنهم أنزلوا حاجتهم بالنبي ﷺ بعد وفاته، حتى في أَوقات الجدب، كما وقع لعمر رضي الله عنه لما خرج ليستسقي بالناس خرج بالعباس عم النبي ﷺ، فأَمره أَن يستسقي لأنه حي حاضر يدعو ربه، فلو جاز أن يستسقي بأَحد بعد وفاته

لاستسقى عمر رضي الله عنه والسابقون الأولون بالنبي ﷺ.

وبهذا يظهر الفرق بين الحي والميت؛ لأن المقصود من الحي دعاؤه إذا كان حاضراً. فإنهم في الحقيقة إنما توجهوا إلى الله بطلب الدعاء ممن يدعوه ويتضرع إليه، وهم كذلك يدعون ربهم، فمن تعدَّى المشروع إلى ما لا يشرع ضل وأضل. ولو كان دعاء الميت خيراً لكان الصحابة إليه أَسبق وعليه أَحرص، وبهم أَليق، وبحقه أَعلم وأَقوم، فمن تمسك بكتاب الله نجا، ومن تركه واعتمد على عقله هلك، وبالله التوفيق.

فيه مسائل :

الأولى: إنكاره على من قال: «نستشفع بالله عليك».

الثانية: تغيره تغيراً عرف في وجوه أصحابه من هذه الكلمة.

الثالثة: أنه لم ينكر عليه قوله: «نستشفع بك على الله».

الرابعة: التنبيه على تفسير سبحان الله.

الخامسة: أن المسلمين يسألونه ﷺ الاستسقاء.

باب ما جاء في حماية النبي ﷺ حمى التوحيد وسدِّه طرق الشرك

عن عبدالله بن الشِّخِّير رضي الله عنه قال: «انطلقتُ في وفد بني عامر إلى رسول الله ﷺ، فقلنا: أنت سيدنا. فقال: السيد الله تبارك وتعالى، قلنا: وأفضلنا فضلاً، وأَعظمنا طولاً، فقال: قولوا بقولكم، أَو بعض قولكم، ولا يستجرينَّكم الشيطان» رواه أبو داود بسند جيد.

وعن أنس رضي الله عنه: «أن ناساً قالوا: يا رسول الله، يا خيرنا، وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا، فقال: يا أيها الناس، قولوا بقولكم ولا يستهوينكم الشيطان، أنا محمد عبدالله ورسوله، ما أُحب أَن ترفعوني فوق منزلتي التي أَنزلني الله عز وجل» رواه النسائي بسند جيد.

قوله: «باب ما جاء في حماية المصطفى ﷺ حمى التوحيد وسده طرق الشرك» حمايته ﷺ حمى التوحيد عما يشوبه من الأقوال والأعمال التي يضمحل معها التوحيد أو ينقص، وهذا كثير في السنة الثابتة عنه ﷺ كقوله: **«لاتطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد فقولوا: عبدالله ورسوله»** وتقدم قوله: **«إنه لا يستغاث بي، وإنما يستغاث بالله عز وجل»** ونحو ذلك.

ونهى عن التمادح وشدد القول فيه، كقوله لمن مدح إنساناً: **«ويلك**

قطعت عنق صاحبك. . .» الحديث. أخرجه أبو داود عن عبدالرحمن ابن أبي بكرة عن أبيه: «أن رجلاً أثنى على رجل عند النبي ﷺ فقال له: **قطعت عنق صاحبك ـ ثلاثاً**». وقال: «**إذا لقيتم المداحين فاحثوا في وجوههم التراب**» أخرجه مسلم والترمذي وابن ماجه عن المقداد بن الأسود.

وفي هذا الحديث «نهى عن أن يقولوا: أنت سيدنا، وقال: السيد الله تبارك وتعالى» ونهاهم أن يقولوا: «وأفضلنا فضلاً وأعظمنا طولاً» وقال: «**لايستجرينكم الشيطان**».

وكذلك قوله في حديث أنس: «أن أناساً قالوا: يا رسول الله، يا خيرنا وابن خيرنا». . . . إلخ. كره ﷺ أن يواجهوه بالمدح فيفضي بهم إلى الغلو.

وأخبر ﷺ أن مواجهة المادح للممدوح بمدحه ـ ولو بما هو فيه ـ من عمل الشيطان: لما تفضي محبة المدح إليه من تعاظم الممدوح في نفسه، وذلك ينافي كمال التوحيد؛ فإن العبادة لا تقوم إلا بقطب رحاها الذي لا تدور إلا عليه، وذلك غاية الذل في غاية المحبة، وكمال الذل يقتضي الخضوع والخشية والاستكانة لله تعالى، وأن لا يرى نفسه إلا في مقام الذم لها، والمعاتبة لها في حق ربه، وكذلك الحب لا تحصل غايته إلا إذا كان يحب ما يحبه الله، ويكره مايكرهه الله من الأقوال والأعمال والإرادات، ومحبة المدح من العبد لنفسه تخالف ما يحبه الله منه، والمادح يغره من نفسه فيكون آثماً، فمقام العبودية يقتضي كراهة المدح رأساً، والنهي عنه صيانة لهذا المقام، فمتى أخلص العبد الذل لله والمحبة له: خلصت أعماله وصحت، ومتى أدخل عليها ما يشوبها من هذه الشوائب: دخل على مقام العبودية بالنقص أو الفساد، وإذا أداه

المدح إلى التعاظم في نفسه والإعجاب بها: وقع في أمر عظيم ينافي العبودية الخاصة، كما في الحديث «**الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني شيئاً منهما عذبته**» وفي الحديث: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**».

وهذه الآفات قد تكون محبة المدح سبباً لها وسُلَّماً إليها، والعجب يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب.

وأما المادح فقد يفضي به المدح إلى أن ينزل الممدوح منزلة لا يستحقها، كما يوجد كثيراً في أشعارهم من الغلو الذي نهى عنه الرسول ﷺ وحذر أمته أن يقع منهم، فقد وقع الكثير منه حتى صرحوا فيه بالشرك في الربوبية والإلٰهية والملك، كما تقدمت الإشارة إلى شيء من ذلك. والنبي ﷺ لما أكمل الله له مقام العبودية صار يكره أن يمدح: صيانة لهذا المقام، وأرشد الأمة إلى ترك ذلك نصحاً لهم، وحماية لمقام التوحيد عن أن يدخله ما يفسده، أو يضعفه من الشرك ووسائله: ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ [البقرة: ٥٩] ورأوا أَن فعل ما نهاهم ﷺ عن فعله قربة من أفضل القربات، وحسنة من أعظم الحسنات.

وأما تسمية العبد بالسيد: فاختلف العلماء في ذلك.

قال العلاَّمة ابن القيم في «بدائع الفوائد»: اختلف الناس في جواز إطلاق السيد على البشر، فمنعه قوم، ونقل عن مالك، واحتجوا بقول النبي ﷺ لما قيل له: «يا سيدنا» قال: «**السيد الله تبارك وتعالى**» وجوّزه قوم، واحتجوا بقول النبي ﷺ للأنصار «**قوموا إلى سيدكم**» وهذا أصح من الحديث الأول. قال هؤلاء: السيد أحد ما يضاف إليه، فلا يقال للتميمي سيد كندة، ولا يقال: المَلك سيد البشر. قال: وعلى هذا فلا

يجوز أن يطلق على الله هذا الإسم، وفي هذا نظر، فإن السيد إذا أطلق عليه تعالى فهو في منزلة المالك، والمولى، والرب، لا بمعنى الذي يطلق على المخلوق. انتهى.

قلت: فقد صح عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في معنى قوله الله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا﴾ [الأنعام: ١٦٤] «أي إلـهاً وسيداً» وقال في قول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢﴾ «**أنه السيد الذي كمل في جميع أنواع السؤدد**». وقال أبو وائل «هو السيد الذي انتهى سؤدده».

وأما استدلالهم بقول النبي ﷺ للأنصار: «**قوموا إلى سيدكم**» فالظاهر: أن النبي ﷺ لم يواجه سعداً به، فيكون في هذا المقام تفصيل، والله أعلم.

فيه مسائل:

الأولى: تحذير الناس من الغلوِّ.

الثانيـة: ما ينبغي أن يقول: مَنْ قيل له: أنت سيدنا.

الثالثـة: قوله: «لايستجرينكم الشيطان» مع أنهم لم يقولوا إلا الحق.

الرابعة: قوله: «ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي».

باب ما جاء في قول الله تعالى:

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر: ٦٧]

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «جاء حَبْر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا محمد، إنَّا نجد أن الله يجعل السموات على إصبَع، والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والماء على إصبع، والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع، فيقول: أنا الملك. فضحك النبي ﷺ حتى بدَت نواجذه: تصديقاً لقول الحبر، ثم قرأ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾» متفق عليه.

وفي رواية لمسلم: «والجبال والشجر على إصبع، ثم يهزهن، فيقول: أنا الملك، أنا الله».

وفي رواية للبخاري: «يجعلُ السمواتِ على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع» أخرجاه.

قوله: «باب قول الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا

قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾».

أي من الأحاديث والآثار في معنى هذه الآية الكريمة.

قال العماد ابن كثير رحمه الله تعالى: يقول تعالى: ما قدر المشركون الله حق قدره، حتى عبدوا معه غيره، وهو العظيم الذي لا أعظم منه، القادر على كل شيء، المالك لكل شيء، وكل شيء تحت قهره وقدرته.

قال مجاهد: نزلت في قريش، وقال السُّدِّي: ما عظموه حق عظمته، وقال محمد بن كعب: لو قدروه حق قدره ما كذّبوه.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: هم الكفار الذين لم يؤمنوا بقدرة الله عليهم، فمن آمن أن الله على كل شيء قدير، فقد قدر الله حق قدره، ومن لم يؤمن بذلك فلم يقدر الله حق قدره.

وقد وردت أحاديث كثيرة متعلقة بهذه الآية، الطريق فيها وفي أَمثالها مذهب السلف، وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تحريف ـ وذكر حديث ابن مسعود كما ذكره المصنف رحمه الله في هذا الباب، قال: ورواه البخاري في غير موضع من «صحيحه»، والإمام أحمد ومسلم والترمذي والنسائي كلهم من حديث سليمان بن مهران وهو الأعمش عن إبراهيم عن عبيدة عن ابن مسعود بنحوه.

قال الإمام أحمد: حدَّثنا معاوية، حدَّثنا الأعمش، عن إبراهيم، عن علقمة، عن عبدالله قال: «جاء رجل من أَهل الكتاب إلى النبي ﷺ فقال: يا أَبا القاسم، أبلغك أن الله تعالى يجعل الخلائق على إصبع، والسموات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والثرى على إصبع، وسائر الخلائق على إصبع، فيقول: أنا الملك؟

فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقاً لقول الحبر، قال: وأنزل الله: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ الآية» وهكذا رواه البخاري ومسلم والنسائي من طرق عن الأعمش به.

وقال الإمام أحمد: حدثنا الحسين بن حسن الأشقر، حدَّثنا أبو كدينة عن عطاء عن أبي الضحى عن ابن عباس قال: «مر يهودي برسول الله ﷺ وهو جالس فقال: كيف تقول يا أبا القاسم يوم يجعل الله السموات على ذه ـ وأشار بالسبابة ـ والأرض على ذه، والجبال على ذه، وسائر الخلق على ذه؟ كل ذلك يشير بأصابعه، فأنزل الله: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾» وكذا رواه الترمذي في التفسير بسنده عن أبي الضحى مسلم بن صبيح به، وقال: حسن صحيح غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

ثم قال البخاري: حدَّثنا سعيد بن عفير، حدَّثنا الليث، حدَّثني عبدالرحمن بن خالد بن مسافر، عن ابن شهاب، عن أبي سلمة بن عبدالرحمن: أن أبا هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**يقبض الله الأرض، ويطوي السماء بيمينه، فيقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض؟**» تفرد به من هذا الوجه، ورواه مسلم من وجه آخر.

وقال البخاري في موضع آخر: حدثنا مقدم بن محمد، حدثنا عمي القاسم بن يحيى، عن عبيدالله، عن نافع، عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: إن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله تعالى يقبض يوم القيامة الأرضين على إصبع، وتكون السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك**» تفرد به أيضاً من هذا الوجه، ورواه مسلم من وجه آخر.

وقد رواه الإمام أحمد من طريق آخر بلفظ أبسط من هذا السياق وأطول فقال: حدَّثنا عفان، حدثنا حماد بن سلمة، أنبأنا إسحاق بن عبدالله بن أبي طلحة، عن عبيد الله بن مقسم، عن ابن عمر: «أن رسول

الله ﷺ قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ ورسول الله ﷺ يقول هكذا بيده يحركها، يقبل بها ويدبر، يمجد الرب تعالى نفسه: **أنا الجبار، أنا المتكبر، أنا الملك، أنا العزيز، أنا الكريم**، فرجف برسول الله ﷺ المنبر حتى قلنا: ليخرن به». اهـ.

ولمسلم عن ابن عمر مرفوعاً: «يَطْوِي الله السموات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك، أَين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ ثم يطوي الأرضين السبع، ثم يأخذهن بشماله، ثم يقول: أنا الملك، أَين الجبارون؟ أين المتكبرون؟».

وروي عن ابن عباس قال: «ماالسموات السبع والأرضون السبع في كَفِّ الرحمن إلا كخردلة في يد أحدكم».

وقال ابن جرير: حدَّثني يونس، أَخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد: حدَّثني أَبي، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما السموات السبع في الكرسي، إلا كدراهم سبعة أُلقيت في تُرْسٍ».

قال: وقال أبو ذر رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد أُلقيت

بين ظهري فَلاة من الأرض».

وعن ابن مسعود قال: «بين السماء الدنيا والتي تليها خمسمائة عام، وبين كل سماءٍ خمسمائة عام، وبين السماء السابعة والكرسي خمسمائة عام، وبين الكرسي والماء خمسمائة عام، والعرشُ فوق الماء، والله فوق العرش، لا يخفى عليه شيء من أعمالكم» أخرجه ابن مهدي عن حماد بن سلمة، عن عاصم، عن زر، عن عبدالله. ورواه بنحوه المسعودي عن عاصم عن أبي وائل عن عبدالله.

قاله الحافظ الذهبي رحمه الله تعالى. قال: وله طرق.

وعن العباس بن عبدالمطلب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «هل تدرون كم بين السماء والأرض؟ قلنا: الله ورسوله أَعلم، قال: بينهما مسيرة خمسمائة سنة، ومن كل سماء إلى سماء مسيرة خمسمائة سنة وكثف كل سماء مسيرة خمسمائة سنة، وبين السماء السابعة والعرش بحر، بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض، والله تعالى فوق ذلك، وليس يخفى عليه شيء من أَعمال بني آدم» أخرجه أبو داود وغيره.

قوله: «ولمسلم عن ابن عمر...» **الحديث**. كذا في رواية مسلم. قال الْحُمَيْدِي: وهي أَتم، وهي عند مسلم من حديث سالم عن أَبيه:

وأخرجه البخاري من حديث عبيد الله عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: «**إن الله يقبض يوم القيامة الأرضين، وتكون السماء بيمينه**» وأخرجه مسلم من حديث عبيدالله بن مقسم.

قلت: وهذه الأحاديث وما في معناها تدل على عظمة الله وعظيم قدرته وعظم مخلوقاته، وقد تعرف سبحانه وتعالى إلى عباده بصفاته، وعجائب مخلوقاته، وكلها تعرف وتدل على كماله وأنه هو المعبود وحده، لا شريك له في ربوبيته وإلهيته، وتدل على إثبات الصفات له على ما يليق بجلال الله وعظمته، إثباتاً بلا تمثيل، وتنزيهاً بلا تعطيل،وهذا هو الذي دلت عليه نصوص الكتاب والسنة وعليه سلف الأمة وأئمتها ومن تبعهم بإحسان، واقتفى أثرهم على الإسلام والإيمان.

وتأمل ما في هذه الأحاديث الصحيحة من تعظيم النبي ﷺ ربه بذكر صفات كماله على ما يليق بعظمته وجلاله وتصديقه اليهود فيما أخبروا به عن الله من الصفات التي تدل على عظمته، وتأمل ما فيها من إثبات علو الله تعالى على عرشه، ولم يقل النبي ﷺ في شيء منها: إن ظاهرها غير مراد، وإنها تدل على تشبيه صفات الله بصفات خلقه، فلو كان هذا حقاً بلغه أمينه أمته، فإن الله أكمل به الدين وأتم به النعمة فبلغ البلاغ المبين، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم إلى يوم الدين.

وتلقى الصحابة رضي الله عنهم عن نبيهم ﷺ ما وصف به ربه من صفات كماله ونعوت جلاله، فآمنوا به، وآمنوا بكتاب الله وما تضمنه من صفات ربهم جل وعلا، كما قال تعالى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧] وكذلك التابعون لهم بإحسان

وتابعوهم، والأئمة من المحدثين والفقهاء كلهم وصف الله بما وصف به نفسه، ووصفه به رسوله ﷺ، ولم يجحدوا شيئاً من الصفات، ولا قال أحد منهم: إن ظاهرها غير مراد، ولا إنه يلزم من إثباتها التشبيه، بل أنكروا على من قال ذلك غاية الإنكار، فصنفوا في رد هذه الشبهات الكبار المعروفة الموجودة بأيدي أهل السنة والجماعة.

قال شيخ الإسلام أحمد بن تيمية رحمه الله تعالى: وهذا كتاب الله من أوله إلى آخره وسنة رسوله ﷺ، وكلام الصحابة والتابعين، وكلام سائر الأئمة مملوءة، كلها بما هو نص أو ظاهر: أن الله تعالى فوق كل شيء، وأنه فوق العرش فوق السموات مستوٍ على عرشه، مثل قوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠]. وقوله تعالى: ﴿يَـٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ [آل عمران: ٥٥]. وقوله تعالى: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: ١٥٨] وقوله تعالى: ﴿ذِى ٱلْمَعَارِجِ ۝٣ تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: ٣-٤].

وقوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ [السجدة: ٥]. وقوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠].

وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَـٰوَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٩].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ۝٥٤﴾ [الأعراف: ٥٤].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ﴾ الآية [يونس: ٣]. فذكر التوحيدين في هذه الآية.

وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الرعد: ٢].

وقوله تعالى: ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾﴾ [طه: ٤ ـ ٥].

وقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴿٥٩﴾﴾ [الفرقان: ٥٨ ـ ٥٩].

وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾﴾ [السجدة: ٤ ـ ٥].

وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾﴾ [الحديد: ٤]. فذكر عموم علمه وعموم قدرته وعموم إحاطته وعموم رؤيته.

وقوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾﴾ [الملك: ١٦ ـ ١٧].

وقوله تعالى: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: ٤٢].

وقوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾﴾ [الجاثية: ٢].

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ [غافر: ٣٦ ـ ٣٧].

انتهى كلامه رحمه الله.

قلت: وقد ذكر الأئمة رحمهم الله تعالى فيما صنفوه في الرد على نفاة الصفات من الجهمية والمعتزلة والأشاعرة ونحوهم أقوال الصحابة والتابعين، فمن ذلك ما رواه الحافظ الذهبي في «كتاب العلو» وغيره بالأسانيد الصحيحة عن أم سلمة زوج النبي ﷺ: أنها قالت في قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝﴾ قالت: «الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإقرار به إيمان، والجحود به كفر» رواه ابن المنذر واللالكائي وغيرهما بأسانيد صحاح.

قال: وثبت عن سفيان بن عيينة رحمه الله تعالى: أنه قال لما سئل ربيعة بن أبي عبدالرحمن: كيف الاستواء؟ قال: الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، ومن الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التصديق».

وقال ابن وهب: كنا عند مالك فدخل رجل فقال: يا أبا عبدالله ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝﴾ كيف استوى؟ فأطرق مالك رحمه الله وأخذته الرحضاء وقال: الرحمن على العرش استوى كما وصف نفسه، ولا يقال: كيف؟ و«كيف» عنه مرفوع، وأنت صاحب بدعة، أخرجوه، رواه البيهقي بإسناد صحيح عن ابن وهب، ورواه عن يحيى بن يحيى أيضاً، ولفظه قال: «الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة».

قال الذهبي: فانظر إليهم كيف أثبتوا الاستواء لله، وأخبروا أنه معلوم لا يحتاج لفظه إلى تفسير، ونفوا عنه الكيفية.

قال البخاري في «صحيحه»: قال مجاهد ﴿ٱسْتَوَىٰ ۝﴾ علا على العرش.

وقال إسحاق بن راهويه: سمعت غير واحد من المفسرين يقول

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ أي ارتفع.

وقال محمد بن جرير الطبري في قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ أي علا وارتفع.

وشواهده في أقوال الصحابة والتابعين وأتباعهم. فمن ذلك قول عبدالله بن رواحة رضي الله عنه:

شهدت بأن وعد الله حق ... وأن النار مثوى الكافرينا
وأن العرش فوق الماء طاف ... وفوق العرش رب العالمينا
وتحمله ملائكة شداد ... ملائكة الإلٰه مسومينا

وروى الدارمي والحاكم والبيهقي بأصح إسناد إلى علي بن الحسين بن شقيق، قال: سمعت عبدالله بن المبارك يقول: نعرف ربنا بأنه فوق سبع سمواته على العرش استوى، بائن من خلقه، ولا نقول كما قالت الجهمية.

قال الدارمي: حدثنا حسن بن الصباح البزار، حدثنا علي بن الحسين بن شقيق، عن ابن المبارك: قيل له: كيف نعرف ربنا؟ قال: بأنه فوق السماء السابعة على العرش بائن من خلقه.

وقد تقدم قول الأوزاعي: كنا ـ والتابعون متوافرون ـ نقول: إن الله تعالى ذكره بائن من خلقه، ونؤمن بما وردت به السنة.

وقال أبو عمر الطلمنكي في «كتاب الأصول»: أجمع المسلمون من أهل السنة على أن الله استوى على عرشه بذاته. وقال في هذا الكتاب أيضاً: أجمع أهل السنة على أن الله تعالى استوى على عرشه على الحقيقة لا على المجاز، ثم ساق بسنده عن مالك قوله: الله في السماء، وعلمه في كل مكان، ثم قال في هذا الكتاب: أجمع المسلمون من أهل السنة أن معنى قوله: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنتُمْ﴾ ونحو

ذلك من القرآن: أن ذلك علمه، وأن الله فوق السموات بذاته مستوٍ على عرشه كيف شاء، وهذا لفظه في كتابه.

وهذا كثير في كلام الصحابة والتابعين والأَئمة، أثبتوا ما أثبته الله في كتابه على لسان رسوله على الحقيقة على ما يليق بجلال الله وعظمته، ونفوا عنه مشابهة المخلوقين، ولم يمثلوا ولم يكيفوا كما ذكرنا ذلك عنهم في هذا الباب.

وقال الحافظ: وأول وقت سمعت مقالة من أنكر أن الله فوق عرشه: هو الجعد بن درهم، وكذلك أنكر جميع الصفات، وقتله خالد بن عبدالله القسري وقصته مشهورة، فأخذ هذه المقالة عنه الجهم بن صفوان إمام الجهمية، فأظهرها واحتج لها بالشبهات، وكان ذلك في آخر عصر التابعين، فأنكر مقالته أئمة ذلك العصر، مثل الأوزاعي، وأبي حنيفة، ومالك، والليث بن سعد، والثوري، وحماد بن زيد، وحماد بن سلمة، وابن المبارك، ومن بعدهم من أئمة الهدى.

فقال الأوزاعي إمام أهل الشام على رأس الخمسين ومائة عند ظهور هذه المقالة: ما أخبرنا عبدالواسع الأبهري بسنده إلى أبي بكر البيهقي: أنبأنا أبو عبدالله الحافظ أخبرني محمد بن علي الجوهري ـ ببغداد ـ حدثنا إبراهيم بن الهيثم، حدثنا محمد بن كثير المصيصي، سمعت الأوزاعي يقول: كنا ـ والتابعون متوافرون ـ نقول: إن الله فوق عرشه، ونؤمن بما وردت به السنة من صفاته. أخرجه البيهقي في «الصفات»، ورواته أئمة ثقات.

وقال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: لله أسماء وصفات لا يسع أحداً ردها، ومن خالف بعد ثبوت الحجة عليه كفر، وأما قبل قيام الحجة فإنه يعذر بالجهل، ونثبت هذه الصفات وننفي عنه التشبيه، كما

نفى عن نفسه فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: ١١] اهـ من «فتح الباري».

قوله: «**عن العباس بن عبدالمطلب**» ساقه المصنف رحمه الله مختصراً، والذي في «سنن أبي داود»: **عن** العباس بن عبدالمطلب قال: «كنت في البطحاء في عصابة فيهم رسول الله ﷺ، فمرت بهم سحابة، فنظر إليها، فقال: **ما تسمون هذه؟** قالوا: السحاب، قال: **والمزن**. قالوا: والمزن. قال: **والعنان**. قالوا: والعنان ـ قال أبو داود: لم أتقن العنان جيداً ـ قال: **هل تدرون ما بعد ما بين السماء والأرض؟** قالوا: لا ندري، قال: **إن بعد ما بينهما إما واحدة، أو اثنتان، أو ثلاث وسبعون سنة، ثم السماء التي فوقها كذلك**، حتى عد سبع سماوات، **ثم فوق السابعة بحر بين أسفله وأعلاه مثل ما بين سماء إلى سماء، ثم فوق ذلك ثمانية أو عال، بين أظلافهم وركبهم مثل ما بين سماء إلى سماء، ثم على ظهورهم العرش، بين أسفله وأعلاه، كما بين سماء إلى سماء، ثم الله تعالى فوق ذلك**» وأخرجه الترمذي وابن ماجه، وقال الترمذي: حسن غريب، وقال الحافظ الذهبي: رواه أبو داود بإسناد حسن.

وروى الترمذي نحوه من حديث أبي هريرة وفيه «**ما بين سماء إلى سماء خمسمائة عام**» ولا منافاة بينهما؛ **لأن** تقدير ذلك بخمسمائة عام، هو على سير القافلة مثلاً، ونيف وسبعون سنة على سير البريد، لأنه يصح أن يقال: بيننا وبين مصر عشرون يوماً باعتبار سير العادة، وثلاثة أيام باعتبار سير البريد، وروى شريك بعض هذا الحديث عن سماك فوقفه، هذا آخر كلامه.

قلت: فيه التصريح بأن الله فوق عرشه كما تقدم في الآيات المحكمات، والأحاديث الصحيحة وفي كلام السلف من الصحابة

والتابعين وتابعيهم. وهذا الحديث له شواهد في الصحيحين وغيرهما، ولا عبرة بقول من ضعّفه، لكثرة شواهده التي يستحيل دفعها، وصرفها عن ظواهرها.

وهذا الحديث كأمثاله يدل على عظمة الله وكماله، وعظم مخلوقاته، وأنه المتصف بصفات الكمال التي وصف بها نفسه في كتابه، ووصفه بها رسول الله ﷺ، وعلى كمال قدرته، وأنه هو المعبود وحده لا شريك له، دون كل ما سواه. وبالله التوفيق.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾.

الثانية: أن هذه العلوم وأمثالها باقية عند اليهود الذين في زمنه ﷺ، لم ينكروها ولم يتأولوها.

الثالثة: أن الحبر لما ذكر ذلك للنبي ﷺ: صدّقه، ونزل القرآن بتقرير ذلك.

الرابعة: وقوع الضحك من رسول الله ﷺ لماذكر الحبر هذا العلم العظيم.

الخامسة: التصريح بذكر اليدين، وأن السموات في اليد اليمنى، والأرضين في الأخرى.

السادسة: التصريح بتسميتها الشمال.

السابعة: ذكر الجبارين والمتكبرين عند ذلك.

الثامنة: قوله: كخردلة في كف أحدكم.

التاسعة: عظم الكرسي بالنسبة إلى السماء.

العاشرة: عظم العرش بالنسبة إلى الكرسي.

الحادية عشرة: أن العرش غير الكرسي والماء.

الثانيـــة عشرة: كم بين كل سماءٍ إلى سماء.
الثالثـــة عشرة: كم بين السماء السابعة والكرسي.
الرابعـــة عشرة: كم بين الكرسي والماء.
الخامسة عشرة: أن العرش فوق الماء.
السادسة عشرة: أن الله فوق العرش.
السابعة عشرة : كم بين السماء والأرض.
الثامنـــة عشرة: كثف كل سماءٍ خمسمائة سنة.
التاسعة عشرة: أن البحر الذي فوق السموات أسفله وأعلاه خمسمائة سنة، والله أعلم.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

الفهـرس

الصف التصويري والإخراج **الفرقان**
مكة المكرمة: ٩٨ شارع العزيزية العام مقابل مكتبة ابن زيدون ت: ٥٥٦٤٨٦٠
الرياض: ت ٤٠٤٣٧٣٢ فاكس ٤٠٤٣٧٨٧